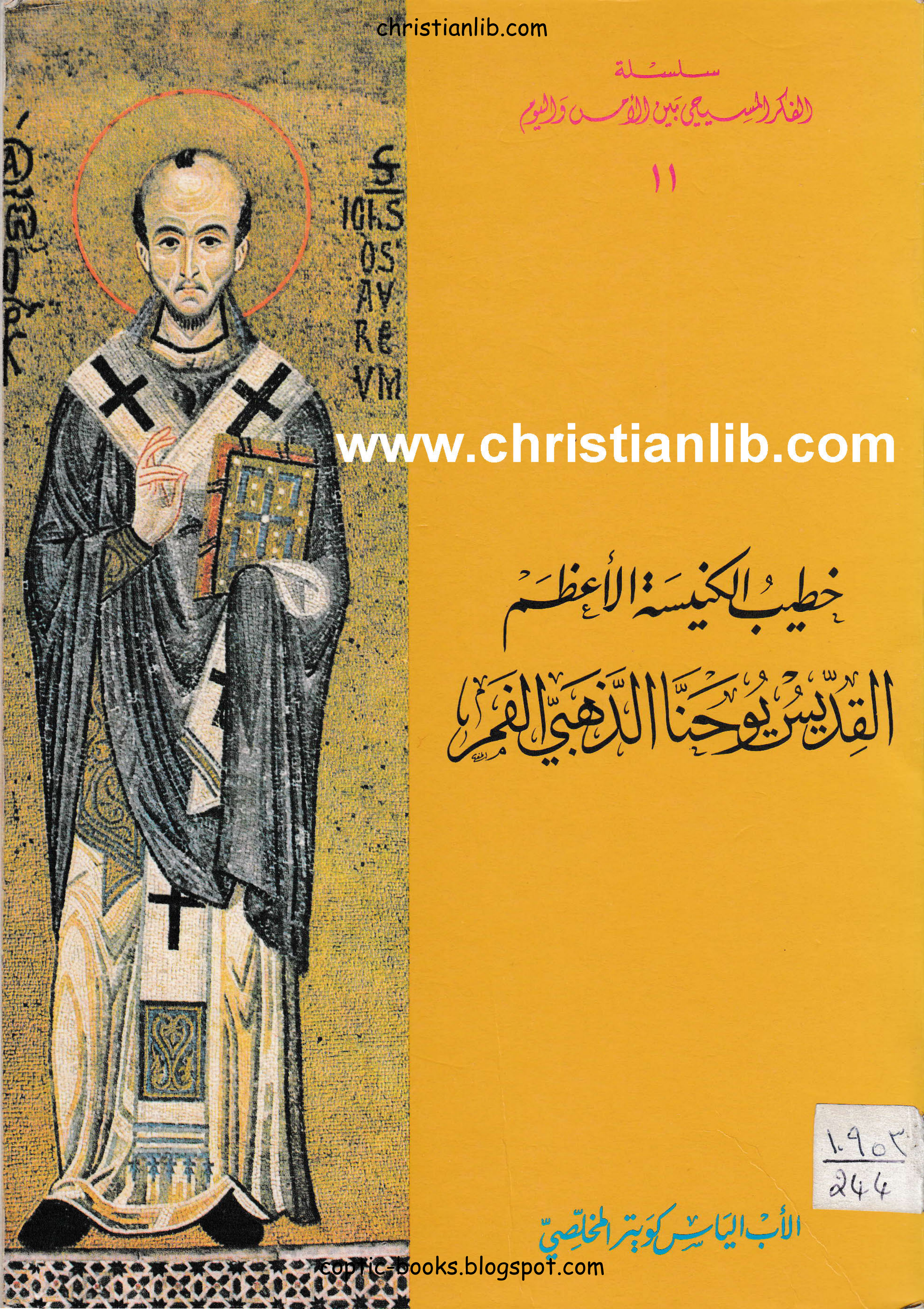
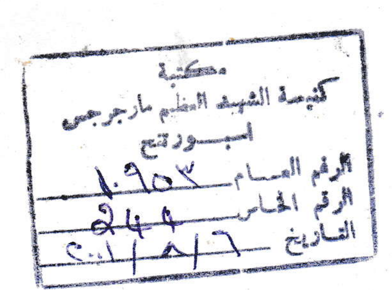


سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم
١١

خطيب الكنيسة الأعظم
القديس يوحنا الذهبي الفم

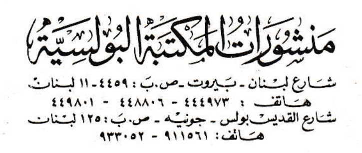
الأب الياس كويتر المخلّصي



خطيب الكنيسة الأعظم
القديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة أولى

١٩٨٨



سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم
11

خطيب الكنيسة الأعظم
القديس يوحنا الذهبي الفم

حياته وبعض من مواعظه
ترجمها آباء مخلّصيّون

عُني
بكتابته وجمعه وتنظيمه
الأب الياس كويتر المخلّصي

منشورات المكتبة البولسيّة

هذا الكتاب
من منشورات الرهبانيّة المخلصيّة
في يوبيلها المئويّ الثالث
(١٦٨٣ - ١٩٨٣)



القديس يوحنا الذهبي الفم

(فسيفساء من القرن الثاني عشر – بالرمو)

إهـداء

إلى مصفّ **الأساقفة المخلصيّين** الموقّرين، العاملين اليوم في خدمة الكنيسة الملكيّة الكاثوليكيّة، في المشرق والمغرب والمهجر كلّه،
وهم السادة الأجلاّء:

المطران **سابا يواكيم**، مطران البترا وفيلادلفيا وسائر شرقيّ الأردن؛

والمطران **ميشال حكيم**، مطران الملكيّين الكاثوليك في كندا؛

والمطران **فرنسوا أبو مخ**، النائب البطريركيّ العام في دمشق؛

والمطران **لطفي لحّام**، النائب البطريركيّ العام في القدس الشريف؛

والمطران **أندره حداد**، مطران الفرزل وزحلة وسائر البقاع؛

والمطران **عادل إيليّا** المطران المساعد في أبرشية نيوتن في الولايات المتحدة؛

والمطران **جورج كويتر** مطران صيدا ودير القمر؛

وهم صفوة الصفوة وخيرة الرجال، في الرهبانيّة المخلصيّة، والطائفة الملكيّة الكاثوليكيّة، وخلفاء الذهبيّ الفم، العاملين على مثاله، على نشر كلمة الحق، وتوزيع خبز الحياة في الطائفة العزيزة، أُقدّم هذا الكتاب عربون احترام ووفاء وتقدير.

الأب
الياس كويتر
المخلصي

تصدير

لسيادة الحبر الجليل
المطران سابا يواكيم المخلصيّ

رقم ١٤ /٨٧ — **عمان**، في ١٦ /٤ /١٩٨٧

حضرة الارشمندريت الجليل الياس كويتر ب. م. الجزيل الاحترام
الزرقاء

السلام والبركة والدعاء

تلقّيت بمزيد الغبطة والارتياح كتابكم المؤرّخ في ١٤ الجاري مرفقاً بمخطوطة «**كتاب مواعظ الذهبيّ الفم**»، وتصفّحتها، فإذا بها كنز لا يُثمَّن ومنجم ذهب منقطع النظير. وسرَّني كثيراً أن يُدرَج الكتاب في سلسلة «**الفكر المسيحي بين الأمس واليوم**».

وتلبيةً لرغبتكم أسمح بطيبة خاطر بطبع هذا المؤلَّف الجليل، راجياً له الرواج الذي يستحقّ، وداعياً لكم، أيها الأب الحبيب، بهناء المخلص ووافر نعمِه وبركاته.

+ المطران سابا يواكيم
رئيس أساقفة بترا وفيلدلفيا
وسائر شرق الأردن

مقدّمة

خطيبُ المسيحيّة الأعظم

الأب نقولا أبو هنا المخلصي

حاولت مراراً أن أصفه لنفسي ثمّ لمن يجهله من الناس فإذا المطلب بعيد، والغاية أسمى من أن يبلغها خاطري القاصر.

لقد أصفقت العصور والأجيال على إجلاله وحبّه، ولا تزال مشارق الأرض ومغاربها شاخصة البصائر إلى تألُّق كوكبه، والآفاق تَحمَد ما امتدَّ إليها من أشعّة فضله، فيتهلّل وجه الدين والفضيلة إعجاباً وفخراً به.

كلما صعّدت الفكر في سماء فضائله وبلاغة لَسَنِهِ عاد إليَّ مصوّباً كليلاً.

أريد التأمّل في تلك النفس العالية الوضيعة، الجبارة الوديعة، فأراها سماءً سامية، وبحراً واسعاً عميقاً، وسهلاً أفيح منبسط الأكناف إلى أبعد مدى، وجبلاً أشمّ تذهب ذُراهُ إلى مساماة الكواكب. ومن لي بجناحين يبلغاني إلى تلك السماء؟ وأَنَّى أستطيع التغلغل في ذلك البحر الواسع العميق؟ وكيف لعجزي أن يَذرع مسافة سهلٍ يقصُرُ دون مداه البصر؟ وهل لمثل همّتي الواهية أن تتوقل ذرى ذلك الجبل الأشمّ؟

لكنّني طموح إلى عرفانه، شيّق إلى التأمّل في صفاته، محبّ له لأن أجيال العالمين أشادت بمزاياه منذ خمسة عشر قرناً ولا تزال تشيد بمناقب فم الذهب إلى آخر الدهر. وأريد أن يعرفه جميع الناس ويشتاقوا إلى التأمّل في صفاته، وأن يحبّوه طراً، لأنه لخير الناس وجد، ولمنفعتهم الحقيقية عاش وجاهد، وفي سبيل الله والكنيسة والحق والناس أجمعين قضى شهيداً مجاهداً.

لقّبه أهل زمانه بفم الذهب ووافق على هذا اللقب المجيد لهُ كلُّ من سَمِعَهُ في

عهده ، وكلُّ من رنَّت في جوانب سمعِهِ وصدره أصداء بلاغته وكل من وقف على آية من كنز ذلك القلب ، وسحر ذلك اللسان ، على توالي العصور من بعده .

رمزوا بذلك اللقب المجيد إلى الحقائق الثمينة تبرز من ذلك الفم الطاهر وهي أعلى قدراً وأغلى قيمةً من الذهب النضار .

فإن شئت أن تعلم ما فم الذهب علماً يشبعك من وصفه ، فاسمع كلمة الحق من عمود الحق ، من كنيسة المسيح التي لا تعرف للمداهنة لفظاً ، ولا للتزوير معنى . أصغ إليها مقرّظة قديسها العظيم ، وابنها البارّ ، وحبرها الغيور ، ولسان كلمتها البليغ الفصيح . فهي تصفه بأنه :

«البوق الذهبي ، الآلة الملهمة من الله ،
لجة العقائد البعيدة الغور ، أسطوانة الكنيسة ،
العقل السماوي ، عمق الحكمة ،
الكأس الكلية التذهُّب المتدفقة بأنهار التعاليم القاطرة عسلاً ،
الكوكب الذي لا يغرب المنير بضياء تعاليمه كلَّ ما تحت الشمس ،
نذير التوبة ، الملاك الأرضي والإنسان السماوي ،
السنونوة اللذيذة الصوت والحسنة التكلُّم ، كنز الفضائل ،
الصخرة التي لا تنصدع ،
نموذج المؤمنين المضاهي الشهداء والمعادل الرسل القديسين في أحوالهم [1] » .

وما نقلنا من تقاريظه إلاّ قلاً من كُثْر هو لمحة كافية أو شذرة من نفائس تلك الشذرات الوافرة الباهرة .

ولقد زخرت كل أمّة بعديد من خطبائها النابهين البلغاء تعالى بهم مَدُّ فخرها على سواحل الدنيا ، ولكن فم الذهب بحر غرقت فيه تلك البحور حتى كأنها جداول تبلغ إلى متدفّعات أمواجه فتنتهي في لججه وتغور .

فإذا كان شاول ملك اسرائيل فاق طولُه كلَّ الشعب من كتفيه إلى قمة رأسه ، فهل ترانا نبالغ إذا قلنا أن فم الذهب أمير الخطباء ومليكهم قد فاقهم جملةً فكان هو على قمة جبل الخطابة وهم طرًّا على أسناده وسفوحه؟

---

(١) الميناون في صلاة الغروب ١٣ تشرين الثاني .

وكيف لا يكون كذلك وهو قد نشأ أكرم نشأة يرفُّ عليه وهو وليد يتيم حنان أُمّ هي مثال الأمهات شرَفاً ونُبلاً وطهارةً وعطفاً ورعاية؟

كيف لا يكون كذلك والله قد ملأ صدره ونفسه من أخاير نعَمِه ومواهب روحه القدوس؟

كيف لا يكون كذلك والله قد رزقه عقلاً كبيراً، وقلباً براً عَزوفاً عَيُوفاً، وإرادة هي إلى طلاب الخير أشد اندفاعاً من أتِيّ السيل وخيالاً قوياً واسعاً يتسابق ومداركه إلى أسمى الغايات وأقدسها؟

كيف لا يكون كذلك وهو قد كانت له نفس تتلهَّب بمحبة الله والكنيسة والقريب ضراماً يحرق كل ما تمنّيه به الدنيا من جاه وغنى وسعادة؟

كيف لا يكون كذلك ووالدته النبيلة الرؤوم قد وقفت صباها على تعهّده والقيام عليه وبذلت في سبيل تلقينه العلوم والمعارف أنفس ما تملك يدها الكريمة حتى تشبَّع علماً وغاص في بحاره فالتقط أثمن جواهرها وحتى فرع جبال الإلهيّات بقدم الوداعة والطهر والذكاء، فكشف الله له أسرارها وجلَّى غوامضها، وملأ ما بين جنبيه من سموّ معانيها، وروائع حقائقها؟

أجل إن الكلام هو وليد النفس وهي التي تُمِدُّه بحياتها فكلَّما صفا جوهرها وراق، وكلَّما كرُمت فطرةً وطهرت أدباً وسمت مدارك وقوى عقلية، وكلَّما كملت علماً، كانت ولائدها، أي فنون كلامها، معزّزة بنعمة الله، كاملة بتأييد روحه وحقّه، سامية بمعانيها، بسيطة بمبانيها، متضرّمة في مقاصدها، طيِّبة في مصادرها ومواردها لأنها لا تبتغي إلاّ الله ومجده وخير القريب ورفده. وكذلك كان فم الذهب، وكذلك كلامه.

ومن أجلِّ ما يقتضى في الخطيب الإخلاص في القصد، والشجاعة في كفاح الرذيلة ومناصرة الفضيلة، ولا يتأتّى الإخلاص والشجاعة إلاّ لمن تنَزَّهَ عن الاثرة والأنانيّة، وفطم نفسه عن هوى الدنيا ومنافعها وأباطيلها، وابتغى من دونها وجه الله والحقّ والخير، وكان مع ذلك عليماً نابهاً، يعرف الحق والخير فيطلبها، والبُطلَ والشرّ فيلوي عنهما ويقلب لهما ظهر المجن، ويحاربهما بأمضى سلاح من بيِّنات منطقه هجوماً ودفاعاً. وكذلك كان يوحنا فم الذهب.

آية من آيات الله! جسيم ضئيل كأنه شبح، فيه نفس جبّارة حافلة بنِعَم الله ومحبته،

خاطر وقّاد، بصيرة نقّادة، علم غزير، ترفُّع عن الدنايا، عفّة تزدري الدنيا بحذافيرها.

رَوض الفضائل طرًّا وابن بجدّتها قدس المبرّات روح الطهر في الحقبِ
ملاك لطف تجلّى للملا بشراً لكن رأى الشرُّ منه شُعلَةَ الغضبِ
رسول حقٍّ قيام الحق سنَّتُه حربٌ على البُطل أصمى البُطلَ بالرُّعُبِ
سيفٌ له استلَّ جبّارُ السما فبدا «في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ»

يعصف بسامعيه كالزعزاع فيكتسح منهم كل رذيلة، وينفحهم من روح الله وروحه بما يبثّ في قلوبهم من بذور التوبة والتقوى والفضيلة. لم يَهَب اضطهاد ذوي العروش في سبيل انتصاره للحق، ولا روَّعه المنفى ولا الموت وهو يكافح لأجل كلمة الله.

أيُّ خطيب لعمري يضاهي فم الذهب وهو يخطب في شعب انطاكية راوياً موقف أسقفها القديس فلابيانوس في حضرة القيصر ثاوضوسيوس الكبير شافعاً لشعبه من فظاعة اقترفوها في حق ذلك القيصر العظيم؟ قال مسترحماً[٢] :

«ما أكثر ما تفوق التدمير والحريق شدَّةُ تلك الكلمات التي تفوَّهت بها في محاماتك. لقد قلت انك شُتمت واحتملت ما لم يحتمله يوماً أحد من الملوك الغابرين. ولكن إن شئت أيها الملك الرحيم، الراسخ في تقوى الله، فهذه الشتيمة نفسها تعصِّبك بأكاليل أبهى من زينة التيجان. إنّ هذا التاج هو برهان فضلك، ولكن منّة عائدةً لكرامة مَن وهبك إيّاه. وأمّا الإكليل الذي يضفره لك عطفك على الرعية ومحبّتك لها، فهو مفخرة لك وحدك وعنوان تقواك لا غير. وما عَجَبُ الناس لك من هذه الحجارة الكريمة المزيِّنة تاجك، بأكثر من ثنائِهم عليك لتساميك عن الغضب. أأسقطوا تماثيلك؟ ولكن في طاقتك أن ترفع أجمل منها. اضرب عن إساءات المسيئين وجاوز عن عقابهم فيرفعوا لك ليس تمثالاً من النحاس منصوباً في الساحة، أو نُصُباً من الذهب أو المرمر المجزَّع، بل تمثالاً مغشّى بأبهى حُلَّة من العطف والرأفة، ينصبونه لك كل واحد في داخل نفسه، فتضحي تماثيلك عدَاد قاطني المسكونة والذين سوف يقطنونها. وليس نحن فقط بل أعقابنا وأعقابُ أعقابنا طرًّا سيسمعون بهذه الأمور، ولسوف يقضون العجب منك ويحبّونك مثلما لو أنهم هم أنفسهم تنعّموا بهذا العفو».

---

(٢) طالع «**الرسالة**»، السنة الخامسة، ص ٥٢٩ و٦٤١ و٧١٨.

وما أروع خطابه في الدفاع عن الوزير أتروب وكان عُتلاً ظالماً مستبدًا وسفَّاح دماء، حتى لقد تطاول على حرمة المعابد والكنائس وألغى شريعة حمايتها لمن يلتجئ إليها من المجرمين، ثم رجع كيده إلى نحره فثار الشعب والجيش عليه وأراد الملك قتله فهرب إلى كنيسة القديس ولاذ بحرمتها، وتطلبه الملك والشعب والجيش وأرادوا البطش به، ولكن القديس وقف وقفته المجيدة وخطب في الدفاع عن عدوّه تلك الخطبة التي هي آية الآيات في البيان ومعنى الصفح عن إساءة المسيء ومدى المحبَّة المسيحيَّة التي تنكر الانتقام حتى من أشدّ الخصوم والأعداء. وما زال يقرع قلوب ذلك الحشد بآيات الحكمة والموعظة حتى أسال القلوب رحمةً والعيون دمعاً فإذا تلك النفوس الثائرة تلين عرائكها وإذا جلاميد القلوب تتحوّل إلى رقّة وعطف وإذا المغضوب عليه يُهتَف بنجاته في ذلك الموقف الرهيب.

وكنّا نودّ أن ننقل للقرّآء شذرات من ذلك الخطاب المرتجل لولا اننا فضَّلنا نشره برمّته في الجزء القادم ليكون درساً للفصاحة المسيحيّة والعواطف النبيلة وآية تفتخر بها المنابر وأربابها.

وهنا كلمة لا أرى مندوحة من التصريح بها وهي أن حضرة الأخ العزيز والأب الفاضل إيزيدور أبي حنا ب. م. هو أوّل من أهابت به همّته لتعريف خطيب الكنيسة والنصرانيّة، قديسنا العظيم يوحنا فم الذهب إلى قرّاء العربيّة الأعزاء فإليه آية شكري وثنائي وإعجابي.

تمهيد

للأب الياس كويتر المخلصي

بعد نشري كتاب «**إنجيلك نور لحياتي**» أولاً وثانياً (١٩٨٦ و١٩٨٧)، وللمرّة الثالثة (١٩٨٨) ألحَّ عليَّ حضرة الأب الفاضل جورج باليكي البولسيّ، مدير دائرة النشر البولسيّ النشيط أن أنشر نفائس القديس يوحنا الذهبيّ الفم المنشورة في الكتاب المذكور.

عكفت على العمل سريعاً، وكان سهلاً، فجمعت النفائس التي للقديس يوحنا الذهبيّ الفم، خطيب الكنيسة الأعظم، والتي ترجمها فقط بعض الآباء المخلصيّين، راغباً في نشر التراث المخلصي إذ نحن لا نزال في العيد المئوي الثالث لتأسيس الرهبانيّة المخلصيّة. فرغم الانحسار الجغرافيّ الذي أصاب تلك المؤسسة، فهي لا تزال تفيض حياةً ونشاطاً، وتعمل في سبيل خير النفوس. وهذه إحدى الخدمات التي تؤدّيها الرهبانيّة المخلصيّة للطائفة العزيزة إذ تعكف على نشر التراث الشرقيّ الرائع، فيتعزّز بذلك الفكر المسيحيّ في العالم.

نشير هنا إلى أنه في أثناء بحثنا في المكتبة المخلصيّة وفي المجلاّت المخلصيّة والطائفيّة عن الترجمات التي قام بها الآباء المخلصيّون، عثرنا على ترجمات رائعة لنفائس القديس يوحنا الذهبي الفم فنشرناها. وعثرنا أيضاً على ترجمات لبعض الآباء الشرقيّين العظام. وإذ إنه لا يُتاح لنا فرصة أخرى ومجال لنشرها، راجعنا لجنة المنشورات البولسيّة فقبلت بإلحاق الترجمات في كتاب خُصّص للقديس يوحنا الذهبي الفم. وهكذا تكمل الفائدة المرجوّة.

كما عثرت أيضاً على مواعظ مختلفة للذهبي الفم، تُرجمت بأقلام كهنة مخلصيّين، وكانت تُتلى وفقاً لنظام الكنيسة البيزنطيّة الليتورجي. لم نستطع أن نحدّد أسماء الكهنة

المترجمين. لكننا نعزو إلى بعض الآباء المخلصيّين اللامعين مثل الأب أنطون بولاد، وغريغوريوس نعمة وسابا كاتب وغيرهم هذه الترجمات. ونشير إلى أن تلك الترجمات هي ركيكة اللغة، ضعيفة التعبير. فعملت جهدي، مستعيناً بكتب المطران أبيفانوس زائد العلاّمة الذي ترجم كثيراً من مواعظ الآباء الشرقيّين. وأدرجتها باسمي الخاص، بعد أن أصلحت بعض عباراتها، إنما الترجمة الأصلية، وتنظيمها هما لمن سبقني من آبائي المخلصيّين وللمطران أبيفانوس زائد.

نلفت نظر القارئ إلى أن هذه النفائس المنشورة في هذا الكتاب ليست التعليم الكامل الحلقات للقديس يوحنا الذهبي الفم، بل النزر اليسير، فإنه بحرٌ لا يمكن نقله بصَدَفَة. لكننا اخترنا فقط النفائس التي ترجمها الآباء المخلصيّون راغبين في أن نلقي بعض الأضواء، ونبسط بعض التعاليم، مفسحين المجال لغيرنا لترجمة ونشر روائع هذا القديس العسجديّ النطق.

إني أشكر لجنة **المنشورات البولسيّة** التي كان يرئسها الأب العام يوسف كلاّس البولسيّ على هذا الإسهام القيِّم الذي قدَّمته للرهبانيّة المخلصيّة، إذ قبلت أن يُدرَج هذا الكتاب في سلسلة «**الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم**». وقد قامت بهذا العمل للتخفيف من عذاب المحنة القاسية التي أصابت **دير المخلص** في نكبته السادسة. ولا عجب في ذلك فالصِلات بين الرهبانيّة المخلصيّة والجمعيّة البولسيّة هي صِلات قربى ونهج وتأسيس. وكمّل الفضل العميم بمحبة وهمة ونشاط المدير الحالي لدائرة النشر حضرة الأب جورج باليكي البولسي، فله شكري الجزيل.

وهي مناسبة لأشكر **المطبعة البولسيّة** ومديرها العام حضرة الأب جورج جبلي البولسيّ ومعاونه الأب نقولا قوبا على السهر والعناية والجهد الذي بذلوه وأغدقوه عليَّ في أثناء طبعي الكتب التالية: «**السنكسار الرهبانيّ المخلصيّ**» و«**هؤلاء هم آباؤنا المخلصيّون**» و«**مراقي الكمال الرهبانيّ**» و«**إنجيلك نور لحياتي**» و«**المخلصيّون رسل في الوطن والمهجر**». وسائر الكتب التي نشرتها. وأُشيد بالاتقان والرعاية التي تقدّمها المطبعة والقيِّمون عليها، للناشرين فيها. وأرجو أن تبقى منارة تضيءُ بأنوارها على المشرق كلّه.

كان هدفي من نشر هذا الكتاب ردف الوعّاظ والقرّاء المسيحيّين بتعليم عظيم من الآباء الشرقيين. فهو معين لا ينضب وكنز غنيّ جداً يفيد أحجيةً وحكمةً وفهماً روحياً،

ويفيد أيضاً كثيراً الرجوع إليه اليوم الذي صخبت فيه أبواق الحكمة الكاذبة. انه رغم أن هذه المواعظ كُتبت لعصر سالف، ولشعب عاش في القرن الرابع الميلادي إلاّ أن إشراقاتها ما زالت تنير كل إنسان في كل عصر وزمان.

أُشير هنا إلى أني حدّدت هدف هذا الكتاب، والينبوع الذي استقيت منه، والجدول الذي سار فيه هذا الماء السلسبيل، الذي يُحيي روح الإنسان. وأريد أن لا يتّهمني أحد بالعصبيّة والتحيّز لأني التصقت بالمؤسّسة المخلصيّة التي هي أمي وفخري. فنحن المخلصيّون لا نزال في عيد، رغم أن النكبة السادسة قد أصابتنا في الصميم. إنه من الأكيد أن الأديار هُدمت ودُكّت، والذخائر والكتب قد نُهبت وسُرقت؛ إنما التراث المخلصيّ ما زال حيًّا رغم زوال البناء وزوال المؤسسات. فهذا الكتاب هو حضور للروح المخلصيّة التي أسهمت إسهاماً بنّاءً، ولو بسيطاً في النهضة الدينيّة والفكريّة والاجتماعيّة في المشرق العربيّ كلّه.

إن الذهبيّ الفم يُبعدنا عن كل هذه الأجواء، ويغطّي كل نوازع البشر. فهو يعلّمنا بفم ذهبيّ، وبنطق بليغٍ عسجديّ، التعليم الصافي الذي أوحى به إليه الروح القدس. وهذا الروح الذي هو روح الآب والابن معاً، إنما هو روح حقٍّ وحكمةٍ ومحبة.

١٣ تشرين الثاني سنة ١٩٨٦
في عيد
القديس يوحنا الذهبيّ الفم

الأب
الياس كويتر
المخلصي

الآباء المخلصيّون الذين قاموا بترجمة
مقتطفات من مواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم

قسطنطين باشا	ألكسيوس شتوي
نقولا أبو هنا	جورج غبريل
كيرلس حداد	إيزيدور أبو حنا
الياس سمعان	غريغوريوس غصان
فرحات فرحات	الياس كويتر

القسم الأول

حياة القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم

بقلم
الأب الياس كويتر
المخلصي

فهرس

حياة القديس يوحنا الذهبي الفم
جُمعت
من ترجمات عربيّة وأجنبيّة مختلفة

مقدّمة

تفتخر الفصاحة والبلاغة بثلاثة رجال :

ديموستين عند اليونانيين، وكان نابغة الخطابة السياسيّة،
وشيشرون عند الرومان، وكان نابغة الخطابة القضائيّة،
ويوحنا الذهبيّ الفم، عند النصارى، فهو نابغة الخطابة الكنسيّة.
فيوحنا هو أشهر آباء الكنيسة وأفصحهم.
فمنذ القرن السادس لُقِّبَ يوحنا بالذهبيّ الفم.
في حياته كان يُقال : من فمه تجري كلمات أحلى من العسل.
بحق قال عنه بوسويه : «ان يوحنا هو ديموستين المسيحيّة».

١ - انطاكية العظمى

كانت انطاكية مدينة عظيمة جداً، احتلّت المكانة الثالثة بعد روما عاصمة الامبراطوريّة الرومانيّة والاسكندريّة أعظم مرفأ لها في البحر المتوسّط. وضاهت انطاكية سائر العواصم غنًى وجمالاً وعَظَمَة. أليست هي مركز الحاكم العام لكل آسيا الصغرى (تركيا الحاليّة) والبلاد التابعة لها، يجتمع فيها الامراء والقوّاد والعظماء، ومنها تصدر أوامر الحكّام والولاة؟ كم انتشر فيها من أبنية أثريّة وقصور وهياكل وكنائس مسيحيّة ومسارح وملاعب. عدا ذلك كان نهر العاصي ينساب في جوانبها، فيروي جنائنها وبساتينها فيضفي عليها جمالاً وسحراً تغنّى به الشعراء، وكتب عنه الأدباء، فوصفوا وأشادوا بموقع أنطاكية الجميل الذي تحيط به الجبال الخضراء من كل جهة كأسوار.

كان عدد سكان أنطاكية في عهد القديس يوحنا الذهبيّ الفم يناهز المئتي ألف. كانوا

خليطاً من الرومان واليونان والفرس والأرمن والعرب واليهود. فأنطاكية كانت عاصمة الأقاليم وملتقى الطرق الآسيويّة ومحطّة التجّار والجيش والرحّالة. فلا عجب أن نرى هذا الخليط من الشعوب، وهذه الحضارة المشرقة، ففي هذه المدينة انصهرت الحضارات والشعوب كما في بوتقة.

المركز الكبير احتلّته أنطاكية عند المسيحيّين. أليس في أنطاكية دُعي تبّاع المسيح أولاً بمسيحيّين؟. أليس فيها بشَّر الرسل بطرس وبولس وبرنابا ومرقس ولوقا؟. أنطاكية كانت أيضاً المحطة الأساسيّة لبولس العظيم في تجواله في نواحي آسيا الصغرى. ومن أنطاكية انطلق اغناطيوس الأسقف لتأكله الوحوش في روما. وقد حافظت أنطاكية على هذا المركز المسيحيّ المرموق، فنرى أنّه في عيد القديس يوحنا، في عهد الذهبي الفم، كان يخضع لرئيس أساقفة هذه المدينة أكثر من ٢٥٠ أسقفاً.

في أنطاكية العظيمة، اليونانيّة اللّغة، والرومانيّة القَسَمَات، والمسيحيّة السكّان، وُلد يوحنا الذي سيُلقّب في التاريخ **بالذهبيّ الفم**.

٢ – تلميذ ليبانيوس إمام الفصحاء

والد يوحنا كان سيكوندوس. هذا كان عظيماً في قومه، شريفاً في محتده. ولذلك اختاره الامبراطور ثيوضوسيوس قائداً لفرقة الخيّالة الرومانيّة في سوريا التي كانت مرابطة في نواحي أنطاكية. وفي هذه المدينة حيث تكثُر العائلات الشريفة اليونانيّة تعرَّفَ على امرأة مسيحيّة اسمها انثوسة، فتزوّج منها، وهي لم تبلغ بعد السادسة عشرة من عمرها. وبارك الله هذا الزواج فرُزقا بابنة لم تعش طويلاً، ثم بولد سمَّياه يوحنا بين ٣٤٥ – ٣٤٩. ولم تطل حياة الوالد، فقد توفي تاركاً زوجته أرملة ولم تبلغ من العمر سوى عشرين سنة والولد الصغير يوحنا.

وكرَّست الأرملة الصبيّة بقيّة حياتها لتربية ولدها وإدارة الأملاك الموروثة عن زوجها. وحدّثنا يوحنا عن أمّه، قال: «كانت تقول لي: يا ولدي، لم أتمتّع إلاّ قليلاً بالحياة مع أبيك، وقد سلبتني العناية الإلهيّة سريعاً هذه السعادة. وتضافرت آلام موت والدك مع أوجاعي في ولادتك. إنّها آلام لا يعرفها إلاّ مَن مارسها. ليس من كلمات تقدر أن تعبِّر عن الاضطرابات والعواصف التي تتعرّض لها صبيّة فقيرة في الخبرة إذ تجابهها مصيبة جامعة للعنف والفجاءة فتلقي ذاتها

إزاء واجبات لا تتوافق مع طبيعتها وعمرها : تلاقي إهمال الخدَم ، وتعمل لإحباط أحابيلهم وحيلهم ، والصمود لمناورات الأقارب ، وللانتصار على جشع جباة الضرائب . . . » .

كانت أنثوسة تريد يوحنا رجلاً عظيماً . فليس المهمّ ، كما قال يوحنا ، «الولادة الطبيعيّة ، فهي عمل طبيعيّ ، لكنّ الأهم هي الولادة الروحيّة للولد ، وهذا عمل الأم ، وهذا هو عمل الإرادة» . إنّ هذه الأم استحقّت من ليبانيوس ، المعلم الشهير ، هذا التقريظ : «آه يا أعظم النساء المسيحيّات ! » . وقد أرادت هذه الأم أن يكتسب ابنها الثقافة الموافقة لعصره ، أي أن يتعلّم القانون والفلسفة والفصاحة ، حتى يمكنه بهذا أن يصل إلى أعلى المراتب والوظائف .

يوحنا تدرّب في مدارس انطاكية التي اشتهرت بتعليمها ومعلّميها ومنهم ليبانيوس إمام الفصحاء والبلغاء والذي عرفه القديس باسيليوس الكبير والقديس غريغوريوس النزينزي . فقد كان خطيب مدينة انطاكية في كل مناسبة مهمّة ، وممثّلها في الأوقات الحرِجَة . وقرنَ ليبانيوس الفصاحة إلى الفلسفة والعلم ؛ عدا أنّه كان أستاذاً مدرَّباً فهيماً يعرف أن يكتشف المواهب عند تلاميذه . ويوحنا خضع لهذا المعلم إذ قد أحسّ منذ صغره بالرغبة لاتقان الفصاحة والبيان . وقد قال في هذا المعنى : «إنّ خطاباً واحداً هو أجمل شيء في العالم» .

ليبانيوس ترك أثراً لا يُمّحى في نفس الذهبيّ الفم . لا نقرأ خطاباً له أو تأبيناً أو موعظة إلاّ ونرى ملامح هذا المعلم الفذّ الذي عرف أن يوجِّه طاقات تلميذه النابغة ، ويطبعه بالطابع الكلاسيكي ، والذي عرف قدر يوحنا ونبوغه . وقد أجاب هذا المعلم ، لمَّا سُئِل عن خليفته في تعليم الخطابة والبلاغة ، فقال : «يوحنا ، لولا لم يكن النصارى قد خطفوه مني» . وكذلك تعاقب على يوحنا معلمون آخرون ، أشهرهم أندريه غاسيوس الفيلسوف . لكنّ يوحنا كره الفلسفة ومشاكلها وأساليبها وأحبَّ فيها الوجه الشعري والتنظيم المنطقيّ ، ولذلك فضَّل أفلاطون على سائر الفلاسفة .

٣ – دعوة كالصاعقة

سارت الأيام الهوينا بيوحنا ، فقد كان ينمو ويكبر والجميع ، وخصوصاً أمّه ، يتطلّعون إليه وينظرون أعماله ويسمعون خطبه ، فيقولون : ما عسى أن يكون هذا الإنسان؟ . كل شيء كان يبسم ليوحنا . وكل شيء كان في متناول يده : الغنى الوافر ،

والشرف العائلي، والمواهب التي يستطيع بها الوصول إلى رُتَب عالية. لم يكن شيء ينقص يوحنا حتى يكون عظيماً بين العظماء. وقد جرّب الخطابة فاذا به ساحر يسيطر سيطرة شاملة على مستمعيه، يُبكيهم متى شاء، ويفرِّحهم متى شاء، يُدهشهم أو يُرعبهم. كان يلعب بعقولهم على هواه، وما أقدسه هوى.

يوحنا في هذه الفترة من حياته ارتبط بصداقات خالدة. عرف يوحنا، اوسابيوس الذي أصبح أسقف موبسويست فيما بعد، ومكسيموس وخصوصاً باسيليوس. وهذا الأخير حكى ليوحنا عن مشروع نسك في أحد الأديار القريبة إلى أنطاكية. أليست الحياة الرهبانيّة، كما قال باسيليوس الكبير هي أخصر طريق إلى السماء؟ أليست الطريق الذي سلكه كثيرون فأصبحوا قديسين عظاما؟ سمع يوحنا عن سيزاريون الذي عاش في الثلوج عرياناً، وعن سمعان الذي عاش ثمانٍ وأربعين سنة على عمود، وعن هيلاريون الذي سيطر على التمساح. ووصلت إليه أخبار سكان البراري المدهشة الذين يعيشون بلا نوم ولا طعام، ولا يحسّون بالبرد، ولا يشكون التعب. وقد كتب دراسة بعنوان: «مقابلة حياة الملك بحياة الراهب». وبيَّنَ أنّ مجد الراهب أعظم بما لا يُقاس من مجد الامبراطور.

أتمَّ يوحنا مع باسيليوس كل التدابير اللازمة ولم يبقَ لهما إلاّ أن يرتميا في المخاطرة الكبرى. لكن الله كان يريد تدبيراً أفضل، فشيء صغير غيَّر كل ذلك البرنامج. فقد عرفت الأم أنثوسة بالخبر، فنزل عندها كالصاعقة، فأخذت تبكي وتذرف الدموع وتتوسّل لتثني يوحنا عن عزمه. ولم يقدر يوحنا على مقاومة والدته التي أقنعته عندما قالت له: «أتريد يا ابني أن تتركني أرملة مرة أخرى؟». وحكى يوحنا فيما بعد، بكلام مؤثر، عن هذه المقابلة التي غيّرت الخطة المرسومة: «لقد أمسكت بيدي وقادتني إلى غرفتها الخاصّة، وأجلستني وجلست قربي على الفراش ذاته حيث شاهدتُ النور لأول مرة، وقد فاضت دموعها وكانت زفراتها تقطّع نياط قلبي، وعباراتها العذبة الحنونة تُمعن في التقطيع. ومما قالته لي: «انتظر فراقي لهذا العالم، ربما يكون قريباً، لقد بلغت سناً لا ينتظر معه إلاّ الموت، وعندما تعيدني إلى التراب وتجمعني إلى أبيك، أذهب حيث تشاء، سافر إلى البعيد البعيد، إرمِ بنفسك في لجّة اختيارك فعندئذٍ ليس من يمنعك. ولكن طالما أمّك تتنفّس وتتألّم لا تتركها ولا تغضب الرب إلهك إذ تلقيني بلا مبرّر وبلا فائدة في لجج من الآلام، أنا التي لم أصنع لك شرًّا». «ان التقشّف والصلاة والصوم لا تساوي بادرة الحب تجاه تلك الأم»... قال يوحنا في ما بعد.

حينئذٍ اقتبل يوحنا سرّ المعموديّة المقدس. وإذا كان يوحنا لم يذهب إلى القفر فإنه أتى بالقفر إلى المدينة وأسكنه معه تحت سقف واحد. لقد بنى ديراً في قصره المنيف وأخذ

يعيش فيه كما كان في البريّة ، يأكل قليلاً وبتقشّف ، ينام بضع ساعات ، واستغنى عن الخدَم والحشَم. ووصفه أحد الكتبة فقال : «شاب يعيش في قلب المدينة كما يعيش المتوحّدون في البراري والقفار».

والعماد هو باب الدخول إلى الكنيسة وباب التعرّف إلى رجالاتها. فقد اكتشف آنئذٍ يوحنا ملاتيوسَ بطريركَ أنطاكية المناضلَ القديس. هذا الرجل الأرمنيّ الأصل ذاق طعم المنفى ثلاث مرات ، وتمتّع بمحبّة اليهود والوثنيّين فضلاً عن المسيحيّين. وأجمع سكان المدينة على اعتباره قديساً. قال عنه القديس يوحنا الذهبيّ الفم : «وجهه ينضح قداسة كأنّه يبشّر بوجهه». وكتب عنه القديس غريغوريوس النزينزي : «رجل بلا مظهر ، بسيط السريرة ، مملوءٌ من الله ، تنمّ تقاسيم وجهه عن هدوء قلبه ، انه واحد من أولئك الرجال الحاملين في كل خليّة من كيانهم سلام الله ، الذين مجرّد وجودهم يُسكت العواصف الهائجة». واندفع يوحنا في مدرسة معلّمه الجديد بكل زخم سنّه ، وأصبح تلميذاً خاصّاً له ، يعايشه وتنساب نظراته على وجهه غير مرّة في النهار وتسكر شفتاه بخمرة القداسة الطافحة من قلبه. وأوكل ملاتيوس أمر توجيه يوحنا إلى أشهر وأقدر أستاذ لاهوت في أنطاكية : ثيودوروس ، الذي عرف ، وهو تلميذ مدرسة أنطاكية ، أن يغرس حبّ الكتاب المقدّس في قلب يوحنا ، ويطلعه بعمق على أسرار الدين المسيحي ، وأن يقود خطواته في طريق تعليم الناس وإرشادهم إلى طريق القداسة.

٤ – هارب من الكهنوت إلى الدير

قليلاً فقليلاً اشتهر يوحنا ، وأخذ الشعب يطالب بيوحنا وباسيليوس أسقفين مع ملاتيوس البطريرك. ألا يجب أن يوضع النور على المنارة؟ ووصل الخبر إلى يوحنا فهلع قلبه وخاف من المسؤولية وجزع لأنه لم يحصل بعد على الكمال الذي يؤهّله لأن يكون كاهناً. وصعب عليه أن يقنع الوفود القادمة إليه لأجل هذه الغاية. فقد قال لهم إنه صغير السنّ فليفتّشوا عن أسقف عركته السنون ، وعرف طعم الخدمة الكهنوتيّة المضحية ، فلم يقبلوا. قال لهم إنه قليل الخبرة فلم يصدّقوا. وكان الوفد يلحّ أن أنطاكية كلها أجمعت على اختياره للأسقفيّة : الرؤساء الروحيّون ، الأصدقاء ، الشعب كله. فلم يجد يوحنا حيلة للتخلّص من هذا المأزق إلّا الهرب ، وترك صديقه باسيليوس وحيداً في المعركة ، فحزن أشدّ الحزن لهذا الترك.

وهام يوحنا في الصحراء ، لم يجد مكاناً أكثر أماناً من القفر ، فركض إليه والتجأ أولاً إلى أحد أدياره يريد أن يعيش عيشة القداسة ويتأمّل في معاني الكهنوت والأسقفيّة ؛ وعكف على ذلك من ٣٧٤ إلى ٣٨٠ ، وقد قضى أربع سنوات تحت قيادة راهب ، واثنتين حبيساً ، وحيداً في منسك فقير. وقد وصف هو نفسه حياة الراهب مصوِّراً نفسه فقال : «حياة الراهب هي حياة جهاد وعمل... ومن اختارها يحكم على الغضب والحسد والبخل واللذّة الجنسيّة وسائر الشهوات. إنّ الراهب تجده دوماً محادثاً الأنبياء ، ومحادثاً الله بالصلاة والتسبيح والترنيم. إنه تنازل عن الأملاك والثروة ، عن أكثر من ذلك ، وعن اللحم والدم». ولم يحتفظ يوحنا في هذه السنين إلاّ «برداء وحذاء ومفروش».

إنما الله كان يريد ليوحنا دعوة أخرى ، فهو يريد أن يضعه على المنارة لينير الكنيسة بتعليمه وبحياته. فسمح بأن تعتلّ صحته فترك الصحراء وعاد إلى أنطاكية. وأيضاً لم يقتنع يوحنا تماماً بأن يعيش الراهب طوال حياته في العيشة النسكيّة. وحسب قوله : «إنّ الفضيلة والتقشّف إذا لم يضعهما الإنسان في خدمة الناس هما باطلان». وقال أيضاً : «إنّ ما يميِّز محبّ المسيح هو اهتمامه بخلاص الآخرين». لا ننكر أن يوحنا أحبّ الحياة الرهبانيّة ودافع عنها ، وكثيراً ما كتب عنها ، لكنّه مثل القديس باسيليوس الكبير أراد أن تكون الحياة الرهبانيّة موتاً عن العالم ، لكن لأجل العالم ، وأرادها لخدمة الإنسان : «خير للإنسان أن يكون أقلّ فضيلة ويهدي الآخرين من أن يعيش على قمم الجبال ويرى إخوته البشر يهلكون».

ليس من السهل تعيين السبب الحقيقي الذي أرجع يوحنا إلى العالم ، إنما نرجّح أن الاقتداء ببولس الرسول كان الدافع الرئيسي. أراد يوحنا أن يقتدي بنشاط بولس التبشيري. وقد قال هو نفسه : «لا تكلّموني في ما بعد عن الجبال المتعرّجة ، عن الوديان المفروشة بالغابات ، عن الوهاد ، عن الوحدة الصعبة. هذه الأشياء وحدها لا تكفي لإزالة القلق من النفس هي الشعلة التي وضعها المسيح في قلب بولس».

العيشة في الصحراء كانت مرحلة خبرة وتجربة وتعمّق في محبة المسيح ومرحلة تطهير.

٥ – مُعجب بالقديس بولس الرسول

أقرَّ المؤرّخون أن القوى الجسديّة الضعيفة التي لم يكن بامكانها أن تتحمّل مشقّات الحياة النسكيّة ، والرغبة في خلاص الآخرين ونداء المحبة الملحّ ، هي التي حتّمت على يوحنا ترك الدير للعمل في العالم. إنّ رسالة الكلمة والتبشير بها هي كرسالة تقديس

النفس بالنسك والصمت والصلاة. وهذا هو محور كتاب «الكهنوت» الذي ألّفه القديس يوحنا.

وقد أثّر على يوحنا في التخطيط لدعوته الجديدة وتجسيدها القديس بولس الرسول. ومن يقرأ مؤلّفات الذهبيّ الفم يعرف كم كرّس هذا الخطيب الشهير في انطاكية والقسطنطينيّة من مواعظ ومدائح وشروح عن هذا المتجوّل الكبير. وقال الأب لاغرانج: «لا أحد يقدر أن يسبر غور رسائل القديس بولس مثل يوحنا الذهبيّ الفم». وقد أقرَّ يوحنا فقال: «إنّ ما يعرفه هو مديون به للقديس بولس». **إنّه قد شغف** به.

حياة القديس بولس كانت كلّها موضوع إعجاب يوحنا. دهش القديس للعمل اليدوي الذي كان يقوم به الرسول. وهذا حتى يتحرّر تماماً من العبوديات، ويكون حرًّا طليقاً في رسالته. هو يريد النفوس أولاً وآخراً. ويراه يوحنا حيثما حلَّ يلبس ثياب العمل ويدخل مع عامة الشعب لكي يدخل معه المسيح ولكي يكسب بيده معيشته. **إنّه قدّس** ومدح العمل، وجعله نظاماً لا يمكن للرسل وللكهنة أن يهربوا منه. فمن يعمل يأكل، ومن يعمل يتحرّر من العبودية، وهكذا تصبح الرسالة بعيدة عن طغيان المادة وطغيان الناس. الرسول يجب أن يكون حرًّا، وكذلك الكاهن. فمن هو خاضع لعبودية ما لا يستطيع أن يوبّخ، أن يقرّع، أن يبشّر بالمسيح.

أعجب يوحنا أيضاً ببولس الواعظ. وكم أثّر فيه هذا الإعجاب. صورة بولس الواعظ نراها مرسومة في يوحنا في كامل خطوطها وألوانها. إنّ كلماته كانت ناراً ونوراً. ومثل مواعظ بولس كانت مواعظ يوحنا قاسية، أبويّة ومثمرة. صحيح أن بولس لم يهتم كثيراً بالكلام وبالبلاغة. كان همّه الأوحد الوصول إلى النفوس وتخليصها. إنّ النعمة كانت ساكنة فيه، والنعمة تتّصل بالإنسان بالكلمة. بهذا أقنع بولس الناس، ودحض آراء كثيرين وأنار الجميع بالمعرفة. إنّ المحبة هي أقوى من الموت، وبالمحبة الغلبة. ورسالة بولس كانت كلها محبة، فقلب بولس كما قال يوحنا، هو قلب الله، والله هو محبة.

بولس كان أيضاً رجل الآلام. يا للسلاسل المجيدة والعذابات المختلفة التي تحمّلها بولس من أجل المسيح. عندما نقرأ الفصل الحادي عشر من رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس، نكتشف وساعة الآلام التي ذاقها بولس في رسالته. وقد تعجّب يوحنا منها ودهش لهذا التحمّل والصبر، وقد رأى في بولس بطلاً من أبطال المسيحيّة العِظام، فاستهواه وأحبّه.

لا يمكن لأحد أن يفهم بولس العظيم إلّا إذا شابهه، ويوحنا عمل على رسم صورة بولس في حياته كلها.

٦ – في مراقي الكمال

رجع يوحنا، بعد ست سنوات من الغياب، إلى أنطاكية مختمراً، بالغاً شأواً عظيماً في الكمال. هكذا استعدّ للخدمة الكهنوتيّة. فقد تحرّر من كل شيء وتكمّل في محبّة المسيح ومحبّة النفوس التي فداها بدمه الكريم. لكن يوحنا رجع مشلول الرجلين، ضعيف الصحة، مريضاً في معدته من كثرة الأصوام. كان يبين للناظر بعد رجوعه من القفر أن لا لحم له ولا دم يجري في عروقه. وقد ظلّ طابع الفضائل المكتسبة في الصحراء يمهر حياة القديس حتى الموت. وقد قال هو نفسه: «لا تكلّموني في ما بعد عن الجبال المتعرّجة، عن الوديان المفروشة بالغابات، عن الوهاد، عن الوحدة الصعبة. هذه الأشياء التي لا تكفي وحدها لإزالة القلق من النفس. لا يمحو القلق والاضطراب من النفس إلاّ تلك الشعلة التي وضعها المسيح في قلب بولس».

انفتح أمام الذهبيّ الفم المجال واسعاً عندما كلّف بخدمة النفوس وتخليصها. إنّ همّه كان أن يوصل النفوس إلى الله، وأن يغرس فيها الإيمان المستقيم. وهو قد قال: «خير للإنسان أن يكون أقلّ فضيلة ويهدي الآخرين من أن يعيش على قمم الجبال ويرى إخوته البشر يهلكون». وفي هذه المرحلة الجديدة من حياته سنة ٣٨١ أصبح شماساً. وفي سنة ٣٨٦ رقّاه فلابيانوس الأسقف إلى درجة الكهنوت. وخطب لأوّل مرة في الكنيسة فقال: «ما حدث لنا من لحظات، أهو واقعي؟ أهو حقيقة أم وهمٌ خلاّب وحلم مولود من نومنا؟ أنحن في النهار؟ أنحن في يقظة؟ من يقدر أن يصدّق أنّ في رائعة النهار، إذ يكون جميع الناس معتدلين في شرب الخمر ومتيقّظين، قد رُقّي شاب خامل عادم الشهرة إلى ذروة مقام عالٍ كهذا؟ فلا يبعد أصلاً عن الحقيقة الا يحدث مثل هذه الأمور في سوى المنام... مع ذلك قد جرى كل هذا، قد تمّ كما رأيتموه».

في يوم سيامته ازدحمت الجماهير في كنيسة انطاكية الكبرى، مسيحيّين ووثنيّين، جاؤوا كلّهم ليستمعوا ويشاهدوا ذلك البطل الذي يحمل في جسده سمات الجهاد ومعالم المعارك العنيفة التي تعرّض لها في البراري والكهوف. إنّ يوحنا لم يظهر الآن، أمام الهياكل، أنه ابن أنثوسة وسيكوندوس، بل هو البطل المنتصر على نفسه. كان أصلع إلاّ من بعض الشعرات البيضاء. وكان جسمه صغيراً لا يزيد وزنه على أربعين كيلوغراماً. لقد أمات جسده حسب وصيّة القديس بولس الرسول: «أميتوا أعضاءكم التي على الأرض».

فهذا الرجل الشاحب اللون، العريض الجبين، القيثاريّ الصوت، وضع نصب عينيه وهو يتقبّل سرّ الكهنوت المقدس هدفاً كبيراً: «سيكمّل ما نقص من آلام المسيح».

ما هو يا ترى في نظر يوحنا هذا النقص من آلام المسيح الذي أراد أن يكمّله؟ إن عمل الخلاص يستلزم من الكاهن والمبشّر تضحيات وموتاً كل يوم. وهذا ما وضعه يوحنا نصب عينيه: فخلاص النفوس يستلزم منه جهداً يلزمه أن يؤكل كل يوم، أن لا يرتاح، أن يكون دوماً في قلق. فملكوت الله لم يصل بعد إلى النفوس. هذا العمل الصعب هو ما أراد أن يتمّمه يوحنا طوال حياة الكهنوت.

لذلك سيكون كاهناً جريئاً، شجاعاً. وسيقوم بمعارك لم يسبق له أن خاض غمارها. وسلاح يوحنا سيكون الكلمة. بهذه الكلمة سيوصل الناس إلى المسيحيّة الحقّة. قال: «أريد أن تكونوا كاملين، فليس من خطر على الإنسان في هذا العالم إلاّ الخطيئة». وتحمّس الشعب لمواعظ يوحنا، وصرخوا وبكوا، ولوّحوا بالمناديل وهو يتكلّم من أجل هذا الخلاص. وهل تكلّم يوحنا من أجل هذا ومن أجل الشهرة؟ لا، قال: «إنما تكلمت لأُهدي الضالّين في سبيل الحق، ولأبعِد الناس عن السّكر والكذب والسرقة والكبرياء...» إلى هذه الحقبة يرجع تاريخ مؤلّفات كثيرة للقديس يوحنا: «**إثبات ألوهيّة المسيح**»، مقالة عن «**الندامة**»، «**عظة المسيح على الجبل**»، «**البتوليّة**»، «**الزواج الوحيد**»، «**المجد الباطل**»، «**تهذيب الأحداث**»، «**الكهنوت**»، «**سفر التكوين**»، «**مواعظ لعيدَي الميلاد والغطاس**».

٧ – يوحنا خطيب النصرانيّة الأعظم

يوحنا في أنطاكية هو الكاهن، إنما هو الكاهن الواعظ. سمعت كل كنائس أنطاكية صوته، خصوصاً الكنيسة الكبرى أو الكنيسة الذهبيّة. وكان كل الشعب يتراكض لسماع كلامه: المسيحيّون، الموعوظون، الهراطقة، حتى الغرباء. كلّهم سمعوا أن نبيًّا قام في أنطاكية. وسمعوه يتدفّق كالنهر، ويجري كلامه كالعسل. إنّ الشرق لم يعرف خطيباً أعظم من الذهبيّ الفم. قال عنه القديس نيلوس: «إنه نهر من الذهب يسيل». وقال ايسيدوروس: «لم يظهر في اليونان خطيب أقدر من الذهبيّ الفم». أمّا سويداس فيشبّهه برجل يتدفّق كلامه كالنيل. هذا الرجل خُلِق للوعظ، وهذه هي موهبته الخاصة، وقد قال هو نفسه: «إنّ الوعظ أسمى كل التضحيات وأفضلها. وبإمكان رجل واحد أن يصلح شعباً».

ولماذا يا ترى كان شعب أنطاكية يصغي إلى كلام يوحنا. إن يوحنا كان يعظ بيقين الأنبياء واندفاع الرسل. وكان يريد أن يوطّد العلاقة البنويّة مع الله. ومن جهته آمن يوحنا بسحر الكلمة وقوّتها وفعلها العجيب في النفوس. ومما لا شك فيه أنّ كلمة يوحنا عملت هذا العمل في النفوس لأنها كانت كلمة الله. فيوحنا تشرّب روح الله وحفظ سرّ التقوى العظيم، وتأمّل كثيراً في مراقي الكمال، لذلك امتزجت كلمته بكلمة الله. والله هو صانع المعجزات والخوارق، وعبده يوحنا هو صانع التغيّر في النفوس، وهذا أعظم المعجزات.

ثم إنّ الكتاب المقدس كان طريق يوحنا للوصول إلى النفوس، وكان المحور الذي تدور حوله كل إرشاداته ومواعظه. في مراجعة سريعة لمؤلّفات القديس يوحنا نجد أنّ أكثرها هو شرح أو تفسير أو تعليق على آية أو حادثة أو شخص من الكتاب المقدس. إنّ الكتاب المقدس كان كتابه وغذاءه وهاجسه، فلا شيء من غوامضه يخفى عليه. فقد دخل في سرّ الخلاص، وفهم روح الله، فاستفاض في شرح الكتاب المقدس الذي هو البشارة الصالحة وحكمة الله إلى الناس. يوحنا قال للإنطاكيّين: «لا أريد أن تعلّقوا الإنجيل في رِقابكم، وتحملوه على صدوركم، بل أريد أن تغرسوه في قلوبكم».

نستلمح من قراءة مواعظ يوحنا بعض الخطوط العريضة لها والتي ضمّخت كلماته وطبعتها بطابع امتاز به يوحنا عن سائر الوعّاظ. فهو الداعي دوماً إلى التوبة. إنه رأى، وهو الخبير الروحي وتلميذ الصحراء، أنّ الناس في أكثريتهم قد ابتعدوا عن الله وعبدوا الآلهة الكذبة. فأخذ على عاتقه إرشادهم إلى ضرورة الرجوع إلى الله. وهذا هو الارتداد وهذا هو التغيّر. كما أنّه لردّ الناس عن الضلال، وجعلهم دوماً لا يبتعدون عن الله، كما جرى للشعب اليهودي، وصف لهم بكلام مؤثر وواضح الدينونة ووطأتها على الخاطئين والمارقين. وشدّد خصوصاً في وعظه على أنّ العذاب الأكبر للإنسان إنما هو البُعد عن الله في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، منوِّهاً دوماً إلى أنّ الله هو أب حنون يفيض حباً للبشر ويكثر خيراته على الإنسان رغم سوء تصرّفه.

إن يوحنا هو أعظم محارب للوثنيّة في كل عصر. فالوثنيّة كانت ولا تزال متغلغلة في النفوس، ينهل منها الناس في القراءة وفيما يرون في الشوارع والطرقات وسلوك البلاط الامبراطوري. إنّ الوثنيّة معشّشة في الممارسات الخرافيّة والطلاسم والتنجيم والعرافة. كذلك اليهوديّة كانت في أيّام يوحنا لا تزال تغري الناس لأنها ديانة تقدّست بالكتب المقدسة. فكل هذه حاربها يوحنا بصوت راعد ومنطق فصيح وعلم غزير.

الواعظ الحقيقي هو الرجل القديس. ويوحنا كان قديساً، ولذلك اجترح المعجزات في النفوس. إنّ المسيحيّين في انطاكية لم يكونوا مثاليين، فهو يلومهم على ابتعادهم عن محبة القريب، وعلى ابتعادهم عن حضور الصلوات. هو ينوح على شقاء الذين لا يقرأون الكتاب المقدس، ويفضح السكّيرين والمجدّفين والأغنياء الأشرار، ويحارب التهتّك والخلاعة، ويحتجّ على الخرافات المضحكة وعلى الخلاعة الجامحة أيام الأعراس.

إنما يوحنا هو واعظ من القرن الرابع، عرف بالتمام عقليّة الشعب الانطاكي، ودرس حالاته كلها فوعظه بطريقة عصره وطرُق بلاغته وأسلوب التعبير الجارية آنئذٍ. فهو يلجأ كعادة خطباء الشرق إلى أنواع الإعادة والتكرار، وإلى الكلام الشرس أحياناً وإلى ثورة العاطفة القلبيّة، والتهكّم والهزل والتشبيه والأمثال المقتبسة من الحياة اليوميّة، ومن الحِرف ومن المسرحيّات، وخصوصاً من التوراة. في وسعه أن يتكلّم خمس دقائق، وفي وسعه أيضاً أن يتكلّم ساعة بل ساعتين، فلا يسكت حتى يخفت صوته.

٨ – كيف يتحطّم تمثال الامبراطور؟

في السادس عشر من شهر شباط سنة ٣٨٧ انتشر خبر في انطاكية أن الامبراطور ثيوضوسيوس فرض ضريبة جديدة لسدّ عجز الخزينة بعد الاحتفالات التي أُقيمت بمناسبة مرور عشر سنوات على اعتلائه العرش الامبراطوري و بمناسبة بلوغه الخمسين سنة من العمر. إنّ الجزية كانت الطريق المتّبع في المملكة في مثل هذه الحالات. وكان الشعب قد تعوّد على دفع الضرائب. لكن هل سيرضى شعب أنطاكية هذه المرّة وقد ثقل كاهله بسبب الضرائب؟

شعب انطاكية رفض هذه المرّة. إنه يدفع المال برضى، لكنّه يخاف من جشع وظلم الجباة الذين كانوا يتصرّفون كالوحوش: يقتلون، يفرّقون العائلات، يزرعون البلبلة. إنّ طريقة جمع المال كانت أقسى على الشعب من دفع المال. لذلك ثار الشعب هذه المرّة وركض إلى الشوارع، فالنساء تندب، والرجال يبكون، أمّا القسم الأكبر فقد هرب إلى البريّة خوفاً من وطأة الجباة الظالمين.

وإلى أين يلتجئ الشعب في مثل هذه المصيبة التي زحفت عليه كما يزحف الجراد على الحقول. ركض إلى الحاكم يستجير به ويطلب منه العون، أليس هو صديق الامبراطور ويستطيع أن يؤثّر عليه ويستعطفه من أجل شعب انطاكية. لكن الحاكم حاكم، وهو

يريد مركزه قبل رضى الشعب، وهو لا يريد إغضاب الامبراطور، فهو قادر أن يبعده عن مركز يدرّ عليه المال والشهرة والمجد، فرفض مقابلة الشعب الزاحف إلى القصر برجاله ونسائه وأطفاله، وهرب. فركض الشعب إلى الأسقف فلابيانوس. ألم يقل ثيوضوسيوس لولديه فيما بعد أنّ دعامة الامبراطورية هي الجيش ثم الأساقفة الصالحون. فهم السَنَد في الضيق. لكن فلابيانوس، وهو شيخ جليل، خاف وهرب. فرجع الشعب إلى قصر الحاكم. ولمّا لم يجده ثار وغضب. فحطّم التمثال الامبراطوري، الذي هو من ذهب وفضّة، لكنه أبكم لا يستطيع أن يتكلّم عن الامبراطور نفسه. إنما أليس هو رمز للامبراطور؟ والشعب غاضب على الامبراطور. وبدأت سلسلة تحطيم التماثيل في المدينة كلها.

هدأ الشعب وعاد الحاكم إلى قصره فرأى تمثال الامبراطور محطّماً، مكسّراً. فخاف. فهذه جريمة لا تغتفر، وهي جريمة قد تفقده عطف الامبراطور ورضاه. فجمع الجند وأمرهم ببدء المجزرة. إنّ الشعب هو أفضل ذبيحة تقدّم لاسترضاء الملك. وأخذ الجنود بالذبح والتقتيل والتنكيل. إنّ وحوشاً ضارية وجائعة أفلتت من القفص. وبعث حاكم انطاكية إلى الامبراطور ليسمح له بأن لا يترك في انطاكية حجراً على حجر. فتحقير الامبراطور يستحق مثل هذا القصاص.

هنا ظهر يوحنا، وقد ظهر كنبيّ، وتجلّت مقدرته في الوعظ والتهدئة والإرشاد، وكرجل يحبّه الشعب. إنّ الرعب كان شاملاً، والموت يهدّد كل إنسان من الخمس مئة ألف الساكنين في أنطاكية، وبان له باب أمل، أليس أن فلابيانوس هو صديق الامبراطور؟ أليس بمقدوره أن يحنّن قلبه فيشفق على هذا الشعب المسكين الذي هو شعبه؟ ثم أليس فلابيانوس هو الأسقف والأب والراعي لشعب أنطاكية؟ فيطلب منه، وأنطاكية في محنة ليس بعدها محنة، أن يقوم بخطوة من أجل شعبه المرعوب والمطرود والمذبوح. وألحّ يوحنا على فلابيانوس، وفلابيانوس خائف من كل شيء، وخائف من الشيخوخة، فكيف سيقطع مسافة ألف ومئة كيلومتر حتى يصل إلى القسطنطينيّة؟ ان الطقس طقس شتاء، لكن يوحنا أقنع البطريرك أخيراً، فصمّم على السفر، فهيّأ له يوحنا المواعظ التي سيلقيها في حضرة الامبراطور، والأغاني والأناشيد التي من شأنها أن تحنّن قلبه، وجمع حوائجه، وزوّده بمعلومات واضحة، وقال له: «لا يحق لك الرجوع إلاّ

بعد الحصول على العفو عن الأنطاكيّين: إذا غُفرَت خطاياهم، قال موسى للربّ، أرجعني إليهم، وإذا لم تُغفر لهم فأمتني وإيّاهم» (خروج ٣٢: ٣٢).

وبدأ يوحنا يعظ الشعب فقال: «لقد لزمنا الصمت مثل أصدقاء أيّوب، والآن اسمحوا لي أن أفتح فمي نادباً هذه المصيبة الشاملة. لم يكن يوجد أجمل من مدينتنا، وما أمرّ حالتها اليوم، انها خالية. وكما يطرد الدخان جماعة النحل من القفير فقد فعل الخوف بسكان أنطاكية. وبدأ التزعزع بالمدينة ثم انتقل إلى النفوس. الموت ماثل أمامنا، المخاوف تسيطر علينا، والحصار مفروض... الخروج من البيت يعني الاستلقاء في أحضان المعذِّبين القاتلين. لا تمييز بين بريء ومذنب، فالظلم شامل... إنّ الموت نفسه لا يعادل شقاوة الحياة المفروضة على السكان. إنهم يندبون الذين سبقوهم إلى ساحة العذاب وشبح الموت والتعذيب في أذهانهم يميتهم في كل لحظة». ثم قال لهم الخبر السار: «ان أسقفكم انطلق مثل شاب شجاع كأن له جناحين». وقال: «أنا متأكد من أنّ مجرّد ظهور الأسقف أمام الامبراطور التيّ سيهدّئ سورة غضبه علينا، لأنّ النعمة الإلهيّة تشعّ ليس فقط من كلام القديس بل في وجهه أيضاً». إنّ كلام يوحنا زرع التعزية في قلب الشعب، وأصبح من ثمّ صنم الجماهير، وكلّ السكان التصقوا به. وأصبحت انطاكية كنيسة مليئة بالمؤمنين ليلاً ونهاراً.

والتجأ يوحنا إلى الصلاة، وأمر الرهبان أن يتركوا الجبال ويأتوا إلى أنطاكية. إنّ ظهورهم فقط يعزّي الشعب الكئيب. وفعلاً قد ظهروا: عراة، يرتدون جلود الوحوش، عِظاماً مجرّدة إلاّ من الجلد، شعور ذقونهم ورؤوسهم تغطي نصف أجسامهم، وبيدهم عصاً كبيرة. جاؤوا إلى المدينة لينقذوها، وهم وحدهم قادرون على عمليّة الإنقاذ. «إنّ مجرّد وجودهم - يقول يوحنا - أدخل التعزية في قلوب المواطنين البائسين وجعلهم لا يرهبون الخطوب التي تهدّدهم». ومع ظهورهم خيّم السكون والسلام على المدينة المتألّمة.

وكان الأسقف فلابيوس في القسطنطينيّة يقول للامبراطور: «إنّ تاجك، يا سيّد روما والعالم، هو رائع، وهو دليل استحقاقك، ولكنه يرمز إلى جود الذي نقله إليك. أمّا تاج إنسانيّتك فالفضل فيه يرجع إلى حكمتك فقط. إنما الناس يعجبون بالأحجار الكريمة اللامعة على جبينك. إنما كم يكون إعجابهم بالانتصار الذي تحرزه على قلبك». وحاول فلابيانوس إقناع ثيوضوسيوس «بأنّه إذا سامح الانطاكيّين سينال مجداً عظيماً لا يسقط على مرور الأجيال». وكذلك «ستنضمّ جماهير غفيرة إلى الدين المسيحي إذ سيقولون: انظروا إلى الديانة المسيحيّة. لقد أطفأت غضب إنسان ليس له في العالم معادل».

أخيراً رأى الامبراطور أنّه مُحاصَر من جميع الجهات، فخضع وأصدر عفوه عن المدينة. إنّ الكاهن النحيل، الهيكل العظميّ، الذهبيّ الفم صنع خلاص أنطاكية. وفي

أسبوع الآلام بلغ العفو، فكان العيد فيها عيدَين: قيامة المخلّص وقيامة أنطاكية بالذات من الموت.

٩ – بطريرك القسطنطينيّة

اشتهر يوحنا بعد العاصفة التي حدثت في أنطاكية بسبب التماثيل الامبراطوريّة، ووصلت شهرته إلى القسطنطينيّة. عُرف لدى الجميع أنّه رجل يسيطر على الجموع ومُصلح للأخلاق ومدافع عن المسيحيّة. وهذا ما يريده المسؤولون في الامبراطوريّة، فهم يريدون رجالاً يقفون مع الحكّام في المحن والهجمات البربريّة ويخلقون تيّاراً شعبيًّا، خصوصاً يريدون رجالاً يقوّمون الأخلاق ويُصلحون أحوال الشعب والكنائس. وأشار انتروبيوس الوزير الأول على الملك أركاديوس أن يأتي بيوحنا بطريركاً على القسطنطينيّة العاصمة بعد موت نكتاريوس في ٢٧ أيلول ٣٩٧ بعد ستّ وعشرين سنة عادمة الإشعاع وقد قضاها في جمود رزين. وقبلَ الامبراطور الفاضل برأي الوزير، فأوفد رسولاً هو الكونت استيريوس ليخطف ليلاً يوحنا من أنطاكية ويأتي به إلى العاصمة، خوفاً من غضبة الشعب الذي كان يحبّ يوحنا حبًّا عظيماً كخطيب وكقديس وكراعٍ غيور على النفوس.

كيف عرف أركاديوس خبر يوحنا. فسّر له الكونت وهو يسير في الطريق أنّ الامبراطور يعرف كل ما يجري في العالم بواسطة شبكة من الرجال السرّيّين (المخابرات)، وجيش كامل من الفضوليّين. وأخبره أنّ افتروبيوس قصد أنطاكية ليستمع إلى الواعظ يوحنا فأُعجب بوعظه إعجاباً عميقاً. وعندما رجع إلى القسطنطينيّة طلب إضبارة يوحنا، فعرف كل شيء عن يوحنا، فهو قديس، ليس له إلاّ ثوب واحد، ولا يأكل إلاّ مرّة واحدة في اليوم وينام في غرفة خالية من الأثاث على سرير من الخشب. ويعرف أيضاً كيف عاش يوحنا في البريّة وكيف أنقذ أنطاكية. وعرف أخيراً أنّ للذهبيّ الفم نقيصتان: فهو يحب أن يستحمّ كل يوم ويحبّ العسل فيأخذ منه حبّة واحدة نصف ساعة قبل الوعظ، ويضع بضع نقاط من النبيذ المعطّر في الماء عندما يكون الحرّ شديداً. وصلّى يوحنا لكي يعضده الرب في مسعاه الجديد.

أركاديوس الامبراطور هو ابن ثيوضوسيوس العظيم الذي قسّم الامبراطوريّة بين ولدَيه أركاديوس للشرق، وأونوريوس للغرب. وكان أركاديوس لمّا تبوّأ العرش ابن

ثماني عشرة سنة، قصير القامة، أصفر الوجه، يتلعثم في الكلام، وإذا تكلّم فهو نصف نائم، لكنه كانَ قد نشأ منذ نعومة أظفاره في الديانة المسيحيّة وتتلمذ على رجل اسمه ارسانيوس صار فيما بعد قديساً. ولمّا استقبل الامبراطور يوحنا فتح عينيه وتذكّر قول أبيه أنّ قوّة الامبراطوريّة ترتكز على الأساقفة.

كان الاستقبال الذي أقامه الملك للقديس حافلاً رائعاً. إنما دُهش القديس وهو ربيب القفر والرجل المتقشّف من الغنى والترف، فالممرّات مفروشة بالذهب المستورد من الهند، وملابس رجال الموكب الامبراطوري مذهّبة وحتى الخيول كانت تتبختر متباهية بالذهب، والعربات مرصّعة بالأحجار الكريمة ومفروشة بالحرير المطرّز. إنّ هذا لا شيء بالنسبة إلى منظر الامبراطور بردائه الأرجوانيّ وبتاجه المرصّع وبصولجانه وبحذائه الأحمر وبهيبة وجهه. دهش يوحنا فقال: «لو أُعطي لوجهاء القسطنطينيّة لجعلوا كل شيء من الذهب الخالص: الأرض، الجدران حتى السماء والجلد».

لكن دهشة يوحنا زادت وعَظُمَت لمّا رأى أن جنون الذهب دخل إلى القصر الأسقفيّ، فهو يضاهي القصور الغنيّة في العاصمة، لأنّ سلَفه كان محافظاً للمدينة. ولمّا أصبح أسقفاً أدخل حياة القصور إلى بيوت الأساقفة. في القصر كلّ شيء من الذهب والفضّة، المقاعد من الحرير والمخمل، السجاد الثمين، الشماعدين من ذهب، المطبخ مليئ بالأدوات، كأنّه مصنع يشرف عليه أمهر الطبّاخين. وأدرك يوحنا منذ وطأت أقدامه القصر الأسقفيّ أنّ نضاله سيكون عنيفاً، وأنّه سيكون وحده، لأنّ الشعب هو على دين ملوكهم.

تمّت سيامة يوحنا في ٢٦ شباط ٣٩٨ بأُبّهة وعظمة، ترأس الاحتفال ثيوفيلس بطريرك الاسكندريّة، الذي ذكر التاريخ أنّه كان أسوأ الأساقفة الذين عرفتهم الكنيسة. كان فرعوناً حقاً، فظاً، محبًّا للذهب، يحتقر الإنسان مثل فرعون، وكان لا يحبّ يوحنا، بل كان يريد أن يعتلي هو كرسيّ القسطنطينيّة أو أن يكون عليه أحد صنائعه ليطيع أوامره ويخضع لتوجيهه. عدا أنّ الاسكندريّة كانت منافسة للقسطنطينيّة في احتلال المركز الثاني بعد كرسيّ روما.

وقف يوحنا في أوّل يوم في الكنيسة الكبرى أمام الشعب فرأى فيه قطيع المسيح الذي سُلّم إلى رعايته. فمن واجبه أن يرعاه بحرص ويعلّمه ويحافظ عليه كحدَقَة العين. يوحنا كان قد تعوّد على محبّة الشعب من كل قلبه وفكره، فلم يصعب عليه في أول خطاب له

أن يفصح أنّه هو الراعي والأب العارف بمسؤوليّته الجسيمة. «لا أحب – قال لهم في ذلك اليوم – أن أخلص أنا وأنتم تهلكون». وقال لهم: «إنّ مهمّته، وهذا لا يجب أن يخفى عليهم هو أن يصير كل سكان القسطنطينيّة مسيحيّين، وأن لا يخسروا حقّهم في السماء، إنه يفضّل أن يخفّ إعجاب الناس بمواعظه وأن يتزايد استعدادهم لتجسيد تعاليمه. إنه قلق قبل كل شيء من أجل نفوس شعبه، ويريد لهم الخلاص لأنهم صورة الله».

١٠ – البطريرك يتحدّى الجميع

بدأ البطريرك عمله سريعاً. أراد أولاً أن يجعل القصر الأسقفيّ بيت راعي الشعب، لا قصراً امبراطوريًّا. فأمر ببيع جميع الأواني الفضيّة والذهبيّة وتوزيع أثمانها على الفقراء، ثم باع السجّاد وشيّد بثمنه مستشفى للفقراء، وباع المقاعد الحريريّة والمغاطس الرخاميّة والشماعدين وأقام بأثمانها مأوى للغرباء. باع المرايا واللوحات والأعمدة، وترك الجدران عارية، وأخيراً باع السرير، الحرير، المخمل والخشب النادر حيث كان ينام الأسقف نكتاريوس، وأتى بسرير من ألواح الخشب وغطاء بسيط. بعد ذلك صرف جميع الخَدَم، وأرسل جميع أدوات المطبخ إلى المأوى، إلى الفقراء. إنّه لم يتعوّد على الرفاهية والترف، فقد عاش حتى في أنطاكية في تقشّف يفوق تقشّف النسّاك في البريّة، فكيف ينام على الحرير وتحيط به طغمات من الخَدَم والحَشَم. يوحنا أراد منذ أول خطواته، كبطريرك للقسطنطينيّة، أن يكون إماماً وقائداً للشعب إلى المسيح، والمسيح كان فقيراً متواضعاً.

تغيّر كل شيء في القصر الأسقفيّ، فقد ألغى الاستقبالات الكبرى وجلوس أي شخص على مائدته، وقاوم التبذير، وبدأ يأخذ طعامه وحيداً كما عمل طوال حياته، يساعده أحد الرهبان. وبهذا خاب أمل الارستقراطيّين وبدأوا بالتذمّر ضدّ البطريرك. ولم يهتمّ القديس بأقاويلهم الفارغة واختراع الإشاعات. وتابع، وهو في القصر الأسقفيّ، النظام نفسه الذي اتّبعه في المغاور: خضار وماء وعزلة وصلاة. لكن هذا الفقر في المعيشة والاستغناء عن الأثاث الفاخر ألّب حوله طبقة الشعب الكادح، أحبّه الفقراء واعتبروه أباً ومحامياً لهم، وأخذوا يحترمونه احتراماً بالغاً. وسنرى أنّ هذا الشعب وقف دوماً مع الذهبيّ الفم في صراعه ضدّ السلطة التي ابتعدت عن الصراط المستقيم. وسنرى

أيضاً أنّ الأغنياء والعظماء، الذين خاب أملهم في نيل مآربهم من البطريرك، أصبحوا ألدّ أعداء الذهبيّ الفم، وقامت قيامتهم عليه.

ثم أراد محاربة الأريوسيّين. هو أسقف في الكنيسة، وكانت الأريوسيّة ما تزال تنفث سمّها وتبلبل الكنيسة وتزحف إلى كل الأقطار مدعومة من السلطة المدنيّة. فأراد محاربتها مستعملاً الطُرق نفسها التي كانت تستعملها للتأثير على الشعب. فقد كان من عادة الأريوسيّين أن يسيروا في الشوارع، وهم يصلّون لأنّه قد حظّر عليهم منذ أيّام ثيوضوسيوس الاجتماع في أماكن عامّة للصلاة. ففي كل مساء كانوا يقفون في صفوف متراصّة ويبدأون بالسير عبر الشوارع وهم حاملون المشاعل بأيديهم، وهم يرتّلون التراتيل ويستمرّون طوال الليل. فحاول يوحنا محاربتهم بالطريقة نفسها. فأمر المسيحيّين أن يحملوا الشموع وأن يسيروا في زياحات منتقلين من شارع إلى آخر ومن كنيسة إلى أخرى. وزاد في عظمة هذه التطوافات حضور الامبراطورة نفسها التي تبرّعت من مالها الخاص بتقديم الشموع، والتي كانت ترتدي ثوباً أسود مثل الراهبات وعلى رأسها التاج الامبراطوريّ وتسير على قدميها في الموكب الدينيّ جنباً إلى جنب مع العبيد وعامّة الشعب. هذه البادرة أعجبت يوحنا، فمدح الملكة بكلمات رائعة أمام جماهير غفيرة.

واستغلّ مناسبة نقل الذخائر إلى الكنائس حتى يبعث الحماس في النفوس ويبيِّن عظمة الشهداء وضرورة الاقتداء بهم. وفي هذه المناسبات كانت تتصدّر أفذوكسيا الملكة رأس القافلة وتسير مع الشعب. فأُعجب بها القديس يوحنا ومدحها لا استرضاءً، بل لتتابع سيرها في الطريق الصحيح. وفي إحدى المرّات اتجه صوبها وخاطبها: «في القديم، مريم قادت شعب الله في البرّية وهو يحمل إلى أرض الميعاد عظام يوسف، وسط أهازيج الشعب والترانيم، وأنتِ تعملين اليوم مثلها. أمّا هي فكانت تحمل بين يديها آلات الطرب الرنّانة، أمّا أنتِ فتحملين قلباً يسمع نغمات ألذّ وقعاً في القلب من وقع الصنوج وآلات الطرب. هي كانت تنشد وتقرظ حريّة الشعب اليهودي، أمّا أنتِ فتتوّجين الكنيسة بتاج ثمين. إنك لعظيمة أيتها الملكة، إنّنا ندعوكِ طوباويّة ومضيفة للقديسين وشفيعة الكنيسة ومعادلة الرسل بغيرتك».

القديس يوحنا، بما أنّه أسقف في كنيسة المسيح، كان أيضاً رئيس الصلاة. عمل كل ما في وسعه لإصلاح الشوائب في اجتماعات المؤمنين للصلاة. ولذلك عزّز الترنيم الجماعي، الذي كما قال هو: «يقتلع النفس من الأرض ويحرّرها من ربط الجسد». وأيضاً عمل حتى يشترك الشعب كلّه في الصلاة، لأنّ الصلاة هي صلاة الشعب وصوته إلى الله، وأوضح للجميع أنّ تلاوة المزامير هي صلاة نافعة وجميلة لأنّها تصوّر كل حالات

الإنسان، وتعبّر عن كل آماله ورغباته. وحتى يومنا هذا لا نزال نتلو «ليتورجيا القديس يوحنا الذهبيّ الفم»، فهو الذي اختصر فيها الصلوات الطويلة ونظّمها ورتّبها حتى لا يملّ الشعب، وحتى يشترك فيها الشعب كلّه.

ثم جاء دور الاكليروس. كان الاكليروس في عصر القديس قد فسد بسبب ارتباط الكنيسة بالبلاط الامبراطوري وتردّد كثير من الأساقفة إلى البلاط وتودّده إلى الحكّام. كما أنّ كثيرين منهم كانوا يسكنون مع امرأة تخدمهم. فقد كان الكاهن يختار فتاة يتيمة أو فتاة تودّ تكريس نفسها لله فيعلنها أُختاً له بالمحبّة، ويحتفظ بها طيلة حياته مدبّرة لبيته. وغضب البطريرك يوحنا لهذه العادة، وهو لا يرضى بهذه الحياة المشتركة بين الرهبان والكهنة والفتيات، وهو مقتنع بأن الله نفسه لا يحبّ هذه المساكنة مهما كانت عفيفة. وقال في هذا الصدد: «حسب اعتقادي أنّ الحياة المشتركة مع امرأة لا تخلو من شهوانيّة حتى خارج النطاق الزواجي أو العلاقة اللحميّة». وقال أيضاً: «الاتحاد بامرأة شرعيّة يطفئ الشهوات ويولّد القرف أحياناً ويضع حداً للاندفاعات الشهوانيّة. إنّ متاعب الولادة تذبل سريعاً زهرة الصبا وتعرّض للمرض. أما العذراء فهي معفاة من كل هذا. فأين الممارسة الجنسيّة التي تستنزف القوى الطبيعيّة وتقتلها... أين آلام الولادة وأوجاعها التي تسرع في إظهار التجعّدات... العذراء تحتفظ طويلاً بنشاط الفتوّة... الذي يلمس جسد عذراء يتحرّق بالاحتكاك أكثر مما رأى...». وهكذا منع الذهبيّ الفم الأساقفة والكهنة والشمامسة وكل طغمة الاكليروس الخاضعة له من التعايش مع امرأة في بيت واحد. وبهذا أكثر الأعداء ضدّه، فأصبح الرهبان والكهنة والأساقفة والعذارى الذين منعوا من هذا الاختلاط أعداء شرسين للأسقف القدّيس.

القصر الأسقفي بات نظيفاً من كل ما يغضب السيّد. بيوت الاكليروس صارت نظيفة. والآن جاء دور الكنيسة حيث كان الأسقف يقيم الصلاة. فقد كان يقع نظره، وهو يتكلم من أمام الباب الملكي، على جماعة من نساء القصر الارستقراطيات، وعلى رأسهنّ ثلاث صديقات للامبراطورة، وهنَّ: مارسيا وكستريسيا وانغرافيا. وفي كل مرّة كان يرى القديس هؤلاء النسوة في الكنيسة كان يشعر بأنهنّ يجدّفن على الله والكنيسة. وأخيراً فتح فمه، وهو المسؤول عن النفوس، فقال: «اسمعن جيداً، أنا لا أعظ بل آمر أمراً... اذا استمررتنَّ في هذا الخطإ فلن احتمل، وسأمنعكنّ من دخول هذه الكنيسة، أنتنّ واللواتي على شاكلتكنّ... ان النساء اللواتي يرتدين الأثواب الكاشفة لإثارة الرجل في الشوارع أو في القصر هنَّ مجرمات. إنّ هؤلاء النسوة يجهزن على الروح وليس على الجسد. إنّ صورة الله هي التي نقتل بسبب هذا التصرّف الشاذّ». وعرف القديس ان هذا الكلام سيؤلب النساء الشريفات ضدّه، فلم

يخف، والقديسون لا يخافون أبداً. فقال: «إنّ كلامي يغيظكنّ ويزعج إحساساتكنّ...». وهكذا انضمّت هذه الطغمة الجديدة إلى صفوف أعداء القديس، إلى جانب الكهنة والأخوات المحبوبات.

وأراد القديس أن يقتلع الخطيئة من جماعة المؤمنين في القسطنطينيّة، ورأى أن «الأغنياء يهينون الله باستمرار». ورأى أنهم لصوص، لأنّ الكتاب المقدس يعلّم «أنّ السرقة لا تكون فقط عندما نأخذ ما لغيرنا، بل نكون سارقين عندما لا نوزّع ما نملك». أخذ يقرّع الأغنياء ويوبّخهم، فقال: «يتّهمونني بأنني أُكثِر من مهاجمة الأغنياء، ولكن هؤلاء الأغنياء يظلمون الفقراء دائماً. أجل، أُهاجم الأغنياء ولكن أُهاجم فقط الذين يسيئون استعمال غناهم. الأغنياء هم أبنائي والفقراء أبنائي». ثم يخاطب الغني قائلاً: «أودّ تخليصك من البخل، وجعلك محبوباً من الجميع وحاصلاً على الملكوت. أنا أحبك، أنا طبيبك وأريد نجاتك، ولا أخاف عليك إلاّ من شيء واحد: الخطيئة».

وحصد القديس ثمار هذه المواعظ ضد الأغنياء فانقطعوا عن المجيء إلى الكنيسة وقامت محالفة بينهم وبين الأخصام القدامى السابقين. ولكن القديس صمد، فهو في الحق. لكن الشعب وجماهير العمال والفقراء والبؤساء، وشعب القسطنطينيّة كلّها كانت معه. فهو قويّ ويمكنه أن يحطّم الأصنام ويقاوم الظالمين.

١١ - يوحنا وإتروب الوزير

إتروب كان عبداً خصيًّا انتقل من سيّد إلى سيّد وانتهى أخيراً إلى خدمة الامبراطور ثيوضوسيوس فأُعجب بذكائه وتهذيبه، فقرّبه وأخذ في استشارته. وبعد موت ثيوضوسيوس أصبح اتروب المستشار الوحيد للامبراطور أركاديوس الضعيف، وهو الذي زوّج الامبراطور أركاديوس من الفتاة الشقراء افذوكسيّا. إنما حياته، رغم هذا المجد والسلطان، كانت جحيماً دائماً، فالشعب لم يغفر له أن يصير، وهو العبد، المستشار الأول والحاكم الفعلي للدولة. والعبد عبد ولو أصبح ملكاً. وتحمّل أتروب كثيراً، لكنه في الأخير لم يستطع احتمال الاحتقار والإهانة. وأتت الساعة إذ فقَدَ سيطرته على نفسه فأخذ في الانتقام دون شفقة ولا رحمة. أعدم الأخصام وعذّبهم وكرّت السلسلة.

لكن إلى أين يلتجئ أخصام اتروب الذين يحاول قتلهم؟ هربوا إلى الكنيسة فلحق بهم. كانت الكنيسة الملجأ الوحيد للخلاص، فأمر اتروب الكنيسة بمنعها كمن إيواء الهاربين من وجهه الغاضب. فوقف الذهبيّ الفم في وجهه وقال له: «إنك انتهكت حرمة الكنيسة حتى النهاية، إنك تحاول انتزاع حقّها بحماية الفازعين إليها، وسها عن بالك أن إنساناً في العالم مهما عظم مجده لا يحقّ له التعدّي على حرمة بيت الله». يوحنا كان يدافع عن حقوق الكنيسة، ألم يقل هو نفسه: «إذا رأيت الكنيسة مهاجمة فلا تسالم، وناضل حتى الموت...». ووقف يوحنا ضدّ اتروب.

وفي خصامه مع اتروب وقفت معه افذوكسيّا الامبراطورة، فهي لم تهضم أن يكون العبد الحاكم وهي امبراطورة وزوجة الامبراطور. وحدث خصام بين اتروب وقوّاد البربر حماة الامبراطورية الرومانيّة في ذلك الوقت. وكان ذلك بسبب طلب أحد قادة البربر بزيادة المخصصات العائدة إلى رجاله وبأشياء أخرى. فأهانه اتروب ورفض مقابلته. فثار وحمّس رجاله فأعلنوا الثورة، وخاف اتروب من مهاجمة البربر القسطنطينيّة فكلّف أحد قادتهم وهو غابيفاس ليصدّهم. ولمّا قابلهم هذا طلبوا رأس اتروب حتى يوقفوا زحفهم ومحاصرتهم. وهنا تدخّلت افذوكسيا وألحّت على الامبراطور أن يستغني عن اتروب وأن يأمر بقطع رأسه ليخلّص المملكة من هذه الهجمة القاسية. ولكن اتروب الذكي الداهية هرب من القصر فلحق به الجند فالتجأ إلى الكنيسة وطلب حماية الذهبي الفم.

القديس يوحنا يحترم الشرائع السماويّة، ووعد اتروب بأن يحميه على الرغم من أنّه هو نفسه منع الكنيسة عن حماية الملتجئين إليها في المحنة. وقال لاتروب: «إن الكنيسة تبلغ أوج مجدها إذ ترى مضطهديها يطلبون حمايتها». وتجمّع الكهنة والأساقفة وطلبوا أن يسلّم عدوّ الكنيسة، وحوصرت الكنيسة بالجيش والشرطة، وجابه القديس الجموع وقال لهم: «إنّ الكنيسة تمارس حقّها في حماية اللاجئين إليها على الرغم من القوانين التي سنّها الوزير اتروب. لا أحد يقدر أن يدخل الكنيسة إلاّ مروراً على جثة الذهبيّ الفم». وبقي اتروب حيًّا بواسطة الكنيسة.

وفي الغد كان يوم أحد، جميع الشعب أتى إلى الكنيسة متشوّقاً إلى معرفة أخبار اتروب وإلى سماع الذهبيّ الفم. وجابه الذهبيّ الفم الجميع، وظهر في الباب الملكي، وكان شاحب اللون، تعباً من الحوادث التي مرّت في الأيّام السابقة واستغلّ هذا الاضطراب العام وتوجّه إلى سكان القسطنطينيّة وقال: «في هذه اللحظة، جدير بنا أن نقول

مع الحكيم: «باطل الأباطيل وكل شيء باطل». ونظر إلى اتروب وتابع قائلاً: «والآن أين جلال السلطان، أين لمعان الأضواء والمصابيح؟ أين المصفّقين والمغنّين والراقصين؟ أين الحفلات؟ أين الموائد المثقلة باللحوم والخمور؟ أين الخَدَم والحَشَم؟ كل هذا قد مضى...». والتفت إلى الوزير متابعاً: «ألم أقل لك بتواتر إن الثروة زائلة، فلم تسمع. ألم أقل لك إن طبيعة المال مثل طبيعة الخدم العقوقين الذين لا يفكّرون إلاّ بالهرب، فلم تصدّق وجاءت التجربة تعطيك البرهان ليس فقط على عقوق المال بل على أنه قاتل لأنه يجعلك ترتجف وتشحب... حاربت الكنيسة وها الكنيسة تستقبلك في حضنها. الكنيسة التي اضطهدتها لا تفكّر اليوم إلاّ بأمر واحد: أن تمدّ يدها إلى محنتك، أن تنقذك!» والتفت يوحنا إلى الشعب وهو يقول: «مَن كان أكبر من هذا الرجل. مَن يدّعي أنه يعادله في الثروة؟ لقد بلغ الذروة في المجد والشرف. كان محسوداً، كان مخيفاً، واليوم هو بائس أين منه الأسير المثقل بالحديد. عريان أين منه العبد، وفقير أين منه الشحّاذون الجائعون. وماذا بقي له؟ الموت بجميع مرعباته ومخاوفه». وطلب من المؤمنين أن يتجنّبوا خطايا افتروبيوس وأن يستعبروا من حاله. وغادر الشعب الكنيسة الكبرى في أعنف حال من التشويش والاضطراب.

١٢ - الذهبيّ الفم يتحدّى الامبراطورة افذوكسيّا

ولكن هل استقامت الأمور في القصر بعد هرب اتروب وموته؟ لقد أصبحت الأمور كلها بيد افذوكسيا وأصدقائها. وأوّلهم عشيق الامبراطورة الكونت جان ثم صديقاتها افغرافيا وكاستريسيا ومارسيا، اللواتي وبّخهنّ القديس لعدم حشمتهنّ في بيت الله. كذلك كانت الأمور بيد القاضي أوريليانوس الذي أتقن فنّ تحوير القوانين وتطبيقها. هذه هي الزمرة التي كانت تحكم الامبراطورية. إنما وُجد شخص واحد ضدّ هذه الجماعة هو القديس يوحنا الذي طلب من الامبراطورة نفسها، كما كان يطلب من المؤمنين، ومن سائر الفريق الحاكم أن يكونوا فاضلين وصالحين. لكن هذه الدعوة إلى الفضيلة لم تعجب الزمرة، فأخذت الملكة تسعى وتستغلّ الحوادث لكي تتخلّص من القديس الذي كان يوبّخها على الإثم ويشبّهها بإيزابيل الملكة.

وحدث أنّه في شهر شباط من سنة ٤٠٠ ترأس يوحنا مجمعاً في القسطنطينيّة، وأثناء الجلسات فضَحَ أحد الأساقفة القادمين من آسيا الصغرى الجرائم التي كان يرتكبها بعض أساقفة هذا الإقليم. فقد كانت الكرامات الكنسيّة والدرجات الكهنوتيّة تُباع بالمال، والصولجان الأسقفيّ صار للتجارة، والأواني الفضيّة والذهبيّة تُذوَّب وتُباع، ورخام جرن

العماد وأعمدة الكنيسة كانت تُنقَل إلى القصر الأسقفيّ لتزيّنه. عدا ذلك كان الأسقف أنطونيوس أسقف أفسس يعيش مع امرأة وله منها أولاد كثيرون. وتدخّل يوحنا رغم أنّ أفسس لا تخضع لسلطته، وذهب ليرى هو بنفسه، وجمع مجمعاً في أفسس من سبعين أسقفاً وأصلح الأمور وسنَّ القوانين وعاد إلى مدينته. لكن ألَّب ضدّه هذه المرة أيضاً جماعة من الأساقفة الذين عزلهم أو وبّخهم في آسيا وغيرها، فانضمّوا إلى زمرة أخصام القديس.

ثم عرف القديس أنّ بعضاً من أساقفته يتردّدون يومياً إلى بيوت النساء الأرستقراطيّات ويتناولون الطعام على موائد الأغنياء، وأنهم يعيشون على نمط دنيويّ، وهذا التصرّف لا يرضيه ولا يرضي الرب. وبدأ يوحنا في توبيخ هذه الفئة من الأساقفة وقال للبعض منهم: «أنتم تعيشون طفيليّين ومدّاحين...» وقال: «اجمعوا كهنة الخزي هؤلاء الآكلين على مائدة إيزابيل لأقول لهم ما قاله إيليّا: ما بالكم تتعرّجون على الجانبين. إذا كان البعل هو الله فاتبعوه، وإذا كانت مائدة إيزابيل للرب فكلوا من الطعام المبسوط عليها...».

واستدعت افذوكسيا جميع الأساقفة الناقمين والحاقدين على يوحنا وجمعتهم مع الزمرة الحاكمة التي أزعجها توبيخه، وصمّمت معهم على الخلاص من القديس. واستعانت على ذلك بالبطريرك ثيوفيلس فرعون مصر. افذوكسيا تعرف أن الشعب يحبّ يوحنا، ويخلّصه كلما أراد أخصامه له الأذى. فأرادت أن تستعين بالقوانين الكنسيّة، ومَن هو أدرى بهذه القوانين وبطريقة تحويرها وشرحها من البطريرك ثيوفيلس الاسكندري الخصم اللّدود ليوحنا بطريرك القسطنطينيّة؟

لكن لا بدّ من مناسبة لمباشرة العمل، فكانت قضيّة الرهبان «الإخوة الطوال» الحجّة التي تذرّع بها ثيوفيلس للإنقضاض على الذهبيّ الفم. هؤلاء الرهبان الإخوة الأربعة كانوا يعيشون في بريّة مصر نسّاكاً منقطعين عن العالم، يقضون أيّامهم في الصوم والسهر والتقشّف. وحاول ثيوفيلس إخراج هؤلاء الإخوة من البريّة ليرفعهم إلى درجة الأسقفيّة، لأنهم جديرون بأن يكونوا رعاة صالحين وقادة نفوس حقيقيّين. ولكنّهم رفضوا، ورفضوا أيضاً التصديق على حكم أصدره ثيوفيلس ضدّ مدبّر أبرشيّته الايكونوموس ايسيدوروس. فثار ثيوفيلس وبدأ يضربهم بيديه الاسقفيّتين وجرح أجسامهم وأسال ما بقي فيهم من دماء. وذات يوم قام ثيوفيلس بنفسه على رأس فرقة من الشرطة وانقضَّ معهم على المناسك كالذئاب على الخراف، وأشعلوا النار محرقين بيوت

النسّاك الحقيرة. فهرب الرهبان فلحق بهم الجنود، فنجا من تلك المذبحة الرهيبة الإخوة الطِوال ومعهم ثلاثمئة راهب وظلّوا تائهين حتى قطعوا الصحراء. ثمّ وصلوا إلى الحدود الفلسطينيّة، وساروا على الرمال المحرقة وتاهوا في مجاهل الصحراء ودخلوا فلسطين وحلّوا في أورشليم واحتموا ببطريرك أورشليم. لكن بعد مدّة خاف هذا البطريرك من خصومة الفرعون المصري فأنذر الرهبان بالخروج، وكان قد بقي منهم ثمانون فقط. فقاموا من جديد وأبحروا من قيصريّة إلى القسطنطينيّة وطلبوا حماية القديس، فاستقبلهم القديس بالترحاب وفحص عقيدتهم وقال لهم: «أنا آخذ قضيّتكم على عاتقي، فإمّا أن يحكم مجمع آخر ينعقد لهذه الغاية وإمّا أن يرفع أسقفكم بتلقاء إرادته الحرم عنكم، اعتمدوا عليّ». وكتب لثيوفيلس يطلب منه رفع الحرم لأنّه لم يشتمّ في عقيدتهم ما يخالف الإيمان الحق.

واستغلّت الامبراطورة هذه القضيّة فأشاعت بواسطة أبواقها أنّ يوحنا منع الرهبان عن الرجوع إلى مناسكهم وحبسهم، وفرض عليهم نظام التوبة ولم يسمح لهم بالتقدّم إلى جسد الرب. وعملت على دعوة مجمع لينظر في أمرهم. ولكنّ الحقيقة كانت أن الامبراطورة وثيوفيلس والجيش والأساقفة يريدون قتل يوحنا. والتأم المجمع في «قصر السنديانة» الواقع قرب خلقيدونية. وبدأت المحاكمة، وشعر القديس بالخطر المهدّد، فقال: «صلّوا يا إخوتي، وإذا كنتم تحبّون المسيح فلا تهجروا كنيسته بسببي لأني أقدر أن أقول مع الرسول: «إنّ وقت انحلالي قد دنا. لقد جاهدت الجهاد الحسن وأكملت الشوط». أنا أعرف الشيطان ومكايده فالشيطان غير قادر على احتمال الحرب التي أُصليه إيّاها بتعاليمي. رحمتك يا رب، وأنتم يا إخوتي، اذكروني في صلواتكم».

كانت محاكمة يوحنا مهزلة تاريخيّة. وصل ساعيان إلى بيت يوحنا وتليا عليه رسالة: «من المجمع المقدس المنعقد في قصر السنديانة إلى يوحنا... لقد استلمنا وثيقة اتهامات تعلن جرائم كثيرة أنت مرتكبها. نأمرك بالحضور أمامنا». لكن يوحنا وأساقفته رفضوا الحضور، وكتبوا رسالة يرفضون فيها الحضور إلى المجمع لأنه غير شرعيّ وغير قانونيّ. وحمل الرسالة رسل من قِبَل يوحنا. فلما وصلوا وقرأ آباء مجمع السنديانة الموقّرون الرسالة غضبوا كلّهم وهجموا على حاملي الرسالة وألقوهم في الأرض وراحوا يضربونهم بوحشية ويمزّقون ثيابهم ويجرحون أجسامهم. ثم إذا لم يحضر القديس إلى المجمع فالمجمع يقدر أن يحاكمه غيابيًّا. وجمعوا الوثائق وأحصوا التهم فكانت تسعاً وعشرين جريمة، ثم ارتفع العدد إلى ستة وأربعين. ونحن نورد للتسلية بعض التهم فقالوا: إنّ الذهبيّ الفم رقّى إلى

درجة الكهنوت عبداً سابقاً ، ثم إنّ الذهبيّ الفم يأخذ حمّامه اليومي ، ثم انه يأكل حبّات من العسل قبل الوعظ ، ثم انه يأكل على انفراد خضاراً مسلوقة ويضع النبيذ في الماء في أيّام الحرّ ، ولا يرتّب ثيابه الكهنوتيّة بعد الانتهاء من الخدم الإلهيّة ، وانه ينام مع امرأة... وحيث أنّ يوحنا متّهم ، ولم يحضر إلى المجمع فاحتقر هكذا أمر الامبراطور ، فهو يستحقّ القصاص. وطلب المجمع من الامبراطور تنفيذ الحكم ، فيذهب يوحنا إلى المنفى.

وهرب القديس من القصر الأسقفي ليلاً خوفاً من الشعب الذي سيثور إذا عرف أنّ البطريرك تركه وذهب في طريق المنفى. لكنّ الشعب ثار فسحق. وتزلزلت الأرض حتى إنّ سرير الامبراطورة انقلب ووقعت أفذوكسيا أرضاً ، وخافت فركضت إلى الامبراطور تقول له : «الرجل الذي نفيناه هو صالح ، وان الله ينتقم له ، فإذا أردت الحفاظ على المُلك فمُر أن يعود حالاً من المنفى». وكتبت أفذوكسيا بنفسها رسالة ترجو بها القديس بالرجوع من المنفى.

ورجع القديس وخطب في الجموع قائلاً : «تهديدات العالم أدوسها برجليّ، وُعود العالم أضحك منها. لا أخاف الفقر... الموت لا يرهبني ، لا أرغب في الحياة إلاّ إذا كانت حياتي تساعدكم على التقدّم في الصلاح. لا شيء يقدر أن يفصلنا. أتحمّل كل شيء لأني أحبّكم وماذا لا أتحمّل من أجلكم؟ حبّكم هو وطني وعائلتي ، أنتم إخوتي وأولادي... أنتم وأنا نعمل جسداً واحداً. أنتم لي نور ألطف من نور الشمس. محبّتكم تضفر لي اكليلاً للأجيال القادمة... لقد سهرتم ليالي عديدة ولم يزعزع إخلاصكم لا طول الوقت ولا المخاوف ولا التهديدات». ثم حمل الشعب أسقفه على الأيدي والأكتاف إلى الكاتدرائيّة ووضعه على المنبر ، وقال له : «تكلّم. نرجوك تكلّم». وتأثّر الذهبيّ الفم من جديد ، وخاطب الجموع من جديد : «يا لشرف قطيعي ، في غياب راعيه جعل الذئاب تهرب... أين نحن ، في الفرح والحبور...»

١٣ – نهاية قديس

عاد الخلاف يظهر بين القديس والامبراطورة. فهي لا تريد شيئاً إلاّ تمثالاً من ذهب وفضّة وبلاتين. في كل مدينة تمثال ، وتمثال العاصمة يجب أن يكون أكبر وأفخم وأثمن واختارت افذوكسيا المكان : الساحة المقابلة للكنيسة الكبرى وهي أوسع ساحة في المدينة.

هذا الأمر أغضب البطريرك. فعادة إقامة التماثيل هي عادة وثنيّة، فقط رضيت الكنيسة بأن يُقام تمثال للامبراطور. وابتدأ العمل في صنع تمثال من فضّة، وأخذ الضجيج والرقص يزعج القديس أيضاً وهو يقيم الصلاة مع المؤمنين. واحتجّ القديس لدى محافظ المدينة الذي نقل إلى الملكة أن البطريرك غير راضٍ عن مظاهر الاحترام لشخصها. وأخيراً تكلّم القديس فشرح للمؤمنين ما في خاطره عن التماثيل وعن الأشخاص الذين يطلبون أن تُقام لهم تماثيل وعن الاحتفالات الوثنيّة التي تطلبها الملكة تكريماً لتدشين تمثالها، وأنهى موعظته بمقابلة بين افذوكسيا وسالومة. وقال القديس: «أنا عارف أنّه فور انتهائي من هذه الموعظة ستطلب سالومة رأس يوحنا، ليس المعمدان بل يوحنا الذهبيّ الفم. أما أنا فالموت لا أخافه... من واجبي فضح الخطيئة. ما كان يجري بمناسبة التمثال أمام الكنيسة هو فضيحة، هو خطايا متراكمة، هو تحقير للسماء».

غضبت الامبراطورة فاستدعت من جديد الأساقفة المصريين الذين سبق أن حكموا على الذهبيّ الفم. وكتبت رسالة إلى البطريرك الاسكندريّ ثيوفيلس تستدعيه لتصفية يوحنا نهائياً. هو طلب عقد مجمع، وها هي تخضع لطلبه. لكن ثيوفيلس خاف فرفض المجيء، لكنه أرسل وفداً من الأساقفة المصريّين وزوّدهم بتوجيهات قانونيّة. وانعقد المجمع الخبيث واستعرض الشكاوى ضد القديس، ودرست المسألة من كل جوانبها، ووصل المجمع إلى قرار نهائي وهو: التخلّص نهائيًّا من يوحنا. ثم طلب آباء المجمع من الامبراطور التقيّ الورع أن ينفّذ ما ارتأى به الأساقفة القدّيسون.

خضع الامبراطور لمشيئة المجمع ولإرادة الحاكمة بأمرها الامبراطورة افذوكسيا. ففرض بادىء ذي بدء الإقامة الجبريّة على يوحنا، ثم أمر بإرساله إلى المنفى، وطلب الإسراع في تنفيذ الحكم. ودخل رسل الامبراطور على القديس في يوم سبت النور العظيم وأمروه بترك الكنيسة. فقال يوحنا: «لا أقدر أن أترك الكنيسة، الله أعطاني هذه الكنيسة لأعتني بقطيعه، فلا أهجرها». وإزاء رفض القديس وإلحاح الامبراطور، استعمل الرسل والجنود العنف، وجرت مذبحة رهيبة جرت الدماء في الكنيسة كالأنهار. وقد قاد تلك الحملة البربرية الأساقفة والكهنة.

وهرب القديس حقناً للدماء، فأُمسك وسُجن. فكتب رسالة إلى أخيه أسقف روما البابا إينوشنسيوس يطلب مساعدته، ومما قاله: «نظن أن أخبار الجريمة وصلت إلى مسامعك قبل قراءتك هذه الرسالة. لقد كانت الجريمة هكذا فظيعة حتى ان كل بقعة في العالم انزعجت

وتألّمت. في كل زاوية من العالم حِداد ودموع وعويل». وتحنّن البابا فكتب معزّياً القديس: «أنت الراعي المعلم، لست بحاجة إلى مَن يعلّمك بأن الأتقياء هم أكثر الناس تعرُّضاً للتجارب، غير متزعزعين إزاء الأتعاب القاسية وإزاء المظالم». وعرض أمر يوحنا على اونوريوس امبراطور الغرب فوعد بالمساعدة.

لكن الزمرة والأساقفة كانوا بالمرصاد، أرادوا التعجيل في تصفية القديس، فحاولوا الاغتيال، فلم ينجحوا وحاولوا مرة أخرى بواسطة الكاهن البيذيوس الذي تخفّى بملابس بائع متجوّل ولم تنجح المحاولة الثانية أيضاً. أخيراً تقرّر النفي إلى مكان بعيد. وكتب الأسقف بلاديوس صديق القديس وكاتب سيرته: «من الباب الشرقي ترك ملاك الكاتدرائيّة، فملاك الكنيسة ذهب معه».

ذهب القديس أولاً إلى خلقيدونية، ثم رحل في حزيران ٤٠٤ إلى نيقية، وفي الطريق أخذ الجنود الأسقفين سيرياكوس وأوليسيوس اللذين رافقاه والكهنة أيضاً والشمامسة وبقي القديس وحده بين الجنود، دون صديق واحد. فشعر بالعزلة القاسية، واستطاع القديس أن ينفذ من خلال الحديد إلى قلوب الحرّاس فأخذوا يلاطفونه ويأتونه بالخبز والماء والحليب مخالفين أوامر الامبراطورة. لكن الحقد ما زال يلاحقه، فأمرت الزمرة أن يذهب بالقديس إلى كيركوز، وهي قرية واقعة على حدود الامبراطوريّة في أرمينيا الصغرى. وكان مجرّد اسمها يلقي الرعب في النفوس. فمرَّ في أنقره ثم في بلاد الكبادوك وكيليكيا. وكان الشعب يستقبله بالترحاب وبالضيافة السخيّة. وقضى الذهبيّ الفم مدة من الزمن في كيركوز، ودبَّ النشاط في جسمه بسبب معاملة السكان والجنود الحسنة. وإذ شعرت الامبراطورة بأن القديس لا يزال حياً أمرت بنقله إلى منطقة كومان، فذهب القديس مكبّلاً تعباً.

في هذه الأثناء كان أسقف روما يحاول إنقاذ يوحنا، وهو يجهل أن القديس في طريقه إلى الموت. وطلب البابا نصيحة القديسَين أغوسطينوس وإيرونيموس فنصحاه أن لا يتدخّل في مسألة الذهبيّ الفم. ولم ينفع تدخّل امبراطور الغرب شيئاً، فالشرق أصبح مملكة سائبة بعد وفاة افذوكسيا بموت مفجع، وظلّ أركاديوس نائماً، غافلاً.

لقد طلب الله من الذهبيّ الفم تضحيات قام بها قبله أيّوب. وأعطى يوحنا الله كل شيء بإيمان، والآن الله راضٍ عن مقاومة بطله يوحنا، ولن يطلب منه أكثر من هذا. لقد بلغ الثامنة والخمسين من العمر، هو جِلْدٌ على عظم. وكان مستعدًّا لمتابعة الجهاد،

لكن محبّة الله رأت أن يرتاح هذا المناضل العنيد، وفي ١٣ أيلول سنة ٤٠٧ كان القديس ينام، فأرسل الله إليه القديس بازيليكوس الشهيد، الذي شُيِّدَت كنيسة على اسمه في منطقة كومان، فقال الشهيد للقدّيس: «تشجّع يا أخي يوحنا، غداً سنكون معاً». ثم حضر الشهيد عند كاهن الكنيسة وقال له: «هيّئ مكاناً لأخي يوحنا لأنّه آتٍ ولن يتأخّر».

وأيقظ الجنديّان القديس لمتابعة السير ليلاً، فاستعطفهما القديس أن يتمهّلا عليه حتى بزوغ الفجر لأنّه سيموت في الصباح. ومع الفجر شعر القديس بأنّ ساعة موته قد دنت فطلب من الجنود أن يرجعوا به إلى كنيسة القديس بازيليكوس، فقبل الجنود هذه المرّة. وفي طريق عودته أخذ يسير بنشاط وهمّة كمن يأتي إلى محبوبه. خلع ثيابه وارتدى قميصاً أبيض طويلاً، واستلقى على بلاط الكنيسة وتناول جسد ودم الرب ثم قال: «المجد لله على كل شيء، آمين».

ومات الذهبيّ الفم.

القسم الثاني

مواعظ القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم

الفصل الأول

الإنجيل دُستور حيَاتنا

ترجمة الأب ألكسيوس
شتوي المخلصي

١

عِظَة عن الإنجيل ومطالعة الكتاب المقدّس وفائدته

١ - مطالعة الكتاب المقدس

ان النبي العظيم داود لعلمه بالفائدة الجمّة من مطالعته الكتب المقدسة كان دائماً يصغي بكليّته إليها ويتلذّذ بالحديث عنها. أما هو القائل: طوبى للرجل الذي لم يسلك في مؤامرة الأشرار، ولم يقف في طريق الخاطئين ولم يجلس في مجلس المستهزئين، ولكن في ناموس إرادته بل بناموسه يلهج نهاراً وليلاً، ويكون كغرس مغروس على سواقي المياه يعطي ثمره في حينه وورقه لا يذبل وكلّ ما يعمل يصلح. (مزمور ١ : ١ - ٣) فوجود الشجرة على سواقي المياه يعطيها الري الدائم الواقي إيّاها من تقلّبات الطقس فلا تضرّها أشعة الشمس المحرقة ولا الهواء الجافّ لأن الرطوبة الكافية داخلها تلطّف لها حرارة الشمس. هكذا النفس الواقفة أمام ينابيع الكتابة الإلهيّة تستقي منها الحياة وتنعم بندى الروح القدس أيضاً فلا خوف عليها من تقلّبات الحياة المكدّرة وإذا تعرّضت لمرض أو لوم أو نميمة أو قدح أو استهزاء أو تهاون أو صبّت عليها مصائب الدنيا فإنها تتغلّب على الصعوبات كلها بسهولة وتجد التعزية الكافية في مطالعة الكتب المقدسة. وبالإجمال لا شيء كمطالعة الكتاب المقدّس يعزّي في الأحزان والشدائد، لأنّ كلّ الأشياء فانية ووقتيّة، تزول التعزية بزوالها. أمّا مطالعة الكتب المقدسة فهي محادثة مع الله وإذا كان الله تعزيتنا فأيّ شيء يستطيع أن يوقعنا في اليأس.

فلنطالع الكتابة المقدّسة جيداً لا في أثناء الصلاة عند وجودنا في الكنيسة فقط بل عند الرجوع إلى البيت لنكون أمينين على أنفسنا فليأخذ كلٌّ منّا التوراة ويفهم ما قيل فيها. هذا إذا أردنا الفائدة الدائمة الكافية من مطالعة الكتب المقدّسة. فإنّ الشجرة المغروسة

على مجاري المياه لا تتّصل بالماء ساعتين أو ثلاثاً في النهار بل اتّصالها دائم ليلاً ونهاراً. ولذلك تزدان بالأوراق وتعطي الثمار الجيّدة في حينها. إنّ اليد البشريّة لم تسقها، ولكنّها تمتصّ الرطوبة بواسطة جذورها وتوزّعها على أعضائها. هكذا الإنسان المواظب على مطالعة الكتب المقدّسة والواقف عند ينابيعها يجيز لنفسه المنفعة العظيمة، وإن لم يكن لديه من يفسّر له الأقوال الإلهيّة لأنّه يشبه الشجرة التي تمتصّ الغذاء بواسطة جذورها.

٢ – الفائدة من مطالعة الكتاب المقدّس

التمرين على مطالعة الكتب الإلهيّة هو الميناء الهادي والسور الحصين الذي لا ينهدم، والبرج غير المتزعزع والمجد اللازم والسلاح الذي لا يغلب والسعادة الخالية من الأكدار، والنعيم الدائم ومصدر الخيرات التي لا يقدر العقل البشري أن يتصوّرها. إنها تطرد اليأس، وتحفظ الوداعة، وتغني الفقير أكثر من الغنيّ، وتُبعد الأغنياء عن الخطأ، وتجعل الخاطئ صدّيقاً، وتقود الصدّيق إلى المأوى الحصين، وتستأصل الشرّ وتزرع الخير حيث لا أثر له وتطرد الحقد والضغينة والحفيظة، وتردّ النفس إلى الفضيلة وتثبّتها وتديمها. بل هي كالطبيب للنفس، ونشيد إلهيّ سرّي يميت الشهوات ويستأصل أشواك الخطيئة. إنها تنقّي الحقل وتزرع البذورَ الطاهرة وتنضج الأثمار. إنها الطيب المنتشر لا بكمّيته بل بطبيعته. هكذا الكتب الإلهيّة تعطينا المنفعة العظيمة لا بكثرة كلامها بل بالقوّة الكائنة فيها. إن الطيب فوّاح زكي بطبيعته لكن بطرحه في النار تزداد رائحته ذكاء. هكذا الكتابة الإلهيّة فإنها جميلة جداً بنفسها، ولكنها إذا دخلت أعماق النفس تصبح كالبخور المطروح في المبخرة يملأ البيت بشذاه الذكيّ.

٣ – ما هو الإنجيل؟

«الإنجيل ليس بنصٍّ حرفيّ بل هو كلمة حيّة، معناه لا يكمن في حرفيّته السطحيّة بل في لبّه. لا ينقل بواسطة تعليم نظري بل بواسطة الوعظ الذي يوزّع الكلمة المعلن على المؤمنين إذ يقبلون إلى الكلمة المتجسّد في ما بينهم. لا منفعة للكتاب إذا فُصل عن المسيح أو عمّا قاله الآباء في المسيح يسوع وعمّا يقوله الروح القدس. الكتاب المقدس خارج الكنيسة في خطر أن يتحوّل من كلمة الله في المسيح يسوع إلى كلمة بشريّة صرفة.»

«الإنجيل هو إيقونة المسيح المتجسّد. إنّ الكلمة يتجسّد في عمق كياننا الشخصيّ من خلال قراءة الكتاب المقدّس، وإنّ الإنسان يبلغ به إلى معرفة الإنسان الكامل الذي هو المسيح. إنّ من يطلب فهم الكتاب المقدّس في شركة الأسرار وفي الصلاة يختبر عزاء اللقاء بالسيّد في النصّ الإنجيليّ ويحمل من خلال الكلمة المكتوبة إلى حيث يجالس الكلمة الذي كان منذ البدء. لا فرق بين الكلمة المعلنة في الإنجيل والكلمة المتجسّد في الكأس المقدّسة وسط الكنيسة المجتمعة.»

٢
عِظَة تمهيديّة على إنجيل القديس متى

ترجمة الأب ألكسيوس شتوي المخلصي

كان الأَولى أن نكون بغنى عن الكلمة المكتوبة وأن تكون حياتنا في حالة من النقاء بحيث أنّ نعمة الروح القدس تقوم مقام الكتب. فكما أنّ الكتب مكتوبة بالمداد هكذا كان يجب أن تكون قلوبنا مكتوبة بنور الروح القدس. لكن بما أنّنا فقدنا هذه النعمة فلنتّخذ لسفينتنا الاتجاه الثاني. ولمّا كانت الطريقة الأولى هي الطريقة الفضلى، أعلن بها الله أقواله وأعماله. لأنّه لم يتّصل بإبراهيم وذريّته وبأيوب وموسى بواسطة الكتابة بل خاطبهم بذاته مباشرة إذ وجد فيهم روحاً نقيّة. فلمّا اندفع الشعب العبريّ إلى هاوية الشرّ كانت الكتابة والألواح أمراً لا غنى عنه وسبباً للذكرى. وهذا يؤيّده ما حدث لا لقدّيسي العهد القديم فقط بل لقدّيسي العهد الجديد أيضاً. أمّا الرسل فلم يدفع الله لهم شيئاً مكتوباً ولكنّه بدل الكتابة وعدهم بأن يرسل إليهم نعمة روحه القدوس فقال لهم: «فاذا جاء ذاك فيذكركم بكل شيء.» (يو ١٤: ٢٦). أفتريدون أن تعلموا أنّ هذه الطريقة كانت هي الطريقة الفضلى؟ اسمعوا ماذا يقول على لسان نبيّه إرميا: «أقطع معكم عهداً جديداً وهو أني أجعل شريعتي في ضمائركم وأكتبها على قلوبكم وستكونون كلّكم

متعلّمين من الله» (ارميا ٣١:٣٣). وبولس نفسه يبيّن هذه الأفضليّة إذ أعلن أنّه تقبّل الشريعة لا على ألواح بشريّة بل على ألواح القلب اللحميّة (٢ كور ٣:٣). لكن بما أنّ البشر على ممرّ الزمن، حادوا عن معتقداتهم وفسُدَت أخلاقهم وضلّوا السبيل السويّ لجأ الله مرة ثانية إلى تذكيرهم بالكتابة. أنظروا بحياتكم ما أشدّ ما بلغ بنا الشرّ. بينا كنّا يجب أن نعيش بحالة من النقاء بحيث نستغني عن الكلمة المكتوبة ونستعيض عن الكتب بإخضاع قلوبنا للروح، فقدنا ذلك الشرف وأخضعنا ذواتنا لتلك الضرورة المذِلّة. وليس هذا فحسب بل لا نعرف كيف ننتفع من الدواء الثاني. إذا كان من النقص أن نحتاج إلى هذا الدواء وأن لا نتقبّل النعمة من الروح القدس مباشرةً أفلا يكون من الخطأ الفاضح أن لا تريدوا أن تستفيدوا من تلك المعونة وأن تنبذوا الكتب الالهيّة كشيء تافه وباطل وأن تجلبوا عليكم العقوبة الشديدة؟

أفتريد أن تجتنب هذا الشرّ لنصغِ اصغاءً دقيقاً إلى ما جاء في الكتب الإلهيّة ولنعلم كيف أُعطيت الشريعة القديمة وكيف أُعطيت الشريعة الجديدة.

في أيّة أحوال أُعطيت الشريعة القديمة ومتى أُعطيت وأين أُعطيت؟ أُعطيت بعد القضاء على المصريّين، في الصحراء، على جبل سيناء، بين اللهب والدخان المنبعثين من الجبل، بين أصوات الأبواق وقصف الصواعق والبروق، عند دخول موسى في الغمام وحده.

أمّا الشريعة الجديدة فلم تعلن على هذا الشكل؛ لم تعلن في الصحراء، ولا على جبل، ولا في الظلام والغمام، ولا بين قصف الصواعق، إنما أُعلنت في وجه النهار، في داخل المنزل، إذ الجميع جالسون وكل شيء هادىء. عند إعلان الشريعة القديمة كان ذلك المشهد ضرورياً لذوي العقول البطيئة الفهم والقلوب القاسية ذلك المشهد الذي يقع في الحسّ كالصحراء والجبل والغمام وصوت البوق وقصف الصواعق وما إلى ذلك. أمّا النفوس العالية الخضوع التي لا ينحصر عقلها ضمن نطاق الجسد الضيّق فهي بغنى عن ذلك كلّه. فإن كان سُمع صوت عند إعلان الشريعة الجديدة فليس ذلك لأجل الرسل بل لأجل اليهود الحاضرين، ولأجل هؤلاء أيضاً ظهرت الألسنة الناريّة. فإذا كانوا مع تلك العلامات يقولون إنّ الرسل كانوا سكارى فماذا لا يقولون إذا لم يروها.

عند إعلان الشريعة القديمة إذ صعد موسى إلى الجبل نزل الإله، وكذلك عند إعلان

الشريعة الجديدة إذ ارتقت الطبيعة البشريّة إلى السماء على العرش الملكي نزل الروح القدس.

فلو افترضتم والحالة هذه أن الروح القدس أصغر من الشخصين الآخرين لما كان أحدث أموراً تفوق بخطورتها وغرابتها ما حدث في الأيّام القديمة. لأنّ ألواحنا هذه أي ألواح العهد الجديد تفضل كثيراً ألواح العهد القديم، والأعمال التي تتمّ بها أكثر بهاءً ولمعاناً. فالرسل لم يهبطوا من الجبل وفي أيديهم ألواح حجريّة كموسى، كلاَّ؛ بل كانوا يحملون الروح القدس ضمن قلوبهم موزّعين هذا الكنز الخفيّ، هذا المعين الذي لا ينضب، معين التعاليم والنِعَم وسائر الخيرات، في كل مكان توجّهوا إليه أو مرّوا به حتى لقد أصبحوا بنعمة الروح القدس هم أنفسهم كتباً حيّة وشريعة ناطقة. وترون كيف اجتذبوا إلى الدين ثلاثة آلاف من مستمعيهم ثم خمسة آلاف ثم شعوب المسكونة، لأنّ الإله نفسه كان ينطق على ألسنتهم. وما كتبه متّى إنما كتبه بوحي الروح القدس. نعم متّى العشّار نفسه لا أخجل من إعلانه بمهنته لا هو ولا غيره من الرسل إذ بذلك تظهر قوة نعمة الروح القدس وفضيلة الرسل نفسها.

فبكل صواب دعا القديس متى عمله بشارة لأنّه جاء ليبشّر بزوال الانتقام وبمغفرة الخطايا وبالتبرير والتقديس والفداء والتبنّي والميراث السماوي وابن الله الصائر أخانا. وهذه الخيرات قد بشّر بها الجميع: الأعداء والضالّين والجالسين في الظلمة. وهل من شيء يعادل هذه البشرى الجديدة: الإله على الأرض والإنسان في السماء، الخليقتان تتّحدان وتمتزجان، الملائكة يؤلّفون أجواقاً مع البشر، والبشر يشتركون بسعادة الملائكة وسائر القوّات السماويّة. الحرب القديمة انتهت، والإله يجدّد عهده مع طبيعتنا، الشيطان أُذِلَّ وقوّات الجحيم ولَّت الأدبار، الموت قُيِّد والفردوس فُتِح، اللعنة اضمحلّت والخطيئة دُكَّت حتى أُسسها، الضلال تلاشى والحق انبعث، الكلمة الإلهيّة زرعت في كلّ مكان فأخصبت، والحياة السماويّة نبتت وتأصّلت جذورها في الأرض، القوّات الغير الهيوليّة تخاطبت بدالّة، والملائكة تتّصل بهذا العالم بغير انقطاع، ورجاء الخيرات المقبلة ملأً القلوب. لأجل هذا السبب دعا القديس متى قصّته بشارة كأنّ سائر الألفاظ لا تؤدّي المعنى المقصود، مثال ذلك: وفرة الغنى، السلطان العظيم، الرئاسة، المجد، الشرف وكل ما يدعوه البشر خيرات، إذ المواعيد التي يبشّر بها الصيّادون إنما هي وحدها خليقة بأن تدعى بُشْرَيات سارَّة، لا لأنها فقط خيرات ثابتة غير قابلة للتغيير وتفوق

استحقاقنا بل لأنها أيضاً أُعطيت لنا بسهولة كثيرة ، إذ إنّنا في الحقيقة لم نستحقّها لأتعاب قاسيناها ، أو جهود بذلناها ، أو عذاب احتملناه ، أو عناء عانيناه ، بل نلناها بمحض محبة الله لنا فقط .

لكن ، مع وفرة عدد الرسل لماذا لم يكتب الإنجيلَ سوى اثنين منهم وهما يوحنا ومتّى ، واثنين من تلاميذهم أحدهما تلميذ بولس والآخر تلميذ بطرس؟ لم يعمل شيء بدافع حبّ المجد والظهور بل بدافع حبّ الإفادة. لعلّكم تقولون لي ألم يكفِ بشير واحد ليروي كلّ شيء؟ نعم يكفي. لكن إذا كان الكتبة الأربعة لم يكتبوا لا في آن واحد ، ولا في مكان واحد ، ولا اجتمعوا للتشاور ؛ وإذا كانت أقوالهم خرجت كأنها من فم واحد ، فذلك لعمري دليل واضح يؤيّد الحقيقة. – تقولون إنّ الأمر كان على نقيض ما تزعم فقد اختلفوا في مواطن شتّى – وهذا نفسه لمن أسطع الأدلّة على صدق أقوالهم ، لأنّهم لو اتّفقوا تمام الاتفاق في كل الملابسات وأدقّ التفاصيل في الزمان والمكان والألفاظ نفسها لما صدّق أحد من الخصوم أنّه لم يكن هنالك تواطؤ على كتابة ما كتبوا إذ الاتفاق التامّ لا يدلّ على سلامة القصد في هذا الأمر. على أنّ ما يلاحظ من التباين البسيط بين الكتبة الأربعة يدفع عنهم كل شبهة ويدلّ بجلاء على نيّتهم الصادقة. أمّا فيما يبدو من الفروق نظراً إلى الزمان والمكان فلا يمسّ جوهر الرواية ، كما سنفرغ الجهد بمعونة الله في تبيانه. وعلاوة على ذلك أهيب بكم أن تلاحظوا أنّه في الأمور الأساسيّة التي تتّصل بمنهج حياتنا وجوهر التعليم لا يوجد بينهم أقلّ اختلاف. وما هي تلك الأمور؟ إنّ الله صار إنساناً ، صنع عجائب ، صُلب ودُفن ، قام من بين الأموات وصعد إلى السماء ، سيديننا ، أعطانا وصايا من شأنها أن تقودنا إلى الخلاص ، سنَّ لنا شريعة أكمل من الشريعة القديمة انه ابن وحيد من طبيعة الآب نفسها ومن جوهره ، وتعاليم أخرى شبيهة بها. فمن هذا القبيل سنرى الاتفاق التامّ بين الإنجيليّين. أمّا الأعاجيب وإن لم يقصّوها كلها جميعهم إذ الواحد نقل بعضها والآخر نقل البعض الآخر فليست مما يدعو إلى القلق. لأنّه لو روى أحدهم كل شيء لاستغني عن الباقين. ولو كان كل منهم لم يكتب غير ما يختلف فيه عن الآخر لما بقي سبيل لإظهار وحدة الإيمان. فلهذا السبب كانت هناك أمور عامة نقلوها كلهم ، وأمور خاصة تفرّد كلّ منهم بنقلها دون غيره حتى لا يكون ثمة ما يبدو بلا قصد ولا جدوى ، وليستدلّ بذلك على صدق أقوالهم والتدقيق فيها.

إنَّ لوقا يقول لنا السبب الذي أَقدم لأجله على الكتابة : «لتكون على بيِّنةٍ من صحة الكلام الذي وعظت بهِ» (لوقا ١ : ٤) أي لتكون ، عند تذكّرك إيّاه بلا انقطاع ، متأكداً من صحتهِ ومرتاحاً إليه . أمّا يوحنا فيسكت عن إيراد السبب . لكنّنا نعلم بالنقل مما رواه لنا آباؤنا أنّ يوحنا لم يقدم على الكتابة ولا غاية لهُ . بل إذ كان جهد الثلاثة الآخرون أن يوضحوا بكلامهم سرَّ الفداء ، فخشية من أن يظلّ تعليم الألوهة مكتوماً حرّكهُ المسيح لسدِّ ذلك الفراغ . وهذا ما يستدلّ عليهِ من قصتهِ نفسها ، وبخاصة من مقدِّمة إنجيله . لأنّهُ لم يبتدىء كسائر الإنجيليّين بما هو أرضيّ ، بل حلَّقَ إلى علُ . هذه هي فكرة يوحنا . فلذلك فاق على زملائه بالسموّ ، ليس فقط في المقدّمة ، بل في كلِّ إنجيله . أمَّا متّى فيقال انه إجابة إلى طلب اليهود الذين آمنوا تركَ لهم كتابةً ما كان علَّمهم إيّاه بالكلام ، وقد وضع إنجيله باللغة العبريّة . أمّا مرقص فكتب إنجيله في مصر بطلب تلاميذه أيضاً ، فكان أنَّ متّى إذ كتب للعبرانيّين لم يقصد أن يبيّن سوى أنّ المسيح هو من سلالة إبراهيم وداود . وأمّا لوقا فإذ خاطب جميع الناس على السواء يعود إلى ما هو أبعد حتى آدم . فالأول يبدأ بالميلاد لأنّهُ لا شيء أحبّ إلى اليهود من أن يعلموا أنّ المسيح ينحدر من سلالة إبراهيم وداود . أمّا الثاني فلا يجيء على ذكر الميلاد إلاَّ بعد أن تكلّم عن أمورٍ شتَّى أخرى .

أمَّا اتفاقهم فنثبته بشهادة العالم أجمع الذي قبل ما قالوه علاوة على شهادة خصوم الحقيقة أنفسهم لأنّ فِرَقاً كثيرة نشأت بعدهم وكانت تناقض بآرائها ما علَّمهُ أولئك الرجال . فمنها مَن قَبِلَ مجمل كتاباتهم ، ومنها مَن بترها ولم يحفظ إلاَّ جزءًا منها . فلو كان هنالك تناقض لما قبلت أيّة فرقة من المنشقّين هذه الكتابات برمّتها بعلّة أنّها كانت تعلِّم ما يناقضها ، ولكانت كلّ فرقة اقتصرت على اتخاذ الذي يوافقها ، والذين لم يقبلوا سوى جزءٍ منها لما تحدّثوا عن هذا الجزء بعلّة أنّ الجزء المبتور لا يمكن أن يخفى بل يطالب جهراً بضمهِ إلى وحدتهِ مع الكلّ . إذا أخذت جزءًا من جوف حيوان تجد فيهِ كلَّ ما يركب الحيوان الكامل : تجد الأعصاب والعروق والعِظام والشرايين والدم وسائر ما يستدلّ بهِ على مظهر الكلّ . هكذا في الكتب المُنزلة ، ترى في كل جزء منها بكلّ وضوح الطابع العام . فلو وجد فيها تناقض لما قبلت ولَبَطَل التعليم من عهد بعيد «لأن كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب» (متى ١٢ : ٢٥) ففي هذا تظهر إذن قوّة الروح القدس لأنّه جعل البشر في حالة تساعدهم على التمسّك بالأمور المهمّة والضروريّة ولا تدعهم يقفون عند تلك الصعوبات الصغيرة .

أين كتب كلّ منهم؟ لا ينبغي أن نجهد نفوسنا لنعرف ذلك. لكن الأمر الذي نجتهد في تبيانه بكل عناية هو أنّه ليس من اختلاف بينهم. أما إنّنا، إذا نسبنا إليهم التناقض، فتفعل كأنك تريد أن تعيد الألفاظ نفسها وتدور في الكلام. ولن أقول لكم إنّ المفاخرين بالفصاحة والفلسفة الذين وضعوا مؤلّفات كثيرة في هذا الموضوع ليس فقط لم يختلفوا فيمَا بينهم بل أيضاً ناقضوا بعضهم بعضاً: أن تقول أشياء متناقضة نوع، وأن تقول أشياء بتعابير مختلفة نوع آخر. لكنّني لا أقول شيئاً عنهم فلا أُبرِّر بعضهم ولا أستخدم جنونِ البعض الآخر كسلاح لأني لا أريد أن أثبت الحقيقة بكذبهم بيدَ أنني أسأل فقط كيف أمورٌ متناقضة صدِّقت واستولت على العقول. وكيف رجالٌ علَّموا تعاليم متناقضة فنالوا إعجاب الناس وثقتهم وأعلنوا الحق في كلِّ أنحاء المسكونة، على أنّ نقّاديهم كانوا كثيرين وكذلك معارضوهم وأعداؤهم لأنّ ما كتبوه لم ينحصر في ناحية واحدة بل أُعلن في كل مكان من البر والبحر على مشهد من جميع الناس، وقُرِئَ أمام الخصوم أنفسهم كما لا يزال الأمر يجري في أيّامنا. فلا شيءَ مما كان يتضمّنه أحدَثَ شكًّا لأحد. ولا غرابة، إذ القوّة الإلهيّة كانت تنقل كل شيء وتصلح كلّ شيء في قلوب الناس وإلاّ كيف كان لعشّار وصيّادٍ وأُميٍّ أن ينطق بمثل تلك الحكمة. لأنَّ ما لم يستطع الوثنيّون أن يروه أو يحلموا به، يبشّر به أولئك ويقنعون به بسلطة لا مثيل لها، ليس فقط مدّة حياتهم بل بعد مماتهم أيضاً، لا رجلين أو ثلاثة أو مئة أو ألفاً أو عشرة آلاف فحسب بل مدُناً برمَّتها وأُمماً وشعوباً في البرّ والبحر، اليونانيّين والبرابرة، البلدان الآهلة والمقفرة، وذلك بتعاليم تفوق إدراك العقل البشريّ.

لأنهم في الحقيقة بعد إذ زهدوا بالدنيا جعلوا يتحدّثون عن السماء بغير انقطاع فأتونا بحياة أخرى ومنهج آخر، أتونا بغير ما نعهد في الغنى والفقر والحريّة والعبوديّة والحياة والموت وبكل ما يتجلى بمظهر الجدّة، لا على سبيل ما وضعه أفلاطون من تلك المناهج التي تدعو إلى السخرية، ولا على سبيل ما كتبه زينون أو غيره عن الحياة البشريّة ووضع لها شرائع. فقد استبان أنّ هؤلاء كلّهم تملكهم بطبيعة النشء روح شرير وشيطان وحشيّ وعدوّ فضيلة الطهر. فأوحى إليهم ما أوحى لمحاربة طبيعتنا وقلب نظامها رأساً على عقب. فإذا ما رأينا النساء يتألّفن فِرَقاً، والعذارى يتمرنَّ عاريات في مسارح الرياضة على مشهد من جميع الناس، والزواج يُعقد في الخفية، وفوضى النظام واضطرابه يسودان المجتمع، وحدود الطبيعة مدوسة، أفنستطيع أن نصف مناهج أولئك الفلاسفة بغير ما وصفنا من

أنها صنع الشيطان وفي تناقض مع طبيعتنا؟ وهذا إنما تشهد به طبيعتنا نفسها.

على أنّ أمثال هذه المناهج لم تُكتب بدافع اضطهاد أو خوف أخطار أو نضال، إنما كُتبَت بهدوء تام وحريّة كاملة ويزيّنها على الغالي جمال العبقريّة. أمّا تعليم الصيّادين فقد بُشِّر به بين الاضطهادات والجَلد والأخطار وقد قبله الجهّال والعلماء، العبيد والأحرار، الملوك والجنود، البرابرة واليونانيّون عن رضى كامل.

ولا أظنّكم تقولون لي إنّ هذه الشريعة الجديدة قبلَها الجميع بسهولة لأنها ضعيفة وبسيطة إذ هي في الحقيقة أكثر صعوبة من القديمة لأنّ البشر لم يكونوا ليحلموا باسم البتوليّة، ولا بالفقر الاختياري، ولا بالإماتة، ولا بشيء من هذه الأمور السامية. إنّ مؤدّبينا لا يقتصرون على كبح شهواتنا ومعاقبة أعمالنا الرديئة، إنما يشجبون أيضاً نظرة خفيفة، كلمة جارحة، ضحكة غير معتدلة، جلوساً، حركة، صراخاً. ويطلبون منّا الدقّة حتى في أصغر الأمور. وينشرون مبادئ الطهارة في الأرض كلها. أمّا عن الله والأمور السماويّة فيعلمون حكمة لا يستطيع التفكير بوجودها لا أولئك الفلاسفة ولا العقل البشري.

وكيف يجدون إلى ذلك سبيلاً وهم يؤلِّهون تماثيل الحيوانات الدابّة والزاحفة إلى غيرها من سائر الحيوانات الحقيرة؟ على أنّ تعاليمنا تلك قد قُبلت واستوثق بها ثم أزهرت وانتشرت يوماً بعد يوم. وأمّا العبادات القديمة فتعبر وتنتسخ مندثرة كنسيج العنكبوت وهذا عدل! لأنّ الشياطين هم الذين أدخلوها، إذ فيها فضلاً عن الفساد ظلام حالك وعذاب أليم. وأيُّ شيء أدعى إلى الهزوء من تلك المدارس حيث الاستاذ يضطر أن يكون لديه ألوف من الآيات ليستطيع أن يبيّن ما هو الحق. لكن تعليمه يُغرَق في سيل من الكلام المبهم بحيث يظلّ بغير جدوى لحياة الإنسان ولو كان فيه بعض الفائدة. فلو ترك الفلاح مهنته وأعماله المؤاتية له، والصانع والبنّاء والملاّح وأي عامل يعيش من عمل يديه، وقضى السنين الطوال في تعلم الحق والعدل فقد يموت جوعاً قبل أن يدرك هذا العلم ولا يكون تعلّم شيئاً آخر نافعاً وينهي حياته بموت مفجع.

أمّا تعاليمنا فليست كذلك، لأنّ الحق والواجب والنافع وكلّ فضيلة قد علّمنا إيّاها المسيح بكلام واضح وموجز. فتارة يقول لنا بهاتين الوصيّتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء (متى ٢٢: ٤) أي محبة الله والقريب. وطوراً يقول: «فكلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم

فافعلوه أنتم بهم فإنّ هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ٧: ١٢) فإنّ هذا الكلام القليل سهل المأخذ، يفهمهُ الفلاح والعبد، والأرملة والولد نفسهُ، وأيّ امرئٍ مهما بلغت به السذاجة. ذلك هو شأن الحقيقة. على أنّ الواقع قد دلَّ على ما نحن في صددهِ؛ فوق الجميع ما يجب أن يعمل كلٌّ منهم؛ ولم يعرفوه فحسب لكنهم عملوا به: العائشون على قمم الجبال والمقيمون في المدن وفي المحلات التجارية نفسها. هنالك ترى الفلسفة السامية تسود، وأجواق الملائكة بأجسادٍ بشريّة تلمع، والحياة السماويّة تبدو على الأرض. لأنّ الصيّادين وضعوا لنا منهاجاً للحياة ولم يأمروا بتعليمه منذ الصِغَر على مثال أولئك الفلاسفة الذين أتينا على ذكرهم، ولا حدّدوا سنَّ من يجعل نفسه تلميذاً لهم بل علّموا جميع الناس على السواء من أيّ عُمْرٍ كانوا. تعاليم أولئك لعب أطفال أمّا تعاليم هؤلاء فإنما هي حقيقة الأمور. جعلوا السماء مركزاً لهذه الحياة الجديدة ومثّلوا الإله مهندسها وواضع شرائعها على سبيل ما كان يجب أن يكون. أمّا الجزاء المُعدُّ لهذه الطريقة الجديدة فليس بورقة من غار، ولا إكليل أخضر، ولا كرسي على مائدة طعام فاخر، ولا تماثيل نحاسيّة، ولا شيء من هذه الأشياء الحقيرة التافهة، بل حياة لا انقضاء لها، والتبنّي لله، والامتزاج مع أجواق الملائكة، والوقوف أمام العرش الملكي، والامتلاك مع المسيح إلى الأبد.

قلت إنّ مؤدّبينا هم عشّارون وصيّادون وصانعو خيام لا يحيون زمناً محدوداً إنما يحيون على الدوام. فلأجل ذلك يستطيعون حتى بعد موتهم إسداء الخير العظيم إلى المتأدّبين بتعاليمهم. وهذا التأدّب هو حرب لا ضدَّ البشر بل ضدَّ الشياطين والقوات المنزّهة عن الأبدان لذلك قائدهم ليس إنساناً ولا ملاكاً لكن المسيح نفسه. وأسلحة هؤلاء الجنود ليست في شيء من طبيعة حرب هذا العالم. فهي غير مصنوعة من جلد أو حديد، إنما قوامها الحقُّ والبرُّ والإيمان وكلُّ حكمة. فبما أنّ الكتاب الذي نحن في صدده قد كُتب ليدرّبنا على هذا النظام فلنصغِ الاصغاء التام إلى ما سيلقي علينا متّى من الأقوال والدروس الجليلة، لا هو بذاته بل المسيح الذي منه جاءت تلك الأقوال. وهو نفسه واضع شرع ذلك النظام الغريب، لنصغِ بإمعانٍ حتى نؤهل للانخراط في سلك هذه الجنديّة المقدّسة ونلمع بين الذين أحرزوا الأكاليل التي لا تبلى بعد أن تأدّبوا بأدب التعليم الجديد. قد يخيَّل إلى الكثيرين أنّ الإنجيل قريب المنال وأنّ النبوءات وحدها إدراكُ ما فيها عسير. ذلك لعمري رأيٌ منشأُهُ جهلُ ما يستعصى فهمهُ منها. فلذلك أهيب بكم أن تتابعوا ما سألقي عليكم بكل اهتمام حتى إذا كنا تحت رعاية المسيح نمخر عباب الكتب

المُنزلة. ثم لكي يسهل عليكم إدراك معنى مواعظي أطلب إليكم أن تستمعوا إلى النصّ الذي نريد شرحه كما فعلنا في شرح سائر الكتب المقدسة إذ الشرح يكون أسهل وأنفع إذا كانت القراءة سابقة له على سبيل ما جرى للخصي.

إنّ هنالك مسائل كثيرة ومختلفة. فانظروا كم من أمور في مقدّمات الإنجيل يقتضي حلّها سريعاً. أولاً لماذا تحصى أنساب يوسف وهو ليس بوالد المسيح؟ ثانياً كيف تستدل على أنّ المسيح يتحدَّر من نسل داود إذا كنا نجهل أجداد مريم التي وُلد منها ولم تحصَ أنسابها؟ ثالثاً لأيّة علّة تحصى أنساب يوسف على أنها لا صلة لها بالميلاد مع أنه لا يذكر شيئاً عن أجداد مريم وأجداد أجدادها وهي الوالدة؟ ثم ينبغي أن نبحث بعد ذلك لماذا ذُكِرَت أيضاً مع أنساب الرجال بعض النساء لا كلُّهنَّ؟ ولأي سبب أَهمل الإنجيلي الشهيراتِ منهنّ كسارة ورفقا وأمثالها، ولم يدخل في جدول النسبة سوى اللآئي اشتهرنَ بشرِّهن ولو كانت إحداهنَّ زانية وبغيًّا، والأخرى أجنبيّة وبربريّة؟ لأنّه ذكر امرأة أوريّا، وتامر، وراعوث، فالأخيرة أجنبيّة والتي قبلها زانية وهي لم تخفِ أصلها وخدعت حماها الذي مال مع شهوته بغير حيآء. أمَّا امرأة أوريا فأمرها مشهور لا يخفى على أحد.

فها هنَّ النساء اللواتي أَدخلهنَّ في جدول النسبة مهملاً ذكر النساء الأُخريات جميعاً. بيد أنّه إذ جاء على ذكر النساء كان يجب عليه أن يذكرهنّ جميعاً وإذا لم يذكرهنَّ جميعاً كان يجب على الأقلّ أن يختار الفاضلات منهنّ غير الشهيرات بخطاياهنّ. فانظروا كم تتطلّب المقدّمة من الإمعان في الاصغاء مع أنها تبدو لكم أوضح من سائر النصوص وأنها لا تحتاج إلى الشرح إذ لا تحتوي إلاّ على جدول من الأسماء. أضف إلى ذلك وجوب البحث عن سبب إغفال ذكر الملوك الثلاثة. فإذا كان الإنجيلي أغفل ذكرهم لتوغّلهم في الكفر فقد وجب عليه أن يغفل أيضاً ذكر مَن على شاكلتهم. وإليكم مسألة أخرى: بعد أن تكلّم عن أربعة عشر جيلاً لكل حلقة فلماذا لم يحفظ هذا العدد في الحلقة الثالثة ولأيّة علّة أورد لوقا أسماء مختلفة بل أكثر من الزيادة عليها ولماذا لم يورد كلاهما نفس الأسماء، فمتّى يختلف عن لوقا في هاته الحالات بينما ينتهي كلاهما عند يوسف. أفترون كم يقتضي من الجهد لا للوصول إلى حل فقط بل أيضاً لنعرف أي مسائل يجب أن تُحَلّ إذ ليس من السهل أن نجد كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للأسئلة. فنرى من الواجب أن نسأل مثلاً كيف أنّ أليصابات هي نسيبة مريم حالة كونها من عشيرة

لاوي. لا نريد أن نثقل عليكم بكثير من الأسئلة فنقف اليوم عند هذا الحدّ من الكلام ويكفينا ما ألقينا عليكم لإثارة اليقظة في عقولكم على أنّكم إذا رغبتم حقاً في حلّ تلك المسائل حتى قبل أن نبدأ بالكلام عنها فذلك لكم فاذا وجدتكم متيقّظين وتائقين إلى معرفتها أجهدت نفسي في حلّها لكم. أمّا إذا وجدتكم مهملين وغير مصغين فلا أكلّمكم عن تلك المسائل ولا عن حلّها عملاً بذلك الناموس الإلهي «لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدّام الخنازير لئلاّ تدوسها بأرجلها» (متى ٧ :٦) فمن يكون الدائس؟ الذي يجهل قيمة تلك الكنوز ولا يحترمها. ولعلّكم تقولون لي أيضاً أي شقيّ يجرؤ على احتقار تلك الأشياء المقدّسة وإهانتها؟ الذي لا يعيرها من الانتباه بقدر ما يعير النساء الفاجرات في المسارح الشيطانيّة حيث يقضي كثيرون أياماً بكاملها مهملين كثيراً من شؤونهم البيتيّة لأجل عمل باطل. وما سمعوه في تلك الملاهي يعونه في قلوبهم ويحفظونه لدمار نفوسهم.

أمّا هنا فإنما الله يتكلم ولا يرضون أن يخصّصوا للاستماع إليه بعض الوقت. ولهذا السبب ليس لنا اتصال بالسماء ودِيننا مقتصر على الكلام. فلذلك يهدّدنا الله بجهنم لا ليزجّنا فيها بل ليحملنا على الإقلاع عن العوائد المستعصية فينا بما نسمعه من الدروس. أمّا نحن فنعمل العكس، نسمع ولكنّنا كل يوم نسير بسرعة في الطريق المؤدّية إلى الهلاك.

إن الله يأمرنا لا أن نسمع فحسب، بل أن نعمل بما نسمع من التعليم، ومع ذلك فلا قِبَل لنا حتى على الاستماع. إلاّ فقولوا لي متى نعمل بما نؤمر به؛ متى نشرع بالعمل إذا كنّا لا نصبر على استماع تلك الدروس بل إذا كنّا نتوانى ونأبى أن نقضي في الكنيسة وقتاً ولو قصيراً؟ على أنّنا إذا كنّا نتحدث إلى مَن حولنا عن أمور تافهة ولاحظنا أنهم لا يعيروننا أُذُناً صاغية نعدُّ ذلك إهانة لنا، ولا نحسب أننا نهين الله إذا كانت أفكارنا متجهة إلى ناحية أخرى محتقرين التعاليم التي يلقّننا إياها هو نفسه. إذا جاب عجوز بلداناً كثيرة يستطيع أن ينبئنا بالتدقيق عن مسافات الطرق ومواقع المدن ومظاهرها ومرافئها والساحات العموميّة. أمّا نحن فلا نعرف المسافة التي تفصلنا عن المدينة السماويّة، ولو عرفناها لحاولنا أن نختصر الطريق لأنّ تلك المدينة لا تُقاس مسافتها بمقياس المسافة التي تفصل السماء عن الأرض إذ هذه المسافة تبتعد بقدر ما نعيش بالتواني فإذا ما اجتهدنا نبلغ أبواب المدينة السماويّة بلحظة. ومسافات كهذه تُحدُّ لا ببُعد الموقع أو قُربه بل بما نبديه من العزم.

إنك تعلم أمور الحياة بالتفصيل حديثها وقديمها، فبوسعك أن تحصي الرؤساء الذين حاربت تحت لوائهم فلا يذهل عن بالك قائد الألعاب ولا موزّعو الجوائز ولا قوّاد الجيوش. على أنّه ليس لك في ذلك منفعة. أمَّا المدينة التي نحن في صددها فلا تبالي بمن كان حاكمها أو من يشغل فيها المنزلة الأولى والثانية والثالثة وكم من الوقت سعى كل منهم وكم أحرز من الفضائل للوصول إليها. هذه هي خواطر لم تكن لتحلم بها. أمّا الشرائع الموضوعة لهذه المدينة نفسها فلا تطيق الاستماع والاصغاء إلى من يتكلّم عنها. ألا فقل لي كيف ترجو الحصول على الخيرات الموعود بها إن لم تصغِ إلى ما يُقال عنها، وإن كنّا إلى الآن أَبَينا أن نستمع إلى هذه الدروس فلنشرع منذ اليوم في استماعها باصغاء كثير لأنّنا بعون الله سنلج هذه المدينة الذهبيّة والتي تفضل كل ذهب العالم. لندرس أُسسها ولنمعن النظر في أبوابها المرصَّعة بالزمرّد وسائر الحجارة الكريمة. وأفضل دليل لنا هو القديس متى وهو الذي سيقودنا وعلينا أن نتبعه بنشاط. فإذا ما رأى من أحد توانياً يطرده من المدينة. هذه المدينة الملكيّة المشعّة بالمجد والبهاء التي لم تقسَّم على سبيل مدننا إلى شوارع ومبانٍ عادية بل كل ما فيها ملكي.

لنفتح إذاً أعيننا، لنرهف آذاننا وإذ نحن مزمعون أن نطأ عتبة الباب فلنسجد للملك الذي فيها لأنّ النظرة الأولى إليه بوسعها أن تلقي الرعب في القلب.

إنّ الأبواب موصدة بوجهنا الآن لكن متى رأيناها تنفتح أمامنا بحلّ الأسئلة الملقاة نبصر في داخلها نوراً عظيماً وذلك العشّار المقود بالروح القدس يعدكم أن يوضح لكم كل شيء: عرش الملك والقوّاد الذين يحيطون به ومكان الملائكة ورؤساء الملائكة والمحلّ المعيّن لسكان المدينة الجدُد والسبيل المؤدّي إليها والصفوف التي انضم إليها الذين استوطنوها بالتتابع ومختلف رتب السكان واستحقاقاتهم. فلا ندخل بضجيج وتشويش بل بصمت عميق. إذا كان المتفرّجون في المسارح يستمعون إلى قراءة مراسيم الملك بصمت تام فبالأولى يجب الصمت في المدينة السماويّة كما يجب الاستماع بنفوس مستقيمة واصغاء مستمر لأنّنا مزمعون أن نسمع لا مراسيم ملك أرضي لكن مراسيم سيّد الملائكة. فاذا أقبلنا بهذا الاستعداد تقودنا نعمة الروح القدس نفسها بعناية عظيمة ونمثل أمام العرش الملكي نفسه ونحرز جميع الخيرات بنعمة وعطف ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزّة مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

الفصل الثاني

القدر والعناية الإلهية

١

خطابٌ أوّل

كثيرٌ من القلاقل يحفل به وجودنا وجمٌّ من البلابل يتصدّى للحياة الحاضرة. ومع ذلك فليس الشرُّ في هذا يا أحبّائي إنما هو في أنّنا إذ نستطيع تخفيف الأثقال من تلك القلاقل والبلابل أو تحمُّلها بسهولة صابرين، لا نُعنّى بشيءٍ من ذلك بل نقضي كل وقتنا في التذمُّر الكريه المرارة. فهذا يئنُّ من فقره وغيره من مرضه وهذا ما عنده من الشواغل والاهتمامات وذلك مما يُتقاضى من شؤون الخدَم وآخرُ من تربية أولاده وآخر من أنّه لا سلالة له. لاحظوا فرط جنوننا، فإننا لا نجزع كلّنا معاً على السواء من أشياء واحدة بعينها بل من أشياء متعاكسة متناقضة. والحال لو أنَّ طبيعة الأشياء هي علَّةُ جزَعنا لما اضطررنا إلى أن نئنَّ كلُّنا على السواء من أمور متناقضة. فإن كانت الفاقة شرًّا غير محمول، فالرّاتع في بحبوحةٍ من عيش الرفاهية لا سبيل لأن يئنَّ ويتوجَّع أبداً. وإذا كانت الشكاة من عدم النسل، فالذي عنده عدَّة عيال لا بُدَّ له من أن يظلَّ سعيداً مغتبطاً. وكذلك لو أنَّ السعادة هي في إدارة مهامّ الدولة والتمتّع بمفاخر السيطرة على جمٍّ غفير من الخاضعين لصاحب السلطان، فكلُّ البشر الذين لا يتمتّعون بهذه المفاخر يجب عليهم أن ينكروا حياة رائقة ويهربوا منها إذ هي خالية مما يطمحون إليه. ولكن بما أنّكم تَرون الأغنياء والفقراء يتذمّرون على السواء وفي الغالب ترون الغنيّ يتذمّر أكثر مما يتذمّر الفقير، وبما أنّكم تجدون شيوع هذه الشكاوى بين الحكّام والرعايا، بين أصحاب العيال الكثيرة والذين لا ولد لهم، فلنشكُ في هذا الخَلَل لا من الحوادث الطبيعيّة بل من أنفسنا لأنّنا لا نعرف أن نداور الأمور مداورة لائقة وأن نتحامى منها ما يسبّب لنا كرْباً وغمًّا.

ليست مفاجأة الحوادث هي المسبّبة للقلق والاضطراب، بل نحن وأميال نفسنا. فلو أنّ الترتيب يسود نفسَنا في تجربة الحياة لتمتّعنا بسكينة المرفأ مهما ثارت علينا الزوابع. أمّا إذا كانت نفسنا على عكس ذلك معرَّضةً للتشوُّش، فلا نقوى على مجانبة الغرَق ولو أنَّ ريحاً لطيفة تهبُّ في أشرعةِ سفينتنا. إنّ الجسد البشريّ يقدّم لنا على ذلك أمثالاً. فمَن يتمتّع جسمه بعَضلٍ متين في طبيعته، يقوى على مقاومة كلّ ما ينشأ في الهواء من تغيُّر. وإذ هو أبعد من أن يتأذّى منه، يعدُّ ذلك التغيُّر تمرين رياضةٍ له يفيده نشاطاً جديداً. وأمّا صاحب الجسم الواهي الذي لا قوّة له، فمهما كان هواء الإقليم عنده لطيفاً فلا يستفيد من ذلك المقام اللطيف شيئاً، ويظلُّ متألّماً من تركيب جسمه الضعيف. وإنّ الأغذية أيضاً يُستفاد منها مثل هذه الملاحظة. فإذا كانت معدتنا سليمة وقويَّة، فمهما كانت الأطعمة جاسية وعسيرة الهضم، فالمعدة مع ذلك تحوّلها إلى مادّة مغذّية لأنّ قوّتها الطبيعيّة تقاوِم إلى آخر حدٍّ ما في الطعام من جفاف وعُسْر هضم. ولكنها إذا مُنِيَتْ بالضعف وخلَت من القوّة فإنّك تفضّل أن تقدّم لها ألطف الأطعمة. ومع ذلك فهي تفسدها وتحوّلها إلى أسوأ ما فيها من رداءة، لأنّ الطعام مهما كان جيّداً فضعف المعدة يُفسده. وكذلك نحن يا أحبائي، حين نجد تشويشاً في بعض النواحي من حياتنا فلا نُلزِمَنَّ الله غلطاً في ذلك. لأنّ هذه الإحالة على الله ليست علاجاً مفيداً لِمَا يلابسنا من السُّوء بل هي تزيدنا جراحاً فوق جراح. إيّاكم والشيطان تعطونه الولاية على العالم، ولا نعتبرنَّ العناية الإلهيّة في عزلةٍ عن شؤون الحياة الحاضرة.

لا تجعلنَّ للقضاء والقَدَر في شأنٍ من شؤون الكون، حاجزاً يمنع فعلَ عناية الله. فكلُّ هذا ليس إلاَّ تجديفاً. فالتشويش والاضطراب الحقيقيّان لا يتأتّيان عن مجرى الأشياء في الدنيا، بل عن مزاجنا النفساني. ففي أيّ حال من السرَّاء كانت نفسنا، إذا هي لم تنزَع عما يلابسها من الخلَل، ولم تُقصَ عنها موجبات القلق التي هي مليئة منها فلا تستفيد شيئاً من تلك السرَّاء الظاهرة. وكذلك العين المعطوبة بمرض لا ترى في وضح النهار إلاَّ ظلُماتٍ فتخلط بين المرئيَّات حتى لتظنَّ هذا الشيء هو غيره ولا تستفيد شيئاً لاستنارتها. حالةَ أنّ العين السليمة والمليئة من القوة تقود جسم صاحبها حتى في الليل بأكمل أمان. هكذا عين نفسنا إذا كانت في تمام قوَّتها تميّز الأشياء أكملَ تمييز، ولو أنها مختلطةً في ظاهرها. أمّا إذا كانت ضعيفة فلو نقلتموها إلى السماء لما رأت فيها سوى الخلل والتشويش. تلك هي الحقيقة أرِيكم إيّاها بأمثال مستخرجة من عهد القِدَم أو من عصرنا. كم من أُناسٍ

يتحمَّلون الفقر باختيارهم ولا ينفكُّون عن حمْد الله لأجله. وكم من أُناس يعيشون في محيط الغنى والنعيم وهم يجدِّفون على الربّ عِوَض أن يشكروه. وكم من أُناسٍ لم يعرفوا شقاء الحياة بتاتاً يتذمَّرون على عناية الله العموميّة، وكم من أُناسٍ يقضون حياتَهم في السجون يتقبَّلون هذه المحَن العصيبة بعرفان الجميل لله، أكثر مما يعرفه له الذين يقضون حياتهم في دائرة الأمان والحريّة. ها إنّكم ترون كلَّ تلك الأحوال وتلك هي الأحوال المتهيّئة لها نفسنا، وتلك شواعرنا هي التي تخلق هذه الشؤون المتفاوتة ولا تخلقها طبيعة الأشياء عينُها. وفي حاصل النتيجة أننا إذا تعهَّدنا قلبنا بالرعاية والتهذيب فلا ينالنا اضطراب ولا تشويش ولا جزَعٌ على الاطلاق، ولو أنَّ الطوارق على حياتنا هاجت بأشدَّ من هيجان أمواج البحر.

قُلْ لي بحقِّكَ علامَ كان بولس يقدّم الشكر إلى الله؟ لقد كان هو من الرجال أصحاب الحياة الكاملة ومن أولئك الذين مارسوا الفضيلة مدى حياتهم كلّها، ومن الجماعة الذين لا يشعرون بالحزن مهما اشتدَّ وعَظُمَ. لم يقُمْ تحت الشمس إنسانٌ قطّ يفوقه عدالةً ولا كابد أحدٌ ما كابده من قساوة المِحَن منذ ما وُجد الناس. فإنه لو أخذت عيناه جماعات كثيرة من البشر الأشرار يعيشون بغاةً ظالمين وهم مع ذلك يتمتَّعون بالرفاهية ووفرة الخيرات في هذا العالم، كان يحمد الله على ما هو فيه من حظّ البؤس والقِلَّة ويحثُّ الناس على أن يقتدوا به في ذلك. هذه هي القاعدة التي يجب أن تماثلوها. فحينما ترون أنتم أيضاً رجلاً شهيراً راتعاً في الرغد واليسار وحينما ترونَه يسود أعداءه وهو منتفخ غطرسةً وكِبَراً، ومنتهزٌ فرصة ينتقم فيها من الذين أهانوه وقد لاذ في حمًى من خصومه وأحاطت به الخيرات من كل ناحية والناس يحفُّونه بالتجلَّة والتكريم ويصانعونه تجمُّلاً ومداهنةً. بينما تكونون أنتم في وضعٍ مضادّ لحالته أهدافاً للمظالم والمثالب وصيداً للمكايد، فلا تحسبوا أنكم بسبب ذلك في عِداد أشدِّ الناس بؤساً. ألقوا نظركم على بولس الذي كان نصيبه كهذا النصيب. إرفعوا عقولكم إلى العلاء أخضعوا أفكاركم لسلطانكم ولا تسقطوا في أشراك الهمّ والغمّ. لا تحكموا البتَّة على بشرٍ بأنهم أخلاَّء الله أو أعداؤه بحسب ما ترونه فيهم من سعادة الحياة الدنيا أو شقائِها. فإذا رأيتم رجلاً قويم المسلك في الحياة، منزَّهاً عن الرذائل، لا ينحو إلاَّ جهة التقوى فوقِّروه رجلاً مطوَّباً جديراً بأن يُغبَط ولو أنّه مثقَّلٌ بالقيود ومحكوم عليه بالسجن مؤبّداً ولو أنّه عبدٌ لأُناسٍ هم في منزلةٍ ما منخفضة، ولو أنّه في دائرة الفقر ومحكوم عليه بالأشغال الشاقّة في المناجم أو بكلّ محنة من نظائر

المحن التي ذكرناها. سعيدٌ ذلك ولو سُمِلَتْ عيناه ولو أُلقيَ جسمه على لهب الوقود يذيبه شيئاً فشيئاً. ولكنّ من ترونه يطوي حياته في الفواحش وارتكاب الجَور والمظالم وغَشَيان كل نوعٍ من الرذائل، إذرفوا عليه الدموع الغِزار وتأسّفوا لِتعَسِه وشقائِه ولو بدا لكم محاطاً بأُبّهات الشرف وتوسّد عرش المُلك عينَه وٱعتصبَت جبهته بالتاج وهو قد توشّح بالبرفير وتولّى الإمرةَ على الأرض كلّها. كلا! ليس من نفسٍ أشدَّ تعساً من نفسٍ هي في هذه الحالة ولو أنَّ العالم أجمع منحنٍ خضوعاً لأوامرها. فما الذي تنفعها وفرةُ ما هي فيه من الغنى وعي على ما هي عليه من أشدِّ الفاقة إلى خيرات الفضيلة؟ وما يجديها أنَّ لها مملكةً واسعة الأطراف جدًّا إذا كانت لا تعرف أن تسود نفسها ولا تسود شهواتِها؟ هب أننا نرى رجلاً مغموماً لِمَا هو نازلٌ به من مرضٍ في جسمه وقد نهشتْه الحمَّى أو تأكّله داء النِّقرس أو ٱنهالت عليه ضرباتٌ غير محتملة غيرِ هذين المرَضَين. إننا نبكي لبلوى مثل هذا الرجل ولو أنّه أغنى إنسان ونرثي لشقائه رثاءً يتعاظم ما هو فيه من وفرةِ الغنى العظيم. والخلاصة أنه يُشعَر بالألم أنه أحدُّ وجعاً حين يكون صاحبه في حضن الغنى الوافر. أمّا الذي يحرمه فقرُه أمثالَ هذه التنعُّمات، فإنه يرى تعزية في ما يناله من الفاقة. ولكنَّ الذي في وُسعه أن يرغد عيشاً في كل بحابيح الغنى والمرض يحول بينه وبينها، فلا يناله الله أحرَّ ما يحرِق من الغمّ والكآبة. فإذا صحَّ ذلك أفلا يُعَدُّ جنوناً أن يُكتأَبَ لشقاء بعض أُناسٍ يقعون فرائس مرضٍ جسديّ مع ما يكتنفهم من بسطة الغنى والرفاهية، وأن يُشادَ بسعادة نفسٍ هي فريسة الرذيلة، تلك النفس التي هي عندنا أضمن من كل ثمين، ولا يُشاد بها إلاّ لأنّها ذات غِنًى أو مقام شرفٍ بائد أو غير ذلك من هذه الخيرات التي لا بدَّ لنا من تركها على الأرض بعد حياتنا وكثيراً ما تتركنا هي قبل موتنا.

أستحلفكم أن لا يكون ذلك فيما بينكم فإنّه هو علَّة اضطراباتنا وانزعاجاتنا. لهذا السبب نرى كثيرين يرشقون الله بالملام على هذه الحالات ولا يؤمنون بعناية إلهيّة تهيمن على العالم. فلو أدركوا أنّه ليس في الحياة الحاضرة من خيرٍ سوى الفضيلة وعدم الاعتداد بأنواع الفنّ والمال والصحة والقوّة وأمثال هذه الأشياء مهمَا كانت. ولو أدركوا أنّه لا شرَّ في الدنيا سوى الرذيلة من جورٍ وخباثة النفس ما عدا الفقر والمرض والمظالم والنمائم وغيرها مما يُعدُّ من الشرور، لأَمسكُوا عن الكلام الذي اعتادوه ولا قَضوا حياتهم يتجرَّعون مرائر التذمُّر ولا باتوا يغبطون أولئك الذين يستحقّون شفقتَهم عليهم ولا يشفقون على من يستحقّون أن يغبطوهم ولا حكموا على الناس نظير ما اعتادوا أن يحكموا

عليهم. أمّا اعتبار الناس سعداء بما أنهم يتمتّعون بخيراتٍ جسديّة أي بموائد حافلة بفاخرات المآكل والمشارب وبنوم هنيئ طويل المدى فذلك يعني أن يُعتَبروا عجماوات أو بشراً متوحشين. لأنَّ بمثل هذا سعادة تلك الخلائق. ماذا أقول؟ إنّ هذا يُعتبَر شراً حتى في البهائم. فإنَّ عديداً من الخيل والبهائم قد لقيَت حتفَها لأنها عائشة في البطالة والشَّرَه. فإذا كانت الحيوانات لا عقلَ لها ولا فضيلةَ لها إلاّ الاستمتاع بأطايب الحياة، تتألّم من تلك الأشياء، أفنتّخذ هذه المؤلمات لها لنضعها مكان الفضيلة عند البشر الذين يتّحد مقامهم بنبالة النفس ونعتدُّ قليلاً بالسماء والملائكة الذين تُعتبَر نفوسُنا على نوعٍ ما أخواتٍ لهم؟ وهل تتجرّأُون على أن تجهلوا إلى هذا الحدّ طبيعة جسدنا وتركيبَه؟ إنَّ الله لم يصنع جسدنا كما صنع جسد غيرنا من الحيوان. فقد جعل جسدنا في هيئة توافق خادم نفس عاقلة وخالدة. لماذا يا تُرى جعل عيون الحيوانات متجهةً إلى الأرض على حين أنه جعل عيونكم في قمّة الرأس كأنما هي في أعلى حصن؟ أليس ذلك لأنَّ تلك العجماوات لا شأن لها في السماء حالةَ أن الله وطبيعتكم فرضا عليكم في كلّ زمان أن توجَّهوا النظر إلى الأعالي. لماذا صنع جسمكم قويماً وصنع جسم الحيوانات منحنياً إلى الحضيض؟ أليس ذلك للسبب الذي قدَّمناه، وليعلِّمنا بهذه الهيئة من التركيب أن لا تكون لنا علاقةٌ بهذه الأرض وأن لا تتشبَّثوا بأمور هذه الدنيا؟

فلا نخفِضَنَّ إذن نبالتنا ولا نَنْزِلَنَّ إلى مستوى العجماوات حذَر أن تُوجَّه إلينا هذه الكلمة. «إنّ الإنسان لم يفهم كرامته» (مزمور ٤٨: ٢١) فإذا قصرنا السعادة على الملذّات والغنى والمجد وخيرات الدنيا الحاضرة، فحينئذٍ نتفكّر لا كما يتفكّر الناس المتأصّلة فيهم خصوصية نبالتهم، بل كأُناسٍ قد انحطُّوا إلى الدركة السفلى فأشبهوا الخيل والبهائم التي لا عقل لها. نرجو أن لا يكون بيننا أحد من هؤلاء في هذا المحفل المقدس في هذا المسرح الروحي وفي هذا المجتمع التقوي. فإذا استمعنا كل يوم إلى الكلمة الإلهيّة فذلك لكي تكون هذه الكلمة أشبهَ بالمنجل القاطع للشهوات التي تُلقي غشاء الظلام على نفسنا، وبذلك نصير أشجاراً حافلة في مواعيدها بالثمار التي نخزنها لمليكنا والتي بها نمجّد معلِّمنا الإلهيّ العامّ الذي يستثمر نفوسنا فنستحق بذلك الحياة الأبديّة. بُلِّغْنا هذه الأمنية بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقدرة والكرامة مع الآب والروح القدس على مدى دهر الدهور آمين.

ترجمة

الأب نقولا أبو هنا المخلصي

(المخطوطات المخلصيّة)

٢

خطاب ثانٍ

«مَن لعن أباه وأُمّه فليُقتلْ قتلاً.» (سفر الخروج ٢١ :١٧) هذه الشريعة أُنزِلت في العهد القديم، في ذلك الزمان الذي كان فيه الناس لا قاعدة لهم يَستَنُّون بما توجبه عليهم لحياةٍ كاملة حين الله لم يكد يكون معروفاً، وحين كانت الوصايا تُلقى على أطفالٍ ليس لهم غيرَ الحليب غذاءٌ، الحاكم والمصباح الظلّ والرَّمز. فما الذي نقوله في حقّ الذين هم في شريعة النعمة والحقيقة تغمرهم كثرة الأنوار وهم يلعنون لا أباهم وأُمَّهم بل إله الخليقة كلِّها. ماذا يكون عقاب هؤلاء وأيُّ قصاصٍ يكون كفاءً لخبثِهم ومفاسد أخلاقهم؟ فالدُّود الذي لا يموت والنهر الطاغي بالنيران والظلمات الخارجية والقيود والبكاء وصريف الأسنان، وجميع عقوبات الدنيا والآخرة هي قليلة على نفسٍ متأهّبة هذا التأهُّب وغريقة في الشرّ إلى هذا الحدّ. إنّ التجاديف هي ذات وجوهٍ متعدِّدة ومتفاوتة اليوم. فمن المفيد لنا أن نعرضها اليوم بأحوالها حذرَ أن نرتكب نحن جريمةً من أمثالها إذ نخلّص منها الذين سقطوا فيها سواءٌ أكانوا أصدقاء أم أعداء. لأنّه لا خطيئة أفظع من هذه ولا نجد ما يضاهيها فهي غاية كلِّ الشرور وفي كلِّ مكان تؤدّي إلى الخِزي والعار، وتجرُّ على صاحبها ويلاتِ أعذبةٍ هي في غاية الفظاعة وعقوباتٍ لا تُحتمَل.

فمن يكون أولئك الناس الذين يلعنون الربّ؟ أولئك الذين يقيمون مكان حكمته في عنايته الإلهيّة تشويش القضاء والقَدَر. فلو أنّ الكفرة العابدين في بلادتهم للخشب والحجر وهم مصابون بهذا المرض لما كان في ذلك مدعاةٌ للعجَب. أمّا أن يقوم أُناسٌ حُرِّروا من ذلك الضلال وتلك العبوديّة وأحرزوا شرفاً من معرفتهم لله الذي هو وفق كلّ شيء، ذلك الإله الحقيقي الصحيح، ثم يذهبون أتباعاً لتلك الآراء وذلك الجنون، كأنّ الله جزْر بحرٍ يحملهم أثناء عاصفة إلى ما يذهب إليه حَمقُهم، فذلك من أهول ما يستحقّ أنين الحسرات والدموع التي لا تُنفَد. إنّ جماعة مؤمنين يزعمون أنهم يعبدون المسيح وقُبِلَت شركتهم في أسرارٍ رهيبة وأُدخِلوا في نظامِ عقائد سرّية وفي الحكمة التي نزلت إلينا من السماء.

ثم بعد ذلك التشريف الذي صنعه الله لهم يلقون هم أنفسهم في اللجّة ويرفضون بجنون لا يُتصوَّر ، الحرّية التي أحسن الله بها إليهم ويلزمون أنفسَهم أشقَّ العبوديّات ويصوغون لهم فكراً خيالياً لظُلم مطلق لا شيء فيه من الحقيقة وبذلك يهدمون كلّ رجاء سلام ويجتهدون في أن يقضوا على كلّ نشاط يبذله أولئك الممارسون للفضيلة. هكذا يفعل عدوٌّ يراقب في الحرب جنوداً أعِزَّةً شجعاناً مستعدّين لأن يبذلوا حياتهم في سبيل وطنهم فإذ هو لا يقوى على تثبيط عزائمهم بأيِّ وسيلةٍ تعنّ له ولا أن يُخمد نشاطهم في خدمة مليكهم ولا أن يُدخل الخوف إلى قلوبهم ولا أن ينتصر عليهم بصراحة موقفه تلقاءهم، يحاول بطريقة أخرى أن يوقع فيهم الخَلَل والفساد كأن يقنعَهم بأنّهم عبثاً يقارعون ويتحمّلون تلك المشقّات بدون تعقّل ولا موجب وغايته أن يوهي سواعدهم ويشلَّ قواهم ويخمد شجاعتهم ويبدّد بكل هذه الوسائل حرارة اندفاعهم إلى الكفاح حتى لينتصرُ عليهم بغير سلاح ودون مقاومة ويأخذهم أسرى مكبَّلين بالحديد. هكذا يصنع الشيطان. فهو إذ يرى أكبرَ قسمٍ من الأرض تسوده نعمة الله وأنَّ ضلال الأمم يتجرَّد للقضاء عليه أُناسٌ يعِظون بكلّ قلوبهم ونفوسهم هدايةً إلى الدين الحقيقي، وإذ يرى في النتيجة أنَّ الفضيلة مكرَّمة وممارسة، وأنَّ الرذيلة محتقَرة إلى حدّ الاحتقار، يرى كلَّ ذلك ولا يتجرَّأ على المثول أمام أولئك البشر وأن يقول لهم صريحاً: اجحدوا المسيح واهزأوا بعقائده فأقواله ليست إلاَّ خرافات وأضاليل. إنَّ الشيطان خبيث وعُتلٌ قاسٍ وهو لا يجهل أنّ الناس يرذلون كيده من فورهم وتشتدُّ كراهيتهم له. فلأجل ذلك يستعيض عن المضيّ إلى غايته بالطعن والذمّ الصريحيَن، يأخذ طريق الاحتيال ويُفرِغ في السرّ سُمَّ أفانينه الكفريّة، وإذ يتظاهر بإجلال الإيمان وهو يريد على الحقيقة استئصاله يعمل على أن يُفسد تعاليم الحقيقة ويُغري أتباعَه بما يلقّنهم في حقّ الله أفكاراً هي في النهاية في الضلال والكَذِب.

والخلاصة أنَّ هذا السمّ المشؤوم، ذلك الشراب القاتل، سُمَّ القدَر وشرابَه لم يُعدَّ إلاّ فتحاً لطريق الشرور التي أتيت على ذكرها والقصد منها أن يبيِّن كم في عقائدنا وإيماننا من البُطل الفارغ، وأن يَجُرَّ الناس إلى أن يضغنوا على الله وينسبوا إليه حُكماً خبيثاً. هكذا سلك آدم في بدء الخليقة حينما أراه أنّ الرب كائن حسود ويغار على مصلحته. وينحصر الحديث الذي خاطبه به في أنَّ الله يعلم أنَّ أعينكما تنفتح ويعلم أنَّكما تصيران كآلهة. لهذا السبب يحسدكما وينفث عليكما أن تكونا في هذا المقام العالي». وإن

هو لم يُضِف هذه الكلمات إلى إغوائِه، فلهجته المتقدّمة كانت تدع مجالاً ليُفهم منها كلُّ ما فيها من سرّ التعبير. لاحِظوا خبثَه فإنّه بعدما زيَّف الحكم الإلهي وأوضح لأبوينا الأوَّلين أنهما يستفيدان من معصيتهما أجلَّ المنافع كأن تنفتح أعينُهما ويصيرا مساويَين لله ويُحرزا علماً كاملاً، لا يصف بالخباثة من ينكر عليهما تلك المنافع حتى لا يظهر أنه عدوّ يدافع برغبةٍ عن مصلحته الخاصّة فهو يتلبَّس بشكلِ نصيحٍ مليءٍ من العطف والعناية. ذلك ليكون رأيه الغدّار حائزاً القَبول بسهولة. وهذا هو الذي حصل. فهو إذ تكلَّم بما تكلَّم به لم يُردْ أن يقول إلاّ هذا وهو: إبتعدوا عن الله خلقكما لأنّه غيور وحسود، فهو يستاء من رؤيته ازدهارَ سعادتكما ونماءَها. – إنّه لم يقل ما قاله لهما بصراحة التعبير حذراً من أنَّ أبوينا الأوَّلَين يَريَان به عدوًّا مريباً فيهربان منه ولا يلقيان إليه سمعاً. فهو قد حذر التعبير الصريح عما في نفسه من هذه المسألة، لذلك سلك طريق المواربة في إغرائهما بتلك النصيحة المشؤومة. وكذلك هو اليوم لا يقول لنا: إبتعدوا عن المسيح، كما لو كانت عقائده الإلهيّة تستحق الرفضَ والإنكار، لعلمه أنَّ الناس لا يصدِّقون حديثه الكاذب. ولكنه وهو متلبِّسٌ بما يألف من الخباثة والمكر، يتظاهر بأنّه يتركنا وما نعتقد وما نعلمه من الصحة والحقيقة في معتقداتنا، ثم يجرِّدنا من الميراث الأبدي، بأسلوب آخر دون أن ندري ذلك. فهو أشبه برجلٍ يرى ولداً حرًّا طاهر المولد ولكنّه ساذجٌ طيّب القلب فيصمّم العزم على طرده من بيت أبيه فيدفعه إلى ارتكاب أعمالٍ تحرمه بالبتات من ميراث أبيه شاء أم أبَى.

أقول إنّه غير ممكن وأكرّر فأقول غير ممكن لمن يعتقد بالقدَر أن ينال السماء، بل من المُحال أن يجتنب عقاب جهنَّم. ذلك لأنّ القدَر يفرضُ على أشياعِه أعمالاً تناقض الأوامر الإلهيّة. قال الله: «إن شئتم وسمعتم فإنكم تأكلون طيّبات الأرض. وإن أبيتم وتمرَّدتم فالسيف يأكلكم لأنَّ فم الربّ قد تكلَّم.» (إشعيا ١: ١٩ و٢٠) هذا هو كلام الرب وتلك هي شرائعه. فاسمعوا الآن لهجة القدَر وأحكامه المعارضة لكلام الله وافهموا جيداً أنّ الكلام الأول قد أملاه الروح الإلهي وأمّا الكلام الثاني فهو تلقين الشيطان الخبيث والمِسْخ العاتي. قال الله: «إن شئتم وإن أبيتُم»، بانياً بذلك بناء الحريّة بين الفضيلة والرذيلة وجاعلاً إياهما متعلّقتَين بإرادتنا. ويقول الشيطان على عكس ذلك أي لا تستطيعون أن تهربوا من القدَر شئتُم أم أبيتُم. ويقول الله: «إن شئتم وسمعتم فإنكم تأكلون طيّبات الأرض.» أمّا القدَر فيقول: إنّكم ولو شئتم أمراً وهو غير مقدَّر لكم

فإرادتكم لا تفيدكم شيئاً. ويقول الله. «وإن أبيتم أن تسمعوا كلامي فالسيف يأكلكم.» وأمّا القدَر فيقول: إنّنا وإن لم نُرِد أن نسمع، فإذا كان مقدّراً لنا فلا بُدَّ من أننا نخلص. أليس هذه هي لهجة القدَر؟ إذن أيُّ قتال يمكن أن يُفتح أوسع من هذا القتال؟ وأيُّ حرب هي أشدُّ إنذاراً من هذه الحرب التي يعلنها الشيطان بسفاهةٍ ووقاحة ويثيرها أقطابُ زندقته على التعاليم الإلهيّة؟

بيدَ أني أقول ثانيةً إذا الشياطين وبعض بشرٍ هم شياطين حقاً، أُريدَ بهم قدماء الأغارقة نشروا هذه العقائد، فلا غرابة فيما يعملون. وأمّا أن تكونوا أنتم الأُلى صيغوا على العقيدة السماويّة الخلاصيّة، محتقرين لهذه العقيدة لتتمسّكوا بآراء مناقضة للصواب وقاتلة لنفوسكم، فهذا يُعدُّ من أعجب العجب. قال القديس بولس: «ماذا يعنيني أن أدين الذين في الخارج.» (١ كور ٥: ١٤) إليكم أسوق حديثي يا أعضاء المسيح أبناء الكنيسة أنتم الذين نشأوا وتربَّوا في البيت الأبوي وتنعَّموا بالتعاليم السماويّة ونالهم الشرف العظيم من كل النواحي. ذلك هو السبب لتوجُّعي وأنيني. ذلك هو السبب لبكائي وتنهُّدي لأن السقطات التي هي فوق كل معذرة تستدعي البكاء والنحيب. أسألكم إلى أيّ معذرة يُلتجأ في مثل هذه الأحوال حينما يُعلن الله حقيقة يقول الشيطان بعكسها فيصدَّق في المسألة الشيطان ولا يُصدَّق كلام الذين ينتدبهم الله نوّاباً عنه في تلقين أسراره الإلهيّة؟ إنّنا الآن لا نُشيد في القضيّة جدالاً فحسبنا هذه الساعة أن نبيِّن وقاحة الذين يثقون بأرواح الشرّ. يقول الله: «لقد عرضتُ لك النار والماء فتمدَّ يدك إلى ما شئت.» (ابن سيراخ ١٥: ١٧) ويقول الشيطان ليس في وسعك أن تمدَّ اليد، فإذا مددتَها فبحكم الضرورة والاغتصاب - يقول هذا وأنتم تفضّلون تصديق كلامه ولا تتبصَّرون في المسافة الفاصلة بين هذين النصيحتَين اللَّذَين هما الله والشيطان ولا تبحثون عن الخلاف الفارق بين النصيحتَين اللتين إحداهما من صديق سماوي يدعونا إلى الفضيلة والأخرى هي شيطانيَّة حقًّا وتدعونا إلى الرذيلة وفساد الأخلاق وانكم إذن لا تتأمَّلون فيما نلتموه من الله وفي ما قبلتموه من الشيطان. فالأول قد أحبَّكم حتى بذل لأجلكم ابنه الوحيد، ذلك الابن الكثير العزازة على قلب الآب وهو يحبّكم حتى إنّه يهديكم بصوت الرسل إلى طريق الخلاص وأن تعملوا كلَّ ما من شأنه أن يؤول إلى خلاصكم. وأمّا الشيطان فقد كان من شأنه ويظلُّ على شأنه من البغض لكم حتى إنه يحاربكم أبداً حرباً مستحرَّة النار وحتى إنّه إذ لا يمنحكم أقلَّ خير، يجتهد في أن يجرِّدكم من كل الخيرات التي

نلتموها من الله. فقد أراد الرب أن يجعلكم مماثلين للملائكة وأمّا الشيطان فقد اعتزم أن يحطّكم إلى أخسَّ من حالة البهائم وأن يدعوكم إلى أن تقدّموا لها واجبات عبادتكم. فواحد يجذبكم إلى جهة السماء والمفاخر التي تنتظركم فيها وآخر يحمل لكم كيداً وحسداً لِما أنتم عليه في هذه الدنيا من رفعةِ المقام ولا يكفُّ عن مواصلة جهده إلى أن يخلعكم عنه، ولو خَفِيَتْ عليكم دسائس تعليمه مع أنها أبيَن من الشمس حتى لأَكثَفِ العقول فهماً، وأنها تقود إلى الشرّ حتماً ولو أنَّ تعاليم الله تقود إلى الفضيلة والخلاص. وما الذي يهمّ؟ فإن كنتم لا تعرفون أن تتحقّقوها ولو بالتجائكم إلى نصائح غيركم على الأقلّ؛ فتعلّموا ما يفيدكم لخلاصكم وما تتوقّون به هلاككم.. أليس مناقضاً للمعقول أن تسلكوا سلوكاً قويماً في ما عدا ذلك كأن تقبلوا مثلاً دون بحث ولا شرح ما يفيدكم صحّةً من مغذّيات يعيّنها لكم الطبيب وأن ترفضوا بلا تردُّد كشيءٍ مؤذٍ ووبيل ما يقدّمه لكم مشَعْوذٌ دائف السمّ، ولا تسلكون مع الله على هذه القاعدة؟ مع أنّ بين الله والشيطان مسافةً أبعد جواً منها بين الطبيب والمشعوذ. إنها مسافةٌ لا الكلام يستطيع التعبير عن مداها ولا العقل أن يدركها. أليس من النهاية في الجنون أن لا نحذر أبداً من أطعمةٍ يقدّمها لنا أُناسٌ قلَّمَا يُغرَقون يُفرقون مقاماً بعضهم عن بعض، فلأزيد تنويراً من أحدٍ سواهم بالنظر إلى مكانتهم التي نجلُّها حالةَ أنّ اختلاف المشيرَين أحدِهما عن الآخر يقتضي استيضاحاً لندرك ما هو مفيدٌ لخلاصنا وما هو وبالٌ علينا؟

أتوسَّل إليكم برجائي أن لا نكون أقلَّ تعقُّلاً من الخلائق التي لا عقلَ لها؛ لِنبتَعِد عن المشيرين بالسُّوء ولا نُعِرْهُم سمعاً لكلامهم، «لأنّ العشَر الرَّديئة تفسد الأخلاق السليمة» (١ كور ٥٥ :٣٣) فلا معذرة لمن يُغوى فيَغترّ. كيف ترون؟ إذا وُصِفَ لكم مكان وَبِيٌ تفشَّى فيه المرض والعدوى، تتوقّون الجلوس فيه مهما توفَّرت الأسباب التي تُوجب عليكم البقاء فيه إذ تفضّلون صحة جسدكم على كل شيء. قال حكيمٌ: «إستمعوا ولا تقفوا وامضوا دون أن تخسروا الوقت وإذا جلستم هنا فأَقِلُّوا جلوسكم ما أمكن.»

فإذا نحن تكلَّمنا هكذا فلا لأنّنا نخاف من قيمة ما يرتأون، بل نخاف منها على ضعفكم أن يُؤخذ بها. فالحمد لله على أنّ تلك الآراء ليس لها في عيوننا من ثبات إلاّ كنسْج العنكبوت. فإنَّ إيماننا قد بُنِيَ على أساسٍ جدَّ مكينة. إنهم يحاولون أن تطيف أضاليلهم بآذاننا ولكنهم لا ينالون من قِبَلنا إلاّ ابتسامةَ شفقة كالتي نبتسم بها إلى المجانين والمعتوهين. إنما ضعفكم هو الذي نخاف عليه. على أنّ ما بسطناه هنا لا يتناول جميعكم

بل يتناول الذين عندهم في هذا الشأن ما يُلام عليه. فبولس العظيم الحكمة غِبَّ أن أرشد تلميذه تيموثاوس لا في العقيدة فحسْب، بل نبّهه أيضاً إلى الخصومات الجدليّة مع مقاوميه، يحرّضه على أن يرفض المباحثات السخيفة. إنّ زمان حياتنا قصير المدى وقصير المدى أيضاً ميدان الخلاص. إنّنا أعطينا هذا الوقت القصير لنتعلّم فيه الأشياء الضروريّة لنا فإذا استخدمناه لمحادثات باطلة غير نافعة بل مُضرَّة فأيُّ وقت يبقى لنا لنتعلَّم الأمور النافعة لنا وتهمُّنا أكثر؟ هَبْ هذا الوقت قد طال فيجب أن نقضيه كلَّه بأسلوب مفيد ولكن بما أنّه قصير ومحدود، أفليس من النهاية في الجنون أن نخسر هذه الهنيهات السريعة الانقضاء في محادثاتٍ تسبِّب انهدام نفوسنا؟ ماذا تنفعكم الأدوية؟ احترزوا أن تصابوا بجراح. لا تقضوا زمانكم في معالجة شرور يوصلها إليكم غيركم ويرميكم بها بل فتِّشوا عن موارد الصحة في الكتب الإلهيّة. وإذا حُدِّثْتُم بأمورٍ تناقضها، فسُدُّوا آذانكم عن سماعها وابتعدوا سريعاً عن محدِّثيكم بها دون تأخُّر. إذا دُبِّرَت دسيسة على الامبراطور تتحرَّزون جدًّا وتبتعدون عن مجلس المتآمرين، حذراً من الخطر الأكيد الذي تتعرَّضون له بإرْعائِكم السّمع للَّذين يكيدون تلك المكايد، ولو لم توافقوا أصحابها عليها؛ أمّا إذا اَستُصرِخ على الله علانيةً وأُظهر في مقدّمة الإستصراخ رأيٌ مهين له فلِمَ لا تنسَحبون من مجمع المتآمرين ولا ترتجفون من ألسنةِ المجدّفين وتكمُّون أفواه أولئك الكفرة؟ وكيف تتضرَّعون إلى الله بثقة إذا اشتركتم في ما يُوجَّه إليه من المقاومات؟ أستحلفكم أن لا يكون فيكم على هذه الشاكلة.

لا أُوجِّه هذا الكلام إلى الجمهور الماثل في هذا المقام أو بالأحرى إنّه كلام يشتركون فيه على السواء. فإذا لم يكن عندكم ما تؤآخذون عليه من هذه الناحية، فكافحوا الذين تعرفونهم مأخوذين بهذا الشرّ وهذه العِلل وكثيرٍ غيرها حتى تستأصلوها من جذورها. وليكن ذلك بصلوات القديسين وأَخلاَّءِ الله. لأنَّ كلامنا أبعد كثيراً من أن تكون له مثل تأثير صلواتهم وقدرتِها. فلتكُن لكلِّ الذين تضمُّهم الكنيسة في حضنها معونة الخلاص من تلك الموبقات وأن يمثلوا جميعاً بثقة أمام منبر المسيح له المجد آمين.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

الفصل الثالث

العَقـائد المَسِيحيَّة

١
عِظَة
في قيامة الأموات

١ - حدَّثتكم آخر مرّة عن حقائق من العقائد، وعن مجد الابن الوحيد لله ولزمتُ السكوت عن مقاومة المبتدعين الذين ينسبون هذا الإبن إلى طبيعةٍ غير طبيعة الآب الذي ولده، قصداً إلى أن ينزلوه عن مقامه السامي. وأمّا اليوم فيتناول بحثي غرَضاً أدبيًّا أُبيِّن فيه قواعد لتسيير الحياة بمقتضاها. وأصرّ بأن يكون تعليمي لا أدبيًّا فقط، بل إعلان عقيدة أيضاً، لأني أتوخّى محادثتكم عن قيامة الأموات. فالغرضُ هذا يتساوى فيه اتّساعُ مداه واختلاف وجوهه. وهو يختصُّ على السَّواء بتعيين ما يجب أن نؤمن به من هذا القبيل، وما ننظّم به قواعد لحياتنا في هذه الدنيا، والدفاع عن العناية الإلهيّة صدًّا لشِكايات المُرجفين في حقِّها. فالتجرُّد من هذا الإيمان يقضي على كلٍّ ما في هذه الحياة بالدّمار ويجعله خلِطاً مشوَّشاً، ويقلب نظام الحياة اضطراباً وشقاءً. وأمّا الإيمان فيجعل العقيدة بالعناية الإلهيّة راسخة على أساس مكين من بيّنات الصواب. وحينئذٍ فممارسة الفضيلة ومجافاة الرذيلة، وما يتبعها يدخل مع تلك العناية في السلام والسكينة. وبالاختصار نقول: إنَّ الذي لا يتوقَّع قيامته يوماً من بين الأموات، وأن يؤدّي حساباً على ما قدَّم من الأعمال إعتقاد أنَّ كل شيء يفنى بفناء الحياة الحاضرة، حتى لا شيء بعدها، إنَّ إنساناً كهذا لا يكترث بتَّةً للفضيلة لأنّه لا يرجو أبداً أقلَّ مكافأة على ما يبذله من الجهاد في سبيلها. كما أنّه لا يُعنى مطلقاً بأن يهرب من ملابسة الرذيلة إذ هو لا يخاف عقاباً على مستقبحات أعماله. لذلك يسترسل إلى مستقبحات شهواته ولا يصدُّ نفسه عن مقارفة أشنع الآثام. وعلى عكسه مَن يؤمن بقيامة الموتى في المستقبل ويستحضر أمام نظره مجلس ديَّان هائل ومناقشتَه حساباً شديداً وقضاءً مبرماً، إنّ هذا الإنسان يلازم بكل قِواه الحكمة والاعتدال وممارسة كل الفضائل وينأى عن التهوُّر في أهوائه ويجانب التمرُّد وغثيان

الرذائل جميعها، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يفنّد بقوّة أراجيف أولئك الذين يفترون ببهتانِهم على عناية الله. عندما يُشاهَد أُناسٌ أبرار حكماء ذوو فضائل وهم في الأعمّ الأغلب مضطهَدون ومسلوبون ضروريّات الحياة، ومُعنَّون بأمراض ثقيلة يرزحون بها أمداً طويلاً ولا عونَ لهم ولا سَنَد، ويُشاهَد من جهة ثانية فُجّارٌ ملطَّخون بأقذار الرذائل تتدفّق عليهم موارد الثروة ويسبحون في بحار التنعمات، ويلبسون الحلل النفيسة، وإذا مشوا تبعهم عدد غفير من العبيد والناس يحفّونهم بالإجلال، وهم متمتّعون بكل ما يتمتّع به أحد الملوك من شهرة الصيت ومكانة الثقة، عندما يُرى هذان المشهدان المتفاوتان من البشر، يتجاسر كثيرٌ من الناس على أن يقذفوا العناية الإلهيّة ببهتانِهم كأن يقولوا: أين ترى العناية الإلهيّة في ذلك؟ أين العدالة؟ أيكون الرجل الفاضل الحكيم مثقّلاً بأعباء البلايا، حين أنَّ الطمّاع الشرّير مغمورٌ في فيْض الخيرات، أحد الفريقين يملأ الصدور إجلالاً وإعجاباً والفريق الآخر ينبو عنه البصر احتقاراً؟ أحدهما محاطٌ بلذائذ والآخر هو معتصرٌ بأثقال البؤس والشقاء؟ فإذا تعجز أمثال هذه الاعتراضات مَن يشكُّ في المستقبل الآتي، يلزم جانب الصمت. وأمّا المعتقد قيامة الأموات فعِوَض أن يدفع التجديف بسهولة ويقول لمن تاه بهم عقلهم عن الصواب فارتضوا مثل ذلك الكلام: «وحسبكم أن تسنُّوا ألسنتكم تحاربون بها الله الذي خلقكم» واعلموا أن ليس كل شيء هو فانياً مع الحياة الحاضرة، بل إنّنا نسعى لحياةٍ ثانية هي أطول جداً أو بالأحرى ليس لها نهاية. هنالك سينال البارّ المسكين في هذه الحياة، مكافأة على كل ما احتمل من مشاقِّ حياته، ويلقى الأثيم والماكر والمحتال عقاب إثمهمَا وثروتهمَا التي أساءا في حشدها. إذن يجب أن لا ننتقد العناية الإلهيّة حسبمَا يترآءى لنا في هذا الزمان بل بحسب ما يُتوقَّع في المستقبل أيضاً. فالزمان الحاضر هو زمان مكابدة الأعمال وجهاد القتال وأمّا الزمان المستقبل فهو زمان الجوائز وأكاليل الانتصار. أفليس على المصارع البطل أن يكافح في الميدان، يتصبَّب بدنُه عرقاً ويغشّيه الغبار متحمّلاً تضرُّمَ أشعةِ الشمس، منهوكاً عياءً من الجهد والمتاعب؟ فكذلك لا بُدَّ للبارّ من تحمُّله بشجاعة ما لا يُحصى من المشاقّ إذا رام الحصول في العالم الثاني على أكاليل الظفر الباهرة. فليتأمّل المؤمنون الذين يستسلمون إلى الإضطراب عند مشاهدتهم ما للأثمة الأشرار من يسارٍ في هذه الحياة، أنَّ هؤلاء السُرَّاق وشذّاذ الآفاق قطّاع الطرُق، والقتَلة ولصوص البحار قبل أن يقعوا في قبضة الجنود ويُساقوا إلى مجالس القضاء إذا عاشوا من ثمار اختلاساتِهم في بحبوحة الغنى وسكرةِ

اللذائذ، فلا بُدَّ لهم حين يسقطون في يد العدالة من أن يكابدوا العقاب الذي تستحقُّه جرائمهم. كذلك أولئك الناس المتاجرون بالبغاء والعَهر الذين يجلسون إلى الموائد الفاخرة وإذ هم ينتفخون كِبراً، يملأون الساحة العموميّة بمظاهر أُبَّهتِهم، ويجورون على الفقير، متى جاء ابن الله الوحيد ومعه ملائكته، فحينما يجلس على عرشه ويجمع إليه أهل الأرض قاطبةً حينئذٍ أولئك البشر القساة يُقادون إلى حيث موطئ قدميه وهم مخذولون مجرَّدون من كلِّ ما لهم من مظاهر الزهو والغنى لا شفيع لهم ولا مدافع عنهم. أولئك وحدهم يُلقَون من غير شفقة ولا رحمة في أنهرٍ من نار. إذن لا تنظروا إلى الأشرار كأنهم سعداء بما أنهم يسبحون في ملذّات هذه الدنيا بل بالأحرى ارثوا لحالتهم إذ تتصوَّرون ما يترصَّدهم من أهوال الأعذبة. ولا تنظروا قطّ إلى البارّ كأنَّه شقيٌّ بائس لأنّه يئنّ من فقره في هذه الأرض بل افتخروا بسعادته إذ تتأمّلون في ما ينتظره في العالم الآخر من الكنوز العظمى المُعدَّة له. وصُفوة الكلام أن انقشوا في نفوسكم حقيقة قيامة الأموات حتى إذا كنتم من أصحاب الرذائل تنحازون عن طُرُق الإثم وتصلحون أنفسكم بالخوف من العقاب الذي يترصَّد الأثمة.

٢ – لهذا السبب تَرون القديس بولس يحدِّثنا كثيراً عن قيامة الأموات. وقد سمعتموه اليوم يهتف قائلاً: «فإنّا نعلم أنّه إذا نُقِض بيتُ مسكننا الأرضيّ فلنا بناء من الله، بيتٌ لم تصنعه الأيدي أبديٌّ» (٢ كور ٥: ١) ولكن لنأخذ الأمور بالنظر العالي ولنتبصَّر في السبب الذي دعا الرسول لأن يتكلَّم في قيامة الأموات. لأنّه ليس بغير داعٍ ولا عن عَرَض اتفاق يعود إلى الكلام في هذه المسألة مراراً متتابعة. فهو إذ يقصد إقناعنا بحقيقة المستقبل يبحث عمّا يقوّي أبطال الإيمان. فالآن بنعمة الله نحن ننعم في سلام باطنيّ عميق إذ الملوك والأُمراء أصبحوا يكرّمون الحقيقة بخضوعهم أمام الإيمان. وقد نبذ الأضاليل كلُّ الشعوب والمدن والأمم الغريبة وعبدوا ابن الله العليّ الوحيد. وأمّا في بدء الكرازة حين كانت بذور الإيمان حديثة الإزدراع شوهدَت حروب متفاوتة الأنواع لا يُحصى عديدها تشتعل نيرانها غضباً على الكنيسة. فالملوك والحكّام والأصدقاء والأقارب كلُّهم معاً ثاروا ساخطين على المؤمنين حتى الطبيعة هاجت على الطبيعة. فكم من مرّة سلَّم الأب ابنه للموت والأم ابنتها والسيّد عبده. ذلك لأنّه ليس المدن والأقطار فقط كانت مقسومة بعضها على بعض بل البيوت كانت على شاكلتِها في الانقسام والشقاق يسود في كل مكان بأفظع هولاً من الحرب المدنيّة. فالممتلكات تُنهَب والحريّة تُسلَب والحياة عرضة

لأشدّ الأخطار ، لا بسبب هجوم البرابرة بل بسبب اضطهاد الملوك أنفسهم . فإنهم كانوا يُنزلون أشدَّ النِّكال برعاياهم إذ يسخطون عليهم سخطاً يفوق شراسة الأعداء القتلة . وهذا ما أراد القديس بولس إبلاغه إلى المسامع حيث قال : «تذكّروا الأيام السالفة التي صبرتم فيها بعد أن أُنِرتُم ، على مجاهدة آلام كثيرة وصرتم من جهةٍ هدفاً للتعييرات والمضايقات ، ومن جهة أخرى شركاء للذين عوملوا بمثل ذلك . فإنّكم توجّعتم للأسرى وسلّمتم بانتهاب أموالكم فرحين» (عب ١٠ : ٣٢ – ٣٤) ويقول لأهل غلاطية : «أعبثاً قاسيتم كلَّ ذلك؟ لعلّه ليس بعبَث» (غلا ٣ : ٤) ويشهد الشهادات عينها تقريباً لأهل تسالونيكي وأهل فيلبي ولكلّ المؤمنين الذين يكتب إليهم . ولكنَّ الأنكى لم يكن الحروب الثائرة بشراسة والتي لا مهادنة منها وهي تتدفَّع من الخارج بل ما كان يُشاهد من الحروب بين المؤمنين أنفسهم بإلقاء الشكوك من الخصومات والمنازعات والتحاسد كما يعلن ذلك القدّيس بولس نفسه بهذه الكلمات : «بل كنا في ضيقٍ من كل وجه ، الحروب من خارج والمخاوف من الداخل .» (٢ كور ٧ : ٥) وتلك الحرب الداخلية كانت أشدَّ ضراوةً عند معلّمي الإيمان وتلاميذهم . كلاَّ ثم كلاَّ ! إنّ القديس بولس لم يكن يخشى اضطهادات أعدائه أكثر من زلاَّت المؤمنين هدَّد المشوّش نظامهم . ولمّا صافح أحدُ الكورنثيين إحدى نسيباته ، لم يفتأ يئنُّ توجُّعاً من وفرة الخلل ومن جريرة ذلك الخاطئ حتى لكادت أحشاؤه تتمزّق ألماً وكان يذرف دموع الحسرات على حالته . والورطة الثالثة التي لا تتخلّى له بتاتاً عن الورطات التي ذكرناها سابقاً وقد خلقَت للمؤمنين متاعب جديدة إنما هي ذات الممارسة للفضيلة التي تقتضي ما يفوت الإحصاء من المشاقّ والمتاعب ، لأنَّ الطريق التي كان الرسل يستدعون المؤمنين للسير عليها لم تكن طريقاً سهلة لطيفة بل وعرةً ضيّقة لا بدّ لسالكها من أن يكون ذا عقلٍ متعوِّدٍ للتأمُّل ومنتبهاً لنفسه . ولهذا السبب وصف يسوع المسيح نفسه هذه الطريق بأنها ضيّقة . فلم يكن في وسع المؤمنين أن يتشبَّهوا بالأمم في استباحة المنكرات المخجلة والتأنُّق في المآكل والمشارب والاستسلام إلى الحياة في الفجور والتنعُّم في اللّذائذ ومجالي الأُبَّهة بل يُضطرُّ إلى وضْع لجامٍ لغضبه الشديد ويهذّب شراهته الشاذَّة عن سمْت الأدب ، ويحتقر حشْد الأموال ويدوس بقدميه العظمةَ والمجد ويتعالى حاكماً مسلَّطاً على ما يشعر به من غيرةٍ باطلة وحسَد . إنَّ الأُلى يكافحون كل يوم شهواتهم يُدركون مقدار ما يلزمهم لقمعها . وللاختصار أرجو منكم أن تقولوا لي أيُّ شيء هو أصعب منالَ انتصار عليه من قوّة الشهوة الفاسدة التي هي أشبه بحيوان مفترس لا يفتأ يهاجمنا ويقلقنا في كل هنيهة

تقريباً ونضطرُّ تلقاءه إلى كثير من الحذَر والتيقُّظ. أي شيءٍ هو أعنف تجبُّراً من الغضب؟ ولَـكم يحلو لنا الإنتقام ممَّن أهاننا ولكنَّ الإنتقام غير مأذون به. ماذا أقول؟ بل يجب أن يُبذل الخير لأولئك الذين يبذلون الإساءة والشرّ. وأن يُبارَك اللاّعنون وأن يُحذَر من إيذائهم ولو بكلمة قاسية. ولم يكن هذا التحذُّر مقتصراً فيه على العمل وحسْب بل هو مطلقٌ على الفكر أيضاً. فمِن الواجب فَطْمُ النفس عن كلِّ فعلٍ غير جائز وعن النظر إلى كلِّ ما يُغوي بالفجور حذراً لِمَا يهدّد المخالف بالعقاب الأبديّ؛ وإلى الحروب الثائرة من الخارج والمخاوف الطارئة من الداخل والمشاقّ المصاحبة لممارسة الفضيلة. نُضيف صعوبة رابعة هي غِرَّةُ أو قِلّةُ الخبرة عند الملتزمين أن يُعينوا على تحمُّل تلك الصدمات الشديدة. فلم يكن الرسل واجدين رجالاً أدَّبهم آباؤهم على الفضائل الدينيّة بل وجدوا رجالاً تعوَّدوا الشرّ ونشأوا على التغذّي بالملذّات واندفعوا مع أهوائهم الجامحة إلى المنكرات المخجلة وإلى الإفراط في الشراهة. على أنَّ ما جعل المكافحات التي يتعرَّض لها المؤمنون من أشدّ المصاعب، إنما هو من كون آبائهم لم يؤدِّبوهم من زمان بعيد سابق بآداب الفلسفة المسيحيّة، ومن كونهم قد دخلوا أوّل مرّة حينئذٍ في ذلك المعترك الجديد.

٣ — نظر القديس بولس تلك المصاعب الممتحَن بها وقتئذٍ أولئك المجاهدون، فرام أن يعزّيهم في بلاياهم لذلك أخذ يحدِّثهم بتواتر غير منقطع عن قيامة الأموات. وما اكتفى بهذا الحديث تشجيعاً لأولئك الأبطال الكرام، بل أضاف إليه سَرْدَهُ لآلامه الخاصة، قصداً إلى تمكينهم من الجهاد وهكذا قبل أن يذكر لهم قيامة الأموات يقصُّ عليهم ما عاناه من البلايا فيقول: «إنَّا نتضايق في كل شيء ولكن لا ننحصر، ونتحيَّر ولكن لا نيأس، ونُضطهدُ ولكن لا نُخذَل، ونُطرح ولكن لا نهلك» (٢ كور ٤:٨ و٩) يريد هنا الإشارة إلى أنواع الميتات اليومية التي يتعرَّض لها المؤمنون حتى كأنهم جُثثٌ متحركة تُدفَع كل يوم إلى الإجهاز عليها. وغبَّ ملاحظته للمساوئ التي يُبتلَون بها يبثُّ فيهم الشجاعة بذكر قيامة الأموات فيقول: «فنحن نؤمن بأنَّ الذي أقام الرب يسوع سيُقيمنا نحن أيضاً مع يسوع ويجعلنا معكم. لذلك لسنا نفشل لأنَّ ضيقنا الحاليّ الخفيف يُنشئ لنا ثِقَل مجدٍ أبديًّا لا حدَّ لسموّه.» (٢ كور ٤:١٣) فلا يقول لهم: «لذلك لستم تفشلون» بل «لسنا نفشل» فلا شكَّ في أنّه يريد إطلاعَهم على أنّه هو نفسه يكافح بتواتر متصل. في الألعاب الأولمبية لا ينزل إلى ميدان الكفاح إلاّ البطل المصارع وحده وأمّا القيِّم على التمرين فيظلُّ خارج الميدان مثيراً بكلامه حماسةَ بطلِه، دون أن يأذن لنفسه بمساعدتِه إلاّ بهتاف التحضيض لأنَّ الشريعة تمنعه أن يمدَّ

يده لإعانته على خصمه. وليس الشأن كذلك في الكفاح الديني. فالبطل المجاهد هو في الوقت عينه قيِّم التمرين وهو لا يقف خارج الميدان. ولكنه يكافح أيضاً ويشجِّع رصفاءه في الحرب الروحية قائلاً لهم: «لذلك لسنا نفشل أبداً» فلا يقول: «لذلك لستُ أفشل أبداً» بل «لذلك لسنا نفشل أبداً.» فهو يقصد إثارة حماستهم بهذه المدائح. ويضيف إلى ذلك قولَه: «إن كان إنساننا الظاهر يهدم فإنساننا الباطن يتجدّد يوماً فيوماً.» (٢ كور ٤ : ١٦) لاحظوا حكمة الرسول. فقد أثار حماستهم بمعاينته لآلامهم إذ قال لهم: «إنّا نتضايق في كل شيء ولكن لا ننحصِر.» ثم حرَّضهم على الثبات بذِكْرِ قيامة المسيح فقال: «فنحن نؤمن بأنَّ الذي أقام الرب يسوع سيقيمنا نحن أيضاً مع يسوع.» والآن قد لجأ إلى وسيلةٍ أخرى. فبما أنَّ عديداً من البشر هم ضعفاء الروح ولا شجاعة عندهم ليتغلَّبوا على البلايا ومع أنهم على اقتناع بقيامة الأموات، ينساقون إلى الفشل فيترجرجون ويسقطون حينما يتأملون في طول الزمان الذي يكابدون فيه الآلام، يعمد الرسول إلى أن يعلن لهم مكافأةً ينالونها قبل قيامة الأموات. وما تكون تلك المكافأة؟ إنها مُعلَنةٌ بقوله: «إن كان إنساننا الظاهر يهدم فإنساننا الباطن يتجدَّد يوماً فيوماً.» فالإنسان الظاهر هو الجسد والإنسان الباطن هو النفس. فكأنه يقول: «إنكم قبل أن تُبعثوا أحياء بالقيامة وقبل أن تتمتَّعوا بالمجد الآتي، تنالون حتى في هذه الحياة، جائزةً نبيلةً كفاء بلاياكم». لأنَّ نفسنا تتجدَّد حتى في الآلام عينها وإذ هي تلبس شعار الحكمة والتقى تجمع لها أوفر قوَّةٍ وحماسةٍ وصبر على الجهاد. كما انه في الحروب المدنية، قبل أن تُبذل الجائزة والإكليل للبطل المنتصر، تُنال من التمارين الرياضية السابقة للوقائع الحربيَّة، جائزةً لمن يكون أصحَّ بنيةً وأصلبَ عوداً، مما يضمن خلوَّه من كل عاهة وسقام، هكذا في المجاهدات الدينيَّة حتى قبل أن تتفتَّح لنا أبواب السماء، وقبل أن يظهر ابن الله، وحتى قبل أن ننال هنالك مكافأتنا، نحرز منذ هذه الحياة الدنيا ثمر فائدةٍ عظيمة أي نفساً أكثر قوةً وأجزل حكمة. كما أنَّ الخائضين في مسافةٍ واسعة من البحار وقد اضطرُّوا إلى مجاهدة الزوابع والأمواج الثائرة ومسوخَ الحيتان في المحيط الذي يخوضونه ينالون لإقدامهم على الخوض في البحار أجلَّ فائدة حتى قبل أن يكتنزوا الغنى من التجارة إذ يُقلّدون قلوبهم سلاح الجرأة والثبات ويعتزمون دون خشية أسفاراً بعيدة المدى. هكذا في الحياة الحاضرة من يتحمَّل آلام ضروب من النِّكال والعذاب حبًّا ليسوع المسيح ويُمتحَن بما لا يُحصى من البلايا في سبيله، ينال من كل ذلك أعظمَ مكافأة حتى قبل أن يحرز ملكوت السماوات ويضمُّ في ذاته وهو في هذه الدنيا ثقةً كبيرة بالرب ويبوِّئُ نفسه في

وحدها ، بل توقَّع النّكال حتى ظِلَّه يتملّكانه حيرةً واضطراباً. أمّا الذي سبق فكافح مراراً وجاهد شرَّ ما يُخشى ويُخاف وتألَّم ما أمكن أن يتألّم منه ، فانه يسمو فوق كل عذاب ويهزأ ضاحكاً من كل التهديدات حتى كأنها زقزقات خافتة من ضعاف العصافير. والحال أنه ليس إكليلاً غير ذي قيمة ولا هو جائزةٌ طفيفة ، إكليلُ وجائزة من لا يستطيع شيءٌ من الأمور البشريَّة أن يقلقل ثباتَه ومَن ينظر بازدراء إلى كلٍّ ما يقشعرُّ من مخافتِه وأن يضحك ساخراً من كلّ ما يُعدُّه غيره أعظمَ هولٍ فيسترخي تلقاءه ويسقط من خَشيتِه. وأخيراً ليس إكليلاً غير ذي قيمة ولا هو جائزة طفيفة إكليلُ وجائزة مَن يرتفع بصبرٍ سامٍ حتى تُحسب له قدرةُ وشجاعةُ الطغاة الملكيَّة. فإذا غبطنا مَن هو ذو جسمٍ يقوى على الاحتمال بسهولة شدَّة البرد والحرّ والجوع والعوَز ومشاقَّ الأسفار وغير ذلك من المتاعب فبأولى حجّة نضطرّ إلى الإعجاب بسعادة مَن تستطيع نفسُه أن تتحمَّل بشجاعة أعنفَ حملات الشدائد والأوجاع وأن تتماسك صبَّارةً حرَّة في بُهرة كلّ المحن. فإنسانٌ مثل هذا هو أعلى مقاماً من أمراء الأرض وسلاطينها. لأن هؤلاء يمكن أن ينقلبوا وأن تغلبهم الصَّدمات الظاهرة والخفيَّة يهجم عليهم بها أعداؤهم أو أصدقاؤهم أو أعوانُهم على عكس ما صوَّرتهُ لكم فإنه لا يناله أذًى من الأمراء ولا من أعوانِهم ولا من خدّامه ولا من أصدقائِه ولا من أعدائِه ولا من الشيطان عينِه. وكيف لا يكون فى حمًى دون كل الضربات وهو الذي اعتاد حتى أن لا يحسب شيئاً من البلوى ما اعتاد غيرُه أن يُعِدَّه شرَّ البلايا وأشدَّها هولاً؟

٤ — هكذا كان القديس بولس ولذلك كان يقول : «فمَن يفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدَّةٌ أم ضيق أم جوع أم عريٌ أم خطر أم اضطهاد أم سيفٌ» كما كُتِب «لكنَّا من أجلك نُمَات النهار كلَّه وقد حُسبنا مثل غنمٍ للذبح» إنّا في هذه كلِّها نغلِب بالذي أحبَّنا» (رومة ٨ : ٣٥) (مزمور ٤٣). وبهذا الروح قال أيضاً : «إن كان إنساننا الظاهر ينهدم فإنساننا الباطن يتجدَّد يوماً بعد يوم» فهو يعني أنَّ جسدنا يضعف وأمّا نفسنا فتعود أوفرَ شجاعةً وأشدَّ صلابةً وأكثر خفَّةً ونشاطاً. فالجندي الذي يحمل أسلحةً باهظة الثِقَل ، مهما كان شجاعاً ومهما كان مُجرَّباً مدرَّباً لا يقدر أن يصرع أعداءه لأنَّ ثِقَل أسلحته تُضرُّ بخبرتِه الحربيَّة وبخفَّة قدميه ولكنَّه إذا تقلَّد أسلحةً مناسبة لقوّتِه وهيِّنة التقليب في يديه فانه يكرُّ هجوماً على مناوئيه بخفّة النسر. هكذا الجسد الذي تهيِّج الخمرةُ أعصابَه ولا نال منه رخاءُ الترف ولا نعومة اللّذات بل استفاد خفَّةً ونشاط حركة بالصلاة والصوم ومعونة الصبر البالغ على البلايا ،

فانه يكرُّ على جمهرة الأرواح النجسة بصولة الطائر الجارح الذي ينقضُّ من أعالي الجوّ على فريسته وينتصر بغير مشقّة على القوات التي تعترضه. هكذا الطوباوي بولس فإنه بعدما ثقلت عليه الضربات وأُلقي في السجن مقيَّداً بالسلاسل رأى جسده منهوكاً من الضعف ومتلاشياً من المشقّات. وإنما نفسه صارت أثبتَ جأشاً وأشدَّ عزماً فعاد جدَّ قويٍّ وهو في السلاسل الحديدية حتى انّ كلمةً منه زعزعت أساسَ السجن وكان أنه اقتاد السجّان الحارسَ له خاشعاً عند قدميه وفتح كل الابواب بدون إن يبذل جهداً. فالقديس بولس يقدِّم لنا إذن حتى قبل قيامة الأموات هذه التعزية النفيسة جداً وهي أن المحن والبلايا تجعلنا أوفر شجاعةً وأكثر ثباتاً فيقول لنا: «إنَّ الشدّة تُنشئ الصبر والصبر يُنشئ الامتحان والامتحان الرجاء والرجاءُ لا يُخزي.» (رومة ٥: ٣ - ٥) وقيلَ في موضع آخر: «الرجل المتأدب يعلم كثيراً.. والذي لم يُمتحَن ماذا يعلم.» (ابن سيراخ) وهكذا حتى قبل قيامة الأموات، ليست بفائدة يسيرة أو متوسطة فائدة الشدّة (٣٤: ٩ و١٠) التي تمتحن نفسَنا بل تجعلها أكثر حكمة وأوفر فطنة ومتعالية فوق كل خوف ولذلك يقول الرسول: «إن كان إنساننا الظاهر ينهدم فإنساننا الباطن يتجدَّد يوماً بعد يوم.» وكيف يتجدَّد؟ بزوال كل فتور عزْم. فمحبة المال والمجد الباطل ونار الشهوات المستحمقة فهذه كلُّها والأفكار الأثيمة تنطفئ معاً. أمّا إذا استسلمت النفسُ إلى الكسل ولزمت الراحة المسترخية فإنها تصير بسهولة فريسةً لكل الرَّغبات الزائفة ولكنها إذا شُغِلَت على التواتر بالمكافحات التي يفرضها عليها الدين، فلا ترى وقتاً تفكّر فيه بالشرّ وما تقتضيه منها هذه المكافحات الروحية من التيقُّظ والانتباه يحوّلها عن الشهوات التي تصير لها بلاءً وشؤماً. وهذا ما أَنطق الرسول بولس بقوله: «إنَّ إنساننا الباطن يتجدّد يوماً بعد يوم.» ولكنه على أثر هذا الكلام رغب في أن يعزّيَ نفوساً ثقلَت عليها أعباء بلاياها وهي ليست على نصيبٍ كافٍ من التعقُّل ولا لها قوّة كافية لتحمُّلها. فلم يكن بُدٌّ من إظهار نور الرجاء لديها للخيرات المستقبلَة فيقول: «إنَّ ضيقنا الحاليّ الخفيف يُنشئُ لنا ثِقَل مجدٍ أبديًّا لا حدَّ لسموِّه إذ لا ننظر إلى ما يُرى بل إلى ما لا يُرى. لأنَّ ما يُرى إنما هو وقتيٌّ وأما ما لا يُرى فهو أبديّ.» (٢ كور ٤: ١٧ الخ.) فكأنه يقول إن الضيق هو لنا في هذه الدنيا ينبوع خيرات يجعل نفسنا أكثر حكمةً وأشدَّ ثباتاً ويذخر لنا في الآخرة فوائد عظيمة حتى لا نِسبةَ بينها على الإطلاق وبين ما نتحمَّلُه من المشاقّ وهي ترجح جداً على مكافآتنا كثرةً وسموًّا. وهذا ما يريد الرسول إفهامَه حين يقابل بين عظمة الأخطار وعظمة الجوائز وبين الزمان الذي

ينقضي والأبدية الخالدة، وبين خفَّة الضيق الحالي والثِّقَل الذي يعقبه، وبين الضيق والمجد إذ يقول إن الضيق هو خفيف زائل وأما المجد فهو عظيم وأبديّ. وانّ لفظة «ثِقَل» لا تعني هنا شيئاً متعباً ومزعجاً كما يرتئي الكثيرون إذ يقولون إنّ أثمن الموادّ قيمةً هي التي ترجح على غيرها ثِقَلاً حالةَ أنَّ الرسول حين يقول «ثِقَل مجدٍ» يريد عظمة ذلك المجد أي ماذا تُهِمُّكم الإهانات والاضطهادات؟ تأمَّلوا في الأكاليل السماوية والجوائز الموعود بها وهي لا نهاية ولا حدَّ لها وإذا قيسَت في عظمتها وبهائها فلا نسبةَ بتاتاً بينها وبين البلايا الحاضرة. ولكنكم تقولون إنّا نكابد الآن البلايا الحاضرة وأما الخيرات المستقبليّة فلا نملك إلاَّ رجاءَها. هذه البلايا هي منظورة وأمّا تلك الخيرات فهي موضوعةٌ من العلوّ فوقنا بحيث لا يصل إليها نظرنا. ولكن مهما تحجَّبت عن الأنظار فهي أجلى وأوضح من الأمور المنظورة. ماذا يعني يا تُرى أنها أجلى وأوضح؟ يعني أنكم تستطيعون رؤية المنظورات لأنَّ هذه تنقضي وتزول وتلك تظلُّ باقية. ولذلك يضيف القديس بولس فيقول: «إذ لا ننظر إلى ما يُرى بل إلى ما لا يُرى لأنَّ ما يُرى إنما هو وقتيّ وأما ما لا يُرى فهو أبديّ».

٥ – تقولون لي كيف يمكن أن نرى ما هو غير منظور ولا نرى ما هو منظور؟ فسأجتهد أن أنحازَ بكم إلى ما أشعر به بأمثالٍ مستخرجَة من الحياة الحاضرة. إنَّ أهل الدنيا لا يشرعون في بعض الشؤون المهمَّة إلاَّ بعد أن يتبصَّروا بما فيها مما لا يقع تلقاء أعينهم قبل أن يواجهوا منها ما يُبصرون. أُفسِّر ما أقول: إنَّ التاجر يقتحم هيجان الأمواج ويُغامر في مغالبة الأعاصير ومخاوف الغرَق ولا يحصّل كنوز الغنى ببيع بضائعه التي يروِّجها إلاّ بعد أن يعاني أخطار عواصف لا تُعدُّ لكثرتها. إنما لاحِظوا جيّداً أنّ الأعاصير تأتي في الأول وتليها البضائع والبحار والأمواج تتبسَّط أمامه حالما يخرج من المرفأ. ولكنَّ ما لا يراه إنما هو الفائدة التي ليست إلاّ في دائرة الرجاء، ومع ذلك فإن كانت أنظارُه غير ممتدة دائماً نحو هذا المطلب الغير المنظور والذي ليس هو حاضراً لديه ولا هو تحت يده وليس له منه غير الأمل، فلا يتعرَّض لمنازلة الأخطار بين الأمواج التي تحت نظره وهي مهدّدة له. وكذلك الحارث يقرن ثيرانه ويجرّ محراثه ويشقُّ ثَلَماً عميقاً ثم يزرع وينفق ذات يده كلّها ويتحمّل البرد والصقيع والأمطار وكل ما يلازم حِرفتَه لأنه يتوقّع بعد كلِّ ما يعانيه من هذه المتاعب أن يرى حقوله وقد غطّاها ما يبشّره بحصادٍ وافر يملأ أهراءه حبوباً. فترون هنا أيضاً أنّ التعب يتقدّم على ما يُرجى من الفلاح. فالخير المرجوّ

هو غير أكيد وأما المشقَّة السابقة فهي أكيدة ومنظورة. فالأول لا وجود له إلاَّ في الأمل والثانية هي في ملامسة يده. ومع هذا فلو انَّ الحارث لا يقصد ذلك الخير في غاية عمله وهو غير أكيد عنده ومشكوك فيه إذ لا يراه بحاسَّة بصره الجسدية، لمَا كان أبداً يقرن للفلاحة ثيرانه ولا جرَّ أبداً محراثه ولا ألقى أبداً في الأرض بذاره، حتى لم ولا يخرج قطّ من بيته ليحمِّل نفسه عناء تلك المتاعب. ولكن إذا كان الناس يتبصَّرون في الأمور الغير المنظورة في هذه الدنيا قبل أن يتبصَّروا في أمورها المنظورة لأنهم يتحمَّلون العناء لأجلها قبل أن يحصلوا على ما تكافئ به أتعابَهم. فهم يُكلِّفون أنفسهم أن تتحمَّل أولاً كلَّ أثقال العمل توقُّعاً لما ينتج عنه من الخير وأخيراً ينشطون لأن يتألموا من الشرور المنظورة على أمل أن يتمتعوا بالخيرات التي لم ينظروها بعد. فهل يُعقَل أن يُتردَّد وأن يُتوانى استرخاءً في الشؤون المختصَّة بالله وأن تُطلَب الجائزة عليها قبل العمل لها وأن يُظهر المرء نفسَه أقلَّ نبالةً وأحطَّ شرفاً من الملاَّح والحارث؟ فنحن ليس فقط بخيانة صبرنا لنا على الأمور المستقبلَة نكشف أننا أنزل منهما مكانةً بل ننكشف كذلك أيضاً في مسألة أخرى لا تقلّ قيمتها الجوهرية عن الأولى وإليكم كيف تكون: إن الحارث والتاجر وإن لم يتحقَّق كلٌّ منهما الوصول إلى غايته لا ينكصان مطلقاً بسبب ارتيابهما هذا عن الإقدام على عملهما. وأمّا أنتم الأولى احرزوا ضماناً لغايتهم بالمواعيد التي وثَّقها لكم الكائن الذي هو بسموٍّ فائق أهلٌ للتصديق بما وعد به، فإنكم أبعدُ جداً من أن تظهروا ثباتاً في السير إلى غايتكم كثبات الحارث والتاجر في السير إلى غايتهما. ومع ذلك فالحارث يتفق له غير مرة انه بعدما ينثر بذوره ويحرث الأرض، في الميعاد الذي تصبح فيه حقوله مغطَّاة بنماء المزروع الخصيب يرى آماله قد اضمحلَّت إذ أتلف مزروعاته البرَدُ واليرَقان والحشرات المضرَّة أو إحدى الكوارث أمثال هذه. وبعد مكابدته متاعب لا تحصى يرجع إلى بيته فارغ اليدين. وكذلك التاجر الذي يكون قد اجتاز في مدًى واسع من البحر وعاد بمركبه تثقّله البضائع، يفاجئه حادث يُريه ذلك المركب منكراً حتى في مدخل المرفأ إذ يصطدم بصخرٍ ساقته إليه ريحٌ شمالية عاتية حتى التاجر لم يخلص إلاَّ بأشقّ العناء. وعلى العموم وفي كلّ أمور الحياة تحدث غالباً أمثال هذه النكبات حينما يُشرف المبتَلون بها على حدود البلد المقصود. وليس الأمر كذلك في المكافحات التي تكابدونها في سبيل السماء. فالذي قد جاهد وبذر صالحات التُّقى وتحمَّل ألْفَ عناء فادح، يصل بلا محالة إلى الغاية التي يقصدها. لأن الله لا يعرِّض الجائزة التي وعده بها كفاء متاعبه لتغيُّرات الهباء ولا لثورة

الرياح لكنه جعلها في حمى السماوات وديعةً آمنة في كنوز لا يصل إليها اللصوص. ولذلك يقول القديس بولس: «إنَّ الشدَّة تنشئ القوَّة، والصبر يُنشئ الامتحان والامتحان الرجاء والرجاء لا يُخزي» (رومة ٥:٣) إذن لا تقولوا إن الخيرات المستقبلة هي غير منظورة لأنّا إذا دقَّقنا في فحص الأشياء، فتلك الخيرات هي أمثَل ظهوراً من الأشياء التي تحت أيدينا. وهذا ما أراد القديس بولس إفهامَنا إياه إذ يدعو الأُوَل أبدية والثانية زائلة مُظهراً بكلمة زائلة فساد وعدم ثبات الخيرات المشهودة في هذا العالم. فإنها تطير قبل أن تظهر وتتملَّص من قبل أن نحصل على امتلاكها. فتغيُّراتها هي جدٌّ سريعة وتملُّكها قلَّمَا هو أكيد.. ذلك هو الوضع الطبيعي وضْع الثروات والمجد والقوة والجمال وسائر المنافع في هذا الزمان على العموم. ولذلك إذ يوبِّخ النبي من يعيشون في الملذّات وينحازون إلى الرفاهية والغنى وجميع مظاهر الأُبَّهة الدُنيويَّة يقول: «إنهم نظروا الأمور الزائلة الغير المستقرّة كأنها ثابتة ودائمة، إنّ الظلّ لا يُمسَك وخيرات هذه الحياة ليست أقلَّ منه عدمَ إمساك. فبعضها يفرُّ منا عند الممَات وبعضها يولّي عنا قبل تلك النهاية المشؤومة وكلّها تجدُّ الهرب بسرعة السيل المتدفِّع وليست الخيرات المستقبلة كذلك فهي لا تتغيَّر ولا يعتريها تحوُّل ولا غشٌّ ولا فساد ولا يَنالها هرَم بل إنها أبداً في حالة واحدة من القوة والجمال. فإذا كان أنَّ بعض الأمور يجب أن تُدعى غير منظورة فهي لا محالة الخيرات الدنيويَّة الحاضرة التي لا تبقى في ممتلكيها لأنها إذ هي عُرضةٌ للإنقلابات المستمرّة تتحوَّل أبداً من عند الواحد إلى الآخر. وتستبدل بلا انقطاع أصحاباً لها من غير أصحابها الأولين. ولذلك فبعد أن يضع القديس بولس نُصْب نواظرنا كلَّ هذه الحقائق وفي نتيجتها يدعو الخيرات الحاضرة زائلة والخيرات المستقبَلة خالدة، يتكلم عن قيامة الأموات فيقول: «فإنّا نعلم أنه إذا نُقِض بيتُ مسكننا الأرضيّ فلنا بناءٌ من الله بيتٌ لم تصنعْه الأيدي، أبديٌّ في السماوات» (٢ كور ٥:١).

٦ – لاحظوا ما أشد هذه التعابير وكيف يُطلع الرسول على قوة أفكاره بألفاظٍ حرَّة خصوصية فهو لا يكتفي بأن يدعو الجسد بيتاً ولكنّه يصرِّح بأن الحياة الحاضرة هي زائلة ولا بُدَّ لها أن تُخلي مكانها لحياةٍ أفضلَ منها فكأنه يقول: «لماذا تبكي وتتوجَّع يا أخي العزيز لأنك ضُربتَ وٱضطُهِدتَ وأُلْقِيتَ في السجن؟ ولماذا تنوح وتشكو من بعض بلايا ٱمتُحِنَ بها جسدك حالةَ أنه يجب عليك أن تتمنى انهدام هذا الجسد انهداماً كاملاً أو بالأحرى لا انهدام الجسد على العموم ولكن إتلاف كل ما فيه من فساد؟، ذلك لأنه إذ شاء تقديم بيِّنةٍ على أن البلايا التي تقع على قسمٍ من جسدنا هي أبعد من أن تحزننا بل يجب أن تفيدنا ابتهاجاً وسروراً، أتى بصُراحِ الكلام على أنَّ آخِرِ انهدام للجسد وهو الانهدام العامّ هو الانهدام الذي يفعله الموت، يجب أن يكون هدف

أمانيّنا فيقول: «فلذلك نحنُ متشوّقين أن نلبس بيتنا الذي في السماء» وقبل كلامه هذا يقول بالحَرْف، إذ يتكلم عن هذا الجسد: «إذا انحلَّ بيتُ مسكننا الأرضي.» فقد عبَّر عن جملةِ أشياء بعدَّة كلمات فكأنه يقول: «إنَّ هذا البيت الأرضيّ الذي نقطنه هو أشبه بخيمة» ويريد بمسكن خيمةٍ البيوت التي نسكنها والمدنَ وآخر مراده أنّ هيئة هذه المدن هيئة عالَمٍ صائر إلى الزوال. ولا يقول فقط: «أنا أعلم» بل «إنّا نعلم» وإذ لاحظ أنَّ عاطفته كعاطفة المؤمنين الذين يستمعون إلى كلامه، قال لهم: «لا أُكلِّمكم عن أشياء يلابسها الشك ولا كأنكم تجهلونها بل عن أشياء تعلَّمتموها واقتنعتم بها إذ آمنتم بقيامة الرب. لذلك نسمّي أجساد الذين ماتوا خيَماً (أو بيوتاً)» ولكن فلنتمِّم البحث عن خصوصية التعابير في كلامه. فهو لا يقول: إذا تهدَّم بيت ولا إذا صار إلى العَدَم بل يقول: «إذا انحلَّ». فهو يرينا أن الجسد يذوب لكي يُبعث حيًّا ببهاء أشدّ ومجد أعظم ثم كأنه يقابل بين مشاقّ هذه الحياة وجوائزها المتوقّعة، لاحظ الزمان والصفة والعدد في تلك المشاقّ فتابعها هنا حيث سمَّى الجسد القابل الموت خيمةً والجسد القائم من بين الأموات بيتاً، ولم يكتفِ بأن سمَّاه بيتاً بل بيتاً خالداً. وليس هو خالداً فقط بل إنه سماويّ دالاً على سموِّه في الزمان والمكان. فالبيت الأول هو أرضيّ وأما الثاني فيعود سماويًّا. البيت الأول هو زائل وأما الثاني فيعود أبديًّا. فنحن اليوم في حاجةٍ إلى جسد وإلى بيت بسبب ضعفنا اللّحميّ. وأمّا حينئذٍ فالجسد يعود في وقتٍ معاً هو الجسد وهو البيت ولكنه بيتٌ لا يحتاج إلى سقف ولا إلى ما يلبس لأن عدم فساده لا غير، ينوب له عن كل شيء. ولكي يبيِّن لنا سموَّ الخيرات المُعدَّة لنا يقول: «إنّا نحن متشوِّقين في هذا الجسد كأننا مقيمون في خيمة». فلم يقُلْ: «إني أحنُّ» بل «إنّا نحِنُّ» فأُكرِّر ما قلتُ إنه يريد مزْج عاطفته بعاطفة كل المؤمنين إرادةَ أن يجذبهم إلى أن يكونوا مثلَه في أفكاره ويُشركهم في أصول فلسفته. فيقول: «نحن متشوّقين في جسدنا بالرغبة في أن نلبس فوقه بيتنا السماوي». فلم يكتفِ بأن يقول: «نلبس» ولكن نلبس فوقه، ويضيف إلى هذا قوله: «إن وُجدنا لابسين لا عراة» فهذه الكلمات الظاهرة في شكلٍ مُبهم، توضحها الكلمات التابعة لها: «لأنَّا ما دمنا في هذا الجسد، نحن مثقّلين كأننا في خيمة لأنَّا لا نحب أن نخلعه بل أن نلبس فوقه» فترون الرسول على وفاقٍ أبداً مع نفسه فيسمّي جسدنا من جديد خيمةً لا بيتاً «لأنَّا لا نحبّ أن نخلعه بل أن نلبس فوقه» وهنا يضرب الرسول ضربةً قاضية أولئك الذين يسيئون الظنّ والحديث في حالة جسدنا. فبعد أن قال إنّا نحنّ، وإنّا نرغب في الانعتاق أو التخلّص من جسمنا، فلخوفِهِ من أن يُنكره الجسد كأنه شيءٌ سيّئ أو كأنه علّةٌ للرذيلة

وكأنه عدوٌّ صريح ، فلنسمع كيف يسدّد الرسول فكرته أولاً بقوله : «إنّا نحنُ متشوّقين إلى أن نلبس من فوق بيتنا السماوي.» لأن الذي يلبس من فوق يلبس بالنتيجة ثوباً غير الأول. وحينما يضيف إلى كلامه السابق قولَه : «نحنُ تحت ثِقَلِه لأننا نرغب لا في أن نتعرَّى منه ، بل في أن نلبس فوقه» فكأنه يقول : «إنّا نرغب في التخلّي عن لحم الجسد بل عما فيه من فساد ، لا عن الجسد بل عن الموت ، فالجسد ليس هو الموت والجسد ليس هو الفساد. فالجسد والفساد شيئان مختلفان كلَّ الاختلاف. إنَّ الجسد قابلٌ للفساد ولكنه ليس فساداً ، والجسد هو مائت ولكن ليس هو الموت. إنما الجسد هو صُنْع الله ولكن الفساد والموت قد دخلا بالخطيئة إلى العالم.» قال القديس بولس : «أشتهي أن أخلع ما هو غريبٌ عني لا ما هو مِن خاصَّتي وليس الجسد غريباً عني بل ما فيه من الفساد.» ولذلك يقول : «لأننا نحنُ لا إلى أن نخلع» ولا شك في أنه يريد عدم خلْع الجسد بل أن يلبس فوقه جسد عدم الفساد. فالجسد هو وسَطٌ بين الفساد وعدم الفساد. فهو يريد أن ينبذ ما تناوله من الخطيئة وأن يأخذ في الوقت نفسه ما أعطَتْه إيّاه النعمةُ الإلهية. ولكي تدركوا أنَّ الرسول بقوله: «نحنُ إلى أن نخلع» لا يريد بتاتاً خلْعَ الموت والفساد. إسمعوه يقول عقيب ذلك ، فانه بعد أن قال فإنّا نحنُ لا إلى أن نخلع بل إلى أن نلبس فوقه. فلم يقُلْ : «غايةَ أنَّ الجسد يُبتلَع بانهدام كامل. بل ماذا يقول؟ يقول : حتى إنّ ما هو مائتٌ فينا تبتلعه الحياة.» «تبتلعه الحياة» يعني أنه يُعدم ويتلاشى. وهكذا يريد الكلام لا عن إنهدام الجسَد ، بل عن الفساد والموت . فالحياة التي تأتي من فوق الجسد لا تُفني الجسد بل تُلاشي الفساد والموت اللّذَين تصدَّيا له وعلِقا به. فتنهّدات القدّيس بولس لم تكن إذن من أجل الجسد ، بل من الفساد الذي يَعلَقُه. فالجسد هو عبءٌ ثقيل مُعْنِتٌ ومزعج لا من جوهر طبيعته بل بسبب الموت الذي أُلزِمَه من أول عهده. والجسد بحدّ ذاته ليس هوموضعاً للفساد بل هو لغير الفساد . ذلك هو نُبلُ أصلِهِ الذي يدلُّكم على مقامه العالي حتى حين صار قابلاً للفساد. فَظِلُّ الرسل فقط كان يطرد القوّات التي لا جسَدَ لها. ورماد أجسادهم وترابها ، كانا ينتصران على الأبالسة والألبسة التي تستر أجسادهم كانت تطرد الأمراض عن أصحابها وتُعيد إليهم الصحَّة.

٧ — فلا تحدِّثوني إذن عن البلغم والصَّفراء والعرَق وبالاختصار عن كلِّ ما يروق هؤلاء الأعداء أن تنال به الجسد. فبلاياه هذه ليست من جوهر طبعه بل هي ثمار الفساد الطاريْ عليه. أتريدون أن تعلموا حقيقة حاله بالخبرة. دقِّقوا الفحص عن الأعضاء التي يتركَّب منها. انظروا في أشكالها ودقائق أعمالها وتوافُقها ، فتروا في آداء خدَمها المشتركة بينها

وفاقاً بديعاً يسودها هو أكمل مما يسود أفضل المدن حكماً حتى ليس فيها إلاَّ جامعة وطنيّة من خير العقلاء. فإذا ازدريتم هذه الحسنات في الجسد واكتفيتم أن تلحظوا ما هو فيه قابل للفساد والموت، فنحن نستطيع أن نستخرج من ذلك عينه بيِّنات البراهين للدفاع عنه. كلاَّ! إن البشر لم يخسروا شيئاً بل بالعكس قد ربحوا كثيراً من فساد الجسد، وإليكم البرهان. إنَّ كلَّ القديسين العائشين في أجسادهم قد سلكوا سلوكَ حياةٍ ملكيَّة فلم يوقِفْهُم ذلك العبء الثقيل عن التقدّم في سبيل الفضيلة. أمّا الذين اندفعوا إلى الكفر، فهؤلاء لم يجدوا من فساد الجسد حاجزاً خفيفاً يحول دون جسارتهم في تدنيس المقدَّسات. ويمنعهم التقدّم في تلك الخطَّة. والخلاصة أنَّ كثيراً من الناس المائتين ولو أنهم لابسون جسداً قابلاً للآلام والفساد، توهموا أنهم معادلون لله. فإذا قصروا أعمالهم على أن يخطّوا لغيرهم خفّة رأيهم فكم من أُناسٍ مغفَّلين كانوا يغترُّون بأقاويلهم لو لم يفطنوا إلى أنهم ذوو أجسادٍ هي عرضة للأمراض والفساد تكشف لهم عمّا يلابسهم من الضعف؟ فإذا كان فساد الجسد حاجزاً يحول دون الكفر الذي هو آخر حدٍّ من حدود الإثم. وإذا كان ذلك الفساد يَبسُطُ للقديسين فرصةً ليظهروا شجاعتهم فأيُّ مغفرةٍ يستطيع أن ينال أولئك الذين يُسيئون إلى أجسادِهم ويحتقرونها؟ ونستطيع القول إنَّ للجسد فضلاً في أنه هو يعرِّفنا بالله، لأنه إذ كان كلُّ ما هو غير منظور في الله صار منظوراً منذ بدء الخليقة وإذا حصل لنا الإيمان بفضل ما نُبصِر ونسمع فمن الواضح أنَّ العيون والآذان هي التي تدعو النفس إلى معرفة الكائن الأسمى الذي خلقها.

ولذلك لغيرة القديس بولس إلى الدفاع عن الجسد قال: «إننا لا نشتهي أن نخلع جسدَنا، بل نشتهي أن نراه لابساً عدم الموت» (١ كور ١٥:٥٣) لا تقولوا لي كيف يستطيع الجسد أن يُبعثَ من الموت ويعود غير قابل للفساد؟ فحيث يكون عمل الله يجب أن لا يكون موضعٌ للفظة «كيف» ولم أخصُّ الله. إنكم أنتم تُجرون في كل يوم أعمال قيامة إمّا في مزروعاتكم أو في فنونكم أو في الموادّ المعدنية. فالزروع لا تُنبت السنابل إلاّ إذا هي ماتت وفسدَت وتغيَّرت. وعلى نحو ذلك، فحينما ترون الحبّة قد فسدَت وانحلَّتْ لا تشكّون أبداً في أنها ستقوم، بل تثقون كل الثقة أنها ستقوم، بما أنها لا يمكن أن تقوم إلاّ إذا فسدت وتغيّرت. فحالتها هذه تحملِ على التفكُّر بحالةِ جسدكم عينِها، فحينما ترون الفساد قد نزل به يُقتَضى منكم أن تفكِّروا بالقيامة في العاقبة. والحقُّ يُقال إنَّ الموت لم يهدم الجسد بل هدم ما فيه من الفساد. وهذا ما يُشاهد أيضاً في الموادّ المعدنية. فالعمَّال

يستخرجون ذهباً نقياً من تراب الأرض الذي يُلْقونه في البوتقة ويصنعون زجاجاً لمّاعاً من الرمل الذي يخلطونه بغيره من الموادّ. فهذا الذي تصنعه قوّة النار تعجز عنه النعمة الإلهية! أيُّ إنسان يقول ولو أنَّه أقلُّ البشر إحساساً وعقلاً؟ تأمَّلوا كيف سامحكم الله في بدء الخليقة. أليس من قليل التراب جبَلَ أجسادكم؟ أفيكون أصعب أن يُصنع من طينةٍ لحمٌ وعروق وجلْدٌ وعظام وأليافٌ وأعصاب وشرايين، وأن تُصنع أعضاء الحواس وغيرها من أمثالها كالعيون والآذان والآناف والأرجل والأيدي، وأن يُعطى كل عضو قوةً مشتركة بينه وبين غيره وقوّة خصوصية له. أيكون ذلك أصعب من جَعْل القابل الفساد غير مائت؟ ألا ترون أنَّ الطّين هو مادّة متساوية الأجزاء وأنَّ جسدنا متفاوت في أعماله ولونه وبُنيته وصفة جوهره وفي كل شيء. ولِمَ نتكلَّم عن أجسادنا؟ ولا نسأل كيف صنع الله المواكب السماوية التي لا تُحصى: الملائكة ورؤساء الملائكة وغيرهم من القوات العلويَّة؟ لا أستطيع أن أقول كيف صنع تلك الكوائن الروحية. فكل ما أعلمه أنَّ إرادته كفَت لأن يصنعها. والله الذي خلقها كلَّها بغير أجساد، يعجز عن تجديد جسد الإنسان الذي غيَّره الفساد وأن يرفعه إلى رتبةٍ أعلى من رتبته الأولى! فهل من أحد هو من نقص العقل بحيث يرتاب في ذلك وينكر قيامة الأموات؟ فإذا لم يقم الجسد من الموت فالإنسان إذن لا يقوم. لأنّ الإنسان ليس هو بتاتاً نفساً فقط، بل النفس والجسد يؤلّفان الإنسان. فإن قامت النفس وحدها فلا يقوم إلاّ نصف الإنسان لا كلّه وعلاوةً على ذلك غير ممكن أن يُقال بالتحرير إن النفس هي التي تقوم لأن القيامة تختص بالكائن الذي ينحلّ. والحال أنَّ النفس لا تنحلّ بل الجسد. ولكن ماذا تعني هذه الكلمات: «إن وُجدنا لابسين لا عراة.» (٢ كور ٥: ٣) ذلك سرٌّ عظيم فائق الوصف يعرضه علينا القديس بولس. وما يكون ذلك السرّ؟ لقد أعلنه في رسالته الأولى إلى الكورنثيين حيث قال: «إنّا سنقوم كلّنا ولكن لا نتغيَّر كلُّنا.» (ف ١٥: ٥١) وما معنى قوله: «نقوم كلُّنا» يعني الأمم واليهود والمبتدعون وبالاختصار كل البشر الذين وافوا إلى العالم سيقومون في اليوم الأخير. وهذا ما أراد الرسول نفسه أن يبلِّغه إلى المسامع حيث قال: «ولكن لا نتغيَّر كلُّنا في لحظةٍ وطُرفة عين عند البوق الأخير فإنه سيهتف فيقوم الأموات عادمي الفساد ونحن نتغيَّر لأنه لا بُدَّ لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد ولهذا المائت أن يلبس عدم الموت.» (١ كور ١٥: ٥٢ و٥٣).

٨ – فبما أنَّ القيامة هي عامَّة شاملة لجميع البشر، الصُلاَّح والطُلاّح الأتقياء والأشرار، فخوفَ أن تصفوا الدينونة الأخيرة بعدم العدالة وتقولوا في ذوات نفوسكم:

ماذا إذن؟ أيكون أنّي أنا الذي أخذ نفسه بالعناية وتحمُّل المشقَّة في ممارسة الفضيلة أبعثُ من بين الأموات ويُبعث مثلي مَن هو من الأمم، والكافر وعابد الوثن، ذلك الذي لم يعرف ابن الله يقوم كما أقوم أنا وينعم بحظِّ السعادة نظيري! فلكي لا يزعجكم التفكُّر بهذه المسألة إسمعوا ما يقول القديس بولس: «إن وُجدنا لا بسين لا عُراة» وتقولون كيف يمكن أنَّ الذي هو لابسٌ عدم الموت وعدم الفساد أن يكون عرياناً؟ كيف؟ فبلا شكّ إذا وُجد مسلوباً من الأمان والمجد أمام الله. إنَّ أجساد الخطأة تقوم خالدة وغير قابلة للفساد ولكنَّ هذا الشرفَ عينه ليس هو إلاَّ وسيلة وفرصة للعقوبات والأعذبة. فلا تقوم في حالةٍ منزَّهةٍ عن الفساد إلاَّ لِتُسامَ عذاب الحريق الدائم. فكما أنَّ النار المقضيَّ بها على المجرمين غير قابلة الإنطفاء أبداً، هكذا أجساد هؤلاء لا يمكن أن تفنى. وهذا ما جعل الرسول يقول: «إن وجدنا لابسين لا عُراة.» فالأمر الجوهري عندنا لا أنَّا نقوم ونلبس عدم الموت ولكن أن نقوم ونلبس عدم الموت بحيث لا نكون عراةً من المجد والأمان لدى الله حتى لا نُلقى في النيران الأبديَّة.

وأُكرِّر لذلك قول الرسول: «إن وُجدنا لابسين لا عراةً» وعلى أثر ذلك لرغبته في أن يوطّد حقيقة القيامة توطيداً أكمل، أضاف إلى قوله: «إنّ كلّ ما فينا من مائت تبتلعه الحياة» قولَه الثاني: «والذي أعدَّنا لذلك هو الله الذي أعطانا عربون الروح» فكأنه يقول: «إنَّ الله صوَّر الإنسان منذ البدء لا ليهلك بل ليسير نحو التنزُّه عن الفساد». ولذلك حين أَذِنَ أن تكونوا عرضةً للموت أَذِنَ به حتى إنكم إذ تُصلَحُون بهذا العقاب وتعودون في حالةٍ أفضل تستطيعون أن تنقادوا إلى الخلود. هذا القصد كان موقوفاً في الله منذ البدء وبهذه النيَّة صوَّر الإنسان الأول. تلك نيّة أوضحها منذ أول زمان العالم والخلاصة أنه لولا إرادته منذ البدء أن يفتح لنا أبواب الخلود، كما سمح أنَّ هابيل الذي مارس كل الفضائل، هابيل الذي كان صفيَّ الله ينال ضربةً جرَّعته المات. ولكنه إذ أراد أن يعلّمنا أننا نسير إلى حياةٍ غير هذه الحياة وأنَّ للصالحين عالماً آخر ينالون فيه الجوائز والأكاليل المعدَّة لهم، سمح بأنَّ البارّ الأول يولّي عن الدنيا دون أن ينال فيها مكافأة على أعماله غايةَ أنه بذلك الموت الأليم الذي نزل به يُعلن جهاراً أو يعلِّم كل البشر «أنَّ بعد هذه الحياة تُحرز أجرةُ ومكافأة الأعمال الصالحة.» ولهذا السبب أيضاً نُقِل أخنوخ ورُفِع إيليا وكلاهما رمزان لقيامة الموتى. إنَّ قدرة الخالق تكفي ولا شبهةَ لتجعلنا على تمام اليقين. على أنه إذا وُجد مؤمنٌ أضعف من غيره فيطلب برهاناً آخر وضماناً محسوساً أكثر على القيامة المقبلة فالله يبذلها له بسخاء إذ

يفيض عليه نِعَم روحِهِ القدوس. وهكذا بعد أن وطَّد الرسول حقيقة قيامة الأموات بقيامة ابن الله نفسه وبقدرة الكائن الأسمى الذي خلقنا، يزيد آخر تأكيدٍ لتلك الحقيقة بهذه الكلمات: «إنَّ الله أعطانا عربوناً» لا عربون الثروات الطائلة ولا الذهب ولا الفضَّة بل عربون الروح (٢ كور ٥:٥) فالعربون هو جزءٌ من كلّ، نُعطاه ضماناً مؤكّداً لحقِّنا. فكما أنه في المعاملة المدنية من يأخذ الضمانات والعرابين يعود غير قلقٍ على الكلّ الذي وثقَ بنيله، فأنتم أيضاً الذين أخذوا عرابين أي مواهب الروح القدس لا ترتابوا بتاتاً في حصول الخيرات المعدَّة لكم بعد الوفاة. وصُفوة الكلام أنكم حينما تُنهضون الأموات وتعيدون البصر إلى العميان وتطردون الشياطين وتزيلون الأمراض وتنزعون من الموت فريسته، تصنعون كل هذه العجائب وأنتم في جسدٍ ترابيٍّ مائت. فأيُّ عذرٍ لكم إذا شككتم بعد ذلك بقيامة الأموات؟ وإذا كان الله قد اختصَّنا في زمان الشدائد ومكافحات المحن وقبل ميعاد المكافآت المقبلة فوهب لنا في هذه الحياة أمثال تلك الأكاليل، فأيُّ الخيرات لا يغمركم بها عندما يُقبل ميعاد الجوائز والمجد؟ ولو اعترض مَن يقولون اننا لا نرى في أيامنا صُنْعَ خوارق كالتي ذكرتَ ونحن مسلوبون مثل هذه القدرة لأجبتُ: إذا صُنعَت تلك الآيات العجيبة في أيامنا أو في عصر سالف، فهي هي على السواء. والحال أن الرسل كان لهم السلطان على ذلك كما تشهد كنائس الدنيا كلِّها، وكما تشهد الشعوب والمدن والقبائل الذين سمعوا فلبُّوا أصوات أُناسٍ اغفال صيّادي سمك على غايةٍ من سلامة الفِطرة. لا! لا! إنَّ أُناساً فقراء خاملين يجهلون حتى القراءة لم يكن يمكنهم البتة أن ينتصروا على العالم كلِّه، لو لم تُعِنْهم على ذلك خوارق الآيات والعجائب. ولكنكم أنتم لستم خلآءً من نعمة الروح القدس ولم يزل عندنا الكثير من ضمانات مواهبه المعجزة وصفَ الواصفين. تلك الضمانات هي أهمُّ جداً وأكثر عجباً مما تقدَّمت فنقلتُه لكم لأنَّ إقامة جثةٍ من الموت هي أقلُّ شأناً بكثير من تخليص نفسٍ من الهلاك وهي ميتةٌ بالخطيئة. وهذا ما يحدث في إعطاء التنصير (المعمودية). وإزالة الأمراض الجسدية هي أدنى قيمةً بكثير من إزاحة ثِقْل الخطيئة وبلاياها. وإعادة البصر إلى الأعمى هي أيسر جداً من إنارة النفس الغارقة في الظلمات الروحية. فإذا لم يكن لنا حتى الآن عرابين من الروح القدس، لم يكن عندنا تنصير (معموديّة) ولا حَلُّ الخطايا ولا بِرٌّ ولا تقدُّس ولا كنا أبناءً بالذخيرة لابن الله ولا كنا نشترك في الأسرار (لأنَّ الروح القدس هو الفعَّال في تقديس الجسد والدم السِريَّين) ولا كان لنا كهنة لأن الفَضْل لهذا الروح عينه في حصولنا على

رُتب الكهنوت المختلفة. ويمكن أن يُعَدَّ أيضاً كثيرٌ غيرَ ما أوردنا من الضمانات التي نحرزها بنعمة الروح القدس. حتى إنكم أنتم عندكم عرابين من ذلك الروح لأنكم تستطيعون أن تُحيُوا النفوس الميتة وأن تنيروها وتجعلوها طاهرة نقيَّة. وبما أننا نلنا مثل هذه الضمانات فلا نشكُّ مطلقاً في حقيقة مستقبلٍ لنا. ولكن إذ نجمع في فكرنا كل البراهين الموطّدة للإيمان بقيامة الأموات فلنَسِرْ في حياةٍ موافقة لإيماننا لنحصل على الخيرات الثابتة التي تفوق خُطَبَ الناس وعواطفَهم. فلنكن أهلاً للحصول على تلك الخيرات بنعمة وصلاح ربنا يسوع المسيح الذي يجب المجدُ به ومعه للآب والروح القدس مدى الدهور آمين.

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي

(المخطوطات المخلصيّة)

٢
عِظَة
عن المكافأة عن الأعمال

فإذ نحن مقتنعون بهذه الحقيقة التي نستطيع أن نزيد التبسُّط فيها، ولكنها موضحةٌ بكفاية لأُناسٍ أصحاب مدارك واعية. فلنهرب من الرذيلة ونتمسَّك بالفضيلة ولندلَّ بالبيِّنات على أنَّا أحرار نفعل ما يُثبته لنا عقلنا حذراً من أن نقف موقف الخجل في ذلك اليوم حين تكشف علناً كل أفعال المائتين (البشر). قال القديس بولس: «لأننا جميعنا لا بُدَّ من أن نُظهرَ أمام منبر المسيح لينال كل واحد على حسب ما صنع بالجسد خيراً كان أم شراً.» (٢ كور ٥: ١٠) فلنستحضِر ذلك اليوم الرهيب ولنعتقِدْ أنَّ القاضي الأسمى هو منذ الآن حاضر وهو جالسٌ على منبر قضائِه وكل أعمال البشر هي في وضح النهار وستُبسَط لديه. وأُكرِّر القول إننا لا نُظهر فقط لدى القاضي الأسمى بل إنَّ أعمالَنا كلَّها تنكشف له. أَلسْتم تحمرُّون خجلاً إزاء هذه الفكرة أوَلا ترتعد فرائِصكم منها؟ أوَلسنا نؤثر الموت غالباً على أن تنكشفَ خطايانا على مَرأى من كل الملائكة والبشر؟ قال الكتاب المقدّس: «لَأُوبِّخنَّكَ وأنصِبَنَّ إثمك لعينيك» (مزمور ٤٩: ٢١)، حتى إذ إننا الآن ولو لم نبصر الشرَّ إلاَّ افتراضاً وفي الصورة المصنوعة يظلُّ تقريع ضميرنا متابعاً لنا. فماذا تُرانا نصنع حينما يأتي

يوم الانتقام وحينما يكون كلّ سكّان الأرض، حينما يكون الملائكة ورؤساء الملائكة وزعماؤهم وقوّاتهم مجتمعين معاً وحينما تدوّي الأبواق في الآفاق من كل الجهات ويرتفع الصُلاَّح على غمام السماء حالةَ أنَّ الأشرار يذرفون الدموع غزاراً ويبعثون العويل أليماً. فأيُّ خوفٍ حينئذٍ يكون خوفُ سكان الأرض؟ لأنه حينئذٍ «يكون اثنان في حقلٍ فيُؤخذ الواحد ويُترك الآخر» (متى ٢٤ : ٤٠) فأيّ يأس يكون يأسهم ساعة يرون القديسين مرتفعين شرفاً، حالةَ أنَّ غيرهم يُتركون في أسوأ الخجل؟ صدِّقوني صدِّقوني إذا قلت لكم إن الكلام مهما كان لا يقوى على أن يعبِّر عن شواعر نفوسهم. فهل رأيتم في حياتكم مجرمين يُقادون إلى الموت؟ فماذا تظنُّون ذعرهم يكون حينئذٍ وخفقان قلوبهم حين يُذهَب بهم إلى موقف العذاب؟ وأيّ جهدٍ لا يبذلونه ليتملَّصوا من ذلك الموقف الرهيب؟ لقد سمعتُ ما قيلَ لكثيرين، من أولئك الذين كانوا قد تسلَّمتهم أيدي الجلاَّدين أنَّ نفوسهم كانت في شدَّة الهول والاضطراب والدهشة، بحيث انهم لم يستوضحوا حتى الناس الناظرين إليهم. وماذا أقول في أولئك التاعسين. إنَّ حشداً من البشر يزدحم حولهم وهم لا يعرفون منه أحداً. فادخلوا في قلب كلٍّ من أشهادهم فلا تجدوا هناك أحداً بلغَت به القوّة وموتُ الشعور وهو ثابت الجأش جداً وشديد العزم جداً حتى لا يأخذه حزنٌ ولا تتولاَّه القشعريرة البالغة. ماذا؟؟ فلئِن كان عذاب أُناسٍ نجهلهم يؤثر فينا ذلك التأثير المحسوس الأليم فما تكون حالتنا حين نكون نحن أنفسنا مسوقين إلى عذابات أشدَّ هولاً بكثير جداً وحين نرى أنفسنا محرومين لذائذ تفوقَ الوصف ومقضيًّا علينا بأعذبةٍ أبدية؟ وعلى افتراض أنه لا وجود لجهنَّم ألا يكفي الشقاء العظيم من خسرانٍ مدى الأبد للسعادة والمجد المُعدَّين للأبرار؟

هَبْ أنَّ الملك في أيامنا يحتفل بدخوله إلى مقرّ ملكه فكم يسوءُ أكثر المشاهدين ذلك الاحتفال تأمُّلُهم في نفوسهم وما هم فيه من الزِّراية حتى لتَقِلُّ بهجتُهم وتذوُّقهم لِلَّذَّة ما ينبسط أمام عيونهم من بهاء ذلك المشهد العظيم. ولكم يشعرون بالحزن الأليم من أنهم لا يؤلِّفون شطراً من موكب الامبراطور. وما الذي يحصل حينئذٍ على سبيل المقابلة؟ أتظنُّون عقاباً هيِّن المحمل على مَن لا يدخل في جمهرة السعداء ولا ينال أقلّ حصة من مجدٍ يُعجَز عن وصفِهِ؟ وإذا أضفتم إلى هذا الشقاء أشدَّ الظلمات هولاً وصريفَ الأسنان وقيوداً لا انفكاك لها ولهيبَ نيران لا تُطفأ ودوداً لا يموت، والغمَّ والحزن وألسنةً يتأكَّلها عطش مذيب كعطش الغنيّ الذميم، والإهمال التامّ والبكاء المتواصل وأنين الكآبة الذي لا يجد

عزاءً وكثرة الإعوال الذي لا يأبه له أحد. فأيّ فكرة تنشأ عندنا من تأمُّلنا في أولئك المثقّلين بأعباء تِلكُم الآفات؟ آه أنستطيع أن نتصوَّر أشدَّ بؤساً من ذلك البؤس وأدعى منه لكلِّ شفقة؟

إذا دخلنا إلى أحد السجون حيث يقيم أشقياء في الضنك والعياء فبعضهم مقيَّد بسلاسل حديدية وبعضهم ضمن المطابق في ظلام كثيف، نتأثّر وترتعد فرائصنا ونقصد أن نبذل غاية الجهد لكي لا ينالنا مثل ذلك الشقاء. ولكن حينما ندخل في اللجج الأبدية فماذا تكون أفكارنا حينئذٍ؟ وماذا نعمل؟ هنالك نكون مقيَّدين لا بسلاسل حديدية بل بنيران لا تنطفئ مدى الأبد. وهنالك الجلاوزة المحافظون على العدالة الإلهية ليسوا بشراً نستطيع أن نستعطفهم إنما هم أبالسة قُساة شديدو الرهبة لا نتجرّأ على النظر إلى وجوههم. إنّ لذائذهم هي في ما نحن فيه من البلايا والآلام. وهنالك لا نرى أحداً يحمل إلينا مالاً أو طعاماً أو كلام تعزية إذ لا رحمة هنالك بتاتاً. حين كان نوح وحين كان أيوب وحين كان دانيال يرون أولادهم الأخصّاء مسلَّمين للأعذبة لم يكونوا يستطيعون أن يعينوهم ولا أن يمدُّوا اليد لإنقاذهم. كلُّ حنوٍّ طبيعي يسكت هنالك. كم من آباء صُلاَّح يكون لهم أحياناً أولادٌ أرذال وكم من أولادٍ صُلاَّح يلَدهم أحياناً آباء أشرار لأن الرذائل، هي من نتاج الإرادة لا الطبيعة. فالذي يصنعه الإله العادل ليظلَّ فرح القديسين نقياً طاهراً بحيث لا تتطرَّق إليه الشفقة فتعكِّر صفاء سعادتهم. فإذ هو أعلى من أن يأذن لهذه العاطفة أن تلِجَ نفوسَهم، يريد أن تثور فيهم حركة مقدسة إكراماً لربِّهم بمقاومة ثمرات أحشائهم الخاصَّة. ومن الأكيد أنه إذا كان بعض الوالدين حينما يرون أولادهم غارقين في حياة غير مرتَّبة يحرمونهم من ميراثهم ويقطعونهم من جسم أُسْرتِهم فبأولى حجّة يكون الأمر كذلك في الدينونة الأخيرة. إذن لا ينتظرَنَّ الذين يكونون فاعلي شرّ أن يُعامَلوا معاملة طيّبة، بسبب طمع في صلاح أجدادهم «لأنَّ كل أحد ينال على حسب ما صنع بالجسد خيراً كان أو شرًّا.» (٢ كور ٥ : ١٠) فلنتأمل في هذه الحقائق الرهيبة ولنكن أوفر تعقُّلاً. فإذا التهبت فيكم نار شهوة غير جائزة فاستحضروا أمامكم النار المعدَّة لتعذيب الخطأة، فإذا بتلك النار الأثيمة لا تعتّم أن تنطفئ فيكم.

أتعرِّضكم التجربة لأن تقذفوا الكلام البذيء؟ فتفكَّروا بصريف الأسنان ترَوا أنَّ الخوف من ذلك قد كمَّ أفواهكم. أأنتم مُعرَّضون لسلب مال الغير فاسمعوا كلمات القاضي الأسمى: «أوثِقوا يديه ورجليه واطرحُوه في الظلمة البرَّانيّة» (مت ٢٢ : ١٣) ومن فورِكم تنبذون

ما هممتم بارتكابه. أأنتم قُساة وأهل فظاظة فتذكّروا العذارى اللواتي نفَذَ الزيت من مصابيحهنَّ فلم يُقبَلْنَ في خدر العروس. وحينئذٍ تعودون أهل إنسانيةٍ رحماء.. إذا كنتم تشتهون لذّة الحياة وأطايب العيش والرفاهية، فتأمَّلوا في ذلك الغني الذي طلب أن يُرسل إليه لعازر فيرطِّب بقطرة ماء لسانه المتلهِّب ظمأً، ولم يحصل على مبتغاه. في الساعة تُشفَون من داء تلك الشهوة. بهذا الأسلوب نُصْلِحُ أنفسَنا من كل معايبنا لأن الله لم يفرض علينا شيئاً صعباً ولا كثير المشقَّة. فإذا وجدنا صعوبةً في الطاعة فلا يتأتى ذلك إلاّ عن توانينا. وكما أنَّ الحماسة في الخير تخفِّف علينا جداً السُّنَن الظاهرة أثقلَ ما يكون عبئاً هكذا التواني يرينا أهون السُّنَن محملاً باهظةً يستحيل النهوض بها. فلنزِنْ كل هذه الاعتبارات ولا نعتقد أنه يمكن وجود السعادة على خوانٍ فاخر بل بالأحرى فلنتأمَّل في عواقب ذلك الخوان إنها إفراطٌ في السِّمَن مُزعج. وأمراضٌ متتابعة في هذه الدنيا. وأمّا في الآخرة فدودٌ ناهش ونيرانٌ مُتلِفة. لا نغبطَنَّ حظّ الذين يغتصبون أموال الناس، فإنَّ حصَّتهم منها في هذه الحياة همومٌ ومشقّات، وفي خارج هذا العالم ظلماتٌ برّانيّة، وتقييدٌ بسلاسل لا انفكاكَ لها. ولا نعجبنَّ بشره أُناسٍ إلى المجد الباطل فهؤلاء الناس هم الذين لا يجدون في حياتهم إلاَّ استعباداً وفراغاً رهيباً، وبعد موتهم لا يلقون إلاَّ أتوناً متلهّباً. فلو أنّ عقلنا يتفطّن جيداً لكل هذه الحقائق ولو أننا نُديم معارضتنا لشهواتنا الغير القويمة لشُوهِدْنا في أقرب وقت نهرب من الرذيلة ونمارس الفضيلة ولأطفأنا في قلوبنا محبة الأمور الحاضرة وأوقدْنا فيها محبة الخيرات المستقبلة. ولعمري ماذا تُرى في العالم من ثابتٍ ونفيس ونادر؟ ماذا نجد فيه من أمرٍ جَلَل يقوى على أن يعلّقنا به وثيقاً. أليس كلّ ما فيه حلقةً فارغةً لا تنتهي ودورانَ شؤونٍ واحدة مزعجة؟ فالليل والنهار ثم النهار والليل. إذن أُكرّر القول لِنُوقِدنَّ فينا، أجَل لِنُوقِدَنَّ فينا الشوق إلى الخيرات المستقبلة. ولنتنفَسَنَّ الصعداء غِبَّ حصولنا على ذلك المجد العظيم الذي يدَّخره الله للأبرار والذي هو أعلى من أن يبلغ كلُّ كلامٍ وصفَه. إنَّ أجساد الأبرار بعد القيامة الأخيرة تصير غير قابلة للفساد وهم يصيرون ممجَّدِين ومالكين مع يسوع المسيح.

أنّنا سنحكمُ في المسألة لأني سأُبيِّنُ مقدار ما لهذه المزيَّة الفضلى من الشأن العظيم أو بالأحرى لا نجد خُطَباً في وُسعها أن تجلّيَها بأمانة كما هي وإنما سأجتهد في رفْع أفكارهم إلى معرفة خيرات السماء بأن أُصوِّر لكم خيرات هذه الأرض على أمل أن أعرض عليكم من ذلك فكرة غير كاملة. فأرجو منكم أن تقولوا لي. لو أنَّ شيخاً حنَتْ ظهره السنون

والفاقة، وُعِد أن يُردَّ إليه مع زهرة الشبيبة رونق الجمال وعدّة النشاط والصحَّة التامَّة وما عدا ذلك أن يُملَّك مدة ألف سنة على كل الشعوب ملكاً يعمُّه السلام البالغ. فأيّ شيء يُقتَضى منه فعله لمنال ذلك فلا يفعله، وأي الحواجز تعترض سبيله، فيُصدَّ عن تقحُّمِها ليُحرز الحبور في تلك السعادة؟ حسن! على أنَّ يسوع المسيح يعِدنا أيضاً بخيراتٍ أعظم جداً. لأنه ليس من تفاوت جزيل بين الشبيبة والشيخوخة كما هو التفاوت بين عدم الفساد والفساد ولا بين المُلك والفقر كما هو التفاوت بين المجد الحاضر والمجد المستقبل. ولكنَّ الواحد يختلف عن الآخر بمقدار ما يختلف الحُلْم عن الحقيقة. وبالأحرى لم أقُلْ بعد شيئاً لأنَّ الكلام أعجزُ من أن يعبِّر عن المسافة الفاصلة بين الحالتين، سواءٌ من جهة الزمان، لأنه هل يُستطاع تشبيه حياةٍ مداها بعض هنيهات، بحياة لا نهاية لها، وسواء من جهة السلام الذي يختلف جداً عن سلام السماء اختلاف السِّلم عن الحرب. وأما عدم الفساد فهو بالقياس إلى الفساد كالماس الثمين بالنسبة إلى شيءٍ من قذَر الوحل. وأذهبُ إلى أبعد من ذلك فأتجرّأ على القول إنني حينما أشبّه جمال أجساد الطوباويين بأشعَّة الشمس وبهاء النور لا أكون قد قلتُ شيئاً يقربُ من البهاء الذي يُضيءُ به القديسون في السماء. فأيّ شيء يُضَنُّ ببذلِه للحصول على هذه المُتَع من واسع الغنى والحياة جسَداً ونفساً؟ فلو أُتيح لكم أن تُدخلوا إلى قصر الملك وتحادثوه على مرأى من أهل بلاطه وأن تختلطوا معه في معايشته ومعاشرته لوجدتم أنفسكم أسعد الناس المائتين. وحينما تلتزمون النُّقلَة إلى السماوات وتتقرَّبوا من ملك العالمين وتضيئوا أمثال الملائكة وتتمتَّعوا بمجدٍ يعجز عن وصفه البيان، تتذبذبون عن بَذْل خسائس الأموال حالة أنه كان من واجبكم أن تنتصروا على محبَّتها وتهتزُّوا طرباً ولو ٱضطررتم في هذا السبيل إلى التجرُّد عن حياتكم! إنكم لرغبتكم في الحصول على خدمةٍ لا تكون في الأعمّ الأغلَب إلاَّ وسيلة إلى غنى غير عادل (لأني لا أرى تلك الخدَم إلاَّ كذلك) تُنفقون ما عندكم من الذهب وتقترضون من عند أصحابكم منه حتى لو ٱضطررتم لما توقَّيتم أن تبذلوا ضماناً لِما تقترضون إمرأتكم وأولادكم. أمّا إذا كانت المهمّة أن ترجوا ملكوت السماوات وهو المرتبة التي إذا أحرزتموها لا يستطيع أحدٌ أن يخلعكم عنها، فإنكم تتردَّدون وتتذبذبون وتخشَون في سبيل ذلك أن تمسُّوا كنوزكم. إنكم لا تتنبَّهون إلى أنَّ مراتب السماء التي لو استطعنا أن نراها لشهدناها فائقة الجمال والبهاء. وإلى أنّ ما لديكم من الغنى يُختلَس على مرأى منكم حالةَ أنَّ سماوات السماوات هي أيضاً أجمل جداً وأبهى.. ولكن بما أنكم لا تبصرونها رأي

العيون الجسديَّة فاخترقوا بالفكر رحاب المسافات التي تعلو رؤوسنا وانظروا بالفكر السماء العليا وأعماق تلك الرحابة العظمى وذلك النور البعيد المنال وزمرة الملائكة وجيش رؤساء الملائكة وجمهرة القوات الروحية. ثم انزلوا من تلك القمم العالية وآرموا بأنظاركم كل ما في الأرض من مشاهدة الأُبَّهه والعَظَمة كموكب الملك الذي يستقل على مركبته تجرُّها الجياد البيض ذات اللُّجم الذهبيّة وهو قد تزيَّن بالملابس النفيسة المدبَّجة الحرير بنيرانٍ من آلماس تتوهَّج أشعَّتها لمعاناً وجبهته تعتصب بالتاج، إنكم تُؤخذون بذلك البهاء العظيم حتى لا ترون ولا تستطيعون أن تروا إلاَّ الملك وأنظاركم لا تُعقَد إلاّ عليه. إذ تجذبكم كل مظاهر الأُبَّهة المتجلِّية على جلالةِ ذاته. فعلى سبيل التضادّ قابلوا بين هذا المشهد ومشهد آخر، تمثَّلوا ذلك اليوم الرهيب الذي فيه الإبن الوحيد إبن العليّ يأتي في موكب عظيم من أهل البلاط السماوي بكل مظهر العدالة، ليدين كلَّ شعوب العالم. وليس في موكبه مركبة ولا خيل مزيّنة بالذهب ولا شيء من الماس وغيره من الحجارة الكريمة، بل هناك كل ما يأخذ النفوس زمَعاً ورعباً ويلقي الرهبة والخوف حتى بين الملائكة. حتى ليقول الإنجيل: «إنَّ قوات السماء تتزعزع» (مت ٢٤: ٢٩) وحينئذٍ تتفتَّح مغاليق الأرض في جميع الأقطار والجهات ويقوم من قبورهم البشر الذين وُجدوا في عهد آدم إلى أيامنا فيقادون إلى حضرة الملك الأسمى الذي يكسِفُ بهاؤه أشعَّة الشمس والقمر. ولكن يا للأسف ذلك شعورنا البالغ أقصى حدٍّ من الجمود حتى لنَضرب صفحاً عن الآمال بالمواهب السنيَّة المبذولة لنا ولا نرتاح إلاَّ إلى الخيرات الحاضرة، دون أن نُعمِل أفكارنا بخبث الشيطان الذي يقدِّم لنا طُعماً من أحقر الأمور المحسوسة قصدَ أن يسلب منا أثمن الأشياء ويُهدي إلينا وحلاً ليحرمنا من السماء ويقدِّم لنا أطلالاً ليحجز الحقيقة عنَّا ويُلهينا بأحلام الليل (لأنَّ كل غِنًى في هذه الحياة يجب أن لا يُعتبَر إلاَّ كأحلام) حتى إذا طلع النهار يجعلنا أفقر الفقراء وأكثر الناس بؤساً. فإذ نحن عارفون خبث هذه الروح النجس يُحتِّم علينا أن نتجنَّب حِيَله. فيا إخوتي الأعزاء جداً لنخشَ أن نقاسمه هلاكَه وأن يقول لنا الديَّان الأسمى: «إذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدَّة لإبليس وملائكته» (مت ٢٥: ٤١).

لكنكم تقولون لي إن إلهاً مليئاً من الرحمة لا يعامل الناس بشدّة القسوة، فإذن عبثاً يبالغ الكتاب المقدّس في البيان عن انتقاماته. وأُجيب أن لا، بل يحدثنا كذلك ليهدّدنا ويصلحنا بطريقة المخافة، وتقولون: وإذا نحن لم نتقوَّم إصلاحاً وإذا ثبتنا على الخطيئة

فلن ينالنا العقاب وأهل الصلاح لا يحصلون على ثواب. بل تقولون إنهم يُثابون لأنه يليق بالرحمة الإلهية أن تصطنع إلى البشر خيراً لا يستحقّونه. فهل يكون كل ذلك صحيحاً؟ إنما الذي هو غير صحيح، والذي لا يكون أبداً إنما هو الانتقام، إنما هو العقوبات التي أنت تنذر بها. فيا للخبث البالغ أقصى حدٍّ خبثِ إبليس! يا للفضل القاسي! ألا ترون أنَّ هذه الاستدلالات الفكريَّة لا تتَّجه إلاّ إلى جعْل النعمة لا طائل لها وإلى أن تُلقِيكم في كنَف الفتور؟ فإبليس إذ هو يعلم أن الخوف من العقاب هو شكيمة تكبح جماح شهواتنا الأثيمة، يلجأ إلى كل هذه الحِيَل ليستأصلَ ذلك الخوف من قلوبنا غايةَ إننا نتوخّى دون تحفُّظ لكل نوع من الشطَط والفجور. فكيف نستطيع إخزاءه؟ إذا شئنا إقناع خصومنا بنصوص الكتاب المقدَّس، يقولون انه لا يَعمُد إلاّ إلى التهويل مجرَّداً. ذلك جواب كُفر لا يستطيع إلاّ أن يورد تغليظاً لمسألة العقوبات المستقبَلة، لا للأمور التي تمَّ وقوعُها.

ولْنأتيَنَّ الآن على ذكر أُناس نالوا قصاصَهم في هذه الدنيا، غاية أن نُثبتَ بعدَّة براهين الحقيقة التي نحن بصددها. لا أحد فيما بينكم إلاَّ سمع حديث فرعون ملك مصر وٱطَّلع على القصاص الذي حلَّ به. وتعلمون كيف أنَّ ذلك الملك ومركباته وخيلَه وكل جيشه دُفنوا في مياه البحر الأحمر. وإذا شئتم أن تعرفوا كيف عاقب الله خطايا اليهود فاسمعوا القديس بولس القائل: «لا نزنِ كما زنى قومٌ منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً ولا نجرِّب المسيح كما جرَّبه قومٌ منهم فأهلكتْهم الحيَّات ولا تتذمَّروا كما تذمَّر قومٌ منهم فهلكوا على يد المُهلك» (١ كور ١٠: ٨ و١٠) فاذا كان اليهود قد عوقبوا على خطاياهم بتلك الشدَّة فأيُّ نكالٍ لا نتوقَّع نحن أن ينزل بنا. فكلَّما تأخَّر القضاء علينا كان ذلك أدعى لزيادة خوفنا لأنَّ الله إذا ٱستثنانا لحين فليس معنى هذا أنه يُعفينا من كل عقوبة. بل معناه أنه يُرصد لنا عقاباً أشدّ اذا كنّا لا نزايل حالتنا الذميمة. لم يكن اولئك يحسبون لجهنم حساباً فنالهم العقاب على الأرض. أما نحن فعلى عكس ذلك إن لم تُصبنا بتاتاً البليّة التي تستحقّها خطايانا في هذه الدنيا فلا بُدَّ من أن ندفع في الآجل ديناً يلزمنا آداؤه. أليس مخالفاً للصواب أنّ أولئك الشعوب الغِلاظ والجهّال يكابدون بلايا كثيرة ونحن ننجو من العقوبات، نحن الذين هُذِّبوا تهذيباً أفضل واستناروا استنارةً أكمل؟ أتريدون أن تعلموا ما كابدوه في فلسطين من أهل بابل ومن الأشوريين ومن أهل مكدونية كوباءِ الطاعون ونكبات الحروب والمجاعات التي ٱبتلُوا بها، والجلاء الأخير الذي جرَّهم أسرى في عهدَي

فاسباسيان وتيطس. فطالعوا تاريخ يوسيفوس تُدركوا مقدار ما كانت بلاياهم أليمة محزنة.
ومع محاشاتنا لذكر سائر النكبات نقول: إن المجاعة التي بلغَت فيها آخر حدِّها ألزمَتْهم أن يأكلوا مناطِقَهم وأحذيتهم وأشياء أُخَر من أخسّ الأشياء وأكثرها قذَراً. قال المؤرِّخ المذكور: «إن الضرورة أكرهت أفواهَهم على أن تلتهم كل شيء.» بل إنهم انتهَوا من شِدَّة الجوع إلى أن يأكلوا أولادهم الأخصَّاء. وبعد فأُكرِّر القول هنا أنَّ اليهود قد نالتهم العقوبات الشديدةالممضَّة فكيف ونحن أوفر منهم إثماً لا يصيبنا العقاب؟ فاذا نزل بهم النِكال وقتئذٍ فلِمَ لا ينزل بنا اليوم؟ أليس بواضحٍ جليّ أنَّ هذا الاستثناء لنا هو لكون العقوبة على خطايانا مُرصدة إلى الدهر الآتي؟ ولنفحص، لِتتمَّةِ الإثبات لحقيقة جهنم، ما يجري في هذه الدنيا: فإذا ثبت حقاً أن الله عادل ولا محاباة عنده لأحد فلماذا يعاقب بعضهم على الأرض والبعض لا يُعاقَبون بتاتاً؟ لماذا نجدُ بين الزناة قوماً يكابدون القصاص وقوماً منهم يموتون دون أن يكابدوه؟ كم من لصوص وقطّاع طُرُق وسلاَّبين لمال الناس يتملَّصون من العقاب الذي يستأهلونه. فاذا لم تكن جهنَّم فأين يدركهم عقابهم؟ والذين يرتابون في وجود جهنم هل هم الآن مقتنعون بأنَّ كلَّ ما يُقال فيها ليس حديث خرافة؟ إنَّ هذه العقيدة هي على أثبت المتانة حتى إنّ الفلاسفة والشعراء الوثنيّين أنفسهم قد تكلَّموا عن العقوبات والجوائز في حياة مستقبلة. فإذا كانت أفكارهم في الشؤون الجسدية قد شغَلَتهم وحرَّفوا ما تعلَّموه منا، لم يستطيعوا أن يعبِّروا على مقتضى الحقيقة. ولكنَّهم على الأقلّ قد أنشأوا لأنفسهم فكرةً ولو ناقصة في دينونة تقوم في الدهر الآتي. والخلاصة أنهم حدَّثونا عن استِكس (Styx) وكوسِيت (Cocyte) وبيريفلاجاتون (Piriphlégéton) وعن لجَّةٍ دعَوها طرطار (Tartare)وهي بعيدة عن الأرض بُعد الأرض عن السماء. وقد استحضروا مواضيع غير هذه لمكابدة العذاب. وزادوا أنَّ في الآخرة فراديس مبهجة (Champs Elyséens) وجُزُراً خالدة ذات أراضٍ مدبَّجة بأزاهير ذكيَّة العَرْف ومرطَّبة بنسماتٍ لطيفة. ويقولون إن سكّان ذلك القطر السعيد لابسون ثياباً بيضاً وهم أبداً مشغولون بحفلات الرقص وشَدْو الأغاني. والخلاصة أن أولئك الفلاسفة والشعراء يعتقدون أنه في حال الانتقال من هذا العالم يجد أهلُ الصلاح وأهلُ الشرّ أجرةَ ما أسلفُوا من الأعمال. فلنكن إذن على يقين من وجود جهنم لكي لا نسقطَ فيها أبداً. فالذي يشكُّ في وجودها يسترخي في وناءٍ، ومن يَسترخِ فلا بُدَّ له من أن يقع فيها.

فلنلازم هذه العقيدة السلامية بثبات وعزم ولتكن هي موضوع أحاديثنا بعضنا مع بعض ولا نستسْلِم بسهولة للخطيئة. إنّ خواطرَ أمثال هذه الخواطر، وتذكارات كهذه التذكارات تكون لأنفسنا دواءً مُرًّا مطهّراً حتى إذا ما تطهَّرنا به نحصل على الحظّ السعيد أن نشاهد الله على نحو ما يستطيع البشر أن يشاهدوه، ونتمتع بخيرات الدهر المقبِل بنعمة وصلاح ربنا يسوع المسيح له المجد مدى كل الدهور آمين.

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

٣
عِظَة
عن الافخارستيا

١ – جسد واحد...

فلنتعلَّم لماذا مُنحتِ الأسرار القربانية، وما هي فائدتها، وأيَّة معجزة تجترحها، يقول الكتاب المقدس: «نحن جسدٌ واحد، أعضاءُ لحمه وعظامه».

يريد المسيح أن نصيرَ جسده، لا بالمحبة وحسب، بل بالحقيقة، باختلاطنا بلحمه عينه. هذا هو مفعول الطعام الذي يمنحنا إياه، دليلاً على حبِّه لنا. يمتزج بنا ويندمج فينا، لنصير معه كياناً واحداً، على مثال اتحاد الجسم بالرأس. وهذا شأن مَن أخلصَ الحب.

لهذا، بعد أن ننصرف عن هذه المائدة المقدسة، فلتكن لنا شجاعة الأُسود، ولا يروِّعنا هول الشيطان، ولينشغلْ فكرنا في المسيح رأسنا وفي ما أبداه لنا من حبّ...

لننتبهْ لذواتنا، أيها الأعزاء، في غمرة تلك النِعَم، لئلا يخطر على بالنا التلفُّظُ بكلام شائن أو يتسلَّط علينا الغضب أو أيَّة تجربة أخرى، فلنحترم الروح القدس الذي مُنحناه والعطايا التي حُسبنا جديرين لها. في هذا التروِّي مسكِّنٌ لشهواتنا. حتّامَ تعلُّقنا بخيرات هذا العالم؟ وإلى متى نظلُّ قابعينَ في غفلتنا؟ وكم يطولُ عدمُ اكتراثنا لخلاصنا؟ فلنتذكَّر

ما منَّ علينا الله به من خيراتٍ، ونحمده ونمجِّدْه، لا بمجرَّد الإيمان بل بالأعمال، حتى ننال الخيرات العتيدة، بنعمة ورحمة سيِّدنا يسوع المسيح، الذي نرجو أن يكون به المجد للآب وللروح القدس، الآنَ وعلى الدوام وإلى دهر الدهور. آمين.

٢ – هذا هو جسدي...

لنضع كل ثقتنا في الله مستسلمين لمشيئته، مهمَا بدا كلامه مناقضاً لمفهوم عقلنا، وبالأحرى فليخضَعْ لقوله عقلُنا وتفكيرُنا. هكذا يجب أن نتصرَّف في ما يتعلَّقُ بالأسرار القربانية، لا نقف عند حدِّ ما نراه، بل نتمسَّك بالأقوال، فكلام الله لا يَخدَع، بينما تتعرَّض حواسُّنا بسهولة للانخداع. كلامه لا يحول، أما حواسنا فكثيرة التعثُّر. لقد قال لنا: «هذا هو جسدي»، فلنثِقْ بكلامه ونصدِّقه ونُبصرْه بعين النفس. فإنَّ ما أعطانا المسيح، ليس شيئاً حسيًّا، حتى ما كان منه حقيقةً ملموسة، هو بكلِّيَّته من العالم الروحي. هكذا، في العماد بالماء، وهو حقيقة حسيَّة، تمنحُ وتحوِّلُ النعمة، ويتمُّ على وجهٍ روحيٍّ الميلاد الجديد، تجديد طبيعتنا. لو لم يكن لك جسد لكان الله وهبَك عطايا روحيَّة محضة. بيد أنَّ النفس متحدة بالجسد، فالله يمنحك خيرات روحية بواسطة أشياء حسيَّة. كثيرٌ من المسيحيين يقولون اليوم: «ليتني شاهدتُ شخصَه وأبصرْتُ مُحيَّاه وثيابه وحذاءه!» والحال أنك تراه وتلمِسُه وتأكله.

فلا يتقرَّبنَ أحد من هذه المائدة بتوانٍ أو فتور، بل على الجميع أن يتقدَّموا منها بشجاعة، مضطرمين بحرارة التقوى. إن كان العبرانيون قد أكلوا حمل الفصح مستعجلين، وهم وقوفٌ منتعلو الأقدام، وبأيديهم العصي، فعليك أن تفوقَهم ببسالة. لقد كانوا على أُهبة السفر إلى أرض الميعاد، وتبدو عليهم ملامح الانتصار، أمّا أنت، فانك راحلٌ إلى السماء!

٣ – عشاءٌ سري واحد...

إنَّ ما يُقدَّم لكم الآن لا يصدرُ عن قوَّة البشر. فإنَّ يسوع المسيح الذي اجترح هذه الخوارق سابقاً، أثناء العشاء السري، هو عينه يجترحها الآن أيضاً. نقوم هنا مَقام خدَّامه، وهو الذي يقدِّس هذه التقادم ويحوِّلها. فلا يحضرنَّه أي يوضاسٍ أو بخيل. ألستَ من تلاميذه؟ اخرجْ من هنا؛ هذه المائدة لا تستقبل أُناساً على مثالك: «أُريد أن

أعمل الفصح مع تلاميذي». هنا المائدة عينها، وليست أدنى، لأنَّ المسيح لم يصنَعْ تلك، وهذه من صُنع البشر، بل هو صنعَ هذه أيضاً. هنا القاعة عينها حيث كان إذ ذاك؛ ومن هنا خرجوا إلى بستان الزيتون. ولنخرُجْ نحن أيضاً من هنا لنلق أيدي الفقراء فهي جبل زيتوننا. أجل، فإنَّ جمهور الفقراء هو كغرسة زيتون في بيت الله. ومن هناك يسيل شيئاً فشيئاً، هذا الزيت الضروري لنا عند الموت، هذا الزيت الذي حفِظَته العذارى الخمس والذي نَسِيتْه الأُخريات، فكان الأمر لهلاكهنَّ. فلنتموَّن، يا إخوتي، من هذا الزيت ونمضِ أمام عروسنا بمصابيح وهَّاجة. ولنخرُجْ من هنا أيضاً بهذه المصابيح. فلا يقتربنَّ من هذه المائدة من كان دَنِساً أو شَرِساً أو فظًّا أو قاسيَ القلب أو عديمَ الشفقة.

٤ - الحب يبذُلُ نفسه طعاماً...

يريد أن نصبح جسده، ليس بالحبِّ وحسب، بل أن نمتزج حقيقةً بجسده عينه. فيُعطينا مخلِّصنا ما يفعله الطعام، برهاناً على حبّه. لهذا وحَّدَ ومزجَ جسدَه بجسدنا، لنصبحَ كلُّنا كجسدٍ واحدٍ متحدٍ برأسٍ واحد. وهو شأنُ المحبين.

ويلمِّحُ أيوب إلى هذه الحقيقة، عندما يقول عن خُدَّامه إنهم كانوا يحبّونه، لدرجة أنهم كانوا يودُّون لو يأكلونَه. لأنهم كانوا يعبِّرون عن تعلُّقهم الشديد به، بقولهم: «مَن يعطينا من لحمه لنشبعَ منه؟» هذا ما صنعَه لنا يسوع: لقد أعطانا لحمه طعاماً لكي يستميلنا إليه، ويُرينا ما يكنُّه لنا؛ فلم يُظهرْ نفسه وحسب للذين تاقوا إلى مشاهدته، بل أعطى ذاته، ليُلمَسَ ويُجَسَّ ويؤكل ويُسحقَ بالأسنانِ ويُبتلَعَ فيروي غليل لواعج الشغَف.

٥ - الدمُ قياس الحب...

من شأن المحبين أنهم عندما يشعرون بأنَّ المحبوب يستخفُّ بعطاياهم ويفضِّلُ عطايا الآخرين، يُقدِّمون له ما يملكون ليحوِّلوا قلبه عن سائر الهدايا. غير أن محبِّي هذا العالم يعبِّرون عن سخائهم بتقديم المال والأثواب وأنواع الهدايا، ولا يَهَبُ أحدٌ دمه. أما المسيح فيهبه؛ وبهذا يثبتُ لنا حنوَّه وحرارة حبّه. في الشريعة القديمة، كان الناس أبعدَ عن الكمال، فكانوا يقدِّمون دماً للأصنام وكان الله يتنازل فيرضى بهذا الدم ليحوِّله عن الأصنام؛ وكان هذا برهاناً على محبَّة فائقة الوصف؛ غير أنه هنا يعمل أكثر، فيقيمُ

طقوساً رهيبةً وجليلة. فقد غيَّر جوهر الذبيحة عينه، وعِوَضاً عن أن تُنحَرَ الحيوانات، يأمر بأن يقدَّم هو نفسه.

«أليس أنَّ الخبز الذي نكسرُه هو الاتحاد بجسد المسيح»؟ لِمَ لم يقل «الاشتراك»؟ ذلك لكي يُفصحَ بالتعبير، ويدل على صفاء الاتحاد؛ لأنه ليس ثمَّ شركة واقتسام وحسْب بل يوجد اتحاد. كما أنَّ هذا الجسد هو متحدٌ بالمسيح، هكذا نحن أيضاً متَّحدون، بواسطة هذا الخبز، بيسوع المسيح عينه. لماذا يُضيف: «الذي نكسره»؟ هذا ما يجري في الاوخارستيا. لم يجرِ هذا على الصليب، أو بالأحرى جرى خِلافَه، لأنَّ الكتاب يقول: «لا يُكسَر منه عظم» (خروج ١٢: ٤٦). وما لم يتحمَّلْه المسيح على الصليب، يتحمَّله في القربان بسببكم. ويودُّ أن يُكسرَ ليُشبعَ كل الناس.

لقد قال: «اتحاد الجسد»، إنَّ من يتحد هو غير ما يُتحد به. ويريد الرسول أيضاً أن يواريَ هذا الفرق، مهما كان طفيفاً. قال «اتحد الجسد»، ويستدرك بعبارة أخرى، ليجعل الاتحاد أكثر خلوصاً، فيضيف: «لأننا جميعاً لسنا سوى خبزٍ واحدٍ وجسدٍ واحد».

٦ - إذهب وصالِحْ أخاكَ!

اني أُعلنُ لكم وأُؤكد وأقول بصوت صارخ: من كان له عدوٌ، لا يتقرَّبن من المائدة المقدسة، فيتناول جسد الرب. لا يتقربنَّ أحد وله عدو. ألكَ عدو؟ لا تَدْنُ؛ وإذا أردتَ الدنوَّ فامضِ أولاً للمصالحة، ثم تناول السر. ليس لي هذا الكلام، بل للرب الذي صُلبَ لأجلنا. لكي يُصالحك مع أبيه. لم يأْبَ بذلَ الدم والموت، أما أنت، فهل تأبى، لأجل مصالحة أخيك، حتى التلفظَ بكلمةٍ أو الإقدام على مواجهته؟ تأَمَّلْ كلام الرب إلى أمثالك: «إذا وضعت تقدِمَتك على المذبح، وتذكَّرت هنالك، ان عليك لأخيك شيئاً...» لا يقول: انتظر أن يأتيك أو أن يتدخل بالمصالحة أحدٌ من قِبَلِك، بل يطلب أن تسرع إليه بنفسك، حيث يقول: «إنطلق أولاً وصالحْ أخاك». يا للغرابة! ان الله لا يرى امتهاناً لذاته الإلهية في ترك قربانٍ يُقدَّم له على المذبح، بينما ترى أنت ذِلةً في أن تُقدِّمَ الخطوةَ الأولى لمصالحة أخيك!

ترجمة الأب الياس كويتر المخلصي

(ميمر ٤٦ على إنجيل يوحنا - ميمر ٨٢ على إنجيل متى - عظة في الصوم)

٤

عِظَة

على أنَّ الاعتراف بخطايانا الخصوصيَّة هو مفيدٌ لنا ويُنيلنا نِعَمَ التبرير.

١ — إنّ لهجة كلامنا في الاجتماع الأخير كانت عنيفة القساوة. لقد جرحناكم بها جرحاً بالغاً. فلا بدَّ لنا اليوم من معالجته بأدوية جدَّ لطيفة. فأفضليّة الإحسان في الأسلوب الطبّي لا أن يُكتفى بقطْع العضو الحيّ بل يُقتضى تضميد الجراح ريثما تبرأ. وكذلك الشأن في التعليم والإرشاد لا يُقتَصَرُ فيهما على التوبيخ وتشديد الملامة بل لا بُدَّ من أن يُضاف إليهما أساليب التشجيع والمؤآساة. هذا ما أوصى به القديس بولس في رسالته الثانية إلى تيموثاوس حيث قال: «حاجِجْ، وبِّخْ وعِظْ.» (ف ٤ :٢) فهل تُرى يُؤْخَذْ أبداً بالتشديد في التحريض؟؟ إذن فالسَّامعون يُصيبُهم الفتور من الملل. أيُقتصرُ على التوبيخ؟ فالسَّامعون يهتاجون غيظاً وإذ لا يتحملون التقريع المتصل، يمتنعون عن السَّماع. ومن هنا يُستنتج أن المواعظ يجب أن تكون ذات أشكال متفاوتة. لذلك بما أنّ آخر خطاب لنا قد أمضَّكم، تحتَّم علينا اليوم أن نلطِّف معكم حديثنا تلطيفاً يكون أشبهَ ببلسمٍ على الجراح التي يمكن أن التقريعات أحدثَتْها لكم. قرأنا عليكم في تعليمنا الأخير، القاعدةَ التي وضعها القديس بولس بخصوص الاشتراك بالأسرار وهي موجَّهة إلى جميع المؤمنين. وما تكون تلك القاعدة؟ لا مانع يمنع من تذكيركم بها. قال: «فليختبر الإنسان نفسه وهكذا فليأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس»: (١ كور ١١ :٢٨) وقال هذا الرسول: «أيُّ إنسانٍ أكل من خبز الرب أو شرب كأسه وهو على خلاف الاستحقاق فهو مجرمٌ إلى جسد الرب ودمه» (١ كور ١١ :٢٨) إننا لم نكتفِ بالوقوف عند القراءة لكم بل فسَّرنا لكم معنى كلمات الرسول وبيَّنَّا لكم مُرادَه في قوله «فهو مجرمٌ إلى جسد الرب ودمه» وقد أوضحنا أنّ الذي يرتكب ذلك التدنيس ينال العقاب نفسه الذي حُتِم به على الذين صلبوا يسوع المسيح. إنّ الذين صلبوا يسوع المسيح كانوا مجرمين إلى دمه. والذين يشتركون في الأسرار عن غير استحقاق يرتكبون تلك الجريمة عينها. ذلك معنى هذه الكلمات «يصير مجرماً إلى جسد الرب ودمه» لقد ظهر لكم أنّ الملامات على ذلك كانت في غاية القسوة والتهديد في غاية الشدّة والعُنف. على أننا أيَّدنا كلمات الرسول بمثَلٍ له علاقة متينة بالمسألة. قلتُ وقتئذٍ انَّ تمزيق البرفير الملكي أو تلطيخه بالوحل كلاهما إهانةٌ متساوية للملكِ اللابس ذلك البرفير. وعلى القياس نفسه نقول: إنَّ تمزيق جسد الرب أو تقبُّلَه

في نفسٍ دنسة هما إهانة فظيعة متساوية للملك الأسمى. فاليهود مزّقوا جسد يسوع المسيح على الصليب والذين يتقبّلونه في نفسٍ دنسة يلطّخونه بالقذَر. فالجريمتان مختلفتان وإنما الإهانة هي هي عينها. كثيرون اضطربوا وتأثروا تأثراً بالغاً من هذه المقابلة. فالذين كانوا يسمعوني وأنا الذي كان يتكلّم قد تأثرنا تأثراً واحداً شديداً وجُرحنا جرحاً واحداً لأن الإرشاد يتناول المرشد وسامعيه والأدوية يجب أن تستعمل لكليهما معاً إذ الجرح قد نال الفريقَين. وذلك فضل الرسم الإلهي أنَّ الخطيب وسمَّاعَه إذ هما في طبيعةٍ واحدة، يخضعان للنواميس عينها وكلاهما يُعتبران مجرمَين إذا خالفا تلك النواميس. ولِمَ هذا؟ هو لقَصْد أن الخطيب يكون ذا رفقٍ بالتوبيخ وأن يكون حليماً مع الخطأة. حتى إذا تذكَّر ضعفه الخاصّ لا يسمح لنفسه أنْ يقسوَ في توجيه اللَّوم والتقريع إلى غيره. فالله لم يرسل من السماء ملائكةً ليرشدوا البشر حذَر أنّ الملائكة يماشون ما عندهم من العواطف المختصَّة بسموّ طبيعتِهم ومع ما في الطبيعة البشريَّة من جهل، يوجِّهون إلينا أشدَّ التوبيخ بدون مراعاةٍ لضعفِنا وجهلنا. بل إن الله منحنا بشراً مائتين معلّمين لنا وكهنةً بشراً يلابسون الضعف، حتى إن هذه الحالة الملحوظة فينا إذ هي متضايفة بين الخطيب والسامعين فكلاهما في مكان الخضوع لشرائع واحدة، تقيِّد لسان المتكلِّم وتصدُّه عن مجاوزة الحدود في توبيخاته. وإنّ الذي وضع هذه القاعدة أي القديس بولس عينُه هو يثبِّت هذه الحقيقة مستنداً إلى العلَّة نفسها التي استندنا إليها قال: «إنّ كلَّ حبر متّخذٍ من الناس يُقام لأجل الناس فيمَا هو لله ليقرّب تقادم وذبائح عن الخطايا جديراً بأن يشفق على الذين يجهلون ويضلُّون» ولِمَ ذلك؟ «لكونه هو أيضاً متلبساً بالضعف.» (عب ٥: ١ و٢) فترون أن الضعف هو وسيلةٌ إلى الشفقة والاشتراك في طبيعةٍ واحدة لا يأذن لإنسانٍ مهمَا تحمَّس أن يتجاوز الحدود في توبيخه لأمثاله. لأيِّ سبب أتكلَّم هكذا؟ ذلك لكي لا تقولوا لي: انك لا زلَّة لك نوآخذك عليها فأنت في حمًى دون ثِقَل الانزعاج من توجيه التوبيخات إليك. فما لك من سلطة البرارة تجرحنا بتوبيخك جُرحاً ثخيناً بالغاً.

لا بل إني أشعر أول الجميع يا إخوتي بما تشعرون من ثِقل الانزعاج لأني أنا أيضاً عرضةٌ لارتكاب خطايا «إننا بأجمعنا نستوجب المؤآخذة (ابن سيراخ ٨: ٦) «من يقول إني زكَّيتُ قلبي تطهَّرتُ من خطيئتي؟» (أمثال ٢٠: ٩) إذن لقد وجَّهتُ إليكم موآخذاتي لا على قصد النظر إلى خطايا غيري ولا على نية أن أكون قاسياً جافياً بل عن شعور توجُّع خصوصي بذلتُ لكم ما بذلتُ من المؤآخذات. في معالجات الجسد، لا يشعر مَن يبتر عضواً حيًّا بألم

البَتْر بل البائس الذي تُجرى له العملية هو وحده الذي يمزّقه الألم الحادّ. وليس الشأن كذلك في معاملة النفوس إلاّ إذا خُدِعتُ في الحكم على غيري، بما هو فيَّ أنا نفسي. فالذي يتكلم هو أوّل مَن تُسدَّد إليه ضربات التوبيخ التي يوجِّهها إلى سواه. كلاَّ! لسنا إلى هذا الحدّ نتصنَّع. متى كنا نحن في حيِّز المؤاخذة حتى نوبِّخ إخوتنا على مساوئ نحن عرضة لها. فضمير الخطيب هو أوّل ديّان له. لأنَّ تفكُّره بكونه في مقام التعليم والإرشاد ومع ذلك يرتكب الخطايا التي يرتكبها مَن يُرشدهم ويُعلِّمهم وأنه يستحق ما يستحقّونه من المؤاخذة والتوبيخ، ذلك الفكر يسبّب له أحدَّ ألَم.

٢ - على أني لا أتوجَّع من غيرِ ما سبب لما فينا من الأوهان. بل بما أنَّ كثيرين هالَهم ما في خُطَبِنا من قوة اللهجة جآءوا إلينا ونحن خارجون من هذا الهيكل يشتكون إلينا بمرارة نفسٍ قائلين: إنك لَتُبعِدُنا عن المائدة المقدسة وتصدُّنا عن الاشتراك في الأسرار. فأنا أرى نفسي مضطرًّا إلى الإجابة على شكاويهم قصدَ تعليمهم أني في موآخذاتي لهم أدعوهم بالأحرى إلى تلك المائدة المقدَّسة لا أبعدهم عنها وأطلب إقبالهم على الأسرار لا أنْ أصدَّهم عن الاشتراك فيها.. نعم إنَّ الخوف من العقاب ذلك الخوف الذي يقع على ضمير الخاطئ كما تقع النار على الشمع، هو الذي يذيب الخطايا ويلاشيها فيردُّ إلى النفس طهارتها ويؤتينا ثقةً عظيمة تكون نتيجتها أنها تُضرِم فينا حرارة نشاطٍ للاشتراك المتواتر في الأسرار الرهيبة التي يعجز الوصف دونها. وكما أنَّ في إعطاء الأدوية المرَّة لمن يكرهونها، تنقيَةً لما فيهم من فاسدات الأخلاط وتنبيهاً لشهوة الغذاء، وحينئذٍ تُشهر رغبتهم في تناول الأطعمة المألوفة. وكذلك الشأن في تنقية النفس من أمراضها الخبيثة بلواذع التوبيخات وبرفع أثقال خطاياها عنها، يتنفَّس الضمير الصعداء راحةً ويُعطى أن يذوق حلاوة اللذائذ في تناول جسد ابن الله. إذ يجب تجنُّب الشكوى من الحدَّة في خُطبي بل بالأحرى أن أمدَح بسببها ويُعرَف لي حُسن الرضى عنها. وإذا لم يرتضِ براءتي بعض المسيحيين الضعفاء، أقول لهم إنني لا أفسّر لهم قواعد هي من وضعي بل أتلو عليهم الكتب المقدسة الآتية إلينا من السماء وبما أنني مكلَّفٌ إلقاء الكلمة فلا بدَّ لي من أن أرشدهم عن حريّة تامَّة بكل ما تتضمَّنهُ هذه الكتب الإلهية وان اهتمَّ بما يفيدهم أكثر جداً مما أهتمّ بما يرضيهم، ذلك حتى لا أخونَ من خشيةِ ازعاجهم، واجبَ خلاصهم وخلاصي، فألجأ إلى تحرُّسٍ مشؤوم العاقبة. وقصارى الكلام أنه من أشدِّ الأخطار على الخطيب وسُمَّاعِه، أن يكتم بعض السُّنن الإلهية، وأنه يُعدُّ قاتلاً مَن يُكلَّف

الإرشاد والتعليم ولا ينشر كل شرائع الله استدراكاً لبعض ملاحظات بشرية. استشهد على ذلك القديس بولس عينه. وإذا كنتُ ألجأُ بتواتر إلى هذه النفس المطوَّبة فذلك لأني أرى كلامَها كسُنَنٍ جوهرية وإلهية. كلا! فليس بولس هو الذي يتكلَّم بل هو يسوع المسيح الذي يحرِّكُ روحَه ويُعلن لنا كلَّ ما يشاؤه بفم هذا الرسول. إذن ماذا يقول القديس بولس؟ لقد كان جمع مؤمني أفسس وكلَّمهم آخر مرَّة لأنه كان مضطرًّا إلى الرحيل عنهم فنبَّه رؤساءهم إلى أنهم إذا ستروا عن تلاميذهم ما يفيدهم سماعُه فإنهم يُعاقَبون كأنهم سفكوا دمَ أولئك التلاميذ وإليكم صيغة التعبير عن مراده. قال: «أُشهدُكم اليوم أني بريءٌ من دم الجميع.» ولِمَ ذلك؟ «لأني لم أتأخر عن أن أخبركم بمقاصد الله كلِّها.» (أعمال ٢٠: ٢٦ و٢٧) إذن لو أنه خاف من إخبارهم بمقاصد الله كلِّها لما كان بريئاً من دمهم ولكان معتبراً كقاتل لهم وذلك حقٌّ بغير شبهة. إنّ القاتل يميت الجسد ولكنَّ من يتكلَّم ليُرضي سامعيه وبالتالي يجعلهم أشدَّ فتوراً وتوانياً، إنه يُهلك نفوسهم، فأحد القاتلين لا يسبِّب إلاّ موتاً زائلاً وأما الثاني فيستبيح النفس ويسلِّمها إلى الأعذبة الأبدية. وهل ينفرد بولس وحده بذلك التعبير؟ فنجيب عن يقين كلا! ولكن قبل بولس بعهدٍ عهيد كان الله قد عبَّر بمثل هذا التعبير بفم أحد الأنبياء. قال: «إني جعلتك رقيباً لآل اسرائيل فاسمع الكلمة مني وأنذرهم عنّي. فاذا قلتُ للمنافق إنك تموت موتاً ولم تُنذرهُ أنت ولم تتكلَّم مُنذراً المنافق بشرِّ طريقه ليحيا فذلك المنافق يموت في إثمه لكني من يدِكَ أطلبُ دمَه.» (حزقيال ٣: ١٧ و١٨) فماذا يعني بقوله «رقيباً»؟ إنّ الرقيب هو الذي يقف حارساً في مكانٍ عالٍ عندما تكون فِرقُ الجيش نازلةً في مكان منخفض ومن موقعه ذاك يراقب الأعداء الزاحفين للقتال فينذر أصحابه ليرتِّبوا صفوفهم قبل التحام المعركة تفادياً من أن يأخذهم الأعادي على غفلة ويستبيحوهم ذبحاً دون مقاومة. والحال كما أننا في مضايق هذه الحياة قد لا نرى الأخطار التي تهدّدنا، كذلك نعمة الرب أقامت أنبياء وضعتهم كأنهم في مكانٍ عالٍ، لينذرونا من بعيد بأن الغضب الإلهي يوشك أن ينقضّ علينا غايةَ أننا متى أصلحنا نفسنا بالندامة وأنقذناها من سقطتها، نستطيع أن نتلافى عن بُعد سهام الغضب السماوي. لذلك يقول الله في الكتاب المقدّس: «إني جعلتك رقيباً لآل اسرائيل.» أي لكي تنذر بالآفات القريبة الوقوع كما يُنذر الرقيبُ الجنديَّ بقرب الأعادي. ولا يهدّد الله نبيَّه الرقيب بقصاصٍ خفيف إذا تغاضى عن الإنذار بالغضب الإلهي. وما يكون ذلك القصاص؟ قال: «منك أطلب نفس الذين هلكوا بتغاضيك. فهل من أحدٍ إذن يكون شديد

صلابة القلب كثير قساوة الطبع خالياً كلَّ الخلوِّ من الشعور فيلوم الخطيب على كلامه المتواتر في بيان غضبِ الله حين يهدّد الله بتلك العقوبة الفادحة إذا هو لزم الصمت عمَّا يجب عليه الكلام فيه»؟

فالنبيُّ والرسول يعلِّمانا إذن انه غير مفيد للخطيب أن يكتم الحقائق، وأُبرهن هنا على أنَّ هذا التستير لا يُجدي السامعين أيضاً. لو اضطررتُ أن أستر خطاياكم بصمتي لكان لكم الحق أن تتذمَّروا. ولكن إذا سكتُ عن تبيينها وأنا لا أستطيع منعَها عن الظهور في يومٍ ما، فماذا يجديكم سكوتي؟ إنه لأبعدُ من أن يفيدكم بل هو أروع ضرر ينزل بكم. ولكن إذا تكلَّمتُ اقتادكم إلى الصبر وإلى انسحاق النفس ندَماً. وأما اذا سكتُّ فأعفي نفسي من هذه الدنيا من تذكيركم بخطاياكم وبوجوب الندم عليها وإنما في يوم الانتقام ترونها مكشوفةً واضحة على العالم كلّه. وحينئذٍ تنوحون عبَثاً.

٣ — فمِن حيث إنه لا مندوحةَ لنا عن أنَّ الحزن والتألُّم من خطايانا في هذه الدنيا أو في الأخرى، فالأفضل أن يُكابَد ذلك الحزن والألم ههنا. وما الذي يدلُّ على ذلك؟ هو كلام الأنبياء والإنجيل. قال داود: «هل في الجحيم من يعترف لك»؟ (مزمور ٦ : ٦) وليس فقط أنَّ أحداً لا يعترف بزلاَّته في ذلك المكان الرهيب بل يعترف بها حينئذٍ بدون جدوى. ويسوع المسيح يعلِّمنا الحقيقة هذه بعينها في مثَل. قال: «كان فقير مسكين اسمه لعازر مصاباً بالقروح وكان أيضاً رجلٌ غنيٌّ يتنعَّم تنعُّماً فاخراً ولعازر المسكين يشتهي أن يشبع من الفتات الذي يسقط من مائدة الغني، وذلك الغنيّ لا يعطيه شيئاً على الاطلاق.» هل من حاجةٍ لأسرُد المثَل برمَّته؟ انكم جميعكم تعرفونه وتعرفون شدَّة القساوة التي كانت عند الغني الذي لم يجعل أدنى حصة من مائدته للمسكين لعازر ولا تجهلون الفاقة النازلة بذلك الفقير والجوع الذي كان يعانيه كل يوم. تلك حالة هذين الرجلين في هذه الدنيا. ولكنهما حينما تُوفِّيا كلاهما نظر الغنيّ المسكين لعازر في حضن إبراهيم. فماذا قال؟ نادى قائلاً: «يا أبتِ إبراهيم أرسِلْ لعازر ليغمس في الماء طرفَ إصبعه ويبرِّد لساني ويلطِّف شيئاً من عذابي في هذا اللهيب.» تَرون هنا انقلاباً عادلاً. إنه لم يُعطِ لعازر فُتات مائدته. فالآن لا يُعطى هو قطرةَ ماء. ويقول الإنجيل إنه عُومِلَ هو على قياس ما عامل به غيره. وإنَّ إبراهيم أجابه: «يا ابني تذكَّر أنك نلت خيراتك في حياتِك ولعازر كذلك بلاياه. والآن فهو يتعزَّى وأنت تتعذَّب.» ولكن يجب أن نبرهن على ما تقدّم لنا ذكره أي أن يُعلَمَ أن البشر يتألمون من خطاياهم خارج هذا العالم وأنَّ نيران جهنم تغيّرهم وتجعلهم أفضل دون أن يستطيعوا هناك أن يُطفئوا تلك النيران أو يلطِّفوها. قال الغنيّ: «يا أبتِ إبراهيم أرسل لعازر إلى بيت أبي حتى

يشهد لإخوتي لكي لا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا.» فقد أراد أن يُعدَّ لغيره خلاصاً لم يستطع هو الحصول عليه.

ترون كم كان من قبلُ شديد القساوة وكيف أمسى الآن ذا إنسانية لطيفة. فهو لا يحتقر النظر إلى لعازر الذي كان قُبالةَ عينيه ويشغل خاطره اهتماماً بإخوته الغائبين عنه. حينما كان يسبح في غمرة التكثُّر والغنى لم تُحرِّك شفقتَه رؤيتُه لذلك الفقير المُعدم. والآن فيمَا هو يتقلَّب في العقوبات الأبديّة يتذكّر أقاربَه ويطلب أن يرسل إليهم مَن يُخبرهم بما يجري في العالم الآخر. تشهدون إذن مبلغ ما صار إليه من اللطف والإنسانيّة والشفقة. ولكن ما الذي أجداه ألمُهُ وندمُه. لم يُجدياه شيئاً على الإطلاق. لقد جاء الندم في غير أوانه والمشهد انتهى ولم يبقَ للجهاد ميدانٌ ولا مضمار فالكفاح لم يعُد له وقت. وهكذا أنا أُحرِّضكم قبل فوات الأوان. وأستحلفكم لأن تتفجَّعُوا في هذه الحياة على خطاياكم وأن تبكوا ندَماً عليها. لِيُحزنكم الكلام في حاضر الزمان كي لا تروعكم خوفاً أعذبة الآخرة. ولتَلْذعْكم قوارصُ توبيخاتنا النافعة في هذا العالم تفادياً من أن يعذّبكم بشدّة في الآخرة دودُها المشؤوم. ولتُفدِكم نيران خُطبنا حرارة نشاط في هذه الحياة لكي لا يُحرقكم لهيب جهنم في مستقبل الأيام. فمن العدل أنّ الذين يبكون في هذا العالم يتعزَّون في العالم الآتي وانّ الذين ينعمون هنا في ترَف المعيشة والسرور وعدم المبالاة بخطاياهم يُضطرون عند رحيلهم من هذه الدنيا إلى أن يكابدوا النوح والبكاء وصريف الأسنان. لستُ أنا مَن يقول هذا بل يقوله ذلك الذي يديننا في آخر الدهور: «طوبى للحزانى فإنّهم يُعزّون» (مت ٥: ٤) «الويل لكم أيها الضاحكون الآن فإنكم ستنوحون وتبكون» (لوقا ٦: ٢٥). أفليس الأفضل تحمُّل أوجاع زائلة وسَفْح دموع إلى أجَل تُكتسَب في عقباهما خيراتٌ ثابتة أبديّة وتنعُّمات لا نهاية لها. أليس ذلك أفضل من السرور والضحك في هذه الحياة القصيرة، ثم يعقب السرور والضحك مزايلة الدنيا إلى حيث تُكابَد أعذبة لا حدَّ لها. ولكن أتستحيُون من كَشْف خطاياكم؟ فوقتما تضطرون إلى إعلانها في المشهد العام أمام الناس طُرًّا لا تلتزمون حينئذٍ أن تخجلوا منها لأن الخجل يجب أن يكون وقت ارتكاب الخطايا لا من الاعتراف بها. وأنتم الآن لا تلتزمون أن تعترفوا بها على مسمع الناس عامّةً. بل ابحثوا عن خطاياكم في سريرة ضمائركم وليكن القضاء فيها بغير شهود لها وليسمعكم الله وحده تعلنونها، الله الذي لا يوبِّخكم عليها بل يمحوها بعد ذلك الاعتراف. ومع هذا فإنكم تتردَّدون أبداً في الإقدام على الاعتراف وتؤخّرونه دائماً. اعلم أنّ ضميرنا ينفر

من هذا الفحص لأنَّ ذِكر خطايانا وحده يجعل عقلَنا جامحاً كحصانٍ غير مروَّض يستعصي على لجامِه. وإنما تعلَّموا أن تكبحوه ونظِّموا حركاته وخادعوه احتيالاً إذا لزم واجعلوه سَلِساً طيِّعاً وأقنِعوه بأنه إذا لم يعترف في الوقت الحاضر بخطاياه، أُكرِهَ على الاعتراف بها في أجَل يُضطر معه إلى الخجل الأعظم وإلى مكابدة العقاب الأشدّ. في هذه الحياة تكون الدينونة بغير شهود. أنتم أيها الخاطئون تدينون أنفسكم بأنفسكم وأمّا في آخر الدهور فكل مساوئكم تصير مكشوفة على مشهد العالم أجمع إذا لم تسبقوا وتمحوها قبل تلك الساعة الرهيبة. أتستحيون أن تكشفوا عن خطاياكم؟ فاستحيوا من أن ترتكبوا الخطايا. إننا نُقدِم على اجترام الخطيئة بجرأة وخلْع عِذار الحياء. أمّا إذا كُلِّفنا أن نعترف بها فنتردَّد ونستحيي حالةَ أن الواجب يقضي علينا أن نظهر حرارة نشاطٍ أشدّ لذلك. لا إنّ الاعتراف لا يوجب خجلاً للمعترف بخطاياه، بل إنَّ فيه عدالةً وفضيلة. فلو لم يكن عدلاً وفضيلة لما علّقَ الله عليه أجراً. والحال أنّ الاعتراف له مكافأته وأجره. فالكتاب المقدّس يقدّم البيِّنة على ذلك. قال: «أنا أنا الماحي معاصيك لأجلي وخطاياك لا أذكرها. ذكِّرني فنتحاكم معاً وأَبِنْ أنت لكي تبرِّر نفسك» (أشعيا ٤٣: ٢٥ و٢٦) فهل يُمكن أن يُستَحيَا من عملٍ نتيجته تبرير صاحبه؟ وأن يعترفَ بالخطايا قصدَ أن تُمحى؟ إنّ الله يأمركم أن تعترفوا بخطاياكم لا قصدَ أن يعاقبكم عليها بل ليغفرها لكم.

٤ — إنّ القصاص تفرضه مجالس القضاء على أثر الإقرار بالجرائم فوراً. فمن هذا التصوُّر أن خوف القصاص الذي يُحكم به بعد الإقرار بالجرائم والذي يدفعنا إلى أن ننكر خطايانا، يقول لنا داود: «إعترفوا للرب بخطاياكم فإنه صالح وإن رحمته إلى الأبد» (مزمور١٣٤: ١). هل تَرون الله لا يعرف خطاياكم إلاّ إذا أقررتم له بها؟ إذن ما تستفيدون إذا لم تُقبلوا على ذلك الإقرار؟ أتستطيعون أن تخفوها عنه؟ إنكم إذا لم تقولوها له فهو يعرفها. وإذا أعلنتموها لديه فهو ينساها. وقد قال: «أنا أنا الماحي معاصيك لأجلي وخطاياك لا أذكرها» (أشعيا ٤٣: ٢٥) أسمعتم قولَه «لا أذكرها»؟ ذلك عملُ حلمه وأنتم أيها الخطأة فاذكروا هذا الحلم قصداً إلى إصلاح نفوسكم. فإنّ بولس إذ كانت نفسه حافلةً بهذه التعاليم لم يزل يتذكر خطاياه التي كان الله قد نسيَها؛ قال: «لستُ أهلاً لأن أُسمَّى رسولاً لأني اضطهدتُ كنيسة الله.» (١ كور ١٥: ٩) وقال أيضاً: «ان يسوع المسيح إنما جاء إلى العالم ليخلِّص الخطأة الذين أوَّلهم أنا» (تيموثاوس ١: ١٥) فلم يَقُلْ كنتُ أولهم بل قال «الذين أولهم أنا» أي الآن. فالله كان قد غفر تلك الخطايا ولكنّ ذكراها لم تكن قد مُحِيَتْ من ذهن

بولس. فما أباده الله وجعله عدماً يُعلنه بولس نفسه. قال الله بفم أحد الأنبياء: «وخطاياكم لا أذكرها.» وأما أنتم فلا تضيّعوا تلك الذكرى. إنّ الله يسمّي رسوله إناءً مختاراً والرسول يُعلن نفسه أنه أول الخطأة. فاذا كان بولس لا ينسى خطاياه السالفة، فتأملوا كم كان يتذكَّر إحسانات الله إليه. إنّ ذكرى خطايانا لا تسبّب لنا عاراً. وماذا أقول؟ بل إنّ ذكرى صالحات أعمالنا لا توآتينا مجداً يعادل ما توآتينا إياه ذكرى خطايانا. بل أحرى بذكرى أعمالنا الصالحة أن تغشِّينا خجلاً وتسبّب لنا القضاء بهلاكنا حالةَ أنّ ذكرى خطايانا تملأنا ثقةً بالله وتفيدنا برًّا شاملاً. من يقول هذا القول؟ الفرّيسيّ والعشّار. فأحدهما وهو الذي أعلن خطاياه عاد إلى بيته مبرَّراً منها. وأما الآخر الذي افتخر بأعماله الصالحة فقد خرج من الهيكل وهو أقلُّ استفادةً من العشّار. فترون ما تسبِّبه من الضرر ذكرى الإنسان لأعماله الصالحة. ومقدار ما تؤتيه من الفائدة ذكرى خطاياه. وذلك ما لا بُدَّ له من أن يكون. فمن يتذكّر أعماله الصالحة يُجَنُّ في قلبه بالكبرياء ويحتقر سائر الناس وهذا ما حدث للفرّيسيّ. فلم يكن قد توصَّل في كبريائه إلى حدّ أن يقول: «لستُ كسائر الناس» ذلك لأنه افتخر بذكر أصوامِه وصَدَقاتِه. وأمّا من يتذكر خطاياه فهو على عكس ذلك، يستأصل ما يراه فيه من أخلاق النفس المتسامية كِبَراً ويتعلَّم أن يكون متَّضعاً وباتضاعِه يستميل إليه عطفَ الله. إسمعوا كيف يأمرنا يسوع المسيح أن ننسى أعمالَنا الصالحة قال: إذا فعلتم جميعَ ما أُمِرتُم به فقولوا إنَّا عبيدٌ بطّالون. قُلْ يا هذا أنا عبدٌ بطّال غير نافع لشيء وأنا أجعلك نافعاً غير بطّال. أظهِرْ ما عندك من المهانة والصَّغار فأغمرك بالمجد وأُكلِّلك به. فتَرون عدَّة شهادات تبيِّن لنا أنَّ تذكُّر خطايانا يؤتينا فوائد بمقدار ما يُسبّب لنا تذكّر أعمالنا الصالحة أضراراً أو خسائر. وأنّ نسيانها لأحد الفريقَين هو شؤمٌ علينا بمقدار ما أنَّ نسيانها للفريق الآخر يثمر لنا أحسن الفوائد. أتريدون بعد هذا أن تعلموا مقدار ما يستحق من الفوائد أن يذكر المرءُ خطاياه، فاسمعوا ما يقول أيوب الذي كان يفتخر بإعلان خطاياه إفتخاره بما يعمل من صلاح: «هل كتمتُ معصيتي كما يفعل الناس إضماراً للإثم في صدري إذ خفتُ من الجمهور.» (أيوب ٣١: ٣٣ و٣٤) إليكم معنى ما يقول: لم أخجل في زماني من التلاقي بأمثالي من الناس. فأيُّ فائدةٍ لي مِن جهل الناس لحالتي حين أنَّ الديَّان الأعلى مطّلعٌ على كل خفاياي؟ وأيُّ ضرر ينزل بي من معرفة الناس لخطاياي إذا كان الربّ يريد حمايتي من العقاب؟ فلو دانني جميع البشر فما الذي يُهمّني من دينونتهم إذا كان الله يريد لي الغفران؟ وماذا يفيدني مديح كل الناس لي

وإعجابهم بأعمالي إذا كان الله يُؤَثِّمني ويقضي عليَّ؟ إذن يجب أن نراقب أبداً القاضي الأسمى ويجب علينا أن نتصرَّف بخطايانا تصرُّفنا ببذل مالِنا. فنحن حين نفيق من النوم باكراً نستقدم إلينا خادمنا قبل أن نغادر البيت إلى مكان الأعمال العمومية وقبل أن نباشر عملاً ما فنحاسب ذلك الخادم لنعلم ما أنفقَ على البيت أهو حسنٌ أم سيّئ وأيّ مبلغ بقي في يدنا. فاذا كان الباقي نزراً يسيراً نشغل فكرنا في البحث عن موارد جديدة حذرَ أن نبتلى بالإملاق والموت جوعاً.

وعلى هذا النحو يجب أن نجري في مسلك حياتنا. فلنستدعِ ضميرنا ونناقشه الحساب على الأعمال والأقوال والأفكار. ولنفحص عمَّا لنا في كل ذلك من فائدة أو خسارة، عمَّا تفوَّهنا به من قبيح الكلام وعرض لنا من سوانح الطعن في حقّ الغير أو من الأمور المخجلة أو ما استجزناه من إهانات الناس، وعمّا أوقدَتْه في ألحاظنا نارُ الفجور، وعمَّا سبَّبناه لنفوسنا من الأذى سوآء كان ذلك بأيدينا أو بألسنتنا أو بعيوننا أيضاً. ولنكُفَّ حينئذٍ عن سيّئ الانفاق في مثل تلك الأحوال. ولنجتهدْ في أن نضع رؤوس مالٍ نافعة مكان النفقات المُضرَّة. أي لنضعِ الصلوات مكان الكلام الغير الرصين والصوم والصدقة مكان النظرات الطليقة من رادع الأدب. فإن كنا ننفِق في هذه الأحوال تبذيراً سيِّئاً دون أن نستبدل مكانه عملَ الحسنات وبدون أن نجمع للسماء خيراً يُبتغى، لا نلبث أن يؤدّي بنا حمقُنا إلى السقوط الوبيل في أشدّ الفاقة والعَوز ونتعرَّض لعقوبات لا تُحتمَل، سواء في أمدِها أو في مداها. إننا نتقاضى الحساب على نفقاتنا الماليّة في كل صباح. ففي المساء بعد تناولنا العشاء حين نُقبل على الرقاد إذ لا يُقلقنا أحد ولا يزعجنا أحد يجب أن نناقش نفوسنا الحساب على سلوكنا في النهار وما قلناه أو فعلناه فيه. فإذا وجدنا هنالك مسآءَةً تحتّم علينا أن ندين ضميرنا ونعاقبه وأن نعنّي بالألم المحزن قلبنا المجرم فنوآخذه موآخذةً شديدة حتى يشعر بتوبيخاتنا فيجدّد في الغد ذكراها ولا يتجرّأ من بعد أن يُلقي بنا في تلك اللجَّة العميقة من الخطيئة.

٥ — إسمعوا كلام النبي مؤكداً أنه لا أصلح من ذلك الوقت لذلك الحساب، قال: «تكلَّموا في قلوبكم على مضاجعكم وكونوا ساكتين» (مزمور ٤: ٥) أي افحصوا نفوسكم بكآبةٍ وأنتم في راحة مضاجعكم، عما تأمَّلتُم في داخل قلوبكم لتسيئوا إليَّ به. ما أكثر ما نفعله في النهار مما يضادّ قواعدنا الإيمانيّة! فأصدقاء يغيظوننا، وخدّام يثيرون غضبَنا وامرأة تزعجنا، وأولاد يغمُّوننا، وعديد من الشؤون العمومية والخصوصية تكتنفنا حتى

لا ندري حينئذٍ ما يكون لنا من كل ذلك نُهزةً للعِثار. فإذ يُقبِل المساء نتملَّص من كل هاتيك الهموم ونعود إلى الاختلاء بنفوسنا مستأنسين ضمن بحبوحة الراحة. فلنؤلِّف حينئذٍ منا على سريرنا مجلس قضاء ولنُخمِد غضبَ الله بدينونتنا نحن لأنفسنا. فاذا كنا نخطأ في كل يوم وإذا كنا نُوصل إلى نفوسنا ضروباً من الأذى حتى لا نحذر من ذلك شيئاً فما تكون العاقبة؟ هي أننا نعود أشبه بأُناسٍ تنهال عليهم الضربات ولا يأبهون لها حتى تصيبهم من شدَّتها حمُيَّاتٌ وموت ذريع. ونحن كذلك نجلب علينا عقوبات هائلة بحماقةٍ نألفها. أنا خبيرٌ بأنّ هذا الكلام هو غيرُ مرضٍ لسامعيه ولكنه مفيدٌ لهم. إنَّ لنا سيّداً مملوءًا من اللطف وهو يفحص عن الفرص التي تخوِّله الإسراع في بذلِه لنا كلّ ما عنده من جودٍ وصلاح. فإذا كان العفو عن جرائمنا لا يستطيع إلاّ أن يجعلنا في أسوأ مما كنا، بذَلَ لنا من قصاصه نعمةً لإصلاحنا. ولكنه يعلم انّ هذا العفو يُضرُّ بنا كما تضرُّ الخطيئة بعينها. ولهذا يسوقُنا قصاصاً هو أقلّ عند تدقيق النظر إرادةَ عقابٍ على ماضي حياتنا، فيه إرادة إصلاح لنا في مستقبلها. أتريدون تيقُّناً لهذه الحقيقة من قول الكتاب المقدّس، فاسمعوا ما قال الله لموسى: «والآن دعني يضطرم غضبي عليهم فأفنيهم.» (خروج ٣٢: ١٠) فقد قال لموسى «دعني» لا لأنّ موسى كان يمسكه عن إنزال غضبه بهم، فإنه لم يتصدَّ لله بكلمة بل كان واقفاً أمامه ملتزماً الصمت ولكنَّ الله أراد أن يُفهمه فكرة الشفاعة إليه لأجل المجرمين. والقصارى أن الله إذ كان أعلى من أن يُنزل باليهود العقوبات الشديدة التي كانوا قد استحقوها، فلم يهتمَّ إلاّ بأن يُظهر لهم البيّنة على جوده وعفوه. ولكن خشية أن يُخمِد عزيمتهم وغيرتهم عمل على أن لا يعود عليهم العفو بالأذى إذ أفهمهم أنّ نجاتهم من عقاب السيّد الأعلى لم تكن عن استحقاقهم الخاصّ بل عن شفاعة موسى لهم. وهذا ما يحدث لنا غالب الأحيان، عندما لا نريد أن نعاقب خدّامنا المستحقّين للعقاب ولا أن يأمنوا من خوف ذلك العقاب، نكلِّف أصدقاءنا أن يستخلصوهم من أيدينا بنوع أنهم يتملَّصون من قسوتنا عليهم دون أن يتحرّروا من رهبةٍ تفيدهم سلاماً. هكذا صنع الله كما يتبيَّن من كلامه عينه «دعني يضطرم غضبي عليهم» ومع هذا فحيثما نريد حقاً معاقبة خدّامنا ونُعارَض في شأنهم يأخذ الغضب منا مأخذه حينئذٍ. فإن قال لموسى «دعني يضطرم غضبي» ذلك لتعلموا أنّ الغضب في الله ليس هو ميلاً أو هوًى بل أنه هو العقاب الذي يريد إنزالَه بنا. ولذلك فمع سماعكم كلمات موسى: «والآن إن غُفرتْ خطيئتهم وإلاّ فامحني من كتابك الذي كتبتَه» (خروج ٣٢: ٣٤) فتعجَّبوا من السيّد أكثر مما تتعجَّبون من العبد لأنه أتاح

له نهزةً يُظهر فيها كرمه وعفوَه. وقد سلك الله هذا المسلك في مواضع أُخَر فقال القول نفسه لإرميا وحزقيا: «طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا وتفرّسوا وفتّشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً؟ هل يوجد من يُجري الحكم ويطلب الحقّ فأعفوَ عنها؟» (ارميا ٥ : ١) هل ترون إذاً صلاح الله؟ إنه يُتيح لأُمَّةٍ بكاملها ولو شريرة أن تتنعَّم بفضيلة إنسانٍ واحد. وإذا وُجد بين جمهور شعب رجل واحدٌ ذو فضيلة فلا ينزل به العقاب الذي ينزله بجمهرة الأشرار. فرجلٌ واحد يسير في الطريق القويم يستطيع أن يصرف غضبَ الله عن شعب برمَّته وانّ مدينةً مرتطمةً في مفاسدها لا تستطيع أن تنزل البلآء الذي تستحقُّه ولأن تجرَّ إلى ما يحيق بها من الخراب، رجلاً واحداً من أهل الصلاح. هذا ما يبيِّنه لنا مثَل نوح الذي نجا وحده مع أهل بيته حين اجتاح الهلاك جميع البشر. ومثَلُ موسى الذي استطاع وحده أن ينال نعمةً لشعبٍ كامل. على أنّي أستطيع أن أُقدّم بيِّنةً أبلغ أثراً على صلاح الله وجُودِه. فإذ إنه لم يجد بين البشر الأحياء أهلَ حظوةٍ لديه ليشفعوا عنده بثقةٍ للخطأة، صرف وجهه إلى الأموات وأعلن أنه لأجلهم يعفو عن الخطأة، فقال لحزقيَّا: «احمي هذه المدينة من أجلي ومن أجل داود عبدي» (٤ ملوك ٢٠ : ٦).

فإذ نحن على يقين من أنّ الله لا يدع واسطةً إلاّ بذلها ليحرّرنا من ربقة العقاب فلنبذل لرحمته كل ما نستطيع بذلَه من الوسائل من سرائر التوبة والندم والدموع والاعترافات والتذكار الدائم لخطايانا ومن الاتضاع والتيقُّظ والصلاة ومضاعفة الصدقات والعفو عن الاسآءات الموجّهة إلينا. ولا يكفي أن نقول: أنا خاطئ بل لا بُدَّ في الاعتراف من الإقرار بكل نوعٍ من الخطيئة. إنَّ النار الملتهبة بين الأشواك تتلفها بسهولة وهكذا التأمل الدائم في خطايانا يقضي عليها بسهولة ويلاشيها. فليرتضِ الله الذي ينسى الجرائم ويمحوها، أن يحرّرنا من رقّ خطايانا ويجعلنا أهلاً للملكوت السماوي بنعمة ربنا يسوع المسيح وجودِه الذي به ومعه يُعلن مجد الآب والروح القدس الآن ودائماً وعلى مدى الدهور آمين.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

الفصل الرابع

الفضائل المسيحيّة

١
عِظَة
على المحبة الكاملة

١ - إنّ كل الأعمال الصالحة هي ثمار المحبة. ولهذا السبب يأمرنا الكتاب المقدّس في عدّة مواضع بممارسة هذه الفضيلة. قال يسوع المسيح: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا كنتم تحبّون بعضكم بعضاً.» (يوحنا ١٣: ٣٥) ويهتف عالياً القدّيس بولس فيقول: «لا يكن عليكم لأحدٍ حقّ ما خلا حبّ بعضكم لبعض» (رومة ١٣: ٨) فهذه الكلمات تعلّمنا أنّ المحبة هي دين نعقده بعضنا مع البعض الآخر. لا نستطيع بحكم الشريعة الطبيعيَّة أن نتفادى من العناية بتغذية جسدنا ولو اننا نبذل له كل يوم الأطعمة اللازمة. حَسَنٌ!. فنظام هذه المراعاة هو ألزم تخصيصاً بالمحبة التي ندخل بها إلى الملكوت السماوي، والتي تثبت معنا مدى الأبد. قال القديس بولس: «والذي يثبت الآن هو الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة وأعظمهنَّ المحبة» (١ كور ١٣: ١٣) وليست هذه كلمات وحسْب بل إنها أعمالٌ تعلِّمنا المحبة. ولنبحث أولاً عن كيفيّة دخولنا إلى العالم. بعد أن صاغ الله رجلاً واحداً أمر أن يولد من هذا الرجل كلُّ البشر غايةَ أنهم إذ يدركون كونَهم كفرد واحد يتبادلون حبَّ بعضهم بعضاً. وعلى أثر ذلك دبَّر الله لنا بحكمةٍ بالغة ضرورة حبٍّ مشترك. تفهَّموا كيف حدث ذلك. فإذ أغنى كل الأرض بخيراتٍ لا نهاية لها وهب لكلٍّ قطر منها ثماراً لا تكون في سواه.

فمِن اضطرار الناس إلى أن يمضي بعضهم إلى بلدٍ غير بلدهم ليحملوا إليه من الثمار ما يزيد كثيراً عن حاجتنا ويجلبوا من ذلك البلد ثماراً لا وجود لها عندنا، قد أنشأَتْ هذه التجارة عاطفة رفق ومودَّة بين كل الشعوب. ويسلك الله هذا السلوك عينه بلقاء كل إنسان على الخصوص. فلم يهَبْ للجميع معاً قوة أن يعرفوا كلَّ العلوم بل وهبَ لواحدٍ

عِلم الطبّ وللآخر الهندسة ولغيرهما فنًّا آخر غاية اننا إذ لا نستغني عن باقي الناس ولا هُم يستغنون عنَّا لنصلَ إلى أن يحبّ بعضنا بعضاً. والأمر كذلك في المواهب الروحية. قال القديس بولس: «فيُعطى واحدٌ بالروح كلام الحكمة وآخر كلام العلم بذلك الروح عينه وآخر الإيمان بذلك الروح عينه وآخر مواهب الشفاء بالروح الواحد وآخر صنع القوّات وآخر النبوَّة وآخر تمييز الأرواح وآخر أنواع الألسنة وآخر ترجمة الألسنة.» (١ كور ١٢: ٨ - ١٠).

لكنَّ المحبة فوق كل شيء والقدّيس بولس يقلِّدها الرئاسة على كلّ الفضائل حيث يقول: «لو كنتُ أنطق بألسنة الناس والملائكة ولم تكن فيَّ المحبة فإنما أنا نحاس يطنّ أو صنج يرنّ. ولو كانت ليَ النبوءة وكنت أعلم جميع الأسرار والعلم كلّه، ولو كان لي الإيمان كلّه حتى أنقل الجبال ولم تكن فيَّ المحبة فلستُ بشيء.» (١ كور ١٣: ١ - ٢). ولا يقف الرسول عند هذا الحدّ بل يجهر بأنه باطلاً تُبذَل الحياة استشهاداً في سبيل الحقيقة الدينية إذا خلا صاحبها بتاتاً من المحبة. وليس عن غير سبب يُشيد القدّيس بولس بمديح المحبة. فإنَّ ذلك الرجل الخبير البارع في الحراثة السموية يعلم أنّ هذه الفضيلة متى مدَّت أصولها في قلوبنا لا تتأخر أبداً عن أن تؤتي فيها ثماراً من كل الأعمال الصالحة.

والقصارى إنّ هذه الوصايا: «لا تزنِ، لا تقتلْ، لا تسرق، لا تشهد بالزور.» (خروج ٢٠: ١٣) هذه الوصايا وغيرها أيضاً هي متضمّنة على وجه الاختصار في هذه الوصية: «أحبب قريبك كنفسك.» (الأحبار ١٩: ١٨) (وغلاطية ٥: ١٤) ولِمَ نلتجئ إلى هذه الأسباب الضعيفة حالةَ استطاعتنا أن نستشهد بأمتن منها؟ فإن المحبة هي التي أنزلَت من السماء ابن الله الحبيب وأتت به إلينا وجعلته يتحدَّث إلى البشر. حتى أنه، بعد تبديده لضلال الشكّ وعبادة الأوثان وإطلاعه لنا على معرفة الله الحقيقي، قد علَّمنا أن يحبَّ بعضنا بعضاً كما قال القديس يوحنا: «هكذا أحبَّ الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦). وإذا كان القدّيس بولس متلهّباً بهذه الفضيلة قال: «من يفصلنا عن محبة المسيح أشدّة أم ضيق، أم جوع أم عريٌ أم خطر أم اضطهاد أم سيف؟» ويضيف إلى هذه المذكورات التي لا يمكنها أن تذعره خوفاً من أشياء غيرها أقوى منها جدًّا في استطاعتها أن تقف دَهِشاً منها أثبت القلوب شجاعةً. قال: «اني لواثق بأنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا أشياء حاضرة ولا مستقبلة ولا علوَّ ولا عُمقَ ولا خلقَ آخر يقدر أن يفصلنا عن محبة الله التي هي في يسوع المسيح ربّنا» (رومة ٨: ٣٨ الخ) كلا! إنّ هذا الرسول الطوباوي الملتهب محبةً، لم تستطع السماء ولا الأرض ولا البحر

ولا الملكوت السماوي ولا عذابات جهنم، أن تفصله عن يسوع المسيح. فكان يدوس كل شيء إكراماً ليسوع المسيح. ولو بحثنا في حياة غيره من القديسين لوجدنا أن المحبة هي التي جعلتهم مرضيين لدى الله.

٢ - إنَّ المحبة تجعل كلّ واحد منكم ينظر إلى قريبه كأنما هو شخصه بعينه ممثَّلاً في ذلك القريب وهي تعلِّمكم أن تغتبطوا حبوراً لفلاحِهِ وسروره، وأن تحزنوا لما ينزل به من عاديّات الزمان كأنّ كِلا الأمرين حادثان لكم. المحبة تؤلف جسماً واحداً من أشخاصٍ كثيرين وتجعل نفوسهم مسكناً للروح القدس لأن روح السلام يستريح في المتّحدين بعضهم ببعض لا في أولئك المنقسمين أحدهم عن الآخر. المحبة تجعل ممتلكات وأموال كل فرد خصوصي مشتركة بين الجميع كما يقرأ في أعمال الرسل، إذ ورد فيها: «وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه أنه خاصٌ به بل كان لهم كل شيء مشتركاً فيوزَّع لكل واحد حسب احتياجه» (أعمال ٤/٤٤).

... فإنهم بائتلافهم لمكافحة ذلك الروح النجس، عِوَض أن يصطفّوا تحت إمرته لمناجزة بعضهم قِتال بعض، يغلبون دون مشقَّة خُدَعَه ومكايده ويحرزون انتصارات مجيدة ترفع لهم شعار الغلبة عالياً. وكما أنّ عدّة أوتار في المِزهَر (العود) تعطي صوتاً لطيفاً جداً متى كانت تلك الأوتار مؤتلفة ائتلافاً جيداً هكذا اتحاد الإرادات يؤلف ما هو ألطف من كل انسجامات الألحان. ولذلك يريد القديس بولس من جماعة المؤمنين أن يكون أهلَ عواطف واحدة ولهجة كلام واحدة وأن يعتقد أحدهم أنّ كلاًّ من المؤمنين هو أعلى منه بحيث أنّ روحاً واحداً من المجد الباطل لا يقطع صلات المحبة وأنَّ التضحيات المتبادَلة بين الشعب تجعل الوفاق سائداً فيما بينهم. ويقول لنا في موضع آخر: «إنكم أيها الإخوة إنما دُعيتم إلى الحريّة على هذا فقط أن لا تجعلوا الحريّة فرصةً للجسد بل اخدموا بعضكم بعضاً بمحبة الروح لأن الناموس كلّه يتمّم بكلمة واحدة وهي أحببْ قريبك كنفسك.» (غلا ١٣/١٤).
فالذي يحبّ يحصل بطاعته على سرور أوفر من سروره لو أنه آمرٌ. انه يفضّل أن يعطي على أن يأخذ ويغار على أن يكون دائناً لصديقه لا أن يكون مديوناً له. هو يريد أن يحسن إليه ولا يظهر إحسانه. ومهما سبق بالإنعام يحاول أن يعتقد الناس أنه يردُّ إلى صاحبه ما سبق صاحبُه فأمدَّه به. ربما كثيرٌ فيما بينكم لا يفقهون معنى هذا الحديث فأودُّ أن أشرحه بمثَل. إنّ إلهاً صالحاً شاء أن يقدّم لنا ابنه الخاصّ ولكنَّه لرغبته في أن يظهر دَيناً عليه لا واهباً لنا نعمة أمر ابراهيم أن يقدّم له إبنه حتى اذا قدَّم هو مَن خصَّه يظهر

فقط أنه عارفٌ فضلَ تلك التقدمة من إبراهيم. على أني مهما اجتهدتُ في أن أكون واضح الفكرة فلا بُدَّ من أنكم تروني غريب اللهجة. ذلك ولا ريب لأني أُحدّثكم عن فضيلةٍ تتوطّن السماء. فكأنني والحالة هذه أُحدّثكم عن نبتةٍ هي من ولائد الهند لم تكونوا قد رأيتموها قط. فلا أستطيع أن أجعلكم تعرفونها مهما أسهبتُ لكم الحديث في وصفها. هكذا عبثاً أُحدّثكم الآن عن المحبة تلك النبتة الروحية النامية في السماوات. ولكننا نستطيع أن ننبتها في قلوبنا. ولهذا السبب نُؤمَر بأن نقول لأبينا السماوي: «لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء.»

٣ – إذن لا تظنُّوا أنه يستحيل علينا اكتساب براعته. اننا نستطيعه، نعم نستطيعه، إذا كنا نلقي على حياتنا نظرةً متنبّهة. وإذا كنا نمارس كل الفضائل. إنّ إرادتنا الحرَّة هي الحاكمة فينا لا الضرورة العمياء كما يظن بعضهم، لأنّ فضائلنا أو رذائلنا تتعلق بقوة إرادتنا أو بضُعفها. وبناءً على ذلك وعدنا الله بملكوته وهدَّدنا بعذاب أبديّ. ولم يكن الله وعد بملكوته ولا هدّد بالعذاب الأبديّ لو كنا مقيَّدين بالضرورة، لأن المكافأة والعقاب يفترضان الحريّة. ولم يكن الله ليعطينا وصايا ولا نصائح لو أننا مقيَّدون برباط القضاء والقَدَر. ولكن بما أنّ لنا الحريّة والاستقلال الشخصيّ، فتيقُّظنا أو تهامُلنا يجعلنا كلٌّ منهما صالحين أو أشراراً. وبسبب ذلك هيّأ لنا أدوية يريد إصلاحنا وإرشادَنا بتوقُّع ملكوته وبالخوف من عقوبات جهنّم. وانّ أعمالنا عينها هي بيّنات على أنه لا القضاء ولا القَدَر ولا أحوال الزمان والمكان ولا الحظّ ولا دوران النجوم هي المتصرّفة بنا. فاذا كان العمل متعلِّقاً بهذه الأحوال فلِمَ تعاقبون عبداً إذا سرق؟ ولِمَ تجرُّون إلى مجلس القضاء امرأةً زانية، ولِمَ تخجلون من عمل قبيح شائن؟ ولماذا تُجرحون بكلمات الشّتم؟ فلو أطلق على أحدكم اسم عاهر أو كافر أو ممزّق العرض أتكون تلك التسمية سباباً لو أنَّ مساوئنا لا تتأتّى عن إرادتنا، ولولا أنّ الإرادات هي الفاعلة لتلك المساوئ لم تكن لكم خطيئة في كل ما تفعلون من خطأ ولا يُعدّ توجيه الإهانة والسباب إليكم من غيركم إهانةً وسباباً. ولكنَّ عدم مغفرتكم للمذنبين وخجلكم عندما ترتكبون قبيحاً واجتهادكم في الاستخفاء وعَدَّكم تقريعاً لكم ما يوجَّه إليكم من الملام ومعرفتكم لأنفسكم أننا لسنا مسيَّرين بضرورةٍ عمياء. ولكنّ إرادة حرّة تتصرَّف في أعمالنا. اننا نغفر لمن يسيئون مكرهين بحكم الضرورة ولو أنّ إنساناً فاقد الشعور يضربنا أو يمزّق ثوبنا لكنَّا أبعد من أن ننتقم لأنفسنا منه بل كنا نشفق عليه ونغفر له إساءَتَه. ولِمَ ذلك؟ لأنه في عمله هذا لم يكن له حريّة بل يدفعه إليه بشدّة الشيطان الذي يهيّجه. وإذا صدرت بقيّة الخطايا عن ضرورة حُكم

القضاء والقَدَر نغتفرها أيضاً. ولكن بما أننا نعرف أنّ أمثال هذه الجرائم لم تصدر عن مثل ذلك كان أنّ السَّادة لا يغفرون لعبيدهم ولا الرجال لنسائِهم ولا النساء لرجالهنَّ ولا الآباء لأولادهم ولا أرباب المدارس لتلاميذهم ولا الملوك لرعاياهم. كذلك نبحث عن الجرائم بعناية ونُنزل العقوبات بشدّة ولذلك نلجأ إلى المحاكم وإلى إنزال العقوبات الجسدية وإلى إصلاحات الدعاوى القضائية. والخلاصة أننا لا نهمل شيئاً من بذل الجهد لإنقاذ الناس من رذائلِهم فنعيِّن أساتذة لأبنائنا ونرسلهم إلى المدارس ونبذل مرَّةً التهديدات ومرَّةً العقوبات ووسائل كثيرة غير هذه غايةَ تقويم أوَدهم وجعلِهم أهل خير. ولكن أيُّ حاجةٍ إلى كثرة المشقَّات والمتاعب رغبةً في ممارسة الفضيلة. إذا كان مرسوماً بحكم القَدَر أنَّ إنساناً ما لا بُدَّ من أن يصير رجل فضيلة؟ فلينَمْ أو فليسهَرْ وكيفما يعمل لا بُدَّ من أن يصير رجل فضيلة. وفي الصحيح لا نستطيع أن نسمّيه كذلك لأنه ليس إلاّ آلة. فهل يُحتَّم عليه أن يجاهد كثيراً ويكافح كثيراً لاجتناب الرذيلة؟ إذا كان مكتوباً على ذلك الإنسان أن يكون صاحب رذيلة فمهما حاول وجدَّ واجتهد يظلُّ أبداً صاحب رذيلة، أو بالأحرى لا يستطيع أن يُدعى صاحب رذيلة لأنه لا يعمل إلاّ مطيعاً لحكم الضرورة. وكما أننا لا نعامل مجنوناً معاملتنا لأحمق مختلّ الشعور (لأنني لا أزال على إتمام المثَل عينه) ولو أنه يشتمنا ويضربنا لأننا ولا شك لا ننسب إليه الإساءات التي يحمّلنا إياها. وكذلك لا ندعو رَذْلاً أو صاحب فضيلة مَن يجرُّه القضاء والقَدَر إلى الرذيلة أو الفضيلة. فلو قبل أمر القضاء والقَدَر لأنقلب كل شيء عن وضعِه في هذا العالم ولم تكن قطّ فضيلة ولا رذيلة ولا شريعة ولا فنّ. وبكلمةٍ واحدة نقول لا يبقى شيء على الإطلاق. وإذا كانت الحالة كذلك فلماذا حينما يمسُّنا مرض نبذل لأجله الذهب بسخاء، فنستدعي الأطباء ونسعى لمشترى الأدوية ونمسِك شَهوتنا عن الطعام ونلتزم فيه أشدَّ نظام يناسبنا.

فلو أنَّ الصحَّة والمرض يتعلقان بالقَدَر، لكان إنفاق الذهب وعيادة الأطباء والتدقيق في نظام الطعام بغير جدوى. على أنه هنا كما في غير ذلك، يُستدلُّ بالبيِّنات على أنه لا شيء من هذه التحرُّزات إلاّ بالغ المنفعة. وهكذا يا إخوتي فلننبذْ خرافة القَدَر هذه. فإنَّ أعمالنا غير موضوعة تحت حكم الاضطرار الأعمى، بل إن أعمالنا هي نتاج الحريّة.

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي

(المخطوطات المخلصيّة)

٢
عِظَة
في التنعُّم والترف

«لنأكل ونشرب فإنّا غداً نموت» (اش ٢٢ : ١٣) هكذا كان يقول كثير من اليهود في عهد الأنبياء. لا بدع أن ينطق يهودٌ بمثل هذا الكلام، وقد قال عنهم الرسول إن «إلههم البطن ومجدهم في خزيهم وهمّهم في الأرضيات» (في ٣ : ١٩). ولكن بعد شريعة النعمة، بعد أن تعلمنا احتقار الخيرات الحاضرة والسلوك بعيشة عالية كاملة، إن قام أحد المسيحيين يجاهر بذلك المبدأ، إن لم يكن بأقواله فبأفعاله، فأيُّ وصمة عارٍ لا تعلق به؟

أجل ان من الناس قوماً يتوهمون أنهم لم يوضعوا في هذه الحياة إلا ليقضوا لُبانتهم من ملذاتها و يملأوا جوفهم ويسمِّنوا جسدهم، ثم يقضون نحبهم بعد أن يكونوا قد أعدّوا وليمة حافلة للدُّود كي يرعى في أبدانهم. ويا ليتهم يقفون عند هذا الحدّ من الإثم ولكنهم يعبَثون بالخيرات التي في أيديهم مستعمليها دون ما جدوى أو فائدة، مع علمهم أن مثل هذا المسلك لا يخلو من الذنب ولا ينجو من الدينونة، لأننا ان استخدمنا في العهر والخزي والعبَث التام الخيرات التي خلقها الله للقيام بأود معيشتنا ولسدّ عوَز المحتاجين فلا مناص لنا من تأدية الحساب عنها، وسيكون من أمر الغنى ولواحقه ما كان من أمر الوزنات الخمس والاثنتين والواحدة التي ورد ذكرها في الإنجيل. وعليه فإني أعود وأقول إن كنا نقضي حياتنا في البطالة والعبَث فلن نُفلِت من العقاب.

وعلاوة على ذلك فهنالك عقاب آخر مذخور لنا. إن الرجل العائش بالترف، الذي لا يفكِّر إلا في سكره، الذي يجالس المداهنين والطُّفيليين ويكتظُّ من اللحوم ويتملَّأُ من الخمرة سيصبح شاء أم أبى فريسة خطيئته في هذا العالم وفي العالم الثاني وكما ان المركب المثقَّل بِوَسق يتجاوز حَمْلَهُ لا محالة غارقٌ تحت الثقل الذي يبهَظه، كذلك متى ثُقِّل جسدنا بأغذية تفوق قدرته فإن نفسنا تنوء تحته فتنحني تحت الحِمل الذي يبهظها وتغوص في أعماق الهلاك وتجرُّ معها القبطان والنوتيَّة والحارس الساهر عند مقدمة المركب والركاب، والوسق أيضاً تغرّقه مع الجميع. إن المركب المثقَّل على تلك الصورة لا ينجّيه من الغرق لا هدوء البحر ولا مهارة القبطان ولا كثرة النوتية ولا وثاقة بنيانه ولا اعتدال الجوّ ولا شيء من الأشياء يجديه نفعاً حين تتقاذفه الأمواج. كذلك القوم العائشون في

التَرَف لا شيء يستنقذ نفوسهم من الإعصار الدائر بهم ، لا البراهين ولا التعليم ولا الحض ولا التنبيهات ولا النصائح ولا شيء آخر ، ولا الخوف من المستقبل ولا الحياء ولا مذمّة الناس : لأن الهوى الجامح أقوى من كل ذلك وهو لا يزال يقلِّب ذلك المسكين في اعطافه ، شاء أم أبى ، إلى أن يلقي به في القعر فتجتذبه الهاوية الهائلة التي يتعذّر انتشاله منها .

إنّ هوان ذلك الإنسان وعجزه التام لا ينكشف في الحياة المستقبلة وأمام ديوان الله فقط ، بل يبدو بأجلى مظاهره في هذه الحياة أيضاً . فسواء كان في الأحوال الخاصة أم العامة تراه دائماً موضوع هزء للآخرين . وان اضطُرَّ في الملمّات إلى اتخاذ وسيلة معجَّلة فهو أعجز من أن يستنبط رأياً حكيماً أو أن يفتق حيلة رشيدة . لذلك يصبح كلعبة في أيدي خصومه ولا تُرتجى منه منفعة لأصحابه وذويه . على أنه إذا كان ذليل الجانب في الشدائد والنوائب ، ثقيل الظل في ساعات اليُمن والإقبال ، فمتى دَجَت الخطوب كان قاصراً بسبب تفريطه عن اداء خدمة ما لكل من يفزع إليه . في الشدّة يأخذه الزمَع والخوَر والمخافة الزائدة واسترخاء العزيمة ، أما إذا أقبلت إليه الدنيا فترفُّعه وكسله وفجوره وإسرافه وكبرياؤه وتجبُّره يجعل منه جبلاً على مناكب الناس .

إن أجساد مَن هم على هذه الحال قبيحة المنظر رخوة مائعة تبعث الرائحة الكريهة إلى كل جهة . على أن النفس فيهم أشد قباحة من الجسد وداء اللذة ينخرها نخراً عميقاً . ان جسدهم لا يكتفي بنبذ فضلات الطبيعة بل يفيض أرجاساً . فالعينان والأنف والفم متى تثقَّلت بالأخلاط الرديئة فاضت بالنُّفايات الخبيثة الفاسدة . والبدن يسترخي فوق المألوف فيصبح فضفاضاً متدلياً كأنه قد حُشي وحلاً وحمأة قذرة ، وتخبث رائحته ولا يصلُح لعمل جيد . ان الأرض متى كثرت عليها الرطوبة تفقد حرارتها وتفقد معها قوة الخصب فلا تعود صالحة للعمل ولا للإنتاج . ولا غرابة اذا استولت الأمراض المُضنية والعُضالة على الذين يرفّهون ذواتهم . فهم كما يؤكّد الأطباء عرضة للرجفة والاسترخاء والسل واختلال الدماغ وداء النقطة والشلَل وأمراض كثيرة غيرها .

وهَبْ انه لم يكن لا جهنم ولا العقاب ولا قضاء الله المحتم ولا مذمّة البشر ولا التبذير المفرط ولا النتائج الهائلة المتأتية عن ترف المعيشة ، ألا تكفي النتائج التي أوردناها لتردع الناس عن الشراهة؟ ليس من فرق عندي بين هذه المآكل اللذيذة وبين المشروبات السامة ، أو بالحري ان تلك المآكل لهي في الحقيقة أكثر ضرراً . فالسم لا يمهل شاربه بل

يوصله حالاً وبِلا وجع إلى أبواب المنون. فهو إذن من هذا القبيل لا يؤلم كثيراً المشرف على الموت. أما الشراهة فتجعل حياة من ينصرف إليها أشد مرارة من الموت نفسه، ولا تصيرها شقيّة فحسب بل قبيحة تستوجب الهزء والهوان. إن من البلايا ما يثير في نفوس كثيرين عاطفة الشفقة والحنان، أما البلايا الناجمة عن الترف والسكر فلا تحمل الناس على الشفقة ولو تعمَّدوها، وإذا كان تفاقُمُ البلاء من شأنه أن يستميل إلى العطف والرحمة فالاطلاع على السبب الذي نشأ عنه ذلك البلاء لا يزيد الناظرين إلا كرهاً واشمئزازاً والعاطفة التي نشعر بها وقتئذٍ إن هي إلا عاطفة متردّدة متقاسَمة: فلا هي بالرحمة لأن علّة البلاء لا تسمح بها، ولا هي بالكُره لأن فداحة البلوى تحول دون ذلك، وإنما تقف من أولئك المساكين موقفاً مشتركاً بين الذم والصفح.

إن أولئك القوم لم تنزل بهم نكبات الدهر كما حدث لغيرهم، ولا أُخذوا بأشراك بني البشر، ولكنهم هم الذين جَنَوا على نفوسهم وهم الذين تدهوروا بملء رضاهم في الشرور. إننا قلما نشفق على الذين شنقوا ذواتهم أو ألقوا بنفوسهم في المهاوي من علو شاهق أو انتحروا بحدّ السيف، كذلك لا تهزّنا الشفقة على مثل هؤلاء المترفين. وإذا كان لا بدّ من العفو فأرى أن أولئك الذين انتحروا ولو تعذَّر جداً الصفح عنهم ربما كانوا بالصفح أولى. فقد تكون الوشايات أو الخسائر الزمنية أو توقّع النوائب والمصائب أو الخوف من أيّ شدّة أخرى قد دفعهم إلى التخلّص من شرور أعظم فبحثوا عن السلوان في حتفهم واعتصموا بالموت اعتصامهم بملجإٍ منيع وبادروا إليه مبادرتهم إلى ميناء هادئ هرباً من عواصف الدهر المتوقعة. أما الآخرون فقد استسلموا، ولا مبرّئ لهم إلى حياة أمَرّ شقاء من ميتات كثيرة قاسية. وما أولانا أن نتمثل في هذا الصدد بكلمة الحكيم القائل: «من يرحم راقياً قد لدغته الحية أو يشفق على الذين يدنون من الوحوش؟» (سيرا ١٢: ١٣) ان اللذة لهي وحش مفترس، هي وحش هائل غير مروَّض. ما من عقرب ولا حية تستقرُّ في أحشائنا وتعيث في نفسنا فساداً على قدر ما تحدث فيها محبة اللذات من الانقلاب والهلاك. ان الوحوش لا تؤذي إلا الجسد، أما محبة اللذات فمتى تأصلت أهلكت النفس مع الجسد. ولذلك يتحتم علينا الهرب منها. اني أُكلمكم كما يُكلَّم العقلاء: ان وجدتم فيها بعض المنافع فانبذوا نصائحي ولا تتقيّدوا بها، ولكن ان كنت قد قلت لكم الحق، أي إن كانت محبة اللذات طاعوناً فتّاكاً وعاراً ليس بعده عار فاشفقوا على قوة جسدكم وعلى صحة نفسكم.

لا أروم أن أدفعكم إلى انتحال الحياة القَشِفة إن كنتم لا ترغبون فيها. حسبنا أن نتجرّد مما فضل عنا وان ننزع ما يتجاوز احتياجنا. أيُغْتَفَر لنا سعيُنا وراء فواضل العيش بينما غيرنا لا يملك ما يقوم بأوده؟ فلنكتفِ بالطعام الذي لا يُلحق بنا أذىً، أي بما يسكّن جوعنا دون أن يضرَّ بصحتنا، ولا نتطلَّب فوق ذلك. بل إني أتجرأ وأنطق بهذه الكلمة الصادقة ولو بدت غريبة ومخالفة للرأي العام: إن كنا نبتغي اللذة فنحن أحرى بأن نجدها في القناعة مما في التنعّم والترف. اسمعوا فافهمكم كيف ان لذّة القناعة أعظم وأقرب منالاً من لذّة التنعّم: إن بغية التنعّم لا تستطيع أن تقف عند حد ولا يملأُ شهوتها صنف من أصناف المآكل. وأما القناعة فتكتفي بأبسط الأطعمة. ومن يؤكد لنا هذا الأمر؟ – رجلٌ تنعّم بكل أنواع الملاذ وهو الحكيم القائل: «النفس الشبعى تدوس الشهد وللنفس الجائعة كل مرّ حلو» (ام ٢٧ : ٧) أفرأيتم كيف أن القليل مهما كان يكفي القناعة بينما لا يرضي الشراهة شيء على الاطلاق؟ إذا كرهنا أقراص العسل فماذا يلذّ لنا من بعد؟ وإذا كنا نجد أشهى المآكل تافهاً فأي مأكل يطيب لنا؟ إذن إن كنا نبحث عن اللذة فأخلق بنا أن نجدها في القناعة.

وفضلاً عن ذلك أليس من الجنون المطبق أن نُعرِض عن المائدة التي يرضى الله عنها والتي تولينا اللذة والصحة وكل الخيرات لكي نهيئ مائدة أخرى طافحة بالمصائب تتولّد عنها الكراهية والكآبة والأسقام وتستثير علينا سخط إلهنا، وهو أمر أشد ثقلاً من كل ما تقدّم؟ إذا صحَّ أن «الأرملة المترفة قد ماتت وإن كانت حية» (١ تي ٥ : ٦) كما يقول بولس الرسول، فماذا نقول عن الرجال المترفين؟ وإذا كان النبي في العهد القديم قد حكم بمنتهى الشدّة على الافراط في التنعّم وحمل على المتنعمين حملةً جدّ عنيفة، مع ان التنعّم الذي ندّد به لم يكن مفرطاً في الإسراف ولا بلغ حدَّ التخنُّث، إذ قال: «ويل لكم أيها المترفون! ... إنكم تأكلون الحملان من الغنم والرضَّع من العجول وتشربون الخمر المروَّقة وتدهنون بالأدهان النفيسة وتضجعون على أسرَّة من عاج وتتبسّطون على حجالكم» (عا ٦ : ٤ – ٦)، إذا كان مثل هذا السلوك قد استوجب اللوم أيام كانت العواطف والأفكار جسدية ولم يكن من يهتم بالسماء، أيام كانت الشرائع اليهودية هي دستور التهذيب، فماذا أقول عن ترف عصرنا؟ إذا كان النبي يقرّع معاصريه لسبب رخاء وترف معيشتهم لأنهم يأكلون الحملان والعجول الرضيعة فماذا أقول عن الذين يستقصون أعماق البحار ويجوبون أطراف الأرض ليجمعوا لأنفسهم من جميع الأماكن كل صيد نفيس من الطيور والأسماك؟ إذا وجَّهَ

المذمّة إلى الشاربين الخمر المروَّقة فما أقول عن الذين يجتازون البحار في طلب المسكر ويبذلون أقصى الجهود لئلا يفوتهم صنف من عصير الكرمة، فكأنهم يخشون أن يحلَّ بهم القضاء المُبرَم أو أن يعاقبوا شرَّ عقاب إن لم يملأوا جوفهم من كل أصناف الخمرة؟ إذا كان استعمال أسرَّة من عاج يستوجب الدينونة فالذين يُغَشُّون أسرتهم بالفضة الكثيرة وبأولى حجة الذين يصوغون من الفضة الخالصة لا أسرَّتهم فحسب بل المقاعد والأوعية والقِصاع، أيُّ معذرة لهم؟ أي كلمة، صغيرة أم كبيرة، يتلفّظون بها يوم يُناقشون الحساب؟ وما يزيد في الطين بلَّة ان هذا الزهو قد يكون ناتجاً عن مصائب الآخرين. لم يفترض النبي هذا الظرف الجديد بل اكتفى بذم الترف بالإجمال. لكن عندما يُضاف إلى الترف ذنب آخر أعظم ثقلاً فمن ينجي مرتكبيه من العقوبة التي لا عقوبة بعدها؟ أي نوحٍ أم أي أيُّوبٍ أم أي دانيالٍ يقف للاحتجاج عنهم؟ لا أحد على الاطلاق! بل تُنفَّذ في أولئك المساكين آية الكتاب: «يتلهّب غضبي كالدخان» (أش ٦٥ : ٥). قولوا لي ناشدتكم الله ألا يحق له أن يمتلئ من الغضب ويتميّز من الغيظ الشديد إذا كان غيركم لا يذوق الطعام الضروري وأنتم تصوغون أواني من الفضة في ما لا طائل تحته حتى وفي ما لا يفيدكم ظهوراً واعتباراً؟ أجل إن ذلك الإسراف يا صاح لا يوليك مجداً ولا عزةً بل ينقلب إلى عكس ما تروم. وبما انك تأتيه بغيةً في المجد والعزّة فستُسام الخسف والهوان. إنك لا تعظم في نظر الناس بل جميعهم يقذفونك بغلاظة الكبد والبخل وشرّ المعايب. كم يحسدونك وكم تتلظّى صدورهم عليك! كم يمقتونك ويتمنون أن تتحوَّل عنك النِعَم! أما التجاديف على الله التي يسبِّبُها مثل أولئك الأغنياء فلا أتكلم عنها مع أنها أشدّ فظاعة من كل تلك الأضرار! ولعمري لو تفحصتَ كل الأضرار التي ذكرناها والتي كان يمكن أن نذكرها لتحيرتَ في أيها أكثر خبثاً وشناعة!...

ان المائدة التي تسود فيها القناعة لا يسخر منها النبي ولا يعيبها البشر ولا يرذلها الله وليست عاقبتها النار وما من أحد يحسدها أو يمقتها أو يغار منها. فالله راضٍ عنها والملائكة يشتركون فيها والبشر يمتدحونها والسماء تتقبّلها. على مثل هذه الموائد قبل الملائكة الضيافة، وإلى مثلها جلس المسيح لا إلى مثل تلك المذكورة آنفاً. على مثال هذه كانت موائد الأنبياء والرسل والأبرار. أما موائد الظالمين والأشرار من أغنياء الأرض الحافلة بالراقصين وغيرهم ممن هم ضربة البشرية فإنما هي موائد لصوص وسحرة وناقبي قبور!.. فعندما تهيِّئ مائدة على شاكلتها يهرب الملائكة ويسخط الله، أما رئيس

الشياطين فيرقص طرباً، وليس أعداؤك وحدهم هم الذين يرتدّون عنك ويبغضونك ويذوبون حسداً بل أولئك الذين تظن أنهم مخلصون لك فإنهم وقتئذٍ يتأكلون حسداً أكثر مما يتلذّذون بالمآكل الشهية الموضوعة أمامهم. ولكن إن أعدَّ أحدكم وليمة حافلة بالقناعة وكفاف القوت، خالية من مظاهر الكبرياء والصلف، فانها تلذ وتطيب لجميع الأصدقاء: لله والملائكة والبشر. وإليها يُقبل ابن الله الوحيد. فكما انه يبتعد عن كل زَهو وكبرياء وضوضاء فهو يصادق المتواضع ويُعينه دائماً ويعزّيه ويحصِّنه من كل جهة. ومتى حضر المسيح فلا نحتاج إلى أن نفتش عن غيره. وإذا ما عرفنا ذلك أيها الأحباء فلنهرب من التنعّم والترف ولنسعَ وراء القناعة لننال الخيرات الحاضرة والمستقبلة، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له يجب كل مجد وكرامة مع أبيه وروحه القدّوس الآن ودائماً وإلى دهر الدهور. آمين.

ترجمة الأب غريغوريوس غصان المخلصي

٣
عِظَة
مقابلة بين مدينتين

كان بوصويت يحثّ أرباب المنابر على قراءة الذهبي الفم أبي الخطباء المسيحيين «وأفصح من علّم الكنيسة»، ولقد وقف على هذه الفكرة الجديدة البديعة فبنى عليها خُطبةً رائعة البيان دِفاعاً عن «مكانة الفقراء السامية». وهو يسمي في مطلعها وُعّاظ الإنجيل «محامي الفقراء الحقيقيين». فان صحَّ قول الخطيب الفرنسي فخطيب الكنيسة الشرقية هو قُطب هؤلاء المحامين، لأنه ليس من خطيب أحبَّ شعبه ودافع عن فقرائه بأكثر جرأةً وحماسةً وفصاحةً من الذهبي الفم الذي يدعو الفقراء «قطيعه الخاص». وهذا شاهد يغني عن شواهد.

«ان الحاجة لا تقصر في الفقراء إلى الأغنياء بل الأغنياء أيضاً هم في حاجة إلى الفقراء، وحاجة أهل الثراء إلى ذوي العوَز أكثر من حاجة هؤلاء إلى أولئك.» ولكي يظهر لكم الأمر بأجلى وضوح، فلنتمثل إن شئتم مدينتين الواحدة يؤلفها الأغنياء والأخرى الفقراء، ولا يبقَيَنَّ في مدينة الأغنياء فقير، ولا في مدينة الفقراء غني، بل فلنميز كلتيهما تمييزاً تاماً ولننظر أي

المدينتين يمكنها أن تستغني بذاتها. فان وجدنا أن مدينة الفقراء تستطيع ذلك، يكون قد استبان أن الأغنياء هم أمسُّ حاجة إلى الفقراء.

لا يكن إذن في مدينة الأغنياء عامل من العمَّال، فلا بنَّاء، ولا نجار، ولا إسكاف، ولا خبّاز، ولا فلاَّح، ولا حدّاد، ولا حبَّال، ولا صاحب مهنة من هذه المهن لأنه مَن مِن الأغنياء يرضى بأن يزاول هذه الصنائع في حين أن أصحابها أنفسهم بعد اغتنائهم لا يقوون على احتمال مشقتها فكيف تستقلُّ هذه المدينة بذاتها؟ يقول قائل: ان الأغنياء يبذلون الفضة ويبتاعون حاجاتهم من الفقراء. – إذن فما هم في غَناء إن كانوا في حاجة إلى أولئك. ولكن كيف يشيِّدون المنازل؟ ألعلّهم يبتاعون ذلك أيضاً؟ ان الطبيعة لا تُغِلُّ لهم بيوتاً! فها ان الضرورة دفعتنا إلى أن ندعو ثمّة العمال وأن نفسد ما وضعناه من النظام للمدينة التي أنشأناها. وتذكرون ان قلنا لا يبقَيَنَّ فيها من فقير بيد أن الحاجة قد استدعتهم عن غير رضانا وأدخلتهم إلى تلك المدينة. من ذلك يتبيَّن أن مدينة الأغنياء لا يمكنها القيام بدون الفقراء وان أصرَّت على أن لا تقبل أحداً منهم فهيهات أن يدوم لها بقاء بل هي صائرة إلى البوار. فهي إذن لا تستغني بذاتها إلا أن يُدخَل إليها الفقراء فيخلّصونها.

وهاتِ ننظر مدينة الفقراء لنرى هل يُلمّ بها نفس العوز إن هي حرمت من الأغنياء. وقبل كل شيء لنصفِّ كلمة الغنى ولنجلُ غامضها. فما ترى الغنى؟ هو الذهب والفضة والحجارة الكريمة والثياب الحريرية والبرفيرية والمدبَّجة بالذهب. واذا كان ذلك هو الغنى فلننبذه من مدينة الفقراء، إن شئنا أن تكون المدينة خالصة منقَّاة. بل لا يتراءَينَّ هنالك حتى في أحلام الليل، لا الذهب ولا الديباج، وان شئتم فلا الفضة ولا الأواني الفضية. فماذا يحصل، قولوا لي؟ أتحسبون أن أهل تلك المدينة يمسّهم الضيق بسبب ذلك الحرمان؟ كلا إذ لا يُحتاج في البناء إلى الذهب والفضَّة واللآلئ وإنما الحاجة إلى صناعةٍ وأيدٍ ولا أعني الأيدي فحسب، بل الأيدي الحاذقة، وإلى بنانٍ خشِنة وقوَّة كثيرة وإلى خشب وحجارة، كذلك نسج الثياب لا يُحتاج فيه إلى ذهب وفضة وإنما إلى حِذق وأيدٍ ونساءٍ نشيطات. وفي حرث الأرض وعَزْقها أَإلى الأغنياء حاجتنا أم إلى الفقراء؟ – إلى الفقراء كما هو بديهيٌّ. وفي تطريق النحاس وعمل ما شاكل ذلك لا بدَّ أن نُسنِد حاجتنا إلى هؤلاء القوم. وبعد فما حاجتنا إذن إلى الأغنياء؟ إلا أن يخطر لنا وجوب هدم المدينة؟ لأنه إذا دخلها هؤلاء فربما اندفع أولئك الحكماء (وأُسمِّي حكماء أولئك الذين لا يرغبون

في نوافل المعيشة) وراء شهوة الذهب والجواهر مسلمين نفوسهم إلى البطالة والرفاهية فيخسرون كل الأشياء.»

ترجمة الأب كيرلس حداد
المخلصي

٤
عِظَة
لا يكسرنَّكَ الفقر ولا يبطرنَّكَ الغنى

لقد لزمت السكوت ردحاً طويلاً فأرجع من جديد إلى محبتكم. ولم يكن هذا الإحجام عن الكلام لضعف ووهن طرأ على الجسم بل لإزالة الاضطراب ولتهدئة الأمواج، وتسكين العواصف، وإنقاذ الغرقى، ومدّ يد المساعدة للذين على شفير الهبوط ودفعهم إلى الميناء والأمان. لأني أبٌ للجميع، لا أعتني فقط بالواقفين بل بالواقعين، ليس فقط بالمدفوعين بالهواء النقي المناسب بل أيضاً بالمصدومين بالعواصف، ليس فقط بالناعمين بالأمان والسلام بل أيضاً بالمداهمين بالأخطار، لأجل هذه الأسباب، تركتكم وذهبت لاستعطف الحكّام بكل ما عندي من الوسائل لإنقاذ أحبائنا من الموت الذي كان يترصّدهم.

وبما أن نصيبهم كان محزناً جداً، رجعت إليكم أنتم الراتعين في السكينة والسلام المبحرين تحت سماء صافية وفي بحر ساج. ملتُ نحوهم لأُبعِد عنهم العاصفة الهوجاء، والآن أشخص إليكم لئلا تدهمكم تلك العاصفة نفسها، أسرعت إليهم لكي أنتشلهم من الأحزان والأكدار وطرتُ إليكم لكي لا تتعرَّضوا لمثلها. لا يليق الاعتناء بالواقفين فقط بل بالساقطين أيضاً. وهكذا أرجع من جديد إليكم أنتم الذين لم تزلَّ أقدامهم بل لا يزالون واقفين. بادرنا إليهم لننهضهم فيخلصوا من الأخطار الملمّة بهم ثم عدنا إليكم لنقيكم من السقوط في المصائب التي تتوقعكم.

لا شيء ثابت، لا شيء باقٍ في أمور البشر، فإنها أشبه ببحر ثائر يلد كل يوم الأمواج المزبدة الصخَّابة. في كلِّ شيء، تثور الاضطرابات والضوضاء. في كل شيء

تكمن المعاطب والمزالق ، كل شيء صخور على جمام الماء ، في كل شيء تنبض المخاوف والأخطار وتثور الظنون الباطلة والمغاضبات والمنازعات فلا أحد يثق بآخر ، كل واحد يخشى جاره . وقد حضر ، كما أظن ، الزمان الذي كُتب عنه قائلاً : «لا تأمن صديقاً ولا تثق بصاحب ، واحفظ مداخل فمك من التي تنام في حضنك» (ميخا ٧ : ٥) لِمَ ذلك يا ترى؟ لأن الزمان خبيث «فليتحذَّرْ كل واحد من قريبه ولا يتّكل على أحد من إخوته ، فإنّ كل أخ يتعقَّب أخاه وكل قريب يسعى بالنميمة» (ارميا ٩ : ٤). فلا صديق يوثق به ولا أخ تأتمنه على نفسك. لقد طُمر كنز المحبة الثمين ، والجميع يوقظون الفتن الأهلية من مكامنها ، فتن دهماء تكمن في الظل ولا تظهر للعيون. هنالك الألوف من الأثواب المستعارة ، وألوف من جلود الحملان تختبئ في غلائلها الذئاب الخاطفة. ان العيش بين الخصوم الناقمين لأكثر أمناً من العيش بين أصدقاء يترصّدون حتى يضعوا يدهم على الخناق. أولئك الذين كانوا بالأمس يوقروننا ويداهنوننا ويلثمون باحترام مكلَّف أيدينا قد انقلبوا فجأة أعداء لنا. طرحوا الثوب المستعار وغدوا أشد فتكاً من كل مقاوم ، أولئك الذين كانوا يعترفون بأفضالنا وصنائعنا ها هم اليوم يشبعوننا زجراً ويحاطوننا بالمثالب الشنيعة السافلة.

فما السبب في كل ذلك يا ترى؟ هي محبة الأموال وهيجان عشق الفضة ، ذاك الداء الذي لا دواء له ، الأتون الذي لا تخبو له نار ، ذلك الطغيان الذي يضغط على العالم بأسره . لذلك لا نكفُّ عن ترديد أقوالنا السابقة ، ولو ندَّد الكثيرون بنا وقالوا : ألا تنتهي من تصويب لسانك على الموسرين وذوي الأموال؟ ألا تكفّ عن محاربتهم في كل آن؟ — أأنا حاربتهم؟ أو أنا تسلّحت عليهم؟ ألم أُوجِّه كل أقوالي وكل أعمالي إلى خيرهم وفائدتهم بينما كانوا يحدّدون سيوفهم إلى ذواتهم؟ ألم يوضح الاختبار كيف اني بالتقريع والتوبيخ كنت أطلب دوماً خيرهم ، وان أكبر أعدائهم هم الذين كانوا يأخذون علينا كلامنا السابق؟ أنظروا كيف أن دوران الأمور يحقق أقوالنا. ألم أُكرّر دائماً أن الغنى هو عبد آبق يذهب من هذا إلى ذاك؟ ولكن يا ليت انه يهرب ولا يورث الموت ، يا ليت انه ينصرف ولا يسبّب القتل ! انظروا كيف جرَّدهم من نصرته وأسلمهم إلى السيف وقد قادهم إلى الهوّة لأنه خائن لئيم وأعدى أعداء أخلاَّئه . هو عبد عاق قاتل لا قلب له ، وحش لا يمكن ترويضه ، هوَّة زَلِقة ، صخرة تتحطم عليها الأمواج دون انقطاع ، بحر تتقاسمه الأهوية الكثيرة ، طاغٍ ظلوم متجبِّر ، سيّد أقسى من كل المتوغلين في الهمجية ، عدوّ لا يُهادَن ، محارب لا يقبل صلحاً ولا ينفكّ بغضه يتعالى على الذين يقتنونه.

أما الفقر فليس كذلك بل هو على نقيض ما ذكر. فهو الملجأ المنيع، الميناء الهادي، الأمان الغير المشوب بكدر، السعادة الخالية من الأخطار، اللذّة الصافية، الحياة الساكنة، العيش الساجي، فيض خير لا ينضب مجراه، أُمُّ الحكمة الحقيقية، لجام الغضب، ضمانة من العذاب، ملاذ التواضع. فقل لي بحقّك إذن كيف نَفُرُّ من وجهه ونسير وراء العدو القاتل الذي هو أشد افتراساً من جميع الوحوش؟ تلك هي محبة الأموال، ذلك هو هيجان عشق الفضة. كيف تساكن بدون انقطاع مَن لا يكفّ عن عدائك؟ كيف تحرّش الوحش الواجب ترويضه؟ قد يقول أحدكم: إذن كيف يصبح أليفاً إن لم نروِّضه؟ – ليتكم تحتملون كلامي قليلاً ولو كنا وسط هذا الدمار المحدق بنا والشدائد التي تكتنفنا وتقلّبنا بين غمرات الاضطراب والشجن. كيف يتحول الوحش الضاري فلا يكون وحشاً بعد؟ في يدنا أن نحوِّله تحويلاً تاماً إذا شئتم. أجل إلى هذا الحد تصل قوة الكلام. تسألوني كيف تتغيّر سليقته؟ فلنتقصَّ الأمر جيداً. ما سبب افتراسه يا ترى؟ انه كالأسد والنمرة والدبَّة، تستيقظ شرّتها ويضطرم غضبها عندما تكون مسجونة في أقفاصها والليل يغمرها بظلماته. هكذا المال المُغلق عليه والمستور في الخفاء، فإنّ زئيره وزمجرته أشدّ هولاً من زئير الأسد وزمجرته. ولكن اذا استخرجته من أدغاله المظلمة وأفرجت عنه ووزّعته في أحضان البائسين، فالوحش المفترس ينقلب حملاً وديعاً، وناصب الفخاخ أميناً، وصخرة العثرة ميناء، وهياج البحر سكينة. وهذا ما نراه أيضاً في السفن الجارية على الماء، فانها عندما توسق بثقل يتجاوز حملها ترسب هابطة إلى درك البحر، ولكن عندما تحمل الحِمْل المناسب فانها تجري بطمأنينة وأمان. كذا يصير في بيوتنا إذا حشد فيها المال فوق الحاجة، فهبّة ريح خفيفة، وظرف غير منتظر من الأمور الغير المتوقّعة يغرقان الناس مع المركب، فان اذخرت من الأموال على قدر ما تتطلب حاجتك فانك تقوى على العاصفة وتجري دون خشية على الأمواج. لا تشتهِ إذن النافل لئلا تحرَم من كل شيء، لا تجمع الزائد عن الحاجة لئلا تفقد ما لا غنى لك عنه. لا تتعدَّ الحدود الموضوعة لئلاَّ تُجرَّد من كل الأشياء معاً. ولكن احذف الفائض لكي تكون في بحبوحة يوم الضيق. ألا ترى كيف أن حارث الأرض يقضب الكرمة حذر أن تضيع القوة في الأوراق والأغصان، بل تسري إلى الأصل لتظهر في النبتة. افعل هذا نفسه، اقطع الأوراق واصرف كل قوّتك لحمل الأثمار، وإن لم تقبل مشورتي ففي أيام السعد توقّع الشقاء، وفي صحو السماء انتظر العواصف الشديدة، وفي الصحة توقّع الداء، وفي الغنى الفقر والعوز. فقد قيل: «في وقت الشبع اذكر وقت الجوع، وفي أيام الغنى اذكر الفقر

والعوز» (سيرا ١٨ :٢٥) فان كنت مستعداً لذلك فانك تسوس كل غناك بحذق ومهارة ، واذا أقبل الفقر تكون متأهباً لقبوله بعزم لا يُفَلّ. ان الشر غير المتوقّع إذا حلَّ يطرحنا في الاضطراب والحيرة ، لكن الشرّ المستدرك قلّما يرمي النفس في الاضطراب. وبذلك تكسب فائدتين: فلا تسكر ولا تبطر في صفو العيش ، ولا تضطرب ولا تيأس عند تقلُّب الأمور ولكن تقف إزاءها ثابت العزم ، لأنك تترصّدها من زمن طويل. فان الانتظار يعفي غالب الأحيان من اختبار الشدّة. وقصارى الكلام: أأنت غني. انتظر الفقر كل يوم. لماذا ، وما سبب ذلك يا ترى؟ لأن هذا الانتظار يضمن لك الفوائد العظيمة. فمن يتوقّع الفقر لا يتجبَّر بغناه ولا ينتفخ ولا يتّقح ولا يميل إلى الرخاء ولا يتأكّل جشعاً إلى أموال غيره ، لأن زواجر الخوف تكون له مثل مؤدّب يرشده ويقوِّم عقله ، ولا يدع بذار محبة الفضة الرديئة تنبت فيه ، لأن خوف الفقر يكون له بمثابة منجل يَجُذُّ أصولها.

هذه الفائدة الأولى التي تكتسبها ، والفائدة الأخرى لا تقلُّ عن تلك أهمية هي أن لا يتسرَّب إلى قلبك الفشل والحزن عند ورود الفقر والعوز. فاسبق إذن وانتظر الشدّة حذار أن تنقضَّ عليك المحنة المرَّة ، لأن المحنة تهاجم الإنسان إذا لم يقابلها بالانتظار ، فإن أصلح الإنسان نفسه بتوقّع الشدّة فالمحنة لم تعد ضرورية. وشاهد هذا هو النبي يونان وأهل نينوى. فعندما آمن هؤلاء بنبوءة النبي عن الكوارث الموشكة أن تحلَّ بهم هدَّأُوا غضب الله بتوقّعهم تلك الشرور. وأما اليهود فإذ لم يصدّقوا أقوال الأنبياء المنذرة بخراب أورشليم حُمِّلوا أفظع الدواهي. «الحكيم يخشى ويجانب الشرّ والجاهل يتعدَّى ويثق» (أم ١٤ :١٦) فمن يعتقد أنه سيضحي فقيراً في أيام سعادته لا يفتقر بالحقيقة ، لأن ما لم تشأ أن تكسبه من الانتظار فالمحنة تعلِّمك إياه جيداً فانتظر الفقر في غناك. وفي أيام الخصب العوز والجوع ، وفي أيام المجد قوارص الخزي ، وفي حالة الصحة انتظر السقم تأمل جيداً في طبيعة الأشياء الأرضية انها ليست بأكثر ثباتاً من مجرى الأنهار ، ولا أقلَّ زوالاً من الدخان المذرى بالهواء بل هي أكثر وهناً من الظل العابر. فاذا فهمت ما أقول ، فلا قبل للسعادة والغبطة أن تنفحك ، ولا للعوز والشقاء أن يكتسحك. إن لم تكن شديد التعلُّق بالخيرات الحاضرة فلا تتلهَّف على ضياعها عندما تتسرَّب من يديك. إذا وطَّنت نفسك على انتظار الشدائد فغالباً لا تفد إليك ، وإذا أتتك فتأثيرها يكون خفيفاً جداً.

ولكي تعرف أني غير واهم فيما أقول ، أقصُّ عليك حكاية قديمة: كان رجل عجيب عظيم تترنَّم به المسكونة بأسرها وتتناقل اسمه جميع الألسنة هو أيوب السعيد الذكر مجاهد

التقوى وبطل العالم المكلّل، الذي نزل في كل المعارك وظهر على الشيطان بألوف من الغنائم. لقد كان موسراً فنزلت به الفاقة، كان مجيداً فصار خاملاً، كان له أولاد فحُرم منهم، كان متنعِّماً في قصور فخيمة ملكية وبعد ذلك طُرح على المزبلة، كان يلبس الثياب الفاخرة فاَسْتَأْكَلَهُ الدود، كان له كثير من الخدم فأصبح لا يلاقي من كثرتهم غير كثرة الوقاحة وغمط الإحسان، ومن الأصدقاء غير التوبيخ والتنديد، ومن رفيقة حياته غير نصب الأشراك. لقد أُجريت عليه الخيرات في أول عهده كمِن ينبوع غزير: فيض في الخيرات، وعَظَمة في السطوة، ووفورٌ في الجاه، سلام واحترام وعافية في الجسم وعزاء الأولاد وهذه دون أن يشوبها انزعاج ما. كان الأمان مرافقاً غناه، وسعادته معزّزة الجانب. ولا غرو فان الله حوَّطه بسياج من كل جهة. ثم ما عتمت أن اضمحلَّت كل تلك الخيرات، فالعواصف الكثيرة هاجمت بيته لتثلَّ أركانه إذ كانت تتوالى عليه دون انقطاع وبكل ما فيها من شدّة وسورة. كل شيء نُزع من يديه فجأة: خَدَمُهُ، بنوه، كلهم صعقوا بموت مُداهِمٍ فظيع جداً، لا بسيف ولا بخنجر ولكن بزوبعة خبيثة هدَّت أركان البيت فسقط عليهم، وامرأته قرعته دون حياء وصوَّبت إلى هذا الصديق كل آلات حربها، وقام بعض الخدم والأصدقاء فبصقوا في وجهه على حد ما قال: «لم يحتشموا أن يبصقوا في وجهي» (أيوب ٣٠: ١٠) والآخرون هجموا عليه فطردوه من بيته وها هو يعيش على المزبلة وينابيع دود تتدفّق منه. غرقت بالدم والصديد تلك الماسة الجميلة! ها هو يفتش عن خزفة يحكّ بها جراحه، فقد صار جلاَّد نفسه. ألمٌ يعقب ألماً، وأوجاع تعقب أشدّ منها، وليل أكثر مرارة من النهار، ونهارٌ أشدُّ رعباً من الليل كما يقول هو نفسه: «إذا أضجعت قلت متى أقوم وبعد انقضاء الليل أشبع بلبالاً إلى الغسق» (أيوب ٧: ٤) فهو مكتنف من كل جهة بالمزالق والعثرات والشرور، وليس من معزٍّ بل بعكس ذلك أُناس يصمونه بالشكاية والعار، ومع ذلك فقد جابه كل العواصف والزوابع الصعبة بقلب شهم وبأس قهّار. والسبب في هذا كله ما قلته سابقاً، لما كان غنياً كان ينتظر الفقر، وفي وقت الصحة يتوقّع المرض، وكان يفكر عند مشاهدته أولاده انه ربما يمسي مفصولاً عنهم. كان يحفظ هذا الخوف في خلايا قلبه وينعشه وقت الاضطراب بتأمله في جوهر الأمور البشرية وسرعة زوالها، لذلك قال: «لأن ما كنت أخشاه قد غشيني وما فزعت منه قد رهقني» (أيوب ٣: ٢٥) فقد كان موجهاً كل أفكاره إلى هذا الخوف، منتظراً قدومه لا بل راجيه، لذلك لما طرَقَه لم يوقعه في الاضطراب: «لم يكن لي طمأنينة ولا قرار، ولا راحة وقد داهمني الاضطراب» (أيوب ٣: ٢٦) لم يقل: يدهمني الاضطراب،

وليس لي الآن طمأنينة ولا قرار ولا راحة ، بل قال : لم يكن لي طمأنينة وقد داهمني الاضطراب في كل الزمان الغابر . إذا كان النجاح في الأمور يسوِّل لنفسي الكبر والمجد فإن توقُّع الفقر يؤرق سكينتي : إذا كان الغنى يجذبني بقوة إلى الرخاء فان مرارة المصائب كانت تقتل راحتي. عبثاً كانت تجرّني السعادة إلى اللذة ، انتظار الويلات المقبلة كان يخنقها في مهدها . وبما أنه كان يفكر بهذه الأقوال احتمل كل كوارث الدهر بشجاعة الأبطال ، وحاز الغلبة في القتال ، لأنه سبق وتأهب له فلم يضطرب عند مشاهدته عن كثب . ولكي تعلم أنه لم يتعلّق قطُّ بالأموال الحاضرة فهو نفسه يقول لنا ذلك : «هل جعلت الذهب معتمدي أو قلت للإبريز أنت متكلي ، هل فرحت بأنَّ غناي جزيل وأنَّ يديَّ قد أصابت وفراً» (أيوب ٣١ : ٣٤ – ٣٥) فما تقول أيها الرجل؟ ألم تنعم بكثرة غناك؟ لا لعمري ، لأني عرفت أن فيضانها غير ثابت وامتلاكها لا يدوم «نظرت إلى الشمس وقد أشرقت ثم كُسفت وإلى القمر وقد اكمدَّ ضياؤه» (أيوب ١ : ٣٦ حسب الترجمة السبعينية) . وإليكم تفسير ما يقول : إذا كانت كواكب السماء المتلألئة دون انحجاب تسام بعض التحوُّل ، والشمس تكسف والقمر يخسف فكيف لا يكون جنوناً مطبقاً ظنُّ الأشياء الأرضية المنقلبة ثابتة لذلك لم يكن يطرب بها كثيراً إذا حضرت ولا يحزن بافراط إذا ولّت لأنه كان يعرف جيداً طبيعتها الواهية .

فاذا طرقَت آذاننا هذه الأمور ، أيها الأحباء فلا يكسرننا الفقر ولا يبطرنّنا الغنى ، بل بين تقلُّب الأمور لنحفظ عقلاً ثابتاً فنقتطف ثمرة الحكمة الحقيقية ونجني السعادة من ههنا ، وبعد ذلك السعادة المقبلة . فإن شاء الله يكون ذلك لجميعنا بنعمة ومحبة الرب إلهنا يسوع المسيح .

ترجمة الأب غريغوريوس غصان المخلصي

٥
عِظَة
الصلاة

ان الصلاة للنفس هي بمثابة نور الشمس للجسد. فإذا كان من البليَّة للأعمى أن لا

يبصر الشمس ، فما أفدح بلاء المسيحي إذا لم يدمن الصلاة ويجذب بها نور المسيح إلى نفسه. ولكن مَن الذي لا يدهش ولا يقضي العجب من رأفة الله التي يبديها نحونا ، عندما يجود على الناس بشرف الصلاة والتحدُّث إليه؟ أجل اننا لَنخاطب الله في وقت الصلاة التي بها ننضم إلى الملائكة ، ونسمو عالياً فوق العجماوات.

ان الصلاة لهي عمل الملائكة بل هي تفوق قدرهم ، من حيث أن مخاطبة الله تفوق استحقاق الملائكة. وهذا التفوُّق هم أنفسهم يظهرونه لنا لفرط ما يشملهم من الرهبة في تقديمهم صلواتهم ، معطيننا مثلاً لنرى ونتعلّم ، عندما ندنو من الله ، أن نفعل ذلك بفرح وخوف: أما الخوف فلأنَّا قد نكون غير أهل للصلاة ، وأما الفرح فلأنه يجب أن تملأنا البهجة من عظمة هذا الشرف ، أن يؤهَّل أُناس مائتون لمثل هذه العناية ، فيغتبطون بمحادثة الله دوماً وبها يرتفعون فوق المنيَّة والفساد. إنَّا ولو كنا بطبعنا مائتين ، فإنَّا بمحادثة الله ننتقل إلى حياة خالدة ، إذ من اللازم أن الذي يتحدث إلى الله يغدو أشدّ من الموت وكل فساد. فكما أن الذي يتمتع بشعاع الشمس لا شك هو ناجٍ من الظلام ، كذلك الذي يتنعَّم بمناجاة الله هو ضرورة فوق الموت. وان عظم هذا الشرف نفسه ليسمو بنا إلى الخلود. فإن كان محدثو الملك ، المغتبطون بشرفه ، لا تصل إليهم الفاقة ، فبالأحرى كثيراً المصلُّون والعبّاد لا يجد الموت إليهم سبيلاً ، لأن موت النفس هو الكفر والحياة في الإثم.

ان حياة النفس هي عبادة الله والسير فيها على ما يحق. والحال أن الصلاة هي التي ترد الحياة فاضلة على ما يجدر بعبادة الله وتخزن لنفوسنا جزيل الاستحقاقات. فسواء أُغرمتَ بالبتولية ، أو آثرت العفاف في زواج كريم مقدس ، أو أردت أن تستأصل الحقد لتعيش في الوداعة ، أو تقتل الحسد ، أو تمارس فضيلة من الفضائل ، فإن كانت الصلاة هي مرشدك ، فانها تمهِّد لك الطريق فتجري في ميدان التقوى بأكثر سهولة. لأنه من المستحيل أن يطلب أحد إلى الله العفاف أو البرارة أو الوداعة أو اللطف ولا يُستجاب. قال المخلص: «اسألوا فتُعطوا ، اطلبوا فتجدوا ، إقرعوا فيُفتح لكم. لأن كل من يسأل يُعطى ، ومن يطلب يجد ، ومن يُقرَع يُفتح له» (مت ٧:٧). ويقول في محل آخر: «مَن منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ، أو سمكة فيعطيه حية؟ فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تعطوا الصالحات لأبنائكم فكم بالأحرى أبوكم السماوي يمنح الروح القدس لمن يسأله؟» (لو ١١:١٣).

بمثل هذه الأقوال والمواعيد يحثّنا رب الجميع على الصلاة. فعلينا أن نمتثل لقول الله ونعيش دوماً في التسابيح والصلوات ، وأن نكون أشدّ تعلُّقاً بعبادته مما بنفوسنا. وعلى هذا

النمط نحيا هذه الحياة على ما يحق بالرجال العقلاء، من حيث أن الذي لا يصلي ولا يشتاق إلى المناجاة الإلهية هو ميت لا شعور فيه ولا تفكير. وخير دليل على الحماقة تجاهل شرف الصلاة الباذخ، وقلّة الغرام بها، وأن يفوت الإنسان أنّ موت النفس في ابتعادها عن تقوى الله. فكما أن جسمنا عند رحيل النفس عنه يمسي ميتاً منتناً، كذلك قلبنا إن لم تحيِه الصلاة كان ميتاً وشقياً منتناً.

بدون معونة الله لا يدخل البر نفوسنا. بيد أن معونة الله تشاطرنا أتعابنا، وتخففها بلطف، إن هي رأتنا نرغب في الصلاة، ونلجأ أبداً إليها، ونرجو بهذه الوسيلة نيل الصالحات كلها. إذا رأيت أحداً لا يحب الصلاة وغير كلف بها، استدللت بالبرهان الواضح أن لا شرف في تلك النفس. وإذا شهدت أحداً مفتوناً بعبادة الله لا يملّ من الصلاة بين خطوبه الجمّة الفادحة، علمت أنه بطل جريء في كل فضيلة، وانه هيكل حي لله. فإن كان «لبسة الرجل وضحكة الأسنان ومشية الإنسان تخبر بما هو عليه» (سي ١٩ :٢٧)، كقول الحكيم، فبالأحرى كثيراً عبادة الله هي علامة تقوى عظيمة. ان الصلاة لهي حلّة روحية إلهية تنشر على نفوسنا البهاء والجمال، وترتِّب سيرة كل واحد، ولا تأذن لعاطفة دنيَّة مشوّشة أن تتحكَّم، وتحقق لنا احترام الله والشرف الذي يعود علينا منه، وتؤدبنا إلى مجانية خِدَع الشرير كلها وطرد الأفكار الرديئة الخسيسة، وتسمو بكل نفس إلى سامي الرغائب. تلك هي الكبرياء الفذّة التي تجدر بعبَّاد المسيح، أن لا يتعبَّدوا أبداً للعار، بل أن يصونوا نفوسهم في الحرية وطهارة السيرة.

وانه ليستحيل، كما أعتقده بيِّناً للجميع، أن يعيش أحد بالفضيلة ويتقدّم في الحياة من غير صلاة. فكيف يمارس أحد الفضيلة وهو لا يقصد، ولا يسجد غالباً لمن يسخو بها ويوزّعها؟ وكيف يرغب أحد العفاف والبرارة، وهو لا يتحدث إلى من يتطلب منا هذه الفضائل وجماً غيرها؟ وأريد أن أُبيِّن لكم باختصار أنَّا لو كنا فائضين خطأً ففي إمكان الصلاة أن تنقذنا وتطهرنا بأسرع ما يكون. وبعد فهل أعظم من الصلاة وأكثر سموًّا، وهي الدواء الناجع لأمراض النفوس؟ إنَّا لنرى أهل نينوى يُنقذون بالصلاة من آثام جسيمة أجرموا بها إلى الله. فمنذ ما حازتهم الصلاة، ردّتهم صديقين، وانتزعت المدينة في لمحة من القهر والجور والمعاصي التي كانت غارقة بها. انها أقوى من العادات المستحكمة. فقد سنّت الشرائع الإلهية وغرست فيها العفاف والرحمة والوداعة والعناية بالفقراء، هذا الموكب الذي بدونه لا تحلّ الصلاة في نفس. انها تملأ النفس التي تحتلّها

من كل برّ وترشدها إلى الفضيلة ، وتقتلع منها كل رذيلة ، حتى لو دخل أحد المدينة بعد أن كان يعرفها ، لما عرفها يومئذٍ لسرعة تحوّلها عن حياة الفجور إلى انتحال التقوى والعبادة. فكما ان امرأة فقيرة متّشحة بأسمال بالية لا تُعرَف بعدئذٍ إذا شوهدت حالية بالديباج ، كذلك كل من عرف نينوى في سابق عوزها ، وهي فاقدة الكنوز الروحية ، لا يدري أهي تلك المدينة التي استحلتها الصلاة فحوّلت أخلاقها وحياتها إلى سيرة التقوى.

ترجمة الأب ايزيدور أبو حنا المخلصي

٦
عِظَة
الكِبَر والتواضع

فدعاهم يسوع وقال لهم: «علمتم أن الذين يحبّون رؤساء الأمم يسودونهم وعظماءهم يتسلّطون عليهم ، أما أنتم فلا يكون بينكم هكذا ، بل مَن أراد أن يصير عظيماً فيكون لكم خادماً.» (مر ١٠/٤٢) إذن ، لا تخف أن تضيّع مجدك بتواضعك. فبالتواضع ترتفع أكثر من قبل. إن التواضع باب الملكوت السماوي. فلماذا تسير نحو الباب المعاكس. لماذا تتسلّح ضد نفسك؟ إن شئت أن تكون عظيماً فلا يكون ذلك. إن كانت عظمتك عن طريق الكبر فلا بدَّ لك من السقوط. فإذا لم تطلب العظمة كنت عظيماً لأن العظمة تأتي من التواضع.

إن عظمة التواضع هي العظمة الحقيقية لأنها لا ترتكز على الكلام والألقاب. فالذي يترك الكبرياء يكون عظيماً ، والذي يتّصف بها يكون صغيراً ولو كان سيّداً. ان المجد الذي يأتي عن طريق العنف والقسر لا يلبث أن يضيع. أما المجد المرتكز على الأعمال الصالحة فهو ثابت لا يتزعزع ولن يزول. لذلك نحن نكرِّم قدّيسي الله الذين ارتفعوا على الجميع بتواضعهم ولم يستطع الموت أن ينزع مجدهم عنهم.

لنثبت هذا ببراهين معقولة: اعتاد الناس حسب الاصطلاح أن يدعوا العالي مَن كان كبير الجسم وطويل القامة أو كان واقفاً في مكان مرتفع. والوطيء مَن كان على العكس. فلنبحث مَن هو العالي الحقيقي. أهو المتكبِّر يا ترى أم المتواضع؟ اننا نثبت جيداً أن لا

شيء أعلى وأرفع من التواضع ، ولا شيء أدنى وأوطأ من الكِبَر. المتكبر يرى نفسه أعلى من الجميع ولا يجد أحداً معادلاً له مهما سما ، لأنه يطلب المزيد ويحتقر الآخرين ، ويطلب منهم أن يجلُّوه ويحترموه. فيا للجهالة ! ما أبعد غرضه عن العقل السليم ، انه يطلب الاحترام ممن لا يحترمهم ولا يعدّهم شيئاً ، وهكذا بهذا الارتفاع الزائف يهبط إلى الحضيض. وبعدم اعتباره غيره يكشف عن شخصه ويدلّ على أن الأخلاق السيّئة صفة المتكبرين ! أما الكبير الحقيقي فيحترم الآخرين ولا يتكبَّر عليهم ويعدّ احترامهم إياه أمراً عظيماً. وبهذا يكون كبيراً حقًّا. ولبعده عن الشهوات الرديئة لا يطغى عليه الغضب ، ولا يتظاهر بالرفعة ، ولا يأكله الحسد والغيرة. فهل من نفس أرفع من هذه النفس المنزّهة عن الصفات الرديئة؟

أما المتكبِّر فعكس ما ذكر ، لأن نفسه ثائرة بالحسد والبغض والغضب. فمن هو المتكبر الحقيقي؟ أذلك الذي تناله الشهوات ولا تتسلّط عليه؟ أم الذي يكون عبداً لها فيضطرب ويرتعد منها؟

أي هو الطائر المحلِّق في الفضاء؟ أذلك الذي يطير فوق سهام الصياد أم الذي يهبط إليها لعجزه عن الارتفاع؟ هكذا المتكبِّر يقع في أول أحبولة لميله إلى الهبوط إلى الحضيض ، وعكسه المتواضع الذي يرتفع إلى ما فوق الشمس ويحلِّق في طبقات الجوّ تاركاً الملائكة وراءه حتى يقترب من عرش إله المجد.

ثم لكي نبين حقارة المتكبرين نسأل مَن هو المحتقر يا ترى؟ أذلك الذي يقدّم ذبيحته أمام العليّ ، أم ذلك الذي لا يجسر أن يتقدّم إليه؟ وقد تقول : ما هي ذبيحة المتواضع ؟ فأُجيبك بقول مرنِّم المزامير : «الذبيحة لله روح منسحق. القلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله» أترى طهارة المتواضع ؟ انتبه جيداً لرجاسة المتكبّر ! ان كل ذي قلب متعجرف لا يبرر أمام الله ، ناهيك أيضاً بأن المتواضع مسكن لله. أما المتكبر فيتعذّب مع إبليس لأن عذاب المتكبر كعذاب إبليس. وهكذا يحصل المتكبر على عكس ما يريد أن يتكبر حتى يحصل على الفخر والاعتبار فيمسي عرضة للهزء والاحتقار. فهل من حالة أتعس من الحالة المذكورة؟ نعم انها لشرّ مستطير ! ان المتواضع يرضي الله وهو محبوب ومغبوط ويتمتع بثقة البشر لأنهم يحترمونه كأب ، ويحبّونه كأخ ، ويقبلونه كأعزّ الناس لديهم.

لا يكره الله شيئاً كالكبرياء. لذلك ، منذ البدء ، عمل على إبادة هذه الخصلة الذميمة من البشر ، التي بسببها نموت ، ومن أجلها نعيش في غور البكاء ، ونصرف حياتنا

بالتعب والمشقات، فلا يجدينا الكِبَر شيئاً بل يسلبنا ما لدينا. فالإنسان الأول وقع في الخطيئة بالكبرياء لأنه أراد أن يكون معادلاً لله فأضاع ما كان عنده. أما التواضع فلا يسلبنا شيئاً بل يزيدنا نعمةً وخيراً. لنَسِرْ إذاً إثر التواضع حتى نسمو ونسعد في حياتنا ونحصل على المجد الآتي بنعمة سيدنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذي له مع الآب والروح القدس المجد والملك والشرف والسجود من الآن وإلى دهر الداهرين.

الأب الياس كويتر المخلصي
(عن المخطوطات المخلصيّة)

٧
عن الصلاة أيضاً

١ – الله يعرف لماذا نصلي

الله يعرف الساعة بالضبط التي إذا ما أعطانا فيها الشيء يكون حينئذٍ ذا نفع لنا. الطفل يصيح ويحتجّ ويغضب ليأخذ السكين. ومحبة الأبوين تأبى إعطاءه إياها. هكذا الرب يعاملنا مثل هذا، فهو يعطينا أحسن مما نطلب.

إذا أخذنا ما نطلبه أو لم نأخذه يجب أن نبقى في الصلاة. ليتنا نشكر الله ليس فقط حينما نأخذ ولكن حينما لا نأخذ أيضاً. لأننا لا نعرف ما هو الصالح لنا بل الله. لذا يجب أن نعتبر الأخذ وعدم الأخذ نعمة متعادلة ونشكر الله من أجل هذه وتلك.

٢ – الصلاة نور النفس

الخير الأعظم هو الصلاة، أي التكلُّم بدالَّةٍ مع الله. الصلاة علاقة بالله واتحاد به. وكما أنَّ عيني الجسد تُضاءَان عند رؤية النور، كذلك النفس الباحثة عن الله تستنير بنوره غير الموصوف. ليست الصلاة مظهراً خارجياً، بل من القلب تنبع. لا تُحصَر بساعات وأوقات معيّنة، بل هي في نشاط مستمر ليل نهار. فلا يكفي أن نوجِّه أفكارنا إلى الله وقت الصلاة فقط، بل يجدر بنا أن نمزُجَ هذه الأفكار بذكر الله تعالى، حين نكون

مشغولين بأمور أخرى، كالعناية بالفقراء والعمل الصالح، لكي نقدّم لسيِّد الكون غذاءً شهيًّا مُصلَحاً بملح محبة الله.

الصلاة نور النفس، المعرفة الحقيقية لله، الوسيطة بين الله والإنسان. بها ترتفع النفس إلى السماء، كرضيع مع أمه. تصرخ الصلاة إلى الله، باكية، عَطشى إلى اللبن الإلهي. وإذ ما تظهر أشواقها الحميمة، تتقبَّل من الله هدايا أرفع من كل طبيعة منظورة. الصلاة التي بها نتقرَّب إلى الله باحترام هي فرح القلب وراحة النفس...

الصلاة تقودنا إلى الينبوع السماوي، تملأُنا من ذاك الشراب، وتُجري منّا ينبوع ماءٍ ينبع للحياة الأبدية. الصلاة تؤكّد لنا الخيرات الآتية، وبالإيمان، تُعرِّفنا المعرفة الفضلى للخيرات الحاضرة. لا تَظُنَّ أن الصلاة تقتصر على الكلمات، إنها اندفاع إلى الله، حبٌّ غريب لا يأتي من البشر، على قول الرسول: «الروح أيضاً يعضُدُ ضعفَنا، فإنَّا لا نعلم ماذا نصلي كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا تُوصف»...

إنَّ هذه الصلاة، إذا وهبَها الله لأحد، تُضْحي غِنًى لا يُسلَب وغذاءً سماويًّا يُشبعُ النفس. مَن ذاقَها تملَّكه شوق أبدي إلى الله، كنارٍ آكلةٍ تضرم القلب.

فَدَعِ الصلاة تتفجَّر منك بملئِها، فتزيِّنَ بلطافة وتواضع مُخدَعَ قلبك وتجعله ساطعاً بضياء الحَق، مصقولاً بالأعمال الصالحة.

جَمِّلْ بيتك بالإيمان والنُبلِ لا بالفُسيفساء، وضَعِ الصلاة في أعلى البنيان فيكتمل بها. وهكذا يصبح منزلك أهلاً لاستقبال الرب، كَأنَّه قصرٌ ملكيّ، أنت الذي، بالنعمة، تملك الرب، على نحوٍ ما، في هيكل نفسك.

٣ – لماذا نصلي؟

رُبَّ قائل: «إن كنت بارًّا، فما حاجتي إلى الصلاة، فالبرارة تهديني إلى الصواب، والمستجيب عالمٌ بما أحتاج إليه».

– لماذا نصلي؟ لأنَّ الصلاة هي أسمى رُبُطِ المحبة التي توثِّقنا بالله: إذ تعوِّدنا محادثته وتَهدينا إلى محبة الحكمة الحقيقية. فإذا كان مَن يعاشر نبيلاً رفيع الأخلاق، يجني أعظم الفوائد، فكم بالأحرى من يلازم معاشرة الله الكلي الكمال؟

إن شئت أن يُغفَر لك فاغفر أنت لغيرك.

٤ – الصلاة وأبعادها الحقيقية

تسقط في الأحزان كل نفس ذليلة قليلة الثقة بالله. مثل السوس الذي لا يصيب إلاّ اللّيِّن من الخشب، كذلك الأحزان لا تقوى إلاّ على المسترخين من الناس.

الصلاة سلاح عظيم، كنز لا يفرغ، غنى لا يسقط أبداً، ميناء هادئ وسكون ليس فيه اضطراب. الصلاة هي مصدر وأساس لبركات لا تحصى، هي قوية وقوية للغاية.. الصلاة مقدّمة لجلب السرور...

حينما تصلي ألا تتحدّث مع الله. أي امتياز مثل هذا؟

الصلاة تحوّل القلوب اللحمية إلى قلوب روحانية، والقلوب الفاترة إلى قلوب غيورة والقلوب البشرية إلى قلوب سماوية.

ليس شيء أقوى من الصلاة، لا شيء يعادلها. ملكٌ مزيَّن بالأرجوان ليس بهيًّا كرجل يصلي متزيِّناً بحديثه مع الله. أُشبِّه ذلك بإنسان دخل ليحدِّث الملك بحديث خاص معه في حضرة كافة أفراد الجيش من ضباط وقوّاد وذوي الرُتب الرسمية المختلفة. فالجميع سيرمقونه بنظرة إكبار وإجلال. هكذا الذين يصلُّون. تصوَّر إنساناً يدخل بشجاعة وإقدام ويتقدّم في حضرة الملائكة والسيرافيم والشاروبيم وكل القوّات غير المتجسدة ويقترب من ملك هذه القوات جميعاً ويتحدث معه. أي شرف هذا.

إذا لاحظت أن إنساناً لا يحب الصلاة فاعرف في الحال أن ليس فيه شيء صالح بالمرّة. فالذي لا يصلي لله هو ميت بالروح وليس فيه حياة.

لا شيء يقدر أن يجعلنا ننمو في الفضيلة مثل المداومة على الصلاة بكثرة فهي تهيّئ لنا حياة العِشرة مع الله.. بالصلاة يكتسب القلب الشرف والأمانة ويترفَّع عن أمور الدنيا ليتَّحد مع الله بالتدريج فيصير روحانياً مقدساً.

«من الأعماق صرخت إليك يا رب» (مز ١٣٠/٨).

ما معنى من الأعماق. انها ليست الشفتين أو مجرّد تحريك اللسان التي تخرج دون أن يكون للفكر أو القلب نصيب فيها. انها صلاة عمق القلب ومن أساسات النفس بحرارة شديدة وغير متّقدة. مثل هذه الصلاة تستقيم صاعدة أمام الله بشدّة وبأس ولا يمكن أن تتزعزع أو تطيش حتى ولو هاجمها الشيطان بكل ما أُوتي من جراة ووقاحة. لكن تلك الصلاة الهزيلة التي تخرج من الفم فقط، التي يكون مبدأها اللسان ونهايتها الشفتين، هذه

لن تصل إلى الله لأن القلب لم يشترك فيها. وكل من يصلي هكذا فهو الذي تتحرك شفتاه، وقلبه فارغ وعقله بليد متكاسل.

(عن المخطوطات المخلصية القديمة)

٨
الصوم

١ - الصوم الحقيقي

إنَّ من الواجب علينا أن نعرف مقاصد أصوامنا، فلا نكون كالتائهين في البحر، يتوهَّمون أنهم إلى المدينة قاصدون، وهم في متَّجهٍ آخر هائمون. فإنْ قلتَ: ما الصومُ في الحقيقة، أهوَ غير الامتناع عن الطعام وقتاً محدوداً؟ قلتُ: الصوم هو الإمساك عن جميع الرذائل والتمسُّك بجميع الفضائل، بمنع النفس عن اللذّات البدنية كالأطعمة والأشربة وسواها. وعلى ذلك قول الله لبني إسرائيل، إذ كانوا يظنُّون أن الصوم هو الامتناع عن الطعام حتى الليل فقط، ثم يُقبلون على الطعام يأكلون ويشربون. فيُبكِّتهم الله قائلاً: ها سبعونَ سنة مرَّت، ألعلَّكم صُمتم لي فيها صوما، يا إسرائيل، وإن أكلتم وشربتم، أفلستم أنتم تأكلون وتَشربون؟

ليس الصوم أن يضع الإنسان نفسه ويَحني عنقَهُ ويفترشَ له مِسْحاً ورماداً، بل أن تَحُلَّ أغلال الإثم، وتقطَعَ رُبُط الظلم، وتُجانب المكر والغِش، وتُعتِق المستعبَدين، وتكسر خبزك للجائع، وتُـؤْوِيَ الغريب إلى بيتك، وتُنصِف الأيتام والأرامل، ولا تتغاضى عن لحمك ودَمِك. فإنْ تفعل ذلك، فيشرق نورُك في الظلمة، ويظهر بِرُّكَ سريعاً، وينفجر ضياؤُكَ مثل الصبح، وتجمع كرامةُ الربِّ شملَكَ، ويدبِّرُكَ الله تدبيراً صالحاً، وتشبع نفسك من الخِصْب، وتصير كالبستان الذي تموجُ أغصانه نَضِرةً، وكينبوع الماء الذي لا ينقطع. وتبني من خيراتك الخِرَبَ التي خَرِبَتْ منذ القديم، وتقيم الأساس الذي سقط من أوائل الزمان.

فإذا كان هذا قولُ الله لأُولئك الذين مواعيدهم جسدية، فما عساه يقول لنا؟ وإذا كان لم ينظر إلى أصوامهم سحابة سبعين سنة لخلوِّها من هذه الفضائل، فكيف يُبالي

بأصوامنا؟ وإلى مثل هذه أشار ربُّنا، قال: إنَّ الصوم مع الصلاة يخرج الشيطان. فسبيلُنا أن ننهض من غفلتنا ونحافظ على الأصوام المرْضيَّة لإلهنا، لنفوز بنعيم ملكوته، الذي له المجد إلى الأبد. آمين.

٢ – في الصيام الليتورجي

لا تصوموا في الوقت الذي يصوم فيه المُراؤُون. إنهم يصومون في يومَي الاثنين والخميس من الأسبوع. أمَّا أنتم، فصوموا إمّا خمسة أيام، وإمّا يومَي الأربعاء والجمعة: لأنه في يوم الأربعاء صدَرَ الحكم على الربّ، وقبض يهوذا ثمن الخيانة ليُسلِّمَه؛ وفي يوم الجمعة احتملَ الربّ آلام الصلب بأمر بيلاطس البنطي. وأَقيموا العيدَ يومَي السبت والأحد، لأنَّ الأول ذِكرٌ للخَلْق والثاني للقيامة. يجب أن تحافظوا على سبت واحد في كل سنة، هو السبت الذي كان فيه الرب في القبر، فصوموا في هذا اليوم ولا تُعيِّدوا. فاليوم الذي كان فيه الخالق تحت الثرى هو يوم بكاء ونواح، ولا يحسن فيه الابتهاج والعيد، لأنَّ الخالق يفوق جميع خلائقه في الطبيعة والإكرام.

وصوموا أيضاً أيام الفصح (أسبوع الآلام) مبتدئين من الإثنين إلى التهيئة والسبت، ستة أيام تستعملون أثناءها الخبز والملح والبقول والماء للشرب. وامتنعوا عن الخمر واللحوم في تلك الأيام لأنها أيام حزن وليست أعياداً. صوموا يومي الجمعة والسبت معاً، مَن استطاع. لا تأكلوا شيئاً حتى صياح الديك في الليل، وإذا لم يستطع أحد أن يصوم اليومين معاً فليحافظ أقلّه على السبت لأن الرب يقول عن نفسه في موضع: متى يُرفع العروس عنهم فحينئذٍ يصومون في تلك الأيام.

العظة ٤٧

(المخطوطات المخلصيّة القديمة)

٩

اغفروا بعضكم لبعض

«هكذا سيعاملكم أبوكم السماوي إن لن يعفُ كلٌّ منكم عن أخيه من صميم قلبه».

إذا أنعمنا النظر في هذا المثل، نجد فيه إفادةً عظمى. في الواقع، هل يضاهي غفراننا لأمثالنا غفران الله لنا؟ نحن نعفو عن أمثالنا من عِباد الله، أما الله عينُه فيعفو عنّا نحن عبيده.

انتبه إلى هذه النقطة: ليس مكتوباً «إن لم تغفروا للناس زلاَّتهم» وحسب، بل «إنْ لم يغفرْ كلٌّ منكم لأخيه زلاَّته من صميم الفؤاد». لاحظْ كيف يريد المسيح أن يرتاح قلبنا بالسلام والطمأنينة، وتبتعد روحنا عن كل قلق، محرَّرة من الشهوات، وأن نُظهِرَ للقريب خالص المودَّة.

الجدير بالذكر ما قالَه المسيح في ظرفٍ آخر: «إنْ لم تغفروا للآخرين زلاَّتهم، فلن يغفر لكم الآب السمٰوي زلاَّتكم». فلا نزعمنَّ إذاً أننا نمنُّ على غيرنا بعفونا عنهم، فالإفادة هي لنا نحن. وان أبينا العفوَ عنهم فلا يلحقُ بهم أي ضرر، بل بذواتنا، إذ نهيِّئُ لنا عذاب الجحيم الهائل.

فأرجوكم تفهُّمَ هذه الحقيقة، لكي نتناسى تماماً ما سبَّب لنا الناس من ظلمٍ وألم ومشقَّة. لنتحاشَ الحقد. لنعتبر أنَّ لنا في الغفران مكسباً أعظم، فضلاً عن طمأنينة النفس التي تنجم عنه، حينما نمْثُلُ أمام الديّان الأسمى. فلنعلم خاصة اننا، بمصالحتنا لمن أساؤوا إلينا ننال الغفران عن خطايانا الشخصية.

، الأب الياس كويتر المخلصي

(عِظَة على مثَل الوزنات، ٧)

١٠

خوف الذهبي الفم من الخطيئة

ضاق القيصر أركاديوس ذَرعاً من البطريرك يوحنا، لما كان يأخذ عليه من مظالمه للرعية، وتهاونه في أمر الفقراء، فصاح غضباً أمام نفر من أهل بطانته «ألا أنتقم لنفسي من هذا الأسقف؟» فأراد بعض هؤلاء أن يتزلّفوا إليه بنصحهم فقال الأول: اقذف به إلى قاصيات المنافي حتى لا تلمح قط صورته! وقال الثاني: احجز جميع أمواله! وقال

الثالث : اطرحه في غياهب السجن مثقَّلاً بالقيود ! وقال الرابع : أوَلست السيد المُطاع ؟ أذِقه كأس المَنون وانعم بموته بالاً ! فقال الخامس ، وهو أشدّهم مكراً ودهاءً : لقد فال رأيكم جميعاً ، فليس ما ذكرتم في شيء من الثأر والتنكيل . فإن بعثتموه إلى المنفى ، فالأرض كلها وطنه ، وان زججتموه في السجن ، فانه يقبِّل قيوده ويعدّ نفسه سعيداً ، وإن قضيتم عليه بالموت ، فتحتم له أبواب الجنَّة . أيها الملك ، أفتريد أن تثأر لنفسك منه ؟ احمله على ارتكاب الخطيئة . اني لأعلم أنه لا يخشى المنفى ، ولا خسارة الأموال ، ولا النار ، ولا الحديد ، ولا العذاب ، ولا ملمَّة من ملمَّات الدهر مثل الخطيئة !

فلقد أصاب هذا الخبيث ، ولا شك انه استمد حكمته هذه من مواعظ أسقفه ؛ فليس شيء يهول خطيب النصرانية مثل أمر يفصله عن محبة المسيح . برهان ذلك حملاته الشديدة المتواترة على الخطيئة ، وتحذير المسيحيين من شرورها الجسيمة . في عظته الخامسة لأهل انطاكية يقول : «ليس بين نوائب البشرية أهول من نائبة الخطيئة . لا الفقر ، ولا المرض ، ولا الشتيمة ، ولا النميمة ، ولا العار ، ولا الموت المزعوم أشد الشرور بأسرها . فإنْ هذه للرجل الفطين العاقل إلاّ أسماء مجازية لا حقيقة لها . أما الداهية الدهياء فهي إهانة الله وعمل ما يسوءُ مرضاته تعالى . »

وفي رسالته الأولى إلى صديقته القديسة أولمبية يقول : «لا يهِ رجاؤك يا أولمبية فليس ما يهول سوى رزيئة فذَّة هي الخطيئة . ولا أكف عن ترداد هذه الكلمة لك ؛ وكل شيء ما عداه فإنما هو خرافة باطلة . سواءٌ المكايد ، أم العداوة ، أم الغدر ، أم الخيانة ، أم الإهانة ، أم الشكاية ، أم الحجز ، أم الجلاء ، أم السيوف المحدَّدة ، أم البحر الثائر ، أم قيامة الدنيا بأسرها . فمهما تكن هذه النوازل عظيمة البطش فانها وقتية وإلى زمن قصير تصيب الجسم البالي ولا تصير إلى النفس بأذى . »

أما محبة الله فيتكلم عنها «ان الذي خلبت فؤاده محبة الله ، لا يعود يفرّق بين نعمى الحياة وبؤسها . قد شغلته فكرة الوصول إلى وطنه ، فهو يمرّ بها غير آبه لشيء منها ؛ كالذاهب على وجهه ، لا تأخذ عينه أحداً ممن يصادفه ولو التقى الجماهير العديدة . لأنه شغل بسعيه ، فتناسى كلَّ شيء ليصل في أقرب آن إلى غايته ؛ كذلك من يسير سيراً حثيثاً في سبيل الفضيلة ، ويحفزه الشوق إلى العبور من هذه الأرض إلى السماء ؛ يطيب نفساً عن الأرضيَّات ويذهل عن كل أمر من المنظورات ، ولا يتريّث ، ولا يقف إلا إذا رأى نفسه على قمَّة الجبل . فالرجل الذي قد ملأ جنانه مثل هذه العواطف الأبيَّة ، يزدري كلَّ ما يبدو للعالم صعباً هائلاً ؛ فلا يخشى الحديد ، ولا النار ، ولا المهاوي ، ولا أنياب الوحوش الضارية ، ولا الأعذبة الجسيمة ، ولا قسوة الجلاَّدين ، ولا شيئاً مما يُتصور من كوارث الدهر المشؤومة . انه يمشي على الجمار المتّقدة ، كأنما على ورود لطيفة ؛ وان نظره إلى أشد العذابات

هولاً لا يعوق جريه ولا يكسر عزيمته لأن غرامه بالخيرات المستقبلة يتحمَّله وينسيه ان له جسماً ؛ ونعمة السماء الغامرة لنفسه تشلُّ سائر أهوائه الطبيعية وتمنعه أن يشعر بلذعاتها الشديدة.

«إني لأَحضُّكم يا اخوتي أن تضرموا في قلوبكم محبة عظيمة لله يمكنكم أن تتحمَّلوا بسهولة ما يلازم الفضيلة من الشدائد. فاذا ما شغلتم بفكرة سفركم إلى السماوات فلا يثنِ همَّتكم حادث من حادثات الدهر الحاضر ؛ ولكن تنبَّهوا ؛ أمل أن تفوز نفوسكم بامتلاك الخيرات السامية في الدهر الآتي. تجلَّدوا في مقاساة شرور ورزايا هذي الحياة من غير أن يغمَّكم العار أو يكسركم الفقر أو تثبطكم الأمراض أو تزعزع غيرتكم في الفضيلة احتقارات وشتائم الناس بأجمعها. انفضوا عنكم هذه الملمات كهبوات زريّة واملؤوا صدوركم من كل عاطفة كريمة نبيلة وأروا نفوسكم في كل حال جديرة بالإيمان الذي آمنتم به.»

ترجمة
الأب ايزيدور أبو حنا المخلصي

١١
عِظَة
الصَدَقَة

لقد وافيتُ اليوم لأقوم بعمل رسالة يليق بمهمة خدمتي الرسولية، وهو ذو شأن ويستحق أن تُرعوه كل انتباهكم. وافيْتُ باسم الفقراء الذين يقطنون مثلكم هذه المدينة العظيمة. إنهم لم يتفوّهوا بخطاب ولم يجتمعوا في مؤتمر ولا مجلس شورى، بل إنّ مشهد بؤسهم وحده قد خاطب قلبي بكفاية. فعند اجتيازي في الشوارع والساحة العمومية إلى هذا المقام أبصرتُ جمعاً غفيراً من البؤساء يتوسَّدون الأرض بعضهم مقطوعو الأيدي وبعضهم عميان وغيرهم قد انتشرت على أبدانهم القروح وبثورٌ مستعصية على الشفاء وقد عرضوا على كل الأبصار أعضاءهم التي كان يجب عليهم أن يستروها، وهي من حالة الكراهية والإرتجاف في حيث أوصلها بؤسها وشقاؤها. فإذ سكتُ عن محادثتكم بهذا الشأن يا إخوتي، كان ذلك السكوت فظاظة خالية من الرحمة والإنسانية. ولا سيما وإنّ عارضة الزمان الحاضرة تُنشئ لنا منها سُنَّةً شديدة الإلحاح للعمل بها.

فإذا فُرِض علينا في كل وقت أن نحرِّضكم على الصدقة لأنه في كل وقت نحن في حاجة إلى رحمة المعلِّم العامّ الذي خلقنا. فكم يجب علينا ذلك التحريض بأشدّ لهجة في الفصل البالغة قوةُ بَرْدِه كالفصل الذي نحن فيه الآن؟ في الصيف يُعين الفصلُ عينه الفقراء فيستطيعون أن يمشوا عراةً دون أن يتعرَّضوا لخطر لأنَّ أشعّة الشمس تدافع عنهم أذى عُرْيهم فيمكنهم النوم على الحضيض بغير حذَر من الضرر؛ فلا يحتاجون إلى الحذاء ولا إلى الخمر ولا إلى الطعام الوافر. ويكفيهم أن ينقعوا غليلهم من ماء الينبوع، وبعض الأعشاب هي طعامهم الساذج الذي يمكن الفصلُ أن يقدّمه لهم. وعندهم تعزية أخرى لا تقلُّ عن ذلك وهي أنَّ لديهم وسائل أوفر لأن يعملوا.. فالذين يُعنَون ببناء البيوت والذين يحرثون الأرض والذين يخوضون البحار هم في حاجة إلى سواعدهم. إنَّ للأغنياء عوناً من بيوتهم وحقولهم وما يرثونه من أهلهم تلك تكفل لهم وجودَهم وأما الفقراء فلا ريعَ لهم إلاّ ما يُكسبهم عمل أيديهم. وفي الصيف يمكن أن يجدوا أيضاً غير ذلك من وسائل الانتفاع. وأما في الشتاء فكل شيءٍ يُعلِن عليهم حرباً. ففي الداخل جوعٌ يأكل أحشاءَهُم وفي الخارج بَرْدٌ قارس يجمِّد أعضاءَهم ويُخمد فيها كل شعور. فهم يحتاجون وقتئذٍ إلى غذاءٍ أوفر وإلى ثياب أكثر تدفئة وإلى مأوى مسقَّف، وإلى فراشٍ وأحذية وألفِ حاجة من غير ذلك. أشدُّ ما يُحزِن من حالتِهم في الشتاء أنّ زمهريرَ الفصل القارس يحول دونَ ما يستطيعون من العمل. فإن كانت حاجاتهم وقتئذٍ تتضاعف إذ لا ينالون من العمل ريعاً بما أنه لا أحد يكلِّفهم خدمة. فنحن نرجو من الجميع أن يُمِدُّوهم بما ينقصهم من وسائل الحياة، وللمدِّ إليهم يداً عطوفاً ولنستعنْ في توسُّطنا هذا، الطوباوي بولس هذا الأب الحنون والمعين الأعظم للفقراء والمعروف أكثر من كل الباقين بغيرته في خدمة المساكين. فهو ولو أنّه اقْتسمَ بينه وبين بطرس الشعوب الذين حملوا إليهم بشارة الإنجيل. فهذا الإقتسام لم يكن من أَرَبه الاهتمام بالفقراء، ولكنّ القدّيس بولس بعد أن قال: «مدَّ يعقوب وكيفا ويوحنا المعتبرونَ كأعمدةٍ إليَّ وإلى برنابا يُمناهم للشركة، لنكون نحن للأُمم وهم للختان» (غلاطية ٢: ٩) أضاف إلى كلامه هذا قوله: «على عهدٍ واحد أن نتذكّر الفقراء وقد اجتهدتُ في إنجازه.» ففي كلّ رسائله يتحدّث عن الصدَقَة حتى لا رسالة إلاّ يوصي فيها بهذه الفضيلة. لقد كان يعلم، أجل كان يعلم أهميّةَ وقدر هذه الفضيلة. لذلك السبب يختتم كل ما يوجّهه إلى المؤمنين من توصيات. هذا هو الجناح العجيب الذي يكلّل بناءً بالغ الجمال. وهكذا في مساق كلامه الذي يَشغَلُنا. فبعد أن يتكلم عن

قيامة الموتى وبعد أن ينظِّم بقية الأمور كلّها ينتهي بذِكر الصدَقَة. إليكم كيف يعبِّر عنها: «وأما ما يُجمَع للقديسين فكما أوعزتُ إلى كنائس غلاطية كذلك فاصنعوا أنتم أيضاً. في أول كل أسبوع ليعزل كل أمرئ منكم ما عنده ويخزنْ ما وفِّق إليه لئلا يكون الجمع عند قدومي إليكم. فمتى حضرتُ فالذين تستحسنون أُرسِلهم برسائل ليحملوا إحسانكم إلى أورشليم.» (١ كور ١٦ : ١ و ٣).

فتأَمَّلوا في فطنة الرسول ومبلغ اعتنائِه بالتحريض على الصَدَقة. فلقد بدأ بأن وضَع نُصْب عيون المؤمنين مشهدَ الدينونة المستقبلة ومجلس القضاء الرهيب والمجد الذي يلبسه الأبرار في حياةٍ خالدة. ثم يأتي على ذِكر الصدَقَة حتى إنَّ سامعيه إذ يتأثرون خشيةً وإذ يهتزُّون ارتياحاً وتعزيةً بما يتوقَّعون من خيراتٍ يدّخرها الله لهم، وإذ هم مُفعمون من الأماني السعيدة، يقبلون كلامه بأشدّ شوق ومبادرة إلى العمل به. ولا شكَّ في أنَّ مَن يتأمل في ما يتبع القيامة الأخيرة وينتقل بمجمل كيانه إلى ما بعد هذه الحياة يرى خِسَّةَ ما في الدنيا من أشياء، كوفرة الغنى ورفاهية العيش والذهب والفضَّة واللذائذ والثياب الفاخرة والموائد الحافلة بأخاير الطعام. وكلٌّ من يعرف أن يزدريها يكون أوفر استعداداً لمواساة البؤساء المعوزين. ولِذاكم السبب بعد أن هيّأَ القديس بولس عقول المؤمنين بتأملات مفيدة في قيامة الموتى قدَّم لهم نصائحه في الصدَقَة ولم يَقُلْ: «مهمَا يُجمع من الصدقات للفقراء والمعوزين، بل قال: «وما يُجمَع للقديسين». فهو شاء أن يعلِّم سامعيه أن يوقِّروا الفقراء إذا كانوا يحيون حياة مسيحية، وأن يحتقروا الأغنياء العائشين في حياةٍ ذات شرّ. فالسلطان المعادي لله ليس هو في نظره إلاَّ دنِساً ويسمّي الفقراء قديسين حينما يضيفون الحكمة إلى الاعتدال. فهو يسمّي نيرون «سرَّ الإثم» حيث يقول: «إنَّ سرَّ الإثم قد أخذ في العمل» (٢ تسالونيكي ٢ : ٧).

وأما الذين يُعوزهم الطعام الضروري حتى ليرجونه من شفقةِ الشعب ورحمتِه فيصفهم بأنهم قدّيسون. وفي الوقت نفسه يقدّم أمثولةً سرّية للأغنياء، فيعلِّمهم أن لا تنفخهم الكبرياء، وأن لا يعتزُّوا أبداً بالحكم كأنهم يؤآسون كوائن مرذولة، بل فليكونوا على يقين من أنفسهم بأنَّ لهم شرفاً عظيماً بأن يكونوا قضاة أهلاً لأن يشاطروا الفقراء ما هم فيه من عناء الكرْب.

ولكنما الآن مجالٌ للبحث عما يريد القديس بولس من اسم القديسين. لأنه لا يُقتَصر من الحديث عنهم في هذا الموضع بل يذكرهم في غيره أيضاً. قال في رسالته إلى مؤمني رومة: «أمّا الآن فأنا منطلق إلى أورشليم لأخدم القديسين لأنه قد حسُنَ لدى أهل مكدونية وأخائية

أن يوزِّعوا صدقةً على فقراء القديسين الذين بأورشليم» (رومة ١٥ : ٢٥) والقديس لوقا يتكلّم في سفر أعمال الرسل عن هؤلاء القديسين أنفسهم حين كانوا مهدَّدين بمجاعة شديدة، قال: «فعزم التلاميذ بحسب ما تيسَّر لكلٍّ واحدٍ منهم أن يرسلوا خدمةً إلى القديسين الساكنين في أورشليم وقد كانوا في أشدّ العَوَز» (ف ١١ : ٢٩) وفي المساق الذي ذكرناه مقدَّماً يقول القديس بولس: «لنكون نحن للأمم وهم للختان على عهدٍ واحد أن نتذكَّر الفقراء وذلك قد اجتهدْتُ في إنجازه.» (غلاطية ٢ : ٩ و١٠) فهو يريد أن يقول: حينما اقتسمنا الشعوب بيننا فخُصِّصتُ للأُمم وأخذ بطرس اليهود قِسماً له، إتفقنا فيما بيننا على نظامٍ واحد أن لا يُسلَكَ الفقراء في هذين القسمَين. أمّا فيما يخصّ التبشير بالدِّين، فأحدنا اهتمَّ بتبشير اليهود والآخر بتبشير الأمم. أمّا إذا أحوج الأمر إلى إغاثة الفقراء فلم تكن الحالة على هذا النوع ولا كان من همّ الواحد أن يغيث فقراء الأُمم فحسْب ولا من همَّ الآخر أن يقتصر على إغاثة الفقراء اليهود ولكنَّ الاثنين معاً كانا يهتمّان بفقراء اليهوديّة وذلك ما جعل القديس بولس يقول: «لقد ألزمونا فقط أن نتذكّر الفقراء وذلك قد اجتهدتُ في إنجازه» فمن يكون أولئك الفقراء الذين يتحدَّث عنهم هنا وفي رسالته إلى الرومانيين ورسالته إلى أهل غلاطية ويستميح لأجلهم حنان المكدونيين؟ إنهم اليهود الفقراء المقيمون في أورشليم. ولِمَ كان هذا التفضيل؟ ألم يكن في بقية المدن فقراء؟ إذن لِمَ لا تُرسل الصدَقات إلاّ إلى فقراء أورشليم؟ ولماذا لا يُطلب الإحسان إلاّ لمساعدتهم؟ ليس ذلك إلاّ من علَّةٍ موجبة لا عن عارضةِ اتفاق ولا عن محاباةٍ لأحد بل هو عن مقتضى الإفادة وموافقة الصواب. فمن الضروري الواجب أن تؤخذ المسائل بالنظر العالي قليلاً. فحينما انهارت مملكة اليهود وحينما بعد صلبهم ليسوع لفظوا الحكم على نفوسهم وقالوا: «ليس لنا ملِك غير قيصر» ومنذئذٍ صاروا خُضَّعاً للرومانيين لا يحكمون بعضهم بعضاً بتاتاً على مقتضى ناموسهم الخاصّ كما كانوا من قبل إذ هم غير مخضَّعين كما هم اليوم بل كانوا حلفاء يدفعون الجزية للقياصرة والقياصرة يبعثون إليهم حكّاماً يختارونهم هم أنفسهم. ومع ذلك كانوا في كثير من الأحوال ينفّذون شرائعهم الخاصَّة ويعاقبون المجرمين عندهم بحسب ما لهم من القوانين والأحكام. وهذا يدلّ على أنهم كانوا يدفعون الجزية للرومانيين. ولذلك أقبل بعضهم على يسوع ليجرِّبوه فسألوه قائلين: «ماذا تظن هل يجوز أن نعطي الجزية لقيصر أم لا؟» (متى ٢٢ : ١٧) وإذ طلب يسوع المسيح أن يُروه نقد الجزية أتوه بدينار فقال لهم: «لِمَن هذه الصورة والكتابة؟» فقالوا لقيصر. فقال لهم: «أُوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢ : ١٩ و٢١) ويصرِّح القديس

لوقا بأن الهيكل كان يحتلّه رؤساء من الجيش الروماني. تلك أدلّة بيِّنة جداً على أنّ اليهود كانوا خاضعين للرومانيين وإنما يُستدلُّ بالبيِّنات الواضحة أيضاً على أنَّ شرائعهم لم تكن ملغاةً قط، رجمُهُم لاستفانس دون أن يحاكموه في مجلس القضاء الروماني وكذلك قتْلُهُم ليعقوب أخي الرب، وصلبُهُم ليسوع المسيح نفسه ولو أنَّ الوالي الروماني أعلن براءَته من كلّ ما كانوا يشكونه به وأنّه حرّ مطلق. ولهذا غسَلَ بيلاطس يديه قائلاً: «إني بريءٌ من دم هذا الصدّيق» (مت ٢٧: ٢٤) وإذ رأى اضطرار له نزل عن كرسيّ القضاء دون أن يلفظ الحكم بتوقيفه. وإنما اليهود حكموا عليه بسلطانهم الخاص مجرَّداً وأتمُّوا بقيّة ما حكموا عليه به وانهم كثيراً ما حاربوا القديس بولس. وبما أنهم كانوا يحاكمون بعضهم بعضاً اتصلوا إلى أنهم إذا وجدوا أُناساً منهم يؤمنون بيسوع المسيح ذاق هؤلاء من الام النكال أكثر جداً مما يذوقون من غير اليهود. فعند غيرهم من الشعوب كانت مجالسُ قضاء وشرائع وحكَّام. ولم يكن مأذوناً للأمم أن يقتلوا ويرجموا مَن يشطُّ منهم عمَّا أَلِفَ عندهم من العادات ولا أن يسيئوا إليه بحكم سلطاتِهم الخصوصية ولكنهم إذا فاجأُوا أحداً منهم يرتكب ما هو مخالفٌ للعدالة وإرادة القضاة، يؤخذ للمعاقبة. أما اليهود فعلى خلاف ذلك كان لهم في مثل هذه المسألة إباحةً كاملة. وأُكرِّر ما قلته سابقاً أنَّ الذين كانوا منهم ينتحلون الإيمان بالمسيح ينالهم من الاضطهاد أكثر مما ينالهم في أيّ جهةٍ من الدنيا. بل كانوا فيمَا بينهم كالحملان بين الذئاب ولا يأملون المعونة من أحد. فاليهود جلدوا القديس بولس بالسياط عدّة مرات كما يحدِّثنا هو نفسه: «جلدَني اليهود خمس مرات أربعين جلدة إلاَّ واحدة. وضُربت بالعصيّ ثلاث مراتٍ ورُجمت مرَّة.» (٢ كور ١١: ٢٤ و٢٥) ولكي تتيقَّنوا أنَّ ذلك لم يكن افتراضاً محضاً أُصغُوا إلى ما يقول القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين: «تذكّروا الأيام السالفة التي صبرتم فيها بعد أن أنِرتُم، على مجاهدة الام كثيرة وصرتم من جهةٍ هدفاً للتعييرات والمضايقات، ومن جهة أخرى شركاء للذين عوملوا بمثل ذلك، فإنكم توجعتم للأسرى وسلَّمتم بانتهاب أموالكم فرحين لعِلمكم بأنَّ لكم مالاً أفضل باقياً.» (عبرانيين ١٠: ٣٢ وما إليه). وهكذا يثير حماسة أهل تسالونيكية، إذ يجعلهم مثلاً في هذه الحال. «فإنكم أيها الإخوة قد اقتديتم بكنائس الله التي في اليهودية في المسيح يسوع إذ قد أصابكم من أهل أمّتكم ما أصابهم من اليهود.» (١ كور ٢: ١٤) فبمَا أن المؤمنين في أورشليم كانت الآلام تترصَّدهم وتنالهم أكثر مما تنالهم في مدينةٍ غيرها. إذ كانوا في أورشليم مضطَهَدين بغير شفقة، منهوبةً أملاكُهم وأموالهم وهم مطرودون، كان من الصواب أنّ القدّيس بولس

يحرِّض كل الشعوب على إسعافهم ولأجلهم أيضاً يحرِّض أهل كورنثس بما يقوله لهم : «وأمّا ما يُجمع للقديسين فكما أوعزتُ إلى كنائس غلاطية كذلك فاصنعوا أنتم أيضاً». (١ كور ١٦ : ١).

لقد أثبتُّ بكفاية مَن يكون أولئك القديسون الذين يعنيهم القديس بولس في كلامه والسبب لأن يبذل في سبيلهم اهتمامه بانتباهٍ خصوصيّ. فلا مندوحة الآن عن ذكر السبب الدافع له لأن يذكر أهل غلاطية في هذا العَرْض. لأنه لِمَ لا يقول : وأما ما يُجمع من الصدقات لأجل القديسين فاتّبعوا فيه كذا كذا من الترتيب. عِوَض أن يقول «وأما الصدقات التي تُجمع للقديسين فالزموا فيها النظام الذي أوعزنا به إلى كنائس غلاطية.» فلِمَ يعبّر هذا التعبير ولِمَ لا يتكلّم عن مدينة أو مدينتين، بل يتكلّم عن شعب بكامله؟ ذلك لكي يحمّس أهل كورنثس فيندفعوا للإعانة بأشدّ حرارة ولكي تكون المدائح الموجَّهة إلى سواهم تثير غيرتهم. ثم يفصِّل لهم النظام الذي شاء أن يعيِّنه في ذلك فيقول : «في كل أول أسبوع ليَعزِلْ كل امرئ منكم عنده ويخزنْ ما وُفِّق إليه لئلا يكون الجمْع عند قدومي إليكم.» (١ كور ١٦ : ٢).

يريد بأول يوم من الأسبوع، نهار الأحد. ولماذا فَرضَ أن يكون جمْع الإحسان من كل إنسان في هذا النهار؟ ولِمَ لم يقُلْ في اليوم الثاني من الأسبوع أو الثالث أو الأخير؟ ذلك لم يكن عن مجرّد اتفاق وبدون سبب، فلقد أراد أن يستخرج من الوقت نفسه باعثاً يحرِّضهم أقوى تحريض على مؤاساة الفقراء. لأنَّ الفُرَص المناسبة تستطيع كل شيء. تقولون ماذا يهمُّ تعيين يوم بعينه في التحريض على الصَدَقة؟ ذلك لأن قداسة النهار المأمور فيه بالانقطاع عن العمل، تفسح للعقل وللقلب مجالَ حريّةٍ واسعاً. وتهيئتهما لأكثر الشؤون أهميّة لأن ينالا أفضل الثمار مما يتعلّق بخير المجتمع. في هذا النهار غُلِب الموت وتهدّمت اللعنة وأُزيلت الخطيئة وسُحقت أبواب جهنم وقيّد الشيطان وانتهت حربٌ كان قد طال أمدها وتصالح الإنسان مع الله واستعادت سلالتنا البشرية نُبلَها القويم، أو بالأحرى ارتفعت إلى مقام أسمى جداً من مقامها الأول ورأت الشمس آيةً عجيبة هي أن الإنسان صار خالداً لا يموت. فقد اختار القديس بولس يوم الرب ليذكّرنا بكل هاتيك الفوائد. لقد اختار ذلك اليوم ليؤكد كلامه بسلطانٍ أقوى. فكأنه يقول لكل أحد : تأمل أيها الإنسان في الشرور التي نُجِّيتَ منها وكيف كنتَ وإلامَ صرتَ. فإذا كان اليوم الذي دخلنا فيه إلى العالم هو يوم عيد وإذا احتفل العبيد المحرّرون بيوم تحريرهم

ودلُّوا على فرحتهم بإيلام الولائم وتقديم الهدايا لمن حرَّروهم. فكم نلتزم نحن أن نعمل لنحتفِل بشرف اليوم العظيم الذي يُستطاع أن يسمَّى يوم الولادة الجديدة للجنس البشري. لقد كنا مفقودين فوُجدنا أمواتاً فبُعِثنا أحياء وقد كنا أعداء فصُولِحْنا. إذن يجب أن نحتفل بهذا اليوم احتفالاً روحياً لا بأن نستسلم إلى خلاعة التأنُّقَ بالولائم ولا باستباحة المحرَّمات المخجلة ولا بحفلات الرقص الشائنة بل أن نخلِّص إخوتنا من العَوز والفاقة. وإذا حدَّثتكم بهذا الشأن فلا لكي تهلِّلوا لي تصفيقاً بل أقصد إغاثتكم لهم وتحريضكم على أن تسلكوا هذا السبيل. ثِقُوا انَّ القديس بولس لا يوجِّه كلامه إلى أهل كورنثس فقط بل إلى كلِّ فردٍ منا، وإلى الذين يخلفوننا في هذه الحياة. إذن فلنتَّبعْ تعليم القديس بولس ولندَّخر للفقراء في يوم الرب ممّا آتانا الرب ولُنقِمْ من ذلك شريعة مقدَّسة لا نحتاج معها إلى دافع أوتحريض. فهل من خطأ تبلُغ قوَّته قوة العادات؟ فإذا وضعنا لنا قاعدةً أن نذخر شيئاً نهار الأحد نخصِّصه لمعونة الفقراء يصبح ذلك العمل شريعة لنا غير منقوضة مهما اضطرَّتنا الحاجة إلى نقضها. إنَّ الرسول بعد أن يقول: «اليوم الأول من الأسبوع» يضيف إلى ذلك قولَه «كلُّ أحدٍ منكم» يريد أن يقول، لا أُكلِّم الأغنياء فقط بل الفقراء أيضاً ولا الأحرار فقط بل العبيد أيضاً، ولا الرجال فقط بل النساء أيضاً. فلا يستثنينَّ أحدٌ نفسه من هذا العمل الصالح ولا يحرمنَّ أحد نفسه هذه الثمرة التي في وسعه أن يجتنيها بل فليعمل كلٌّ على نسبة ما لديه من الوسائل لأن الفقر عينه لا يُحال بينه وبين أن يبسط يد الإحسان، مهما كان أحدكم فقيراً مقِلاً، فليس هو أشدُّ فقراً من الأرملة التي ذكرها الإنجيل بأنها قدَّمَت كلَّ ما عندها. مهما كنتم فقراء فلستم أفقر من الأرملة الصيدونية التي إذ لم يكن عندها غير حفنة من الطحين وقد أمضَّها الجوع كما أمضَّ أولادها حولها، نسيت فاقتها وحاجة عيالها وبادرت إلى تقديم الضيافة للنبيّ. ولكن لِما قال الرسول: «ليعزل كلُّ امرئٍ منكم عنده ويخزِن ما وُفِّق إليه؟» ذلك ليحافظ على رقّة الشعور عند من تعرّضه تقدمة النّزرة لأن يخجل من تقديمها. وعلى الأثر يضيف قائلاً: إحفظوا عندكم نتيجة ما توفّرونه فمتى تضخّم كنزكم الصغير بما يضمُّ إليه من المدد المتتابع فحينئذٍ اقبلوا إلى تقديمه لنا. إنه يستخدم لفظة «إكنزوا» ليفهمكم أنّ ما تنفقونه في هذا السبيل هو كنز لكم، بل أنفس من الكنوز الثمينة. لأن الكنز الدنيوي معرَّض لهجوم المختلسين ومكايدهم وفي الأعمّ الأغلب يكون شؤماً على صاحبه. وأما الكنز الروحي الذي يعنيه الرسول فليس هو كذلك لأنه لا يمكن أن يُفقَد ولا أن يختلسه اللصوص وهو سلامٌ لمن

يحوزه فلا يخاف عليه من عاديات الزمان ولا يستطيع الحسد أن ينزعه منا لأنه في حمى دون الاستلاب والسرقة ويكون لنا ينبوعاً فيَّاضاً بأخاير الغنى.

فلنعملْ إذن بنصيحة الرسول وبحسب ما يأمرنا أن نعمل. ولنعزلْ في بيوتنا مالاً مقدّساً يكون منه ضامنٌ لثروتنا الخصوصية. فكما أنّ مالاً لشخصٍ خصوصي إذا وُضِع وديعةً مع كنز الملك ينال ضمان هذا الكنز له هكذا المال المذخور في بيوتكم. وأنتم أنفسكم تصيرون كما رتّب بولس موزّعين لأموالكم إحساناً. ماذا أقول؟! إنّ ما تكونون سبقتم فجمعتموه أولاً يعود لكم وسيلةً وفرصةً لأن تجمعوا أكثر. لأنكم أَلِفْتُم هذه العادة السعيدة تسيرون عليها من تلقاء أنفسكم دون أن يحرِّضكم عليها أحد. إذن ليكن بيت كلٍّ منكم بهذا العمل كنيسةً بكونه مستودعاً لمالٍ مقدس. ذلك لأنَّ من خصائص إحدى الكنائس أن يتعلَّق بها كنزٌ كهذا الكنز. وكل مكان يُودَع مالاً باسم الفقراء، محظورٌ على الشيطان أن يدخل إليه وذلك المال يكون لبيوتكم سوراً أمنع من فِرَق الجيوش ومن الرماح والدروع والسيوف. وبعد أن يعيِّن الرسول الزمان والأسلوب يُجمَع هذا المال ويدلّ على الأشخاص الذين يُوكل إليهم هذا الواجب ويدع تعيين المبلغ لفطنة كل إنسان.

إنَّ الرسول بولس لم يكن يشاء أن يُساعَد الفقراء وحسْب، بل أن يُساعَدوا بتهلُّل. لقد كان يعلم أنَّ الله أمر بالصَدَقة لينتفع بها الفقير في فاقته أقلَّ بكثير مما ينتفع منها الذين يتصدَّقون. والخلاصة أنه إن لم يتفكّر إلاَّ بالفقراء فقد رتّب فقط أن يُساعَدوا ولم يوصِ أن تُصنع تلك المساعدة بتهلُّل. ولكنكم ترون القديس بولس في عدَّة مواضع يلحُّ أن يكون الإحسان مميَّزاً بهذه الصفة. قال في إحدى رسائله: «فليُعطِ كل امرئٍ كما نوى في قلبه لا عن ابتئاس أو اضطرار فإنَّ الله يحب المُعطيَ المتهلِّل.» (٢ كور ٩:٧) فلم يقصر كلامه على المعطي بل على الذي يعطي مسروراً. وقال في موضع آخر: «فليلازم المتصدِّق صفاء النيّة والمدبّر العناية والراحم البشاشة.» (رومة ١٢:٨) تقوم الصدقة على أن تُبذَل بسرور وعلى عقيدة أنّ المحسن ينال أكثر مما يعطي. لذلك يستخدم الرسول كل الوسائل ليسهِّل الائتمار بالوصيَّة ليحبِّب الاشتراك في إغاثة الفقر. فانظروا الأساليب الكثيرة التي اجتهد فيها أن يرفع عن الصدقة كلَّ ما فيها من عناء وثِقَل:

فأولاً لا يصنعها على شخص أو شخصين بل على كل المدينة. وأمّا لفظة الجباية (Collecte) فتعني اشتراكاً عمومياً يدفع فيه كلّ واحد حصته التي يخصّصها لذلك. ثانياً

يجعل قيمةً وقدراً للّذين يُحسن إليهم لأنه لا يسمِّيهم فقراء بل قديسين. ومن جهة ثالثة يشجِّع المؤمنين على المباراة في الإحسان بإعطائهم المثَل. قال : «وأمّا ما يُجمع للقديسين فكما أوعزتُ إلى كنائس غلاطية كذلك فاصنعوا أنتم.» (١ كور ١٦ : ١). رابعاً يعيّن اليوم الأفضل لجمع الصدَقات. قال : «في كل أسبوع ليعزِلْ كل امرئٍ منكم عنده ويخزنْ ما وُفِّق إليه.» خامساً لا يجعل الصدَقَة مدفوعة كلّها في مرة واحدة بل يجعلها مجزّأة قليلاً فقليلاً. لأنه ليس سواءٌ توزيع النفقة دفعة واحدة وتوزيعها في عدّة فترات لأنّ توزيعها حسب الأسلوب الثاني، يحجب رؤيتها عن العيان. سادساً لا يعيِّن الرسول كميَّة المبلغ المتصدَّق به بل يكِله إلى إرادة المحسنين ويعلن أنهم ينالون معونة الرب. لأن هذه هي قوة التعبير الذي يستخدمه عادةً ويضيف إلى ذلك سبباً سابعاً فيقول : «لئلاَّ يكون الجمع عند قدومي إليكم.» فهو بذلك يحرِّض مؤمني كورنثس على الإحسان وفي الوقت نفسه يعزِّيهم بأن يجعلهم على رجاء أن لا يستبطئوا رؤيته بينهم، كما أنه يعيّن لهم ميعاداً لأن يَروه. ثم يستخدم وسيلة أخيرة وما تُراها تكون؟ قال : «فمتى حضرتُ فالذين تستحسنون أُرسِلهم بحسب شهادتكم، برسائل ليحملوا إحسانكم إلى أورشليم. وإن كان ما يستحق أن أنطلِق أنا أيضاً فسينطلقون معي.» (١ كور ١٦ : ٣ و٤).

فيا لها سلامة نيَّة! ويا لها حشمة! ونقول أيضاً يا لها حرارة عناية! فالقديس بولس يعفي نفسه من تعيين مَن يُوكَل إليهم توزيع الصدقات ويدع اختيارَهم لأهل كورنثس. وإذ هو أبعد من أن يرى إهانةً له في اختيارهم لأولئك الموزّعين، ارتأى على عكس ما يُظنّ أنه ليس من اللياقة أن يجمعوا هم الصدَقات بعضهم من بعض ثم يتولّى هو تعيين الموزّعين لها. بل يدع لهم انتخاب أولئك الموزّعين وبذلك يُبعد عن شخصه أن يُظنّ فيه ظنٌّ مريب. ومع أنه كان أنقى من الشمس لم يعتقد استطاعته إذا أخذ تلك المهمّة على نفسه فقط، أن يحذر كثيراً أسباب الشكّ مراعاةً لذوي العقول الضعيفة بحيث لا يدع أقلَّ سبيل للتهمة والثلب. ولهذا يقول : «فمتى حضرتُ فالذين تستحسنون بحسب شهادتكم أرسلهم برسائل ليحملوا إحسانكم إلى أورشليم» ماذا إذن! إنك لا تُبحِر إلى أورشليم، إنك لا تكلّف نفسك حمْل المال. إنك تدع الاهتمام بذلك لغيرك قصدَ أن لا ترخي عزائم المحسنين. فانظروا إلى أيّ حذرٍ يلجأ. فلا يكتفي أن يقول فقط : «أرسل الذين تستحسنونهم» وماذا يقول؟ «برسائلكم» فإذا لم أُرافقهم لشخصي أكون معهم على الأقل بإضافة رسائلي إلى رسائلكم وأعينُهم في مهمّتهم.

٥ – فواحسرتاه ! هل نستأهل نحن أن نكون ظلاً لذلك الرسول العظيم؟ وهل نستحق أن نحلَّ سَير حذائه؟ انه وهو المكتنَف بأعظم المجد ، لا يريد أن يُفضَّل بشيء من الامتياز . أما نحن فعلى عكسه نهيج غضباً ونتذمّر إذا كان القيِّمون على مال الفقراء ليسوا ممَّن نختارهم نحن ، فإذا قدَّم محسنون من أموالهم الخاصة لأعمالٍ خيريَّة ولم يستشيرونا في شأن تدبيرها ، عددنا ذلك إهانةً موجَّهة إلينا . فتأَمَّلوا في القديس بولس كيف هو متَّزن في نفسه وأمين أبداً لمبادئه . فلا يسمّي الصدَقَة هنا بوصيَّة بل يسمِّيها نعمة . مبيِّناً بذلك أنه إن كان بعْث الأموات من قبورهم وطرْد الشياطين وشفاء البُرص فعلاً عظيماً من أفعال النعمة ، فإنَّ موآساة الفقراء في فقرهم وبسْط اليد لإنقاذهم من عَوزهم هما من فعل النعمة أيضاً . تلك نعمة يجب أن نبادر لتحصيلها بنزعاتنا الشخصيَّة لكي نكون في حالة نستحق معها تلك النعمة ونناَلُها .

وفي بقيَّة أهل الشأن يعزّي الرسول أهل كورنثس بأن يزوّد المفوَّض إليهم توزيع صدقاتهم برسائل خصوصية منه ولا سيمَا بوعده أنه يرافقهم في سفرهم . «وإن كان ما يستحق أن أنطلق أنا فسينطلقون معي .» فانظروا هنا أيضاً مقدار فطنتِه وتحرُّزِه . فإنه لا يرفض مرافقتهم ولا يَعِد بها وعداً كاملاً بل يعلِّق مسائله في هذا الخصوص على مَسلَك المتبرعين بالصَدَقات فيُخيِّرهم بذلك الشأن . فإن كان مبلغ الصَدَقات وافراً لحدّ أنه يقتضي مرافقة الحاملين له فهو بكمال اختيارِه يتهيَّأ للسفر معهم . ذلك هو المعنى المستتر في كلماته : «فإن كان ما يستحق أن أنطلق بنفسي رافقوني» فلو أنه رفض مرافقتَهم رفضاً باتاً أو وعدهم بها وعداً مبهماً ومرتاباً فيه لكان أخمدَ تحمُّسَ الكورنثيين للتبرُّع . لذلك لم يكن وعده ولا رفضُه محققَين بل هما معلَّقان على إرادتهم واختيارهم . وإذ كانوا يعلمون أن بولس يستطيع أن يحمل هو صدقاتهم كانوا يتحمّسون غيرةً فيضَعون على حِدَة ما يتبرَّعون به لهذه الغاية على رجاء أن توزِّعه يداه الجليلتان وانه يضيف شيئاً إلى تقدمتهم . إذن إن كان في عمل بولس باعثٌ جديد يصلح لأن يوقد في أهل كورنثس محبتهم ، فأنتم أيها المسيحيون إذ تكلّفون معلّم بولس نفسه توزيع صدَقاتكم لأنّ تلك الصدَقات تنطلق إليه عن أيدي الفقراء ، فبأيٍّ عذرٍ تستطيعون أن تستروا قوانينكم؟ فإذا لم يكن هناك إلاَّ وصيّة موكولة إلى الاختبار الحرّ فهل كان ممكناً أنّ رسولاً حاملاً عبءَ العالم كلِّه والعناية بكل الكنائس في كل بلدٍ تنيره الشمس ، يكلَّف حمْل صدَقات الكورنثيين؟ فإذا تشبَّعتم من هذه الأفكار سواء التزمتم أن تعطوا الفقراء بآسمكم أو أن توزّعوا عليهم مال الناس ،

فلا تصنعوا ذلك بتوانٍ ولا بحزن كأنهم يطمحون إلى أموالكم. فالفلاَّح الذي يلقي في الأرض كل ما عنده من بِذار أليس يلقيه بفرح تحرّكه الثقة بأن الخسارة تعوِّضها الغلَّة التي يرجوها ولو أنَّ آماله غير أكيدة. وأنتم الذين يبذرون ليجتنوا ثماراً أثمن جداً من غلَّة الفلاح أنتم الذين يودعون أموالهم يسوع المسيح نفسه، تسوِّفون وتتردَّدون وتقولون انه لا شيء عندكم تعطونه. فهل تُرى هذا السلوك معقولاً؟ ألَم يكن الله قديراً على أن يأمر الأرض بأن تُخرج ذهباً خالصاً؟ إنه هو الذي قال: «لِتُنبتِ الأرض نباتاً عشباً» (تكوين ١:١١) فأظهرَها في الحال مكسوَّةً اخضراراً ولا شكَّ في أنه كان يستطيع أن يأمر كل الأنهار وكل الينابيع أن تتدفَّع بأمواج من الذهب ولكنه لم يُرِد ذلك. لقد ترك جماعةً كثيرة العدد من الناس في حالة العَوز والفاقة، قصداً إلى منفعتِهم الخاصَّة ومنفعتكم لأن الفقر أصلَحُ لإحراز الفضيلة من كنوز الغنىوليس بأقلَّ للخطأة إسعافُهم الذي يبذلونه لذوي الفاقة. فإن الصَدَقَة حبيبة إلى قلب الله حتى انه لما جاء إلى العالم لابساً جسداً ومتحدّثاً إلى الناس لم يرَ هو أمراً مخجلاً غير لائق بجلالته أن يتولّى بنفسه مسألة توزيع الفلوس على الفقراء. ومع ذلك نشهده وهو الذي كثَّر الأرغفة القليلة وقات بها جمعاً غفيراً وقد كان قديراً على أن يكتفي بأن يأمر فقط فيعمل ما يشاء، وفي وسعِه أن يُوجد على الفور كنوزاً عظيمة ولكنه لم يُرِدْ ذلك بل أمر تلاميذه بأن يجعلوا عندهم كيساً ثم ان يحملوا ما يُجمع فيه لإغاثة مَن يكونون في حاجة إلى المعونة. ثم إنه حينما كان يتكلَّم مع يهوذا كلاماً مبهماً يلمز بخيانته ظنَّ التلاميذ الذين لم يستطيعوا فهمَ كلامه، أنه يأمره بتوزيع بعض الدراهم على الفقراء لأنّ الكيس كان معه وكان يحمل ما يُلقى فيه. إنَّ الله، أجل إن الله لم يزل على الدوام مملوءًا من الرحمة لنا وهو يناقشنا الحساب على الرحمة التي نبذلها لإخوتنا وانه يقدّم لنا ما لا يُحصى من التوصيات بالصَدَقة في العهدَين القديم والجديد حيث يأمرنا أن نؤكّد محبتنا للناس بأعمال المعروف وبالكلام والسخاء في الإعانةِ لهم. فموسى يتكلَّم كثيراً عن ذلك في كل شرائعه والأنبياء يُسمِعوننا صوت الله يقول عالياً: «إني أردتُ رحمةً لا ذبيحة» (هوشع ٦:٧) والرسل يتصرَّفون بهذا المقتضى ويتكلَّمون بما يوافق هذا المبدأ. إذن لا نهملَنَّ الصدَقَة التي هي مفيدة جداً للفقراء وأكثر فائدة لنا لأننا بها نأخذ أكثر جداً ممّا نُعطي.

لا أُشدِّد من غير داعٍ في بيان هذا الواجب لأني أرى تلقاءَ جمًّا من الناس يبحثون عن حالة الفقراء بتدقيق ليعرفوا وطنَهم وكُنْهَ حياتِهم وآدابَهم وديانتَهم وحالة أجسادِهم

فيُكثرون لومَهم ويناقشونهم ألف حساب على صحتهم، حتى إنّ كثيرين منهم يتظاهرون بما ليس فيهم من سيِّئات الأضرار ليليِّنوا قَساوتنا بمظاهر خارجية مزوَّرة من العاهات والأمراض. فلو سمح الناس لأنفسهم بهذه الملامات المشدَّدة في الفصل الجميل لأمكن أن تكون محتملة. وأمّا أن تُظهر لهم في أشدّ البرد القارس قساوةُ حَكَمٍ فظٍّ وأن يخاشنوا البعض بعد مسامحتهم على بطالتهم أفليس ذلك منتهى الخلوّ من العاطفة الإنسانيّة. يزيد هؤلاء الناس فيقولون: لماذا إذن يقول القديس بولس لأهل كورنثس: «إنَّ مَن لا يريد أن يعمل يجب أن لا يأكل.» أليس أنَّ القديس بولس لا يتكلم هنا إلاّ عن الفقراء؟ كلا؟ إنَّ أوامره هذه تتناولنا نحن أيضاً. إنَّ ما أُحاول قولَه لكم هو شديد على السمْع، وقويٌّ قليلاً. وفي كل مرة أقوله لا أريد به الإساءة إليكم بل أُريد تعليمكم. اننا نلوم الفقراء على كسلهم وهو الرذيلة المعذورة غالباً. على أننا نحن عندنا غالباً ما نوآخِذ عليه أنفسنا وهو أشدُّ من الكسل.

ولكنّك تقول يا هذا إنّ لديك ميراثاً من أهلك يكفي حياتك. إذن لأنَّ هذا البائس هو فقير وقد ولدَه أهله الفقراء وليس له أجداد موسرون، يجب أن يَهلك جوعاً وفاقةً؟ وأسألك أليس يجب لهذا السبب عينه بنوع خاص أن يجد المسكين شفقةً عليه في قلوب الأغنياء؟ أنتم الذين يختلفون كل يوم إلى المشاهد الملهية وإلى المجتمعات العمومية وأندية المحادثات المؤذية حيث المجال مفتوح للثلب والطعن في أعراض الناس، تعتقدون أنكم لا تأتون قباحةً ولا تُؤخَذون برذيلة الكسل. وأما البائس المسكين الذي يقضي أيامه بكاءً وأنيناً وضراعة توسُّلٍ وتسوُّل، واحتمال ما لا يُحصى من المساوئ والإهانات، فترافعونه إلى مجلس قضائِكم حيث تناقشونه أشدَّ الحساب وأَشقَّه. فأين إنسانيتكم يا تُرى؟ أرجو أن تقولوا لي هل في ذلك صنيعٌ إنسانيّ؟ وهكذا حيثما تقولون بماذا نجيب القديس بولس. وجِّهوا كلام الرسول إلى أنفسكم لا إلى الفقراء وعلاوةً على ذلك لا تكتفوا بأن تقرأوا تهديدات القديس بولس، بل اقرأوا أيضاً كلماته المملوّة رحمةً وتسامحاً. فالرسول القائل: «مَن لا يريد أن يعمل يجب أن لا يأكل» يضيف إلى قوله هذه الكلمة: «أمّا أنتم يا إخوتي فلا تملُّوا صنيع الإحسان» فما تكون الحجَّة المموَّهة بظاهر الحق والتي يتسلَّح بها المحاربون للفقراء؟ يقولون: ما هؤلاء البشر إلاَّ عبيدٌ مارقون جوّالون ثُقلاء ومغامرون في الجوَلان، لا وطن لهم؛ فهُم عبءٌ ثقيل على وطننا. ويكَ يا أخي إنك إذن تريد بهذا الكلام أن تجعل هذه العاصمة منظوراً إليها كأنها مرفأٌ للبؤساء يفضِّلونه على مسقط

رأسهم؟ أتريد أن تحرم العاصمة هذا الإكليل؟ بل يجب عليك أن تتهلَّل وتعدَّ نصراً إقبالَ هؤلاء المساكين إلى ما بين أذرعنا كأنما إلى ملجأ عمومي. وأنهم يَرون مدينتنا أُمًّا لهم. ذلك هو مجد عاصمتنا الأعظم فلا تسلِخْه عنها. لقد ورثَتْه عن أجدادها السالفين.

ففي أول عهد المسيحية حين كان القُطر عرضة لتهديد مجاعة شديدة بعثَ سكان مدينتنا بمبلغ كبير من المال عن يدَي برنابا وبولس إلى مؤمني أورشليم أي أولئك الذين أتينا مراراً على ذِكرهم في هذا الخطاب. فهل نَعذَر إذا كان أجدادنا الأولون يغيثون بدراهمهم الناس البُعداء عن بلادهم وكانوا هم بأنفسهم يذهبون فيبحثون عنهم ونحن نطرد البؤساء اللاَّجئين إلينا ونناقشهم الحساب مناقشة دقيقة قاسية حين أنَّ نحن مجرمون، بحيث لو أنَّ الله يحاسبنا بالقساوة عينها لما كنا ننال عفواً ولا شفقة، فقد قال الإنجيل: «كما تَدينون تُدانون» (متى ٧: ٢) إذن كونوا أُناساً رحماء لأخيكم الإنسان واغفروا له كثيراً من مساوئه وتحنَّنوا عليه لتجدوا مَن يعاملكم كما تعاملونه. لماذا تضايقكم شؤون الغير؟ ولِمَ هذا الفضول في البحث عما يفعلون وعما لا يفعلون؟ فإذا ولاَّكم الله مهمَّة البحث عن أخلاقهم وأن تناقشوهم الحساب على أحوالهم، أفما كان كثيرون منكم مبتئسين من تولِّيهم هذه المهمّة؟ أفما كانوا يقولون: حقاً إنَّ الله قد وكَل إلينا عملاً شاقًّا جداً. فهل في وسعنا أن نعلم الزلاَّت التي يزلّها هذا وذاك؟ أليس أنَّ كثيرين يقولون هذا القولَ وأمثالَه؟ وحين يعفينا الله من هذه المباحث الشاقَّة، حينما يعِدنا بالمكافأة الجزيلة على الإحسان، سواءٌ كان مَن نغيثهم بمَددِنا صلاَّحاً أم أشراراً نختلق نحن لأنفسنا المصاعب عينَها. تقولون أيُّ دليل لنا على أننا ننال أبداً حُسْن المكافأة سواءٌ بذلنا إحساننا لذوي الحياة الصالحة أو لذوي الحياة الطالحة؟ فإليكم الدليل على ذلك كلمات إبن الله عينُها قال: «صلُّوا لأجل مَن يُعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات لأنه يُطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويُمطِر على الأبرار والظالمين.» (مت ٥: ٤٤ و٤٥) فاتَّبعوا إذن مثال ربِّكم ومعلِّمكم فهو وإن كان جمٌّ من البشر لا يُحصى يجدِّفون عليه وكثيرون من البشر يفوقون العدّ يستسلمون لفاحشة الدعارة وللسرقات واغتصاب الناس أموالهم وهم مرتطمون في أوحال الرذائل والجرائم لا ينقطع عن أن يَعُمَّهم بخيراته ويسكب عليهم أشعَّة الإحسانات والأمطار المؤتية خصِّيصاً حقولهم، وغلالاً وافرة وثماراً كثيرة. ويبذل لهم ألفَ دليل على وجوده وصلاحه وحبِّه. فاصنعوا أنتم كذلك. فإذا عرَضتْ لكم فرصةٌ موآتية تُظهرون فيها حُسْن صنيعكم فأغيثوا الفقير، إكسروا حدَّةَ جوعه، أنقذوه من كرْبه ولا تبحثوا عما

يزيد على ذلك. فلو شئنا أن ندقّق في البحث عن حياة البؤساء لما أغثنا أحداً منهم. فإذ توقفُنا بغير انقطاع اهتماماتٌ هي في غير محلّها بأبحاثٍ بارزة عن دائرة الفصل لا نُؤتي حتى ثمرةً واحدة من ثمار الرحمة ثم نُتعِب أنفسنا عبثاً دون أن نُجدي أحداً منفعة. فأُحثُّكم إذن على أن تلقوا عنكم اهتماماتٍ لا طائل فيها. أَغيثوا الذين هم في كرْب الفاقة اسكبوا عليهم عوناً غزيراً حتى إذا ما بلغنا إلى يوم العدل نشعر بما ننال من مغفرة الله ورحمته بنعمة وصلاح ربّنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس المجد والكرامة والمُلك الآن ودائماً على مدى دهور الدهور آمين.

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي

(المخطوطات المخلصيّة)

١٢
عِظَة
على المسيحي أن ينسى ما فعل من أعمال البِرّ

«أقول لكم إن هذا نزل إلى بيته مبرراً دون الآخر لأنّ من رفع نفسه اتّضع ومن وضع نفسه ارتفع.» (لو١٨ /١٤).

إنّ الفرّيسيّ لما مدحَ نفسه صار أردأ من العشّار لأن أعماله العظيمة لم تأته بمنفعة، وهذا حماقة منه لأنه لم يستأصل الكبرياء التي هي أصل كل خطيئة وبها هدم كل شيء.

فاذا أردنا أن نظهر أعمال البرّ المعظَّمة، لا يجوز لنا أن نتكبَّر لأنه بالتواضع تتبرَّر الأعمال. لا يجوز لنا أن نفكِّر بأننا فعلنا شيئاً ما نكون قد أتممنا الواجب كله. وإذا كان التواضع يجعل الخاطئ بارًّا (مع ان هذا ليس تواضعاً بل اعترافاً حقاً) فماذا يصنع التواضع في الأبرار؟ لذلك لا نضيِّع أتعابنا ولا نحرم أنفسنا الجائزة! إن الله تعالى يعلم خدماتنا أكثر منا بكثير. إذا أعطينا كأس ماء فقط فإنه لا يزدري عطاءنا، وإن تنهّدنا فيقبل تنهّدنا كحسنة يذكرها، ويخصّنا بجائزة عظيمة لأجلها. فلماذا إذاً نفكر بأعمالنا الصالحة، ونبذل جهدنا لكي نظهرها للملأ. ألا يعلم أننا أذا مدحنا أنفسنا لا يمتدحنا الله تعالى، وإن حقَّرنا ذواتنا فإنه تعالى يمجِّد أعمالنا أمام الجميع. إن العليّ لا يبخسنا جائزة

أتعابنا بل يمنحنا اكليل المجد على أشياء طفيفة و يمهِّد لنا الأسباب حتى ينجِّينا من عذاب جهنم. لذلك، إن تعبنا من الساعة الحادية عشرة من النهار، فأبونا السماوي يعطينا الأُجرة كاملة، وإن ذرفنا دموعاً فالله تعالى يقبل دموعنا ليهدينا إلى الخلاص الأبدي. فلا ننسى ما فعلنا من أعمال البرّ لأجل هذا؟؟

لا تقل: كيف يمكن أن أجهل ما هو معروف لدي تماماً؟ ما هذا السؤال أنغضب الله يومياً حتى لا ننسى أعمالنا الصالحة؟ إننا لا نفتر عن ارتكاب الخطيئة غير مكترثين لها، أما إن أعطينا الفقير دريهماً فلا يبرح ذكر ذلك أفواهنا. هذا هو الجهل عينه! أما إذا تناسى الإنسان ما فعل من أعمال البرّ فيحفظها من دون خوف عليها.

فالذي يباهي بأعماله كمن يضع جواهره في السوق جهاراً. و بهذا يجلب نظر الأشرار إليها. لكن، إذ جمعها وخبّأها في بيته يحفظها من دون خوف عليها. وهكذا، إذا بقينا نردّد في ذاكرتنا أعمالنا الصالحة، نجلب غضب الله علينا، ونجعلها سلاحاً في يديّ عدونا القديم، ونثيره عليها حتى يختلسها. أما إذا لم يرها أحد، سوى من يجب أن يعلمها، فتبقى محفوظة بعيدة عن المخاطر. فلا نفاخرنَّ بأعمال البرّ كي لا تُسلَب منا ولا يحصل معنا كما حصل مع الفرّيسيّ الذي ردَّد أعماله الصالحة مع الشكر مقدّماً إياها إلى الله تعالى، فلم يستفد شيئاً، لأنه، هل يليق بمن يشكر الله أن يهين الآخرين متكبِّراً على الخطأة؟ إذن لنكتفِ بشكر الله ولا نذكره أمام الناس مع دينونة القريب لأن هذا العمل لا يكون شكراً.

إذا أردنا أن نعبِّر عن شكرنا لله فلنسمع قول الثلاثة الفتية الأبرار: «لأنك عادل في جميع ما صنعت بنا وقد خطئنا وأثمنا وجميع ما جلبت علينا صنعته بحكم حق» (دانيال ٣:٢٧ – ٣١) فالحق أن الاعتراف بالخطايا هو الشكر لله الضابط الكل. فلنحترس من ذكر أعمالنا الصالحة لأن هذا يسبّب لنا العداوة بين البشر والمقت من الله تعالى. كلما زادت أعمالنا الصالحة فلنقصر في التحدّث عن نفوسنا. وهكذا نتمكن من الحصول على مجد عظيم عند الله والناس، والأصح أن يُقال: ليس المجد عند العليّ فحسب بل جائزة العطاء العظيم. فإذا أردنا أن تكون أعمالنا عظيمة، فيجب ألا نعظِّمها حتى تكون عظيمة. هذا ما قاله قائد المئة في الإنجيل الشريف: «يا رب لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي» (متى ٨:٨) و بهذا القول استحق الإعجاب أكثر من كل يهودي وقال أيضاً رسول المسيح: «ولست أهلاً أن أُدعى رسولاً» (كورنثوس الأولى ١٥:٩) و بهذا صار أول الرسل وأعلاهم. وهكذا

قال معمِّد المسيح: «وأنا لا أستحق أن أَحِلَّ سيور حذائه» (لوقا ٣: ١٦) فصار خليلاً للمسيح الختن. لا شيء أحبّ إلى الله كالذي يحسب نفسه مع الخطأة والأثمة. إذا صفا الماء ظهرت فيه أصغر الأقذار، كما ان أشعة الشمس ترينا ذرات الغبار الصغيرة المتطايرة في الهواء التي لم ترها العين قبل دخول الأشعة المذكورة.

هكذا النفس البشرية كلما ازدادت نقاوتها نفَذَ إليها نور الملكوت السماوي فظهرت القذارة وعدم الكمال والعادات الذميمة فيها.

مهما حاولنا لا نقدر أن نرفع يدنا المكسورة إلى فوق. فكيف نقدر أن نرفع نفوسنا المحطمة بالرغبات الكثيرة إلى العلاء؟ ورُبَّ سائل يقول من يقدر أن يكسر قلبه؟ فليذكر أن الملك داود تمجّد بهذا غير ناسٍ انكسار قلبه! فانه بعد حروبه الكثيرة تقدّم منه أحد الجنود يشتمه ويلعنه موجِّهاً إليه الإهانة، فلم يجبه داود بشيء بل منع القائد من قتل المعتدي قائلاً له: «دعه يلعن لأن الرب قال له» (الملوك الثاني ١٦: ١١) ومثل هذا فعل داود مع شاول مرات كثيرة. وعمله هذا يرينا سموّ حكمة الملك والنبي. لما رأى المطوّب داود مملكته في يد ظالم مضطهد سفاح قتل أباه وأخاه، لم يعثر أبداً بل قال: إذا كان يحسن للرب أن أفرَّ مضطهداً من عدوّي ليظلَّ في سعة من العيش فأنا أقبل هذا بمحبة شاكراً الله وراضياً بالمصائب الكثيرة.

إن مرنِّم المزامير قبل كل شيء من السيد بشكر مجتهداً أن يكون دائماً مطيعاً للأوامر المعطاة من فوق. إن الملك والنبي داود كان يظهر التواضع في كل أعماله، لذلك قال عنه الرب: «إني وجدت داود بن يسَّى رجلاً على حسب قلبي» (أعمال ١٣: ٢٢).

لا شيء يمهِّد السبيل إلى نيل المجد والعلى والشرف كالتواضع. قبل أن يضع السيد المسيح نفسه لم يكن سوى الهلاك والخراب في العالم. فلما وضع الصالح نفسه نهض بكل شيء إلى السماء. أباد اللعنة، وطىء الموت، فتح الفردوس، أمات الخطيئة، كشف قبّة السماوات، رفع طبيعتنا إليها، بدَّد الضلال، وطَّد الحق، منح العالم خيرات لا تحصى. إن السيّد نفسه قبل أن يتواضع بالتجسُّد عرفه الملائكة فقط. فلما تواضع عرفه الجنس البشري كله. إن التواضع زاد مجد المسيح ولم ينقص منه شيئاً البتة، لذلك يبشّرنا المخلص بقوله: «احملوا نيري عليكم وتعلّموا مني اني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (متى ١١: ٢٩) لذلك حتى نجد هذه الراحة على الأرض وفي السماوات أيضاً فلنوطِّد في نفوسنا فضيلة التواضع التي هي أُم الخيرات كلها. فبواسطتها وحدها نقدر أن نجتاز بحر هذه

الحياة دون مشقّة، ونصل إلى الميناء الهادئ بنعمة سيدنا المسيح ومحبته للبشر الذي له المجد والملك إلى دهر الداهرين.

ترجمة الأب الياس كويتر المخلصي
(عن المخطوطات المخلصية القديمة)

١٣
عِظَة
وصية الإنجيل بعدم دينونة القريب

«لا تدينوا لئلاَّ تُدانوا» (متى ٧ : ١) والرسول بولس يكرز بالكلام نفسه: «وأنت يا هذا لِمَ تدين أخاك، لمَ تزدريه؟ مَن أنت حتى تَدين عبد غيرك» (رومية ١٤ : ٤ و١٠) «إذن لا تحكموا البتة قبل الأوان إلى أن يأتي الرب» (كورنثوس الأولى ٤ : ٥) كذلك يكرز الرسول نفسه في محل آخر: «حاجج ووبِّخ وعِظْ» (تيموثاوس الثانية ٤ : ٢) «والذين يخطأون وبِّخهم أمام الجميع» (تيموثاوس الأولى ٥ : ٢٠) والمسيح المخلص قال لبطرس والتلاميذ: «إن تعدّى عليك أخوك فسِرْ وعاتبه بينك وبينه فقط فإن سمع منك فقد ربحت أخاك وإن لم يسمع منك فخُذْ معك واحداً أو اثنين إذ من فم شاهدين أو ثلثة تثبت كل كلمة، فإن أبى أن يسمع منهم فقُل للبيعة، فإن أبى أن يسمع من البيعة، فليكن عندك كوثنيّ وعشّار» (متى ١٨ : ١٥ – ١٧) فالسيّد عدّد الوسائل لإثبات الذنب وحسب كل مَن يأبى استماع الكلمة كالوثنيّ والعشّار. إن لم يعاتب السيد خادمه والسيدة خادمتها والوالد ولده والصديق صديقه حتى إذا لم نعاتب الأعداء أيضاً لما تبدَّدت العداوة وزال الخراب عن كنيسة الله وعن الأُسَر والجمعيات.

إن المخلص يشرح لنا قوة الوصية عن عدم دينونة القريب بالكلمات الآتية: «لماذا تنظر القذى في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك» (متى ٧ : ٣) إن السيد يأمر الجميع على السواء ألاَّ يدينوا على الخطيئة، لأن الذين أفسدتهم الخطايا الكثيرة لا يجوز لهم أن يؤنِّبوا غيرهم على الهفوات الطفيفة. إن المخلص يدلّ هنا بنوع خاص على اليهود الأشرار الذين

يدينون القريب لهفوات صغيرة ويرتكبون هم الخطايا العظيمة، لذلك وبّخهم ابن الله قائلاً: «إنهم يربطون أحمالاً ثقيلة صعب حملها ويضعونها على أكتاف الناس ولا يريدون أن يحركوها بإصبعهم. انكم تعشِّرون النعنع والاينوسون والكمون وقد أهملتم أثقل ما في الناموس أي الحكم والرحمة والإيمان» (متى ٢٣: ٤ و٢٣). والرسول القديس بولس لم ينهِ أهل كورنثوس عن دينونة الجميع بدون استثناء بل أمرهم أن يدينوا المتجاوزين إذا كانت جريمتهم ظاهرة. لذلك لا يجوز أن نطعن بهؤلاء ونلومهم بل لنوضح لهم الخطأ ولا نرميهم بالكلام بل ننصحهم ولا نحمل عليهم لنصلحهم بالمحبة. انك بالانتقاد لا تعرّض قريبك للقصاص بل أنت تقع تحت طائلته. انك لا ترحمه بل تتلو حكمك على خطاياه. إن من يترك خطايا القريب يخلص نفسه من الدينونة، وان من يتساهل في البحث عن جريمة الغير يفتح طريقاً للحصول على ترك ما عليه. فأصلح خطأ الغير لا كعدو معرّضاً إياه للعقاب بل كطبيب يصف له العلاج. إن المعطي الحياة لا يقول: لا توقف الخاطئ عن عمله بل قال لا تدن أي لا تكن حاكماً قاسي القلب! لذلك أضاف إلى قوله: ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك..

كثيرون الآن يعملون كما ذكر في الإنجيل؛ إذ يرون راهباً له ثوب زائد فينبهونه عادة إلى تعاليم السيد مع انهم كثيراً ما يسلبون الآخرين ثيابهم، أو يرونه غير مُراعٍ التقشف في معيشته فيرمونه بسهام التأنيب وهم يعاقرون الخمرة كل يوم ناسين أنهم بدينونتهم الآخرين يحرمون من كل تبرئة. ان دينونة القريب بشدّة لا تدلّ على أقل رفق بالإنسان بل على البغض الشديد. ان الذي يدين الآخرين متظاهراً بالمحبة للبشر هو مملوٌّ شراً لأنه ينتحل صفة المرشد الحقيقي وهو لا يستحق أن يكون تلميذاً. فان كنت شديداً على الغير وتنتقد الهفوات الصغيرة، فلماذا لا تنتبه لنفسك ولا ترى خطاياك الكبيرة! ان المخلص كما يظهر لا ينهي عن الدينونة بتاتاً بل يأمر أن تخرج الخشبة التي في عينيك وبعده تقدر أن تصلح خطأ غيرك. كل يعرف عيب نفسه أكثر من سواه. فالأولى أن يرى الكبير قبل الصغير، وأن يحب نفسه قبل الغريب.

ان كنت تدين الآخرين قاصداً الخير لهم فالأولى بك أن تفكر بنفسك أولاً لأن خطأك أوضح وأكبر. وإذا تهاونت مع نفسك فهذا دلالة على أنك تدين أخاك، لا لإصلاحه، بل قسوةً وبغضاً. أما إذا كنت تريد أن تشينه؛ أو إن كان لا بدَّ من دينونة، فدع ذلك لبريءٍ لم يفعل خطيئة لا أنت! انك لم تخرج الخشبة التي في عينيك بل لا تراها

أبداً ولا ترى القذى الذي في عين أخيك فقط بل تدينه وتجتهد أن تنزعه من عينه ، فأنت بذلك كمن لا يكترث لدائه العضال ويوبّخ غيره لعارض بسيط اعتراه. فإذا كان عدم الانتباه لخطيئتك شراً عظيماً فلا ريب أن الشر أعظم في دينونتك الآخرين والخشبة في عينك دون أن تشعر بها لأن الخطيئة أثقل من الخشبة كثيراً.

وعليه ، فإن وصية المسيح تعني أن الملطخ بالعيوب الكثيرة لا يجوز له أن يقسو بحكمه على المذنبين وخاصة إذا كانت الذنوب تافهة صغيرة وينتج من ذلك أن السيد يسوع المسيح ينهى عن عدم الاكتراث بالخطايا الخاصة لأن من اعتاد ألا يهتم لخطاياه العظيمة ويدين غيره على عيوبه الصغيرة يعاني الخطر مضاعفاً ، لعدم اهتمامه بنفسه وتجاوزه أقصى حدود الرحمة.

ترجمة الأب الياس كويتر المخلصي
(عن المخطوطات المخلصية القديمة)

١٤
عِظَة
عظمة محبة القريب

«أحبب قريبك كنفسك» (متى ٢٢ : ٣٩) لنصوِّر لكم بالكلام عظَمَة فضيلة المحبة المسيحية ، لأننا نراها بالفعل ، لا في أحد الأماكن. ولنفهم مقدار الصلاح بين الأرضيين لو انتشرت المحبة بغزارة في كل مكان ، لا تبقى حاجة لنا إلى القوانين وقتئذٍ ، ولا إلى المحاكم والعذابات والعقاب وما أشبه ذلك. لو أحبَّ الناس بعضهم بعضاً لما حدث القتل والخصام والاضطراب والنهب والاختلاس ، ولكان اسم الخطيئة مجهولاً. تأملوا الشيء الذي يستحق الإعجاب في فضيلة المحبة ! قد يخالط الشر غير المحبة من الفضائل ، مثلاً ، قد يفتخر القنوع بفضيلته ويقع البليغ في مرض حب المجد ويرتفع المتواضع في ضميره غالباً. أما المحبة فهي خالية من كل داء لأن المحب لا يرتفع أمام من يحب ، يعيش المحب على الأرض كأنه في السماء متلذذاً بالراحة الدائمة ، معدًّا الأكاليل الكثيرة ، فمثل هذا يحفظ نفسه طاهرة من البغض والغضب ، من الحسد والكبرياء ، من المحبة الشائنة

ومن كل إثم آخر. لذلك نرى المسيح المخلص يضع محبة القريب علامة لمحبته المخلصة فقد قال لبطرس الرسول: «أتحبني؟ - إرعَ خرافي» (يوحنا ٢١: ١٥). لو أحب رجل رجلاً معروفاً وأهمل ولده المحبوب لتكدّر ذلك الولد، ولما اعتبر هذه المحبة شيئاً تجاه احتقار والده. فالله يحب البشر أكثر من الآباء الأرضيين كلهم لذلك قال المخلص: «أحبب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل ذهنك! هذه هي الوصية العظمى والأولى والثانية مثلها أحبب قريبك كنفسك» (متى ٢٢: ٣٧ - ٣٩).

فالحق لو تُمِّمَت هذه الوصية بدقة لما وجد عبد وحرّ ورئيس ومرؤوس وغني وفقير وعظيم وحقير، ولكان الشيطان مجهولاً، لأنه أسهل أن يحتمل النار العشبُ اليابس من أن يحتمل الشيطان لهيب المحبة. المحبة المسيحية أمتن من السور، وأصلب من الماس، ومن كل الأشياء الصلبة. لا يتغلب عليها لا فقر ولا غنى، فلو سادت لما كان فقر ولا غنى بل صلاح وافر في الإثنين، بل تمتعنا بالقناعة في حالة الغنى، وبالخلوّ من الاهتمامات في حالة الفقر، فلنتصوَّر جمال المحبة وما تسبّبه لنا من المسرّات وتقدّمه النفس من الملذات. أما غير المحبة من الفضائل: كالصيام والعفّة والسهر على الواجبات، فإن الأتعاب ترافقها، والميل للإثم والإعجاب بالنفس. ان المحبة تقدّم لنا لذّة عظمى عدا عن المنفعة فلا تعب معها، إنها كالنحلة الدؤوب تجمع الحسن من كل مكان وتفرغه في قلب المحبّ. إذا وجدت المحبة فضّلت العبودية على الحرية لأن المحب يسرّ بالعطاء والخضوع أكثر من الآمر. المحبة تغيّر جوهر الأشياء وتجلب الخيرات التي لا تفترق عنها. المحبة ألطف من كل أُم، وأكرم من كل ملكة، تجعل الصعب سهلاً، والفضيلة جميلة، والرذيلة مكروهة.

قد يحزنك إعطاء مالك للآخرين. أما المحبة فتجعله لذيذاً. وقد يلذّك أن تربح مال الآخرين، أما المحبة فتجنّبك عنه كالاثم. وقد يطيب لك اغتياب الكثيرين، أما المحبة فتجعله مكروهاً لديك. لا يلذنا شيء كمدح من نحب، ولا مكان للغضب إذا وجدت المحبة. فالمحبة تداوي الغضب بالدموع، الإثم بالحزن لا بالضحك والمسرّة. ان الدموع شفاء الباكي، ومن يفقدها يفقد شيئاً ثميناً.

ان رسول المسيح دعا المحبة أُمًّا للخيرات كلها، وفعل العجائب بفضلها. اننا نعرف الملك من تاجه ومن ثيابه الثمينة المذهبة. هكذا تلميذ المسيح نعرفه من المحبة التي تتوِّجه. فقد قال السيد يسوع المسيح: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً» (يوحنا ١٣: ٢٥) ان بهذه العلامة وحدها يُعرَف تلميذ المسيح: دع الآخرين يفعلون

العجائب ولكنهم عرضة للسخرية ، إذا لم تكن فيهم المحبة . وبالعكس فان المحبة وحدها إذا كانت فيهم تجعلهم موضوع احترام الجميع . اننا نعجب من القديس بولس الرسول ، لا لإحيائه الموتى وشفائه المرضى ، بل لقوله بجسارة : «من يضعف ولا أضعف أنا أو من يشكك ولا أحترق أنا» (كورنثوس الثانية ١١ : ٢٩).

أجل ! لقد كان الرسول نفسه ينتظر الجائزة العظيمة ، لا لأنه أجرى المعجزات ، بل لأنه كان يمرض من أجل المرضى ، ويستعد للموت لخلاص رعيته ألم يقل : «انه خير لي أن أموت من أن يعطل أحد فخري» (كورنثوس الأولى ٩ : ١٥) يقول هذا لا يفتخر ، بل لكي لا يظن أنه يوبخ . لم يفتخر رسول المسيح بمواهبه أبداً ، بل اضطر أن يدعو ذاته جاهلاً (كورنثوس الأولى ١ : ٢٥) و(الثانية ١١ : ١) وافتخر بالغضب والأتعاب ومشاركة الآخرين في مصائبهم ولما أعطى المسيح المخلص وصيته الجديدة من المحبة تمّمها هو نفسه بالفعل . فملك الكل الأزلي المغبوط لم يحتقر البشر الذين خلقهم من العدم بنعمته بل أنعم عليهم كثيراً وصار إنساناً لأجلهم وأقام الموتى وشفى المصابين بالأرواح النجسة ودعا الساقطين إلى السماء ورحم البشر رحمة لا توصف . ومع انهم صلبوه فلم يرفضهم بل قال وهو على الصليب «يا أبتِ اغفر لهم» (لوقا ٢٣ : ٣٤) وأدخل اللص الذي أهانه في بادىء الأمر إلى الفردوس ، وصيَّر شاول المضطهد رسولاً وأسلم تلاميذه الذين أحبهم جداً إلى الموت من أجل خلاص صالبيه .

فعند ذكرنا أيها الأحباء كل هذا لنضمر المحبة التي تفوق المواهب كلها لكي نحصل على الخيرات الحاضرة والآتية التي سنستحقها جميعاً بنعمة سيدنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذي له مع الآب والروح القدس المجد والمُلك والشرف من الآن وإلى دهر الداهرين آمين .

(المخطوطات المخلصية القديمة)

١٥
عِظَة
محبة القريب بالأعمال

١ – خدمة القريب

لا يريد الله أن يكون المسيحيُّ أنانيًّا، لا هَمَّ له سوى نفسه بل يريده قدوةً لغيره بتعليمه وحياته وسلوكه. وليس من مثَل صالح أشدَّ فاعليّة من حياة نقيّة نعيشها على نهج العدالة، إذْ لا يعتبر الناس كلامنا بقَدَر اعتبارهم أعمالنا.

(الميمر ٨ على سفر التكوين رقم ٥)

إنَّ الله يوزع علينا الوزنات بحسب استطاعتنا وضمن حدود رسالتنا: إمّا حماية القريب بنفوذنا أو مساعدته بمالِنا أو نصحُه بتعليمنا أو أية مساعدة أخرى. فلا يقولنَّ أحد في نفسه: «ليس لي سوى وزنة واحدة، فلا أستطيع أن أعمل شيئاً». باستطاعتِك أن تنالَ رضى الرب لعمل واحد. فلستَ أشدَّ فقراً من أرملةِ الإنجيل ولا أقلَّ ثقافة من بطرس ويوحنا وقد أصبحوا أُمراء السماء، رغماً عن سذاجتهم وجهلهم، لأنهم عَمِلوا على إفادة القريب.

ليس من أمر يُرضي الله أكثر من أن نقف حياتنا على خدمة القريب فقد منحَنا الله الفهم والنُطق، الأيدي والأرجل والقوى الجسدية. كل هذا لكي نستخدمه لفائدة نفسِنا والقريب. لم يمنحْنا الله الكلام لأجل حمده وحسب، بل لأجل فائدة الآخرين وتعليمهم ونصحهم. فإذا كنَّا نستخدمه لهذا الغرض، فإنما نقتدي بالله وإلاَّ فبالشيطان.

(الميمر ٧٨ على إنجيل القديس متى، الرقم ٣)

٢ – العطاء أجدر بالغبطة من الأخذ

سعيدٌ من استطاع أن يسعف نفسه ولم يَجُرْ على اليتيم والغريب والأرملة. لأن الرب قال: إنَّ العطاء أجدر بالغبطة من الأخذ. وقال أيضاً: الويلُ لمن يستطيع أن يُغيث غيره ويأخُذُ ما لغيره. سوف يؤدّي كلاهما حساباً للرب الإله في اليوم الآخر. إن الذي يجمع الحسنات لصالح اليتامى أو لصالح من يشكون الشيخوخة، أو للمرضى أو لإعالة ربِّ الأُسرة العديدة الأفراد، لا لومَ عليه بل يستحق التكريم. هو يحسبُ أن الله قد وضع

كنزه في أيدي المحسنين، لكي يُحسِنوا بلا إبطاء إلى من يسألهم. إنَّ الرجل المحتاج لا يأخذ من كسَلٍ بل من كرَمِ المحسن الذي يعطي لأنه سُئِلَ، وهذا يكون مغبوطاً لدى الله في الحياة الأبدية.

أما إذا كان ذو المال بخيلاً يحتال على الغير، أو يطمئن إلى الكسل مكان أن يجتهد غوثاً للآخرين، فسوف يؤدي حساباً، لأنه «حَرَمَ الجائعين خبزهم». ومن لديه المال لا يُعطيه الآخرين ولا يستعمله في نفْع نفسه، فقد اقتنى ثعباناً، وقد قيل: إنه ينام على كنوز. ويتحقق به ما هو مكتوب: يُرَدُّ كَسْبه وليس يلتهمه، ولا هو يعود عليه بفائدة. يقول الكتاب: لا ينفع المال في يوم الغضب.

مثلُ هذا الرجل لا يجعل إيمانه بالله بل بمَاله، جعله إلهه وعقَدَ عليه رجاءه. مثل هذا الرجل يجوز عن الحق ويُحابي الوجوه، يكفر. يقضي أيامه حزيناً، عدوّ نفسه، لا يصادقه أحد.

٣ – الصَدَقَة

يشهد بولس لأهل فيلبي، لا على مجرد إيمانهم وما اقتحموا من أخطار في سبيله وحسب، بل على إحسانهم أيضاً، قال: «فورَ معرفتكم الإنجيل، بعثتم إليَّ بما يلزم، الأمر الذي لم تفعله كنيسة أخرى». فلنتفهَّم حسناً هذا المثَل، وليكن لنا قدوةً صالحة. وقبل كل شيء، علينا أن نكون على أُهبة الاستعداد للتألُّم في سبيل المسيح.

ليس في زماننا مضطَهدون يسيئون معاملة المسيحيين. فيبقى علينا الاقتداء بأهل فيلبي في مواصلة الإحسان بسخاء، بدون أن نتوهَّم أنَّ واجبنا يقف عند حدّ العطاء مرة أو مرتين، فهو لزامٌ علينا مدى الحياة. إنَّ أبناء العائلة الشريفة لا ينزعون عنهم الحُلية الذهبيّة التي تزيّن عنُقهم، دليلاً على شرف أصلهم. هكذا علينا أن نتحلّى بالإحسان في كل مكان وزمان، دليلاً على نبل أصلنا، بصفتنا أبناء الرحمن الجوَّاد الذي يشرق شمسه على الأبرار والأشرار.

٤ – إطعام الجياع ومؤاساة المحتاجين

تأمّلوا أيها الذين يتنعَّمون، ويُنفقون أموالهم في الأطعمة اللذيذة والأشربة المُسكرة والملابس الفاخرة، وجملةً في ما لا حاجة إليه لقيام الحياة، وإخوتهم شركاؤُهم في أُخوَّة

المسيح يموتون من الجوع والعطش، ينقصهم مُمْسِكُ الرَّمق. إنَّ الذي جُعِلَ في أيدينا ليس لنا وحدنا، بل لنا وللمعوزين على السواء. فكما نستعمله لسَدِّ حاجاتنا، كذلك يجب علينا أن نمِدَّ منه المحتاجين بما يسدُّ حاجاتهم، ولا نَخُصُّ به أنفسنا وحسب. ما أجدرَنا بأن ننصاع لقول الرسول، وقد نطقَ على لسانه روح مُرسله، قال: لا يطلبَنَّ أحد ما يوافقه، بل ليطلب كل واحد ما يوافق قريبه أيضاً.

إنَّ الله قد جعل للخلاص طرائق عِدَّة، ولم يحصُر جميع الفضائل في ما له علاقة بنا وحسب، بل جعل فينا ما يستقرُّ كالصوم والصلاة والعِفَّة، وما يسري منا إلى غيرنا كالصَدَقَة والتعليم والمحبة. فإنَّ هذه تنفعنا وتنفع الذين سرَتْ منا إليهم. ولا ريبَ أنَّ هذه الفضائل الناظرة إلى القريب مبنيَّة على المحبة. وهي من خصائص تلميذ المسيح، بها يُعرَف أنه تلميذه، كما قال، له المجد: بهذا يَعرف الناس أنكم أحبّائي، إذا أحببتم بعضكم بعضاً. قال بولس التلميذ الحق: لو أطعمتُ المساكين جميع أموالي وأسلمتُ جسدي ليُحرَق، ولم تكن فيَّ المحبة، فلستُ بشيء. فهذه غاية عظيمة. وأعظم منها القول: لو بذَلَ الإنسان دمه في الشهادة، وآخر لم يُقْدِم عليها، وآثر عليها خير القريب، لكان من الراجحين.

فالصَدَقَة عظيمة جداً، لأنَّ معها الصوم يُقبَل. قال النبيّ: إنَّ مثل هذا الصوم يُرضي الله. ومعه تصعد الصلاة. لأنَّ الكتاب يقول: إنَّ صلواتك وصَدَقاتِكَ قد صعِدَتْ ذِكراً لك قدّام الله.

(العِظَة ٣١)

٥ - أحب المسيح في القريب

«لا تستطيع حمل عبء خيراتك فتقاسم الحِمْل مع المسيح. لا تريد أن تعطيه كل شيء فأعطه إذن النصف أو الثلث. إنه أخوك وشريكك في الوراثة فاجعله شريكك في الوراثة في هذه الحياة أيضاً. وبقدر ما تعطيه يعطيك هو أيضاً. لقد جعلك وريث السماء وأنت لا تريد أن تعطيه حتى ولو جزءًا من خيراتك على الأرض.»

«هل أنت فائض بالغنى. ولكن ما نفع هذا كله بالنسبة إلى نفسك. فلأنك غني بالمال، في حين كانت نفسك فقيرة، فأنت تتحلّى بالورق وليس فيك ثمر...».

ترجمات للأب ايزيدور أبو حنا

المخلصي

١٦
عِظَة
معنى الأحزان في الحياة البشرية

وكان يعلِّم تلاميذه ويقول لهم : «إن ابن البشر سيُسلم إلى أيدي الناس فيقتلونه وبعد أن يُقتل يقوم في اليوم الثالث» (مرقس ٩ : ٣٠).

لما فاه يسوع المسيح بالكلمة المحزنة – فيقتلونه – أضاف الكلمات المفرحة : انه يقوم في اليوم الثالث ، حتى نعلم بأن السرور يتلو الأحزان ، وحتى لا نيأس من التجارب ، ونقطع الأمل من الحصول على المسرّات. فإذا لم تكن التجربة ، لا يكون الإكليل. وإذا لم يكن جهاد فلا سبيل إلى المكافأة ، وإذا لم تكن الحرب فلا سبيل إلى المجد والمفخرة ، وإذا لم تكن الأحزان فلا حاجة إلى التعزية ، كما انه لا صيف بلا شتاء.

اننا نتأكد صحة ما ذكر من البذور التي تُطرح على الأرض ، فانها تتطلب الأمطار الغزيرة والبرد الشديد حتى تنبت وتعطي سنابل جيدة. لنزرع نحن أيضاً أثناء التعاسة الروحية حتى نحصد صيفاً ، لنزرع الدموع حتى نحصد الابتهاج حسب قول ابن الله : من يزرع بالدموع يحصد بالابتهاج. ان مقدار تأثير المطر على البذور لتنمو كتأثير الدموع التي تحيي في النفس بذور التقوى وتنميها وتنضجها. فكما يشق الزارع الأرض بمحراثه مهيئاً إياها لتكون مأوى منيعاً للبذور وتحفظها في جوفها حتى ترسل جذورها بلا وجل ، هكذا يجب علينا أن نحرث قلوبنا بالأحزان إلى الأعماق كما يعلِّمنا النبي : حلُّوا قلوبكم لا ثيابكم.

فلنفتح قلوبنا ونستأصل النباتات الرديئة والأفكار الشريرة ونهيّئ الحقل لبذور التقوى ، إذا لم نجدّد الحقل ونزرع الآن ، إذا لم نذرف الدموع في وقت الصيام ، فمتى يكون إذاً وقت انسحاق القلوب؟ هل في وقت الراحة والسرور؟ ان هذا آنئذٍ غير ممكن ، لأن الراحة ، تؤدي عادة إلى عدم الاكتراث ؛ بينما الأحزان تردّ النفس إلى ذاتها إذا كانت ملتهية بالأشياء العالمية. إن الزارع إذ يلقي في الأرض البذور التي جمعها بالأتعاب الشاقة ، يصلي من أجل هطول الأمطار. فالذي يجهل عمله يقف مذهولاً محتاراً ، ماذا يصنع؟ إن الزارع المجتهد لا يطرح البذور في الأرض فقط بل يخلطها بالتراب ويصلي من أجلها لتنبت. الزارع يبتهج برؤية الطقس الممطر ، لأنه لا ينظر إلى الحاضر بل إلى

المستقبل، لا يفكر بالرعد بل بالأكداس، ولا بفساد البذور بل بالسنابل الناضجة. كذلك نحن يجب ألا نكترث للأحزان الحاضرة بل للمنفعة التي تنتج عنها. فان كنا مجتهدين لا نتضرر من الأحزان بل نحصل على خيرات وافرة. فالراحة وعدم الاكتراث هلاك للمهل، وأما النشيط فينمو ويقوى ويغدو كالذهب الذي يحتفظ بلمعانه إن كان في الماء، ويزداد سطوعاً إن طُرح في الفرن، وعكس هذا: الصلصال والتبن. فالأول يذوب في الماء، والثاني يتبدّد. هكذا البار والشرير أيضاً. فالأول يبقى في السكينة كالذهب المطروح في الماء وان كان في الشدّة يصير أشدّ لمعاناً كالذهب المصهور في النار. أما الشرير ففي الراحة يتبدّد ويفسد كالتبن والصلصال في الماء، وإن وقع في الشدّة يحترق ويهلك كالتبن والصلصال في النار.

فلا تحزن من المصائب الحاضرة لأن خطاياك تغفر بسهولة بسبب الحزن، وإن كانت أعمالك صالحة فتصبح أشد بهاء بواسطة الشدائد، وإن كنت نشيطاً فتعلو فوق كل ضرر. ان الذي يسبّب الضرر ليس هو الخطيئة نفسها بل عدم الاهتمام بها. وعليه إن شئت أن تنعم بالراحة والسكون. عوِّد نفسك الصبر ولا تفتش عن المسرّات. فإن فارقتك الصفات المذكورة لا تلبث أن تتغلّب عليك التجربة وتطأ راحتك بسرعة. ان الرياح الشديدة لا تستطيع أن تقتلع الأشجار القوية بل يزداد ثبات هذه. كذلك النفس البارّة لا تهلكها الشدائد بل توقظها وتزيدها ثباتاً وصبراً.

فبماذا، إذاً، نبرر أنفسنا نحن المنعم علينا – من الله – إذا لم نصبر على التجارب في هذه الدنيا؟ إنّ أيوب المعذّب كثيراً قد لبث أمام التجارب رابط الجأش قبل زمان الرحمة، أي في العهد القديم. فما بالك أنت تحزن من تجربة الكلي الصلاح الذي يقود أفكارك إلى الخلاص الأبدي بواسطتها. ان الله قادر أن يكفّ عنا الشدائد. لكنه لا يفعل ذلك حتى يرانا متجهين اليه بالتوبة الحقيقية الثابتة.

ان الصانع الماهر لا يخرج الذهب من النار حتى يصفو جيداً ويتنقّى. هكذا الله تعالى لا يبدِّد غيوم الشدائد عنا حتى يتثبّت من الاصلاح الحقيقي فينا. فالذي سمح بالتجربة يعلم متى تكون نهايتها. والذي يعزف على القيثارة، لا يشدّ الوتر كثيراً حتى لا يقطعه، ولا يحلّه كثيراً لئلا تختلّ الأنغام. هكذا يتصرّف الله مع الإنسان بحكمة لكي لا يتركه في راحة دائمة، أو شدّة دائمة، حتى لا يتهامل أو ييأس من الشدائد. يجب أن نترك وقت زوال الشدّة لله وحده، وأن نصلي بلا فتور، ونعيش في التقوى، وإكمال الأعمال الصالحة. ان

الله تعالى يهتم أكثر منك بإطفاء نار الشدّة أيها المجرّب ، ولكنه ينتظر خلاصك ! فكما ان الراحة والسرور تعقبهما الشدّة ، كذلك الشدّة يعقبها الفرح . فلا يدوم الشتاء ولا الصيف ولا الأمواج ولا السكون ولا الليل ولا النهار . كذلك الشدّة لا تدوم لأن الراحة ستتلوها ، إذا كنا نشكر الله في كل حال ونحمده أيام الشدائد والأهوال .

يجب أن نخصّ نفوسنا بالأعمال الصالحة لنحوّل غضب الله عنا ولنجعل أعضاء أجسادنا كلها عدّة للحق ، ونعوّدها أن تكون خادمة للأعمال الصالحة . فبهذا وحده فقط نتخلّص من الخطر ونرضي الله تعالى ونحصل على الخيرات التي لا توصف ، والتي سنستحقها بنعمة سيدنا يسوع المسيح المحب للبشر الذي به يتمجّد الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

(المخطوطات المخلصية القديمة)

١٧
عِظَة
يجب علينا الاهتمام بخلاص القريب

علينا أن نهتم بخلاص القريب كما نهتم بخلاص نفوسنا فاذا لم نفعل هذا لا نخلص نحن أيضاً. ان الجندي الذي يهرب من ساحة القتال ليخلص يهلك مع غيره. خلافاً لذلك الجندي البطل الذي يدافع عن الآخرين وعن نفسه ليخلص معهم . ان حياتنا الحاضرة لحرب شعواء وأشدّ من سواها حين يستمر القتال والكفاح ، فلنباشر الحرب كما أمر الملك مستعدّين للغلبة والقتال وسفك دماء الأعداء مهتمين بنجاة الجميع ومشدّدين الواقفين وناهضين بالواقعين لأن الكثيرين من اخوتنا قد يكونون حينئذٍ مثخنين بالجراح وليس بقربهم أحد بعد المعركة ، لا شعب ولا كاهن ولا ناصر ولا صديق ولا أخ وعلى الإجمال لا أحد يعنى بهم بل كلٌّ يفكر بنفسه فقط فهنا تُباد محبة الذات وتُعدّ وقاحة عظيمة عند الله ألا نهتم إلا لنفوسنا ، وإنما الثناء والمديح لذلك الذي يضحي بنفسه في سبيل الآخرين. فاذا كنا ضعفاء يسهل التغلّب علينا من البشر والشيطان، لأننا نسعى إلى التفريق ولا نثبت بعضنا بعضاً ولا نتحصّن بمحبة الله بل نفتش عن أسباب أخرى

للصداقة بالقرابة أو بالتعارف أو بالجوار ، مع ان هذه الأسباب لا تثبتنا في الصداقة أكثر من التقوى وحسن العبادة وهكذا لا نزال ضعفاء معاكسين لأننا نصادق اليهود الوثنيين أكثر من مصادقتنا أبناء كنيستنا المسيحيين.

نقول : هذا شرير وذاك وديع وطيب القلب. تدعو شريراً أخاك الذي حرّم عليك أن تقول له يا أحمق. ألا تعلو خدّيك حمرة الخجل إذا شتمت أخاك الذي هو عضو من جسدك والذي تشترك معه في الولادة الروحية ويتناول معك من مائدة واحدة؟ وإذا أتى أخوك بالجسد بأعمال شريرة كثيرة تجتهد أن تستر عيوبه لأنك تحسبها مهينة لشرفك. أما أخوك الروحي الذي يجب عليك أن تنفي التهمة عنه عِوَضاً عن تثبيتها تدعوه شريراً ولا تطيعه مع ان الواجب عليك أن تصادقه لتردعه عن الغي والضلال وتنقذه ليرجع إلى طريق الفضيلة ، وقد تعترض على ذلك بقولك انه لا يمتثل وينتصح. من أين عرفت ذلك؟ أنصحته واجتهدت في إصلاحه؟ تجيب : نعم ، نصحته مرة أو مرتين! ان نصحك هذا يجب أن يستمرّ دون انقطاع ! ألا ترى كيف ان الله تعالى يردعنا دائماً بواسطة الأنبياء والرسل والإنجيل؟ ماذا؟ هل نتمم أوامره ونخضع لها؟ كلا ! هل يتركنا من دون نصيحة؟ أصمت ! ألا يعمل بالعكس إذ يكلّمنا دائماً : لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ! لكن الأكثرين يدفعهم الطمع والشوق لجمع الثروة يوماً فيوماً ألم يصرخ بنا الله دائماً : اتركوا فيترك لكم؟ ومع ذلك تزداد القلوب قسوة. ألا ينذرنا دائماً لنسود الشهوات الرديئة ونتغلب على الملذات الساقطة مع ان الكثيرين كالخنازير يتمرّغون في حمأة الخطايا. هذا كله لا يزال ينذرنا ، ونحن لا نفكر ولا نقول ان الله ينصحنا بل نظل على حالنا ولا نخضع لانذاره.

لذلك قال : ما أقلّ الذين يخلصون. فإن كانت لا تكفي فضيلتنا لأجل الخلاص فيجب أن نلتفت إلى فضيلة الآخرين ! فما الشيء الذي ينتظرنا في الآخرة إن لم نلتفت إلى نفوسنا ولا لغيرنا؟ لكن ما لي ألومكم في الإهمال من أجل خلاص القريب ونحن مهملون من يعيشون معنا تحت سقف واحد ، أعني بهم الزوجة والأولاد والخدَم.

اننا نهتم لكي يكون لنا خدَم كثيرون يخدموننا بإخلاص ، ولكي نترك ميراثاً كبيراً لأولادنا بعد مماتنا ولكي تتحلى الزوجة بأجمل الحلى الذهبية الثمينة وتلبس أفخر الملابس ، ولكننا لا نفكر قطعاً بنفوسهم بل بالمقتنيات. لا نفكر بالزوجة بل بما يزيّنها ولا بالأولاد بل بما يرثون. فما أشبهنا بصاحب بيت تكاد جدرانه تسقط. فبدلاً من أن

يهتم بترميمها أحاطها بسياج فقط. أو برجل يحضر لجسده الملابس الفاخرة ولا يعالج أسقامه ومرضه ويترك سيّدة البيت تتألم وتذرف الدموع وتهتم بجارياتها وأشغالهن وبأواني البيت وأثاثه. فنحن نعمل هكذا عيناً، فبينما تتألم أنفسنا من وطأة المرض وشدّته، نستسلم للغضب والنميمة والأعمال المخالفة للعقل السليم وللعجرفة والاضطراب، مع أن هذه النفوس ملتصقة بالتراب، وقد مزقتها وحوش كثيرة، ومع ذلك فلا نهتم بخلاصها من الشهوات بل نهتم بالبيت والخدم.

إن جمحت دابة أمامنا نغلق الأبواب ونختبئ من وجهها. أما الآن فنغضّ النظر عن الوحوش الكثيرة، أي الأفكار الرديئة التي تمزق نفوسنا. إننا نراقب الوحوش مراقبة شديدة فنحبسها في الأماكن الخالية من الناس، مقيّدين إياها بالسلاسل والأصفاد. أما النفس التي هي مجلس الشورى وقصر الملك ودار الحكومة فتدخل إليها الوحوش رافعة أصواتها وضجيجها بقرب العقل نفسه بقرب عرش الملك.

من هذا ينتج عدم الانتظام والاضطراب أينما كان في أعماق النفس وخارجها، فتشبه حينئذٍ مدينة هجمت عليها البرابرة ودخلتها. وهكذا يحلّ بنا ما يحلّ بالطيور الصغيرة إذ تدخل الأفعى أعشاشها لتستولي عليها فترفع أصواتها الحزينة وتطير خائفة مذعورة لا تعلم كيف تنجو من الخطر.

أيها الإخوة! لو امتنعنا عن الطعام وافترشنا التراب بدل الأَسِرَّة وأكلنا الرماد ولم نكفّ عن البكاء، لما فعلنا شيئاً يستحق الذكر إذا لم نهتم لخير القريب. إن الرجال العظام يهتمون قبل كل شيء للصالح العام تاركين مصالحهم الخاصة، ولذلك تمجدوا. إن موسى النبي اجترح الكثير من العجائب والآيات، ولكنه لم يشتهر بهذا ويعظم، كما اشتهر بصراخه إلى الله: «والآن إن غفرت خطيئتهم (بني إسرائيل) وإلا فامحني من السفر الذي كتبت» (خروج ٣٢:٣٢) وبمثل هذا نطق الملك والنبي داود: «أنا الذي خطئت وأنا الذي فعلت السوء وأما أولئك الخراف فماذا فعلوا. فلتكن عليَّ يدك وعلى بيت أبي» (الملوك الثاني ٢٤:١٧) وهكذا تماماً نرى البطريرك إبراهيم يتنازل عن مصالحه الخاصة من أجل مصالح الآخرين، معرِّضاً نفسه إلى مصائب مختلفة، وكان يصلي إلى الله من أجل الغرباء عنه. وعكسه، نرى الذين لا يهتمون إلا لنفوسهم، يتحمّلون الأضرار العظيمة. هكذا لوط إذ سمع من ابراهيم: «إعتزل عني إما إلى الشمال وإما إلى اليمين» (تكوين ١٣:٩) فلما أخذ الأرض التي اختارها، بدأ يبحث فيها عن مصالحه، فلم يجدها، ولم يكد ينقذ ذاته من الحريق على

الأرض التي عاش فيها. مع ان أرض ابراهيم لم يصبها أدنى ضرر. وهكذا النبي يونان حينما أهمل مصلحة القريب من أجل منفعته الخاصة، ولم يهتم لمصلحة القريب، فتعرّض لخطر الهلاك إذ أصابته عاصفة شديدة طرحته في الماء، ولكنه عندما سعى إلى منفعة الآخرين وجد ما ينفعه أيضاً. والبطريرك يعقوب، إذ لم يفتش عن منفعته الخصوصية في القطعان، حصل على ثروة عظيمة. وكذلك ولده يوسف باهتمامه بمنفعة الأخوة، وجد أيضاً منفعته الخاصة. والصديقون كلهم الذين استحقوا الذكر والمجد لإهمالهم المصالح الخصوصية، واشتراكهم في مصائب الآخرين. أما القديس بولس الرسول فقد تألم مع الآخرين وعرض نفسه في سبيل غبطتهم وودَّ أن يقطع من ميراث الحياة الأبدية من أجل الذين لم يسلموا لعنايته. فتأمل أيها العزيز عظمة نفس رسول الأمم وسموّ أفكاره واقتدِ بغيرته. فإن كنت لا تقدر أن تكون مثله فكُن على الأقلّ كصدّيقي العهد القديم الذين ذكرناهم. لأنك لا تحصل على منفعتك الخاصة حتى تبحث عن مصلحة أخيك؛ وإن لم تهتم للقريب لا تخلص. تصوّر بيتاً يحترق لأحد الناس، فعوضاً عن أن يسرع الجيران للمساعدة لم يبرحوا منازلهم، خوفاً من السرقة، فتأمل كيف يكون قصاصهم نظراً لانتشار اللهيب. إنهم يفقدون هم أيضاً كل ما يملكون، لأنهم لم يهتموا لإسعاف القريب.

إن خالق المسكونة، رغبة في اتحاد البشر، جعل الأعمال مرتبطة بعضها ببعض؛ وبحكم الضرورة، منفعة الواحد تتعلق بمنفعة الآخر، وعلى هذا يقوم نظام العالم. فلو أهمل الربّان الخطر المحدق بركاب السفينة أثناء الإعصار، وشرع يبحث عن نجاته وحده، لأهلك نفسه والآخرين. ان الجندي يعرّض نفسه للخطر ليس لإنقاذ نفسه بل لإنقاذ الجماعات كلها، والعامل يجتهد في صنع البضائع لا لنفسه بل لأجل الآخرين. ورُبَّ معترض يقول: إن كل واحد يفعل هكذا لأجل غايته التي تعود عليه بالنفع الذاتي لا لمنفعة الآخرين، وقد ينفعهم أيضاً عن طريق اهتمامه بنفسه. وهذا يؤكد ما نقوله لأن القريب يحصل على منفعته أيضاً، حينما يضع نُصب عينيه منفعة غيره.

وفي الواقع ان البشر لا يبحثون عن مصالح غيرهم إن لم تحوجهم الضرورة. ولذلك، فقد جعل الله الكون هكذا، فلا أحد يقدر أن يصل إلى هدفه المقصود إلا بما يقدّمه من نفع للآخرين. ولا شك في أن هذا من جرّاء المحبة للبشر. فالذي يحثّنا على الإحسان هو الرغبة في تمجيد الآب السماوي، ومن يتخلى عن هذه الرغبة لا تكون له

دالّة على الله. وهذا نتأكّده من كلام الرسول: «ولو بذلت جميع أموالي لإطعام المساكين وأسلمت جسدي لأُحرَق ولم تكن فيَّ المحبة فلا أنتفع شيئاً» (كورنثوس الأولى ١٣:١٣) فاذا أراد أحدكم الحصول على منفعته الذاتية فلا يبحث عنها وحدها.

(المخطوطات المخلصية القديمة)

١٨
لا يجوز لك أن تدين قريبك

«لا تدينوا لكي لا تُدانوا» (متى ٧:١).

ما هذا، ألا يجوز أن نلوم الخطأة؟ نعم! ان بولس يقول أيضاً هذا، والأفضل أن نقول: ان المسيح يتكلم بواسطة بولس، قائلاً: وأما أنت فلماذا تدين أخاك. أو أنت أيضاً لماذا تزدري أخاك، ومن أنت الذي تدين عبد غيرك (رومية ١٤:٤ و١٠) وقال أيضاً: لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب (كورنثوس الأولى ٤:٥) وفي المعنى نفسه يقول في محل آخر: وبخ انتهر عظ (تيموثاوس الثانية ٤:٢) وقال ايضاً: الذين يخطئون وبخهم امام الجميع (تيموثاوس الأولى ٥:٢٠) والمعنى نفسه قاله المسيح لبطرس: إن تعدّى عليك أخوك فسِرْ وعاتبه بينك وبينه فقط فان سمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع منك، فخُذْ معك واحداً أو اثنين، إذ من فم شاهدين أو ثلاثة تثبت كل كلمة، فإن أبى أن يسمع منهم فقل للكنيسة، فإن أبى أن يسمع من الكنيسة فليكن عندك كوثنيّ وعشّار (متى ١٨:١٥ – ١٧).

كما انه وضع عدواً لا يستهان به لتثبيت الحرم أو المعاقبة عنه، فكل من لا يسمع لأحد منهم أمر بأن يُعدّ كوثنيّ وعشّار. وإلا فما القصد من تسليمهم المفاتيح؟ فان لم يدينوا لا أهمية لهم، ولذلك اعطيت لهم السلطة التامة بأن يحلّوا ويربطوا، فلو كانت المسائل غير محدودة لسرى الخراب إلى الكنيسة والاجتماعات المدنية والعائلية، وهكذا ينتشر الشرّ أكثر فأكثر اذا لم يدن السيد عبده والسيدة أمتها والوالد ولده والصديق صديقه، وخاصة اذا لم ندن العدو فان العداوة تزداد وتسير الأمور كلها بدون انتظام. فلنبحث هذه الآية بانتباه، ولنتخذها علاجاً للخلاص، لا للاضطراب.

فالمخلص يوضح قوة هذا التعليم للعقلاء بالعبارة الآتية : ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك (متى ٧ : ٣). وهنا يظهر على الأخص أن السيد لا يأمر الجميع بدون استثناء ألا يدينوا كل الخطايا بالاجمال بل يمنع الذين تفشّت فيهم الخطايا من انتقاد الآخرين لأقلّ ذنب يصدر عنهم. ولا بولس الرسول كذلك منع أهل كورنثوس كلهم أن يدينوا الكبار ولو كان جرمهم ظاهراً ، ولم يمنع الجميع أن يصلحوا الذين أخطأوا في السرّ ، بل منع التلاميذ الذين يجادلون معلميهم مع الخطأة. ان المسيح يهدّد هؤلاء ويوقع الخوف في قلوبهم بالقصاص الذي لا مهرب منه إذ يقول : لأنكم بالدينونة التي تدينون بها تُدانون (متى ٧ : ٢) أي انك لا تدين سواك بل نفسك ، معرّضاً إياها للدينونة الرهيبة والعذاب الشديد. فكما ان ترك الخطايا يتعلق بنا أولاً ، كذلك في يوم الدينونة نضع نحن مقياساً لدينونتنا. لذلك وجب علينا ألا نطعن أحداً أو نلومه ، بل علينا أن نفهمه خطأه وننصحه ، ولا نتهجّم عليه بكبرياء بل نعلمه بمحبة لأننا عندما نلفظ الحكم على خطاياه من دون رحمة لا نعرضه للعذاب الشديد بل نعرّض نفوسنا.

فانظر ما أسهل هاتين الآيتين ، وكم تجلبان من الخيرات للطائعين. وبالعكس كم من الشر تسببان للعاصين؟ فالذي ينظر إلى ذنوب قريبه بعين العفو والتساهل والمسامحة يضع أساساً للسماح عن نفسه في اليوم الأخير. وهذا لا يعني أن يغض الطرف عن الزاني أو غيره بل أن ننصحه ونصلحه لا كعدوّ يهدّده بالقصاص بل كطبيب يقدّم له العلاج الشافي.

لم يقل المسيح لا تخف المجرم ، بل قال لا تدن ، أي لا تكن حاكماً قاسياً. والقول هنا يشمل الآثام الطفيفة لا تلك الخطايا العظيمة المحرّمة جهاراً. لذلك قال السيد : ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك (متى ٧ : ٣) وما أكثر الذين يفعلون هكذا ، إذ يرون راهباً يملك ثوباً زائداً فيقدّمون له تعاليم السيد ، مع انهم بالطرق الكثيرة يسلبون يومياً ، ويرابون ويظلمون ، أو اذا رأوه لا يتقشف ، يصيرون وشاة شريرين ، مع انهم يثملون ويفقدون رشدهم يومياً ولا يعلمون أنهم بهذا يعدّون لأنفسهم السعير ويحرمون من كل تبرير !

يجب عليك أن تراقب أعمالك بصرامة طبقاً للتعاليم ما دمت تدين أعمال قريبك. أما إن كنت تعدّ لنفسك العقاب فلا تتذمّر من وطأته الثقيلة ! يا مرائي اخرج أولاً الخشبة من

عينيك. بهذه العبارة يظهر المخلص غضبه من أولئك الذين يدينون القريب. وعلى هذه الصورة يقول للعبد الذي يطالب بعنف رفيقه العبد الآخر بالمئة دينار التي له عليه! أيها العبد الشرير اني عفوت لك عن ذلك الدَين كله لأنك التمست مني. أفلم يكن ينبغي لك أن ترحم رفيقك في الخدمة أيضاً كما رحمتك أنا؟ (متى ١٨: ٣٢ و٣٣) فمثل هذا عيناً استعمل كلمة «يا مرائي». فالحكم القاسي على القريب لا يظهر حب الخير له بل البغضاء للبشر، لأن مَن يدين غيره يتظاهر بالمحبة له. وهو في الواقع مفعم شراً، ويعرض القريب إلى الملامة والإهانة سدى ويختلس محل المعلم ولا يستحق أن يكون تلميذاً!

فان كنت صارماً جداً بمعاملة الغير، وترى الهفوات الصغيرة جداً، فلماذا تتراخى مع نفسك ولا ترى آثامك الكبيرة؟ اخرج أولاً الخشبة من عينك! ان السيد لا يمنع دينونة الآخرين تماماً، ولكنه يأمر أولاً باخراج الخشبة من عين النفس وحينئذٍ نلتفت إلى إصلاح أخطاء الآخرين. كل اعرف بنفسه من غيره. الكبير يعلم أكثر من الصغير. وكل يحب ذاته أكثر من سواه. لذلك، ان كنت تدين الآخرين قاصداً لهم الخير ردّه أولاً لذاتك. إثم من أعظم وأوضح؟ فاذا كنت لا تكترث لنفسك، فمن الأكيد أنك لا تدينُ أخاك حباً باصلاحه. بل بغضاً وتهجماً على عرضه، فان كان مستوجباً الحكم فليدنه ذلك البريء من كل إثم، لا أنت! لأن المسيح قدّم لنا قوانين الحياة العظيمة السامية. وحتى لا أحد يقول ان النطق بالحكمة أمر سهل جداً. قدّم لنا هذا المثل برهاناً على عظيم سلطته التي قدر أن يقدّمها عن ذاته بأنه الوحيد الذي لم يخطىء ولم يتعدَّ واحداً من القوانين التي وضعها بل تمّمها كلها، ولكنه اضطر في الوقت الأخير أن يحاكم ويقول: الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون (متى ٢٣: ٢٥) فهو المنزّه تماماً عن الشر الذي يدين به الآخرين، إذ لا قذى ولا خشبة في عينه. انه البريء من هذه وتلك، وهكذا أصلح خطايا البشر كلهم. انه قال لا يجوز للمرء أن يدين غيره وهو تحت وطأة الجرم نفسه. فلا تعجب من هذا القانون. ان اللص وهو على الصليب تحقق ذلك وأوضح فكر يسوع المسيح بقوله إلى رفيقه اللص الآخر زاجراً: أما تخشى الله وأنت تحت هذا الحكم بعينه؟ (لوقا ٤٣: ٤٠) أما أنت فبدلاً من أن تخرج الخشبة التي لا تراها في عينك، وألا ترى القذى في عين غيرك فقط، تحكم عليه مجتهداً، ردّ الأذى كمن عراه داء الاستسقاء أو أي مرض عضال، ومع ذلك لا يكترث له، بل يندّد سواه لعدم اهتمامه بمرضه الطفيف.

فاذا كان رديئاً ألا ينتبه الإنسان إلى آثامه. فالأردأ أكثر أن يدين الآخرين، وألا يشعر بألم الخشبة التي في عينه، لأن الألم أشد وطأة من الخشبة.

خلاصة الوصية التي فاه بها السيد هي: ان من كان عرضة للعيب لا يجوز أن يكون حاكماً صارماً للمجرمين من البشر، وخاصة اذا كان الجرم صغيراً قليل الأهمية. وهذا يعني أنه لا يمنع النصح والاصلاح بل يندّد بعدم الاهتمام بالخطايا الخاصة، وبالقيام ضد الآخرين، لأن هذا يعظم الشرّ ويضاعف فساد الأخلاق. وهذا لا ريب فيه، لأن من لا يهتم بآثامه الجسيمة، ويحكم على آثام الآخرين الصغيرة بصرامة، يتحمّل ضررين. الأول: لأنه لا يكترث لآثامه والثاني: لأنه لا يأبه بالعداوة والبغضاء للجميع بل يندفع إلى أقصى درجات القسوة وعدم الشفقة.

(المخطوطات المخلصية القديمة)

١٩
عِظَة
الخوف الحقيقي

«فتركت المرأة جرّتها وانطلقت إلى المدينة وقالت للناس هلمّوا انظروا رجلاً قال لي كل ما صنعت أليس هو المسيح» (يو ٤ :٢٨ – ٢٩) لقد تأثرت المرأة السامرية من كلام المسيح جداً حتى انها تركت جرَّتها وأسرعت إلى المدينة ودعت السكان إلى العالم السماوي. جاءت لتستقي ماء فوجدت المورد الحقيقي وتركت المحسوس وعلَّمتنا بهذا المثل الصغير أن نحتقر الأمور العالمية لدى استماع الروحية. صنعت السامرية بقدر ما استطاعت كما صنع الرسل بل أكثر. ان الرسل تركوا شباكهم بعد الدعوة. أما هذه فتركت جرَّتها بدون دعوة، وأخذت على نفسها عبء التبشير مسرورة وجذبت معها إلى المسيح سكان المدينة كلهم لا اثنين أو ثلاثة. لم تقل السامرية هلموا انظروا المسيح بل بلباقة كما اصطادها المسيح. هلمّوا انظروا رجلاً قال لي كل ما فعلت. لو كان أحد غيرها أقل إدراكاً منها لأخفى ما كشف من أمور حياته. أما هي فقد أعلنت حياتها أمام الجمهور حتى جذبت قلوب الجميع.

فلنقتدِ بهذه المرأة المذكورة في الإنجيل ولا نخجل من الناس بل من خطايانا خائفين من الديّان العادل ، لقد اعتدنا ألا نخاف من الديّان الذي سيديننا في اليوم الأخير بل من الناس الذين لا يقدرون أن يعملوا لنا شيئاً مخيفاً. ولذلك سنجازى لخوفنا من البشر في هذه الحياة. فكل من يخاف العار البشري ويصنع أمام الله شروراً سرية شائنة مخالفة للشريعة ولا يتوب عنها سيكشف خزيه أمام المسكونة كلها في اليوم الأخير. وإنّ المثَل عن الخراف والجِداء في الإنجيل يعلّمنا كيف تُكشَف الأعمال الصالحة والأعمال الشريرة. وهكذا يكرز رسول المسيح قائلاً : «لأنَّا جميعاً لا بدَّ من أن نظهر أمام منبر المسيح لينال كل واحد منا على حسب ما صنع بالجسد خيراً كان أو شرًّا» (كورنثوس الثانية ٥ : ١٠) «أمام منبر من سينير خفايا الظلام» (كورنثوس الأولى ٤ : ٥) إنما نحن نخاف من عيون البشر فقط. فلنفكر أن في يوم الدينونة الرهيب لا نقدر أن نخفي أعمالنا عن عيون البشر ، لأنها ستظهر وقتئذٍ كأنها على لوحة ، وكل منا سيدين ذاته. فالغني في الإنجيل رأى لعازر المسكين الذي كان يحتقره على الأرض وطلب إليه : «أن يبلَّ طرف إصبعه بماءٍ لكي يبرِّد لسانه لأنه معذّب في اللهيب» (لوقا ١٦ : ٢٤).

ليفحص كل منا ضميره ويعترف بخطاياه ، وإن لم يرها أحد ، ولم يقف على أفكارنا إنسان. فكل من لا يريد أن تفضح أعماله يوم الدينونة فليسرع إلى الدواء الشافي ألا وهو التوبة التي تشفي الجراح مهما كانت بليغة. قد تكون التوبة حقيقية إذا تركنا الخطايا بالفكر والعمل وأقصينا عنا كل عمل مخالف للشريعة. أسرقت أو اختلست شيئاً؟ أقلع عن السرقة وعالج هذا المرض بأعمال الرحمة! هل ضللت؟ إن كان كذلك ، إرجع عن ضلالك وعالج نفسك بالنقاوة. هل دنت أخاك أو سببت له ضرراً؟ أترك النميمة وكن محبًّا الجميع. لنتصرف هكذا مع خطايانا ولا نترك منها واحدة من دون انتباه لأن يوم الدينونة قد قرُبَ والرسول يقول : «إن يوم الرب قريب» (فيلبي ٤ : ٥).

لنقضِ حياتنا أيها الإخوة بخوف الله لأن مجيء السيد سيكون بغتة ونحن متغافلون متهاملون. وقد أوضح هذا لنا المخلص بقوله : «وكما كانت أيام نوح كذلك يكون مجيء ابن البشر» (متى ٢٤ : ٣٧) وأيضاً دلَّ بولس الرسول على ذلك بقوله : «فحين يقولون سلام وأمن فوقتئذٍ يدهمهم الهلاك بغتة دهمَ المخاض للحبلى فلا يُفلتون» (تسالونيكي الأولى ٥ : ٣) قد يَدْهم المخاض المرأة غالباً بغتة ، إمّا في وقت اللهو أو وهي على المائدة ، أو هي في السوق حيث لا تفكر بحدوثه لها ، وذلك حتى تكون حياتنا معدَّة لمواجهة الديّان العادل. ولقد جاء

في الكتاب المقدّس: «وهل في الجحيم مَن يعترف لك» (مز ٦: ٦) يا رب؟

فلنبادر إليه بالتوبة في الحياة الحاضرة حتى يعطف علينا في اليوم الآتي ونحصل على المغفرة التي نستحقها جميعاً بنعمة سيدنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذي له المجد والمُلك من الآن وإلى دهر الداهرين آمين.

الأب ايزيدور أبو حنا
المخلصي

٢٠
ممن نخاف

إنَّ الأمواج لعارمة والعاصفة تزمجر. إلاّ أنَّا لا نخشى الغرق: إنَّا لمُنتَصِبون على صخر. ما اَهتاج البحر وأزبد. فلن يفُتَّ ذلك الصخر؛ ما تتعالَ الأمواج، لا يسَعْها أن تبتلع سفينة يسوع. ممَّن نخاف، قولوا لي؟ من الموت؟ «حياتي هي المسيح والموت رِبْحٌ لي». منَ النَفْي؟ «للربِّ الأرضُ وملْؤُها». من اغتصاب الأموال؟ «إنَّا لم ندخل العالم بشيء، ومن البيِّنِ أننا لا نخرج منه بشيء». هَوْل العالم بالاستهزاء أجبَهُهُ، أمّا أمواله فأحتقرها. لا يُخيفني الفقر، والثروة لا أشتهيها. لا أرهَبُ الموت، لا أطلبُ الحياة.

لا شيء يمكنه أن يفصل بيننا. ما جمعه الله لا يفرِّقه الإنسان. لقد قيلَ في الرجل والمرأة: يترُكُ الرجلُ أباه وأُمَّه ويلزم امرأته. وكلاهما يصيران جسداً واحداً. إذن، «ما جمعه الله لا يفرِّقه الإنسان». إن كنتَ لا يسعُكَ أن تحُلَّ وثاق الزواج، فلأَنْ تعجزَ عن أن تحطِّمَ الكنيسة أَوْلى؟!... أما فهمْتَ كلمة الرب: «إذا اَجتمعَ اثنان أو ثلاثة بأسمي، أكون فيمَا بينهم». أفلا يكون الرَّبُّ ما بين شعبٍ كبيرٍ تشدُّهُ وشائج المحبة؟ فلقد نالَني الربُّ بعُربونٍ عن شعبه. إذن، هل بقوايَ أنا واثق؟ في يَدَيَّ كتابه؟ ذلكم مُعتمدي، هذا أماني، هذا مينائي الهادي. لئن تتزعزع المسكونة بأسرها، فلأتناولنَّ هذا الكتاب، أعودُ أقرأُه: إنه لَحِصْني، إنه لمأمَني. ما قِوامُه؟ إني معكم كلَّ الأيام إلى منتهى الدهر.

إنَّا لجَسَدٌ واحد، والأعضاء لا تكون بدون الرأس، ولا الرأس بدون الأعضاء. بُعْدُ الشِقَّة يمكنه أن يفصلنا، لكنَّ المحبة تشدُّنا برباط لا قُدرةَ للموت نفسه على أن يقطعه. متى يَمُتْ جَسَدي تَحْيَ نفسي وتتذكَّر شعبي.

(عِظَة قبل الذهاب إلى المنفى، ١ – ٣)

الأب ايزيدور أبو حنا

المخلصي

الفصل الخامس

الكهنوت

١
عِظَة
عن الكهنوت

١ – منزِلة الكاهن

عندما يدعو الكاهن الروح القدس ويحتفل بالذبيحة الإلهية، وعندما يأخذ بيديه ربَّ الطبيعة الأسمى، أسألك في أيَّة مَنزِلة نضعه؟ أيَّة طهارة وأيُّ تقوى لا نطلب منه؟ كيف تكون اليدان اللتان تُستخدمان لمثل هذا السر؟ كيف يكون اللسان المكلّف بأن ينطِقَ بالكلمات التي تعرفها؟ وهل هناك درجة في القداسة والطُهر أرفع من هذه الدرجة التي تَرْقى إليها النفس التي تستقبل روح الله؟ مع الكاهن تحضر الملائكة وتُنشد الأجواق السماوية أناشيدها فتعبَقُ الأجواء حول المذبح بالترانيم إكراماً للذبيحة المرفوعة. إنّه المسيح هنا. وهو الذي هيّأ هذه المائدة، وهو أيضاً من يُؤخذ منها. وليس هو الإنسان الذي يُحوِّلُ ما يُقرَّبُ إلى جسد يسوع المسيح ودمه بل هو المسيح ذاته الذي صُلِبَ لأجلنا. وما الكاهن على المذبح عندما يتلفَّظ بالكلمات سوى صورة ليسوع المسيح، وإنما القوَّة والنعمة تأتيان من الله الذي يفعل عندما يقول الكاهن: «هذا هو جسدي»، وهي هذه الكلمات التي تُحوِّلُ ما يُقرَّب.

٢ – سلطان الكاهن لمغفرة الخطايا

«إنَّ الآب قد أعطى الابن الحكم كله» (يوحنا ٥/٢٢)، وإني لأرى الابن يُسلِّمُ هذا السلطان بكامله إلى الكهنة. حتى أنه يُظَنُّ أن الله قد أدخلهم السماوات أولاً ورفعهم

فوق الطبيعة البشرية وخلَّصهم من عبودية الأهواء ليوشِّحَهم أخيراً بهذا السلطان الأسمى.

إنَّ كهنتنا لا يَشفُون من بَرَصِ الجسد إنما من بَرَصِ النفس. وقد أُعطوا السلطان ليس فقط ليهتمُّوا بالنفس بل ليَشْفوها. وإنَّ الآباء بحسب الجسد لا يستطيعون أن يُحاموا عن أولادهم عندما يَهينون أحد كبار هذا العالم. أما الكهنة فإنهم يصالحون الناس لا مع كبار هذا الدهر والمتسلِّطين عليه بل مع الله عندما يَغضَب.

الفرق بين آبائنا بحسب الجسَد وبين الكهنة هو ذات الفرق بين الحياة الحاضرة والحياة الأخرى. أولئك يُعطُون الأولى وهؤلاء الثانية.

إنَّ آباءنا بحسب الجسد لا يستطيعون أن يمنعوا عنَّا موت الجسد أو يُبعِدوا عنا الأمراض، أمَّا الكهنة فيَشفُون النفس المريضة المُشرفةَ على الهلاك وبإمكانهم أن يُخففِّوا أيضاً العِقاب المفروض وأن يستدركوا السقوط بالتعليم والإرشاد والصلوات المُسعِفة.

٣ - فضائل الكاهن

على نفس الكاهن أن تكون أطهر من شُعاع الشمس حتى يجعل الروح القدس منها مسكِناً دائماً له فيتمكَّن الكاهن أن يقول: «أحيا، لا أنا أحيا، إنما المسيح هو الحيّ فيَّ» (غلا ٢/٢٠). إذا كان من يهرب إلى الصحراء بعيداً عن المدينة والساحة العامة والضجيج الصاخب لا يقوى أن يعيش بدون زلَّةٍ رغم هذه الحياة الآمنة، وإنْ كان من يُكثِرُ من الحذَر ومن الوسائط الدفاعية محافظاً على قوانين قاسية بكلامه وتصرفاته يفعل كل هذا للتقرّب من الله بالثقة والطهارة الممكنة من الطبيعة الضعيفة، فبأيَّة شجاعة وبأيَّة قوَّة يضطرُّ الكاهن أن يتسلَّح ليصون نفسه من كل شائبة ويحفظ لها جمالها الروحي بعيداً عن كل عيب!

على الكاهن أن يكون على السواء وَقوراً بدون تكبُّر، مَهيباً طيِّب المعشر، يأمُر ويؤنس، يتَّضع بلا مذلَّة، قوياً لطيفاً يستطيع مع كل هذه المزايا أن يصمدَ في الجهاد كي لا يبقى أمام عينيه إلاَّ شيءٌ واحد: بناء الكنيسة بناءً لا يدخله حِقْدٌ ولا مُحاباة.

٤ - الروح الرعائية عند الكاهن

لا ، لا أظنُّ أن الإنسان يمكنه أن يخلُصَ بدون أن يعمل من أجل خلاص إخوته. إنَّ مَن لا يعمل إلاَّ من أجل كمال نفسه لا يخدُمُ إلاَّ نفسه.

لا شيء في الدنيا ولا الدنيا بما فيها تساوي نَفْساً واحدة. ولو وزَّعْتَ الثروة الكبيرة على الفقراء فاحسُبْ أنك قد صنعتَ أقلَّ مما لو ردَدْتَ نفساً واحدة. هل تريد أن تعرف ما تساوي نفوسُنا؟ إنَّ الابن الوحيد عندما جاءت ساعة الفداء لم يُعطِ بَدَلها العالم، ولا واحداً من الناس، ولا الأرض ولا البحر بل أعطى دمه، هذا الدم الثمين.

فلنعمل من أجل خلاص نفسنا ونفوس إخوتنا. والطريق الأسهل والأضمن للخلاص هي بألاَّ نحصُر اهتمامنا بنفوسنا وإنما بانفتاحنا على خلاص الآخرة. وإذا ما جئنا نُعدِّد تلك الصعوبات التي تعترض رسالتنا فإنما نُشبه رجلاً يقيس البحر.

ولكن فلنعتبر بأنَّ الفائدة الكبرى هي بأن نقوم برسالة أعلن المسيح عنها أنها برهانٌ عن محبَّتنا له. لأنه عندما كلَّمَ رأس الرسل قال: «ويا بطرس، أتحبُّني؟» ولمَّا أجاب: «نعم يا رب»، قال له: إنْ كنت تحبُّني فارْعَ نعاجي.

٥ - مكافأة الكاهن

أيَّة مكافأة لم يُعِدَّها مخلِّصُ النفوس لمن رعى القطيع المفتدى لا بفضَّة أو شيء مماثل بل بموته وبدمه المهراق.

إنَّ ثقتي بربِّنا يسوع المسيح الذي دعاك ووجَّهَك إلى رعاية قطيعه تدعوني إلى أن أترجَّى بأنَّ رسالتَك المقدَّسة تُقرِّبُكَ من الله حتى أنه في اليوم الأخير في ساعة الخطر الكبرى تستطيع أن تدخل تحت حماية المنازل الأبدية.

ولذلك، أظهروا غيرةً أكبر، واندفاعاً أحرَّ، ونشاطاً أقوى. إنَّ الأكِلَّةَ تُعْطى لمن عَمِلَ والشَّرف لمن سَعى، والمكافأة لمن تعب. وإنَّ أعمالكم إنما هي التي تكون أكبر شاهد لكم وأعظم توصيةٍ بكم.

٦ – الأساقفة والكهنة

في الكنيسة، يوضَعُ إنجيل المسيح على رأس الأسقف، أثناء رسامته، ليعرِفَ أنه يتقبَّل به تاجه الحقيقي، وأنَّه وإنْ يَكُن رئيس كنيسته، فهو مع ذلك خاضعٌ لسلطان الشريعة الإنجيليَّة القائلة: «إنَّ من يحكم بين الناس هو تحت حُكم الشريعة، ومن له أن يأمَرهم عليه أن يَخضَع لأوامرها». فقد كتب الحبر الشهيد القديس اغناطيوس، لأحد الأساقفة، هذه العبارة: «لا يُعمَلْ شيء بدون إرادتك، أمَّا أنت فلا تعمل شيئاً بدون إرادة الله». إنَّ وَضْعَ الإنجيل على هامة الأسقف دليلٌ على خضوعه لسلطته...

يحسُنُ بالكاهن أن يكون متمرِّساً في الحكمة وأن يَجِدَ الشعب في سيرته قُدوةً صالحةً يحتذيها...

إنَّ زهور البِزَّة الكهنوتية، هي المقابلات والأحاديث وطهارة الأخلاق ولُطْف الكلام والإيمان وحُسْن السمعة والحقيقة والعدل.

عن «كتاب الكهنوت» نشره الأب قسطنطين باشا ب.م.

٢
صفات الكاهن ومتطلبات الكهنوت

(في تعليم القديس يوحنا الذهبي الفم)

لقد ألَّفَ القديس يوحنا ذهبي الفم كتاباً اسمه «الكهنوت». وقد قيل إنه لم يُكتب أجمل مما كتب الذهبي الفم عن كرامة وعظمة الكهنوت. وإليك بعض الأفكار التي وردت بهذا الكتاب، وما ورد في بعض عظاته الأخرى عن الكهنوت:

إن عظمة كرامة الكهنوت تفوق كل كرامة أرضية وبشرية. إنها خدمة الملائكة، لذا فعلى الكهنة أن يكونوا أطهاراً كالملائكة.

لقد كان الكهنوت في العهد القديم شريفاً ومثيراً للمهابة، أما في عصرنا فقد صار وكأنه عديم الأهمية وتافهاً.

إن الرب الإله نفسه يُقدَّم كذبيحة. فما أعجب محبة الله! فشريك الآب في الكرامة يرضى لنفسه، في الذبيحة المقدسة، أن يُلمس بأيدي الجميع ويُنظر بأعين الكل.

حينما قدَّمَ إيليا النبي ذبيحته، نزلت نار من السماء؛ أما هنا في صلوات الكاهن ينزل الروح القدس نفسه ليُضرم النفوس من خلال الذبيحة.

لقد نال الكهنة سلطاناً لم يَنَلْهُ الملائكة ولا رؤساء الملائكة. فقد أُعطوا سلطاناً أن يحلُّوا ويربطوا، أي يفكُّوا الخطايا ويغفروها. فأي سلطان بشري مثل هذا؟ وكأني بالرب يطيع خادمه، وما يتخذه الكاهن على الأرض يثبِّته الله في السماء (فيما يختص طبعاً بتوبة التائبين وقبولهم في عداد كنيسة الله.)

ومن أجل هذا فإن الكاهن يحتاج إلى فضيلة غير عادية. يجب أن يكون الكاهن فوق كل شيء خالياً من أي كبرياء. يجب أن يكون متعقلاً، مدركاً لعواقب تصرفاته، مفعماً بالجلَد والصبر، محتملاً الأذى والإهانات.

لذلك فإن ما يُعتبر «هفوة» إذا ارتكبها العامة، تصير إذا ما ارتكبها الكاهن مدعاة للملامة بشدة.

وإن هذه الأحكام تنطبق بالأكثر على درجة الأسقفية. فالأسقف يجب أن يكون في وقت واحد جادًّا لطيف المعشر، رقيقاً وصُلباً، صبوراً ومحتملاً، محتفظاً في قرارة نفسه بشيء واحد هو بنيان المؤمنين لا غير، غير متحيّز في اختيار الكهنة ورعاية أرامل وعذارى الكنيسة والمرضى والفقراء وفي فضِّ المنازعات.

وعلى الكاهن أن يكون متعلِّماً، مالكاً ناصية الحديث، يبني المؤمنين بقدوته الصالحة.

وبالأخصّ، فإن عليه ألاَّ يطلب مجده الخاص من على المنبر، وألاَّ يجزع قلبه من الإنتقادات الغبية.

وأخيراً، فإن عليه أن يحفظ نقاوة قلبه وسط العالم، وعلى الأخص في خدمته للنساء: [لأنه ما أعظم النقاوة التي عليه أن يقتنيها، وهو الذي يستدعي الروح القدس ليحلَّ على الذبيحة المقدسة، بينما الملائكة تحيط بالمذبح.]

وفي عظاته للشعب، كان يعلن أيضاً مثل هذه الأفكار عن الكهنوت. في إحدى عظاته يقول:

إن كرامة خدمة التعليم والكهنوت عظيمة ومدهشة. وهي تتطلّب نعمة خاصة من الله يمكن للإنسان أن يحملها بجدارة. هكذا كانت في العهد القديم كما في الجديد أيضاً.

إنه **الروح القدس** نفسه الذي يحلُّ على الكاهن في رسامته. [وبدون ضمان الروح القدس هذا فما كان ممكناً أن يصير عندنا كهنة. **فبدون حلول الروح القدس لا يمكن أن تتم الرسامة**.]

الكاهن عليه واجب أول كأب روحي، ثم كمدبّر ورئيس يقود ويرشد الجماعة، وككاهن يتمم سرّ المعمودية، ويحلّ الخطايا، ويقدّم ذبيحة الإفخارستيا المقدسة.

ولذلك، فإن الذهبي الفم يحذّر الكهنة من أن يفتخروا في أنفسهم بسبب ما أُعطوا من كرامة روحية. **لأن ما أُظهر لهم من كرامة لا يخصهم هم بل يخصُّ الله ورتبتهم**. لذلك [لا تسيء استخدام كرامتك الكهنوتية، ولا تكن متعجرفاً متغطرساً، بل اعتبر نفسك صغيراً وبلا أهمية.]

ولكن ماذا إذا صنع كاهن عثرة بسبب سلوك شرير غير لائق؟ يقول الذهبي الفم إن الله يسمح بذلك، حتى يعرف الكل أن الكاهن خاضع هو أيضاً للخطيئة وغير معصوم من الخطأ.

لأنه إذا كان الكهنة والمعلمون غير خاطئين وليسوا معرَّضين لشهوات الحياة، فسوف يتغطرسون على الشعب وسوف يفقدون علاقات اللطف مع الآخرين، لذلك يسمح الله أن يكون الأساقفة معرَّضين لشهوات الحياة، حتى يتعلّموا من اختبارهم الخاص أن يغفروا خطايا الآخرين، كما حدث لبطرس في العهد الجديد وإيليا في العهد القديم.

وإن الله يرسل نعمته حتى من خلال الكهنة غير المستحقين، تماماً كما جعل حمارة بلعام أداة لتوصيل كلمته، فكم بالحري الكاهن.

لذلك يدعو الذهبي الفم المؤمنين أن لا يتعثّروا في الكاهن غير المستحق ولا أن يدينوه أو يشوّهوا سمعته.

كما لا يصحُّ – بسبب كاهن غير مستحقّ – أن يسيئوا إلى الكهنوت في حدّ ذاته ، لأنك لا يصحّ لك أن تستهجن الرتبة بل الشخص الذي يسيء استخدام ما هو صالح.

وإن أخطأ كاهن ، فخطأه أعظم من خطأ الآخرين ، وعقابه سيكون أعظم أيضاً.

هذا هو الكهنوت في نظر القديس الذهبي الفم : احساس عميق بالعظمة والكرامة ، وبواجباته ومسؤولياته. لقد أصبح كتاب الكهنوت للقديس أداة تحذير للبعض وحافزاً ومرشداً للبعض الآخر.

تلخيص
الأب الياس كويتر
المخلصي

٣
عظمة الكهنوت وقداسته

إن حدود الملك غير حدود الكهنوت بيد أنَّ هذا فوق ذاك. ليس الملك بما يبدو من ظواهره ، ولا يحسن أن يحكم على ربّ العرش بما يتراكم عليه من الحجارة الكريمة ويزيّنه من الحلل الذهبيّة. له أُعطي تدبير الأمور الأرضية أما الكهنوت فسلطانه من فوق : «كل ما حللتموه على الأرض يكون محلولاً في السماوات.» ان مكان الملك قد اؤتمن على الأرضيَّات فاني قد اؤتمنت على السماويّات ، وإذ قلتُ أنا فقد عنيتُ الكاهن. إذن فإن وَجدتَ كاهناً رديئاً فلا تثلب الكهنوت فاللوم ليس عليه ولكن أقبل بلَومك على الذي يسيء استعمال الشيء الحسن. اذا خان يهوذا فليس الذنب على الرسالة بل على عزمه الرديء ، كذلك لا توجِّه الملامة إلى الكهنوت بل إلى سوء النيّة. إذن فلا تذمَّ أنت الكهنوت بل الكاهن الذي أساء استعمال الأمر الجيد. وإذا وقعت يوماً في جدال وقيل لك : ألا ترى ذلك المسيحي؟قل : لا أُجادلك في الأشخاص وإنما حديثي في الأشياء.

فما أكثر الأطباء الذين أضحوا رسل المنية فجادوا بالسموم بدل الأدوية ومع هذا فلا يُتَّهم الطب بذلك بل الذي يسيء استعمال مهنته. كم من الملاَّحين غرَّقوا مراكبهم وليس على الملاحة من عتب بل على قلّة مهارة أولئك. فاذا وُجد مسيحي شرير فلا تقذف به الدين والكهنوت بل الذي أساء استعمال الأمر الحسن. إنَّ الملك اؤتُمن على الأجساد أما الكاهن فعلى النفوس، ان الملك يترك ديون الفضة أما الكاهن فيترك ديون الآثام، ذلك يغتصب وهذا يحرّض، ذاك بالتهديد وهذا بالمشورة، لذاك أسلحة مادية ولهذا أسلحة روحية، ذاك يحارب البرابرة وهذا يحارب الأبالسة فلا ريب ان هذه السلطة فوق تلك. ولهذا فالملك يحني هامته تحت يد الكاهن ودائماً نرى الكهنة يمسحون الملوك في العهد العتيق.

(شذرة للذهبي الفم من الخطبة الرابعة على الملك عُزّيّا)

ترجمة الأب كيرلس حداد المخلصي

الفصل السادس

الحياة الرهبانية

١
الحياة الرهبانية

أخذاً عن القديس يوحنا الذهبي الفم

للحياة الرهبانية علاقة بالله وبالكنيسة، وبالنفوس وبالمجتمع البشري. لها علاقة بالله أولاً لأنها تقوم بخدمته جهاراً دون قيد ولا مانع. ولا تكتفي بحفظ وصاياه بل ترمي إلى إكمال مشوراته أيضاً. يجد الله في الحياة الرهبانية جيشه المهيّأ للحرب، وكتيبته المحفوظة للأعمال المقدسة، وموكبه الشرفي، وطغمته المشيدة له بالمدائح، وآل بيته المتشبهين بالمجدلية الجاثية أمام قدميه، والآخذة لها الحظ الذي لا يُنزَع منها.

الحياة الرهبانية لها علاقة بالكنيسة ثانياً، فهي منها الجزء المعتبر والجوهري، هي القلب هي الحياة المسيحية بأجلى مظاهر الكمال والقداسة. وعلاوة على ذلك؛ الطغمات الرهبانية هي جيشها المهيّأ والمُعدُّ لمقاومة أعدائها. ان الرهبان الخاضعين للبابا والأساقفة والمساعدين لكهنة الاكليرُس العلماني بما أنهم مُعفَوْن من خدمة النفوس والرعاية يمكنهم بأكثر سهولة وأعظم فائدة أن يتفرّغوا للأمور السماوية من صلاة وأعمال غيرة.

أما النفوس المدعوّة إلى كمالٍ أعظم فتجد في الحياة الرهبانية ما لا يمكن حياة العالم أن تعطيه لها عنيت بذلك الوحدة والتجرّد والقانون والمنافسة العمومية والقوة التي توليها النذور والتسهيلات الكثيرة والوسائط الجمّة المساعدة على اكتساب القداسة، وعليه فمن يقاوم الحياة الرهبانية أو يحول دون الدخول فيها، فقد ارتكب إثماً عظيماً ينافي أعظم الحريّات قداسةً، أعني التخصص لله بمطاوعة صوته.

أما المجتمع البشري فهل يمكنه أن يتخلى عن الحياة الرهبانية؟ لا لعمري. لأنه إن فعل يكون ذلك منه جنوناً. إنه يجد في عمل الرهبان ما يكفل له السلام والراحة والقوة. فيما بين عناصر الشرّ التي تتنازعه يمكنه أن يعتمد الرهبان الذين هم عمدة كل نظام

وترتيب ، وخصوم كل شرّ ، والعملة الذين لا يكلّون في سبيل كل عمران ومدنية صحيحة .

ولكي نحيط علماً بالحياة الرهبانية ندرسها أولاً بحدّ ذاتها ثم ننظر إلى التأثيرات التي تصدرها في المحيط الذي يكتنفها ، وبعد ذلك نتكلم عن مسألة الدعوة ، أخيراً نلقي نظرة أسف هي في الوقت نفسه نظرة ثقة على الاضطهادات التي تكون الحياة الرهبانية ضحيتها .

أولاً – حياة الرهبان

لا يكون عندنا إلمام بالحياة الرهبانية إلا متى دخلنا أحد الأديار ، واتّبعنا الراهب في كل أعماله وتمارينه الروحية ، التي منها يتألف نهاره ، وسمعنا أحاديثه الحاملة على الخير وحضرنا ساعاته الأخيرة التي فيها ينتصر على الموت .

إنها لحياة سماوية : لندخل الى المسكن ولنتبع الراهب في أحد أيامه .

١ – مسكن الرهبان

أول ما يؤثر فينا هو الهدوء والصمت والسلام . لا نكاد نتجاوز العتبة حتى ننسى اضطرابات العالم التي تتعب آذاننا ونفوسنا . ان زوابع البحر الهائج تتلاشى أمام هذه المساكن السعيدة . هنا المرفأ الهادئ والأمين الذي ينجي منَ العواصف والغرق كل اللاجئين إليه . على ضفاف البحار ترفع المنائر لتُرِيَ الصخور كذلك مساكن الرهبان . انها منائر لامعة بالنور الإلهي ، تنير بصائرنا فيمَا بينَ أخطار هذا العالم وتدلّنا على الطريق المؤدّية إلى السماوات .

أما سكون الأديار فليس إلاّ دليلاً على سكون النفس . ان الراهب في ديره كالجندي في خيمته محَرَّرٌ من مطامع العالم وشهوات الحياة ورفاهية المعيشة ، مجتهدٌ في اكتساب السماوات العليا ، لا يعرف مسكناً ثابتاً ، ولا يقيم في منزل دائم بل يتابع غزواته الحربيَّة ولا يعرف إلا ميادين الحرب .

هل نحن بحاجة إلى تشابيه غير هذه؟ اسمعوا : الأديرة للرهبان كالفردوس الأرضي لأبينا الأول آدم في حال برارته ، فان ما يفعل الرهبان في أديارهم هو نفس ما كان يفعله آدم في البدء قبل أن يخطأ لما كان متسربلاً بالمجد ، ويتحادث بملئ الحرية مع الله تعالى . لا

تتيسَّر لنا هذه المحادثات السامية الحلوة في العالم وفي الحالة الدنيوية، فان الأراجيف والاضطرابات تُسكت أصوات النفس وكلام الله.

هل نريد أحياناً أن نترك الأرض لأجل السماء، والوقت إكراماً للأبدية؟ فلنزُرْ الرهبان في صوامعهم الصامتة ولنحضر ترتيب نهارهم.

٢ – نهار الرهبان

يبتدئ نهار الراهب عند الفجر، وكثيرون منهم يَهبُّون بعد أن يكونوا سهروا معظم الليل. أيُّ فرق بين نهوض الراهب ونهوضنا نحن العلمانيين؟ إن نهوضنا بطيءٌ يرافقه الكسل والطيش. بعد أن نشبع الجسد من لذّة النوم ننهض عابسين ومتململين أو مشتتين بأفكار وخواطر عالمية، قد تسلطت علينا شهوات العالم، قد التحقت بنا ذكريات فاسدة واكتنفتنا ملاهٍ جمّة تبعدنا عن ذكر الله؛

قبل أن نفكر بنفسنا نجعل همّنا في العناية بالجسد والزينة الباطلة. أما نهوض الراهب فهو على غير ما ذكر. أنظروه وقد هَبَّ بسرعة ونشاط، ينهض من مرقده والأفكار المقدسة ملئ نفسه والصلاة ملئ فمه. كما كان رقاده طاهراً نقياً كذلك يكون نهوضه فرحاً تقياً. يسرع في لبس عباءته الخشنة ويتهيّأ للتأمل الإلهي. انه لفرق عظيم بين منظر الدير عند نهوض الرهبان وبين منظر المسكن العائلي وضجيجه المختلف وأصواته المتنافرة ورواحه ومجيئه وأصوات الأولاد واضطرابات الخدم، وما أبعد الله عن النفس في مثل هذه الحال فان أمواج الهموم العالمية تتناولها وتغمرها.

لنتبع الرهبان الذاهبين إلى بيت الصلاة، لأن أول شغل يفرض عليهم هو مديح الله. انهم بعد نهوضهم يقومون بترنيم النبؤات بكل لذة، نفسهم تمتلئ من الخيرات الإلهية وقلبهم يفيض بعواطف العبادة والحب والخوف التي يسكبها في قلوبهم كلام الله المقدس. في خلال تلك الساعات التي فيها يتلون الفروض يتذكرون كل مواضيع الوحي واحداً فواحداً.

بعد أن يتلو الرهبان فرضهم في الخورص يدخلون صوامعهم ويلزمون الصمت ويعكفون على إتمام قراءة الكتب المقدسة مكملين ترانيمهم السماوية. ثم يعودون إلى الكنيسة ليكملوا تلاوة الفرض الإلهي المرسوم عليهم. ليس عندهم ساعة خالية من العمل

ولو كانوا في اعتبار الناس بطّالين. فالصلاة يعقبها الشغل وهو يختلف بحسب مقدرة كل شخص واستعداداته وبحسب عوائد الرهبنة واحتياجات الجمعية.

لا يفكر الرهبان في تغذية جسدهم إلا بعد قضاء صلواتهم الطويلة وأشغالهم الكثيرة. واذا دخلت إلى مائدتهم وجدت القناعة والتقتير في المعيشة وتجلّت لك روح التوبة. فبدل الموائد المصفوف عليها الأنواع الشهية من الطعام والشراب التي تراها على موائد العلمانيين تجد على موائد الرهبان الخبز والبقول وبعض الثمار أحياناً. ولنضربَنَّ صفحاً عن الصيامات الكثيرة التي يحافظون عليها والتي هي في عرفنا مجاعات لا تحتمل. نحن نضحك بقهقهة ونأكل بشراهة ونزهو بعظمة أما الرهبان فانهم بعكس ذلك قانعون وصامتون. فيمَا يغذي الرهبان جسدهم من هذه المآكل الفقرية تتملأ نفسهم من الأفكار المقدسة. فيمَا هم يأكلون يكون عقلهم مشغولاً بالقراءة الروحية التي يسمعونها وحالما يقومون عن الغذاء يعودون إلى الصلاة.

بما أن الرهبان تدرَّبوا على الإماتة والسكينة والفضيلة والأفكار السماوية والاشتياق إلى الأمور الإلهية فأحاديثهم هي مقدسة كنفسهم وحلوة كسلامهم ولذيذة كلطفهم الجذّاب. لا تسألهم عن أحاديث هذا العالم فانهم يجهلونها. انهم ساكنون السماء منذ اليوم ولذلك يتكلمون بما فيها. بما أنهم متّحدون بالله فلذلك يتكلمون عن الله وعظائمه ومراحمه ومواعيده. واذا كلّموك عن هذه الحياة فلكي يخبروك بأخطارها وأوهامها، ويحثّوك على مقاومة الجحيم ومحاربة العالم الشرير، فهم لا يتكلمون عن أمور هذه الدنيا بل عن الملك العلوي، عن محاربة الدهر الحاضر ودسائس الشيطان ومكايده. ويعرفون حق المعرفة أن يبيّنوا لك قوة وجمال القداسة من أعمال القديسين.

اذا كانت حياة الرهبان جميلة وشريفة فما القول عن موتهم؟ إن موتهم هو انتصارهم، موتهم هو الساعة التي يعظم فرحهم. يسمّون موتهم «سفرهم» فان الموت ينقذهم من هذه الحياة الدنيا ليدخلهم في السماوات. ولأجل ذلك يشيدون بمدائح انتصار أمام بقايا أخيهم الراحل. يلبس الدير يوم موت الراهب حلّة السرور بدل شارات الحِداد التي ترفرف في منازلنا. وإذا كان الراهب عظيماً في أعماله مدّة حياته فانه أعظم في مماته.

٣ – حياة الراهب حياة ملكية

مَن أحبَّ أن يشبِّه حياة الراهب بحياة الملك فما يغلط. بيد أننا نصطدم بأوهام العالم الباطلة وأحكامه الفاسدة فانه لا يتأثر إلا من مظهر الأشياء الخارجي أما قيمتها الداخلية الحقيقية فلا يبالي بها. ان الملك المعتلي مركبة جميلة ومحفوفة بالحَرَس المسبوق بالمُنادين يدهش الشعب الذي يهلِّل له، أما الراهب فانه يعبر صامتاً دون أن يراه أحد. هذا إذا لم تلحق به إهانة.

لنعمل الروية في هذه المسألة، أيُّ الاثنين أجدر بأن نسميه مِلكاً؟ ومَن مِن الإثنين يجد إلى الملك سبيلاً أيسر مراماً؟ أهو الملك الذي لم يتوصل إلى سلطانه إلا ببذل جهود كثيرة، وذهب كثير، ودم كثير غالب الأحيان، أم الراهب الذي لبس برفيره الملكي بفعل من إرادته؟

أيُّ الاثنين ملكٌ بالأكثر؟ لننظر إلى كليهما: – ١ً في ممارسة المُلك. – ٢ً في الحروب التي تنشب مدافعة عن المملكة. – ٣ً في تفاصيل الأعمال اليومية. – ٤ً في عمل الإحسان بسخاء. – ٥ً في يوم الانكسار وفقدانه المُلك. – ٦ً عند الموت وبعده.

آ – في ممارسة المُلك

ان تدبير المملكة لواسع وعظيم. ففي يد السلطان (الملك) كل شيء، وكل شيء مسموح له، الجميع يخضعون له الأفراد والجماهير، المدن والقرى، الأمراء وكل فرد من رعاياه.

على أن هذه السلطة هي خارجية ولا تسيطر إلاّ على الأجساد. أما مملكة الراهب فأرفع وأقوى، وسلطته تمتد إلى ذاته، وصولجانه يتسلّط على أقطار الجسد الواسعة: العقل والقلب والإرادة والأهواء والعواطف، كل هذه القوى تحت ولاية النفس وتطيع أمرها السامي.

«ان الملك في الحقيقة هو ذاك الذي يضبط الجسد والشهوة ويجري في كل شيء بحسب شريعة الله حافظاً حرية عقله وغير تارك اللذة أن تستولي على نفسه». الملك الخاضع لأهوائه لا يمكن أن يسمى ملكاً حقيقياً كما أن الراهب السائد على أهوائه لا يمكن إلاّ أن يكون ملكاً.

ب – في الحروب

ما أشدّ عظمة ومهابة الملك العائد من الحروب ظافراً بأعدائه القائمين على أطراف مملكته. ولو كنا نتجاوز حدود هذا العالم، لرأينا حروباً أعظم وأشهر، وأعداء أشدّ وأقوى، وساحات حرب تمتد إلى السماء تتراكض فيها جحافل جهنمية. على هذه الساحات يظهر الراهب غالباً الجحيم، فاتحاً مجيداً لا يؤتي في نصره إلا غلبة أبدية.

وإذ لم نتوقف في مقابلتنا هاتين الحربين عند ظروف الصدام بل نظرنا في أسباب اشتباكهما فعندئذٍ يظهر الراهب أعظم وأشرف فإن الملك يحارب لغايات بشرية زائلة أما الراهب فيجاهد في سبيل الله والنفوس والمُلك الأبدي والغلبة على القوى المخيفة التي تكبّل وتفسد وتهلك الجنس البشري.

ج – في تفاصيل الأعمال والحياة اليومية

لكل شغل من الأشغال العادية حالة نفسيَّة تقابله، ولما كانت أعمال وأشغال الرهبان سماوية لأن ما يستغرق أوقاتهم هو قراءة ودرس الكتب الإلهية كانت نفوسهم مشبعة من الأمور السماوية بما أنها ملتصقة بالأشخاص والأمور الإلهية. أما الملك فإنما يفني ساعاته بالأعمال العمومية واستقبال الوزراء وأشياء أُخَر كثيرة تقرِّبه من الأرض شأن الأعمال التي يقوم بها. إن نوم الراهب ليس إلاّ مواصلة الأفكار والتأثيرات التي كانت تدور في ذهنه سحابة النهار، يحلم بالسماء كما كان يفكر بها في اليقظة، أما الملك فينام وقلبه مضطرمٌ بأمور مملكته أو مثقلٌ بألوان المآكل أو تعبٌ من الإفراط في السهر، حتى لو أراد الملك أن يرتدي ثيابه الملكية فلا بدّ له من تعب، أما الراهب فيلبس عباءته بأسرع من لمح البصر ويمضي بخفّة ونشاط إلى أعماله.

إذا أراد الملك الخروج من قصره فنظام التشريفات الذي لا يفارقه يثقل خطواته ويعربس سيره فلا يستطيع يوماً أن يجول في مملكته دون أن يسوم رعاياه المصاريف الطائلة بأكثر من إسعافه إياهم. أما الراهب إذا سافر فلا يترك وراءه إلا الأفراح والنِعَم إذ الأغنياء والفقراء ينتفعون من قدومه على السواء.

د – في عمل الإحسان

هذا هو عمل الملك الخاص. الملك الحقيقي هو الذي يُكثر من صنع الخير مع من يحيط به واذا كان ذلك فمَن يكون الملك يا ترى؟ السيد أم الراهب؟ إن الملك يوزّع ذهباً

وشرفاً باطلاً ويحسن إلى بعض أُناس باحسانات زائلة. أما الراهب فيوزّع إحسانات جميلة، يوزّع السماء، يوزّع الله، يوزّع الشرف السماوي، وخيرات لا نهاية لها. بقوة صلواته تزول شرور النفس، وتتقلّص شرور الجسد، ألا نسرع إلى إقدام الرهبان دون الملوك عندما تنزل بنا البلوى، ألا نرى أن الملوك أنفسهم يلجأون إلى الرهبان في حين ضيقهم؟

هـ - في ساعات الانكسار والانهزام

الانكسار للملوك أمر هائل، وإذا ما قامت عليهم رعاياهم ثائرة وطردتهم أُسقط في يدهم ولم يبقَ لهم سوى المنفى حيث يجرّون بقيَّة أيامهم بلا كرامة.

قد يصل الراهب إلى دركات الذل والانهزام، قد يسقط من مملكته الرهبانية بخطيئة يرتكبها، ولكن أي فرق بين الاثنين؟ يكفي الراهب وقت قصير لكي يتوب ويرجع إلى مجده فيستعيد عرش النعمة المفقود.

و - لنتابع وجه الشبه حتى إلى القبر

موت الملك مرعب مخيف، أما موت الراهب فحلو لذيذ. ان الموت للملك هو نهاية الأفراح والشرف والراحة وابتداء العذابات والدينونة الرهيبة، أما الراهب فالموت هو نهاية منفاه القاسي وزوال العذاب والدخول في السعادة المؤبّدة. بل نوع الموت نفسه يختلف، فبرغم ما يبذل الملك من التحفّظ والوقاية لا تنتهي حياته غالباً إلا بالقتل. أما الراهب فتفيض روحه بين إخوانه.

بناءً عليه لا تُفْتَنْ أَلبابنا عند رؤيتنا ملكاً ينعم في مجده فذلك عزٌ زائل بل لنجتهد بالاقتداء بالراهب الوديع المتواضع الفقير لنبلغ إلى يوم تتويجه الملكي.

ثانياً - تأثير الرهبان

لما أسّس الله بالمشورات الإنجيليّة الحياة الرهبانيّة كان في عزمه أن يجعلها كتيبة شرفه ومجد كنيسته واكليل الديانة المسيحيّة. بيد أنه لم ينسنا نحن أيضاً بل أعطانا الطغمات الرهبانية إنارةً وسنداً ومثالاً.

الراهب نورنا وسندنا ومثالنا

إن الله أعطاناه كالمنارة التي وضعت على شاطئ بحر كثرت صخور منعطفاته. نحن نسير في بحر هذا العالم الخطر. مهالكه وصخوره كثيرة لا عدد لها، وأطرافه صعبة المنال وليله حالك، لأن نظر السماء يخفى علينا والحقائق الكاثوليكية الدينيَّة مخبَّأة عن نواظرنا وحواسنا. الحقائق الخلاصية تبين لنا من وراء غيوم متلبّدة في كبد السماء. واذا لم يأتِنا وَحْيٌ ناطق فإننا نضلُّ فهذا الوحْي الناطق وهذا التشخيص النوراني للأشياء السماوية هو الراهب.

ولكننا نحتاج إلى غير النور أيضاً فإن عواصف هذه الحياة وأنواء اليمّ تتهدّدنا وقد عطَّلت زورقنا. خطايانا تبهظنا، وغرور العالم ومفسداته غيّرت طبيعتنا الأولى، الأحزان تضيق علينا وتجتذبنا إلى لجَّة اليأس، فلا بدَّ لنا من ملجأ، ولا بدَّ لنا من حمىً نلجأ إليه فدونكم الدير ودونكم الراهب. الميناء هادئ. هناك جلس الرهبان ليجتذبوا الجميع إلى سكينتهم ولا يَدَعونَ أحداً من الناظرين إليهم يذهب طعمة الأمواج. فامضِ بنا إليهم أقصدهم وادنُ منهم. إنك إن مكثت عندهم يوماً أو يومين تشعر حينئذٍ بأعظم اللذات.

على أن التقرّب من الرهبان لا يفيد فقط نوراً وتعزية بل هو أعظم مشجِّع على الخير، وأفعل مثال لا يُقهر ولا يُردّ. تقدَّم إلى خيام القديسين، اهرب إلى صومعة الرجل القديس هربك من الأرض إلى السماء، إنك لا تجد هناك في بادئ الأمر شيئاً مما تراه في العالم وفي بيتك. لا طيش ولا عبث ولا شيء مما يتعلّق بالطبيعة الساقطة الضعيفة، ولا رؤى الشهوات القتّالة. هناك جوقة طاهرة.

ثم ان كل فضيلة تتراءى لك في دورها وتظهر وجه المعاكسة مع عيوبك فالصمت الديري يبكّت كلامك البذيئ، والتواضع يخجل كبرياءك، والتوبة عدم قهر ذاتك، والصلاة برودتك وطياشتك الدائمة، والفقر رفاهيتك، وعدم الاهتمام بالثياب اهتمامك الأثيم بمظهرك الخارجي.

كل ما هنالك هو تعليم ومثل. أنظُر إلى هؤلاء الرهبان وإلى الحرية التامة التي توليهم إياها النذور. إذا بقينا عبيداً للشهوات الأرضية خائفين على راحتنا وخيراتنا فلنذهب وننظر أولئك الأبطال المتحرّرين من كل الشواغل البشرية، لا يخيفهم الفقر حتى النفي نفسه لا يزعجهم لأن الأرض كلها لله. ينتظرون العذاب والعذاب يجدهم مستعدّين له.

لا شيء من موجودات هذا العالم يقدر أن يصل إليهم أو يسلبهم راحتهم وسكونهم. الموت نفسه، الموت الذي يلقي الرعب في قلوبنا لا يجد عندهم غير ابتسامة السلام وأنشودة الانتصار. نحن يخيفنا الموت لأننا مستسلمون إلى أمور هذه الدنيا وقد رفضنا السماء لأننا خطأة نخاف حكم القاضي الأعلى. أما هم الذين تجرّدوا عن الأرضيات وهاموا بحب الأمور السماوية، هم الذين كانت حياتهم كلها فعل فضيلة متواصل فلا يجدون في الموت غير الخلاص والدخول في السعادة الدائمة.

ما أكبر الشرور التي تزعجنا على هذه الفانية؟ هي الحرب الدائمة التي يصلينا إياها أعداؤنا. هجماتهم تنهبنا، وألسنتهم تفقد شرفنا، وأعمالهم الشريرة تجلب لنا هموماً جديدة. وما سبب ذلك؟ إلاّ لأننا التصقنا بأمور هذا العالم وبذلك جعلنا من ذواتنا منالاً لرداءة أعدائنا.

أما الراهب فبما أن سهام المصائب السامة لا تصل إليه ولا تجرحه فهو ناجٍ من كل العذابات التي يشعر بها عادة أهل العالم وعلاوة على ذلك يسهل عليه أن يسامح الذين أرادوا له الضرر وبالتالي لا مانع يمنعه عن محبتهم.

للرهبان أيضاً تأثير صالح يمتد إلى أوجاعنا. عندما يُثقِل الوجع عاتقنا ويعضّنا الدهر بنابه ويملأ نفسنا وعيننا دموعاً فإلى من نذهب لنلقي حملنا على عاتقه. ممن نطلب تعزيةً وقوةً وشجاعةً، أمن العالم أم من الأغنياء أم من الأقوياء أم من الملوك؟ وهل يقدر هؤلاء على تعزيتنا؟ لا لعمري! إنما نذهب إلى الدير حيث نطلب من سكانه المباركين الكلام المحيي الذي ينعش الرجاء في فؤادنا.

إن تأثير الحياة الرهبانية على المجتمع المسيحي لثمين جداً لكن على شرط أن لا يفسُد الملح إذ «ماذا ينفع الملح إذا فسد»؟ الدير هو ملجأ خلاصي للنفوس التي في العالم بشرط أن توجد حرارة العبادة وأن يُحفظ الفقر وتسود الحشمة والاماتة وأن يُطرَدَ روح العالم ويُنفى الطمع والبذخ وأن تزهر كل الفضائل.

أي مساعدة يمكن أن تؤديَ تلك الراهبة اللابسة الثوب الخشن وهي مهتمة بأمور هذا العالم وأباطيله الفانية، تلك الراهبة التي قُسم قلبُها شطرين وخانت المسيح ومزَّقَت أقدس العهود، تلك الراهبة التي كل أفكارها باطلة تافهة وحياتها منتنة وأشواقها عالميَّة وعوائدها فاترة وسلوكها مملوء من روح العالم وخالٍ من روح الله.

متى فسُد الملح فلن يعود يملّح وكذلك الحياة الرهبانية متى فقدت تأثير قداستها لا تنفع النفوس المسيحيَّة بل تضحي مدوسةً بالأرجل وموضوع ازدراء العدو.

ثالثاً – الدعوة الرهبانية

أليس من الغريب المحزن أنه عندما يريد الله أن ينتخب شاباً أو فتاة من بين عائلة مسيحية ليرفعها إلى شرف الحياة الرهبانية يلزم له أن يثير حرباً مع الأقارب لكي يتغلّب على ممانعاتهم ويعزّي أحزانهم ويدافع عن أشرف الغايات.

لا نجهل ما يحدثه الفراق من ألم ولا ما يسبّبه من خيبة آمال ونزاع، ولكن هل يجوز أن يُسكِت هذا الألم كل تعقُّل ويجحف بحقوق الله المقدسة وحقوق الولد؟ هذه هي مسألة الدعوة؛ ان لها علاقة مع سلطان الله السامي ومع مصالح الشاب أو الفتاة التي لا يجوز الإعراض عنها.

١ – لها علاقة بسلطان الله السامي

فان الله هو خالقنا وسيّدنا. ان الله هو المنظم العالي لكل الأشياء. فالقدرة التي بها يعين دعوة ودرجة ومأمورية الخلائق الوضيعة بها عينها يقرّر مصير بني البشر. وعندما يختار إنساناً إلى دعوة فمن يمكنه أن يتجرّأ ويقول: ان الطاعة والعصيان سيَّان.

إذا كان الله إلهاً فهو قاض أيضاً ومحكمته قائمة على حدود هذه الحياة والحياة الأخرى. وأمام هذه المحكمة سيمثُل يوماً الأب والأم ليؤدّيا حساباً عن مقاومتهما إرادته وإلحاقهما الخسارة بولدهما. مَن يدري إلى أين تصل دعوة مفقودة ومَن يدري لأي خطر يتعرَّض الأهل لرفضهم تقديم عطيتهم للباري تعالى وتعريضهم إياها للشرّ. هذا هو موضوع محاكمتهم وسبب القضاء الرهيب. فانه اذا كنا ملتزمين بأن نسهر على نفس القريب أياً كان بحيث اذا خسرنا نفساً فاننا نخسر نفسنا فكم بالحري يكون الحكم على الأهل مخيفاً عندما يضحُّون بدعوة ولدهم.

٢ – مصالح الولد المقدسة

في الدعوة سلامُه وسعادته. فاذا ثناه الأهل بخطيئتهم عن دعوته فانهم يضرّون بسلامه وسعادته.

سلامه

عندما يختار الله شاباً أو فتاة إلى الدعوة الرهبانية يجد كل واحد منهما في دعوته كل الوسائل لعمل الخلاص. وهل يمكن أن يحصلا على مثلها في البيت الأبوي؟ هل يأمن الأهل على خلاص نفس الولد؟ إنّ مَثَلَ عالي الكاهن هو أحسن جواب على ذلك. كم من أولاد يهلكون. وكم من أهلٍ هم مسؤولون عن أولادهم. كم من مصائب عائلية. كم من عقوبات عادلة جزاء التربية السيئة.

وإذا لم تكن فضيلة الولد وإيمانه معرّضين للخطر في داخل البيت فلا شك أنهما يتعرَّضان له في البيئة التي تحيط به، في العالم، في وسط الشرّ العمومي، إزاء الأمثلة الرديئة؛ ومن يقدر أن يقاوم التيار الجارف؟ أي نفس فولاذية أو نحاسية لا تؤثر فيها الشرور السائدة في العالم. إن قائمة هذه الشرور لطويلة وتماثلها قائمة مرتكبيها. أليس من القساوة ترك النفوس في هذا الأتون الفاسد، تلك النفوس التي كان الله داعياً إيّاها للحرية والخلاص؟

سعادته

بقدر ما تُعرِّض الدعوى المفقودة للأحزان والغرور والخيبة تتحقق سعادة من يسير في الطريق المستقيم التي يريدها الله. واعجبا من ضلال الأقرباء المكفوفي البصائر! إذا ما انفتحت أمامهم دعوة سامية، إذا تقدّم لهم حظ سعيد أو رجل غني، أو قسمة شريفة فلا يوفّرون تعباً ولا جهداً حتى ينجحوا. أما بخصوص الدعوة الإلهية والاقتران بالله والارتباط والاتحاد بملك الملوك، والحياة التي ملؤها عذوبات روحية فتراهم لا يبدون سوى الغضب والممانعة.

فليفكر هؤلاء الأقرباء الحمقى في الخيرات التي لا تعداد لها الزمنية والأبدية التي تفيضها عليهم نِعَم الحياة الرهبانية. لتنتصر هذه النظرية على رفضهم المضاد للطبيعة ومقاومتهم البربرية.

رابعاً – اضطهادات الحياة الرهبانية

ان الاضطهاد الموجَّه إلى الحياة الرهبانية موسوم بسمة المقت والكراهية على أنه أعجز من أن ينتصر عليها وقد كان ولا يزال وسيكون دائماً نصيبه البغضة والعجز.

هو اضطهاد مكروه

مكروه نظراً للأشخاص ونظراً للمعاملة.

١ – نظراً للأشخاص:

مَن المقاوَم، مَن المحكوم عليه، ومَن المضطَهَد؟ أُناس أبرياء. ان الراهب يعيش في العالم دون أن يكون علّة تشكٍّ شرعي أو هاضماً لحقّ أحد، فجلّ ما يعمله أنه يصلي ويشتغل ويتعذّب ويعمل الخير.

ولا يكتفي بأن لا يؤذي أحداً بل يجتهد بأن يحسن إلى الآخرين. أعماله وحياته هي أحسن ضمان وكفالة للنجاح والنظام العام. مَن يضرُّ بالمجتمع؟ الراهب أم مضطهده؟ مَن يضيِّع صداقة المجتمع؟ العاهر الذي يفسد الطهارة أم الراهب الذي يحفظ الطهارة. الطمَّاع الذي يقلب كل شيء ليصل إلى مطلوبه أم الراهب الوديع الذي يعمل سراً، الغني السفيه الذي يدوس الشعب بكبريائه أم الفقير باختياره الذي يحبه ويخدمه. وبكلمة واحدة من يسند المملكة الفضيلة أم الرذيلة؟

٢ – نظراً للمعاملة:

ان الفتك بالأبرياء أمر ممقوت دائماً وإنما معاملتهم كمعاملة الرهبان هو أكثر مقتاً. كل شيء يقاوم الرهبان هو مشروع ومسموح. يطردون من مسكنهم، يحلّ ضربهم بلا شفقة، ليس العدل عدلاً لهم، والشريعة لا تحامي عنهم، الشعب يهينهم ويشتمهم، يفتري عليهم خصوم مملوءون بغضةً، والأنكى أن بعض الكاثوليكيين يشتركون في هذه الشرور.

الاضطهاد لا يغلبهم

ولكن أيهمل الله قدّيسيه دون حماية؟ أيفوز المضطهدون؟ كلا! فان تاريخ الكنيسة كله يظهر أن المضطهدين يبيدون وأن الجمعيات الرهبانية تتجدّد في الاضطهاد وتستعيد حياة أنشط وتلبس مجداً أوفر طهراً. على مثال الرسل والشهداء يجد الرهبان في الاضطهاد القوة والحياة.

ترجمة

الاب جورج غبريل المخلصي

٢
دفاع القديس يوحنا الذهبي الفم
عن الحياة الرهبانية

القديس يوحنا الذهبي الفم نجح في كتابته عن الحياة الرهبانية لأنه عاشها مدة خمس سنوات في القفر، وخبر ممارستها الصعبة، فهو راهب أصيل عدا أنه خطيب ذهبي النطق، وملفان للبيعة ومدافع عن الكنيسة ضد الهراطقة وراعٍ حريص على أغنامه ومعترف بالإيمان وشهيد للحق.

كيف نظر القديس يوحنا إلى الحياة الرهبانية؟

نجد تعليم القديس الذهبي الفم عن الحياة الرهبانية منثوراً في كتابات كثيرة له: منها عِظات عن إنجيل القديس متى، خصوصاً العِظَة: ٥٥، ٦٨، ٦٩، ٧٢، وميمر لشعب انطاكية عن التماثيل المحطمة، وشرح لرسالة القديس بولس إلى أهل أفسس ولرسالته الأولى لتلميذه تيموثاوس، وأخيراً عظته عن التوبة وعدّة رسائل كتبها لأشخاص كثيرين ومختلفين.

جابه القديس يوحنا مشكلة الحياة الرهبانية في دفاعاته الثلاثة عنها وفي المقابلة بين ملك وراهب وفي بعض الكتابات الموجّهة لبعض الرهبان كخطابه لديميتريوس ولثاودورس.

ندرس بإسهاب دفاعاته الثلاثة عن الحياة الرهبانية:

فالدفاع الأول كُتِبَ إبّان اضطهاد الامبراطور فالنس للرهبان. وكان الناس آنئذٍ منقسمين إلى فئتين: الأولى كانت ترى في حياة الرهبان شهادة انجيلية ناصعة تفضح حياتهم الخاطئة وبُعدهم عن الله، بينما الفئة الثانية بعد أن اعتنقت الهرطقة صممت على محاربة الرهبان ومنع المؤمنين من اعتناق الحياة الفاضلة، لأن الرهبان أبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي.

غضب القديس يوحنا لمحاربة المسيحيين فئة مسيحية أخرى أرادت حياة الكمال. فقال: «نمت إليَّ أخبار مؤسفة عن مسيحيين أرادوا محاربة الله بمحاربة الرهبان الذين ابتغوا الكمال الإنجيلي». وتذرّع هؤلاء المحاربون في حربهم تلك بالتقوى، وجهروا أنهم مستعدّون لتقديم

الذبائح للأوثان والارتداد عن الإيمان إذا رأوا بعض البشر وهم أثرياء وشرفاء المحتد وذوو مواهب عظيمة يندمجون في حياة هم يكرهونها وينبذونها ، وتراهم يتبجحون بالقول : إني أنا أول من وضع يده على ذلك الراهب وأهانه ؛ والثاني يقول : اني دخلت إلى منسك ذلك الراهب وأثخنته بالجراح ؛ ويقول آخر غير ذلك...

ما هذه الوحشية يقول القديس يوحنا ، ان الدموع تجري من مآقي لدى رؤيتي هذا المشهد البشع . وكتب ليس للدفاع عن الرهبان بل حزناً على مصير هؤلاء المضطهِدين الذين يجلبون لنفوسهم الهلاك ، وهو يشبّههم بنيرون الذي اخترع أساليب جديدة لاضطهاد المسيحيين وفي آخر الأمر مُجد المسيحيون وسائر الشهداء ورُذل نيرون إلى الأبد ، وقد كتب التاريخ على قبر نيرون : «رمز الوحشية والبربرية» ، وعلى قبر القديس بولس الذي قتله نيرون : «انه ملاك سماوي والأرض ستمدحه إلى الأبد» .

أما في الدفاع الثاني ، فالقديس يوحنا يدافع عن الرهبان إلى النهاية . وفي هذه المقالة يتوجه إلى الأهل غير المؤمنين الذين يحاولون أن يمنعوا أولادهم عن اعتناق الحياة الرهبانية . ان الغني ، يقول القديس يوحنا ، مهمَا عَظُمَ غناه واتّسع ملكه يظل في عطش مذيب إلى اللذّة ، بينما الراهب لا يعطش أبداً إلى اللذّة لأنه لا يملكها بل هو يحتقرها . إن الأول هو عبدٌ أما الثاني فهو حر طليق ؛ الغني يخاف أن يفقد شيئاً مما يملك وهاجسه الأوحد أن يتمتع بكل ما يملك بينما الراهب لا يفكر بشيء من هذا كله . ان الغني مهما عظُمَ يظل محدوداً أما الراهب فهو يملك العالم بأسره . إن مسكنه حرّ ومتنقل وتأثيره شاسع . انه الإنسان الذي يملك الفضيلة ، وهذا هو الغنى الحقيقي الذي لا شيء يوازيه من كنوز الدنيا .

يقول القديس أيضاً : قل بحقك كم عدد الأيام التي يتمتع الغني فيها بما يملك من مال وغنى ، ثلاثون يوماً؟ مئة يوم؟ سنوات عدّة؟ وبعد ماذا سيكون كل شيء حتى الغنى يمضي كالحلم وكالظل ، لكن الراهب ، فالمجد والشرف يرافقانه إلى القبر وهو مجد الفضيلة .

أما الدفاع الثالث فهو يتمحور حول فكرة القديس بولس بأن الإنسان الذي يهمل خلاص إخوته يخطأ ضد المسيح نفسه ويهدم هيكل الله .

فالأهل هم أول من يلتزم بالاهتمام بخلاص أفراد عائلتهم وأولادهم ؛ ومن الضروري

أن يهتموا بالدعوة الرهبانية إذا أراد أولادهم هذه الغاية الشريفة ؛ ثم يلتزمون بتثقيفهم ثقافة مسيحية حقيقية ، ويلقّنونهم تعليم الإنجيل. وكم يخطئ الأهل عندما يُلبسون الرذيلة ثوب الفضيلة ، فيقولون ان الذهاب إلى المسرح ثقافة. والغنى حرية وحب ، والمجد هو طموح ، والتهوّر هو صراحة ، والظلم شجاعة ، والتبذير سماحة. وكم هم مراؤون وكَذَبَة عندما يصنّفون الفضائل هكذا ؛ فيقولون ان القناعة هي توحش ، والحشمة ضعف ، والعدالة مسكنة ، ورذل الفخفخة حقارة ، واحتمال الإهانة جبانة.

ينهي القديس الدفاع الثالث بهذا التحريض : انتبهوا لأولادكم وعزّزوا بكلامكم وأمثلتكم الفهم عندهم. وابنوا هياكل حقّة لله تحمل المسيح نفسه وربّوا في بيتكم جنوداً بواسل للمسيح يعرفون كيف يحاربون أعداء الدين وكيف يصلون في نهاية المطاف إلى الحياة الأبدية.

تلخيص
الأب فرحات فرحات
المخلصي

الفصل السابع

عذاب السيد المسيح وآلامه

١
عِظَة
قوة الصليب

الصليب هدم العداوة بين الله والناس. صنع السلام جعل الأرض سماء وجمع الناس مع الملائكة. أباد قوة الموت وحطّم قدرة الشيطان ولاشى قوة الخطيئة. أنقذَ الأرض من الضلال وجدّد الحقيقة وطرد الشياطين ونقض هياكل الأصنام وهدم مذابحهم وأباد نتانة الذبائح الوثنية وغرس الفضيلة وأسّس الكنيسة. الصليب إرادة الآب ومجد الابن ومسرّة الروح القدس ومديح بولس القائل: «وأما من جهتي فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح» (غلاطية ٦ : ١٤) الصليب أوضح من الشمس وأكثر لمعاناً من الأشعة لأنها لما أظلمت أضاء الصليب متلألئاً. حين أظلمت الشمس لم تتلاشَ بالكلية بل غلبتها أنوار الصليب، الصليب مزّق صك الخطيئة وأبطل ظلام الموت. الصليب رمز المحبة الإلهية لأن الله قد أحب العالم هكذا حتى انه بذل ابنه الوحيد لئلا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣ : ١٦) وأيضاً بولس يقول: «لأنه إن كانت مصالحتنا مع الله بموت ابنه حين كنّا أعداء فأحرى إذ كنّا متصالحين أن نخلص بحياته» (رومية ٥ : ١٠) الصليب سور وطيد، وسلاح لا يُقاوم. ركن الأغنياء وثروة الفقراء حامي المظلومين وسلاح المعرّضين للهجوم، رادع الشهوات وأساس للفضيلة، إشارة عجيبة مدهشة: فأجاب الرب وقال لهم: «إن الجيل الشرير الفاسق يطلب آية ولا يُعطى له آية إلاّ آية يونان النبي» (متى ١٢ : ٢٩) وقد قال بولس أيضاً: «لأن اليهود يبتغون آية واليونانيين يطلبون الحكمة أما نحن فنبشّر بالمسيح مصلوباً وذلك معثرة لليهود وجهالة عند اليونانيين» (كورنثوس الأولى ١ : ٢٢ و٢٣) الصليب فتح أبواب الفردوس وأدخل اللص إليه. أدخل الجنس البشري إلى ملكوت السموات بعد أن أشرف على الهلاك، ولم يستحق حتى الأرض. لقد كان الكثير بواسطة الصليب وسيكون أيضاً.

لا يكفي أن نرسم الصليب بالأصابع فقط بل يجب أن يسبق ذلك استعداد القلب والإيمان الحقيقي. فإن رسمت الصليب على وجهك بالصورة المذكورة لا يجسر أحد من الأرواح النجسة أن يدنو منك لدى رؤية ذلك السيف الذي قُهر به، ذلك السلاح الذي جُرح به جرحاً مميتاً. ان المرء يرتعش عند رؤية المقصلة المُعدّة لإعدام المجرمين. فكم يكون خوف الشياطين عندما يرون ذلك السلاح الذي حطّم المسيح به قواهم وقطع رأس الحية؟

لهذا، لا تخجل من عظمة هذه النعمة كي لا يخجلك المسيح عند مجيئه في مجده! إذ تظهر علامة الصليب أمامه وتكون أشدّ لمعاناً من أشعّة الشمس. فظهور علامة الصليب برهان للعالم بأسره وشهادة عن تتميم ما ينبغي عمله لأجل المسيح. وهذه العلامة، إن كان فيما مضى، أو في وقتنا الحاضر تفتح الأبواب الموصدة وتلاشي قوة الأعمال المضرّة وتحوّل تأثير السم وتبرئ الجراح المميتة الحاصلة من أنياب الوحوش الكاسرة. فكما أنها حطمت أبواب الجحيم، وفتحت أبواب السموات، والفردوس ثانية، وهدمت حصن الشياطين، فلا عجب إن تغلّبت أيضاً على المواد السامة والوحوش الكاسرة وما شابهها. بناء عليه، ارسم علامة الصليب في عقلك، لأن الصليب جدّد العالم كله! وطرد الضلال، وأدخل الحقيقة، وجعل الأرض سماء والبشر ملائكة، فما دام الصليب معنا فلا خوف علينا من الشياطين ولا من ضررهم.

الأب ايزيدور أبو حنا المخلصي

٢

الصليب

(من خطبة للقديس يوحنا فم الذهب)

١ – الصليب:

عليه ترتكز مقدرات الجنس البشري. منه وبه يأتينا كل شيء. يشغل فكر الإله العلي مدى الأجيال. أظهر للبشر برسوم ورموز مدّة أربعة آلاف سنة. ولما بلغ ملء الزمان انتصب على الجلجلة. انه مختصر روائع سرّ الفداء. هو العَلَم الذي يسير وراءه أبناء الله على مدى الأجيال، هو شارة الخلاص، شرط الانتصار، علامة المختارين؛ هو وحي لكل فضيلة، وعكاز البر والتقوى.

فالصليب إذن يسود على التاريخ البشري. يظهر في العهد القديم برسوم، وهو موضوع كرازة الأنبياء: هذا هو الصليب السابق التبشير به يدنو الزمان الذي فيه ترتفع الضحية العظيمة عليه، وعليه تسلّم أنفاسها وتخلّص الجنس البشري. هذا الصليب المرفوع هو تحقيق لتلك الرسوم والرموز. إلى آخر الأجيال يجب على المسيحي أن يرافق رئيسه إلى الجلجلة ويموت معه تلك الميتة السرية التي يعلّمنا القديس بولس وكل الكتاب المقدس ضرورتها وعظائمها الغنية: وهذا هو الصليب المتَّبع والمقتدى به.

ان المقاطع التي وردت في الكتاب المقدّس عن سرّ الصليب كثيرة وهي مسطّرة فيه نبؤات أو رموزاً. لنأخذ من هذه التباشير وهذه الوجوه ما هو أكثر نوراً وشهرة ولنطالعها متّبعين ترتيب الأزمنة.

٢ – الشجرة في الفردوس الأرضي:

نصبت في الأرض شجرتان وحملتا ثمرتين. نصبت في الفردوس الأرضي شجرة معرفة الخير والشرّ وكان من الواجب أن تولي البشرية المجد والسعادة الدائمة بالطاعة لله. لكنها سبّبت الموت باغواء الشيطان وجنون أبوينا الأولين وتصديقهما له وطاعته وتفضيله؛ أكل أبوانا الأولان من الثمرة المحرّمة فانفتحت أعينهما والتحفا بالخزي وصار حظهما الرذل.

هل الله ظهر مغلوباً؟ لا لعمري! بل خلّص الإنسان ودحر الغالب الجهنمي وأجرى الخلاص. ولكي يتم هذا العمل استخدم ذات الوسائط التي ساعدت على السقوط. فنصبت شجرة جديدة حملت ثمرة مثل الأولى، مقدرات الجنس البشري. ان كلمات الشيطان النفاقية اتخذها الله وصارت شرطاً للخلاص ومبدأ لأمجادنا المعجزة البيان. لنأخذ الآن ونأكل من شجرة الحياة ولنتغذَّ مع المسيح فنصير آلهة.

إذ قد أصبح الصليب بهذا نقطة الانطلاق للخلاص، لنرفع الصليب ولنحمله بأمانة: «لنحمل اماتة يسوع في جسدنا المائت». في هذا القداسة وفي هذا الخلاص.

٣ – ذبيحة اسحق:

لما نطق يسوع بهذه الكلمات السرية: «رأى ابراهيم يومي وفرح»، كان يشير ولا شك إلى أجمل صورة رسمها الله في العهد القديم ألا وهي ذبيحة الصليب. كما لله ابـن كذلك لابراهيم ابن وحيد، وهذا الابن هو ابنه المحبوب، وفي هذا الابن كل المواعيد، وهذا

الابن يجب أن يذبحه ابراهيم كما ذُبح ابن الله. يا لشدّة التأثير! اسحق يرتقي الجبل الذي سيذبح عليه حاملاً حطب محرقته، لنشاهد في أحزان القلب الأبوي مثالاً حياً لحب الله غير المتناهي الذي يسلم ابنه الوحيد لخلاص الكل. هذا هو الحمل، الحمل المعتقل في «الجدَّاد»، الذي أصبح ذبيحة لسكين ابراهيم. كيف لا نرى في هذا الحمل الحمل الحقيقي، «الحمل الذي يرفع خطيئة العالم»؟ إذا كانت ذبيحة ابراهيم استحقت لأبي الآباء أجمل الاستحقاقات فماذا لا تفعله للعالم ذبيحة اسحق الحقيقي؟

ونحن لنرتقِ جبل الفضائل، جبل المحرقة والتسليم لله، جبل العذاب، حاملين حطب المحرقة وصليب مخلصنا.

٤ – نبؤة يعقوب المحتضر:

لما كان يعقوب على فراش الموت دعا بنيه وكشف لكل واحد خواص سبطه ولما جاء دور يهوذا ارتفع صوته ونظره وتنبّأ عن المسيح، وعن الخلاص العام المتمم بالصليب، وعن انتصار ابن الله والإنسان الذي حارب العالم بآلامه، وغذّاه بجسده الإلهي، وصبغه بدمه والصائر له موضوع محبة معجزة البيان.

منذ أن أتى ابن يهوذا، الكلمة المتجسد، بدأت العبادة: «يهوذا إياك يحمد إخوتك». هذا هو الهتاف الذي يدوّي بين السماء والأرض منذ أن ظهر المسيح المخلص العالم: «أبناء أبيك يعبدونك».

المسيح هو الله، والسماء والأرض يعبدانه ويسبّحانه. والمسيح أيضاً هو قائد حرب أتى ليناصب الشرّ أشد حرب. كسر شوكة الخطيئة وهدم أركون الشيطان ورفع مملكة لا تُغلَب. «يدك على قذل أعدائك» هذا هو المنتظر، هذا هو القوي، هذا «أسد يهوذا»: «يهوذا شبل أسد».

وكيف تدور هذه الحرب؟ أي سلاح يَستلُّ المسيح للانتصار على الخطيئة والموت والجحيم؟ سلاحه هو الصليب، الانتصار هو بموته؛ وَسَن القبر المخيف هال أعداءه. جثم وربض كأسد وكلبؤة فمَن ذا يقيمه؟ في الصليب قوّته، من نومه تنبع قوّته. ملكه يبتدئ من قبره. ولما قام اقتاد الشعوب إلى ملكه: «رابط بالجفنة جحشه».

وماذا يعمل بهذه الشعوب؟ انه يمجّدها بنوع عجيب، يغسلها بدمه. ويجدّدها

بنعمته ويؤلهها بسرّ محبته : «غسل بالخمر لباسه وبدم العنب رداءه».

وسيبقى للسماء وللأرض موضوع محبة لا تمحى. جماله يسبي القلوب : «أجمل بني البشر». سيبقى محبوباً إلى الأبد : «عيناه أشدّ سواداً من الخمر».

٥ - الحيّة المرفوعة في القفر :

يكشف لنا المسيح نفسه معنى هذا الرمز وماذا تعني تلك الحيّة النحاسيّة التي أمرَ الله موسى برفعها في البرية.

ان القفر الذي كان يجتازه بنو اسرائيل قبل وصولهم إلى أرض الميعاد هو رمز للحياة الحاضرة، الحياة الممتلئة عذاباً متصلاً وتعباً وأخطاراً.

كل مدة سير اليهود في البرية كانوا يعصون أوامر الله، على حسب ما نعمل نحن في هذه الحياة، فكانت تلحق بهم العقوبات. أرسل لهم الله حيّات فلسعتهم لسعات مميتة ونحن تلسعنا شهواتنا لسعات حادّة ونموت بخطايانا. ومن أين أتى الخلاص لاسرائيل؟ أمر الله موسى بأن يرفع صليباً ويعلّق عليه حيّة نحاسية. فكان كل من نظر إليها نظرة إيمان وثقة يجد النجاة. على الحقيقة أنه لرمز عجيب. ان الحيّة النحاسيّة لم يكن لها غير شبه الحيّة السامّة دون المادّة السامّة. ويسوع المسيح المعلَّق على الصليب والمرتفع عن الأرض يظهر ويري ذاته لجميع الجنس البشري.

يكفي النظر إليه للفصل بين الحياة والموت. النظر إليه بإيمان هو الحياة. امتهانه والاعراض عن صليبه هو الموت.

٦ - موسى على الجبل يرفع يديه بهيئة صليب :

ان الرسم السابق أرانا قوة الصليب الكلية الاقتدار عندما نهلك بأذية الخطيئة المميتة. وموسى باسطاً يديه ومصلّياً على الجبل يصوّر لنا قوة الصليب ضد الأعداء المهاجمين.

يشوع يحارب في السهل، اسرائيل يتراجع، وعماليق ينتصر. أما موسى، الصورة الممتازة للسيد المسيح، فيقدّم ذاته لله كذبيحة، ويمثّل بهيئته وصلاته الذبيحة المنتصرة، ذبيحة المسيح المصلي والمائت على الصليب.

الأب جورج غبريل المخلصي

٣
عِظَة
صلب المسيح

نُقيم اليوم عيداً احتفالياً لرفع سيدنا يسوع المسيح على الصليب فلا تعجبوا من احتفالنا بعيد ذكرى لحوادث مؤلمة. لقد كان الصليب سابقاً إسماً للقصاص الشديد. أما الآن فهو اسم للفخر والاحترام. كان الصليب سابقاً أداةً للعار والعذاب فأصبح اليوم أداةً للمجد والشرف. وهذا ما نتأكده تماماً من كلام سيدنا يسوع المسيح الذي أسمى الصليب مجداً: «والآن مجّدني أنت يا أبتِ بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم» (يوحنا ١٧: ٥) إن صليب يسوع المسيح رأس خلاصنا ونبع الخيرات التي لا توصف. بواسطة الصليب حُسبنا في عِداد خراف الله نحن المنبوذين سابقاً، وخرجنا من الضلال، وعرفنا الحقيقة. بواسطة الصليب عرفنا مخلص الكل نحن الذين كنا نعبد الأشجار والحجارة. بواسطة الصليب توصَّلنا إلى حرية الصلاح نحن عبيد الخطيئة سابقاً. الصليب أنارنا نحن الجالسين في الظلمة. الصليب حرّرنا من الأسر. الصليب صيَّرنا جنوداً في السماء نحن الغرباء. هذه الخيرات كلها قدَّمها لنا الصليب. إذن يحق أن نقيم له عيداً احتفالياً. ولهذا يوصينا بولس الرسول أن نعيِّد قائلاً: «فلنعيِّد لا بالخمير العتيق ولا بخمير السوء والخبث بل بفطير الاخلاص والحق» (كورنثوس الأولى ٥: ٨) لماذا يأمرنا الرسول المغبوط أن نعيّد لأجل الصليب؟ لماذا صار الصليب سبباً للعيد؟ إن الرسول نفسه يقول: «فانه قد ذبح فصحنا المسيح» (كورنثوس الأولى ٥: ٧) على الصليب قدمت الذبيحة، وحيث الذبيحة تكون مغفرة الخطايا. هناك المصالحة مع السيد، هناك العيد والسرور. فالحق أن الصليب هو عيدنا وسرورنا لأن فصحنا المسيح قد ذُبح عليه.

أتريدون أن تعلموا تأثيراً آخر للصليب يفوق كل عقل بشري؟ اليوم فتح الصليب باب الفردوس الموصَد وأدخل اللصَّ فيه! كيف يقدر المصلوب المسمَّر على الصليب أن يَعِدَ بالفردوس؟ إسمعوا ما يقوله الرسول شارحاً هذا: «فانه وإن يكن قد صُلب عن ضعفٍ لكنه حيٌّ بقوة الله» (كورنثوس الثانية ١٣: ٤) ولكي لا نقع في اليأس إذا نظرنا إلى صفة الصليب يرينا المصلوب قوّته وهو على الصليب، انه ما أقام ميتاً ولا خاطب بحراً، بل جذب بقوّته روح اللص الشريرة. إن محبة سيّد السموات العليا وخيراته لا يقدر على وصفها أي لسان. إن الدخول مع السيّد لأشرَف من الدخول إلى الفردوس! ماذا فعل

اللص حتى استحقَّ فجأة أن يدخل الفردوس وهو على الصليب؟ إنه نظر بعين حقارته وبإيمان إلى المصلوب فعرف السيّد السماوي ووبَّخ نفسه بكلمات موجزة تبيِّن منها أنه يستحق الفردوس : أما نحن فبعدلٍ لأننا نلنا ما تستوجبه أعمالنا. وأما هذا فلم يصنع شيئاً من السوء، وبعد هذه الكلمات تجاسر أن يطلب منه : «اذكرني متى جئت في ملكوتك» (لوقا ٢٣ : ٤١) قل لنا أيها اللص كيف تذكرت الملكوت، ماذا رأيت الآن؟ فأمام عينيك المسامير والصليب والتهمة والاستهزاء والنميمة. فيجيب أن الصليب عندي علامة الملكوت، لذلك تراني أُسمّي المصلوب ملكاً لأني أراه مصلوباً ولا يموت عن الرعية ألا الملك كما قال : «أنا الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يوحنا ١٠ : ١١) نرى الملك الصالح قد بذل نفسه عن رعيته. ولذلك أصرخ إليه كملك : اذكرني متى جئت في ملكوتك.

أتريدون أن تعلموا كيف أن الصليب صار شعاراً للملكوت، وكيف انه تمجّد؟ لقد أخذ السيد الصليب معه وأدخله إلى السماء وسيأتي به معه عند مجيئه الثاني. إسمع ما يتكلم المسيح المخلص عن هذا : من المعلوم أنه سيأتي المسيح الدجَّال قبل مجيء السيد المسيح الثاني. ولكن لا ينغشّ أولئك الذين يفتّشون عن المسيح قال السيد : «إنني أُبيِّن لكم العلامات عن مجيء الراعي : فمثلما يخرج البرق من المشارق ويظهر في المغارب كذلك يكون مجيء ابن البشر من السماء» (متى ٢٤ : ٢٧ - ٣٠) إنها لعلامات ساطعة تفوق العقول. الشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه. الكواكب تتساقط. وفيما بعد سيأتي وحده حتى نعلم أن نوره أشدّ بهاءً من نور الشمس، وضياءه أشدّ من ضياء القمر. فكما أن الجنود تتقدّم الملك حاملة شاراته ومبشّرة بقدومه، هكذا عند مجيء المسيح الثاني ستتقدّمه جنود الملائكة ورؤساء الملائكة حاملين شارات المسيح مبشّرين بقدوم الملك الذي تتزعزع أمامه قوات السماء. لماذا يأتي المسيح ومعه الصليب؟ حتى يتأكد الذين صلبوه حماقتهم وجهلهم. وإذ تظهر علامات ابن البشر ستهتزّ المسكونة كلها لأنها سترى من يكشف الخطايا. وهل من عجب إذا جاء المسيح مع الصليب؟ إنه سيأتي وآثار جراحه ظاهرة كما يشهد نبي الله : «فينظرون إليَّ أنا الذي طعنوه» (زكريا ١٢ : ١٠) فكما أرى جراحه للرسول توما حتى صدق أنه حقاً قام سيرينا أيضاً جراحه وصليبه حتى يُظهر لمن صلبوه انه حقاً ذلك المصلوب. أجل ان هذه لنعمة عظيمة وشهادة واضحة لمحبة الله للبشر آمين.

الأب الياس كويتر المخلصي
(عن المخطوطات المخلصيّة القديمة)

٤
أسبوع الآلام

١ – مطلع أسبوع الآلام

هذا الأسبوع هو لنا كالميناء لربابنة السفينة، أو الجائزة للعدّائين والاكليل للمصارعين. إنه مصدر كل خير وفيه نجاهد لنوال الاكليل. ونسمّيه أيضاً الأسبوع العظيم، لا لأنَّ أيّامه أطول من سواها، بل لأنَّ الربَّ صنعَ فيه العظائم.

بالواقع، خلال هذا الاسبوع العظيم، زالَ طغيان الشيطان الذي دام طويلاً، وبادَ الموت وسُحقت القوَّة ودُحرت الخطيئة وفُتح الفردوس ثانيةً وسُمِحَ بدخول السماء، وشرعَ الناس يتعاطون مع الملائكة، وهُدِمَ الحائط الفاصل ونُزع الستار، وبَسَطَ إلهُ السلام سلامَه في السماء وعلى الأرض، لذلك دُعيَ هذا الأسبوع عظيماً. وكما أنّه رأس بقيَّة الأسابيع، هكذا سبتُ النور هو رأسه، وهو له بمقام الرأس للجسد.

فلا بِدْعَ من أن يُضاعِف المسيحيُّون جهودهم، في هذا الأسبوع، فيزيدون أصوامهم أو اسهارهم المقدّسة أو صدقاتهم. بهذا الاندفاع للأعمال الصالحة والاهتمام بتحسين سيرتنا، نشهَدُ على عِظَم الخير الذي صنعه الله إلينا. وكما أنه، بعد أن أقام الربُّ لعازر، شهِدَتْ مدينة أورشليم بجمهورها الآتي لاستقباله، على إقامته ميتاً، فكان حماس القادمين لملاقاته، دليلاً على الآية التي صنعها، هكذا في أيامنا، تبدو غيرتُنا على حُسنِ الاحتفال بالأسبوع العظيم، شاهداً على عِظَمِ المآثر التي جرت فيه قَدَماً. ولا نخرج نحن اليوم لملاقاة يسوع من مدينة واحدة، أورشليم دون سواها، بل في كل أقطار العالم، تخرُجُ شعوبٌ لا تحصى من رعايا الكنائس لملاقاة يسوع. ولا تهزُّ أمامه سُعُفَ النخل، بل تُقدِّمُ له الرحمة والصَدَقَة والصوم والدموع والصلاة والسهر وكل أنواع الفضائل.

(على المزمور ١٤٥، الشرح الثاني رقم ١)

٢ – جمعة الآلام

يسوع معلّقٌ على الصليب، إنه لنا عيد! أجل، أنا توّاقٌ إلى القول: إنَّ الصليب عيدٌ واحتفالٌ روحيٌّ محض. لقد كان الصليب شارة الرَذْل، أما الآن فهو عنوان الشرف؛ وما كان رمزَ العبوديَّة أصبح رمزَ الخلاص.

الصليب هو لنا ينبوعٌ يفيض بالنِعَم: فهو يُرشدنا في الضَلال ويُنيرنا في الظلمات ويقرِّبُنا من الله. لقد لاشى العداوة وأخمد الحرب وصالحَ مع الله مَن كانوا قد انفصلوا عنه، فضمَّهم إلى عائلته وأمَّن لنا السلام الذي أتانا به؛ فهو كنزُ جميع الخيرات. إنه دليلُنا في صحراء التيه إلى الطريق السويّ، لم نعد خارج البيت، فقد وجدنا بفضله الباب، لندخله ثانية، لا نخشى سهام إبليس الملتهبة، فقد اهتدينا إلى الينبوع، ولا نرتاع بعد من الذنب لأن لنا راعياً صالحاً، وقد قال: «أنا الراعي الصالح والحقيقي، فلا نخشى من الطاغية لأننا بجوار الملك. تلك هي دواعي احتفالنا بعيد، عيد الام المسيح الخلاصية».

(ميمر على الصليب واللص، الرقم ١)
(المخطوطات المخلصية القديمة)

٥

عِظَة

نكران بطرس

وكيف أنكرَ بطرس يسوع؟ لم يَقُلْ يسوعُ إنه سيصلِّي حتى لا يُنكره بطرس، بل كي لا يفقد الإيمان. كان هذا مفعولَ نعمته؛ لأنَّ خوفه كان قد طردَ كل شيء؛ كان خوفه شديداً لأنَّ الله كان قد نَزعَ منه مساعدته؛ وإنما حرَمَه هذه المساعدة لأنه كان يرى فيه استقلالاً وكبرياءً عنيفَين. فلكي يقتلع هذا الشرَّ من أساسه، تركَ الذُعر يجتاحه.

كان في قلبه من الكبرياء ما جعله يعارض النبيَّ ويسوع المسيح، حتى أنه، بعد أن قال له المسيح: «الحقَّ أقولُ لك إنَّك ستُنكرني الليلة ثلاثَ مرّاتٍ قبل أن يصيح الديك»، أجابه: «لا أُنكرك ولو أُلجئْتُ إلى الموت معك». ويلاحظ القدّيس لوقا، أنَّ الرسول كان يعارض بقَدَر ما كان يسوع يُلحّ. بِمَ كنت تفكر، أيها الرسول؟ عندما كان معلِّمك يقول: «إنَّ واحداً منكم سيخونني» كنت تخشى أن تكون ذلك الخائن، ومع أنه لم يخطُرْ ببالِك أن تكونَ أنت المُذنب، كنتَ تحرِّضُ تلميذاً آخر ليسأل المخلِّص أن يدلَّ على هذا الخائن. وهنا عندما صرَّحَ أنه سيكون عثرةً وشكًّا لسائر تلاميذه، عارضته أكثر من مرَّتين! هذا ما يقوله لوقا. من أين جاءه هذا التطرُّفُ الزائد؟ من عَظَمَةِ الصداقة وشدَّة ما شعر به من فرح، لأنه، ما كاد يتخلَّص من الخوف من أن يكونَ هو ذلك الخائن،

وقد عرفه، حتى شعر بفرح عميق وثقةٍ بنفسه لا حدَّ لها، جعلته يفضِّل نفسه على سائر التلاميذ: «إذا شكَّ فيك جميعهم، لا أَشِكُّ أنا أبداً». لا شكَّ في أنه كان يتكلم إذ ذاك عن كبرياء، لأنهم يتجادلون في هذه الوليمة فيمنْ هو الأعظم، فقد كان يتنازعُهم هذا الهمّ. لهذا حاول الربُّ أن يردعه، دون أن يدفعَه في أي حال إلى نُكرانه، وَقانا الله هذا الفكر! غير أنه نزع عنه نعمته، وأراه ضعفَ طبيعتنا.

لاحظوا يا إخوتي، كم أبدى من خضوع فيمَا بعد. بعدَ قيامة معلمه، عندما قال: «يا ربُّ ما لهذا؟» (يوحنا ٢١ : ٢١)، وأسكته يسوع، فصمتَ ولم يُحِرْ جواباً. وفي كل مرة بعد قيامته، فعندما قال يسوع: «ليس لكم أن تعرفوا الأوقاتَ والأزمنة» (أعمال ١ : ٧) لبثَ أيضاً صامتاً دون أي اعتراض. وفيما بعد، عندما سمع صوتاً يقول له: «ما طهَّره الله لا تُنجِّسْه أنت» خَضَعَ له، رغم أنه لم يكن قد فَهِمَ سرّه جيداً.

(الموعظة ٨٢ عن متى، ٣)

الأب كيرلس حداد

المخلصي

٦

عِظَة

في خيانة يهوذا

تمهيد:

ألقى الذهبيّ الفم هذه التحفة في «دفنة» وهي ضاحية من ضواحي انطاكيةَ مشهورة بينابيعها الغزيرة وغياضها المشتبكة. وقد كان فيها في عهد الوثنية معبدٌ شهيرٌ للصنم «أفلّون» يقصده الوثنيون من كل الأطراف طلباً لوَحْيه. ثمَّ استحلَّه المسيحيون فجعلوه كنيسةً للشهداء طارت شهرتها حتى صار المسيحيون يقصدون «دفنة» من كل الجهات كما كان يقصدها الوثنيون من قبل.

ولمَّا تسلَّم المُلكَ يوليانسُ العاصي «تلك الحيّة الجهنمية، الذي كانت حكمته جنوناً بالغاً» كما يقول القديس غريغوريوس النزينزي، استخرج الجاحد

من هنالك عِظام الشهداء وشنَّع بها وأرجع المعبد إلى الإله أفلّون «قاتل الأفعى». في ذلك الوقت سأل ليبانيُوس الخطيبُ الانطاكي واستاذُ الذهبي الفم، أحدَ المسيحيين متهكماً: «ماذا يعمل ابن النجَّار؟» فأجابه المسيحي: «انه يفصِّل تابوتاً لسيِّدك!» وما زال المعبد في أيدي الوثنيين إلى أن رَشَقَ النجَّار الجليلي ذلك الطاغية الجهنمي بسهمٍ غَرَبٍ «أناله به الموت وأعاد الحياة إلى باقي البشرية» كما يقول النزينزي.

فوقع المعبد من جديد في حوزة المسيحيين وتفجّرت الينابيع حوله بعد أن كان نضب منها شيء كثير. في هذا المعبد قد ارتجل الذهبي الفم كثيراً من بدائعه المشهورة منها هذه الخطبة الجميلة:

الآن أضحت «دفنة» بهيجة ومحبوبة لدى الله ليس لما يُشاهَد فيها من العيون الصافية وما تُنميه من الغياض ذات الأوراق الجميلة كالشَعَر المرسل، بل لأنها تقبلت شجرة غريبة هي شجرة الصليب. الآن أضحت بالحقيقة مَعين ماء يهول الشيطان أفلّون القيثي (قاتل الأفعوان). لن تبسط ثرائها من بعد لأقدام المنافقين ولكنها تبسط لديكم يا أهل التقى غابتها صورةً لذلك المكان الشهي عنيت به ذلك البستان الذي تمّت فيه خيانة يهوذا للمخلص وابتدأت أعمال خلاصنا.

لا أدري بِمَ أنطق في هذا المحفل فالتذكار يُغري لساني بتعنيف يهوذا ولكن محبة المخلص تعطف إليها منطقي. اني بين عاطفتين تتجاذبانني: بغضة الخائن ومحبّة المخلص، بيد أن المحبة تغلب البغضة لأنها أكثر عظمةً وسلطاناً. ولذا فاني أدع الخائن لأتغنى بالمحسن إلينا، ليس على قدر ما يستحق، ولكني أُسبّحه جهدَ استطاعتي.

كيف حنى السماوات وانحدر إلى الأرض؟ كيف المالئ كل الخليقة أتى إليَّ وصار مثلي لأجلي؟ كيف اتخذ تلميذاً مَن يعلم أنه سيكون خائناً، فأمر هذا العدوّ أن يتبعه كأنه صديق؟ كيف لم يبالِ بالخيانة، بل كان يفكِّر بخلاص الدافع؟ يقول الإنجيل: «ولما كان المساء اتكأ مع تلاميذه وفيمَا هم يأكلون قال، الحقَّ أقول لكم إنَّ واحداً منكم سيسلمني» تنبّأ على الخيانة ليتلافى الجريمة، أتى بالنبوءة مُبْهَمَة لعجزها عن أن تنتصر على خيانة التلميذ ولكي تبقى خافية على المتكئين. من شاهد عطفاً كعطف السيّد؟ انه يُخان ويحب الخائن، من يُحتَقَر فيرحم؟ أو يُباع فيجعل من تاجر الإثم جليسَ مائدته، مشفقاً على المتآمر عليه؟ «وفيمَا هم يأكلون قال: الحقَّ أقول لكم إنَّ واحداً منكم سيسلمني» فبما انه إنسان كان يأكل وبما انه إله كان يخبر عن المستقبل. انه من أجلي يخضع لمقتضيات طبيعتي. ولما

دهش التلاميذ من هذه الكلمة وأخذت ضمائرهم تقرعهم تقريعاً هائلاً وتحوّل لهم وقت العشاء إلى وقت قنوط ويأس وصار كلٌّ منهم يقول «لعلّي أنا هو يا رب؟» متوقعين من الجواب على هذا السؤال أن يدفع كل واحد عن نفسه همَّ تلك التُهمة الشنعاء. فالمخلص لكي يشفي نفوسهم المجروحة في غير أوانها أعلن بجوابه من كان مجهولاً قال: «الذي يغمس يده في الصحفة هو يسلمني وابن البشر ماضٍ كما هو مكتوب عنه ولكن الويل لذاك الرجل الذي يسلّم ابن البشر قد كان خيراً لذاك الرجل لو لم يولد.» انه يرحم الذي لا يريد أن يرحم ذاته ويشفق على الذي لا يريد أن يشفق على نفسه عينها. انه يُعرض عن فضح الذي قد فضح نفسه من زمن طويل، واهباً إياه فرصة للتوبة وجابراً قلوب التلاميذ المصدوعةَ حزناً، ولكن الخائن لم يستفد من ذلك لنفسه شيئاً.

قد كان من الواجب عليه أن يقوم عن العشاء حالاً بعد تلك الكلمات الرائعة، كان من الواجب أن يستشفع التلاميذ بنفسه، كان من الواجب أن يقبّل رُكبتَي المخلص ويتوسل إليه بمثل هذه الكلمات: خطئت أيها المحب البشر، خطئت، أثمت إذ بعت للبشر بثمن خسيس الدرَّة التي لا يعادلها ثمن، أثمت لأني قايضت مقابل دريهمَات قليلة بالثروة التي لا حدَّ لها، اغفر لي أنا الذي اتجرت متاجرة العقاب والهلاك، اصفح عني فقد فُتنت بالذهب، اغتفر جريمتي فقد خدعني الفريسيون بشقاوة... انه لم يتفوّه بشيء من هذا الكلام بل لم يفكِّر به لكنه أعرب بنبرته الخشنة عن وقاحة نفسه إذ قال: «لعلّي أنا هو يا رب» يا لوقاحة هذا اللسان! يا لعتو تلك النفس! انه يسأل متجاهلاً عمَّا قد درسه، وهو يحسب انه يخفيه عن العين التي لا تنام. انه يحمل كلام الغدر في نفسه وينطق لسانه بكلام الجهالة. في فؤاده قد صمّم العزم على الخيانة ليوهم انه يخفي إثمه. يستعمل كلمات أشبه بكلام الرسل الآخرين، ولو ان أخلاقه مخالفة لأخلاقهم. هو ذئب بعزمه ولكنه ينطق بصوت الحمل. فماذا ترى أجابه المخلص؟ «أنت قلت!» بهذه الكلمة الرقيقة بدّدَ وَهْم ذلك التاعس. كان في وسعه أن يخاطبه: ماذا تقول أيها النذل الشرير؟ ماذا تقول يا عبد الفضّة؟ يا عميل الشيطان المخلِص له، أتجترئ أن تتظاهر بالجهل، أيبلغ بك السفَه أن تخفي ما لا تستطيع إخفاءه؟ ألم أكن حاضراً بألوهتي حين كنتَ ترتكب المعصية؟ ألم أرَكَ بعين الأُلوهة وأنت تتقدّم إلى رؤساء الكهنة؟ ألم أسمعك؟ ولو اني غائب، تقول: «ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أُسلمه إليكم؟» ألا أدري بأي ثمن بعتني؟ ماذا! أبَعْدَ هذا الدليل لا تحمرُّ خجلاً لماذا تحاول إخفاء ما تروم فعله؟ إن كل شيء عارٍ

ومكشوف لديّ! هكذا كان في وسع المسيح أن يجيبه. غير أنه لم يقل شيئاً من هذا وإنما أجاب ببساطة وسلامة قلب ووداعة: «أنت قلت» معلِّماً إيّانا أن نعامل أعداءنا كذلك. ولقد بقي يهوذا مريضاً بعد ذلك العلاج، لا تهاوناً من الطبيب ولكن لخمود همّته. فالواحد يقدّم كل أدوية الخلاص والآخر يرفض أن يتناول شيئاً منها. ذلك لأنه أحبَّ الذهب على المسيح واختصَّ بودّه وعهده الذين وعدوه بالمكافأة.

«فدنا يهوذا وقال للمسيح: سلام يا معلم وقبّله.» ما أغرب طريقة هذه الخيانة التي تبتدئ بقبلة وسلام! «فقال له يسوع: يا صاحِ لأي شيء جئت؟» لماذا تحيِّيني بالسلام وأنت تُدمي فؤادي؟ لماذا تلاطف بالكلام وتضرب بالفعل؟ لماذا تدعوني معلماً ولست تلميذاً؟ لماذا تتعدّى شرائع المحبة؟ لماذا تجعل من رمز السلام علامة التسليم؟ بمن تتحدَّى بفعلك هذا؟ أهكذا شهدتَ أمس الزانية تقبِّل قدميَّ؟ أهكذا شهدت قائد المئة ساجداً لدى ركبتَيَّ؟ أهكذا رأيت الشياطين متساقطة؟ اني لا أعرف مَن دلَّك على طريقة هذه القبلة الخائنة، هو الشيطان لقَّنك طريقة هذه المعانقة الجديدة، فانقَدْتَ لإشارته الخبيثة وانك مُنجزٌ تلك المشيئة. «يا صاحِ لأي شيءٍ جئت؟» أَكمِلْ عقود الشرّ التي قطعتها مع الفريسيين، أتمَّ عهد بيعك، وقِّع ما وعدت به، سلِّم من أردت تسليمه، وأَضف إلى كيسك أُجرة الظلم. ولكن أخلِ رتبتك للّص المزمع أن ينال باعترافه ما خسرته بخيانتك.

«حينئذٍ جاؤوا وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه.» فتمَّ المقال النبوي «أحاطوا بي مثل النحل بالشهد وتوقّدوا كالنار في الأشواك» (مز ١١٧: ١١) وأيضاً «قد أحاطت بي كلاب كثيرة ثيران سمينة أحدقت بي.» (مز ٢٢: ١٢).

فيا لصبر يليق بالمخلص وحده! في السماء الكروبون والسرافون لا يجسرون على التحديق بمجده الذي لا يحد لكن يسترون وجوههم بأجنحتهم كأنما بأيديهم، وعلى الأرض بينما تقبض على جسده أيدي متعدية الناموس كان هو صابراً! هل رأيتم ما أعظم أناة ومحبة السيّد الذي أنتم عبيده؟ فكونوا مع أعدائكم الذين هم رفاقكم في العبودية كما رأيتم السيد مع أعدائه. إنكم أنتم مدعوون إلى العشاء السرّي لتتكئوا مع السيّد فلا تكوننَّ بينكم نفسٌ كنفس يهوذا، تقدّموا كلكم بهدوء وسلام. أجل فلنتقدمنَّ جميعاً إلى المخلص بضمير طاهر لأنه صوم المؤمنين ووليمتهم، هو المغذّي والغذاء هو الراعي والحمل، فله المجد إلى دهر الدهور. آمين.

ترجمة الأب كيرلس حداد
المخلصي

الفصل الثامن

تربية وأخلاق

١
التربية خلق جديد

١ - شرف البشرية

وما هو إذاً المسكن الذي حلَّ فيه؟ - أَصْغِ إلى قول النبي: «سأرفَعُ خيمة داود الساقطة». أجل، لقد سقطت، كانت طبيعتنا قد انحطَّت بسقطةٍ لا علاج لها، وليس من يستطيع إقالةَ عثرتها سوى يده القديرة. لم تكن تقوى على النهوض بدون مساعدة خالقها لكي يُجدِّد من علُ خلقَها بماء الميلاد وبروح القدس.

تأمَّلْ هذا السرَّ العجيب: إنه مقيم على الدوام في تلك الخيمة، لأنه قد توشَّح بجسدِنا، لا ينزعه عنه بعد ذلك، بل ليحتفظَ به على الدوام. لولا هذا لما استطاعَ أن يؤهله لعرشه الملكي، ولما استحقَّ وهو متوشِّحٌ به، سجودَ العساكر السموية. ليس من كلامٍ أو فكرٍ يستطيع وصف ذلك الإكرام الذي أتاحه لجنسنا البشري، في عظمته وسموِّه الفائق الطبيعة. وليس من ملاكٍ أو رئيس ملائكةٍ أو أيِّ أحدٍ في السماء أو على الأرض يستطيعُ ذلك. إنَّ أعمالَ الله وعمقَ إدراكه هي فوق مقدور الطبيعة إلى حدٍّ كون وصفها اللائق لا يتجاوز مدى كلام البشر وحَسْب، بل قدرة الملائكة أنفسهم.

ثم نختم كلامنا واجمينَ باحترام، متذكرين دائماً ما يجب علينا أن نقابل به إحسان ذلك المنّان الذي لا حدَّ لعظمته، ليكون هذا لنا مصدراً جديداً للنِعَم. ويقوم فعل الشكران هذا بأن نُعنى بنفسنا أشدَّ العناية. إنه يريد ذلك لكي لا نهمل الإهتمام بنفسنا، فليس هو بحاجة إلى أحدٍ منا. وعليه فمن الجنون المحضِ الجدير بأشدِّ العقوبات، أن لا نُعطي ثمارَ الأعمال الصالحة بقدر مستطاعِنا، بعد أن حزنا على ذلك الشرف الأثيل، وخاصةً لأنَّ كل ما فيه من خيرٍ يعود لصالحنا، ناهيكَ بما أُعِدَّ لنا من ثواب.

(العِظَة ١١ على إنجيل يوحنا)

٢ – المَثَل الصالح تجاه المسيحيين

ما أعجَبَ هؤلاء المسيحيّين (الحقيقيين) وأحكمَ سلوكَهم وترفُّعهم عن الدنيا! وما أروعَ تجرُّدهم عن خيراتها، إذ يَعدُّونها ظِلاً وأضغاثَ أحلام؛ يعملون كأنهم مسافرونَ على هذه الأرض تائقينَ دوماً إلى الخروج من هذه الحياة!

ألا تظنُّ أنَّ من كانت هذه حياته ويُثير إعجاب عُشرائه فيتنوَّهون بهذا الكلام الجميل، لا ينالُ أَجره من الله وهو لا يزال في قيد الحياة؟ ألاَ تظنُّ، وهذا ما يُدهش، أنَّ الذينَ يكون هذا رأيُهم فينا، لن يرتدِعوا عن ضلالهم ويهتدوا إلى الصواب؟ مِنَ المؤكَّد أنَّ سلوكنا يستطيعُ أن يُكسِب ثقتهم.

لهذا، إذا عرَفنا أننا سنؤدّي حساباً عن اكتساب أو خسارة القريب، فلنسلكْ حياةً لا تكتفي بأن تكونَ صالحةً في نظرنا فحسب، بل في نظر القريب لتعمل على بنائه. على هذا نؤمِّن لنا على الأرض نِعَماً وافرةً من الله، وفي الأبديَّة نتمتَّعُ مليًّا بجودته، بواسطة مراحمِ ابنه الوحيد الذي نتمنى أن يكون له وللآب ولروح القدس المجدُ والسلطان والإكرام الآنَ وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين، آمين.

(الميمر ٧ على سفر التكوين، الرقمَان ٦ و٧)

٣ – تهذيب الأولاد

يقول بولس لأهل أفسس: «أيُّها الآباءُ، ربُّوا أولادكم على الإستقامة بحسب تعليم الرب». إذا كنَّا قد أُمِرْنا بالسهر على نفوسهم، كأننا سنؤدّي حساباً عنه، فكم تكون أعظَمَ مسؤولية مَن ولَدَهُم وعاشوا تحت كنَفه! فكما أنه لن يستطيعَ أن يعتذر عن خطاياه الشخصيَّة وينالَ المسامحة، هكذا يتعذَّر عليه ذلك، إذا أهملَ تهذيب أولاده فخطِئوا...

أَمِنَ المعقول أن لا يرضى والدٌ بأن يؤمِّنَ لولده تهذيباً رفيعاً؟ ليس من أبٍ يفعل ذلك، إذا كان أهلاً لمَقامه، فإنَّ الطبيعةَ نفسها تُرشده إلى واجبه الأبوي وتحثُّه على القيام به.

إذا نشأ الأولاد على الشرِّ، فالسبب في ذلك يعود إلى شذوذٍ في تفكير والدَيهم بشأن خيرات هذه الدنيا. يحصرون همَّهم فيها ويُولونها المقام الأول، فيُهملونَ العناية بنفوس أولادهم بقَدَر ما يهملونَ العناية بنفوسهم. إنهم بهذا يرتكبون جُرماً – ولا أُغالي – أفظعَ من جُرمِ مَن يقتلون أبناءهم.

أتريد أن تورِّث ابنك الغنى؟ بل علِّمه الحلم والإيناس. فلو خلّفت له ثروة طائلة، وكان سيّئ الخلق، تكون قد تركتها بدون حارس. خير للأولاد الذين أُسيء تهذيبهم أن يكونوا فقراء من أن يكونوا أغنياء.

(ضد الخصوم، الكتاب ٣ – عدد ٤)

ترجمة الأب الياس كويتر المخلصي

عن **Homéliaire Patristique.** **Cerf, Paris**

٢

تربية الأطفال

حسب القديس يوحنا الذهبي الفم

خلال تاريخ البشرية كله، اهتمَّ الوالدون بكيفيّة تربية أطفالهم وبالوسائل المؤدّية إلى ذلك. إن الوالدين الأرثوذكسيين والأشابين والذين هم منشغلون مباشرة بخير الأطفال، كل هؤلاء يبحثون ويجاهدون من أجل الوصول إلى إجابات على هذا الموضوع. وإن المكتبات مكتظّة بالكتب والمجلاّت والمقالات المنشورة عن هذا الموضوع، كما تقدِّم الكليات الجامعية دورات دراسية حوله ضمن فروع علوم النفس والتربية والإجتماع. بل إن هذه القضية تشغل برامج التليفزيون والإذاعة.

ومهما كانت الخطوط الرئيسية لتوجيهات القديس يوحنا، إلاّ أنه قدَّمها ضمن إطار تعاليم الكتاب المقدس وإجمالي حياة الكنيسة في أبعادها الليتورجية والسرائرية والروحية. كم منا يفعل ذلك، أي يربّي أولاده بدون الجهد الشديد وعمق التفكير الذي للقديس؟ إن المقال يبرز أن الوالدَين في القرن الرابع كانوا يواجهون مع أولادهم ذات المشاكل التي يواجهها الوالدون اليوم، مثل مشاكل الطفل الندّ مع أخيه، والتأثيرات الخارجية عليه، والإختلاط بين الجنسين، والسلوك العشوائي، وحتى ارتياد المسارح الذي يتغلغل ويؤثر في سلوك الأطفال.

إن القديس يوحنا الذهبي الفم، وهو يعطي التوجيهات في هذه الأمور، يقرّر أول ما يقرّر أن تربية الأطفال تتركّز وينبغي أن تتركّز في المنزل. ولقد فوجئت بتفهُّم القديس يوحنا

لنفسيّة الطفل ولأساسيات التربية وعملية تهذيب الأطفال ، وتأسفت لعدم قراءتي لمقاله هذا قبل كل ما قمت به من أبحاث عملية سابقة . ولأنه كان راعياً صالحاً ، فقد كان يضع في اعتباره ضعف طبيعتنا البشرية وهو يخوض في هذه المجالات ، ولكن دون أن يسمح بأي انحراف عن تعاليم الكنيسة ، لأنه ينبغي علينا كمسيحيين أن نجاهد لنتغلّب على كل الإغراءات ونظلّ أُمناء لتعاليم المسيح . إن أفكار الذهبي الفم بسيطة ومقبولة وتمسّ صميم الموضوع . ولقد وجدت معظم محتويات المقال غير قابلة للمناقشة ، وإنّ حُبَّه للوالد والطفل أمر ملهمٌ حقاً ؛ وذلك حتى عندما قرأتها مرة أخرى بعد ذلك بعدّة سنوات .

١ - فحص البواعث التي تحرّكنا

يبدأ القديس الذهبي الفم موضوعه بنصائح قوية للوالدين ، فيقول :

إن الأب يفكر في كل الوسائل ، ليس التي بها يوجّه حياة الطفل بحكمة ، بل التي بها يزيِّنه ويُلبسه الملابس والحلي الذهبية . لماذا تربي ابنك على هذه الرفاهية وهو لا يزال يجهل معنى هذا البذخ؟ إن الحاجة هي إلى المرشد القوي الذي يوجّه الصبي ، وليست إلى المال الذي يغرس فيه منذ البداية الولع المفرط بالثروة ، ويعلِّمه ويثير فيه الإنتباه إلى الأشياء عديمة المنفعة . لماذا تحيك ضد ابنك أكبر مؤامرة خيانة مثل هذه؟ لأجل هذا السبب فنحن نرى الآن أن الرذيلة يصعب التخلّص منها لأنه لا أحد يعتني بأولاده ، أو يتحدث إليهم عن العفّة والرزانة أو عن احتقار الغنى والصيت ، أو عن الوصايا المسجلة في الكتب المقدسة .

في يومنا هذا ، كل إنسان يبذل أقصى جهده لتدريب ابنه على الفنون والآداب والحديث ، أما عن تدريب نفسية هذا الإبن في الفضيلة فلم يهتم أحد بذلك .

هنا يؤكّد القديس يوحنا على موضوعين رئيسيين يظهران في كتاباته :

١ - إن الوالدين مسؤولان عن تربية أولادهما .

٢ - ينبغي عليهما توجيه تدريب أولادهما نحو الحكمة .

وليس فقط على الوالدين أن يكونوا «مرشدين حازمين» بل ينبغي عليهم أيضاً أن يكونوا «ناقدين غيورين» ، ويجب أن يشكّلوا الطفل ، فالوالدون (حسب تعبير القديس) هم : «مثل صانعي التماثيل ، يزيلون الزوائد ويضيفون النواقص ، يفحصون أولادهم يوماً بعد يوم

ليروا أية صفات جيدة حصلت عليها طبيعتهم حتى يكثروا منها، وأية أخطاء حتى يستأصلوها.»

ولكي يكون الوالدان مدرِّبَيْن صالحين، ينبغي أن يتحققا من الأولويات في تدريبهما لإبنهما: هل نريد لأولادنا أن يكونوا مشغولي البال باكتساب الماديات والشهرة الإجتماعية أولاً، أم نريد لهم أن يبحثوا و«يتعلموا عن ملكوت السموات والمكافأة العظمى التي تنتظر الذين يعيشون الحياة الرزينة؟» ليس «الكفاف» هو القضية، ولكن الإفراط ومدى ما نضيّعه من وقت وطاقة في الترفُّه، مقابل قلّة ما نصرفه من أجل البلوغ نحو الحياة الفاضلة.

قد يكون القديس يوحنا قاسياً في حكمه، ولكن كلماته قائمة على المحبة لكِلا الطرفين: الآباء، والأبناء. ونضرب لذلك مثلاً واحداً: عندما يبدأ العام الدراسي كل عام نُرسل أولادنا إلى المدرسة ونزوّدهم بالنصائح العملية: استذكر جيداً، أَنصتْ إلى مدرِّسك... إلخ؛ ونكسوهم بالملابس الجديدة واللوازم الأخرى، ونجعل أوقاتنا مشغولة بالزيارات وبالأعمال الإضافية لزيادة الدخل وارتياد مباريات كرة القدم. ولكن هل أعددنا أولادنا وأنفسنا بالمثل – على الأقل – لمدرسة الكنيسة؟

٢ – الوالدان مسؤولان:

لأجل مَنْ كل هذا؟

ربما نحن لم نفكر إطلاقاً في هذا السؤال. وربما تكون إجابتنا السهلة: «من أجل طفلنا»، «من أجل الله»، «من أجل المجتمع»، «من أجل أنفسنا»، دون التحقق من الأثر ومدى التأثير الناجمين عن كل إجابة من هذه. إن الوالدين أساساً يربّون أولادهم «لأجل الله». فطالما أن ولادة طفل هي عطيّة من الله للوالدين وللعالم وللكنيسة – وهي وسيلة الله لإظهار حبِّه لنا – فمن اللائق والمعقول، بل ومن الطبيعي جداً، أن يجاهد الوالدان لإظهار حبّهما وفرحهما وشكرهما لله، وذلك بتربية طفلهما ليكون ابناً لله.

يقول الذهبي الفم: [«يجب أن نعتني بهذه التماثيل، العجيبة التي بين أيدينا... لنشكِّلها لأجل الله.»، «لأنها ليست جامدة مائتة، بل هو ملك الكون الذي أراد أن يسكن فيها. إذاً، فلنبْنِ الطفل بكلمات الله». «لأنكم تربُّون فيلسوفاً (أو حكيماً لله) وبطلاً (يركض نحو ملكوت الله)، ومواطناً للسماء».]

والقديس يوحنا الذهبي الفم لم يتجاهل الإشارة إلى الفوائد التي يجنيها الوالد الذي يربّي ابنه لأجل الله. لأن الوالد الذي يعمل كل ما في وسعه بإخلاص؛ ويجاهد ولا يدّخر وسعاً في هذا العمل، يباركه الله لأجل ذلك، بل حتى يباركه في ابنه نفسه: [إنك أنت ستكون أول من يستفيد إذا كان لك ابن صالح، ثم بعد ذلك الله. فأنت تتعب **لنفسك**]، [أظهر اهتمامك بإبنك، وستكون **لك** المكافأة بأنواع شتى.] [وإذا تعلَّم الوالد كيف يهذّب أطفاله، فهم أيضاً بدورهم سيتعلّمون تهذيب أولادهم فيما بعد.] فأي فرح سيكون للجدود؟ إن الذهبي الفم يقول إنه ليس فقط الأجيال التالية ستستفيد من الأولاد المهذَّبين جيداً بل العالم كله أيضاً هو المستفيد: [إن جلّ همّنا هو تربية وتعليم العالم كله.]

إن الوالدين هما أيضاً مسؤولان عن ابنهما، وإنّ كيفيّة تدريبهما له على ذلك يمكن أن تساعد أو تعوق دخولها إلى ملكوت الله، وهذا هو محور الموضوع الذي يتضح من مقالة الذهبي الفم: [وعلى ذلك فسنكون قادرين على أن نرضي الله بتربية «أبطال» له، حتى نتمتع نحن وأولادنا بالبركات الموعود بها للذين يحبّونه.]

إنني لا أظن أننا نريد أقلّ من ذلك لأولادنا.

٣ – فضائل ورذائل:

يحصي الذهبي الفم عدّة خصال جيدة أو فضائل يمكن للوالدين أن يساعدا الأولاد على بلوغها، وسجايا رديئة وانفعالات للتخلص منها. وهناك بالطبع أكثر مما أورده الذهبي الفم. ولكنني أعتقد أنه من الشيِّق لنا أن نعرف بعض هذه الخصال التي يعدّدها القديس الذهبي الفم.

فمن الفضائل: الإعتدال (وعلى الأخص في الطعام والشراب)، الإزدراء بالثروة والشهرة، اللطف، التقوى، السموّ في الكلام، الرصانة، الاستقامة، تمجيد الله، الصلاة، الوقار، قمع الذات، البساطة، الرزانة، الحكم السليم على الأمور، الثبات، الشكر، الفهم، التيقّظ، العفّة.

ومن الخصائل الرديئة: السُّكر، ذلاقة اللسان، الحماقة، الحقد، العجرفة، إيذاء الغير، الخلاعة، كلام الفسق، المشاكسة، التهوّر، الانحلال الخلقي، حدّة الطبع، الإفتراء، الإغاظة، الحلف.

ومن المهم أن نتذكّر أن هذه الفضائل والرذائل تؤثر في حياة الطفل ككل، إنْ في أعماله أو كلامه أو في تصرفاته. ويركّز الذهبي الفم عليها عندما يتكلم عن حواس الطفل التي من خلالها [إما أن تفسد الأفكار أو توجَّه توجيهاً سليماً.]

والحكمة – كما يشير إليها الذهبي الفم – هي «المبدأ الرئيسي الذي يتحكم في كل شيء». فالوالدان يجب أن يوجِّها الإبن إلى أن يكون حكيماً في البلوغ إلى الفضائل السماوية وفي الجهاد ضد الرذائل، وينبغي أن يساعداه على التمييز بينهما، كما ينبغي أن يعلِّماه عن «الله وكل الكنوز المذخرة في السماء، وعن الجحيم والملكوت اللذين في العالم الآخر» والكائنين لأجل الحكماء وغير الحكماء.

[فلنغرس فيه، إذاً، هذه الحكمة وندرّبه عليها، حتى يحذر النزوات الجسدية وحب الثروة وحب الصيت والشهرة والنزوع إلى التسلّط، حتى يزدري بها، ويجاهد نحو ما هو أسمى. إن خوف الله والقدرة على رصد هذه الإهتمامات البشرية، يكفيان لأجل الحكمة.]

٤ – كيف يكون الإنسان حكيماً؟

يركّز الذهبي الفم على عدّة مجالات واقعيّة للوالدين لمساعدة الأطفال لكي يكوِّنوا حكمتهم ويستخدموها. فالطفل ينبغي أن يتدرّب في منزله على التحكّم في ميوله الخاطئة مع أُسرته. وينبغي عليهم أن يستحثّ الطفل على التدرّب على هذا وممارسته. فإذا نجح الولد داخل نطاق أُسرته، فسوف ينجح في مدرسته، ثم في عمله، ثم في حياته كلها.

من المهم تعليم الطفل أن **يقبل الخسارات الضئيلة** الآن، لكي يستطيع أن يقبل ويتحمّل الخسارات الكبرى عندما يشبّ رجلاً. ويجب أن يحاول التحكّم في غضبه وانفعالاته، وأن يصير متسامحاً صفوحاً إذا حطّم الآخرون لُعَبه، فيقول الذهبي الفم:

«قد يصير الأولاد عنيدين عندما يخسرون مثل هذه الأشياء ويميلون إلى تفضيل خسارة نفوسهم عن أن يذهب المتسبّب في الخسارة بلا عقاب».

ولا ينبغي على الوالدين أن يعيدا الشيء الضائع له بسرعة، لأنّ مثل هذا العمل يمكن أن يزيد من هذه الميول غير المرغوب فيها، وبدلاً من ذلك فلينتظرا حتى ينسى الطفل لعبته ويزول حزنه على ما حدث قبل أن يُعوَّض عنه. بالطبع سيشعر الطفل في

البداية بالضيق والغضب، ولكن الموضوع هنا هو تدريب قوى الطفل النفسية الداخلية على قبول وتدبُّر الموقف بطريقة مسيحية.

لا تفسد الطفل! بل دعه يعتني بحاجياته الخاصة دون أن يرتكن على الآخرين ليستجيبوا لكل طلباته: [إنّ هذا سيجعله قوياً وبسيطاً ولطيفاً] كما يقول الذهبي الفم: هنا ينبغي أن يُعطَى الطفل بعض الواجبات المنزلية المعقولة وبعض المهام الخاصة بالحياة اليومية. فمثلاً أن يحتفظ بحجرته مرتَّبة، وينظف المكان الذي لعب فيه بعد انتهاء اللعب... إلخ. أي أن اختيار الأعمال التي ننصحه بعملها والتي تُظهر ثقتنا فيه يمكن أن تساعده في خلق الشعور بالمسؤولية لديه. كما أنّ أداءه لبعض الأعمال اليومية الخفيفة يمكن أن يعلّمه الاعتراف بالجميل عندما يقدّم له الآخرون المساعدة، وأن لا يضيع الوقت هباءً.

يقول الذهبي الفم: [فلندرّب الأطفال منذ طفولتهم المبكرة **على أن يكونوا صبورين عندما يُقاسون من أخطائهم**، ولكنهم إذا رأوا أحداً آخر يُظلَم ينطلقون بشجاعة لمساعدته على النحو الملائم]. ويمكن الوصول إلى هذا كما يقول الذهبي الفم: [إذا درَّبوا أنفسهم على الصبر والإحتمال بأن يتحاشوا الأخطاء التي ارتكبوها هم أنفسهم ضد الآخرين.]

هنا يضع الذهبي الفم ثلاث نقاط:

الأولى: من الفضيلة أن نقبل كل الآلام دون الإستسلام لميول الغضب والشكوى وتأنيب الآخرين وتبرير النفس.

الثانية: ينبغي أن نساعد بكل جهدنا، وبلا تحفّظ، الذين يتألمون بصرف النظر عن مَن هم، وبدون الاستفسار عن ألمهم.

الثالثة: بجعل الطفل يفحص أخطاءه، فإن ذلك سيجعله قادراً على أن يصل إلى تأنيب الضمير الذي به يحثّ نفسه على تغيير سلوكه.

وحتى إذا كانت الآلام التي يعانيها جائرة، فقبولها يُعتبَر شيئاً فاضلاً. فيقول الذهبي الفم: [فليكن هذا هو قانون حياته الأول: أن لا يدافع عن نفسه إطلاقاً عندما تُساء معاملته أو عندما يقاسي من محنة، وأن لا يسمح لآخر بأن يفعل ذلك]. وإن سؤال الطفل، وهو على مائدة الطعام مع أُسرته، ماذا حدث اليوم في المدرسة، يمكنه أن يثير الحديث عما فعله وشاهده وحدث له.

ويسجّل الذهبي الفم تدريباً آخر، هو تعليم **الطفل الأكبر أن يفضّل أخاه الأصغر** في كل شيء. وللأسف فإن النزاع بين الإخوة أمر شائع داخل الأُسرة. ورغم أن الذهبي الفم لم يسجل الأشكال الأخرى للصراعات الشائعة مثل: تنافس الصغار على شدّ الاهتمام بهم، وفقدان الاهتمام بالطفل الأوسط في المجموعة، وصراع الأولاد ضد البنات في سنٍّ معيّنة، فالنقطة التي يبلِّغها إلينا هذا القديس هي أننا ينبغي أن نحاول إزالة الميل لدى الطفل في جذب الإنتباه إلى ذاته **دون غيره**.

كل طفل على انفراد هو مخلوق من الله على صورته ومثاله، ولذلك فكل طفل له أهميته وله دوره في الإسهام في الأُسرة. ويجب على الأطفال أن يحترموا بعضهم بعضاً، ويجب على الوالدين أن يلقِّنوهم هذا الاحترام. كما أنه من الأهمية بمكان أن يكون للأطفال دور في بعض الأمور ذات الإمتياز الخاص مثل: اختيار ما يرونه أو يسمعونه في وسائل الإعلام المختلفة – مع توجيههم بخصوصها روحياً وعلمياً – أو اختيار مكان النزهة في عطلة نهاية الأسبوع. كذلك يمكن عمل مواقف خاصة بالطفل مثل عيد ميلاده، وشراء حاجياته، وذلك مع الإهتمام بإشعار الأطفال أنه لا منافسة أو فارقاً بينهم، بل المحبة لكل واحد منهم في ذاته.

وفي النهاية يمكننا أن **نجعل كل طفل يشارك في نفس الأنشطة عندما يبلغون أعماراً معينة**، مثل فرق المرشدات (للبنات) أو جماعات الأنشطة الصغيرة، أو عبادة ما قبل النوم. وإن عمل التوازن لمثل هذه الأنشطة يساعد في فض النزاعات الأخوية، وبالتالي في جعل أعضاء الأُسرة أقرب ما يكونون إلى بعضهم بعضاً.

ولكن ماذا لو كان هناك **الطفل الوحيد** لوالديه؟ هنا ربما يمكن ضم الأقارب (أولاد العمّ أو الخال أو العمّة أو الخالة) والأصدقاء إلى هذه التداريب.

إن القديس الذهبي الفم يختم أفكاره لتوجيه الأُسرة للإنشغال بهذا الفكر: [شكِّل روحه لكي يأتي بأفكار التعقّل. فعندما لا يعتمد على أحد إذا أصابته خسارة، وعندما لا يحتاج إلى خدمة، وعندما لا يغتاظ من تقديم الكرامة لغيره، فأي مثير للغضب سيكون هناك بعد ذلك؟».

تلخيص
الأب الياس كويتر
المخلصي

الفصل التاسع

القدّيسون بقلم الذهبيّ الفم

١
عِظَة
عن إيليّا النبي

١ - أريد أن أتكلم عن إيليّا، عن هذا النبيّ العظيم عن ملاك الأرض هذا وإنسان السماء. عن هذا الرجل الذي كان فيما هو يسير على الأرض يرتّب ببراعة معلّم حكيم، أموراً سماوية. أتكلّم عن هذا الرجل الذي لم يَزِدْ ارتفاع قامته على ثلاثة أذرع ولم تطأ قدماه الأرض، هذا الرجل الذي رُفِع إلى أعالي السماوات وكان مسيطراً على لجج المياه وبكلمة لسانه يرسل المطر بغزارة حتى لكأنه مفتاح السماوات. هذا الرجل الذي كان في وقت معاً فقيراً وغنيًّا أُمّيًّا وفيلسوفاً. كان فقيراً لأنه لا يملك شيئاً وغنيًّا لأن لسانه كان يوزِّع سحائب المطر. وقد كان فظًّا تجاه الخطأة حتى لقد منع بصلواته نزول المطر. فماذا تُراه قال في هذا العَرْض؟ قال: «حيٌّ الربّ إله إسرائيل الذي أنا واقف أمامه إنه لا يكون في هذه السنين ندًى ولا مطر إلاّ عند قولي.» (٣ ملوك ١٧ : ١) ماذا تصنع يا إيليّا؟ وأيُّ قضاء قضاءك؟ فلا أقلَّ من أن تصلّي إلى الرب وحقِّق بصلاتك كلامك. «حيٌّ الرب إنه لا يكون ندًى ولا مطرٌ إلاّ عند قولي.» أين المبتدعون الزاعمون أنَّ ابن الله يصلّي؟ أإيليّا يُبرِم القضاء والابن يصلّي! الخادم يأمر والسيّد يتضرّع! إنكم إذن لا تمنُّون عليه بالمقام عينه الذي تنزلون فيه إيليًّا! أتنكرون على السيّد أن تعرفوا له القدرة التي تقرُّون بها للخادم؟ فإنَّ هذا يلفظ كلمةً بصيغة قسَم فيُغلق السماء دون أن يلجأ إلى صلاةٍ وطلب. فيَا إيليّا إفتح إذن كلامك بالصلاة. فما تراه يجيب؟ يقول: أعلمُ أنَّ ربّي يستجيبني فأنا في ذلك خاضعٌ لما تدعوني إليه غيرتي. ما أغرب وأعجب هذا المشهد الجديد! أترون السيّد يطيع بعاطفة لطفه ما يأمر به خادمه؟ فالخلاصة أنَّ إيليّا وهو في حرارة غيرته كان يعمل على ذلك النحو. فلقد كان يرى جَليًّا ما يُرتكَب من الجرائم، ينظر الرّجس وما لا يُحصى من الرذائل مستولياً على البشر، والأرض غريقةَ ليلٍ مدلهمّ، وظلماتٍ كثيفة تغمركلَّ شيء وكل الناس يتهاوَون إلى أعماق الشرّ. كان طغيانٌ عامّ لا من أمواج المياه بل من الرَّجاسة. فقد تكرَّه الناس العفَّة وساد فيهم العهر ظافراً واضطُهدت الفضيلة وبسطت الرذيلة مملكتها في كل ناحية. فالآكام والجبال والغابات والطرُق والمساكن الخاصّة والهواء نفسه مُلِئَت كلّها فساداً حتى لقد أظلمت الشمس وذبلت الأرض واحتُقِرَت السماء، والتهم شرّ الوثنيّة الخليقةَ قاطبةً وحتى كان الناس يسيرون كأنهم في ليلٍ مظلم عمياناً تجاه الأمور

المخلوقة يرون حجراً فيعبدونه كألوهةٍ ينظرون خشبةً فيحوّلونها إلهاً فإذ هم غرقى في ليل عميق كان الخالق تجاه أبصارهم ولكنهم يسجدون أمام الخلائق.

ولم يكن إلاّ إيليّا وحده مالكاً مصباح الفضيلة وإذ هو جالسٌ على ذروة الحكمة كأنه على ذروة جبل. كان يمارس أعمال الحكمة وهو حامل وحده مصباح التقى ولكن ذلك المصباح لم يُفِد شيئاً أولئك البشر المستسلمين إلى نعاس الخمول والمقيَّدين بسلاسل الوثنيَّة. فإيليّا وهو متميز غضباً مقدَّساً ومتحرّق حزناً يسكب نفسه أنَّاتٍ وكلاماً ولا يصيخ إليه أحد، يتوسَّل بالرجاء ولا أحد يأبه له حتى لم يجد مساغاً إلاّ بأن تلقيَ غيرتُه على الناس أمثولةً وتنبيهاً فعَّالَين لحدّ أنهم إذا ٱبتلوا بالجوع يلتجئون بالصلاة إلى الخالق فيرعوون بهذه الكارثة إلى طريق التُّقى. قال إنه لا شيء يُصلحهم إلاّ الجوع. فمتى حاقهم الشقاء من كل ناحية يعودون إلى خالق الخليقة كلّها. فما الذي يعمله إيليّا حينئذٍ؟ صرخ قائلاً: «حيٌّ الرب إنه لا يكون ندًى ولا مطر إلاَّ عند قولي.» وتمَّت كلمة النبيّ. فاذا بالهواء يتغيَّر وصارت السماء كالنحاس لا بمعنى أنّ الطبيعة تحوَّلت إلى فساد، بل بمعنى أنّ قوَّتها توقَّفت ولم تلبث عناصرها أن تحوَّلت فكانت كلمة النبيّ أشبه بحرارة الحمّى سقطت في باطن الأرض فنشرت فيها من ساعتها اليبوسة والقحل واليباب، وعلى الفور ذبلت الأعشاب والجنبات (الأشجار الصغيرة) والأشجار المثمرة وغير المثمرة وما كان منها في البراري وعلى شاطئ البحر. كلّها يبست في طرفة عين. وشوهدت الخلائق الحيَّة تصير إلى الهلاك. فالأطفال يبكون والأمَّهات ينتحبن معولات واليأس مخيّمٌ على كل مكان. لم يتفوَّه النبيّ إلاّ بكلمة، فكانت هذه الكوارث نتيجة كلمته. فالوحوش الضواري والحيوانات الداجنة والأولاد والرجال وجميع الحيوانات حتى الطيور صارت إلى الموت. ذلك ويلٌ شامل وكارثة امتدَّ بلآوها على البسيطة كلّها فلم يُفلت أحدٌ منها. صار الجميع إلى الموت بعلَّة فقدان الماء. وقد تصوَّح النبات جَفافاً مثلما جفَّت الينابيع والأنهار والبحيرات وبكلمة واحدة نقول إن الخراب عاد عامًّا شاملاً ولم يكن الماء سبب ذلك البلاء بل هو فقدان الماء طمَّ على الكون أجمع فأغرقه في طغيانه. فالسماء التي قد سُدَّت وأمسكت عن صنائع إحسانها غيَّرت وجه الطبيعة. فكلٌّ ما في الكون تهاوى إلى الفناء صريع الغضب الإلهي ولم يكترث إيليّا لشيءٍ من كلّ ذلك لأنّ سَورَة غيرته كانت قد أسكرته فامتدَّت ضرباته المتبادرة إلى كل ناحية. ماذا تعمل يا إيليَّا؟ لقد خطئ الشبّان وهذا صحيح ولكن علامَ يُعاقَب الأولاد؟ لقد خطئ البشر وهذا صحيح فعلامَ هلاك

الحيوانات الداجنة وغيرها؟ أَنُزِعَت من أحشائك الرحمة فلا تكترث للناس في شيء؟ إنك لا نساءَ لك ولا أولاد فلا تُعنى بشأن أحد من أولئك الهالكين. وحينئذٍ ما الذي يقوله لك الله؟ يأمره أن «امضِ من ههنا وتوجَّه شرقاً وتوارَ عند نهر كريت الذي تجاه الأردن فتشرب من النهر وقد أمرتُ الغربان أن تقوتك هناك.» (٣ ملوك ١٧ :٣ و ٤).

هنا أرتضي أن أدعو أحد اليهود وأُوجِّه إليه كلامي لأُبيِّن له أن الشريعة قلَبَت رأساً على عقب أوامر الشريعة فهي إذن غير ثابتة ولا متوافقة بعضها مع بعض لأنها لم تكن هي الحقيقة بل ظلاً للحقيقة. هنالك كان الظلّ وهنا قامت الحقيقة. هنالك كانت الصورة وهنا مثَلٌ لها. إنَّ إيليّا هذا هو الذي تجلُّونه والذي تنتظرون مجيئه وله عندكم علوّ التوقير وتصفونه بأنه نبيّ فكيف وهو في هذه المكانة يقوته غراب؟ إنّ الغراب هو بحكم الشريعة نجس. الشريعة عينها هي التي تضع الغراب في الأصناف النجسة. فإن كانت الشريعة تعدُّ الغراب نجساً فمِن ألزَم الضرورة أن يُعدَّ نجساً على السَّواء مَن يقوته الغراب. ولكن ولو أنَّ المسألة تقتضي هذا الحكم فلم يكن الأمر كذلك في مسألة إيليّا، لأنه لم يرَ النجاسة في شيء من خلائق الربّ. ولمَّا جفَّ النهر غِبَّ مدةٍ من الزمان أمر الله النبيَّ بالإنصراف عن مستقرِّ راحته في جوار ذلك النهر، استدراكاً لمهمة قويّة فقال له: «قُم وامضِ إلى صرفتَ (من أعمال صيدون) وأَقِم هناك فقد أمرتُ هناك امرأة أرملة أن تقوتَك.» (٣ ملوك ١٧ :٩) وكان من حكمةِ الله العظيمة أنه تصرَّف هذا التصرُّف فإيليَّا لم يكن يدري بالنكبات النازلة لأنه استقرَّ معتزلاً في وحدتِه بمكان واحد، فلم يشاهد الويلات العامَّة التي أحدثتها تلك الكارثة من مُحْلٍ ويبوسَة، أصاب كل موجود فجفَّف البحيرات والينابيع والأنهار والأنبتة والأشجار والثمار الناضجة وغير الناضجة والأشجار المثمرة والأشجار التي لا ثمر لها وما كان منها على مقربةٍ من الينابيع أو على مقربةٍ من الغدران ولم يرَ الطيور والحيوانات الداجنة وكلّ ما عداها من الحيوان والطير قد آلتْ إلى التلف والهلاك، ولا شاهد الأطفال تفيض أرواحهم ولا الأُمَّهات في حزنِهنَّ الأليم ولا رأى الأرض قاطبةً وهي فريسة تلك الكارثة.

فالله أخرجه من مستقرّ راحته الأول وأمره أن يجتاز مسافةً بعيدة جداً إلى قرب صيدون لكي يتأثَّر شفقةً ورحمةً من مشاهدته تلك الأهوال فيتضرَّع إلى الرب ليرسل المطر. فإن كان الله قد أوجب عليه أن يجتاز مسافة تلك الطريق الشاسعة فمن الأكيد أنه لم يُوجب عليه ذلك لعجزه عن أن يقوته وهو في مكانه الأول بل شاء أن يُريَه تلك البليَّة

المجتاحة فيضطرَّه بمشاهدتها إلى أن يطلب منه المطر. ولا شكَّ في أنَّ الله يستطيع إنزال المطر بغير هذه الواسطة ولكنه رغب في أن لا يحمِّل خادمَه ألماً من احتفاظه لنفسه بالإنعام غِبَّ أن سمح لذلك الخادم بإنزال تلك البلايا. لذلك كان يتوقَّع منه الصلاة في هذا الشأن. أمّا إيليّا فلم يتوَلَّه الحنان والشفقة بل سار في طريقه وكأنما قد تملَّكته سورةٌ من جنون لم يشعر معها بعاطفة رحمة ولا حسبَ لشيءٍ حساباً، لأنه كان كما سبقتُ فقلتُ كالسكران من غيرته. ولِمَ هذا الجنون يا إيليّا؟ ولِمَ هذه القسوة البارزة عن حدِّ الإنسانيّة؟ تمهَّلوا قليلاً فتُشدَهُوا من كثرة اقتراف الإثم. إنك بسبب ما اقترف سكّان البلاد من الجرائم قد دعوتَ على البلاد بالقحل والجفاف وأغلقتَ السماء وجعلتَ الأرض ماحِلة وأمسكتَ دوَران الطبيعة بالقيود والآن ترفض الصلاة استنزالاً للرحمة. قبل قليل من زمن استرضائِك لله، ستؤخذ أنت نفسك بالخطيئة، والرحمة التي تنالها من مولاك هي التي تعلِّمك أن تعامِل أمثالك من البشر معاملةً أوفر رحمةً.

٢ – إنّ إقحام هذه الأسئلة في خطابيَ اليوم قد نويتُ فيه أن أقول لكم إن الكهنوت إذا تقلَّده لا الملاك بل الإنسان مولودُ إنسانٍ فما ذلك إلاّ قصدَ أنَّ العصمة منْ الخطيئة لا تحمل صاحبها على أن يستأصل الخطأة. فلو أنَّ الكاهن ملاك في عصمةٍ من الخطيئة لأنزَلَ العقاب فوراً على الخطأة. ولكنَّ الكاهن هو إنسان، وبما أنه كذلك فهو يعامل الناس أمثاله بالرحمة والمغفرة، متذكِّراً بالشهوات المشتركة بينهم وبينه. وقد أضفتُ على أثر ذلك أنَّ من أعاظم الرجال رجالاً فُوِّضت إليهم رعايةُ شعبٍ وافر العدد وقد سمح الله أن يسقطوا في الخطيئة وأنَّه إذا كان الله قد غفر لهم فذلك لترشدهم خبرتُهم الخاصَّة فيكونوا أوفر محبةً للناس. لقد ذكرتُ لكم بطرس ذلك الرسول الشهير الذي سمح الله بأن يخطأ وبسبب توبته وهب له غفران خطيئته رحمةً منه وتفضُّلاً.

فلنَعُدْ الآن إلى إيليّا ولنعرض على أبصاركم كنوز فضيلته. أراد الله أن يصنع رحمةً ولكنَّ إيليّا رفض صَنيعَها. أراد الله أن يُنزل المطر ولكنه ابتغى من خادمه أن يُصلّي لهذه الغاية. فماذا حدث؟ وصل إيليّا غبَّ سفر طويل إلى صرفتَ (من أعمال صيدون) فرأى امرأةً أرملة تجمع حطباً. فالحظُوا هنا حكمة النبيّ وإيمانَه. إنَّ فضيلته تتجلّى من جديد بكل عظمتها فهو لم يقُلْ قطُّ لله إلى مَن أرسلتني؟ لقد اضطرتني إلى اقتحام عدّة أخطار لترسلني إلى أرملة فأعاني عندها آخر ما مُنيتُ به من حرمان لوازم العيش؟ ألم يكن أفضل أن ترسلني إلى أشخاصٍ أغنياء في وسعهم أن يعينوني على فقري؟ فها إنني قد طويتُ

طريقاً شاسعة البُعد لأصل إلى مجاورة أرملة، إلى صميم الويلات والشقاء، لا إلى أرملةٍ فحسب بل إلى أرملةٍ هي في أشدّ الفاقة والعَوز. لاحظوا أنه لم يصدر شيء من مثل هذا التذمُّر من فم خادمِ الله. لقد فوَّض أمرَه إلى مولاه الذي يجعل غير الممكن ممكناً. قال له مولاه: «قُمْ فآمضِ إلى صرفتَ (من أعمال صيدون). فمضى فشاهدَ ثَمَّ أرملةً تجمع حطباً». فَلِمَ تابعتَ مسيرك يا إيليّا؟ ولماذا وافيتَ إلى جوار هذه الأرملة؟ لقد وصلتَ إلى مباءَة الفقر فلا تسأل هناك عن الارتباكات والغموم. لقد رأيت مدخل كهف الفقر فلا تسأل عما في ضمنه. إلى أين تدخل يا إيليّا؟ إنك تشاهد امرأةً تجمع حطباً وتريد أنّ هذه المرأة تقوتك؟

ومع ذلك فبما أنَّ له ضماناً من كلمةِ الرب تقدَّم نحو الأرملة وألقى عليها بعضَ كلمات وما تراه قال لها؟ «قال هاتي لي قليل ماءٍ في إناءٍ لأشرب.» (٣ ملوك ١٧ : ١٠) أرأيتم فطنة إيليّا؟ إنه لم يطلب أولاً ما هو أغلى قيمةً بل طلب أهونَ ما تعوَّد الناس طلبَه. وهو يرجو أنه بعد حصوله على الماء يستطيعُ أن يجد الخبز أيضاً. قال: «هاتي لي قليل ماء.» ذهبت الأرملة وأتت بالماء فشرب. ومن حصوله على الماء تشجَّع فقال لها: «هاتي لي كسرة خبز في يدك.» فقالت له: «حيٌّ الربُّ إلهك انه ليس عندي مليلٌ إلاَّ ملءُ راحةٍ دقيقاً في الجَرَّة ويسيراً من الزيت في القارورة وها أنا أجمع عودَين من الحطب لأدخل واصنعه لي ولأولادي ونأكل ونموت.» (٣ ملوك ١٧ : ١٢) فأجابها إيليّا: «إصنعي من ذلك أولاً قرصاً صغيراً وآتيني به ثم آصنَعي لكِ ولأولادك أخيراً.» ما هذا يا إيليّا؟ إنك تطلب الخبز فلا بأس ولكن لِمَ تريده مخصوصاً لك وفي الأول؟ ألم يكن واجباً عليك أن تشكرها وتأكل معها ومع أولادها وأنت تبتغي أن تأكل وحدك وتتركها وأولادها يموتون جوعاً؟ — كلاَّ لا أريد لهم موتاً بل أقصد أن أغمرهم بالإحسان والنِّعَم فإني أدرى بجود مولاي. على أنّ الأرملة لم تضطرب من ذلك الطلب ولا جال في عقلها شيء من هذه الأفكار الزائفة. فلم تقُل له إنك أنت المسبّب لهذه المجاعة وتطلب مني أن أقوتك بالنَّزر اليسير من الزاد الذي أبقيته لنا! لم تقُل له: أقطعتَ إليَّ هذه المسافة الشاسعة قصدَ أن تُميتني أنا وأولادي وأنتَ المسبِّب لهذه الكارثة؟. وإذ كانت تلك المرأة ندًّا كريماً لإبراهيم دخلت إلى بيتها وعملَت كما قال النبيّ. بل كانت ضيافة الأرملة أكرم من ضيافة إبراهيم. فأبو الآباء هذا كان غنيًّا حين نزل الملائكة ضيوفاً عنده. وهذه كانت تتوقَّع الموت جوعاً حينما ضافت النبيّ، حتى لقد تخلَّت عن طبيعة حالها لتتم واجبات الضيافة. وأصمَّت أُذُنيها عن صراخ أبناء أحشائِها

تضوُّراً عملاً بأمر الله. وقد حصَرت أبناءها كلَّهم في شبه ضريح واحد إذ لم يكن معلَّقاً بإرادة تلك الأرملة الفقيرة أن لا يموت أولادها. على أنَّ الشكر واجب لفضل الله لأن أولئك البنين لم يمسَّهم أذًى بل لبثوا مملوئين صحةً وحياة. وحقاً إني لا أدري كيف أشيد بهذه الأرملة. فأيُّ تجرُّدٍ تجرُّدها عن العطف على أبنائها وأيُّ كلفٍ كلفُها بالضيافة! كيف لم تنسحق طبيعتها في ذلك الموقف وكيف لم تتمزَّق أحشاؤها وكبدها من نظرها إلى جميع أولادها يهلكون جوعاً. ولكنَّها تعالَتْ فوق كل هذه النظرات ولم تنكر على النبيّ أن تضيفه. فحينما استفاد إيليّا من الضيافة وأكل، جاد على الأرملة بحسن المكافأة. فإنها لم تكَدْ تنثر بذار الضيافة حتى استغلَّت منه السنابل الناضرة.

والقُصارى أنَّ إيليّا قال لها: «حيٌّ الرب إنَّ جرَّة الدقيق لا تفرغ وقارورة الزيت لا تنقص.» (٣ ملوك ١٧: ١٤) وهكذا أضحَت يده اليمنى معصرةَ زيت ويده اليسرى بيدرَ غلال، وبكلمة النبيّ أعطت حُزَمُ الأعواد أثمارها في وقت الحاجة الماسَّة وغذَّت تلك الأرملة الفقيرة. إذن صار بيتها بيدراً ومعصرةً. فلم تبقَ عندها حاجة إلى الندى ولا إلى المطر ولا إلى الربيع ولا إلى الخريف ولا إلى الصيف ولا إلى القيظ ولا إلى هبوب الرياح ولا إلى تغيُّرات الفصول. فكلمة واحدة برزَت من فم النبيّ وحكمٌ قضى به عن تمام إرادته، أفاض كلَّ ذلك الخير الكثير.

وبعد ذلك أقول حبًّا لاختصار هذا الخطاب، مضى إيليَّا يفتّش عن الملك آحاب. وأورد هنا كبَر أعماله حتى إذا رأيتم خطيئته تدركون عظمةَ الرحمة في نعمة الله. فماذا قال له آحاب؟ قال: أنت «مقلق إسرائيل». أجابه إيليّا: «لم أقلقْ إسرائيل أنا بل أنت وبيت أبيك». (٣ ملوك ١٨: ١٧ و١٨) أتلحظون هنا الجرأة التي ردّ بها النبيّ على الملك؟ وإذ كان ذات يومٍ جالساً على جبل أقبل عليه أحد القوَّاد ومعه خمسون جنديًّا وناداه عن بُعد قائلاً: «يا رجل الله، الملك يقول إنزل». فأجاب النبي: «إن كنتُ أنا رجل الله، فلتهبطْ نارٌ من السماء وتأكلْك أنت وخمسينك». ووافاه بعد هذا قائدٌ آخر وقال له: «يا رجلَ الله هكذا قال الملك إنزلْ عاجلاً فأجاب وقال: «إن كنتُ أنا رجل الله فلتهبطْ نارٌ من السماء وتأكلْك أنت وخمسينك» (٤ ملوك ١: ٩، و١٢) ومن بعدُ دعا كهنة البعل الأثمة، ليقابل بين نفوذ صلواتهم ونفوذ صلواته وقال لهم: «لنصلِّ». وأضاف إلى كلمته هذه أن قال: «أقيموا لكم مذبحاً على حدة واختاروا ثورَين وضعوا حطباً على المذبح دون أن تضعوا عليه ناراً وأنا أصنع كذلك ثم ادعوا باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم إلهي. فالإله الذي يستجيبنا بإرساله النار يكون هو الإله

الحقيقي» (٣ ملوك ١٨ :٢٣ و٢٤) فكهنة الخزي أولئك أقاموا مذبحاً ودعوا باسم البعل قائلين: «إستجبنا أيها البعل استجبنا». (٣ ملوك ١٨ :٢٦) وإذ طالت صلواتهم ولم يكن لهم من مجيب لأن البعل لا صوت له ولا يستطيع أن يسمعهم، فإيليّا وقف يتأمل صابراً في أولئك الأشقياء وإلحاحهم في الاستغاثة والطلب ورأى تحمُّسَهم في ذلك ولو أنهم لم يُستجابوا، قال لهم متهكِّماً: «اصرخوا بصوت أعلى لعلَّ إلهكم نائمٌ فيستيقظ» (٣ ملوك ١٨ :٢٧) ولمّا أقبل الظهر وحانت الساعة قال لهم: «تنحَّوا الآن لأُهيّئ محرقتي». (ف١٨ : ٣٠) ثم رمَّم المذبح ونضَّد عليه الحطب وقطّع الثور وجعله على الحطب. ثم قال لمن حوله: «صبُّوا ماءً على المذبح، ففعلوا ثم قال ثنُّوا فثنَّوا ثم قال ثلِّثوا فثلَّثوا». (ف ١٨ : ٣٤) وآفحصوا عن السبب الذي لأجله صنع إيليا كذلك تجدوا أنها كانت عند قدماء الوثنيين عادة تضليل وهي أن يقنّعوا أضاليلهم المعيبة بقناع الحقيقة. ذلك نمطٌ من التصرُّف تسير عليه العواهر، فإنهنَّ يخلعن هذا الاسم على النساء المطلّقات الحال حتى إنَّ هؤلاء لا يقذفن وجوه أولئك بالإهانة.

٣ — وعلامَ يلجأ إيليّا هنا إلى هذا التحذُّر. هذا ما أردت أن أقوله لكم وأنا شهدتُه بنفسي. في هياكل الأصنام طبقةٌ سفلى سرّية ذات خروق نافذة إلى الطبقة العليا. فأهل فنون الضلال ينزلون إلى الطبقة السفلى، ويستعينون بتلك الخروق لأن ينفخوا النار من الأسفل إلى الأعلى لتلتهم المحرقة. ذلك خادعٌ ماكر يقع عديد من الناس ألعوبةً له، إذ يتخيَّلون النار قد هبطت من السماء. فحذراً من الظنّ أنّ إيليّا لجأ إلى واسطة مثل تلك الواسطة، أمر بإجراء الماء دليلاً على أن ليس ثَمَّ من خروق. لأنه حيث يجد الماء منفذاً إنساب فيه عوض أن يمكث مكانه. فالنبيّ إذن غمر المذبح بالماء وصلَّى هكذا: «إستجبني اليوم أيها الربّ في شأن النار. فكما آستجبتني في شأن الماء إستجبني أيضاً في شأن النار» (٣ ملوك ١٨ :٣٧) فما أَتمَّ دعاءَه حتى هبطت النار على الفور من السماء وأكلت المحرقة والحجارة ولحَست الماء الذي على المذبح وحينئذٍ قال النبيّ لبني اسرائيل الواقفين هناك: اقبضوا على هؤلاء الأنجاس ولا يُفلِت منهم أحد. فقُبض عليهم وقُتِلوا وكان عددهم أربعمئة وخمسين كاهناً للبعل وأربعمئة كاهن سواهم من أمكنة عالية.

وعرفَت إيزابل إمرأة آحاب بما حدث فأنفذَت رسولاً إلى إيليا يقول: «كذا تفعل الآلهة وكذا تزيد إن لم أجعل نفسك في مثل الساعة من غدٍ كنفس واحدٍ منهم» (٣ ملوك ١٩ :٢) فهرب إيليّا عند سماعه هذه الكلمات. فانظروا إلامَ صار إيليّا هذا المعروف بجرأتِه وعظمتِه؟ غايتي

من هذه الكلمة أن أريكم أنه سقط في الخطيئة. أقول سقط في الخطيئة لا بمعنى أني أريد ملامة هذا البارّ بل أقصد أن أُقدّم لكم مثلاً خلاصيًّا. فإذا نظرتم في أمثاله من البشر الذين لم يتطرّق إليهم اليأس بسبب خطاياهم بل نالوا من رحمة الله رحمةً يحصل لكم الرجاء أنتم أيضاً أن تنالوا المغفرة والخلاص إذا سقطتُم في الخطيئة.

إذن في حين أنْ قالت إيزابل: «كذا تفعل الآلهة وكذا تزيد إن لم أجعل نفسك في مثل الساعة من غدٍ كنفس واحد من الكهنة الذين قتلتَهم» هرب إيليّا عن المكان مبتعداً مسافة أربعين يوماً مشياً. ما أشدَّ ما كان خوفه. كلمةٌ سمعها من امرأة فهرب بسببها إلى مسافة أربعين يوماً. فهو لم يمشِ يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام فقط، بل لم يكد يقرع أُذنيه تهديد تلك المرأة، حتى أخذ ذلك النبيَّ خوفٌ شديد. وإذ لم يدرِ ما يفعل ولّى هرباً إلى مكان بعيد جداً عن مِظنّةِ الخطر. ماذا يا إيليّا؟ أأنت الذي أغلق السماء وأمسك المطر وقيَّدَ الهواء بأمره وأهبطَ النار من السماء وذبح العدد الغفير من كهنة البعل وقال للملك آحاب: «إنك مُقلقٌ اسرائيل أنت وبيت أبيك؟» أأنت الذي قال: «حيٌّ الرب إنه لا ينزل على الأرض مطرٌ إلاّ عند قولي» والذي جعل من بيت الأرملة بيدراً حافلاً بأغمار السنابل وسخَّرَتْ أوامره العناصر الطاغية؟ أنت تفعل كلَّ ذلك ثم تسمع كلمةً من امرأةٍ فاجرة فترتجف فَرَقاً وتهرب وتكون أسيراً سجيناً من خوفك امرأةً عُطْلاً من الإدراك. هوذا حِصنان أمامكم قلبتهما امرأةٌ. فبطرس تخوَّف من خادمة. وإيليّا تخوَّف من إيزابل. وكلاهما ارتكبا خطيئةً واحدة. فإيليّا هرب إلى مسافة أربعين يوماً مشياً على قدميه. إذن يا إيليّا أين غيرتك التي أهابت بك لتقول: «حيٌّ الرب لا يكون مطرٌ إلاّ عند قولي». والتي دفعتك فقرَّعتَ الملِكَ آحاب جهاراً والتي اهبطتَّ بها النار من أعالي السماء؟ وغِبَّ أن عملتَ هذه الأعمال العظيمة لم تستطع أن تثبت لدى سماعك كلمةً من امرأة. أين ثباتك الذي منعك من أن تطلب إلى الله مولاك أن ينزل المطر على الأرض؟ فقد كان قال لك صريحاً: أطلُبْ إليَّ هذا الإنعام. إنني أستطيع أن أُعطيه دون وساطتك ولكني لا أريد ذلك رغبةً في أن تكون أنت وليّ هذا الإنعام كما كنتَ أنت سبب الكارثة. فيا إيليّا لقد تصرَّفتَ في أعمالك تصرُّف عتوٍّ وقساوة. فالله تأثّر من تلك البليَّة النازلة بالشعب، لأنه هو خالق الجميع وصانع كل شيء وهو يبذل عنايته للجميع على السَّواء. انه كان يريد أن يليِّن صلابة قلبك ولكنك لم تزحزح عنك شيئاً من خوالج شواعرك. كان يقول لك إني لأَدْري مدى انتشار الكارثة، وأسمع نحيبَ الأمهات وأرى غصص الأطفال وانظر

الأرض التي خلقتُها معرَّضةً للدَّمار وأودّ أن أبذل رحمتي للجميع ولكني لم أشأ أن أُعرِّضك للإهانة والشتيمة. فلم أرضَ أن أُرسِل المطر إلاّ عن طلبك ورضاك حتى إنك كما كنت علَّة الشرّ لا تكون بعيداً عن اصطناع الخير. ذلك تكريمي لك. وهكذا رحمة السيّد عطفَتْه إلى تكريم عبده. فلما كان إيليّا بمعزلٍ عن الخطيئة ظهر متجبّراً إلى أقصى حدود التجبُّر. أمّا الآن وقد رأيتموه يسقط هو أيضاً في الخطيئة فقد سمح الله بعثاره وهيّأه تلك التهيئة حتى تجعله الرحمة التي أُنعِمَ عليه بها ألطف جانباً في معاملته للقريب. قال الكتاب المقدّس: «فهرب إيليّا ماشياً مسافة أربعين يوماً». (٣ ملوك ١٩: ٣ و٨) فأين تُرى كلمات هذا النبيّ التي رشقَ بها قائد الخمسين جنديًّا فأهبطَتْ عليهم ناراً من السماء فالتهَمتهم؟ فالله شاء أن يُظهِر أنّ العجائب التي اجترحها إيليّا ليست هي صنعُ هذا النبيّ بل هي صُنعُ القدرة الإلهيّة. وانظروا بالاختصار أنه حينما يتصرَّفُ الله في شؤون العالم فالملوك والعظماء وشعوب الأرض يسقطون لديه. فإذا تخلّى الله عن ذلك التصرُّف فامرأةٌ تنزل في سواه أشدَّ الخوف. فالله قد ابتعد في مسألة إيليّا فظهرت طبيعته البشريّة بكلٍّ ما فيها من وَهَن وضعف.

وغِبَّ أن طوى إيليّا مسافة أربعين يوماً هرباً وصل إلى مكانٍ نام فيه. فوافاه الله إليه والسيّد أقبل على عبدِهِ إذ كان الله مملوءًا من الرحمة والعطف. فماذا تُراه قال له؟ إنه كان يعلم جيداً السبب الذي قاده إلى ذلك المكان. ومع ذلك سأله: «ما بالُك ههنا يا إيليّا»؟ هو سؤال تلميح إلى هربه فكأنّه يقول له: إنك قد هربتَ فأين الثقة التي كنتَ مدفوعاً بها؟ تلك حالةٌ تعلّمك أن لا تثق بنفسك. ما بالُكَ ههنا يا إيليّا؟ وما تعمل في هذا المكان؟ أجابه إيليّا ولكنما أفكاره الآن غير أفكاره الأُوَل وكلامه في تلك الساعة غير كلامه السابق، قال: «أيها الرب إنهم قد نبذوا عهدك وقوّضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف وبقيتُ أنا وحدي وقد طلبوا نفسي ليأخذوها». (٣ ملوك ١٩: ١٤) فقال له الله كلاً ليس هذا كان سبب هربك. ولست وحدك يا إيليّا لم تسجد لدى البعل. بل قد أبقيتُ في اسرائيل سبعة آلاف كلَّ ركبةٍ لم تجثُ للبعل. (٣ ملوك ١٩: ١٨) فقد لامَه الله على هربه وليس على هرَبه فقط بل على أنَّ كلمةَ امرأةٍ أنزلت به مثل ذلك الخوف. هكذا امرأةٌ ساذجة جعلت هذا الرجل السامي المزايا والعظيم جداً يهرب هرباً مخجلاً. ولم يكن ذلك يا إيليّا إلاّ ليعلّمك أنّ أعمالك العجيبة يجب أن لا تنسبها إلى نفسك بل إلى قدرة الله. أرأيتَ إلى أيّ حدٍّ يصل وهن الطبيعة حين تتخلّى النعمة عنها؟ إيليّا يهرب مشياً على قدميه إلى مكان يبعد

أربعين يوماً. وأيُّ وَهَنٍ عظيم دبَّ في نفسه وأيُّ جبانةٍ بلغَت فيه آخر حدّ. ولم تكن المسافة التي اجتازها مقدار يومٍ أو يومين أو ثلاثة مشياً على القدمَين بل تغلغل في فلواتٍ قاحلة غير حاملٍ معه شيئاً من القوت والزاد وكأنما هو في دُوارٍ من الوهَل فلم يفكّر بشيءٍ إلاّ بالبحث عن المجاهل الغير الآهلة. فكانت كلمةُ تلك المرأة التي بلغَت أُذُني النبيّ أشبه بعاصفة صدمَت الأشرعة وقذفت المركب بعنفٍ لا يُقاوَم. هكذا كلمةُ تلك المرأة لم تبلغ إلى النبيّ حتى دفعته بشدَّةٍ بالغة إلى القفر البعيد. فماذا صنعتَ يا إيليّا بجرأتك السابقة وبذلك الفم الرهيب وذلك اللسان الذي كان يتصرَّف في مجاري الأمطار على حسب ما يشاء؟ إلى أيّ حالةٍ صار مَن كان يأمر العناصر سيّداً مطاعاً. فمرَّةً يُغلق السماء فلا تمطِر ومرةً يُهبط النار من السماء على مذبح المحرقة؟ ولكني أُعيدُ ما قلته إنه لم يصنع تلك الخوارق العجيبة إلاّ بقوَّة النعمة. ولذلك بسط الله له هذه الأمثولة. وهكذا جرى بسماحٍ إلهيّ أنَّ إيليّا هفا هفوةً صغيرة لكي يرتدي من بعدها ثوب المحبة. فها إنك منذ الآن قد تعلَّمتَ يا إيليّا. فكن في مستقبل الأيام رحيماً كمولاك. وليكن ذلك القصاص وتلك الأمثولة من قِبَلِه غير ضائعين عندك.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصية)

٢
عِظَة
في القديسين المكّابيِّين وأُمِّهم

١ — ما أجمل مدينتَنا وأحلى ابتسامتَها في عينيَّ يا إخوتي؟ وما ألطف هذا النهار الطالع يفوق ازدهارُه كل أيام السنة لا بمعنى أنَّ الشمس هي أنور مما هي عادة، بل بمعنى، أنَّ **مجد القديسين الشهداء** يُلقي على جدراننا نوراً متألِّقاً تتضاءل تلقاءه نيران الأشعَّة، والبهاء الذي ينبلج منه يمحو كلَّ ما للكواكب جمعاء من بهاء، وإليهم يُعزى اليوم ما للأرض من رونق يتبسَّط عليها حتى يمحو سناه بدائع السماء. فلا تحدِّثوني بعد

عن الغبار ولا يخطر لكم ببال الرماد المنطفئ ولا العظام التي أبلاها الزمان ، بل افتحوا عيون الإيمان وانظروا قوة الله المستريحة فيهم ونعمة الروح القدس التي تكتنفهم ومجد الضياء السماوي الذي يغمرهم بأشعّته. كلا ! إنَّ الشمس ليس فيها شيء يستطيع أن يساوي الضياء المتفجّر عن أجساد الشهداء ويُعمي أنظار إبليس. كم من زعماء قرصان ولصوص مشهورين بانتهاب القبور وجدوا أسلحة الملك ودرعه ومِجَنّه وخوذته ، وكلّها تشعّ ببهاء الذهب ثم يفاجئهم ، الخطر المهدّد فإذا هم ينتفضون إقشعراراً بحيث لا يجرؤون أن يدنوا من القبور ولا أن يلمسوها. هكذا الأبالسة الذين هم زعماء حقيقيون للقرصان يرتجفون ويهربون من مشهد أجساد الشهداء. فإنّ الأبالسة لا يعتبرون الطبيعة المائتة في تلك الأجساد بل يعتبرون ما هو حالٌّ فيها من المقام السرّي مقام المسيح. فإنه لا الملائكة ولا رؤساء الملائكة ولا كائن مخلوق تقلّد أحدهم هذه الأسلحة الرهيبة ، إنما هو ربّ الملائكة لا غير قد تقلّدها. وعلى مثال ما قال القديس بولس : «لعلّكم تبتغون أن تختبروا هل ينطق فيَّ المسيح الذي ليس بضعيفٍ عندكم بل هو قويٌّ فيكم» (٢ كور ١٣ : ٣) هكذا الشهداء يستطيعون أن يهتفوا ويقولوا للأبالسة «هل تبتغون أن تختبروا قوة يسوع المسيح الذي كافح بنا؟ إنّ أجسادنا هي ثمينة لأنها كانت مغطّاة بالقروح ولأنها تحمل أيضاً سمات هذه القروح لأجل حبّها للمسيح ربّها» إنّ التيجان المكلِّلَة رؤوس الملوك وهي مرصَّعة بالحجارة الكريمة تتلألأ بأنوارها المختلفة الألوان. هكذا أجساد القديسين الشهداء المثخنة بالجراح التي تقبّلوها حبًّا للربّ ، أمثال حجارة الماس هي ألف مرَّة أثمن وأجلّ من التيجان المتألقة على جبهات الملوك. إنَّ الولاة الذين من خصائص رتبتهم أن يُفسِحوا المجال للألعاب العمومية يظنُّون أنهم يصنعون الآيات الفائقة حين يمكنهم أن يدعوا لميدان النضال شبّاناً أشدّاء من أبطال المصارعة لحدٍّ أن الأشهاد يتعجَّبون حتى قبل افتتاح المعارك الرياضيَّة ، من قوة المتصارعين والتناسُب المحكم في أعضائِهم. أمّا هنا فالأمور تجري على خلاف ذلك مطلقاً لأنّ ما يدعونا إليه يسوع المسيح ليس هو قتالاً ضمن مُدرَّج ألعاب بل هو حربٌ هائلة حامية الوطيس ، لا بقتال رجُلٍ لرجل ، بل بقتال بَشَر للأبالسة. ولا تشهدون نُزّالاً إلى الميدان شبّاناً أبطالاً أشدّاء العَضَل فقط بل تشهدون أيضاً أولاداً معهم رجلٌ بالغ الشيخوخة هو ألعازر ومعهم كذلك امرأة قد طعنَت في السنّ هي أُمّ أولئك الأولاد.

٢ – ماذا ! أيُقتضى كذلك أن يُبعث إلى الحرب مَن هو في سنٍّ قلَّما تصلح لحماية جيش الهجوم! وهل رأى أحدٌ قطّ امرأةً تحارب وهي محنيَّةٌ تحت أثقال السنين؟ كلاَّ ،

فبدون شكّ لم يُرَ مثل هذا المشهد. ولكن هذه المعركة المستجدَّة في عهدٍ قريب جداً وهي جدٌّ غريبة وجدٌّ بعيدة عن التصديق، قال الرب سأجعلها مصدَّقة بالأعمال وواقِعتُها تحقِّق كلامي. والقصارى أني لا أريد أن أقصر الظفَر فيها على شجاعة المحاربين، بل أنا معهم فأسندهم بقوّتي. وانّ ما يُبدون من حماسة، إنما هو متأتٍ عن المستند الذي أبيحه لهم. لذلك يا إخوتي إذا عاينّا امرأةً عجوزاً تسير إلى المعترك بخطًى مضطربة ضعفاً متوكِّئةً على عكّازها، فتنتصر على سخط الظالِم وتظهر ذات فضيلة تفوق الطبيعة، تغلب بها الشيطان وتلاشي قدرته، فليأخُذنا العجب من قدرة يسوع المسيح. ليس الجسد هو الذي يُنشئ هنا قوة الشهداء بل إنما هو عظمة الإيمان. إنَّ طبيعتَهم هي ضعيفة وإنما قلوبهم تشدّدها التقوى التي تحرّكهم للجهاد. فالقتال هنا يتناول داخل الشهداء. فلا تنظروا إلى هؤلاء الأبطال بأعين الجسد بل بأعين الروح. تأمَّلوا في حماسة إيمانهم لتتعلموا أنّ مَن يكافح الشياطين لا يحتاج إلى أعضاء موثّقة ولا أن يكون في ازدهار العمر، فما يهمّ أكان هو شابًّا أو شيخاً. فاذا كانت له نفسٌ كريمة وجريئة فمهما كانت سنُّه فلا تعرِّضه أبداً للخسران.

٣ – ما لي أذكر فتيان الرجال وشيوخَهم حالةَ أنَّ نساءً ساذجات لم تخلُ منهنَّ ساحة الكفاحِ وقد غنموا فيها أجمل غار الانتصار؟ إنّ المواقع الحربيّة المألوفة والتي تتطلّب شبيبةً ذات أعضاء موثَّقة التركيب وقد ذاعت لها بعض الشهرة، لا تشهدون فيها عبيداً ولا نساءً ولا شيوخاً ولا أولاداً. أما هنا فميدان الكفاح مفتوح أمام كلّ سنٍّ وحالةٍ وجنس. ذلك لكي تعلموا جيداً ما للّذي يسود ذلك الميدان من عزَّةٍ وقوَّةٍ يُعجز عن وصفها. ولكي تعلموا أيضاً إثبات الأعمال لما يقول الرسول: «لأني متى ضعفتُ فحينئذٍ أنا قويّ» (٢ كور ١٢: ١٠) فمتى شهدنا أولاداً صغاراً أو شيوخاً يُظهرون قوةً فائقة الطبيعة يجب أن نعتقد بدون أقلّ شكّ أنّ نعمة الله هي التي تعمل فيهم. ولرغبتنا في أن تقتنعوا إقتناعاً أفضل، بأن ذلك الضعف الجسديّ في أبطالنا هؤلاء يزيد مجد انتصارهم، هلمُّوا دون أن يشغل بالكم شيخٌ ولا أحداثُ وِلدان، وانظروا في الميدان امرأةً هي أشدُّ ضعفاً من هؤلاء يعدُّ عمرها وَفْراً من السنين هي أُمُّ السبعةِ الأولاد التي استنزفت قواها أحزانُ أمومتها. فمن أيّ شيءٍ من أحوالها يجب أن نتعجّب أولاً؟ أمِن ضعف جنسها أو من عمرها البالغ الكِبَر أو من شعور الأمومة فيها وهو الشعور الذي لا يدع للقلب مساغاً للمدافعة؟ فلقد كانت أُمًّا وذلك لقبٌ يجعلها ترتعد فرَقاً من آلام مَن هم مواضيع

حنوّها، لو لم تكن التقوى وحبُّ الله قد سلَّحَتْ قلبَها الذي كان تقدُّمها في السنّ، قد جعله جَمَداً صقيعاً لا شيء فيه من شجاعة الرجال. تلك والحق يُقال هي حواجز كبيرة لا بُدَّ من التغلّب عليها. ومع ذلك نشاهد أيضاً بعض ما هو أشدّ رهبةً منها وهو يرينا في الوقت عينه علُوَّ ما عند هاتيك المرأة القديسة من شرف وعزّة نفس وما عند الشيطان من خباثة المكر والاحتيال. وما يكون ذلك يا تُرى؟ انظروا خباثة عدوّ خلاصِنا. فإنه لا يجعلها تدخل أولاً في ميدان الجهاد. بل دخلَت فيه على أثر أولادها وَلِمَ ذلك؟ لأنه إذ يجعلها شاهدةً لعذابهم يرجو أن يقهر شجاعتها ويُرخي عزيمة الثبات في نفسها، حتى إذا استنزف ما عندها من قوة بالمشهد الأليم المعروض على نظرها يؤمّل أن تقع بسهولة تحت ضرباته. إصرفوا أنظاركم عاليةً عن أولئك الأحداث وتفكّروا بالأحرى في أنها تتألم بأقسى مما يتألم به كلُّ واحدٍ منهم. لأنَّ كلّ جلدةٍ تقع عليهم تمزّق قلبَها. ادعو إلى هذا المشهد كلّ أولئك اللواتي إشترين سعادة أمومتهنَّ بشدائد آلامهنَّ. فمِن مشهد لابنها الذي تلتهمه الحمَّى تودُّ الأم أن تقيم مكانه وتلهب في حشاها عينِه النار التي تتلف ذلك المسكين، بما أنَّ الأمّهات يتعذّبن من الألم النازل بأبنائهنَّ أكثر ممّا يتعذّبن من آلامهنَّ الخاصَّة.

٤ — فإن كانت هذه أجدى الحقائق التي لا يمكن أن يُشكَّ فيها، فعذاب أُمِّ المكّابيّين إذن كان أشدّ مئة مرَّة من عذاب أولادها. فاستشهاد تلك الواحدة كان يتجدَّد في استشهادِ كلٍّ من أولئك الأبناء. ذلك لأنَّ أُمًّا إذا أُخبرَتْ بأنَّ ابنَها مريض، فقلبُها الوالدي يضطرب ويقلق ممّا يصيبه. فلا تتألّم وتتعذّب أكثر تلك التي حلَّ بها أكثر جداً من الخبر عن مرض ابنها، إذ كانت تشاهد أعذبةَ لا واحدٍ فقط بل أعذبةَ كلِّ أولادها. كيف لا تسقط من شدَّة الألم عند مرآها أولئك المساكين تفيض أرواحهم على مهَل؟ كيف أمكن نفسَها أن لا تفارق جسدَها جزعاً؟ كيف لم تلقِ بشخصِها مع ابنها الأول على نَضَدِ الحطب المتلهّب، فتتخلّص من ذلك المشهد المروّع. فمع كونها ذات فضائل، كانت أُمًّا ومعَ كونها مليئة من التقوى لم تكن إلاّ ساذجة من الناس المائتين. ومهما كانت جريئةً فقد كانت امرأةً. ولو أنَّ احرَّ عواطف الحنوّ كانت تحرّكها، لقد كانت روابط الأمومة نفسها تضبط تلك العواطف فيها. فإذا كنّا نحن الرجال عند رؤيتنا المجرم يُقاد إلى الساحة العمومية وهو يُجَرُّ جرًّا والحبْلُ في عنقه إلى أن يُبلَغ به اللجّة التي تبتلعه، نتأثر جزعاً وألماً، ولو أننا لا تصلنا بذلك الإنسان صلةُ صداقة على الإطلاق، ولو أنَّ من

مشهدِه، فكراً يعزِّينا بعض العزاء من كونه يستحق الموت لكثرة جرائمه، فكم يكون حزنُ أُمٍّ ترى مجزرةَ كل أبنائها في يومٍ واحد وتشهدهم يلفظون أنفاسهم في أعذبةِ نَزْعٍ بطيءٍ؟ فهَبْ قلبها من حجر وأحشاءها من ألماس هل تستطيع أن تثبت إزاء ذلك المشهد غير حسَّاسة؟ وهل تستطيع وهي امرأةٌ وأُمٌّ معاً أن تتملَّص من أعذبةٍ يعرضها عليها هذا اللقب المزدوج؟

٥ – كم نتعجَّب من أب الآباء ابراهيم لأنه في حين ذهابه ليقدّم ابنه محرقةً لله كتَّف بيديه إسحق الضحيَّة ومدَّه على المذبح. حسَن! فقابلوا بين هذا الفعل السامي وما فعلَت أم المكَّابيّين فتتحقَّقوا شجاعتها. إنَّ مشهدها لمشهدٌ يمزّق الأحشاء ألماً وفي الوقت عينه يملأ جمالُ رونقِه الأنظار والقلوب، يمزّق الأحشاء بوقائع الكفاح التي تتحمّل أثقالها، ومليءٌ من الرونق والجمال بالبطولة التي تُظهرها. إنها لا ترى الدَّمَ المنسكب كالسُّيول. إنها لا ترى غير الظفر. إنها لا ترى خواصر أبنائها المثخنة الجراح، بل لا ترى إلاّ المظالَّ الأبدية مفتوحةً لتقبُّلِهم. ماذا يهمّها موكب الجلاّدين وهي تشهد موكبَ الملائكة مطيفاً بأبنائها. إنها في موقفها ذلك لا تتذكّر سريرَ أوجاعها الذي أرَتْهم الحياة عليه ولا تتذكر ضعف جنسها النسائي ولا كِبَر سنِّها. إنها تُصمُّ أُذنيها دون صوت الطبيعة الحادّ الذي فيه من جاذبيَّة الرنَّة ما يكسر حتى ضراوة الوحوش الآبدة. ونقول في حصر الكلام، إن الوحوش التي يُستَصعَب قنْصُها أشدَّ الإستصعاب لا تقوى على الثبات في سبيل حبِّها لصغارها، فلا تعتِّم أن تُغلَب دون الدفاع عنها، فيستولي على قلوبها حزن أليمَ من خسرانها لها. حتى لتُقدِم بلا حذر متعرِّضةً لضربات القنَّاصين. فالوحش مهمَا كان ضعيفاً يدافع عن صغاره. فاذا أُريد اختطافها منه فمهما كانت طبيعته لطيفة انقلب فجأةً إلى أهول الغضَب. بيد أنَّ أُمَّ المكّابيّين الباسلة لم تستسلم إلى تلك الانفعالات المألوفة على السّواء عند البشر والبهائم. فإذ كانت أجلَّ من أن تهجم على الظالِم وأجلَّ من أن تمزّق وجهَه الكريه عند رؤيتها أولادها وقد قُطِّعت أعضاؤهم أشلاءً، وقفَت في علوّ نفسٍ تقيَّة حقاً وأعدَّت في ذلك الموقف غذاءً روحيًّا لتسكين ما يهيّجها من فَوران الغضب. فحينما كان الجلاّدون مندفعين بأشدِّ السخط على أجساد الأوَّلين من أبنائها أخذت تشجّع على احتقار الأعذبة كل مَن لا يزال حيًّا من أولئك الأبناء.

٦ – فلتقتدِ الأمهات اللَّواتي يَسمعْنَني الآنَ بتلك المرأة الشجاعة عسى أن يدللن دلالَتها على حبّ بنيهنَّ وعسى أن يُربِّينَهُنَّ كما ربَّت المكّابيّة بنيها. فليست المرأة أُمًّا لأنها

تعطي ولدها الوجود وحسْب، فالولادة ناموس طبيعي يكمّلنه، إنما هي التربية تعطي المرأة تلك الميزة العظمى، لأن التربية هي عمل الارادة لا عمل ناموس اضطراري. ونقدِّم لإقناعكم بأن التربية هي الميزة الحقيقية التي تُعرَف الأم بها. إسمعوا ما يقول القديس بولس. فإنه يضع في رتبة الأرامل الحقيقيات، لا المرأة التي ولدت بنين، بل المرأة التي أحسنت تربية بنيها. فبعد أن قال: «لا تُكتب أرملةٌ إلاّ تكون ابنة ستين سنة، امرأةَ رجلٍ واحد، مشهوداً لها بالأعمال الصالحة». يُعقِّب على كلامه بأن يقول ما هو أفضل من كلّ ما بقي. وما هو؟ قال: «بأن تكون قد أحسنتَ تربية أبنائها» (١ تيموثاوس ٥: ٩ و١٠) ولم يَقُلْ «بأن قد ولَدت بنين» لنتأمَّلْ بحقّكم في موقف تلك المرأة، إذا صحَّ لنا أن ندعوها بعد بهذا الاسم. فإنها عند رؤيتها لأيدي أبنائها ترتجف فوق الجمر المتلهّب، ولرؤوسهم مهشَّمة، والأظافير الحديديّة تمزّق أجسادهم، وحين شاهدَت أحدَهم يُسلَخ جلد رأسه، فإذ هي ضحيّة ذلك الجور الفاحش وقفت والكلام على شفتيها. ولعمري كيف استطاعت أن تفتح فمها وكيف حرَّكَت لسانها للكلام وكيف لم تَطِرْ روحُها من بدنها عند ذلك المشهد الرهيب؟ كيف ذلك كلُّه؟ أظهرُهُ لكم! إنَّ نظرها لم يكن موجَّهاً إلى الأرض ولم تكن تتصوَّر إلاّ الخيرات المستقبليّة. ولم تكن خائفة إلاَّ شيئاً واحداً هو أنَّ الظالم لا يهتاج غضباً ولا يضع حدًّا لذلك الجهاد حتى ليُمكن أن لا يمزّق أولادها معاً وحتى إنّ بعضهم يهدُّ العذابُ عزائمَهم فتفوتهم أكاليل الجوائز السماوية. وبما أنَّ خوفها هو من هذه الناحية، فقد شوهِدَت لذلك وهي تكاد تمسك ابنها الأخير وتُلقي به في مِرجَل العذاب. وقد نابَت عن يديها في دفعِهِ للموت نصائحُها وتحريضاتُها المشدَّدة له أخبارَ المساويء النازلة ببعض الناس نسمعها فتملأنا غماً وحزناً. أمّا تلك الأمّ فقد كانت تشاهد فواجعَها الخصوصية بلا غمّ ولا حزن.

لا نسمعنَّ هذه الأقوال غيرَ مبالين بها، بل فليهذّبْ أولاده كلٌّ من السامعين آخذاً بهذه المأساة، قاعدةً لتثقيفهم. فليستحْضِر أمام عينيه ملامحهم العزيزة وليَصِفْ بنفسه لنفسه تلك الخلائق المحبوبة وليتصوَّرهم متقلّبين في هذه الآلام وحينئذٍ لا يقوى على تفهُّم ذلك المشهد. إذ هو معلوم أنه لا يقدر على التعبير عن آلام الطبيعة إلاّ الاختبار. فهو وحده يستطيع إبلاغها إلى الأفهام.

٧ – لذلك طُبِّقَتْ على تلك المرأة بجدارة واستحقاق، على أثر انتصار أولادها السبعة، كلمة النبيّ: «إنّكِ كالزَّيتونة الغَضَّة في بيت الله». (مزمور ٥١: ١٠) في الألعاب

الأولمبية ينزل إلى ميدان المصارعة لا أقلّ من ألف بطل، ولكنَّ إكليل الغلبَة لا يظفر به غير واحد. أمّا هنا فسبعة أبطال قد نالوا سبعة أكاليل. فأين تستطيعون أن تُروني حقلاً في هذا الخصْب؟ وحَشاً مثمراً هذا الإثمار؟ وأمومةً تشبه هذه الأمومة؟ وأولاداً كهؤلاء الأولاد؟

إنَّ أُمَّ ابني زبدى كان ولداها من الرسل، ولكنها لم يكن لها سواهما. فأنا لم أعهدْ أُمًّا ولدَتْ سبعة شهداء معاً وقاسمتهم هي ما كابدوه من الأعذبة. ولم تكن فقط شريكةً لهم في أوجاعهم بل توجَّعت بآلام كل واحد منهم. إنّ أبناءها لا يقدّمون لنا منهم إلاّ سبعة شهداء، أمّا جسد الأم فلم يكن إلاّ واحداً في جسد كل من أبنائها. إذن لقد قطّع الجلاّدون جسدها سبع مرات، فهي إذن قدَّمت لنا كنيسةً من الشهداء. لذلك نقول إنها ولدَتْ لا للأرض بل للسماء أي لملك السماء وللحياة الأبدية. فالشيطان إذن قادها إلى الميدان في آخر الكلّ، على أمل أن شجاعتها تبرد حرارتها عند رؤيتها استشهاد بنيها، فتتيح للعدوّ انتصاراً سهلاً. لأنه إذا كان سفْح الدم يؤثر تأثيراً بالغاً على الناس الساقطين عياءً وضعفاً حتى ليبادَر بسرعة لإعانتهم إنعاشاً لنفوسهم التي تكاد تفارق أجسادها التي هي على وشْك أن نتطفّئ منها الحياة. فكم عانَت هذا المرأة الغريقة في سيلٍ من الدم لا يتفجَّر من جراح أُناسٍ غرباء بل من خواصر أبنائها الأخصَّاء. كم كان هيجان نفسها شديداً! لهذا السبب قادها الشيطان أخيراً إلى أمام الجلاّدين. فقد أراد أن يشلّ ثبات عزيمتها ولكنه سُقِطَ في يده وخابَتْ آماله فأقدمَت إلى الميدان بأكمل ثقة وطمأنينة.

٨ — فأيُّ شيءٍ كان يُغريها بتلك الجرأة الحميدة؟ ذلك أنَّ نفسها كانت مطمئنَّةً وأنها لم تكن خائفة إلاّ من أنَّ أحد أولادها يَدَعونه حيًّا فيخسر باسترخاء عزمهِ إكليل المجد. ولكنها سبقت فجعلتهم كلهم في حمًى أمين ومكَّنتهم من أن يدخلوا السماء حيث أُعِدَّتْ لهم أنفَسُ الخيرات وهي الخيرات التي أحرزوها والتي لا يعتورها فناء ولا فساد. إذن هي بدون خوفٍ قطعاً بل بعاطفة الفرح مثلَت أمام سيوف السفَّاحين وكان جسدها أشبه بالماس الساطع على تاج الملك مضافاً إلى أجساد بنيها. فتعالت عن جذمة النار نحو عرش الرب الذي هو الموضوع الأعزّ لآمالها، تاركةً للأرض ببقايا رِمَّتها ينبوعاً لا ينضب من ماء التعزية. تلك أمثولة تُستخرَج من آلامها عينها. فنتعلَّم منها أن ندوس شدائد الحياة بشجاعة لنرتفع إلى بحبوحة المجد الحقيقي. فأيُّ رجلٍ وأيُّ امرأةٍ وأيُّ شيخٍ وأيُّ فتًى أيضاً يستطيع أن يعتمد على المغفرة أو يعتقد أنه يُغفر له إذا كان يَظهر أبداً خائفاً من

مكابدة الآلام لأجل يسوع المسيح ، حالةَ أنَّ امرأةً في سنِّها وهي أُمٌّ لعديد من الأبناء الكرام ، تُقبِل بثبات عزْمٍ وجرأة شديدة على أشدِّ الأعذبة تنكيلاً حبًّا لله . وقد اقتحمَتْ تلك الشدائد المروِّعة جداً وذلك قبل شريعة النعمة ، وإذ لم تكن أبواب الموت قد أغلقَت والخطيئة لم تكن قد غُلِبَت وإذ كان الموت لا يزال منتصراً ، وقد أظهرَت تلك الشجاعة وذلك الإقدام على الأهوال حبًّا لله؟

فإذ ينفذ إلى قلوبنا ونفوسنا نور هذه الحقائق أيًّا كان رجالاً أم نساءً فتياناً أم شيوخاً فلنحفظْ على ألواح قلوبنا صورةً لهذه الحرب العظيمة والمقدسة معاً ولتكنْ لنا منبّهةً وناصحةً أبداً وبغير انقطاع إلى احتقار شدائد الحياة وبلايا أعذبتها . ولتُثِرْ في نفوسنا الشجاعة التي أحرقت شدائدها وبلاياها . وحين نصير مقتدين شجعاناً بهؤلاء الشهداء الأتقياء ، نستطيع أن نرجو الأكاليل التي زيّنت جباهم حين نحصل على الثبات للتغلّب على الشهوات العمياء ونطفئ فينا حدَّة الغضب والأهواء الرَّذِلة والبخل والحبّ الفاجر والمجد الباطل وسائر الرذائل . فاذا عرفنا أن نطفئ لهَبَ الشهوات الضارَّة كما أطفأ الشهداء لهَبَ النيران التي أُلْقوا عليها ، نستطيع دوماً أن نأخذ مكاناً قربَهم ونقاسمهم الثقة التي عضدتهم عسى أننا نحصل على هذه الأماني بنعمة وصلاح ربنا يسوع المسيح الذي به ومعه ليكن المجد للآب وللروح القدس الآن ودائماً وعلى مدى الدهور آمين .

٣

عِظَة

في القديسين الشهداء المكّابيّين

١ – لا شكَّ في أنَّ لساناً واحداً لا يمكن أن يكفي لمدْح كلّ القديسين الشهداء . وعلى افتراض اننا نحرِز ما لا يُحصى من الأفواه والألسنة فلا نرانا على كفاية لهذه المهمّة . فإني حين أتأمل في الأعمال العليا التي اضطلع بها شهداؤنا السبعة ، ينالني ما ينال رجلاً حريص الطمع قد جلس على مقربة من ينبوع يتدفّق ذهباً من سبعة مصادر فيبذل أقصى جهده ويستأثر بكل ما يتدفّع أمام عينيه من ذلك الينبوع راغباً أن يعيا تعباً لا يُتصوَّر في إحراز ما يمكنه إحرازه ، ويُضطره أن يعود عن ذلك الينبوع وقد ترك ذهبَه الباقي يتدفّق على حاله . إذن يحسن بكم أن تستقوا من ينبوع مدائح الشهداء وتَدعُوا منها قسماً كبيراً لا

يُستطاع إحرازُه. ماذا إذن؟ ألأننا نعجز عن إيفاء حقّهم من المديح كاملاً نلتزم الصمت دون ذلك الواجب؟ نقول بتأكيدٍ جازم: كلاَّ! إننا نقدّم هذه الهدايا (المدائح) إلى شهداء وهم يقتدون بمعلّمهم في عرفان قيمتها. ماذا يا تُرى فعل معلّمهم؟ كان اذا قدَّم له أحدٌ بعض تقادم لا ينظر بتاتاً إلى الكميّة التي تُهدى إليه بل إلى كَرَم المُهدي. هكذا سلك بخصوص الأرملة تلك المرأة التي لم تقدِّم إلاَّ فلسَين، ولكنها رُفِعَتْ قدراً إلى أعلى من قدر الذين دفعوا مبلغاً أكبر ممّا دفعت بكثير.

لأنَّ الله لا ينظر إلى قلَّة المبلغ المقدَّم بل إلى سخاء العواطف. فإنَّ ما قدَّمته تلك الأرملة ولم يكن إلاَّ فلسَين، لم تعادله ألوف الوزنات من الذهب في قيمة العواطف. (لوقا ٢١: ٢ و٤) إذن يجب أن لا نخشى من الإقدام على هذا المديح. وما قمنا به أمس لِنقُمْ به اليوم إذا شئتم. فأمس حصرنا موقفنا تجاه الأم وحدها وخصَّصنا بها الخطاب برمَّته لا لنعزلها عن مصفٍّ أبنائها بل لنثمِّر ثروتنا منهم ومنها تثميراً أبلغ وأكثر تأكداً. إذن لنعمل الآن كما عملنا أمس ولنأخُذ على حِدَة ولداً من أولئك الأبناء ولنتباحَث في شأنه حيناً. فإن لم نفعل كذلك نخشى أن تكون مدائح السبعة الشهداء أشبه بسبعة أنهُر متدفّقة الأمواج تجرف كلامنا وتطويه في غمراتها. فلنكتفِ إذن بأحد هؤلاء الفتيان لا قَصْدَ أن نفصلَه عن جوق اخوته، بل قصدَ أن نخفّف عنا فادحَ هذا الحِمْل. وعلى كل حال فإنّ إخوته يشاطرونه هذا المديح وهذا الإكليل إذ هم تشاطروا معاً وقائع المحن نفسها. أمّا أُمّهم ولو أننا لا نعني بها اليوم، فلا نستطيع إلاّ أن نستحضرها لدينا. فإنها لا بُدّ من مثولها هنا بدافع القوة من عوارض الحالة لأنها غير عازمة على الانفصال عن بنيها. فإذ هي قد لازمتهم في الكفاح فلا تتركهم في وقت المدائح.

إذن أيُّ بطلٍ من هؤلاء الأبطال تريدون أن نخصّص الكلام به، أهو الأول أم الثاني أم الثالث أَم الأخير؟ وبالأحرى ليس فيهم أخير، فهم يؤلِّفون جوقاً واحداً ولا يُنظر في الجوق بداءةً ولا نهاية. بيد أننا رغبة في تعيين أحدهم لقصد المديح عليه سنتكلّم عن أصغر واحد في هؤلاء الشهداء. إنَّ الإخاء يسود في وقائعهم ونوعاً من القُربى يضمُّ أفعالهم العالية في وحدةٍ مكينة. فلا أول رتبةً فيهم ولا ثانٍ. فلنأخذ إذن أفتى هؤلاء الأحداث وهو يعادل جداً في شجاعة قلبه لا باقي اخوته فقط بل يعادل شيخاً كبيراً. فإنه وحده من بين إخوته يؤخذ للعذاب بدون قيد ولا حساب. فإنه لم يُمهل الجلاّدين أن يضعوا أيديهم عليه بل سبقت عزَّة نفسه بربريَّتهم فأقدَمَ وهو محلولٌ من كل رباط. ولم

يشهد أحدٌ من إخوته النكال الذي أُنزِل به ، لأنهم كانوا قد ماتوا كلُّهم أجمعون. لكنه كافح على مشهد عينين أوفر كرامة هما عينا والدتِه.

ألم أقلْ لكم سابقاً ، إن الأم لا بدَّ لها من أن تحضر جهاد ابنها ولو لم نأبه نحن لذلك؟ فانظروا أن تساوق الأفكار جعلها أمامنا. فالمسرح الذي جاهد عليه ولدها كان فخماً موقَّراً لأن كتائب الملائكة وإخوته أنفسهم كانت ألحاظهم عليه ، فهي تراقبه لا من الأرض ، بل من أعالي السماوات. فقد كانوا هناك جلوساً وجباههم معصوبةٌ بالأكاليل كما يكون القضاة في الألعاب الأولمبيَّة لا ليتحقَّقوا نتيجة المعركة بل ليشجِّعوا البطل ويتقبَّلوه عندهم عَقِبَ انتصاره. فهذا لو كان إذن واقفاً مُطلقاً من كل قيد ورباط وهو يتفوَّه بأقوال حافلة بالفلسفة وكان متشوّقاً إلى أن يُشرك بشواعره الدينيَّة الملكَ الظالم. ولكنه إذ لم يُفلح في رغبته أدَّى ما بقي عليه أن يؤدّيه أي قدَّم نفسه للعذاب. وإذ كان الظالم يتوجَّع شفقةً على ذلك الفتى كان الفتى يذرف الدموع تأثراً من كفر ذلك الظالم لأن أنظار الملك العاتي وأنظار الشهيد لا تأخذان أشياء واحدة لأن أعينهما الجسديَّة وإن كانت لا فرق بينهما ، فبين أعينهمَا الروحية فرقٌ بعيد. لذلك كان أحدهما يحصر نظره في الحياة الحاضرة وأما الآخر فعلى عكسِه كان يراقب الحياة المستقبلة التي يزمع الطيران إليها. كان الظالِم يرى المشواة وأما الشهيد فكان يرى جهنم التي يزمع ذلك الظالم أن يهوي إليها. فإذا أخذَنا العجب من أنّ اسحق الذي شدَّ يديه والدُه بالرُّبُط الموثَقَة ، لم يحجُم بتاتاً عن اعتلاء المذبح ولا أتى بحركة معارضة عند رؤيته السكّين فوق رأسه. (تكوين ٢٢ : ١٠) فبأولى حجّة يجب أن نتعجّب من هذا الشهيد الطليق اليدين والرِجلين من كل قيد وربط لأنه لم يحتجْ قط إلى ذلك ولا انتظر ريثما يقبض الجلاّد عليه ، بل تحوَّل متخيّراً إلى كاهن فإلى مذبح فإلى ضحية. وإذ ألقى بنظره إلى ما حوله ولم يشاهد أحداً من إخوته تهيَّجت شواعره وأحسَّ باضطراره إلى أن يستعجل السير على آثارهم لكي لا ينفصل عن جوقهم ولذلك لم يتمهَّل ريثما تمتدُّ إليه أيدي الجلاَّدين. وبما انه كان يُنكر شفقة الظالم الذي يستطيع من قبيل الرحمة أن يستثنيَه ممّا أنزله بإخوته من النّكال ، فقد أقدم مستبسلاً وتجرَّد مستسلِماً لعتوّ ذلك الوحش المجرَّد عن الإنسانية. إنّ أسباباً جمّة كانت كافية لأن تلطّف ذلك الظالم منها حداثةُ هذه الضحية ومنها العذاب الذي ذاقه اخوتُه وقد كان وحده كافياً لإشباع ذلك الوحش الضاري ولكنه لم يكن ليشبع ومنها شيخوخة الأم وفظاعات قساوتِه السابقة التي لم تُوْتِه بفائدة.

٢ - وهكذا حين وزن الشابُّ تلك الاعتبارات تقدَّم هو إلى تعذيب لا علاجَ له وألقى بنفسه ضمن خلقين العذاب كأنما طُرح في مياه ينبوع بارد يحسبهُ حمّام عماد إلهيّ. وكما أنَّ الناس المتلهّبة أجسادهم بحرارة القيظ يبتردون انغماساً في وسط الأمواج كذلك هذا الفتى، إذ تأكّله الشوق إلى أن ينضمَّ إلى إخوته، إنغمس هو من تلقاء نفسه في ذلك العذاب. وفوق ذلك كانت أمه تشجِّعه. وليس يعني هذا أنه محتاجاً إلى التحريض. وإنما تدركون من ذلك ثبات العزيمة في تلك المرأة. إنها لم تتصرَّف قطّ مع أحد من بنيها السبعة تصرُّفَ أُمٍّ أو بالأحرى انها تصرَّفت كأُمّ حقيقيَّة مع كلٍّ من بنيها. فلم تحدِّث نفسها قائلةً ما هذا الأمر؟ إنّ مصفَّ أولادي قد اختطِفَ مني ولم يبقَ لي منهم إلاَّ هذا الأخير. فاذا خسرتُه بقيتُ بلا أولاد. فمَن يعولني بعدهم في شيخوختي إذا قضى ابني هذا؟ ألا يكفي أني ضحَّيتُ بنصف سعادتي أو على الأقلّ بقسمَيها الرئيسيين. وهذا هو الولد الوحيد الباقي لي لتعزيتي في شيخوختي أأُضحِّي به أيضاً؟ إنها لم تقُلْ من ذلك شيئاً ولم يدُرْ في خلدها فكرٌ من هذا القبيل، بل إنها إذ أثارت حميَّة ابنها بتحريضاتها كأنما هي صنعتْه بيديها، قد غمستْه في الخلقين ممجِّدةً الله الذي تنازل فقَبِلَ كل ثمرات أحشائها. ولم يسمح لأحدٍ منهم أن يجحد دينه ولأنه جرَّد الشجرة كلها من كل أغصانها. إذن لا أخشى أن أقول أيضاً إنها تألَّمت أكثر من كل أبنائها. فالآلام الطبيعيَّة والأدبيَّة في أبنائها كانت على خلاف المألوف ملطفةً ومخفَّفة (بعناية الله) وأمّا هي فمن حيث إنّ الطبيعة وضعتْها في تلك المنزلة أُمًّا، فإنها بعقلها الذي حافظ على كل قوَّته وصفائه كانت عندها عاطفة أشدّ تمييزاً لكل الحوادث التي وقعَت لها. لقد كان عليها أن تشهد هذا الحريق المثلّث وهو الذي كان الظالم قد أوقده ثم الذي سعَّرته الطبيعة، ثم الذي نشره الروح القدس. فالأتون الذي أشعله الملك الظالم في بابل كان أقلّ اشتداد حرارة من الأتون الذي أشعله هذا الظالم لأُمّ هؤلاء الشهداء. فالأتون الأول كانت موادُّ إيقاده من النّفط والزِّفت والمشاقة والزَّرجون، والأتون الثاني كان وقوده الطبيعة والأمومة والحنوّ واتحاد هذه بشواعر الأبناء. فالنار التي أغرق فيها هؤلاء كانت أقلَّ التهاماً لهم من النيران الملتهمة لأُمِّهم. فقد كانت متلهّبةً بحبِّها، ولكنها انتصرت على تلك النار بتقواها. نشبت الحرب بين الطبيعة والنعمة فكانت الغلبة للنعمة أبداً. فتديُّنها غلب طبيعة أحشائها والنار أظفرَتْها بالنار. النار الروحية قهرت النار الطبيعيَّة، والنار التي أشعلتها قسوة الظالم. وكما أننا نرى في وسط المحيط صخرةً تصدمها الأمواج وتبقى على حالها ثابتة حالةَ أنّ تلك

الأمواج تتناثر زبَداً وتتلاشى في هنيهة، كذلك قلب هذه المرأة كان ثابتاً لا يتقلقَل وهو يبدّد بثبات جأشه وبحكمته ما يصدمه من سطوة الحملات. وقد كانت تبتغي في موقفها أن تُرِيَ الظالم أنها على الحقيقة أُمُّ هؤلاء الشهداء، وأنهم كانوا أولادها بصلةِ الفضيلة أكثر مما هم أولاداً لها بصلةِ الدم. فالنيران المتّقدة أمام عينيها لم تكن عندها نيران العذاب بل نيران شموعٍ في عرس حتى إنَّ الأم التي يزيّن أولادها للزّفاف هي أقلّ اغتباطاً وسعادةً من هذه الأم في رؤيتها التنكيل بأولادها. وكأني بها لو ألبسَت أحدهم حلّة عرسه وضفرَتْ للآخر أكاليل وبسطتْ لغيره فرش خدره لرأيتُ تهلُّلها فرحاً كذلك عند رؤيتها أحدهم يبتدر إلى خلاقين العذاب والآخر يُقدِم على المشاوي وغيره يُحذفُ رأسه. كل هذه المشاهد كانت تملأها بهجةً وسروراً. لم يكن يُرى هنالك إلاَّ شحمٌ سائل ودخانٌ ساطع وكل ما يحدّثها عن أولادها. فإذ هي تراهم بعينيها وتسمع كلامهم العزيز بأُذنيها وتشمُّ من لحومهم شذاً طيباً وعبَقاً غير محتمل معاً. إنه عبَقٌ لا يحتمله الكفرة ولكنه طيّب النفح جداً عند الله وعندها. إنه عبَقٌ يملأ الفضاء المحيط به ريحاً كريهة، ولكنه ليس كذلك في قلب هذه الأم. لقد مثلَت واقفةً تحضر بعزيمةٍ جلْدةٍ وثباتٍ لا يتقلقل، ذلك المشهد الرهيب.

لقد حان أن نضع حدًّا لهذا الخطاب غايةَ أنَّ معلمنا الإلهي العام يقدّم للشهداء جزاءً من مدائحه أجزلَ وأنفس. فلتكن هذه المرأة باعث اقتداء للآباء ودافع مباراةٍ للأمهات وللرجال والنساء. للّذين التزموا حياة البتولية للابسين الثياب الخشنة واللاّبسين المسوح. فمهما بلغنا من الزهد والفلسفة فإنَّ فلسفة هذه المرأة تدع مجالاً واسعاً بينها وبين كَرَم نفسها، حتى إنه لا أحد ممَّن بلغوا إلى أعلى قمّة من النبالة والشجاعة إلاّ يعدُّ نفسه غير حقيرٍ إذا انتظم تلميذاً في مدرسة هذه المرأة. فالأحرى بنا أن نصلّي إليها كلّنا معاً نحن الذين يقطنون في المدينة والذين يعيشون في الوحدة. الذين يلازمون البتولية والذين هم في دائرة الزواج الشريف وكل الذين يحتقرون الخيرات الحاضرة والذين صلبوا أجسادهم حتى إذا أتممنا الشوط عينه نحرز عنوان الثقة الذي أحرزته هذه المرأة ونجد إلى جانبها مكاناً يوم الدينونة بمعونة صلواتها وصلوات ابنها وألعازر هذا الشيخ الجزيل الكرامة والنبالة الذي أتمَّ جوقَ هؤلاء الشهداء والذي أظهر في أوقات شدَّة المحنة نفساً من الماس. نحصل على كل ذلك إذا شاركت نفسنا هؤلاء القديسين في صلواتهم مشاركةً لا نحتفظ منها بشيء لأنفسنا. ذلك إذا كنا قبل المصادمات والأخطار وفي ضمن عهد السلام نقمع أهواءنا

الخصوصية ونقضي على الهيجانات الجسدية الحمقاء ونخضع جسدَنا للطاعة والخدمة. وبذلك إذا انساقت حياتنا في السلام نستحق الأكاليل المتألقة أكاليل الفائزين في رياضة الأبدان. وإذا قضى الله بحُكم صلاحه أن يرى موافقاً أن ننزل لمثل تلك المكافحات ننزل مستعدّين إلى الميدان فنستحق الخيرات السماوية التي نتمنى الحصول عليها بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي به ومعه ليكن المجد والكرامة والقدرة للآب في الوحدة مع الروح القدس مدى دهور الدهور آمين.

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

٤
عِظَة
القديس يوحنا المعمدان

لنتأمل معاً كيف أن كُلاًّ من النبي إشعياء والسابق يوحنا المعمدان يوصِّلان لنا نفس الرسالة، رغم أنهما لا يستخدمان نفس التعبيرات، فالنبي يسبق فيُنْبئنا أنه لا بدّ سيأتي المسيح، فيقول: «أعدّوا طريق الرب، اجعلوا سبيله مستقيماً». أما السابق يوحنا المعمدان فعندما أتى، بدأ رسالته قائلاً: «اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة»، وهذه الدعوة لها نفس المعنى تماماً مثل: «أعدّوا طريق الرب». فكلٌّ ما قيل بالنبي أو بالمعمدان، فهو يعني نفس الأمر.

إن السابق أتى لكي يُعدَّ الطريق لا أن يقدّم للناس عطيّة المغفرة، بل بالحريّ ليُعدَّ نفوس أولئك الذين سينالون هبة الهبات.

ولكن القديس لوقا البشير يضيف شيئاً أكثر، فهو لم يكتفِ بأن يعطي بعض بل كل النبوة: «كل وادٍ يمتلىء وكل جبل وأكمة ينخفض؛ وتصير المعوجّات مستقيمة والشعاب طُرقاً سهلة؛ ويُبصر كل بشرٍ خلاص الله». (لو ٣: ٥ و٦؛ إش ٤٠: ٤ و٥).

ثم تأمل كيف أن النبي منذ أمدٍ طويل يسبق فينبئ بكل شيء: تجمُّع الناس معاً، تغيُّر الأمور إلى الأفضل، بساطة الأمور المستعلنة، والداعي لكل هذه المجريات؛ حتى وإن كان يتكلم بالرموز. نعم لأنه كان ينبئ بأمور آتية. لأنه عندما كان يقول: «كل وادٍ

يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات سهلة»، كان يعني بذلك أن المتواضع سيُرفَع، وأن المتكبّر سيُخفض، وأن خشونة الناموس ستُبدَّل بعذوبة الإنجيل، ليس بعْدُ «عرَقٌ ووجعٌ»، بل نعمةٌ وغفرانٌ للخطيئة. هذا هو افتتاح طريق الخلاص الرحب. ثم إنه يبين الغاية من كل هذا، قائلاً: «حتى يرى كل بشر خلاص الله»؛ ليس كما كان سابقاً، حيث كان اليهود والمتهوّدون وحدهم، هم المختصون بالرؤية، بل «كلُّ بشر»، أي سائر الجنس البشري. وأما «الطرق الوعرة والمعوجّة» فهو يعني بها نوع الحياة الفاسدة التي كانت: عشّارون «ظَلَمة»، زناة، لصوص، مشتغلون بالسحر: الذين كانوا قبلاً معوجّين في طرقهم؛ ومن ثَمَّ دخلوا الطريق المستقيم، كما قال الرب نفسه: «الحق أقول لكم: إن العشّارين والزانيات سيسبقونكم إلى ملكوت السمٰوات» (مت ٢١: ٣١) ذلك لأن هؤلاء كانوا قد آمنوا به.

ويتكلم النبي عن نفس الشيء ولكن بتعبيرات أخرى: «الذئب والحمل يرعيان معاً» (إش ٦٥: ٢٥). فكما تكلم قبل هذا عن الجبال والأودية معلناً بذلك أن الطبائع المختلفة ستتآلف إلى واحد عن طريق معرفة الحكمة أي معرفة الخلاص، كذلك هنا بالمثل: فهو يعني بالطبائع المتباينة التي للحيوانات العُجم، يعني تباين طبائع الناس، وينبئ كيف أنها ستأتي معاً إلى حياة واحدة متآلفة مستقيمة. وهنا أيضاً، كما فعل سابقاً يُعطي العلّة لهذا قائلاً: «إن القائم ليحكم الأمم، إياه تترجى الشعوب» (إش ١٠: ١٠؛ مت ١٢: ٢١)، الذي يقصد به نفس المعنى عندما يقول: «وكلُّ بشرٍ سيرى خلاص الله»؛ مبيناً بهذا أن قوة ومعرفة الإنجيل ينبغي أن ينادى بهما إلى أقاصي الأرض، وهذه ستؤول إلى تغيير جنس البشر من الطرق البهيمية وشراسة النفس إلى وداعة ولطف الخُلُق.

(تفسير إنجيل متى)

ولهذا، لكي يبيِّن لنا يوحنا مقدار اتضاع ابن الله، سبَقَ وقال إنه لا يستحقُّ أن يحُلَّ سيرَ حذائه، وأنه الديَّان العادل الذي يحاسِبُ كلاًّ بحسب أعماله، وأنه يُفيض نِعَم الروح القدس على كل الناس، حتى إذا رأيتموه آتياً إلى العماد، لا تَرون مهانةً في هذا الاتضاع. وعلى هذا، عندما شاهدَهُ يوحنا أمامه، أخذ يمانعه قائلاً: «أنا المحتاج إلى أن أعتمد منك وأنت تأتي إليَّ؟» وبما أنَّ عماد يسوع كان عماد التوبة، وكان يقضي على المعتمدين أن يعترفوا بخطاياهم، فلكي يستدرك يوحنا ويُبيِّن لليهود أن المسيح لم يأتِ إلى عماده على هذه النيَّة، دعاه أمام الشعب: «حمل الله» والمخلِّص الذي يمحو خطايا العالم.

لأنَّ مَن كان له السلطان أن يمحو كل خطايا الجنس البشري، يقتضي بأولى حجة أن يكون هو نفسه بريئاً من الخطأ.

(الموعظة ١٢ على إنجيل متى)

وكان يخرج إليه أهل بلد اليهودية وأورشليم فيعتمدون منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم (مرقس ١/٥) أرأيتم قوة تأثير من عمَّد المسيح؟ كيف جعل الشعب اليهودي يضطرب ويعترف بخطاياه؟ حقاً كان المشهد عجيبا عند اليهود إذ رأوا يوحنا في هيئة إنسان، يجري أعمالاً عجيبة، وعلى وجهه نعمة خاصة، يتكلم بجسارة. لم يتكلم عن الحروب ولا عن القتال ولا عن النصر والظفر الدنيويين ولا عن ويلات الجوع والوباء ولا عن فتح مدينة والاستيلاء عليها ولا عن أشياء عادية عالمية. بل تكلم عن السموات، عن ملكوت الله، عن العذاب، عن جهنم. كان سابق المسيح يستعمل الوسائل الفعّالة ليحمل الشعب على احتقار الأشياء العالمية الحاضرة ويسمو بأفكاره إلى السموات الآتية.

إذن لنسر في إثر السابق معمّد المسيح. ولنترك الإفراط في الملذات، ولنتبع الاعتدال.

فالكنيسة تحتفل بعيد اعتماد المسيح، لتدعونا إلى التوبة، على اختلاف طبقاتنا. فلا يجوز أن نجمع بين التوبة والملذّات في آن واحد: وان ما يؤيّد هذا القول، طعام ولباس ومأوى يوحنا المعمدان. فاذا لم نستطع أن نحيا حياة قاسية كحياته، فالتوبة واجبة مع السكن في المدن والقرى، لأننا بها نهيّئ انفسنا للدينونة، كأنها على الأبواب، وان كانت الدينونة غير قريبة، فلا يجوز لنا التهاون بالتوبة، لأن لكل حياة بشرية نهاية كما ينتهي العالم كله.

لنسمع قول بولس رسول المسيح يؤكّد لنا أن الدينونة على الأبواب: «قد تناهى الليل واقترب النهار» (رومية ١٣/١٢) لأنه في أقرب زمان يأتي الآتي ولا يبطئ (عبر١٧/٣٧) فهذه أدلّة واضحة على مجيء الدينونة وحقاً قيل أيضاً: «وسيكرز بإنجيل الملكوت هذا في جميع المسكونة شهادة لكل الأمم وحينئذٍ يأتي المنتهى». (متى ٢٤/١٤).

ترجمة الأب الياس كويتر المخلصي

(عن المخطوطات المخلصيّة القديمة)

٥
عِظَة
في مديح القديس بطرس

تقول : إنك خاطئ فلا أدري كيف أحضر... إنك خاطئ إذن فادّخل إلى هنا. ألستَ تعلم أنّ الذين يحضرون أشهاداً للهيكل ليسوا بعداء عن قيود الخطيئة. أليسوا هم أصحاب أجساد مركّبة من لحم ودم وعظام؟ أوَلا تعضد أعضاءها؟ ونحن أنفسنا الجالسين على هذا العرش نَعِظكم بحقيقة العقيدة، نتململ في قيود الخطيئة ولكننا لا نيأس من جودة الله ولا ننظر إليه نظرنا إلى سيّدٍ خالٍ من العطف الإنساني. فنحن كلّنا بشر مركّبون من عناصر واحدة. على أننا لا ننكر عليكم الاشتراك في العقيدة، لأننا نلاحظ غور الرحمة الإلهية. وإنكم ولو حضرتم إلى هنا وأنتم خطأة، فلا تُجرمون في هذا الحضور فليس في نيّتكم أن تقبلوا تعليم العقيدة. أمّا نحن فعلى عكس حالكم. فكلّما ارتفع مقامنا ازدادت علينا تَبِعَةُ أعمالنا (مسؤوليتها) لأنَّ خطأ التلميذِ شيء وشيءٌ آخر خطأ المعلّم. ومع ذلك لا نتردّد في إتمام هذا الواجب مخافة أن نصير إلى الإهمال بحجّة أننا نريد التواضع. وعلاوةً على ذلك إن الكهنة بسماحٍ إلهيّ هم عرضة للسقوط في الخطأ وإليكم السبب.

إذا كان أكابر علماء الكنيسة والكهنة أعلى من أن يسقطوا في الخطيئة وفي الشهوات السارية في الزمان، يعاملون الناس الذين هم أمثالهم معاملةً لا رحمةَ فيها ولا عطف. ولذلك كان الكهنة والرؤساء معرَّضين على السواء للشهوات حتى إنهم إذ يعرفون ما عندهم من بلايا التجارب، يعاملون قريبهم بلطف ومسامحة. هكذا لم يزل الله في سلوكه مع الإنسان في قديم الزمان وفي هذه الأيام. فقد سمح بأن الذين فوَّض إليهم إدارة كنيسته وشعبه يرتكبون خطايا حتى إذ يتذكرون سقطاتهم الخصوصية يرحمون إخوتهم ويعاملونهم بالحسنى. فإذا هم لم يخطأوا قط لا يكون عندهم أقلّ شفقة بالخطأة وكانوا يطردونهم كلّهم بقسوة من الكنيسة. تلك هي الحقيقة ولا أتكلّم كذلك عن غير صواب وستحقق هذه المسألة في تأمُّلنا في الأمور عن كثَب :

كان من الواجب أن تُفوَّض مفاتيح الكنيسة إلى بطرس بل أن تفوَّض إليه مفاتيح السماوات عينها. وكان من واجبات بطرس أن يتولى الحكم على شعب وافر العدد لذلك

قال له الربّ: «كلُّ ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وكلّ ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات». (مت ١٦ :١٩) والحال أن بطرس كان موسوم الخُلُق ببعض القسوة. فلو كان منزَّهاً عن الخطيئة فإيّ مسامحة يمكن أتباعه الحصول عليها. ولذلك عرَّضته النعمة الإلهية لأن يسقط في خطإٍ حتى إنّ ضعفه الخصوصي علَّمه أن يعامل الناس بلطف ووداعة. ولاحظوا في أي خطأ سمح الله أن يسقط بطرس هذا الذي هو زعيم الرسل وهذا البنيان الذي لا يتقلقل وهذه الصخرة التي لا تنهدم أمير الكنيسة والمرفأ الذي لا يستطيع أن يأخذه مُهاجم والبرج الذي لا يقوى أحد أن يقلب بناءه. ذلك بطرس الذي سبق فقال للمسيح: «لو أُلجئتُ أن أموت معك ما أنكرتك». (مت ٢٦ :٣٥) بطرس الذي سبق أن استنار بالضياء الإلهي فاعترف بالحقيقة إذ قال: «أنت المسيح ابن الله الحيّ». (مت ١٦ :١٦) إنّ بطرس هذا دخل إلى مجلس القضاء، دخل إلى دار الحكومة ليلة قُبض على المسيح بدسيسة الخائن وجلس قرب النار يصطلي فتقدّمت إليه فتاة وقالت له: «أنت كنتَ مع يسوع الجليليّ.» فأجابها بطرس «إني لا أعرف هذا الرجل.» (مت ٢٦ :٢٩ و٧٠) مع أنك يا بطرس سبقت فقلت للمسيح «لو ألجئت أن أموت معك ما أنكرتك.» والآن أنت تنكره وتقول لا أعرف هذا الرجل! فيا بطرس هل كان خيراً ما سبقتَ فوعدتَ به؟ إنك لحدّ ذلك الوقت لم ترَ التعاذيب ولا ضربات السياط فلسماعك بعض كلماتٍ من فتاة مجهولة تبتدر فتنكر. إنك تنكر يا بطرس، حالة أنك لم تشهد عقوبات ولا عصيًّا ولا معاملة سيّئة ولا حكّاماً في شدّة الحنق ولا سيوفاً مسنونة ولا قضاءً ملفوظاً ولا أُمراء مهدّدين ولا موتاً واقعاً ولا حرّاساً ولا أمواجاً ولا أغوار لجج ولا شيئاً من أشباه هذه، ومع ذلك أسرعتَ إلى الإنكار! «إنني لا أعرف هذا الرجل» وتعيد الفتاة قولها له: وأنت أيضاً كنت أمس مع هذا الرجل فيعيد هو جوابه قائلاً «لا أعرف الرجل الذي تتكلّمين عنه.» فمَن الشخص الذي يكلّمكَ يا بطرس فتلجأ إلى هذا الإنكار؟ ذلك شخص ليس بذي شأن. انه امرأة بل انه بوّابة، إمرأة مجهولة، إنها أمَةٌ لا تستحق شيئاً من التكرمة. إنها هي التي تتكلّم وأنت تخاف كلامها فتنكر؟ فيالله ما أغرب هذا الحادث! فتاةٌ تتقدّم من بطرس، خادمة تهدم إيمان بطرس. بطرس ذلك العمود، ذلك الصخر لا يثبت تجاه كلام من فتاة. إنّ هذه لا تعمل إلاّ أن تتكلّم فاذا بالعمود يتقلقل وإذا بالصخر نفسه يعودُ أُلعوبةً بين أيدي الأمواج. أيُّ إنسانٍ رأيته يا بطرس فدفعك إلى هذا الجحود؟ إنك لم ترَ إلاَّ فتاةً حقيرة بوّابة بائسة هذه هي التي رأيتها فجحدتَ! قيل له مرة ثالثة:

«وأنت كنتَ أمس مع هذا الرجل.» فجحده مرّة ثالثة. ولكنَّ يسوع نظر إليه حينئذٍ، فأفادته هذه النظرة أن يتذكّر ما قاله له وأدرك بطرس مغزى تلك الإشارة، فاستخرط بكاءً على خطيئته وندَماً عليها والربّ غفر له خطيئته بفيض رحمته لعلمه أنّ بطرس إذ هو إنسان كان عرضةً لأنواع الشقاء البشريّ. وإنما كما تقدَّمتُ فقلت منذ هنيهة إذ رتَّب الأمور على هذا الأسلوب وبسماحه أنَّ بطرس يخطأ فكّر بالشعوب الكثيرين الذين يفوّض إليه العناية بهم مخافةَ أنه لو أُضيف إلى قسوته الطبيعية عصمتُه من الخطأ لكان فظًّا لا ينبض قلبه بالرحمة لإخوانه. فسقط في الخطيئة لكي يتذكّر ضعفه الخاصّ ورحمة الرب له فيعامل إخوانه بالعطف والحلم وفقاً لمراسيم العناية الإلهية. فالربّ سمح بعَثرة مَن ستُسلَّم الكنيسة لرعايته، سمح بعَثرة بطرس عمود كل الكنائس ومرفإ الإيمان ومعلِّم المسكونة. سمح الربّ بعَثرته لكي تعلّمه هذه العَثرة أن يُعامِل الآخرين بالرحمة.

ماذا تُراني أقصد من كلامي هذا؟ قصدي أن أُعْلِمَكم أننا نحن الكهنة، نحن الجالسين على عرشٍ رفيع والمتولّين رعايتكم وإرشادكم لا نزال معرَّضين لقيود الخطيئة. فإذا كان الكهنوت لم يُفوَّض إلى الملائكة ولا إلى رؤساء الملائكة الذين هم في حمًى أمين دون الخطيئة فذلك خشية أنهم يكونون قساةً على الخطأة فيستنزلون من فورهم صاعقة الغضب على الخطأة مخالفي الشريعة. إنما الجالس على عرش الكهنوت هو إنسانٌ مولود إنسانٍ هو إنسان عرضةٌ للشهوة والخطيئة فيشفق على الإنسان بسبب ما يشاكِلُه فيه بخطاياه الخصوصية. فلو انّ ملاكاً تقلّد الكهنوت كشفَ له فاسقٌ عن سريرة فِسقِهِ لاستأصله فوراً إذ هو طليقٌ من قيود شهوة كهذه. فلهذا السبب لو أنَّ ملاكاً قُلِّد كرامة الكهنوت لأَنزل العقاب في الساعة بالخاطئ لأنه هو يجد نفسه أعلى من كل خطيئة. ولذلك تُعنِّي ضربات غضبه الإنسان الذي تختلف حالتُه عن حالة الملاك. هذا هو السبب لإسناد رتبة الكهنوت إلى الإنسان لأنه إذ يعرف خطاياه الخصوصية ويُرشده الاختبار يتقبَّل الخطأة بالحنوّ والمغفرة ولا تستولي عليه شدّة الغضب وتجد الكنيسة في اجتماعها الدروس التي هي في ضرورة الحاجة إليها.

ترجمة

الأب نقولا أبو هنا المخلصي

(المخطوطات المخلصيّة)

٦

بولس الرسول

عندما أستمعُ إلى قراءة رسائل بولس، أتهلَّلُ فرحاً، وقد أَخذَتْني نشوةُ الإصغاء إلى ذلك البوق الروحي، وتملَّكَني شغفٌ به لاهِب، فاعرفُ صوتَ صديقي، ويُخيَّلُ لي أني أشاهدُه بأُمِّ العين وأسمعُ نبراتِ صوته.

بيد أَني أتألَّمُ من ناحية أخرى، ويشقُّ عليَّ أن لا يعرفَ جميع الناس ذلك العبقريَّ، كما يجب. بل منهم من يجهل حتى عدد رسائله. وليس هذا لبلاهتهم، بل لعدمِ رغبتهم في أن تكونَ هذه الكتابات دائماً بين أيديهم.

أمّا أنا، فاذا كنت أعرف شيئاً، فمردُّ ذلك، لا إلى أنَّ لي عقلاً متفوِّقاً، بل لأنَّ حبي للقديس بولس يحثُّني دائماً على مطالعة كتاباته. المُحبُّ هو أكثرُ معرفةً بمحبوبه من سواه لأنَّه يستأثرُ باهتمامه. كما يتَّضحُ من كلام القديس بولس إلى أهل فيلبي: «أرى من الصواب أن تكونَ لي كلُّ هذه العواطف نحوكم، لأنَّكم جميعاً في قلبي، أنتم الذين تُشاطروني قيودي في تأييد الإنجيل والدفاع عنه».

فاذا ارتأَيتم، أنتم أيضاً، أن تُعيروا رسائلَه انتباهَكم، فلا يُطلبُ منكم أكثرُ من ذلك، لأنَّ قولَ المسيح حق: «اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتحْ لكم»! وبما أنَّ لدن الكثيرين منكم، أعباءً تستأثرُ بوقتهم في تدبير شؤون عائلاتهم وتربية بنيهم، فلا يستطيعون الانقطاع إلى تلك المُهمَّة، فليبذلْ كلٌّ منهم جُهده، محرِّضاً مَن لهم متَّسعٌ من الوقت على الانكباب عليها. ثم اهتموا بالاصغاء إلى شروحِهم بقدر اهتمامكم بكسبِ كلِّ أموال هذا العالم...

(مقدمة رسائل القديس بولس)

الأب الياس كويتر المخلصي

٧

عِظَة

في مديح القديس بولس الرسول

يمكن بدون خوف من الانخداع أن تُسمَّى نفس القديس بولس مرجاً للفضائل وبستاناً روحياً لوفرة بهائها بزهور النعمة ولوفرة ما كانت متفقةً هذه النعمة مع فلسفته العالية. فإذ هو صار إلى ما صار إليه إناءً مختاراً عاملاً على زيادة تنقيته كل يوم، تقبَّل هذا الرسول مواهب الروح القدس مندفقةً عليه بغزارة عجيبة. ومن تلك المواهب تتدفّق لنا أنهرٌ عجيبة لا أربعة فقط كما في الفردوس بل انها أكثر جداً ومياهها لا تتعكّر أبداً. وإن تلك الأنهر عِوَض أن تسقي الأرض تطفئ ظمأ النفوس وتجعلها خصيبةً فتنمو فيها غلال الفضيلة الفاخرة نموًّا زاهراً. فأيُّ كلام هو أهلٌ للإشادة بما تستحقه فضائل هذا الرجل؟ وأي لسانٍ يستطيع أن يبلغ إلى علوّ مجده؟ انه وحده يجمع بأعلى درجة من الكمال كل أنواع الفضائل التي يمكن وجودها في البشر، بل في الملائكة أنفسهم. أجل اننا لأعجز من أن نقوم بمديحه ولكننا مع ذلك لا نلزم الصمت، بل ذلك العجز فينا هو مدعاة لأن نتكلَّم. فإنَّ أجلَّ المديح جمالاً هو ما استدعته جلائل الأعمال التي يتقاصر دونها كل مجهود البلاغة البشرية. على أنَّ قصورَنا الخاسر في هذا الميدان هو أمجد عندنا من ألف شعار انتصار.

فمِن أيّ النواحي إذن أشرع في هذا المديح؟ ومن أيّها أتصدَّى للكلام إلاَّ إذا ٱستفتحتُه بهذا المبدإ أنّ كل أنواع الخير والفضل هي مجموعةٌ من نفس بولس. أجل إنّ كل ما شوهد من أكرم المزايا في الأنبياء والآباء والرسل والشهداء وجميع الصديقين في جميع العصور قد ضمَّ بولس شملها في نفسه وقد تملّكها بولس بتفوّق لم يبلغه أحدٌ منهم: انظروا: إنّ هابيل قدَّم محرقةً فاسمُه مقارنٌ للشرف ولكنكم إذا وضعتم محرقته تلقاء محرقة بولس، فبولس يتفوَّق عليه بمقياس ما تعلو السماء عن الأرض. ولعمري عن أيّ محرقة من محرقاته تريدون أن أتكلّم؟

إنّها لَجَمَّةُ العدد ويمكننا أن نختار منها ما شئنا. كل يوم كان يضحّي بنفسه وتلك التضحية كانت مضاعفة، لأنه كان يموت كل يوم ويحمل في جسده إماتة يسوع المسيح. «يا إخوة أقسم بالفخر الذي لي بكم في المسيح يسوع ربنا أني أموت كل يوم.» (١ كور ٤ : ١٠) فإذ

اَستُبسِلَ في خوض المخاطر وتقبّل في قلبه موت الاستشهاد مخضعاً جسده إلى حدّ الموت لم يكن في كل ذلك إلاّ ضحيَّةً مقدّمة للرب بثبات عزم بل كان أكثر من ذلك. فهو لم يكن يقرّب حملاناً وثيراناً بل كان يقرّب كل يوم نفسه قربان ذبيحة مضاعفة كما أسلفنا فذكرنا. وكذلك كان يقول بثقة: «أما أنا فقد أُريقَ السكيبُ عليَّ ووقت انحلالي قد اقترب.» (٢ تيموثاوس ٤ :٦) يشير إلى سفك دمه. ولا يقتصر على هذه التضحية. فبعد أن بذل نفسه بأجود سخاء وشرف شاء أن يقرّب العالم كلّه لله. فانظروه يطوف في أقطار الأرض وفي البحار كأنه ذو جناحَين يتعهَّد مدنيَّة اليونان كما يتعهَّد البرابرة وكل النواحي التي تنيرها الشمس، لا ليعاني سفراً لا خير فيه، بل ليستأصل أشواك الخطيئة، ناثراً بكلامه بذار التقوى طارداً أمامه الضلال والكذب مقوّماً مملكة الحقيقة وجاعلاً البشر ملائكة بل أكثر من ذلك قد جعلهم بشراً بعد أن كانوا أبالسة. وقبل أن يغادر هذا العالم وغبَّ أن جاهد جهاد الظفر وبذل في سبيل ذلك عرقاً غزيراً عزَّى تلاميذه بقوله: «لو أُرِقتُ سكيباً على ذبيحة إيمانكم وخدمتَه لكنت أفرح وأبتهج مع جميعكم. وبذلك عينه افرحوا أنتم أيضاً وابتهجوا معي.» (فيلبي ٢ :١٧ و١٨) فمَن ذا يجد مِثْلاً لهذه التضحية التي يضرب فيها بولس ضحيَّته بسيف الروح على مذبحٍ يعلو إلى ما فوق السماوات؟

حقًّا إنّ هابيل مات قتلاً بيد قاين وذلك ما يعلو به مجده. بيد أني أطلعتكم حتى الآن على ألفِ ميتةٍ تعذَّبَ الرسول فيها على مقدار ما طوى من الأيام في إذاعة الإنجيل. وإذا شئتم أن تفحصوا أيضاً عن الميتةِ التي ختم بها حياته، فأنا عند مشيئتكم: إنَّ هابيل لقي حتفه من أخٍ له لم يكن قد تصدَّى له بشتيمة ولا أمدَّه بإحسان.

وأمّا بولس فقد ذبحه أُناسٌ كان يريد أن يخلّصهم من شرورٍ لا تُعَدّ، وبسببها تحمَّل كل الآلام التي ناءت بها حياته، وإنَّ نوحاً امتاز ببرِّه وفضيلته في قبيلته وعشيرته. وأمّا بولس فقد أوفى كماله على كل البشر دون استثناء. فذاء لم يخلّص إلاّ نفسه وأولاده وأما هذا فحين طغى طوفانٌ أهوَل شراً جداً امتدَّ فوق العالم بأسره أنقذ من طغيان الأمواج العالم كله عِوَض اثنين وثلاثة وخمسة من أقاربه، لا بفُلك صنعته يداه بل بكتابة رسائله. ففُلْكه لا ينحصر في موضع واحد من الآفاق، بل يتناول جميع الآفاق والأقطار ويقدّم ملجأً لكل الذين يريدون الخلاص. لقد بناه ذلك المهندس العلاَّمة مقيساً على مقدار يتناسب مع البشريّة كلّها. والذين يتقبَّلهم قد يكونون أحياناً أقلَّ تعقُّلاً من الحيوانات فيجعل منهم أشباهَ ملائكة وبهذا الخصوص يتفوَّق فُلكه جداً على أول

فُلك صُنع. فهذا الفُلك ضمَّ فيمَا ضمَّه غراباً وهو أطلق ذلك الغراب فطار منه ولكنه لم يستطع أن يغيّر شيئاً من طبيعة الذئب الضارية. وليس كذلك فُلك الرسول، فقد حوَّل الذئاب حملاناً والعقبان والبواشق والغربان إلى حمائم وديعة وأنزل لطافَةَ الروح الإلهي مكان الشهوات القتَّالة والغير المعقولة التي كانت تملأ قلوب البشر. ذلك الفُلك يحتفظ إلى اليوم بكل قوَّته المنيعة فلم يستطع شيء أن يزعزعه وبنيانه يثبت أمام زوابع الشرور كلِّها. وعلاوة على ذلك قد تهبُّ عواصف الفكر وهو يشقُّ غمرات البحار. ذلك لأنَّ ألواحَه لم تُدهن بزفتٍ وحُمَر بل بنعمة الروح القدس.

إننا نعجب كلُّنا من إبراهيم لأنه إذ ألقيت إليه هذه الكلمة البسيطة: «قم انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك.» (تكوين ١٢: ١) ترك بيته ووطنه وأصدقاءه وأنسباءه مستبدلاً إياهم بطاعته للوصية الإلهيّة ولكن مَن نقايس ببولس الذي لم يفارق فقط وطنه وأقاربه وبيتَه بل هذا العالم نفسه أيضاً. ماذا أقول؟ بل أنكر السماء وسموت السماوات وكل شيء لكي لا يملك إلاّ المسيح. فشيء واحد لا غير قد ناب عنده عن كل شيء غيره ذلك هو حبُّه للمسيح. فاسمعوه يُعلن عاطفته بهذه الكلمات: «إني لواثقٌ بأنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوّات ولا أشياء حاضرة ولا مستقبلة ولا علوّ ولا عمق ولا خلقَ آخر يقدر أن يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربّنا.» (رومية ٨: ٣٨ و٣٩).

أبو الآباء ابراهيم يندفع إلى معمعة الخطر ليخلّص ابن أخيه من أيدي البرابرة، أما الرسول فلم يخلّص ابن أخيه وحده ولا ثلاث أو خمس مدن فقط، بل خلَّص العالم كلَّه، لا من أيدي برابرة بل من أيدي الأبالسة أنفسهم متعرّضاً في كل يوم لمخاطر جديدة وللميتات التي كابدها محصِّلاً لغيره طمأنينة الحياة. أجمل أعمال ابراهيم وأعلى أوج من فلسفته أنه أراد أن يضحّي بابنه الخاصّ. ومن هذه الجهة نجد بولس في الطليعة، لأنه كما أسلفنا فقلنا ضحَّى ألْفَ مرَّة لا بابنه بل بشخصه نفسه.

يُعجب كذلك من إسحق. فمن بين فضائله الوافرة يُمدح على الخصوص لصبره. فإنه بعد أن حفر آباراً له ارتضى أن يُطرد من الأرض التي كانت ملكاً له وأن يُجرَّد من ثمرات أتعابه وأن يَضرب في البلاد مفتِّشاً عن مكانٍ يلتجئ إليه، فلم يهتم بجمع رجاله الأخصّاء ويهجم بهم على أعدائه بل رضي التخلّي عن كل ما ملكت يداه مرضاةً للطمع الظالم الذي كان يلاحقه وأمّا بولس فلم يشاهد الحجارة تردم الآبار التي كان قد حفرها بل شاهد شخصه عينَه مرجوماً ولم يرتضِ فقط أن يستسلم للظلم كما استسلم إسحق بل بذل

الجهد ليرفع إلى السماء جميع الذين رجموه. ذلك ينبوعٌ كلَّما قُصِد تغويره ازداد فيضاناً وتدفّق في العالم أنهراً.

ويعرض علينا الكتاب المقدّس أيضاً مثالاً عجيباً للصبر يعقوب أحد الآباء الأوَّلين وهو ابن اسحق الذي ذكرناه. ولكن أين نجد نفساً من ألماس جديرةً بأن تعادل صبر بولس ؟ فلقد عرض نفسه لا سبع سنين مرَّتين بل وقف حياته كلّها عبداً لخدمة عروس المسيح. فلقد أضناه لا حرُّ النهار وبرد الليل فقط ، بل تجارب تتولَّد له دون انقطاع ، فتحمَّل مرة عقيب مرَّة عذاب ضرب العصيّ وعذاب الرَّجم وكافح الوحوش أحياناً والأمواج أحياناً وكان عرضةً لشدائد الجوع المتواترة التي لا تدع له وقتَ راحة في النهار ولا في الليل. ومع ذلك ترونه ينقضُّ ما بين الأعداء ليخلِّص الحملان من شدق التنين الجهنَّمي. إشتهر يوسف بسنى عِفَّته وأخشى أن أصير إلى الأمر المضحك إذا صُغتُ من هذه الفضيلة شعار مجدٍ لبولس فهو إذ صلب نفسه عن العالم فقد احتقر لا جمال الجسد البشري فقط ، بل بهاء كل المنظورات أيضاً بمقدار ما نستطيع نحن أن نحتقر الغبار والرماد. وكل هذه المزايا كانت تجعله كجثَّة باردة تلقاء جثة باردة. لقد أطفأ فيه مستوقد الرذيلة ودفع عنه كل ما يغري الطبيعة حتى عاد لا يطرق قلبه عاملٌ من تأثير بشري. إنّ أيوب أثَّر في البشر تأثيرَ عَجَب عظيم وفي ذلك حقٌّ لا شك فيه. فانه صار بطلاً عظيماً جديراً بأن يقف إزاء بولس سواء في صبره وطهارة حياته وسوآء في الشهادة التي شهد له بها الله نفسه. لأنَّ جهاده كان عجيباً مدهشاً وأعجب منه الانتصار الذي ختم به ذلك الجهاد. لكنَّ بولس يثبت في ميدان الجهاد لا بضعة أشهر بل مدى سنين كاملة. فهو أبداً مكافح وأبداً منتصر. إنه لم يستعمل لِحَكٍّ بدنه قطعة من خزف وكان يحمل على الأسد الذي لا يُغلَب حملات يجدّدها بغير مهادنة ، ويثبت في معترك تجارب لا تُعَدّ أقوى وأرسخ من صخرة لا تتقلقل ولم يتألم من ثلاث شتائم أو أربعة أصدقاء فقط بل من كل أعداء الإيمان مضافاً إليهم الاخوة الكذبة. فهو أبداً مشتوم مُهان وهو أبداً مرميٌّ باللَّعنات.

إنَّ ضيافة أيوب كانت عظيمة وليس بأقلِّ منها حبُّه للفقراء. ونودُّ نحن أن نذيع له ذلك الفضل ولكننا نعلن أنَّ ذلك الكرَم فيه أنزل مقاماً من كرم بولس بمقدار ما أنَّ الجسد ينزل مقاماً عن النفس. فأيوب كان يبذل أوفر عناية في سبيل ذوي الأمراض الجسدية ، وأمّا بولس فبذل أوفر العناية بأكرم سخاء أيضاً في سبيل مَرضى النفوس. فمرَّة يهدي إلى الطريق القويم ذوي الأفكار التائهة عن ذلك الطريق ، وتارة يستر برداء الحكمة

السماوية ذوي العُري الأدبيّ، حتى انه كان الرسول في المدد الجسدي متفوّقاً على ذلك الأب العهيد. لأنَّ من ينعطف إلى مساعدة البؤساء، حالةَ أنَّه هو يتألّم من الفاقة والجوع، يكون أسخى وأعلى كرماً ممَّن يمدّهم من وفرة ما عنده. إنَّ بيت أيوب كان مفتوحاً لجميع الغرباء ونفس بولس كانت مفتوحة للعالم أجمع، وفيها كان يتقبَّل بحبّ جميع الشعوب المؤمنين. إنه يبيِّن ذلك بقوله: «لستم متضايقين فينا بل متضايقين في أحشائكم» (٢ كور ٦:١٢) الأول كان يملك قطعاناً كثيرة من الغنم والثيران. في وسعه أن يبذل للفقراء بسخاء. ولكنَّ الثاني فلم يكن مالكاً إلاَّ جسمه ومع ذلك كان يسعف إسعافاً فعّالاً كل ذوي بؤس وفاقة. وهو نفسه يصرّح بهذه الحقيقة قائلاً: «أنتم عالمون بأنّ هاتين اليدين كانتا تخدمان حاجاتي وحاجات مَن كان معي» (أعمال ٢٠:٣٤) فعمله الشخصيّ كان كينبوع يفيض غنًى لكل أصحاب الفاقة. أعرفُ جيداً أنّ الدود الذي كان يعيث في قروح أيوب كان يسبّب له آلاماً لا تُطاق. ولكنكم إذا تأملتم في آلام بولس مدى سنين كثيرة وهي الجوع والعُرْي والقيود والسجون والمكايد والأخطار التي كان يسبّبها له القُرباء والغُرباء والظُلاَّم وجماعات البشر والعالم كلّه بالاختصار. وإذا أضفتم إلى كل هذه أعذبةً أهول والحزن الذي يناله من عثرات إخوته وعنايته بجميع الكنائس والنار التي كانت الشكوك تضرمها في حشاه تتيقّنون علماً بدون تعب أنّ ثبات هذه النفس كان أشدَّ من الصخر والحديد والماس. فإنّ أحد الاثنين قد تألّم في جسده فالآخر تجرَّع ذلك الألم في نفسه. فليس ينخر الدود في الجسم بقساوةٍ تماثل ما كانت تقاسيه تلك النفس عند رؤيتها الشكوك المحيطة بها. ولذلك لم تنقطع الدموع التي كانت عينا بولس تذرفها مدى كل ليل وكل نهار. لم تُعانِ أمٌّ غُصَصاً مثل ما عانى لأجل كلٍّ من المؤمنين. إسمعوه يقول: «يا بنيَّ الذين أتمخّض بهم مرّة أخرى إلى أن يتصوّر المسيح فيهم.» (غلاطية ٤:١٩).

وبعد فأيُّ اسم شريف يُذكر بعد اسم أيوب؟ لا شكّ في أنه موسى. حسَن ولكنّه يتوارى خسوفاً أمام السموّ في فضيلة بولس. انّ هذه النفس العظيمة قد تلألأتْ بجميع أنوار الفضائل والمزايا العالية. ولكنها تتجلّى في أوج كمالها، حتى لتتعالى فوق كيانها حين ترغب لأجل خلاص اليهود في أن تُمحى من السِّفر الإلهي.

لقد توسَّل موسى إلى الله أن يهلك مع بقيَّة الشعب، أما بولس فقد أراد لا أن يُشاطرهم حظّ شقائهم بل أن يتحمَّله مكانهم وأن يخسر نصيبه من المجد الأبدي غاية أن يُقبلوا هم فيه. ذلك كان يحارب فرعون وهذا لم ينقطع عن قتال الشيطان. والأول كافح

في سبيل شعب واحد والثاني كافح في سبيل كلّ شعوب الدنيا ، يسقي الأرض في كل ناحية لا بأعراقه بل بدمائه وهو يحمل الإنجيل إلى القِفار الماحلة كأنه يحمله إلى أسعد أقطار العالم. يحمله إلى البرابرة وإلى اليونانيين. وهنا أستطيع أن أذكر على طريقة المقابلة يشوع وصموئيل ، وغيرهما من الأنبياء.. ونرغب عن الإسهاب في هذا الخطاب أنصرفُ قويماً إلى أجلّهم مقاماً. فإذا رأينا بولس يسمو هؤلاء فلا نشكُّ في أنه أعلى من بقيّتِهم. فمن ترى يكون أولئك الأقطاب ، ومن نذكر بعد الذين قدّمنا ذكرَهم غير داود وسابقَي المسيح إيليا ويوحنا ويُعدُّ يوحنا السابق الأول له وإيليا السابق الثاني وكلاهما مؤتلفان منذئذٍ في وحدة الرسالة. فبأيّ مَزيَّةٍ عالية اتَّسم داود؟ لقد عُرف بتواضعه البالغ وبحبّه لله. ولكن من يا ترى تفوّق على بولس في ممارسة هاتين الفضيلتين؟ وما الذي يُتعجَّب منه في إيليا؟ أهو أنه أغلق السماوات وجلب الجوع وأنزل النار من السماء؟ لا أُصدِّق أنه يُتعجَّب منه لذلك بل من أنه كان مفعماً من غيرته للربّ بحماسة هي أشدّ التهاماً من النار. ولكنكم إذا لاحظتم غيرة الرسول ترونه في ذلك متفوِّقاً على إيليا تفوُّق هذا على بقيَّة الأنبياء. والقُصارى كيف يمكن أن نجد شبيهاً لكلماته التالية التي كان يمليها عليه حبُّه لمجد الله : «ولقد وددت لو أكون أنا نَفسي مبسلاً عن المسيح من أجل إخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد» (رومة ١ :٣) ولذلك في حين أزمع الدخول إلى السماوات وأن ينال الاكليل جزاء مشقّاته ارتضى أن يتراجع عَوداً إلى هذه الحياة فقال في ذلك : «لي رغبةٌ أن أنحلَّ فأكون مع المسيح... غير أنَّ التلبُّثَ في الجسد أشدُّ لزوماً من أجلكم» (فيلبي ١ :٢٣ و٢٤) وكذلك هو يحكم بأنَّ الأشياء المنظورة حتى غير المنظورة لا تكفي لإظهار غيرته وحبّه فيتصوّر غيرها ممّا لا وجود له غاية أن يعبّر عن شدّة رغباته.

وكان يوحنا يقتات من الجَراد وعسل البَرّ غير أنّ بولس كان يعيش بين الناس كعيشةِ يوحنا في القفر. حتى لقد كانت مائدته أبلغ دلالةً على الفقر والزّهد. وهو يتهاون عن تناول الأطعمة التي هي أكثر لزوماً له ذلك لشدَّةِ استغراقه في بُحران تحمُّس الغيرة للتبشير بكلمة الخلاص. فإن يكن سابق المسيح قد أظهر ثباتَ جأشٍ في مقاومة هيرودس فالرسول قاوم نظير يوحنا وبحماسته لا عاهلاً ولا اثنين أو ثلاثة بل ظُلاَّماً لا يأخذهم الإحصاء وهم كهيرودس في القسوة بل أشدُّ منه بطشاً وعتوًّا.

يبقى علينا تشبيه بولس بالملائكة. إذن فلنصعد عن الأرض ولنشطر شطر السماوات العُلى ولا يتهمنا أحد بالتهوُّر في ما نقول. فإذا أطلق الكتاب المقدّس على يوحنا وسائر

الكهنة اسم ملائكة أفيكون موضع دهشة إذا قسنا أسمى جميع البشر إلى هذه القوات العليا؟ والحال أنه ماذا نرى فيها من أكبر العظائم؟ أليس طاعتها لأوامر الله؟ تلك هي الشهادة التي يقدّمها داود في حق هذه القوات بعاطفة التعجُّب: «باركوا الرب يا جميع جنوده يا خدّامه العاملين مرضاته.» (مزمور ١٠٢: ٢٠) ما من خيرٍ يعادل هذا الخير في تلك الأرواح الطاهرة، وهب أنها متعالية ألف مرَّة مما هي متعالية عن الهيولى فالذي يكوّن لها السعادة إنما هو خضوعها لله وأنها لا تعصيه أبداً. فهذه الطاعة يتمّمها بولس بحرارة لا تُتصوَّر ولا يرتضي بأن يتمّم كلمة الله ووصاياه وحسْب بل يرمي أيضاً إلى أبعد من ذلك كما يُعلن هو ذلك بقوله: «فما ثوابي إذن؟ هو أني إذا بشَّرتُ أجعل البشارة بغير نفقة.» فأيّ مديح غير هذا يخصّ به النبي الملائكة؟ «الصانع ملائكته أرواحاً وخدّامه لهيب نار.» (مزمور ١٠٣: ٤٠) فبولس يقدّم لكم المشهد عينه. فهو كالروح وكالنار يطوف الأرض كلّها ويطهّرها حين أنه لم يكن بعد قد امتلك السماء وفي ذلك أعجب العجب من كونه وهو لا يزال حياً في هذا العالم ولابساً جسداً مائتاً، قد ماثَلَ القوات المجرّدة عن الجسد. فأي عقاب لسنا نحن أهلاً له حين أنَّا أمام الرجل الذي يجمع في شخصه كل خير، نتغاضى توانياً عن الاقتداء حتى بأضعف قسم من مزاياه. فلنحسن التأمل في هذه المسائل ولنكن في حمًى من كل مُشتكى، ولنبتغِ أن ندانيَه في غيرته لنحصل على نصيب من سعادته بنعمة ومحبَّة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقدرة الآن وأبداً ومدى دهور الدهور آمين.

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

٨
عِظَة
في مديح بولس الرسول

ما الإنسان وما شرف طبيعته وإلى أي حد من الفضيلة يستطيع هذا الكائن الحي أن يتسامى؟ ذلك ما جلاه لنا بولس أكثر من جميع البشر. فلقد قام منذ أول عهده يدافع عن السيد جهراً إزاء الذين يتجنَّون علينا، ويحثّ على الفضيلة، سادًّا أفواه التجاديف

الوقحة ، ومبيِّناً أن الفرق ما بين الملائكة والبشر هو فرق زهيد وليس له كبير شأن إن أحببنا أن نهتم لأمور نفسنا . إن بولس لم يمتلك غير طبيعتنا ولا أُشرك بغير نفسنا ولا قَطَن في غير عالمنا ، بل نشأ في نفس الأرض والبلاد وتربّى في نفس الشرائع والعوائد . ولكنه فاق جميع البشر منذ ما عُرف البشر على الأرض . فأين إذن القائلون أن الفضيلة أمر صعب ممتنع وأما الشر فقريب المنال؟ ان بولس ينقض رأيهم بقوله : «إنَّ ضيقنا الحالي الخفيف ينشيء لنا ثقل مجد أبدياً لا حدّ لسموّه» (٢ كو ٤ :١٧) فاذا كانت الضيقات خفيفة لديه فبأولى حجة المسرات .

١ – تذليله للصعوبات وسروره بالمحن

إنّ أدعى شيء إلى العجب فيه ليس عدم شعوره بمشقّة الفضيلة لفرط غيرته عليها ، بل عدم سعيه إلى الفضيلة بحافز المكافأة . نحن لا نتجشّم الأتعاب لأجل الفضيلة حتى ولو وُضعت المكافآت بازائنا . أما هو فيحب الفضيلة حباً شديداً غير ناظر إلى الجائزة المرتّبة عليها . لقد كان سهلاً لديه تخطِّي الصعوبات التي يعتبرها الناس عقبة تحول دون ممارستها ، وما كان يوماً ليتعلَّل بضعف الجسد ولا بوفرة الأشغال ولا بجَوْر الطبيعة ولا بشيء من الأشياء . ومع ان الهموم كانت تتنازعه أكثر من كل القوّاد والملوك فقد كان يتقدّم كل يوم بعزيمة صقيلة وبالرغم من التفاف المخاطر حوله . وهذا ما يتبيّن من قوله : «إني أنسى ما ورائي وامتدُّ إلى ما أمامي» (في ٣ :١٣) وبينما هو في انتظار وفاته كان يدعو الآخرين إلى مشاركة فرحه قائلاً : «افرحوا أنتم أيضاً وابتهجوا معي» (في ٢ :١٨) وفيما كانت الأهوال والشتائم والإهانات تكتنفه إذا به يجذل طرباً ويكتب إلى أهل كورنثس : «اني أرتضي بالأوهان والشتائم والاضطهادات» (٢ كو ١٢ : ١٠) وهي التي قد دعاها أسلحة البرّ دلالةً على أنه كان يجني منها أعظم الفوائد وكان يتمتّع بها فلا يمدّ الأعداء إليه أبداً . ألا انظروه وهو يُجلَد ويُشتَم ويُهان كأني به ينصبُ في كل بقعة من الأرض علَماً ويتنقَّل فَخوراً ثملاً بخمرة الانتصار ، شاكراً لله وقائلاً : «شكراً لله الذي يُظفِرنا كل حين» (٢ كو ٢ :١٤) لقد كان يسعى ، لأجل الإنجيل ، وراء العار والشتيمة أكثر مما نسعى وراء الكرامة ، ويشتهي الموت أكثر مما نشتهي الحياة ويَنشُد الفقر أكثر مما ننشد الغنى ويهوى الأتعاب أكثر مما يهوى الآخرون الراحة ويسترسل إلى الحزن فوق ما يندفع غيره إلى الأفراح . وكان يطيب له الدعاء لأعدائه فوق ما يطيب لنا الدعاء عليهم . فشتّانَ ما بين

أشواقه وأشواقنا ! ... لقد قلب نظام الطبيعة أو بالحري نحن قد قلبنا ذلك النظام وأما هو فحافظ عليه كما وضعه الله الخالق. فرغائبه تتمشى على سنَن الطبيعة بخلاف رغائبنا ونزعاتنا. وما سبب ذلك؟

٢ - حب المسيح فوق الجميع

ان بولس، ولو انه بشر، كان ينزع إلى الرغائب الشريفة دون سواها. أمر واحد كان يروّعه فيهرب منه وهو اهانة الله لا غير. ولا شيء كان أشهى لديه من إرضاء الله. وهذا القول ينطبق لا على الأمور الحاضرة فقط بل على المستقبلة أيضاً. فلا تحدّثه عن المدن ولا عن الشعوب ولا عن الملوك ولا عن الجيوش ولا عن الأسلحة ولا عن الأموال ولا عن ولاية ولا عن سلطة : فإن بولس لم يعتبرها حتى ولا كنسيج العنكبوت ! بل انتقِلْ به إلى ما في السماوات وعندئذٍ ترى كيف اضطرم حبّه للمسيح. ان هذا الحب قد سحر فؤاده فلم يعد يلتفت إلى مقام الملائكة ورؤساء الملائكة ولا إلى أي شيء آخر، لأنه إذا كان يحوي في داخله أعظم الأشياء أي حبَّ المسيح احتسب نفسه أسعد خَلق الله قاطبة. فبدون هذا الحب لا يروم أن يكون في رتبة الملائكة أو الرئاسات أو السُّلطات. ولكنه، مع هذا الحب، يؤثر أن يكون من أحقر البشر بل من القوم الهالكين على أن يكون من عِلْية الناس وأشرافهم بدونه. فالحرمان من ذلك الحب هو العذاب الوحيد في نظره، هو جهنم، هو العقاب الرائع، هو الشرّ الذي لا يُطاق. أما الحصول عليه فهو النعيم، هو الحياة، هو العالم، هو الملائكة، هو الحاضرات، هو المستقبلات، هو المُلْك، هو تمام الوعود، هو الخيرات التي لا تحصى. وكل ما يؤدي إليه فبولس لا يعتبره شيئاً ولا يُحْدِث في نفسه لا حزناً ولا فرحاً. بل انه لا يأبه لكل المنظورات كما لا يأبه للعشب اليابس. ينظر إلى الحكام الظالمين وإلى الشعوب الثائرة نظرَهُ إلى بعوض حائم... الموت والعقوبات والأعذبة المبرّحة ما دام يكابدها لأجل المسيح فإنما هي لعب أولاد. انه يتشوّق إليها، انه يفتخر بقيوده أكثر مما لو عصَبَ هامته بتاج نيرون. كان يسكن في السجن سكناه في السماء ويتلذّذ بالجراح والجلدات أكثر من أولئك الذين يتهافتون على المكافآت. لم يكن يحب الشدائد أقل من الجوائز لأنه كان يعتبر الشدائد خير جائزة له. ولذلك كان يدعوها نعمة وعطية كريمة. تقصَّ جيداً تجدْ أن جائزته الوحيدة هي أن ينحلَّ ليكون مع المسيح (في ١ :٢٣). أما التلبُّث في الجسد فعناء وجهاد، بيد أنه يفضله ويزعم أنه أشد لزوماً. لقد

كان يشعر أن الانفصال عن المسيح إنما هو جهاد ومشقّة بل أشدُّ جهادٍ ومشقّة ، وأن الاتصال به هو خير ما تتوق إليه نفسه. ومع ذلك فقد آثر الانفصال عن المسيح لأجل المسيح. – وربَّ قائل يقول : وما فضله في ذلك إذا كان يستعذب كل ما يعانيه لأجل المسيح؟ أجيب أن فضله قائم في هذا وهو أنّ ما ينشئ لنا غماً وجزعاً هو نفسه كان ينشئ له لذة عظمى.

٣ – حنانه على النفوس

وما لي والتكلم عن أخطاره وشدائده الأخرى؟ فلقد كان في غمٍّ مستمرّ ولذلك هتف يوماً : «من يمرض ولا أمرض أنا ومن يُشكَّك ولا أحترق أنا؟» (٢ كو ١١ : ٢٩) – وقائل ان غَمَّه قد مازجهُ بعض اللذة : فنحن نرى كثيرين ممن فُجعوا بأبنائهم إذا تُركوا وشأنهم يذرفون الدموع السخينة فانهم لا يلبثون أن يشعروا ببعض التعزية. ولكنهم يتألمون كثيراً إن زُجروا عن البكاء. ولما كان بولس يبكي ليلَ نهار كان لا بدّ أن يشعر بالتعزية والسلوان. فأقول أنه ما من أحد تفجَّع على بلاياه كما تفجَّع بولس على بلايا الآخرين. أيّ كرْبٍ كان مستحوذاً عليه حين تمنَّى أن يسقط هو من المجد العلوي لكي يخلص اليهود بعدما رُذلوا! من الواضح أن عدم خلاصهم كان يؤلمه ألماً شديداً وإلا لما تمنَّى ذلك التمنّي. فكأنه يعتبر إبساله أخفَّ ويلاً وأحبَّ إليه من هلاك قومه. وما كان يتألم فحسبُ بل كان يصرخ قائلاً : «إن لي غماً شديداً ووجعاً في قلبي لا ينقطع» (رو ٩ : ٢).

٤ – شرف نفسه وعلوّ قدرها

فهذا الرجل الذي توجَّع على الدوام لأجل جميع قاطني البسيطة ولأجل جميعهم على الاطلاق : لأجل الأمم ولأجل المدن ولأجل كل واحد بمفرده ، بأي شيء يمكن أن نشبِّهه؟ أبالحديد أم الالماس؟ وماذا نقول عن نفسه؟ أمن الذهب صيغت أم من الالماس؟ لعمري انها لأصلب من الألماس وأكرم من الذهب والحجارة الكريمة. انها تفوقها متانةً ونفاسة. فبأي شيء نشبِّهها إذن؟ اني لا أجد لها مثيلاً بين الجواهر الهيولية. فلو أمكن أن يُسبك الذهب ألماساً والألماس ذهباً لوجدنا لتلك النفس تمثيلاً أكثر مقاربة. ولكن ما لي والتشبيه بالذهب والألماس. ضعوا كل العالم في كفَّة ميزانٍ ونفسَ بولس في الكفّ الأخرى فترون أن نفس بولس هي الراجحة! إذا كان الذين ساحوا في

جلود الغنم والمعز وتاهوا في كهوف الأرض وانتشر صيتهم في بقعة صغيرة من الدنيا قد قال بولس عنهم: «ان العالم لم يكن مستحقاً لهم» فما أجدرنا نحن بأن نقول عنه إنْ لا شيء من الأشياء يعادله. وإذا كان العالم لا يوازيه فمَن يوازيه؟ لعلّها السماء؟ انها لأحقر من أن تعادله! لأنه إذا كان قد فضَّل محبة مولاه على السماء وعلى كل ما في السماوات فأحرِ بالسيد الذي يفوقه صلاحاً على قدر ما يفوق الصلاحُ الشر، أن يفضِّله على ألوف من السماوات.

ان الله لا يقيس حبّه على محبتنا بل يحبّنا حبًّا جمًّا يَقصُر كل إنسان عن وصفه. فانظر ما أعظم الشرف الذي أولاه بولسَ قبل يوم القيامة. لقد خطفه إلى الفردوس وأصعده إلى السماء الثالثة وأشركه بأمور لا يحلّ لإنسان أن ينطق بها. وذلك بكل حق. لأنه وهو سائر على الأرض كان يسلك في كل شيء كأنه يساير الملائكة فيما كان مقيّداً بقيود الجسد المائت كان متحلياً بطهارتهم وكان يبذل جهده لكي لا يكون أحط منهم في شيء. ولعمري انه كان يجوب المسكونة كطائر ذي جناح، ويزدري بالألقاب والأخطار كأن لا جسم له، ويزدري ما على الأرض كأنه قد ظفر بالسماء، وكان متيقظاً على الدوام فكأنه يتردَّد مع قوات العادمي الأجساد.

٥ – غيرته الشاملة

لقد وُكل إلى الملائكة الاهتمامُ ببعض الشعوب ولكن لا أحد منهم دبّر شؤون الشعب الموكول إلى حراسته كتدبير بولس للمسكونة بأسرها. ولا تقلْ لي أن بولس ما كان يدبّر كل شؤونهم بنفسه. هب ما تقوله صدقاً. ولكن إذا لم يقم بها كلها بذاته فلا يحق لنا أن ننقص شرفه وفخره لأنه في الحقيقة قد أهَّب نفسه لتلك النعمة العظيمة (إذ جعلها في مستوى التضحية الكاملة التي تتطلبها). ان ميخائيل كان يُشرِف على الأمة اليهودية وأما هو فعلى البرّ وعلى البحر وعلى الأرض كلها عامرة وغير عامرة. لا أقول ذلك لكي أغضَّ من كرامة الملائكة، معاذ الله! بل لأُبيِّن أن بولس وهو إنسان كان قادراً أن يكون مع الملائكة وأن يقف إلى جانبهم. ولكن لِمَ لم يُقَم الملائكة على هذه الخدمة؟ – لكي لا يكون لك عذرٌ إذا توانيت ولا تتعلّل بتفاوت الطبيعة فتعمد إلى الراحة. زدْ على ذلك أن العجب يظهر هكذا بأعظم مجاليه: أليس أمراً عجيباً وغريباً أن تبرز الكلمة من لسان ترابي فتطرد الموت وتكسر قيود الخطايا وتقوّم الطبيعة المخلَّعة وتجعل الأرض سماء؟

٦ – الاقتداء به

لذلك أنا أتحيَّر من قدرة الله وأتعجَّب من غيرة بولس لأنه تقبَّل مثل هذه الموهبة وأهَّل نفسه لها. واني أرجوكم أن لا تقنعوا بالتعجّب فقط بل أن تقتدوا بمثال الفضيلة هذا. وهكذا يتيسّر لنا أن نشاركه في نفس الأكاليل. واذا أخذك العجب عند سماعك أنك ستنال نفس الجوائز إن أقبلت على نفس المآثر فاسمعه يقول لك بلسانه: «قد جاهدت الجهاد الجميل وأتممت شوطي وحفظت الإيمان. وإنما يبقى اكليل العدل المحفوظ لي الذي يجزيني به ذلك اليوم الرب الديّان العادل، لا إياي فقط بل جميع الذين يحبّون تجلّيه أيضاً» (٢ تي ٤: ٧ – ٨) أرأيت كيف يدعو الجميع إلى نفس الشركة. فبما أن نفس المكافأة محفوظة لنا جميعاً فلنسعَ جهدنا لكي نستحق الخيرات التي وُعدنا بها. ولا نكتفِ بأن ننظر إلى كبر وعظم مآتيه الجليلة بل لننظر إلى شدّة عزيمته التي أنالته تلك الحظوى. ولا يندّ عن بالنا أنه مماثل لنا في الطبيعة وقد شاركنا في كل الأشياء. هكذا تبين لنا أصعب الأعمال سهلة وخفيفة، وبعد أن نقضي هذا الزمان القصير نبلغ إلى تلك الحياة التي لا هرم فيها ولا موت، بنعمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقدرة الآن ودائماً وإلى دهر الداهرين آمين.

ترجمة

الأب كيرلس حداد المخلصي

٩

عِظَة

في مديح القديس بولس

١ – طوبى لبولس فلقد أظهر كلَّ ما يستطيعه إنسانٌ من اتّقاد الغيرة وتمكَّن من أن يطير إلى السماوات ويرتفع فوق الملائكة ورؤساء الملائكة وجميع القوات السماوية. فهو يدعونا أحياناً بمثَله لنقتدي بيسوع المسيح. قال: «اقتدوا بي كما أنا أقتدي بالمسيح» (١ كور ١١: ١) وأحياناً لا يذكر نفسه فيعمد إلى أن يرفعنا إلى قرب الله إذ يقول: «كونوا مقتدين بالله كأبناءٍ أحبّاء» (أفسس ٥: ١) ثم يضيف إلى هذا الكلام ما يبيّن أنه لا شيء يجعلنا على مقربةٍ من ذلك المثال الإلهي، إلَّا أن ننفع الناس ونهتمَّ جدَّ الاهتمام بما يجدي اخوتنا

فيقول على أثر كلامه «اقتدوا بي» «أسلكوا في المحبة كما أحبَّنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا» (أف ٥ : ٢) ثم يشرع في الكلام على المحبة إذ هي الفضيلة التي تقرّبنا إلى الله أكثر من سواها. فمهما كانت الفضائل الأُخَر فهي تُحسب تالية للمحبة. لأن بقيّة الفضائل هي من خصائص الإنسان كمجاهدتنا للأهواء الرذْلة ومحاربتنا للشراهة وللخجل أو للغضب. وأما المحبة فهي مشتركة بين الله وبيننا. ولذلك قال يسوع المسيح: «صلُّوا لأجل مَن يُعنّتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات» (مت ٥ : ٤٤ و٤٥).

٢ — وإذا كان القديس بولس على يقين من أنّ المحبة هي أصلٌ لكل الفضائل، اجتهد على الخصوص أن يمثّلها في ذات شخصه، ولهذا السبب لا أحد أحبَّ أعداءه أكثر مما أحبَّهم هذا الرسول ولا أحد جاراه في الإحسان إلى مَن تعمَّدوا الإساءة إليه، ولا أحد تألم لأجل مضطهديه كما تألَّم هو. وماذا تُرى يهمّه الألم؟ إنه لم يكن يرى إلاّ الصلة الطبيعيّة التي تصله بمواطنيه. فكلَّما ثار ثائرهم عليه ازدادت رحمته لغضبهم كمثَل أبٍ رأى ولده شارداً باندفاع جنون فهو في غاية التأثر شفقةً على حاله ويوالي ذرفَ الدموع بغزارة أوفر جداً مما يوفّر على نفسه شتائمه وضرباته حينما تهيج فيه هائجات جنونه. هكذا الرسول العظيم كان يقيس ثورة المسيئين إليه بمقياس شدَّة أهوائهم الهيَّاجة فيعطف عليهم بحنوٍّ كثير ويبذل لهم كل عناية وخير. فاسمعوه كيف يعذر بلطفٍ جمٍّ وحنانٍ وافر أُناساً جلَدوه بالسياط خمس مرّات، ورجموه وقيَّدوه بالسلاسل وكانوا ظِماءً إلى دمه وهم يشرهون كل يوم إلى تقطيعه إرَباً إرَباً. قال: «إني أشهد لهم أنَّ فيهم غيرةً إلاّ أنها ليست عن معرفة.» (رومة ١٠ : ٢) ثم وبَّخ المؤمنين الذين يطعنون في اليهود فقال لهم: «إنها من أجل الكفر قد كُسِرت الفروع وأنت بالإيمان تثبت. فلا تستكبر بل خَفْ. فإنه وان كان الله لم يُبقِ على الفروع الطبيعية، فلعلَّه لا يُبقي عليك أنت أيضاً. فانظر إذن لطف الله وشدَّته. أما الشدَّة فعلى الذين سقطوا وأما لطف الله فلَكَ إن ثبتَّ في لطفِهِ وإلاَّ فتُقطَع أنت أيضاً.» (رومة ١١ : ٢٠، ٢١ و٢٢) وإذ كان يعلم أن الله أبرمَ قضاءه على اليهود عمِل ما وسعَه أن يعمل. فهو يتحسَّر لحالتهم تحسُّراً غير منقطع ويئنُّ متوجّعاً ويوبّخ الذين يهينونهم لعثرتهم وسقوطهم ويجتهد ما أمكن، أن يجد لهم ولو ظلاًّ من المعذرة. وإذ لم يقوَ على إسلاس عنادِهم وتليين قسوتهم، لجأ إلى الصلاة. قال: «أيها الإخوة إنّ بغيةَ قلبي وابتهالي إلى الله هما لأجلهم لكي يخلصوا» (رومة ١٠ : ١) ثم يجعل فيهم آمالاً طيّبةً ويقول لهم حذَر أن يموتوا في يأسهم. «إنّ مواهب الله ودعوته هي بلا ندامة» (رومة ١١ : ٢٩) كلُّ هذا يدلُّ على أنه رجلٌ مهتم غاية الاهتمام بخلاص اليهود

ويتشوَّق إليه تشوُّقاً متلهّباً فيقول: «سيأتي من صهيون المُنقذ ويصرف النفاق عن يعقوب» (رومة ١١: ٢٦) وحينما يزداد الغمُّ المتغلغل فيه لنظره جحودهم وعنادهم، يجتهد أن يجد في كل مظنَّة، شيئاً يلطّف عناءه فيقول مرَّةً: «سيأتي من صهيون المنقذ ويصرف النفاق عن يعقوب» ويقول حيناً: «كذلك هؤلاء (اليهود) كفروا الآن لأجل رحمتكم حتى ينالوا هم أيضاً رحمةً.» (رومة ١١: ٣١) هكذا النبي إرميا حين كان يجهد فوق المعقول أن يزكّي اليهود والأثمة، فيقول تارةً: «إن كانت آثامنا تشهد علينا يا ربّ فلأجل اسمك اْفعَلْ فإنَّ ارتدادنا قد كثرت وإليك خطئنا» (إرميا ١٤: ٧) ويقول مرةً: «إني عالمٌ يا ربّ أنه ليس للبشر طريقه وليس للإنسان أن يسير ويسدّد خطواته.» (إرميا ١٠: ٢٣) ويقول كصاحب المزامير: «إنه عالمٌ بجبلتنا وذاكر اننا تراب.» (مزمور ١٠٢: ١٤) تلك عادةٌ متَّبعة كثيراً وهي أنه حينما يُشفع للخطأة ولو لم يكن للشافع حجة متينة، يتخيَّل معها للمشفوع له ظلاًّ من التبرير وهو لا يستطيع أن يعبّر عمّا يريده تعبيراً صحيحاً موافقاً لحقيقة العقيدة، يستعين ذلك الشافع بوجوهٍ من الكلام ليعزّي الناس في ما يعانونه من الحزن على إخوانهم الذين يشاهدونهم هالكين. إذن لا نبحثنَّ عن صحة الأفكار في مثل هذه الأفكار في مثل هذه المواقف الخطابيّة الموجبة علينا أن نعبّر عن حالةِ نفسٍ حزينة تعبيراً نجتهد فيه أن نبرّر الأثمة.

٣ — وهل كان القديس بولس يكتفي بأن يُظهر شفقته على اليهود دون سواهم؟ انه كان ذا رقَّةٍ ولطفٍ لا حدَّ لها، فيرثي لجميع الناس كما يرثي لأهل مِلَّتِه. وإليكم ما يقوله لتيموثاوس: «وعبد الرب يجب عليه أن لا يشاجر بل يكون ذا رفقٍ نحو الجميع، قادراً على التعليم صبوراً مودّباً بوداعةٍ المخالفين، عسى أن يؤتيهم الله التوبة لمعرفة الحقّ فيفيقوا من فخّ إبليس الذي اصطادهم لقضاء مشيئته.» (٢ تيموثاوس ٤: ٢٤ الخ).

فهل تريدون أن تعلموا بأيّ تحفُّظ يكلّم الخطأة؟ فاْسمعوا ما يقوله في رسالته إلى أهل كورنثس: «إني أخشى إذا أتيتكم أن لا أجدكم على ما أحبّ» (٢ كور ١٢: ٢٠) وبعد قليل يضيف إلى كلامه هذا قولَه: «وأخشى أن يذلّني إلهي بينكم إذا قدمتُ إليكم مرة أخرى وأنوح على كثيرين من الذين خطئوا آنفاً ولم يتوبوا عما صنعوا من النجاسة والزنى والفِسق» (٢ كور ١٢: ٢١) ويقول في رسالته إلى أهل غلاطية: «يا بَنِيَّ الذين أتمخَّض بهم مرةً أخرى إلى أن يتصوّر المسيح فيهم.» (غلا ٤: ١٩) واسمعوا ما يقول في شأن الزاني الكورنثي وكيف يجزع لحالته جزَعَ المجرم على نفسه وكيف يسترحم أهل كورنثس ليعطفوا على ذاك الرجل فيقول لهم: «أسألكم أن تؤكّدوا له محبتكم.» (٢ كور ٢: ٨) ولما أَبْسَلَهُ من شركة المؤمنين لم

يفعلْ إلاّ وهو ذارفٌ دموعاً غزاراً. قال: «فاني من شدّة الكآبة وكرْب القلب كتبت إليكم بدموع كثيرة لا لِتغتمُّوا بل لتعرفوا ما عندي من المحبة وبالأكثر لكم» (٢ كور ٢:٤) ويقول: «صرتُ لليهود كيهوديٍّ وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس... وصرتُ للضعفاء ضعيفاً لأربح الضعفاء وصرتُ كُلاًّ للكلّ لأُخلّص الكلّ» (١ كور ٩:٢٠). ويقول في موضعٍ آخر: «... المسيح الذي نبشّر به ناصحين لكل إنسان... لكي نجعل كل إنسان كاملاً في المسيح.» (كولسي ١:٢٧ و٢٨) أفتَرَوْنَ هذه النفس المتعالية عن كل الأرض؟ لقد كان يتشوّق إلى أن يقرّب كل البشر إلى الله، وقد فعل من ذلك ما أمكنه فعلُه كأنه أبٌ لكل العالم. لقد كان يهتم ويقلق ويسعى ويبادر جهده لِيُدخل جميع الناس إلى الملكوت السماوي، ملاطفاً البعض، محرِّضاً البعض الآخر، مصلّياً متوسّلاً، واعداً، مهدّداً الأبالسة، طارداً لمفسدي النفوس، عاملاً في ذلك بذات شخصه وبرسائله ومواعظه وأعماله، وبتلاميذه، منهضاً للساقطين، مثبّتاً للواقفين، شافياً ذوي العاهات، منشّطاً للمتوانين، مخوّفاً بتهديداته أعداء الإيمان أو راعباً لهم بنظراته وهو في كل محل كقائد حرب مجرَّب، يحمي الطليعة والميمنة والميسرَة والسَّاقة والمعدَّات الحربيّة وكل قائد مئة إلى كل مدافِع وكل جندي وكل حارس حتى لتعمَّ عنايته جميع الحملة رعايةً للجيش كلِّه.

٤ — ولم يكتفِ برعاية الأمور الروحية بل ضمّ إليها عنايته بالمسائل الزمنيَّة. فأظهر في هذه كما أظهر في تلك غيرةً وعنايةً واعية. فآسمعوا ما كتبه إلى مجموع شعبٍ في شأن امرأة واحدة: «أستودعكم فَيبَة أختنا التي هي خادمة الكنيسة التي في كنكريَّة، فآقبلوها في الرب كما يليق بالقديسين وقدّموا لها بكل ما تحتاج إليه منكم» (رومة ١٦:١ و٢) وكتب إلى أهل كورنثس: «وأسألكم أيها الإخوة بما أنكم تعرفون بيت استفاناس وفرْتناتُس وأكائِكس، إنهم باكورة أكائية وقد خصَّصوا أنفسهم لخدمة القديسين، أن تكونوا مطاوعين لمثل هؤلاء ولكل مَن يعاون ويتعب» (١ كور ١٦:١٥ و١٦) والخلاصة أنَّ تلك عادة القدّيسين أي أن لا يهملوا في صداقتهم لبعض الناس، أن يؤدّوا إليهم أمثال هذه المعونات. هكذا النبي أليشاع لم يكتفِ بالإعانة الروحية للمرأة التي قبلته في بيتها، بل اهتمَّ بمساعدتها في الحاجات الزمنيَّة دالاًّ على عرفانه لإحسانها. فأمر غلامه بأن يقول لها من قِبَله: «إنَّك قد تكلَّفتِ من أجلنا هذه الكلفة كلّها فماذا تبتغين أن يُصنَع لكِ؟ هل من حاجة أُكلِّمُ فيها الملك أو رئيس الجيش؟» (٤ ملوك ٤:١٣) ولِمَ نتعجَّب من أن القديس بولس قد استعمل مثل هذه التوصيات في رسائله حين استخدامه لبعض الناس، فلم يرَ منقصةً له أن يهتم بنفقات سفرِهم ويذكرها

للمؤمنين في رسالة؟ وقال لتيطس: «اجتهد أن يسبقك في السفَر زيناس معلّم الناموس وأبلّس وأن لا يُعوزهما شيء. وليتعلّم ذوونا أن يقوموا بالأعمال الصالحة للحاجات الضرورية» (ف ٣: ١٣ و١٤) ولكن إذا كان يكتب بإلحاح كثير في التوصية بأشخاص يستدعيهم للخدمة، فبأولى حجّة هو يساعدهم بكلّ معونة حينما يراهم في خطر. انظروا حينما كتب إلى فيلمون، بأيّ غيرةٍ يحدّثه عن أونيسيموس وكيف أنّ رسالته تلك منسوقة بلباقة وحافلة بالعطف والحنان. كيف يكون استعداد إنسانٍ لمعونة باقي البشر وهو الذي لم يخشَ أن يكتب رسالةً خصوصية لمعونة عبدٍ واحد، آبقٍ كان قد سرق مولاه؟ فالشيء الوحيد الذي كان يعتقده مخجلاً له هو أن يتوانى في أقلّ مسألة لها صلةٌ بخلاص الناس. ذلك هو السبب لقيامه بالعمل والتصرّف لإسعاف من هو منصرفٌ إلى العناية بخلاصهم حتى لم يُمسك عنهم توصيته ولا ماله ولا شخصه عينه وهو ذلك الرجل الذي اندفع مراراً إلى أن يموت، فبأولى حجّة هو يبذل المال لو حوى مالاً. ماذا أقول؟ لو حوى مالاً! إنه لم يوفّر المال ولم يُحرز منه شيئاً. لا تظنّوا هذا الكلام لغزاً، بل تسمعوه هو نفسه يقول: «وأنا بكل سرور أنفق النفقات بل أنفق نفسي لأجل نفوسكم.» (٢ كور ١٢: ١٥) وإذ كان في حديثٍ له مع أهل أفسس قال لهم: «أنتم عالمون بأنّ هاتين اليدين كانتا تخدمان حاجاتي وحاجات مَن كان معي.» (أعمال ٢٠: ٣٤).

٥ — فهذا الرجل العظيم إذ هو مشتعلٌ بنار المحبة التي هي أولى الفضائل، كان له قلبٌ أشدُّ من لظى النار التهاباً. وكما أنَّ الحديد إذا أُلقي في النار يعود كلُّه ناراً، هكذا بولس المتلهّب بنار المحبة قد صار كلّه محبَّة. وإذ كان نظير أبٍ عمومي لجميع مَن على الأرض، اقتدى بكل الآباء أو بالأحرى تفوَّق عليهم أيًّا كانوا، في الاهتمام بحاجات الناس الروحية والزمنية المادية. فأقواله وماله وشخصه وحياته عينُها كان يبذلها جميعها في سبيلهم. وبوجيز الكلام أقول: إنه بذلها في سبيل الناس أجمعين لأنه أحبَّهم ولذلك كان يدعو المحبة ملءَ الشريعة ورباط الكمال وأُمَّ الخير كلِّه وأول كل الفضائل ونهايتها. فممَّا قاله في وصفِها: «إنما غاية الوصية المحبة من قلبٍ طاهر وضمير صالح.» (١ تيموثاوس ١: ٥) وقال أيضاً: «إنّ هذه وصية الله. لا تزنِ، لا تقتُل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تشتهِ، وما كان من الوصايا غير ذلك، إنما هي كلُّها متضمّنة في هذه الكلمة، أن أحبِب قريبك كنفسك.» (رومة ١٣: ٩).

٦ — فبما أنَّ المحبة هي أول كلّ الفضائل ونهايتها وتتضمَّن كل ما عداها من

الفضائل، فلنجتهدْ في أن نقتدي بالرسول العظيم في إحراز هذه الفضيلة التي رفعَتْه إلى أوج الكمال. لا تحدِّثوني بذكر الموتى الذين أحياهم ولا بذكر البُرص الذين شفاهم (إن الله لا يطلب منكم هذه الأشياء) وإنما احرزوا المحبة، محبةَ بولس فتنالوا إكليلاً كاملاً. مَن ذا الذي يقول هذا؟ يقوله علاّمة نفسه الذي آثر هذه الفضيلة على صُنع الآيات والعجائب وعلى كل ما سواها. وبما أنه مارسها بأسلوب ممتاز فقد اختبر ما لها من القدرة الفعَّالة خبرةً كاملة. وأعيدُ ما سبقتُ فقلتُه إن المحبة هي التي رفعَتْهُ إلى أوج الكمال وجعلَتْه أهلاً لمحبة الله له. ولذلك كان يقول: «تنافسوا في المواهب العظمى وأنا أُريكم طريقاً أفضل جداً.» (١ كور ١٢: ٣١) يشير إلى المحبة التي يلي كلامه فيها ويبيِّن أنها أسهل طريق لتحصيل الفضائل.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)م

١٠
عِظَة
في جنون القديس بولس

١ – يقول القديس بولس في رسالته الثانية إلى أهل كورنثس: «ليتكم تحتملون «جنوني» قليلاً» (٢ كور ١١: ١).

لا ريب في أني أحبُّ جميع القديسين ولكني أحبُّ حبًّا خصوصياً الطوباوي بولس، ذلك الإناء المختار، ذلك الصُّورَ السماوي (البوق) وذلك الصديق العزيز للعروس الإلهي. فإذا تكلَّمتُ هكذا وإذا بيَّنتُ ما أشعر به شديداً من حبّي له فذلك لرغبتي في أن تقاسموني أنتم أيضاً هذه العاطفة. إنّ الناس الذين تستولي عليهم المحبة الجسدية لا يتجرَّأُون على التصريح بها وهم محقُّون في ذلك لأن نتيجة هذا التصريح تعود عليهم بالخجل المزري وإلقاء الشكّ في نفوس السامعين. وأمّا الأشخاص الذين تتلهَّب فيهم المحبة الروحية والذين لا يفتأون يُعلنون محبتهم تلك فذلك الاعلان الساطع النور

يؤتيهم هم أنفسهم خيراً عظيماً ويُؤتي سُمَّاعهم أعظم خير. فاذا كانت أولى هذه العواطف مجرمةً أثيمة فالثانية هي سامية مجيدة. الأولى هي فرحٌ في النفس يوجب الخجل وأما الثانية فتملأها فرحاً وتهلُّلاً وجمالاً. إحداهما تُدخل حرباً إلى القلب حيث تتملك وأما الثانية فتبعد الحرب عنه إذا كانت ثائرة فيه وتجعله مملكةً للسلام البالغ. من إحدى العاطفتين لا تستنتج فائدة على الاطلاق سوى حماقات الإسراف في النفقات وخسائر في الأموال وتشويش نظام الحياة والانهدام التامّ في العيال والبيوت. ولكنّ من العاطفة الثانية أرباحَ كنوزٍ من عظائم الاستحقاقات ووفرةً صالحةً من الفضائلِ. ومن جهةٍ ثانية نرى أنّ المأخوذين بجمال الجسد والذين توقِد فيهم بعضُ ملامحه شهوةً بليدة خاملة إذا كانوا هم على شَوَهٍ في خلقتهم مستنكر، لا يجدون دون شكٍّ في هذه الشهوة علاجاً لشَوَهِهم الذي يظهر فيهم وقتئذٍ على غايةٍ من البشاعة والاستنكار. وذلك كلّه على عكس ما يُرى في الحبّ الروحيّ. فالذي يُولَع بالقداسة وبجمال وبهاء وسنى النفس فعلى افتراض أنه هو مستنكر الهيئة ومشوَّهاً وعلى افتراض أنه معدودٌ آخر إنسان في البشر، إذا ثبت في حبِّ القديسين هذا فلا يعتِّم أن يصير شبيهاً بمن يحبُّه: وفضلاً عن ذلك فإنَّ صنيعه هذا يعدُّ فعل محبة لله لا يُحوج ولا فيه داعٍ لعلاج عضوٍ مبتور ولا لإصلاح شَوَهٍ دميم بل انّ النفس إذا كانت على قبح مستنكر يزول منها قبحها، ويتحوَّل إلى بهاء وجمال. إن جمال الجسد لا يؤتي فائدةً على الإطلاق حالةَ أنَّ جمال النفس يؤتي خيرات عظيمة حتى ليجذب إلى المولع به محبةَ الله عينه. لذلك تغنَّى داود في مزاميره بهذا الجمال فقال: «إسمعي يا بنت وانظري وأميلي أُذُنكِ. إنسَيْ شعبَكِ وبيتَ أبيكِ فيصبو الملك إلى حُسنِك.» (مزمور ٤٤: ١١ و١٢) فإنه تكلَّم عن حُسْنِ النفس ذلك الحُسن الناتج عن التقوى والفضيلة.

٢ — فبما أنَّ الثمار المستنتَجة عن شركة القديسين لها هذه القيمة الجُلَّى، أدعوكم لأن تقاسموني حبِّي ولنحمل كلنا أعظم عاطفة حبّ للرسول القديس. فاذا اخترق هذا الحبُّ نفسكم وأوقد فيها لهيبَهُ المنير يكون أنه إذا وجد في قلوبكم أشواكاً وصخوراً وقسوةً وعدم إحساس أحرق من جهة وليَّن من جهةٍ وحوَّل فيها الأرض القاحلة إلى أرض ثريَّة مخصبة وصالحة لقبول الزرع الإلهي. لا يَقُلْ لي أحدٌ منكم إنَّ بولس ليس هو الآن حاضراً ههنا فأعيُننا لا تراه وغير ممكن أن يُحبّ مَن لا يُرى. لأن هذا الحبّ الروحي لا تقف الحواجز في سبيله. أجل نستطيع أن نحبّ بولس ولو غائباً عنَّا. نستطيع أن نُعزّه ولو أننا لا

نشاهده. ذلك لكثرة ما تقع عليه أنظارنا كل يوم من جروح فضيلته، من عديد الكنائس التي أسَّسها على كل الأرض ومن أبنية الكفر التي هدَّمها والشرّ الذي أقام مكانه الخير في الحياة البشرية والضلال الذي أبعد منآه وهياكل الأوثان التي قلبها ومعابدها التي أغلقها والشياطين التي ألْجمَها فلم يعد يسمع لها صوت. فإذ كان لسان بولس يتلقّى الوحيَ قويَ على أن يهدم كل هذه الأشياء وأن يُوقد في الوقت عينه نار التقى المتلهّبة. وفضلاً عن تلك الأعمال تشهد لدينا رسائل الرسول المقدسة وهي الرسائل التي ترسم أمامنا صورة حقيقية لتلك النفس الطوباوية. فلنُقبل إذن على كتاباته بحماسةٍ وشوق كأننا نتفاوض بالحديث مع شخص بولس حاضراً ما بيننا ولنتبسَّط في التعاليم التي تتضمَّنها ولننفُذْ إلى قلب المعنى من هذه الكلمات أسمعنا إياها اليوم حيث قال: «ليتكم تحتملون جنوني قليلاً. إحتملوني فإني أغار عليكم غيرة الله.» (٢كور ١١: ١ و٢) ماذا تقول يا بولس؟ إنك أنت كنت تأمر أتباعك أن يسلكوا بالحكمة تلقاء الغير المؤمنين، إنك أنت سبقتَ فقلت: «اسلكوا بحكمةٍ من جهة الذين في الخارج وليكن كلامكم ذا لطفٍ مُصلحاً بملح حتى تعلموا كيف ينبغي أن تجاوبوا كل إنسان.» (كولسيّ ٤: ٥ و٦) إنك أنت كنت تتمنّى أن يكون الجميع شِباعاً من الحكمة الروحية، تقول الآن: «ليتكم تحتملون جنوني قليلاً.» ألم يكفِك أنك تفوَّهت ببعض كلمات تتضمَّن قليلاً من الحكمة حتى تدلّ عليها أتباعك وتلاميذك؟ ولم تقف عند حدٍّ أن تدلَّ عليها تلاميذك ولكنك أثبتَّها في رسائلك لتكون في معلوم السلائل البشرية جمعاء؟ إنكم ترونه فمن الواجب أن لا تنظروا في هذه الكلمات بقلّةِ المبالاة بل أن تفحصوا كلاً منها بانتباه فإذا لم يُتأمَّلْ في حقيقة لهجة بولس جرَّت سامعيها إلى الضلال وإنما إذا نُفِذَ باطن معناها كشفَت لنا عن الحكمة العميقة والفطنة العظيمة والعناية الفائقة البيان المتَّصِف بهنَّ الرسول.

٣ — ماذا تُرى يكون فكرُهُ؟ لقد قام وقتئذٍ بين أهل كورنثس كثير من الرسل الكذبة يزرعون المفاسد بينهم ويطعنون في بولس ويشوّهون بهتاناً وجهَ ما هو متنعّمٌ به من الإجلال في قُرب أتباعه. فيُظهرونه كمهزأةٍ ويلمزونه بأنه متباهٍ فخور. أولئك أُناسٌ نراهم مُلمِعاً إليهم مراراً في رسائله كقوله: «فإنَّا لسنا مثل الكثيرين الذين يَغشُّون كلمة الله.» (٢كور ٢: ١٧) وقوله في موضع آخر: «وفي كل شيءٍ احتذرتُ أن أكون مثقّلاً عليكم وسأحتذر.» (٢كور ١١: ٩) وقوله حيناً بعد أن لا يحيد عن هذه القاعدة: «حقُّ المسيح فيَّ. إنّ هذا الفخر لا يُحجَزُ عني في أقاليم أكائية» (٢كور ١١: ١٠) وحين يدلّ على سبب ذلك

يلمّح إلى أولئك التاعسين في المساق التالي: «لماذا؟ ألأني لستُ أحبّكم؟ الله يعلم وما أنا فاعلٌ سأفعله لأقطع العلَّة على الذين يطلبون العلّة ليُوجَدوا مِثلنا كما هم يفتخرون.» (ف ١١: ١١ و١٢) وقُبَيل هذا يحرّض أتباعه على أن لا يضطرُّوه إلى إظهاره لهم ما عنده من السلطان. قال: «ثم أسألكم.. وأتمنَّى أن لا أجترئ عند حضوري بتلك الثقة التي أُحسَب متجاسراً بها على قومٍ يحسبوننا نسلك بحسب الجسد.» (ف ١٠: ٢).

إنّ الأشخاص المشار إليهم في هذه الكلمات إذ كانوا يعملون على أن يتهكَّموا به تهكُّمَ بهتانٍ كانوا يقولون: إن رسائل بولس مشحونةٌ إدّعاءً وكبرياء حين أنَّ شخصه هو كان زريًّا ضعيفاً ومحتقراً. وزادوا على ذلك فقالوا حينما يصير إلى هنا لا يبالي أحدٌ به. وهذا ما يشير إليه هو نفسه بقوله: «فالآن لئلا أُحسَبَ مثل مهوّلٍ بالرسائل لأنه يقول قائلٌ إن الرسائل ثقيلة وقويّة وأمَّا حضور الشخص فضعيف وكلامه حقير.» (ف ١٠: ٩ و١١) وغبَّ ذلك يوآخذ أهلَ كورنثس على أنَّهم تهاملوا فأنحازوا إلى أولئك الأقوام فيقول لهم: «ألعلّي أتيت خطيئةً حين وضعتُ نفسي لترتفعوا أنتم؟.» (ف ١١: ٧) ثم يدفع تلك الشكوى عينها فيقول: «إنَّا كما نكون بالقول في الرسائل ونحن غائبون كذلك نكون بالفعل ونحن حاضرون.» (ف ١٠: ١١) إذن كان في كورنثس كثيرٌ من الرسل الكذبة فوصفهم بأنهم أهلُ فِتن وأكاذيب حين يقول فيهم: «لأنّ أمثال هؤلاء رسُلٌ كذبة وعَمَلَةٌ خدَّاعون يغيّرون هيئتهم إلى هيئة رسل المسيح ولا غروَ فإنَّ الشيطان نفسه يغيّر هيئته إلى هيئة ملاك نور، فليس بعظيم أن يتزيّا خدّامه بزِيِّ خدّامِ البرّ.» (ف ١١: ١٣ - ١٥).

وبما أنَّ أولئك الأشقياء بَثُّوا شروراً عدَّة في أتباعه بما كانوا يتفوَّهون به من الأراجيف في حقِّه وأنواع البهتان التي يروّجونها فيهم لتشويه سمعته لحدّ أن ينزلوه إلى ما ينحطُّ كثيراً عن مقام استحقاقه، اضطُرَّ إلى أن يكافحهم بعرضِ ما له من ألقاب المجد إذ لم تسمح له الفطنة والحالة هذه أن يلزم الصمت. إذن في حين أنه أخذ يحدّثنا عما خاض من الوقائع وعن عجائب إيحاآته وعن متاعبه الشاقّة. فرغبةَ أن يُظهر للجميع أنه مُكرَهٌ على ذلك الحديث الذي اندفع إليه بجدّة يصفه بأنه حديث جنون ولو أنه رآه لازماً ضرورياً ولذلك يهتف قائلاً: «ليتكم تحتملون جنوني قليلاً.» يريد أن يقول سآتي فعلاً موصوماً بالحماقة سأمدح نفسي وأتمجّد. ولستُ أنا سبب هذا التمدُّح والتمجُّد، إنما السبب هو أولئك الذين ألجأوني إلى هذه الضرورة. ولذلك أسألكم أن تحتملوني وتُلقوا التَّبِعَةَ على هؤلاء الذين دفعوني إلى ما دفعوني إليه.

٤ – لاحِظوا فطنةَ بولس. فبعد أن قال: «ليتكم تحتملون جنوني قليلاً. إحتملوني فاني أغار عليكم غيرةَ الله.» لا يندفع من فورِه ليمدح نفسه بل يقدّم على مدائحِه بعض كلمات فيقول: «إني أعيد كلامي ولا يحسبني أحدٌ جاهلاً وإلاّ فاقبلوني ولو كجاهل.» (٢ كور ١١: ١٦) وفي هذه الكلمة لا يتصل أيضاً إلى مديح نفسه بل يكتب قبل ذلك هذه الكلمات: «ما أتكلّم به لستُ أتكلّم به بحسب الرب بل كأنه عن جنون في أمر الافتخار هذا» (عدد ١٧) حتى بعد هذا القول لا يجرؤ على الأخذ بمديح نفسه بل يتردّد ويقول: «وبما أنَّ كثيرين يفتخرون بحسب الجسد فأنا أيضاً أفتخر فإنكم أنتم الحكماء تحتملون الجهلاء بسرور كأنهم حكماء مثلكم.» (عدد ١٨ و١٩) وليس هذا كل ما لديه. إنه يتردَّد أيضاً ويلجأ إلى الاحتراس الثاني فيقول: «ولكن مهما يجترئْ فيه أحد أقول كجاهلٍ أنا أيضاً أجترئُ فيه.» (عدد ٢١) ولا يشرع في الكلام على مجالي مجده إلاّ بعد كل تلك التحرُّزات. فمَثَلُه مثلَ جوادٍ يعترض سيره مَهواةٌ خطرة فليس له بُدٌّ قبل أن يثب إلى جانبها الآخر من أن يتهيّأ بتحمّسه للوثوب. وإذ يرى عمق المَهواة تفترُ عزيمته ويناله تأثُّر الخوف والرعب الشديد. ولكن بما أنَّ فارسه يُلحُّ في دفعه بعُنف فهو يلجأ إلى جُهدٍ جديد ومع ذلك يعاني من الكَرْب ما عاناه أولاً، ثم يلحُّ عليه العنف والضرورة فيتريَّث طويلاً وهو يحمحم على شَفا الهوَّة كأنه يشجّع نفسه للوثوب فوقها إلى الجانب الآخر. هكذا الطوباوي بولس إذ كان عليه أن يلقي بنفسه في ذكرى أماجد أعماله، كأنه يثب فوق مهواةٍ عميقة يتقهقر إلى الوراء لا مرَّة واحدة فحسب بل مرَّتين وثلاثاً وجملة مرار في مساقاةِ كلامه الثالثة: «ليتكم تحتملون جنوني قليلاً.» لا يحسبني أحدٌ جاهلاً وإلاّ فاقبلوني ولو كجاهل. ما أتكلّم به لستُ أتكلّم به بحسب الرب بل كأنه عن جنون لغاية أن أفتخر.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصية)

١١

خطاب إشادة بالقديس بولس الرسول

حاشية: لا نعرف السبب الذي حمل الأب نقولا أبو هنا بترجمة هذا الخطاب وإدراجه مع المواعظ عن القديس بولس. وتعميماً للفائدة ننشره كما ورد عند المترجم. ونظن أنه لبصويت (Bossuet)

«**وبكلّ سرور أفتخر بأوهاني. لأني متى ضعفتُ فحينئذٍ أنا قويّ**» (٢ كور ١٢ : ١٠)

حين أتأمل في الرجل المنقطع النظير العلاّمة رسول الأمم وتُعرَض أمام نظري جملةٌ غير يسيرة من أعماله المجيدة وعظائم الأمور التي لم تؤلف عُرفاً وعادة، لا تعجبوا أيها المسيحيون إذا تجنَّبتُ ذكر كثير من عجائبه وإيحاءاته السامية وتلك الحكمة التي هي كلُّها إلهيّة وتستأهل بحقّ أن تكون من السماء الثالثة ماثلةً في كتاباته المدهشة، وإذا تجنَّبتُ كثيراً غيرها من المواضيع السنيَّة مما يملأ عقولكم في البداهة من الأفكار النبيلة الفخمة. لا تعجبوا إذا تنحَّيت عن ذلك كلِّه واقتصرت على أن أريكم أوهان ذلك الرسول العظيم. وإذا رجوتُ منكم أن تعقدوا أنظاركم على هذا الشأن وحده. والذي دعاني لهذا التخيُّر هو اني قبل أن أُحدّثكم عن القديس بولس، شعرتُ باضطراري إلى الولوج في روح القديس بولس عينه مستمدًّا شواعره. لهذا السبب حين سمعته يعظنا بغيرةٍ فائقة، غير مفتخر إلاّ بأوهانه، ويعدُّ مواطن ضعفه أسباب قوّتِه. «لأني متى ضعفتُ فحينئذٍ أنا قويّ» اتبعت الحركة التي يوحيها إليّ وتأملتُ في مديحه فتحرَّيتُ أن أُريكم أوهانه البالغة القوة التي بنى بها الكنيسة وهدم الحكمة البشرية وسبى كل عقل لطاعة يسوع المسيح.

إذن لنلِجْ باطن المعنى من هذه الكلمة قبل غيرها ولنبحث عن العِلل التي دعَت بولس الإلهي أن لا يعتقد قوّته إلاّ بضعفه. هذا ما يروقني إبلاغه إلى مداركُكم. لقد تذكَّر أيها المسيحيون انّ إلهه تلاشى ذلاًّ في محبته للبشر وكان موقناً أنّ هذا العالم العظيم وكلَّ ما يستنبطه في متّسعه إذا كان من صُنع ذلك الإله القدير فهو قد صنع عالماً جديداً، عالماً مفتدًى بدمه ومجدَّد الولادة بموته أي كنيسته المقدسة التي هي عمل ضعفه. ذلك ما نظر فيه القديس بولس، وغِبَّ أن أعمل أفكاره السامية في هذا الموضوع الجلل، ألقى من فوره نظره على نفسه، وهناك أخذه الدهش من دعوته. رأى أنه هو المساعد الرئيسي لنعمة يسوع المسيح في تأسيس الكنيسة.

فأيَّ الشواعر تكون شواعره في مشروع عالٍ كهذا المشروع الذي تدعوه إليه العناية الإلهية. وهل تراه، أيها المسيحيون، يُقدم على إتمامه بقوّته؟ ولكنَّ قوةً تفوقها بكثير هي أعجز من أن تكفي لهذه المهمَّة. وكان الروح القدس قد ناجاه بأنَّ إرادة الآب السماوي هي أن يستند ذلك العمل الإلهي إلى الضعف، لأنه قال: «واختار الله الضعيف في العالم ليخزي القوي» (١ كور ١:٢٧). والقصارى ماذا عليه إلاّ أن يقف للمخلص ضعفاً خاضعاً له ومطيعاً وأن يُقرَّ بما فيه من ضعف ليستحق أن يكون خادماً لهذا الإله الذي، مع كونه ومن طبيعته عظيم القوة، أظهر نفسه ضعيفاً لأجل خلاصنا. إذن هذا هو السبب المكين الذي جعله يعتبر نفسه آلةً لا فائدة فيها وليس لها جدوى ولا قدرة إلاّ بفضل اليد التي تحرّكها. ولأجل هذا، أيها المسيحيون، إنتصرَ في هوانه ولإقراره بضعفه تجرّأ على أن يقول إنه عظيم القوة.

على أنه لاقتناعنا من خبرة الحقيقة ما يعظنا به لا بدّ من أن نرى هذا الرجل العظيم في ثلاث مهمَّات خطيرة من الخدمة التي عُهد إليه فيها. لأنه ليس من قصدي أيها السادة، أن أنظر اليوم في حياة القديس بولس الخصوصية، بل أتحرَّى أن أراه في مهمّات عمله الرسولي حاصراً إياها في ثلاثة أركان، أي في الوعظ وفي جهاد المكافحة وفي القضاء الكنسيّ.

القسم الأول

لا أستطيع أن أشرح لكم بكفاية مقدار ما هو عظيم ومدهش المشهد الذي أُهيِّئه لكم في هذا القسم الأول (من خطابي) لأنّ ما تمنى كثيراً أن يراه أعاظم الرجال في العصور القديمة هو ما أريد عرضَه أمامكم الآن. أريد مشهد القديس بولس يبشّر العالم بيسوع المسيح ويهدي بوعظه إلى الإيمان به القلوب القاسية. ولكن لا تؤمّلوا أيها المسيحيون أبّهة الكلام في هذا الواعظ السماوي الإلهي، ولا زخرف الألفاظ الذي يزيّن الفصاحة البشريّة. إنه عنيف الحدّة بالغ الرصانة فلا يكترث لتلك اللطائف والرقائق، أو أقول ما يوافق الروح المسيحي أكثر ويكون أحقّ بمقام الرسول العظيم: إنه شديد الهيام بمجد الضعة المسيحية، فلا يرغب في أن يلوِّث بأباطيل الفصاحة الدنيوية تلك السذاجة الجليلة، سذاجة إنجيل يسوع المسيح. ولرغبةٍ أن تدركوا مَن يكون ذلك الخطيب الذي

أعدَّته العناية الإلهية ليخزي الحكمة البشرية، أصغوا مسامعكم لوصفه الذي ٱستخرجتُه منه هو نفسه في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس.

إنَّ ثلاثة أشياء تُعتبر مُعينةً على جعل الخطيب مستحسناً وذا أثر فعَّال، وهي أولاً شخص المتكلّم. ثانياً جمال المواضيع التي يطرقها. ثالثاً الحذاقة في أسلوبه لشرح تلك المواضيع. ووجه ذلك أكيدٌ وواضح لأنّ جلال قدر الخطيب يُهيّيءُ له حسن الانتباه في سامعيه، ونفاسة المواضيع تغذّي العقل غذاءً طيِّباً وأسلوب شرحها بلباقة مرضية يجعلها تدخل إلى القلب دخولاً لطيفاً. على أنّ الأسلوب الذي يتخيّره الخطيب المُراد في كلامي، يدلّ دلالة واضحة على أنه ليس في صاحبه شيء من هذه المزايا.

وأول ذلك، أيها المسيحيون، أنكم إذا تبيَّنتم ظاهرة شخصه، فهو نفسه يُقرُّ بأنَّ شكله ليس فيه شيء من ملامح الرفعة «إن الرسائل ثقيلة وقوية وأما حضور الشخص فضعيف وكلامه حقير» (٢ كور ١٠ : ١٠) وإذا تأملتم في حالته فهو فقير. إنه حقير ومضطر إلى اكتساب قوته من صنعة يدوية، وعلى هذا قوله إلى أهل كورنثس: «وقد كنتُ عندكم في ضعف وخوف وارتعاد كثير» (١ كور ٢ : ٣) ومن هذا التصريح ندرك بسهولة كم كان شخصه حقيراً. فأي خطيب هذا أيها المسيحيون، يتهيّأ لهداية أمم متعدّدة!

ولكن ربما تكون عقيدته ذات روعة وإعجاب وجمال، فتفيد هذا الرجل الحقير جداً شهرةً واستحساناً. كلاَّ! إنها ليست على شيء من هذا. فهو، كما يقول، لا يعرف شيئاً إلاّ معلمه المصلوب. «لأني حكمتُ بألاّ أعرف بينكم شيئاً إلاّ يسوع المسيح وإياه مصلوباً» (١ كور ٢ : ٢) يعني أنه لا يعرف إلاّ ما يصكّ الآذان نفرةً وشكّاً وما يظهر أنه جنون وعتاهية، فكيف يؤمّل والحالة هذه، اقتناع سامعيه بما يقول؟ ولكن يا بولس العظيم، إذا كانت العقيدة التي تعلنها هي على حدٍّ بعيد من الغرابة والصعوبة، فلا أقلَّ من أن تعنى بالتعابير الأنيقة لآدائها. جلِّلْ بأزاهير البيان هذا الوجه السمج من إنجيلك ولطِّفْ قسوته بالفاتن من جمال فصاحتك. فيجيب هذا الرجل العظيم: معاذ الله أن أمزج الحكمة البشرية بحكمة ابن الله. تلك إرادة معلمي أن لا يكون كلامي أقلّ صلابة من عقيدتي الظاهرة كشيءٍ غير مصدَّق. «ولم يكن كلامي ولا كرازتي بكلام بليغ عن حكمةٍ بشرية بل بإبداء الروح والقوة لكي لا يكون إيمانكم عن حكمة الناس، بل عن قوة الله» (١ كور ٢ : ٤ و٥) من هنا يجب أن ندرك أسرار العناية الإلهية. فلنرفعْ عقولنا، أيها السادة، ولنتأمل في العلل التي لأجلها اختار الآب السماوي هذا الخطيب الخليّ من الفصاحة والرونق، لكي يحمل إلى

الأرض كلّها ، إلى الرومانيين ، واليونانيين والبرابرة ، إلى صغار الدنيا وعظائها ، حتى إلى الملوك ، إنجيل يسوع المسيح .

ولكي ننفذ إلى باطن سرٍّ عظيم كهذا ، أصغوا إلى بولس العظيم نفسه ؛ فإنه حينما بيّن لأهل كورنتس مقدار ما في عظاته من السذاجة ، يقدّم العلّة العجيبة لذلك فيقول : «بل ننطق بحكمة الله بالسرّ . بالحكمة المكتومة التي سبق الله فحدّدها قبل الدهور لمجدنا ، التي لم يعرفها أحدٌ من رؤساء هذا الدهر» (١ كور ٢ :٧ و٨) فأيُّ حكمة هذه الحكمة المكتومة؟ هي ، أيها المسيحيون ، يسوع المسيح عينه . إنه حكمة الآب ولكنه حكمة متجسّدة . وهي حينما ارتضت أن تغشّيها حقارة الجسد ، تكتّمت عن عظماء الدنيا بذلك الغشاء القاتم . إذن تلك حكمة مكتومة وإليها يستند تفكُّر الرسول وهو يقول لنا : لا تعجبوا حين أُبشّر بحكمة مكتومة إذا لم أُزيِّن مواعظي بتاتاً ببهاء الفصاحة . إنّ هذه الضآلة الغريبة الملازمة للكرازة هي تبعٌ للضعة التي لاشى بها المخلص شخصه . فكما انه بدا وضيعاً في شخصه ، يريد أن يكون كذلك في إنجيله .

فكرٌ عُجاب فكر الرسول ويستحق التأمل فيه . فلنضعه إذن في أعظم وضَح النور ولنفترض قبل كل شيء أن الابن الأزلي ابن الله اعتزم قبلاً أن يظهر للناس في مظهرين متفاوتين أي أن يظهر لهم أولاً في حقيقة جسده وثانياً في حقيقة كلمته لأنه بسبب كونه مخلِّصاً للجميع ليس له بدٌّ من أن يظهر للجميع وبالتالي لا يكفي أن يظهر في زاويةٍ من الدنيا بل يجب أن يظهر في كل الأمكنة التي هيّأت له منها إرادة أبيه جماعةً يؤمنون . بحيث أنه كما أنَّ يسوع هذا عينه الذي لم يظهر إلاّ في اليهودية بحقيقة جسده يُحمل إلى كل أقطار الدنيا بحقيقة كلمته .

وبناءً على ذلك لم يخشَ أوريجنّس العظيم أن يؤكّد لنا أنّ كلمة الإنجيل هي نوعٌ من جسدٍ ثانٍ للمخلّص استخدمه لخلاصنا . فما معنى هذا ، أيها المسيحيون؟ وأيّ شبَه استطاع أن يجده بين جسد مخلّصنا وكلمة إنجيله؟ إليكم معنى هذا الفكر العميق . ذلك أنّ الحكمة الأزلية المولودة في حضن الآب ، بدَت محسوسة بنوعين : بالجسد الذي تناولته من حشا مريم وبالكتب الإلهية وكلمة الإنجيل لحدّ اننا نستطيع القول إن هذه الكلمة وهذه الكتب هي نظير جسدٍ ثانٍ أخذته تلك الحكمة الأزلية ظاهرةً به لعيوننا . إننا نشاهدها في تلك الكتب وفي تلك الكلمة . تلك هي يسوع الذي تحدّث إلى الرسل وهو يحيا أيضاً في إنجيله لأجلنا وفيه ينشر أيضاً لأجل خلاصنا كلمة الحياة الأبدية . فإذا تقرّرت هذه

العقيدة الجميلة أصبح من السهل أن ندرك أنّ تبشير الرسل، سواءٌ برز حيًّا من أفواه أولئك الرجال العظام أو استفاض في كتاباتهم ليُحمَل إلى الأجيال المقبلة يجب أن لا يتضمَّن شيئاً يبهر سناهُ حيرةً وذهولاً. أفلا تدركون أيها الإخوة، حسب فكرة القديس بولس أن يسوع هذا وهو الذي يجب أن يظهر لنا بجسده وكلمته، يريد أن يكون وضيعاً في كلتا حالتيه.

من هنا يتولّد الوفاق العجيب بين شخص يسوع المسيح والكلمة التي يوحيها. إنّ الجسد الذي أخذه كان واهناً. فالكلمة التي يذيعها هي ساذجة ونحن نعبد في المخلص الضعة الممتزجة بالعظمة. ذلك ما يُرى في كتابه المقدس. فكلٌّ ما فيه عظيم وكل ما فيه وضيع. كلٌّ ما فيه غنًى نفيس وكلٌّ ما فيه فقير مجرَّد. وفي الإنجيل كما في يسوع المسيح، ما تراه العين فهو ضئيل ضعيف. وأما العقيدة التي يتضمّنها فهي إلهيّة. في أحدهما أنوار كما في الآخر ولكنها محجوبة وراء الغمائم. يحجبها في يسوع ضآلة الجسد وفي الكتاب الإلهي سذاجة الإنشاء. وهكذا مشيئة يسوع أن يُكرز به. إنه يحتقر لكلمته كما يحتقر لشخصه كلَّ ما يُعجب به الناس من الطلاوة والرونق.

إذن لا تنتظروا من الرسول أن يَغرَّ الآذان بسماع إيقاعات متساوقة ولا أن يسحر العقول بطُرَفٍ خلاَّبة من الأباطيل. إسمعوا ما يقول هو نفسه: «نكرز بحكمةٍ مكتومة نكرز بإلهٍ قد صُلب. فلا نبحثنَّ عن زخارف باطلة نزيِّن بها هذا الإله الذي يُنكر كلَّ زخرفٍ دنيويّ. فاذا لم يرتضِ سذاجتنا المتعظمون، فليعلموا أننا نريد أن نقع منهم موقع الكراهية وأنّ يسوع المسيح يستزري أُبَّهتهم المتغطرسة. إذن لننخفضْ إلى مداناة الوضعاء ولنعِظهم مواعظ لها من صنعتها ما يوافق هوان الصليب ويجعلها أهلاً لهذا الإله الذي لا يريد الانتصار إلاّ بالضعف والهوان.»

تلك هي الأسباب المتينة التي دعت القديس بولس لينبذ كل محاسن البيان الغنيَّة. فكلامه البعيد جداً عن أن يسيل بالحلاوة المستحبَّة والتناسق المتّزن اللذين يفتناننا في الخطباء عجباً. ذلك الكلام يظهر لمن يستنبطوه بكفاية، غير متناسق ولا متسلسل. على أنّ أهل الكياسة في الدنيا الذين يصفون أنفسهم بدقَّة الإحساس ورهافة الآذان، يمتعضون من وعورة إنشائِه النيِّر المتناسب. أما نحن أيها الإخوة، فلا نخجلنَّ من ذلك. إنّ كلام الرسول هو ساذج ولكنّ أفكاره كلَّها إلهية. فإذا جهل فنَّ الخطابة وإذا احتقر الفلسفة، فله من يسوع المسيح عوضٌ عن كل شيء، وآسمه الذي هو أبداً على فمه وأسراره التي يبحثها بتدقيق إلهي، كلّ ذلك يجعل سذاجته فائقة القدرة. سيمضي هذا

الرجل الذي يجهل فنَّ الكلام المهذّب وذو اللهجة الجافية في الإلقاء والعبارة المحسوسة الغرابة، سيمضي إلى بلاد اليونان المهذّبة الأدب وأمّ الفلاسفة والخطباء، ومع ما يلقى من عنف المقاومة العالمية يؤسّس ثَمَّ كنائس أكثر مما اكتسب أفلاطون من تلامذة البلاغة التي اعتُقدت فيه إلهيّة: وسيبشّر بيسوع المسيح في آثينا. فيكون أنَّ أكبر قطب من العلماء في مجالس أعيانها، يترك الأريوباج لينخرط في سلك هذا الرجل البربري (الغريب عن اليونان) وسيندفع بكفاحه إلى ما هو أبعد، فيُخضع تحت أقدام المخلّص عظمَة الجماعة الرومانيين في شخص كبير من ولاتِهم حتى ليرتعد القضاة خوفاً منه في مجالس قضائهم عندما يُذكر اسمه أمامهم. سيرنُّ صوته في مسامع رومة عينها حتى لتعود هذه المدينة السائدة مفتخرة برسالةٍ من قلم بولس بعث بها إلى سكانها، أكثر من افتخارها بالعديد المشهور من خُطَب شيشرونها.

فممّا تأتّى ذلك أيها المسيحيون؟ لقد تأتّى من أنّ بولس يستخدم وسائل للإقناع لم يُعلّمها اليونان ولا تعلَّمتها رومة. إنّ قوةً فائقة الطبيعة راقها أن تسمو بما يحتقره الوجهاء، فانتشرت واختلطت في السذاجة المجيدة من كلامه ومن هنا نرانا ندهش من مزيَّةٍ في رسائله العجيبة هي أعلى من أن تكون بشرية وهي تتضمن الاقناع اللازم مع مخالفتها للقواعد البيانية أو بالأحرى لا تقنع بمقدار ما تسبي الإفهام. لأنها لا تخلب الآذان بل تسدّد ضرباتها قويمةً إلى القلوب. وكما أنّ النهر العظيم يحتفظ في السهل بتلك القوة الشديدة التدفُّع التي استمدّها في الجبال من حيث انبثق ينبوعه، هكذا هذه المزيَّة السماوية المتضمّنة في رسائل القديس بولس، حتى بأسلوبها الإنشائيّ الساذج، تحتفظ بكل القوة التي تحملها من السماء من حيثما تفجَّرت.

هذه هي المزيَّة الإلهية التي أخضعت بها كل شيء سذاجة الرسول. إنها قلبت الأوثان ورفعت صليب يسوع وأقنعت مليوناً من البشر بأن يموتوا في سبيل الدفاع عن مجده وأخيراً هي التي شرحت في رسائله العجيبة أسراراً عظيمة، شوهدت لأجلها أسمى العقول التي كانت مستغرقة زمناً مديداً في أعالي المباحث النظرية التي بلغتها الفلسفة، تتنزَّل من تلك الأعالي الباطلة التي كانت تعتقد البلوغ إليها لتتعلَّم أن تتمم باتِّضاع في مدرسة يسوع المسيح بإدارة بولس.

إذن، لنحبَّ أيها المسيحيون سذاجة يسوع، لنحبَّ الإنجيل وما فيه من الضعة لنحبَّ بولس وإنشاءه الجاسي، ولنستفد من مثال عظيم كهذا المثال. لا نتخذنَّ المواعظ

ملاهي طرب للعقول ولا نطلب من الوعّاظ مباهج فن الخطابة، بل عقيدة الكتب المقدسة. حتى إذا اقتضت منهم لطافةُ شعورنا وكراهية ذوقنا للسذاجة أن يعمدوا إلى زخارف الكلام الغريبة استجراراً لنا ببعض الوسائل إلى إنجيل يسوع المخلِّص. فلنميِّز بين توافه توابلهم والطعام القويّ المغذّي. وإذا سمعنا خطباً شائقة فلا نحكمنَّ لشيء منها بأنه موافق لنا إلاّ لما يفيدنا للبنيان الروحي. ولنتعوَّد هكذا أن نحبّ يسوع المسيح وحده في الطهارة الطبيعيَّة طهارة حقائقه التي كلّها مقدسة. حتى نرى أيضاً في الكنيسة سيادة هذه السذاجة الأولى التي أنطقت الرسول الإلهي بقوله: «أنا قويّ لأني ضعيف». إنّ خطبي قوية لأنها ساذجة وان برارة سذاجتها هي التي أخزت الحكمة البشرية. ولكن يا بولس العظيم هذا لا يكفي، فالقوة تتحيَّز لمساعدة الحكمة الكاذبة. لذلك أرى المضطهدين تقوم قيامتهم فغِبَّ أن أسمعت خطباً تتضمَّن سذاجتك المقنعة، لا بدَّ لك من الاستعداد لمواقع كفاح ينتصر فيها ضعفك. هذا ما يدور عليه القسم الثاني من خطابي.

القسم الثاني

إذن قد رسمَت العناية الإلهية أن الكرازة بيسوع المسيح لا يكفيها الكلام بل لا بدَّ فيها من شيء أشدّ وأعنف لإقناع العالم المتصلّب. لذلك يجب أن يُخاطَب هذا العالم بألسنة الجراحات وأن يهيَّج بالدم. فبقوة الألم وصولة التعاذيب ينتصر الدين المسيحي على تلك الصلابة المستعصية. إنّ هذه الحقيقة، أيها السادة، هي القوة الوثيقة قوة الدم المُراق في سبيل ابن الله الذي يجب الآن أن نفهمكم قوّته بمَثَل الرسول الإلهي. ولكن لا بدَّ لإدراكه من أن نرتقي إلى الينبوع الأول، فأُحقِّق لكم أيها السامعون، أنّ كلمة مخلّص النفوس مع كونها ذات فاعلية إلهيَّة لا تزال القوة على امتلاك تلك النفوس مختصَّة بدمه. تدركون ذلك بسهولة من تاريخ إنجيله. فمَن ذا الذي لا يعلم أنّ ابن الله طالما كرز على الأرض ومع ذلك لم يحرز إلاّ نزراً يسيراً من الاتباع. ولم يُشهَد تدفُّق الشعوب صوب هذا المعلم الإلهي إلاّ منذ موته. فما تكون هذه الآية الجديدة أيها السادة؟ كان يسوع المسيح في مدى حياته على الأرض محتقراً ومهملاً. لكنه بدأ يمتلك الشعوب بعد موته. إنّ كلماته الإلهيّة كلّها قد كان من حقّها أن تجذب إليه إجلال البشر لكنه لأجلها عُلِّق على خشبة مسترذلة. وعارُ هذه الخشبة الذي كان يجب أن يُغشّي تلاميذه بخجلٍ أبديّ، هو

الذي جعل حقائق إنجيله معبودة في جميع أقطار الدنيا. فليس ذلك ليفهمنا أنّ صليبه لا أقواله هو الذي يجب أن يهيّج القلوب القاسية وأنّ قوّته في التسلُّط كانت بدمه المهراق وجراحاته الأليمة؟ إنّ علّة سرّ عظيم كهذا السرّ تستحق جداً أن يُنفذ إلى باطنها لدرسها، لو أنّ الموضوع الذي أنا آخذٌ في بحثه يدع لي فسحةً هنا لتبيينها واضحة. إنما نقول فقط بكلام وجيز، إنّ ابن الله كان قد تجسّد لكي تُحمل كلمته إلى موضوعين مختلفَين. كان عليه أن يخاطب الأرض وكان عليه أيضاً أن يخاطب السماء. فكلامه مع الأرض بكرازته الإلهية ولكنه خاطب السماء بسفك دمه لتسكين غضبها مكفّراً بذلك خطايا العالم. ولهذا يقول القديس بولس: «إنّ دم يسوع المخلّص يصرخ بشدّة أقوى من صوت هابيل» (عب ١٢: ٢٤) لأنّ دم هابيل كان يطلب الانتقام أمّا دم مخلصنا فيستنزل الرحمة. لقد اقتُضي من يسوع المسيح أن يخاطب أباه كما اقتُضي منه أن يخاطب البشر، أن يكلِّم السماء كما يكلِّم الأرض.

إنما لا بدَّ من ملاحظة سرّ من أسرار العناية الإلهية. ذلك أنه كان من مقتضياته أن يخاطب السماء لكي تخضع له الأرض. ولأي سبب هذا؟ هو لأن النعمة الإلهية المعتمَد عليها في تليين القلوب يجب أن تتحدَّر من السماء. مثال ذلك أنكم ترتاحون باهتمام إلى زرع حنطتكم في هذه الأرض الجافّة التربة، فإذا لم يُروها مطر السماء، ويُفدها خصباً، فقلّما تعدكم بإتائها. كذلك يجري تماماً على التقريب في الحقيقة التي أُبيِّنها لكم. فحين خاطب الناس المخلّص لم يعمل إلاّ أن بذر على الأرض، وهذه الأرض القاحلة والغير العارفة للجميل قدَّمت له قليلاً من الاتباع، فاقتضى الأمر أن يخاطب أباه وأن ينحوَ شطر السماء رافعاً إليها صوت دمه، حينئذٍ هطلت النعمة، أيها السادة، بغزارة وكانت أرضنا واعدةً بالثمر (مزمور ٨٤: ١٣) وحينئذٍ فالسماء التي سكَّنت فورة غضبها أخذت تملك البشر وأخذت الكلمة التي زرعها المخلص تخصب في كل المسكونة. ومن هنا قوله هو نفسه: «متى ارتفعت عن الأرض أي حينما أُعلَّق على الصليب، وحينما أُريق دمي، أجذب إليَّ الجميع» (يوحنا ١٢: ٣٢) فدلَّنا بهذه الكلمة على أنَّ قوَّته كانت في صليبه وأنّ دمه هو الذي يجذب إليه العالم.

إذا تأكّدت لنا هذه الحقيقة، أيها المسيحيون من أنّ الكنيسة تستند في تأسيسها على الاضطهادات. هاتِ دماً أيها الرسول المغبوط فمعلِّمك يعطيه صوتاً قادراً أن يهزّ السماء والأرض هو علَّمك أنَّ قوّته في صليبه. فاحملْ هذا الصليب في كل الأرض. هذا

الصليب هو المنتصر والفائق القدرة. لكن لا تحمله من رخام جامد ولا من معادن لا حسَّ لها، بل احملْه منقوشاً على جسدك نفسه وابذله للظالمين، ليحفر عليه غضبهم صورة حيَّة طبيعيَّة صورة يسوع المسيح.

ان الرسول سيتعرَّض لذلك في القريب العاجل. سيطوف الأرض كلها. وما الذي يدعوه إلى ذلك، أيها المسيحيون؟ يدعوه إليه ما يقوله هو نفسه لنا أي أن يحمل في كل مكان موت يسوع وصليبه مطبوعاً على جسده عينه (٢ كور ف ٤: ١٠) ولعلَّ ذلك هو الداعي لأن يقول هذه الكلمات الجميلة في رسالته إلى أهل كولسِّي: «أريد أن أُتمِّم فيَّ ما نقص من آلام يسوع المسيح» فما تُراك تقول لنا يا بولس العظيم؟ أيمكن إذن أن ينقص شيئاً الثمن والقيمة الغير المتناهيين في آلام معلِّمك. كلاَّ! ليس هذا هو الذي دار في خلده. فذلك الرجل العظيم لا يجهل أنّ تلك الآلام لا ينقص شيء من ثمنها وقيمتها ولكنه يعني بنُقصها أن يسوع لم يتألم إلاّ في أورشليم. وبما أنَّ قوَّته هي كلها في الصليب فيجب أن يعاني الآلام في أقطار الدنيا كلِّها ليجذب إليه كل الدنيا. ذلك هو ما يريد الرسول أن يتمِّمه. ان اليهود شاهدوا صليب معلمه وهو يريد أن يظهره للأمم التي خصّص لتبشيرها. وهذه الفكرة هي التي تقوده من المشرق إلى المغرب، من أورشليم إلى رومة حاملاً في كل مكان صليب يسوع ومتمِّماً آلامه. في كل مكان تستقبله أعذبةٌ جديدة تؤتيه في كل مكان مؤمنين جدداً فيملأ شعوباً عدَّة من فيض دمه ونور الإنجيل. لكني لا أعتقد أيها المسيحيون أني موفٍ ما يجب عليَّ لمجد ذاك الرسول العظيم إذا أنا لم أنتقِ من عظائم المُثُل في حياته الجميلة بعض أخاير أعماله لتشاهدوا منها على الخصوص مقدار ما كانت آلامه فعّالة مجدية.

تأمَّلوا في ذلك الرجل العظيم ينهال عليه الجلاَّد في فيلبِّي بضرب السياط لأنه بشَّر فيها بيسوع المسيح. وإذ أُلقي في سجن مظلم مشدود الرجلين ضمن خشبة عُمِدَ إلى فتحها بقوَّة ثم ضُغطتا فيها بشدَّة بالغة. وإذ كان هو مع ذلك منتصراً بفرح أحسَّ منه في نفسه هو وسيلا رفيقه العزيز بأثر الصليب الدامي، قطع على الليل سكوته بتقديمه عن نفس طيبة مسرورة مدائح لله على تلك الأعذبة ونشائد شكر لِما عاناه من الجراح. فانظروا كيف يحمل صليب المخلّص وفي الوقت نفسه أراد المخلّص أن يُريه تمثيل مشهد عجيب لحادثة صليبه. ان هنالك دماً وانّ هنا دماً أيضاً.

هنالك أيها السادة، تزلزلت الأرض «وهنا تزلزلت أيضاً (أعمال ١٦: ٢٦) فحدثت بغتةً

زلزلة شديدة» هنالك تفتحت القبور التي هي سجون الموتى وموتى كثيرون قاموا وهنا تفتحت مغاليق السجون التي هي قبور مظلمة للأحياء (أعمال ١٦ : ٢٦) «فانفتحت للحال الأبواب كلّها وانفكّت قيود الجميع» وتمام المشابهة بين الحالتين، أنّ حارس صليب المخلص هناك قال: «بالحقيقة هذا هو ابن الله» (مت ١٤ : ٢٧) وسجّان القديس بولس هنا ينطرح في الحال على قدميه (أعمال ١٦ : ٢٩) ويخضع لإنجيله إذ قال: «ماذا يجب أن أعمل لأخلُص؟» (أعمال ١٦ : ٣٠) وعمد فوراً إلى جراح الرسول يغسلها والرسول غسل أولاً جراح السجَّان بنعمة المعمودية المقدسة فيتهيّأ هذا السجّان السعيد لقبول الماء السماوي بأن مسح دم الرسول الذي يضع في قلبه محبة الصليب وروح المسيحيَّة.

إنكم ترون الآن أيها المسيحيون مبالغ ما تفعله قوة صليب يسوع المطبوع على جسد بولس ولكن أرهفوا انتباهكم لأريَكم بنوعٍ أبلغ وادعى للدهش ماذا يعمل الرسول الإلهي حين خرج من سجن فيلبّي. فليقُلْه هو نفسه في رسالة بعث بها إلى أهل تسالونيكي قال: «أنتم تعلمون أيها الإخوة أنّ دخولنا إليكم لم يكن باطلاً» (تسالونيكي ٢ : ٢) ولأي سبب لم يكن وصوله إلى تسالونيكي بلا فائدة؟ إنكم لتدهشون إذا عرفتم ذلك السبب. قال: «بعد أن تألَّمنا سابقاً وشُتِمنا في فيلبّي كما تعلمون تجرّأنا في إلهنا على أن نكلِّمكم بإنجيل الله بجهاد كثير.» (١ تسالونيكي ٢ : ٢).

حين أنظر أيها السادة، في قول الرسول الإلهي، لا أملك نفسي حيرةً وذهولاً ولا أستطيع التعجّب بكفاية من الروح السماوي الذي يسوده، لأنه مَن تُرى يكون الجبّار ذو القلب الذي يحتمل التأثر البالغ من رؤية الصورة المجيدة الوادعة صورة الانتصار الطريف امتلاكه الذي يشجّع بولس العظيم بذكرى الآلام التي لا يزال حاملاً سِمَاتِها ومُحسًّا بحدَّة بلاياها؟ فدخوله إلى تسالونيكي سيكون مجدياً إذ تقدَّمته هاتيك الآلام الفادحة وسيبشّر بثقة لأنه أُلِّمَ كثيراً وإذا عرفنا أن نستقصي كل معنى هذه الكلمة إلى غايتها، اضطررنا إلى التيقُّن أنّ الرسول العظيم حين خرج من سجون أهل فيلبّي كان يحرّض بهذه الفكرة رفقاءه في جهاد الرسالة: فلنمضِ أيهاالاخوة إلى تسّالونيكي فدخولنا إليها لا يكون عقيماً لأننا إلى الآن تألّمنا جداً وقد سُفِكَ منا دمٌ غزير، وذلك يجرّ بنا على أن نأخذ ببعض المقاصد الجديدة. لنمضِ إذن إلى هذه المدينة المشهورة ولنجعل دمنا المسفوك نافعاً لها. لنحملْ فيها صليب يسوع المطبوع علينا جديداً بالجراحات التي لا تزال

إلى الآن طريئة ولتضمّ جراحاتنا الجديدة اتباعاً جُدداً إلى المخلّص. بهذا الرجاء طار إليها ولم تكن أناته خائبة.

ولكن لِمَ أتوقف، أيها السادة، لأُخبركم عن نجاحه المثمر في مدينة تسالونيكي؟ في كل المدن التي وفد إليها كان له الفلاح وقد نشر على كلٍّ منها نورَ عقيدته وقاد سكانها لما يشاء، بما أنهال عليه من النكال والتعذيب. هكذا طاف المسكونة كلّها حاملاً صليب يسوع أيّان توجَّه وهو مهدّدٌ أبداً ومُطاردٌ بشراسةٍ لا تخمد نارها ولم يذق الراحة قط في مدى ثلاثين سنة. فلا ينتهي من عمل إلاّ بدأ عملاً غيره وفي كلّ موضع تترصَّده أخطار جديدة. غرقَ مرّاتٍ أثناء أسفاره البحرية وعانى مكايد جَمَّة في أسفاره البرّية. تلقّى الحقد والبغض بين الأمم وغلَيان السخط الشديد عند اليهود ومكرَ الثلاَّبين الكثيرين في كل مجالس القضاء وضروب النكال والتعذيب في جميع المدن، حتى في الكنيسة عينها في بيته الخاصّ ذاق المرائر من الاخوة الكذبة الذين يخونونه. يُرجم مرَّة ويُترك كميت ويُجلَد مرةً بعنفٍ ويكاد الشعب يمزّقه تمزيقاً وصار كأنه يموت في كل يوم إكراماً لابن الله. ويطبع نظام أسفاره بآثار الدم المراق من جسمه وبعديد الشعوب التي يهديها إلى الإيمان لأنه كان يجمع بين آثار دمه وهداية الأمم لحدّ أننا نستطيع أن نخصّ به كلمات ترتليان إذ قال: «إنّ جراحاته بنى عليها فتوحاته، فلا يمسُّه جرحٌ إلاّ بإكليلٍ من النصر وحالما يُسفك من دمه يُحرز غار انتصار جديد فيحوز من الغلبة أكثر مما يعاني من آلام الهياج عليه.» (ترتليان (Scorp. n^0 6) ولذلك حين أراد يسوع المخلص أن يُخضع على أقدامه العظمة المتغطرسة عظمة رومة، بعث إليها أخيراً الرسول الإلهي كأنه أعظم قوّاده... إنما لا بدَّ من أن يُبذل هناك دمٌ أغزر لبنيان الكنيسة العظمى التي تصبح أُمًّا لسائر الكنائس. فالقديس بولس يبذل فيها كل دمِهِ وفيها يَلقى مضطهداً غشوماً لا يرضى ببذل جزء من ذلك الدم. انه نيرون الطاغية يجمّم مكيال جرائمه بقتله هذا الرسول.

أأسرُد عليكم يا سادة مقدار ما نما من دمه هنالك؟ وكم أخصَبَ على الأثر فولّد اتباعاً مسيحيين ومقدار ما حرّك منهم للاستشهاد؟ وبأيّ قوَّةٍ ثبّت تلك المملكة الروحية ففاقت بعظمتها مملكة القياصرة؟ ولكن إذا بدأت أُعدّد لكم كلَّ عظائم الرسول فمتى أنتهي؟ أيها المسيحيون لقد ذكرت منها ما يكفي لأن يوحي إلينا حبَّ الصليب. اللهمَّ إن كانت رقَّة شعورنا لا ترينا إياه شنيعاً مُبغَّضاً. أيها الصليب الذي قلّد بولس انتصاراً عظيماً والذي جعله ضعفه سامي القدرة، إنّ عصرنا اللطيف الحسّ لا يستطيع احتمال

قوّتك الخشنة فلا أحد يريد اليوم أن يقول مع الرسول: «أنا لا أُسَرُّ إلاّ بهواني وضعفي ولستُ أنا قويًّا بما فيَّ من الضعف» نريد اليوم أن نكون أرباب سطوة في الدنيا. ولذلك نحن ضعفاء بما يختصُّ بيسوع المسيح. وبما أنَّ حبَّ صليب يسوع قد انطفأ بين المؤمنين فكلُّ القوة المسيحية قد اضمحلَّت. ولكن يا إخوتي لا أستطيع أن أقول لكم ما يدور في خلَدي من هذا الموضوع الجميل. إن بولس ينبّهني إلى ذلك أيضاً. فبعد أن نظرنا فيه مواطنَ الوَهن والضعف التي جعله الصليب يشعر بها، لم يكن بدٌّ من أن نتمِّم هذا الخطاب بملاحظة الأوهان التي أوحتها إليه المحبة في ولايته على القضاء الكنسيّ.

القسم الثالث

أيمكنكم أن تتيقَّنوا أيها السادة أنّ كنيسة يسوع المسيح تحكم نفسها بمعونة الضعيف أو سلطة رُعاتها مستندةً إلى الضعف أيضاً، وأن الرسول العظيم بولس المتولّي الإمرة بسلطانٍ نافذ، وهو الذي يهدّد أهل العناد بصراحة عالية ويحاكم الخطأة محاكمةً هي الغاية في كمال القضاء، ويجعل القوة فائقة مقام خدمته الرسولية مُنيفاً، أيمكنكم الاعتقاد أنه ضعيف بين المؤمنين وأنَّ ضعفه إلهيٌّ يجعله صاحب قدرة في الكنيسة؟ انه لأمرٌ ربما يبدو لكم غير مصدَّق ومع ذلك فهو عقيدة علَّمنا إياها هو نفسه ولا بُدَّ من إيضاحها لكم بوجيز الكلام.

لذلك يُقتضى منكم أن تفهموا أنَّ المحكمة الروحية التي سلَّمها ابن الله لكنيسته ليست هي على شاكلة ما يتولاّه الملوك. فإنها ليس لها تلك العظمة المروّعة ولا لها تلك الأبَّهة الممقوتة، ولا فيها روح الغطرسة المنتفخ به ملوك الدنيا. قال ابن الله في إنجيله: «إن ملوك الأمم يسودونهم. وأما أنتم فلستم كذلك ولكن ليكن الأكبر فيكم كالأصغر والذي يتقدّم كالذي يخدم.» (لوقا ٢٢: ٢٥) وأساس هذه العقيدة أنّ مملكة المسيح الإلهية مؤسَّسة على المحبة، لأنَّ هذه المحبة يا إخوتي تستطيع أن تتكيَّف بكل نوع من الأشكال. هي التي تدبّر الشؤون عند الرعاة وهي التي تطيع في الرعايا. وساءٌ أكانت آمرة مدبّرة أو مطيعة خاضعة تحتفظ بصفاتها الخاصة وتدوم أبداً مُحبَّةً لطيفة أو صبَّارة أو ليِّنة العريكة أبداً وشفيعة أبداً ولن تكون أبداً متجبّرة ولا طمّاعة. فالقضاء الكنسيّ المستند إلى المحبة، لا شيء فيه من الغطرسة ولا من حدّة الشدَّة. فحكمه ذو حشمة وسلطانه لطيف ذو سلام ليس مبتغاه

السيطرة والسيادة بل هناك خدمة روحية يتولّى القيام بها وادارة بيتيَّة يتعهّدها بالتوزيع الرشيد والمحبة الأخوية. ولكن هذه المحبة الكنسيّة التي يُساس بها شعب الله تتوجه أيضاً نحو جميع الناس.

فهي عِوَض أن تتعالى بعجرفة لتعلن للناس مجد سلطانها، لا بُدَّ لها في سيادة القضاء من أن تنخفض اتضاعاً وأن تكون ضعيفة وذات هوان لتحمل أهل الهوان لأن يسوع المسيح معتمدَها الأصيل، حين وافى يملك على البشر، شاء أن يتخذ ما فيهم من ضعف ومسكَنة. فكذلك الرسل وكذلك الرعاة، لا بُدَّ لهم من أن يلبسوا ما في الرعايا الموكولة إلى عنايتهم من أنواع الضعف والمسكَنة. فكما أن ابن الله هو حَبْرٌ رحيم يُحِسُّ من نفسه بما فينا من أنواع البؤس والمسكَنة، هكذا رعاة المؤمنين يشعرون بأنواع الضعف في إخوتهم ويحملون أوهانهم موزَّعة فيما بينهم. ولذلك إذ امتلأ الرسول الإلهي من هذا الروح الكنسيّ، إعتقد أنه يؤسّس سلطته على أن يكون ضعيفاً مع الضعفاء وخادماً للكلّ (١ كور ٩ : ٢٢).

ولكن هل تريدون أيها المسيحيون، أن تروا في مثَل خصوصي إلي أيّ حدّ يشعر هذا الرجل العجيب ببؤس اخوته؟ انظروا في متاعبه وأسفاره وهمومه وكم يجهد للثبات تلقاء أعداء كثيرين وكم يُعنى لتعليم شعوب كثيرة وكم يعاني من الأسهار لسياسة عدَّة كنائس. ومع ذلك وفيما هو رازحٌ تحت تلك الأعباء، يُعنى هو نفسه بأن يسدَّ حاجاته بعرق بدنه (١ كور ٤ : ٢٠).

حسْبُ رومة القديمة أن تعتزَّ افتخاراً بمن تنتدبهم من وراء سكك الفلاحة، للسيطرة عليها فلا يتخلَّون عن منصب الحكم إلاَّ ليعودوا إلى مهنة الحراثة. فإني أرى ما هو أدعى للعجب، في شخص ممتدحي الرسول العظيم. فهو حتى في بهرة مناصبه التي تعلو عظمةً وجهاداً عن مناصب القياصرة، ينكر برضاه.واختياره ما لمركزه من حقوق و يمتنع أن يأخذ من المؤمنين أجرةً شريفة تستمدّها جداً خدمته لهم. فلا يشاء إلاّ أن يستخلص بعمل يديه ما هو ضروري لمعيشته.

ذلك يا إخوتي عن روح يسمو العالم سمُوًّا لا يبلغه القياس. ولكنكم تعجبون منه أكثر إذا نفذتم إلى سريرة العلّة لذلك العمل المجيد. فاسمعوا ما يقوله في هذا العُرض القديس العجيب أغوسطينوس قولاً جميلاً نافذاً بلباقة إلى عواطف بولس العظيم. «مَن ذا الذي يضطرُّك أيها الرسول الإلهي إلى أن تجهد في عمل يديك؟» فيجيب القديس اغوسطينوس :

لأنه إذا كان عنده عطفٌ على رعاياه، أبلغ من عطف الأمَّهات لم يزل مرتجفاً خوفاً من الأخطار المهدّدة ضعفاءهم، لأنهم إذ تهيّجهم مفتريات الظنون، فربما انساقوا إلى كراهية الإنجيل، توهّم أن الرسول يبشّر به جرًّا لمغنم له خاصّ. لله محبة القديس بولس ما أشدَّها! فإن الذي يخشاه ليس إلاّ وهماً لا أساس له. انه وهمٌ يكذّبه كل مساق حياته السماوية الخالصة من كل الأميال الدنيوية. على أنّ هذا الوهم يمزّق أحشاء الرسول التي هي أعطف من أحشاء الأمهات. وهذا الرجل العظيم يرغب في الكدّ والسهر ليلَ نهار مضيفاً عمل يديه إلى بقيَّة مشاقّه.

فمَن ذا الذي يستطيع أن يبيّن بكفاية جميًّا شعوره ببؤس المؤمنين؟ هو الذي كان يقشعرُّ من وهم واحد تخيَّله وظلَّ بؤسٍ في رعاياه يذعره. فما تكون حاله يا إخوتي وأيُّ هَمّ هَمُّه حين يرى شروراً كثيرة حقيقيةً وشكوكاً بين المؤمنين وآثاماً عامَّة وخاصَّة؟ ليتني أستطيع الولوج في ذلك القلب المتوقّد بلهب المحبة الأخوية لأرى فيه بأيٍّ عاطفة كان بولس العظيم يقول هذه الكلمات: «مَن يضعف ولا أضعف أنا أو من يُشكّك ولا أحترق أنا.» (٢ كور ١١: ٢٩).

لنقف هنا أيها المسيحيون! وليثمر هذا المثل العظيم بتأمُّلنا فيه أثماراً طيّبة هي غاية هذا الخطاب. فأيُّ نفسٍ ولو أنها من حديد أو نحاس، لا تلين لأنواع الضعف المقدَّسة التي كانت توحيها المحبة إلى الرسول؟ أكان ينظر عضواً متألماً؟ فهو يشعر بكل ألمه. أكان ينظر سذّجاً وجهّالاً؟ فهو ينزل من السماء الثالثة ليُدرَّ عليهم لبن الأمومة ويناغي بنيه. أكان ينظر خطأة مسَّتهم التوبة؟ فالرسول القديس كان يشاركهم في البكاء والتوبة. أينظر منهم ذوي إصرار على خطاياهم؟ فكان يبكي لعمايتهم. أيّان ضُرِب مؤمن كان يشعر فوراً أنّه هو المضروب. وإذ كان الألم يجتاز إليه في طريق المحبة الأخوية كان يصرخ من فوره: «مَن يضعف ولا أضعف أنا.» «وإذا شُكِّك أحدٌ أحترق أنا في باطني» بحيث إننا لو لاحظنا هذا الرجل القديس ينشر أنواره على الكنيسة كلِّها ويتلقَّى من كل جهة أذى الأعضاء المتألمين، أتصوّره في أغلب الأحيان كالقلب لذلك الجسد السرّي. فكما أنّ جميع الأعضاء تستمدُّ من القلب كل قواها وتجعله أيضاً يحسُّ سريعاً بطريقة سرية بكلّ ما ينتابها من الأضرار، وكأنها تنبّهه على حاجتها إلى مساعدته. هكذا كلُّ البلايا النازلة بالكنيسة تمتدُّ إلى الرسول القديس لتستدعي عطف محبته، فيمضي لمعونة الضعفاء: «مَن يضعف ولا أضعف أنا.» بل اذهب إلى أبعد من هذا وأتعلّم من القديس فم الذهب أنّ

الرسول بولس ليس هو قلب الكنيسة فقط ، بل هو يغتمُّ عن كل أعضائها كأنما هو وحده كلُّ الكنيسة .

من لي بمجالٍ من الوقت لألج سريرة هذه الفكرة فاريَكم أيها المسيحيون مدى تلك المحبة التي لا تتيح للقديس بولس أن يتقبّض على نفسه منفرداً والتي تتبسَّط به على كل الكنيسة وتمزجه بكل أعضائها وتجعله يحيا فيهم ويتألم فيهم . هنا هنا جمَم أوهان الرسول لو ندرك فحوى هذا الكلام .

فيا بولس العظيم إسمح لي بأن أُصرّح أني تأمّلتُ في حياتك جملةً وتفصيلاً وتبصَّرتُ في كل بلاياك ضمن الاضطهادات التي نالتك . ولكني لا أخشى من التأكيد بأنها لا تشاكل البلايا التي أنزلتها بك المحبة الأخوية . ففي اضطهاداتك لم تتحمَّل إلاَّ أوهانك الخاصَّة . أمّا هنا فأنت مثقّل بأوهان سواك . في اضطهاداتك تألمت من أعدائك ، أما هنا فقد آلمك اخوتك الذين لم تدعك حاجاتهم والأخطار المحدِقة بهم ، تتنفَّس نفس الراحة . في اضطهاداتك كانت محبتك تقْوّيك وتعضدك إزاء ما تلقى من الصدمات . وأمّا هنا فمحبتك هي التي عنّتك . في اضطهاداتك لم تستطع أن تعذّب إلاّ في مكانٍ واحد وفي وقتٍ واحد ، وأمّا هنا فالعالم كلّه يهجم عليك صادماً وأنت مضطرٌّ إلى تحمُّل صدماته الثقيلة .

إذن هنا تمام كل الأوهان الإلهية التي يفتخر بها الرسول . وهنا يهتف بأعظم سرور : «لستُ قويًّا إلاّ بأوهاني» . ماذا تكون قوّة بولس إلاّ في أن يظهر ضعفنا ليحمل الضعفاء ، يشاطرهم ما عندهم من أنواع البؤس حتى يساعدهم على تحمُّلِها ، تحنيه المحبة إلى الأرض ليُقِلَّهم على منكبيه ويرفعهم معه إلى السماء ، يجعل نفسه عبداً لكلِّهم ليربحهم كلَّهم إلى معلِّمه الإلهي .

أليس في ذلك ولاية الكنيسة بأسلوبٍ يليق برسول؟ أليس في ذلك اقتداءٌ بيسوع المسيح نفسه الذي يثبِّتنا اضطرابه وتشفينا أوهانه؟

أفلا تريدون أيها المسيحيون ، أن تقتدوا بهذا المثال العظيم؟ كم من ضعفاء عندكم لتحملوهم ، كم من جهّال يُقتضى تعليمهم ! كم من فقراء في الكنيسة تجب مساعدتهم ! يا أخي حرِّكْ غيرتك . فهذا الرجل الذي يمقتك من عدّة سنين ، إنه سقيم يقتضي شفاؤه . تقول إنّ بغضه مستحكم فيه ، فهو زمني . وأُجيبك إنَّ سُقمه إذن أشدّ

خطراً، فلا بُدَّ من معالجته. تقول إنه أساء إليك كثيراً بالسِّباب والشتائم، فأُجيبك: ساعده على سقَمِه. إنّ كلّ الشرّ واقع عليه فأرحمْهُ ممّا يجرُّ إلى نفسه البلاء، وأنسَ ما أراد أن يُسيءَ به إليك. أسرِعْ إلى هذا الخاطئ المتصلّب. أَعِدْ إليه حرارة المحبة وأوقدها فيه بعد انطفائها. أبسُطْ إليه ذراعيك وافتح له قلبك واجتهد أن تربح أَخاك.

ثم ألقوا أنظاركم على عديد الفقراء الذين يستغيثونكم في آثاركم استمداداً لسدِّ حاجاتِهم الماديَّة. ألا ترون أنّ العناية الإلهية شاءت أن تجمعهم في هذا المستشفى العجيب (يريد الكنيسة) حتى ترتفع أصواتهم بأشدّ قوة، فيستطيعوا بذلك على أهون حالة، أن يحرّكوا شفقة قلوبكم؟ أفلا تريدون أن تسمعوهم وتنضمُّوا إلى عديد من النفوس القدسيَّة التي يسوسها رعاتكم فتشتدُّوا سعياً إلى إغاثة هؤلاء البؤساء؟ أمضوا إلى هؤلاء الضعفاء، يا إخوتي، وكونوا معهم ضعفاء وأحِسُّوا أنتم بمواطن ضعفهم وشاطروهم بؤسهم. تألَّموا أولاً معهم، ثم عانوا أنفسكم بالمعاونة لهم إذ تبذلون لهم صدقاتِكم عن سخاء. إحملوا هؤلاء الضعفاء والعاجزين، وهؤلاء الضعفاء والعاجزون يحملونكم فيما بعدُ إلى السماء آمين.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

١٢
عِظَة
إشادة بالقديس اغناطيوس بطريرك انطاكية

١ – إنّ الرجل الغني الذي يرتاح إلى مظاهر الأُبَّهة، يروقه أن يقيم ولائم كثيرة إمّا ليُظهِرَ بسطَةَ غِناه، أو ليقدّم لأصدقائه أدلّةً على مودَّتِهِ لهم. كذلك نعمة الروح القدس تدعونا كثيراً لنجلس إلى المائدة الأنيقة مائدةِ الشهداء الذين نحتفل بأعيادهم، مقدّمةً لنا في تلك الدعوات شهادةً على قدرتها ومحبتها لأصفياء الله. فمن مدّة وجيزة فتاةٌ عذراء هي الشهيدة السعيدة بيلاجيا، بسطَتْ لنا بأعظم مجالي السرور، مائدةً روحية حافلة، وقد

وليَ عيدها عيد الشهيد المجيد اغناطيوس. نجد هنا شخصين متفاوتين وإنما الوليمة واحدة، ومعترَكين قد تفاوتا أيضاً ولكنَّ إكليل الجهاد واحد. وتفاوتت ساحتا الكفاح، بيد أن الجائزة واحدة. في الحروب المدنية حيث لا يُستخدم إلاّ قوَّة البدن، لا يُستدعى غير الرجال، وإنما هنا حيث كل المعارك روحية، فالميدان مفتوح طليق وحشد الكفاح فيه يتجمّع من كِلا الجنسَين. فلا ينازل الرجال وحسْب في ساحة الوغى هذه، خشيةَ أنَّ النساء يجدن دون النزال فيها عذراً من ضعف طبيعتهنَّ يكاد يكون مقبولاً. ولا تُخَصُّ النساء بهذا الكفاح تلافياً مما يوجب على الرجال شدَّةَ الخجل من ذلك الاختصاص بهنَّ. بل يشاهَد من الجنسين عددٌ غفير قد انتصر في هذه المعارك فأُشيد بهم وأحرزوا أكاليل الظفر. من هذه الحوادث تفهمون أنَّه لا فرق في يسوع المسيح بين الرجل والمرأة. ومنها تفقهون أيضاً أنَّ لا الجنس ولا السنّ ولا لطافة المزاج ولا شيء على الاطلاق في اختصار الكلام، يستطيع أن يحول بيننا وبين الخوض في ساحة الحروب الدينيَّة، إذا صحبتنا حميّة وشجاعة وإذا أضرمَت في نفوسنا مخافة الله المتأصِّلةُ فينا نار الغيرة وحرَّكتها للإقدام. ذلك هو السبب لأن يستطيع النزول إلى ميدان الجهاد على السواء، العذارى والنساء والرجال والفتيان والشيوخ والأحرار والعبيد وكلٌّ من الجنسين دون أن يُثبّطهم شيء عن الاندفاع إلى خوض المُعترك إذا اصطحبوا إرادةً كريمةً ثابتة الجأش.

ولقد عرَضت الآن فسحةُ الزمان تحثّني على الإشادة هنا بفضائل الطوباوي اغناطيوس. بيد أنَّ عقلي يتردّد مضطرباً حتى لا أدري من أيّ النواحي أفتتح الكلام، لاتّساع ما ينبسط لديَّ من مرْج مدائحه. فأنا في هذا الموقف مأخوذ حيرةً، كمثل رجلٍ دخل إلى إحدى الحدائق الحافلة بالرياحين، من ورْد وبنفسج وسوسن وسائر أصناف الزهور التي يزخرف بها الربيع تلك الحديقة وهي تنشد معاً عطرَها الفوَّاح فلا يدري أيّها يختار، لأن كلَّ صنفٍ من تلك الأزاهير يستميل إليه نظرُه. هكذا حينما ندخل إلى الحديقة الروحية من فضائل اغناطيوس وهي التي تعرض أمامنا لا أزهار الربيع بل الأثمار المتفرّعة التي أغنى بها الروح القدس نفسَه الزكيَّة، لا ندري إلى أيّها نتخيَّر توجيه فكرنا. لأن كلّ صنف من هذه الأثمار التي نشاهدها، يصرف إليه ميلَنا دون غيره ويدعونا لاستجلاء ما خُصَّ به من بهاء وجمال. أُحكموا أنتم أنفسكم. فإنَّ اغناطيوس تولّى رعاية كنيستنا بالشجاعة والغيرة التي طلبها يسوع المسيح من كل أسقف، ودقّق في إتمام القاعدة العظمى التي سنَّها ابن الله لتولّي الأسقفيّة. فقد كان قرأ في الإنجيل: «إنّ الراعي الصالح

يبذل نفسه عن خرافه» (يوحنا ١١:١٠٤) لذلك بذل هو حياته بشجاعة قصده. لقد وجد نفسه على الحقيقة معايشاً للرسل، فاستقى من الينابيع الروحية الحقيقيَّة. فوالحالة هذه ما أعظم شأن هذا الرجل الذي نشأ على مثال أولئك الرجال ورافقهم أيَّان وُجدوا، وناله نصيب من جميع مشاريعهم وتصرّفاتهم، حتى رأوه أهلاً لأن يرئس كنيسةً عظيمة! لقد عاش في زمنٍ يتطلَّب نفساً باسلة، نفساً متعالية فوق كل الأمور الدنيوية ومتلهّبةً بنار الحبّ الإلهي وجديرة بتفضيل غير المنظورات على الأشياء المنظورة. لقد شوهد وهو يتجرّد من جسده بالسهوله التي يتجرَّد بها الإنسان من ثوبه. فبِمَ أستفتحُ كلامي هنا؟ أبذِكْرِ عقيدة الرسل التي كرز بها دون توانٍ ولا ملل، أم بذِكْرِ احتقاره للحياة الدنيا، أم بذِكْرِ غيرته الحرَّى التي ساس بها كنيسته؟ وأيًّا أمدح فيه؟ الشهيد أم الأسقف، أم الرسول؟ لأنَّ نعمة الروح القدس قد عقدت له إكليلاً مثلَّثاً زيَّنتْ به رأسه الوقور. وبالأحرى قد ضفرت له عدداً كبيراً من الأكاليل بعد اختبارٍ لكلٍّ منها. وسنرى أنَّ أكاليل غيرها قد نشأت منها وأزهرَت كفروعٍ جمَّة تنبتُ من أصلٍ واحد.

٢ – وإذا شئتم فلنشرع **بمديح أسقفيَّته**. أليس ثَمَّ إلاّ إكليلٌ واحد؟ بل سيتبيّن لكم إذا تبسَّطنا في بيان إكليله الأسقفي، انه قد تفرَّع منه عدَّة أكاليل. ذلك لأني لا أعجب من اغناطيوس لكونه اعتُبِر أهلاً للأسقفية فحسب، بل لأنه نال هذا الشرف من الرسل الذين وضعوا أيديهم القدسيَّة على رأسه الطوباوي. ولا اقتصر من مدحِهِ على أن الرسل جذبوا إليه من العلى أعظم نعمة، وأنَّهم نزَّلوا عليه من الروح القدس فيض نعمةٍ متدفّقاً. وإنما أمدحه لكونهم شهدوا له حينما قدَّسوه أسقفاً بأنه محرزٌ في شخصه كلّ ما يمكن إنساناً أن يُحرزه من الفضائل. أشرح هنا فكري. كتب القديس بولس إلى تيطس – ومتى ذكرتُ اسم بولس فكأني ذكرتُ أيضاً بطرس ويعقوب ويوحنا وسائر جوق الرسل. فكما أنَّ القيثار الواحد يجمع عدَّة أوتار متفاوتة، يصدر عنها تساوق نغمٍ واحد، هكذا جوق الرسل يجمع عدّة أشخاص هم ذوو عقيدةٍ واحدة لأنَّ لهم معلِّماً واحداً هو الروح القدس، الموحي إليهم جميعاً. وهذا ما أبلغَه القديس بولس إلى السامع حيث قال: «فسواءٌ أوَعَظْتُ الكلمة أنا أم غيري فهكذا قد وعظتُكم» (١ كور ١٥:١١) إذن قد كتب هذا الرسول إلى تيطس يُفهمه ما يجب أن تكون مزايا الأسقف فقال: «لأن الأسقف يجب أن يكون بغير مشتكى بما انه وكيل الله، غير معجبٍ بنفسه ولا سريع الغضب ولا مدمنٍ للخمر ولا سريع الضرب ولا ذي حرصٍ على المكسب الخسيس بل مضيفاً للغرباء محبًّا للخير عادلاً نقيًّا عفيفاً

ملازماً الكلام الصادق المختص بالتعليم لكي يقدر أن يعظ بالتعليم الصحيح ويحاجَّ المنافقين.» (تيطس ١ : ٧) وكتب بالمعنى نفسِهِ إلى تيموثاوس قال : «إن كان أحد يرغب في الأسقفيَّة فقد اشتهى أمراً عظيماً (مقدَّساً) فينبغي أن يكون الأسقف بغير عيب رجلَ امرأةٍ واحدة صاحياً عاقلاً مهذّباً مضيفاً للغرباء قادراً على التعليم غير مدمن الخمر ولا سريع الغضب بل حليماً غير مخاصم ولا محبّ المَال» (١ تيموثاوس ٣ : ١ – ٥) إنكم ترون في هذا الكلام مبلغ الفضيلة التي يطلبها القديس بولس في الأسقف. فاذا عمد مصوّرٌ بارعٌ إلى أن يرسم صورة أحد الأمراء بحيث يمكن جعلُها مثالاً في الفنّ، يضع فيها بحذقٍ جميع ألوانها حتى إن جميع المريدين الاقتداء به يجدون في تلك الصورة أصلاً متمَّماً لما يريدون. هكذا الطوباوي بولس إذ أراد أن يرسم لنا مثالاً لما يجب أن يتحلَّى به الأسقف كفعل المصوِّر في رسمه لصورة الأمير، قد جمع متفاوتات الخطوط التي تبرز الفضيلة، خلالها، وقدَّم لنا أصلاً متمَّماً بحيث إن كلَّ واحد ممَّن يُرفعون إلى ذلك المقام، يجعل تلك الصورة نُصبَ ناظرَيه ويتخذها قاعدةً لأعماله. وهنا أستطيع التأكيد انّ الطوباوي اغناطيوس قدَّم في ذات شخصه تغيُّراً وافياً لتلك القاعدة المثلى. فإنه وهو غير مأخوذٍ بعيب أو مَلام، لم يكن متجبّراً ولا غضوباً ولا مدمن الخمر ولا سريع الضرب بل كان عادلاً قدّيساً ليِّن العريكة بعيداً عن كل مشاجرة وعن كلّ نزعة إلى الانتفاع الخسيس، متمسِّكاً بكلمة الحق كما لُقِّنَها. كان زاهداً حكيماً في صيانةٍ واتّضاع ومالكاً جميع المزايا التي يطلبها القديس بولس. «مَن ذا الذي تظنُّونه قد تحقَّق فيه هذه المزايا»؟ لقد تحقَّقها أولئك الذين بعد أن سنُّوا هذه القواعد رأوهُ أهلها فسمُّوه. هم أولئك الذين لم يكونوا ليُلِحُّوا على غيرِهم أن يتحرَّوا بشدَّة اختبارَ مَن يريدون رفعَه إلى العرش الأسقفي، لو أنهم باشروا هم بأنفسِهم ذلك الاختبار عن غير اكتراثٍ له. أولئك هم الذين لم يكونوا قد أسندوا مهمَّةَ الأسقفيّة إلى قديسنا الشهيد، لو لم يرَوا نفسَه مزدانةً بكل الفضائل. فلا شكَّ أنهم استدركوا الخطر الكبير الذي يتعرَّض له الذين يختارون لذلك المقام أشخاصاً حسبما يتَّفق لهم وبدون تأمُّل في الواجب وهذا ما يُبلغه إلى المسامع القديس بولس عينُه فيما كتبه إلى تيموثاوس نفسِه فقال : «لا تبادِر إلى وضْع يديك على أحد ولا تشترك في خطايا غيرك.» (١ تيموثاوس ٥ : ٢٢) ماذا؟ أيخطأ غيري وأنا أتحمَّل الخزي وعقابَ خطاياه؟ نعم إن ذلك لَهُوَ الحقّ لأنك يا هذا تبذل لشريرٍ وسائل ارتكابه للشرّ. فمَن يقدّم سيفاً لمجنون أو لمَن هو في شدَّة هيجان الغضب، يرتكب جريمة القتل التي اقترفها ذلك المجنون أو ذاك الغَضوب

الأحمق. هكذا مَن يبذل لشرّير وسائل الضرر في رفعه إلى المقام الأسقفي فهو يصبُّ على رأسه نفسه العقوبات التي يتعرَّض لها ذلك الشرّير بخطاياه وإمعانه في الشطط. لأنَّ الذي يستنبط ينابيع الشرّ يكون هو علّة لكل الشرور المنبعثة منها. ومِن هذا تعلمون أنَّ أسقفيّة اغناطيوس عرضت أمامنا إكليلاً له مزدوجاً فمناقب الناس الذين رفعوه إليها تَهَبُ له إكليلاً كأنفس ثُريًّا وتقدّم شهادةً بكلّ الفضائل المتلألئة فيه.

٣ - أتُريدون أن أُبيِّن لكم إكليلاً ثالثاً يبرزُ أو يَتولَّد من الإكليل الأول؟ لنتأمَّلْ في **الزمن الذي أُقيم فيه اغناطيوس أسقفاً**. إنه لفرقٌ بين رعاية الكنيسة في عهدنا، ورعايتها في عهده. فلَكَمْ يتفاوت مَشْي المسافر في طريقٍ ممهَّدة تحت قدميه، ومشيُهُ في طريقٍ وعرَة المنحدر، حجرة، حادَّةِ شناغيب الصخور والوحوش الضارية تسرح في جنباتِها وهو لا بُدَّ له من الاجتياز فيها أوَّل مرَّة إذ لم يسلكْ فيها أحدٌ غيرهُ من قبل. فاليوم - بنعمة الله - لا يتعرَّض الأساقفة لخطرٍ ما إذ يسود الكنيسة سلامٌ مديد الظِّلال، وجميعنا ننعم في سكينة وافية. فالدين، قد امتدَّت البشارة به إلى أقاصي الدنيا حتى ليتولَّى الملوك أنفسهم حماية الإيمان. أمَّا في ذلك العهد فلم تكن الحالة على هذا الوجه، بل أيَّان اتجهت الأبصار وقتئذٍ فلا ترى إلاَّ لججاً عميقة وأغواراً هائلة. ففي كل مكان حروب ومعارك وأخطار. إذ الحكّام حينذاك والمدن والشعوب والأمم قاطبةً، الغرباء والأهل والأقارب كلُّهم يضطهدون المؤمنين. وأهول ما يُشاهَد هناك أنَّ المؤمنين أنفسَهم وقد تفقَّهوا حديثاً بتلك العقائد المستجدَّة عندهم، كانوا في حاجةٍ إلى كثير من المراعاة والمداراة، فقد كانوا ضعفاء تكثر فيهم العثرات وعثراتُهم ليست بأقلَّ ألماً لا بل هي التي كانت تؤلم أقطاب الإيمان أكثر مما تؤلمهم الحروب الثائرة عليهم من الأباعد. فالحروب والاضطهادات المتدفقة عليهم من الخارج كانت تبثُّ فيهم الفرح والرجاء للمكافآت التي أُعِدَّت لهم. هكذا الرسل كانوا يخرجون من مجلس القضاء متهلِّلين فرحاً لأنهم جُلدوا فيه بالسياط. فالقديس بولس المفتخر في كلّ مكان بما يناله من عاديات الغموم كان يهتف قائلاً: «إني أفرح الآن من أجلكم» (كولوسّي ١ :٢٤) إنما خطايا المؤمنين وعثراتُهم وهم إخوتهم لم تدَعْ لهم مساغَ تنفُّس، لأن تلك العثرات والخطايا كانت كنِيرٍ ثقيل يُرهق رؤوسهم وأعناقهم ويحمِّلهم عناءه بغير مهادنة. فاسمعوا هذا الرسول الذي كان يفتخر بآلامِهِ كيف يئنُّ توجُّعاً شديداً من متاعبه الداخلية. قال: «مَن يضعف ولا أضعفُ أنا ومَن يُشكَّك ولا أحترقُ أنا؟» (٢ كور ١١ :٢٩). وفي موضعٍ آخر يقول: «أخشى إذا أتيتُكم أن لا

أجدكم على ما أحبُّ وأن تجدوني على ما لا تحبّون. وأن يُذلّني إلهي بينكم إذا قدمتُ إليكم مرةً أخرى وأنوح على كثيرين من الذين خطئوا آنفاً ولم يتوبوا عمَّا صنعوا من النجاسة والزّنى والفِسق.» (٢ كور ١٢: ٢٠ و٢١) إننا نعجب من ربّان السفينة، لا حينما يوصل المسافرين إلى المرفأ حالةَ أن البحر في سكون والسفينة تجري على هونها بهواءٍ موافق لها، بل نعجب من براعة الربّان الذي يقوى على تسيير سفينتِهِ بثقةٍ وطمأنينة حينما يكون البحر في هياجٍ وأمواجه ترتفع متلاطمة حتى ليقع الشقاق بين المسافرين، والعواصف تهدّد من الداخل والخارج. هكذا نلتزم على الخصوص جزيةَ التعجُّب للأحبار المثقَّلِين بأعباء إدارة الكنيسة حينما تثور الحروب وتُضرَم في كل مكان نيرانها المشؤومة، حينما لا تزال غرسة الإيمان في أول نضارتها وهي تحتاج إلى كثيرٍ من العناية بها، حينما يكون الشعب المؤمن أشبهَ بطفلٍ حديث الولادة فهو يحتاج إلى أن يُدبَّر بتيقُّظٍ وانتباه وأن تصحبَ الحكمةُ تقويتَه باللّبن غذاء الأطفال الضعفاء. فرغبةً في أن تشعروا أفضلَ شعور بما يستحقّه من الأكاليل أولئك الرجال المتولُّون إدارة الكنيسة في ذلك العهد، وبما يعانونه من متاعب الأعباء والأخطار التي يجتازون في أهوالها بينما هم ينشرون تعليم الإيمان، أسردُ عليكم شهادة يسوع نفسه الذي تُثبتُ كلماته ما نقول. فانه حينما كان يرى جماهير الناس يُقبلون عليه وأحبَّ أن يُفهم تلاميذه أن الأنبياء قد جاهدوا في مشقّات الأعمال أكثر منهم، قال لهم: «إنَّ آخرين قد تعبوا وأنتم دخلتم على تعبهم.» (يوحنا ٤: ٣٨) ومع هذا فالرسل قد تعبوا أكثر جداً من الأنبياء ولكن بما أن الأنبياء سبقوا فزرعوا الكلمة المقدسة، وبما أنهم هدَوا إلى الحقيقة أُناساً لم يكونوا مستنيرين بالمعرفة، فيسوع المسيح يعزو إليهم مكابدة أفدح الأعمال. فليس سوآء! كلاَّ فليس سوآء من يرشدون بالتعليم شعوباً ومن سبقوهم فجاهدوا في التعليم والإرشاد لهم وبذروا فيهم أولى بذور العقيدة. إنَّ الحقائق التي تاح سابق التأمل فيها واعتيدَتْ ألْفَتُها تُقبَل بسهولة خلافاً للعقيدة التي تُعلن أول مرَّة فإنها تبلبل عقول سامعيها وتجعل مَن يُلقون بذارها في ارتباكاتٍ شديدة. وشاهدنا في أهل أثينا حين سمعوا كلام القديس بولس فقد جهَّلُوا هذا الرسول ووبَّخُوه على أنه بلَّغ مسامعَهم أموراً غريبة (أعمال ١٧: ٢٠) فإذا كانت رعاية الكنيسة تسبّب اليوم للقيِّمين بها جُهداً بالغاً فكم سبَّبت من شدائد المشقّات لمن كانوا يتولَّونها في بهرة الأخطار والحروب والاضطهادات والمخاوف المتَّصلة؟ من الصعب جداً بل من العبث الباطل أن يُعبَّر اليوم عن كل العقبات التي اجتاز فيها القديسون في تلك العصور فلا بُدَّ لمن يصفها حقَّ

وصفِها من أن يكون قد اختبرها بذات شخصِه.

٤ — وبعد فهل أُحدِّثكم عن إكليلٍ رابع؟ فما عسى أن يكون هذا الإكليل؟ **إنَّه توَلِّي الحُكم في وطننا!** فإذا استُصعِبَت سياسة خمسين شخصاً لا غير، فأيُّ فضيلةٍ وأيُّ حكمةٍ لا بدَّ من التحلّي بهما لمن يرأس شعباً يتجاوز عددُه مِئتَي ألف إنسان؟ ونقول باختصار، كما أنه في نظام الجيش تُوكَلُ إلى أبرع الضباط إمرةُ الفِرَق حرّاس القيصر وهي أكثر الفِرَق عدداً، هكذا الولاية على أكبر المدن وأكثرها شعباً، يُسلَّم زمام سياستها إلى أوفر الناس حكمةً وأثبتهم جأشاً. أضيفوا إلى هذا أنَّ الله كانت له عناية خصوصيَّة بمدينة أنطاكية كما دلَّنا على ذلك تدبيرُه لها قبل. فإنه رأسَ بطرس على المسكونة جميعها وألقى إليه مفاتيح السماء ورعاية الكنائس كلِّها وكلَّفه أن يسكن هنا فيما بيننا زمناً مديداً اعتبارَ أنَّ مدينتنا المقدَّسة تعادل في نظرِه بقيَّة العالم. وبما أنني ذكرت بطرس، فأرى أن قد ضُفر لاغناطيوس إكليل خامس هو مجد الخلافة لأمير الرسل. إذا رفعتم من الأساس حجراً كبيراً فلا بدَّ من وضعِكم حجراً آخر في ضخامة الأول وقوَّته خوفاً من إضعاف البناء وتعريضه للتهدُّم جملةً. وكذلك حين اضطرَّ بطرس أن يبتعد عن كنيستنا، عوَّضَت عنه نعمة الروح القدس بمرشد يعادله استحقاقاً حتى لا يفقد البناء شيئاً من صلابته بضعف مَن يخلفه. إذن قد عدَّدنا خمسةَ أكاليل لحبرنا القديس: أوَّلها هو أهميَّة المقام الذي شغِله ثم قدْر الذين رفعوه إليه ثمَّ الصعوبات التي وضعتها له عوارض الزمان، ثم المدينة التي تولَّى رعايتَها وأخيراً فضيلة الشخص العظيم الذي أسند إليه من بعده إدارة هذه الأسقفيَّة. وفي وُسعي أن أضمَّ إلى هذه الأكاليل عديداً غيرها ولكني لرغبتي في أن لا نشغل الوقت كلَّه بالحديث في اغناطيوس أسقفاً وقد بقي علينا أن ننظر فيه شهيداً، أنتقل هنا إلى بيان معاركه المجيدة. فقد كانت أضرمت حربٌ طاغية على الكنائس. وبما أن البسيطة كلَّها أضحت حينذاك فريسةً لأشرسِ ظلم فالمؤمنون كلُّهم طُردوا من الأمكنة العامَّة ولا ذنبَ لهم يُؤخذون به، إلاّ أنهم لوَوا وجوههم عن ترَّهات الضلال وسلكوا سبُل التقوى، وإلاَّ رفضُهم لخرافات الأبالسة ومعرفتهم لله الحقّ وعبادتُهم لابنه الوحيد. فحَتْمٌ على الدين أن يجزيَ رجالَه هؤلاء الغيرُ بما يستحقون من أكاليل وتضعيف التهليل ومن سنيَّات المفاخر. فلأجل الدين عينه كان يُعاقَب ويعاني ألوفاً من ضروب النِّكال والتعذيب أولئك الأبطال الذين انتحلوا الإيمان ولا سيَّما رؤساء الكنائس. لأن الشيطان الممتلئ خبثاً واحتيالاً أمَّلَ أنَّ تبديدَه للرعاة يهوّن عليه في آخر الأمر أن يبدّد قطعانهم.

ولكنَّ الذي أخزى مقاصد الأشرار حين شاء أن يبيّن للشيطان أن ليس البشر همُ الذين يتولُّون إدارة الكنائس بل يتولاَّها ذاك الذي يدير شؤون المؤمنين في كل الكنائس وهو الذي سمح بأَنَّ الرؤساء فيها يُدفعون إلى التعذيب حتى عندما يُشهد أنَّ موتهم هو أبعد من أن يستطيع إطفاء الدِّين وأن يُثبّط فلاح انتشار الإنجيل، لم يصنع سوى أن وسَّعَ مملكة هذا الدِّين وعلَّم تعليماً فعليًّا هو وخدّام الدين عينِه أنَّ العقيدة المسيحية ليست ذات أصلٍ بشريّ ولكنها ذات ينبوعٍ يتدفّق من السماء وأنَّ الله هو المُهيمِن على كل الكنائس في جميع العالم ومن المحال أن يُعقَد لواء الظفر لمن يحارب الله العليّ. والمكرُ الثاني مكرُ الشيطان الذي لم يحوّلْه عن مكرِه الأول وهو أنه لم يُرِد سفكَ دماء الأساقفة في الكنائس التي يتولّون رئاستها بل ينقلهم إلى مكان بعيد يستبيحُهُم فيه خادعاً نفسَه بإضعاف عزائمهم في سلْبهم ما هم بأشدّ الحاجة إليه من مرافق الحياة وبنَهْكِهم تعباً من طول مسافة الطريق. هكذا عاملَ الطوباوي اغناطيوس إذ أكرهَه على المسير من أنطاكية إلى رومة والمسافة بين المدينتين جدُّ شاسعة. فكان المكَّار يأمل التغلُّب على ثبات القديس بمصاعب السفر البعيد الشُقَّة والكثير المشقَّة. ولكنه كان يجهل انَّ هذا القدّيس المرافق ليسوع المسيح في تلك الرِّحلة، قد ازداد صلابةَ جلَد، فدلَّ بالبيِّنة على قوة نفسه حتى لقد ثبَّت الكنائس في الإيمان، إذ كانت المدن تزدلف إليه من كل حدْبٍ وصوب لتُحيّيَ في الطريق هذا المصارع البطل الكريم مقدّمةً له جميع لوازم المعيشة ومُعينةً له بصلواتها وأمانيِّها وهي تشعر بتعزيةٍ بالغة من رؤيتها هذا الشهيد يُقبل على الموت بشوقٍ مسيحيّ مدعوٍّ إلى ملكوت السماوات. فسَفَرُه حتى حرارة نشاطِه وطلاقة محيَّاه علَّمت جميع المؤمنين سكّان هاتيك المدن أنه غير سائرٍ إلى الموت بل إلى حياةٍ حتى يبلغ الملكوت السماوي. فأقواله وأعماله ثقَّفتِ الشعوب حتى إنَّ ما حصل لليهود في شأن بولس إذ أرسلوه إلى روما مُقيَّداً بالسلاسل لِتيقُّنِهم أنهم مرسلوه إلى الموت، إذ هو زعيم المسيحيين. إنّ هذا الذي حصل لليهود في شأن بولس، حصل للمضطهدين في شأن اغناطيوس ولكن بأسلوب أشدَّ وقعاً لأنه صار مرشداً عجيباً لا لسكّان رومة فحسْب، بل لكل المدن التي اجتاز فيها. فقد علَّم سكَّانها أن لا يقيموا وزناً للحياة الفانية، وأن لا يحسبوا شيئاً الأمور المنظورة ولا يرتاحوا إلاّ للخيرات المستقبلَة، رافعين أنظارهم إلى السماء غير خائفين شيئاً من أسواء هذه الحياة وشدائدها. تلك وأمثالها هي الإرشادات التي بذلها بغيرته لكل الشعوب الذين مرَّ بهم. فكان أشبه بشمسٍ تطلُع من المشرق وتسير نحو

المغرب ناشرةً من أشعَّةِ أنوارها أكثر مما يبعث إلينا الكوكب الذي ينيرنا. لأن هذا الكوكب يلقي أشعَّةً محسوسة ماديَّة، وأمّا اغناطيوس فقد أشرق في الدنيا مهذّباً للنفوس ومضيئاً لها بنورٍ روحيّ. إنَّ شمس الفلك إذ تنزل إلى نواحي المغرب تتوارى وتترك العالم تحت الظلمات. وأمّا اغناطيوس ففي سيرِه إلى تلك النواحي عينها، قد طلع وبذل حرارته لكلّ الذين على طريقه. ولمّا دخل رومة علَّم تلك المدينة الوثنيَّة فلسفةً مسيحيَّة وشاء الله أن تكون خاتمة أيامه فيها، ليكون موتُه أمثولة لجميع الرومانيين. فأنتم الذين ثُبتُّم في الإيمان بنعمةِ الله، لستم بحاجة إلى براهين تُقنعكم. وأما الرومانيون الغارقون وقتئذٍ في أضاليل الكفر، فكانوا في أمسِّ الحاجة إلى الإسعاف الكثير. فبطرس وبولس وبعدهما اغناطيوس قد ضُحّي بهم في رومة، إمّا لِتطهّر دماؤهم مدينةً ملطّخةً بأرجاس دماء الضحايا المقدَّمة للأوثان أو لتقديم البيّنات العمليَّة على قيامة المسيح المصلوب إذ يُشعرون الرومانيين بأنهم لم يحتقروا الحياة الحاضرة بكرمِ نفسٍ لو لم يتيقَّنوا انضمامهم إلى يسوع المصلوب وأنهم سيشاهدونه في السماوات. نعم إنَّ أقوى برهان على قيامة يسوع المسيح المذبوح من أجلنا هو أنه بعد موته أظهر قدرتَه فاقنع البشر الأحياء أن يضحّوا بأوطانهم وبيوتهم وأصدقائِهم وأهلِهم وبحياتِهم عينِها في سبيل الاعتراف بٱسمه وأن يفضّلوا على ملذات الدنيا جلَدات السياط وضروب المكافحات ومشاقَّ الأعمال والموت. فعجائب هذه القدرة ليست صنيع إنسانٍ ميِّتٍ راقد في ضريحه بل هي فعل إلهٍ نهض من الرمس لكي لا يموت بتَّةً. ماذا؟ حين كان يسوع المسيح حيًّا في الدنيا، كان الرسل ينعمون في اجتماعهم إليه، فلم يبتعدوا عنه إلاّ وقتما شرع في آلام الصليب. ولكنهم بعد موته، لا بطرس وبولس فقط بل اغناطيوس أيضاً الذي لم يشاهد يسوع قط ولا عايشه، وجميع الرسل قد أقاموا الدليل الواضح على ٱستبسالهم في سبيل حبِّهِ حتى لقد بذلوا حياتهم ضحيةً من أجله! فهل هذا ممَّا يُتصوَّر؟

٥ – لقد شاء الله أنّ الطوباوي اغناطيوس يختتم أيَّامه في رومة غايةَ أنَّ الرومانيِّين يتعلَّمون منه تعلُّماً عمليًّا. فموتُه هو برهان على الحقيقة التي قدَّمتُ بيانَها. وصُفوة الكلام أنه لم يُحكم عليه بالموت خارج الأسوار ولا في السجن ولا في مكان بعيد عن المدينة بل تحمَّل عذاب الشهيد في حفلة الألعاب على مشهد المدينة كلِّها حيث تجمَّع السكان ليعاينوه ملقًى فريسةً لضواري الوحوش التي أطلقوها عليه. كذلك مات! وبإعلائه شعار انتصاره هذا على الشيطان تلقاء الأخطار من جميع الأشهاد، قد ٱغتبطوا كلُّهم بأن

يقتدوا به في مثل المعترَك الذي خاضه. لأنه أفعمهم دهشاً من الشجاعة التي اَستسهل بها الموت، بل أقدَمَ عليه فرحاً. فقد كان ينظر بعين وادعة مطمئنة إلى الوحوش الضواري لا كأنه مُعَدٌّ ليُقتلَع من هذه الحياة بل كأنه مدعوٌّ إلى حياة أفضل وأعلى في الروحيَّات شأناً. ما الذي يدلُّنا على ذلك؟ تدلُّنا عليه الكلمات التي فاه بها قبل موته ببضعة أيام حينما أُعلِمَ بالميتةِ التي قُضي بها عليه فقال: «إذن سأتنعَّم بالوحوش المفترسة.» تلك حالة المحبِّين أنهم يتقبَّلون بسرور كلَّ ما ينالهم من الآلام في سبيل أحبّائهم. فكلَّما تحمَّلوا لأجلهم أتعاباً وبلايا، زادوا اعتقاداً أنهم بلغوا غايةَ أمانيِّهم. وهذا ما حصل لقدِّيسنا الشهيد: فقد كان يتضرَّم شوقاً لا إلى الاقتداء بالرسل في موتهم فقط بل في غيرتهم أيضاً. وإذ هو يعلم أنهم كانوا يُجلَدون بالسياط يخرجون من مجلس القضاء فرحين، إعتزم ببسالةٍ على أن يحذو حذو معلِّميه في أن يموت وهو متهلِّلٌ فرَحاً. ولذلك قولُه: «سأتنعّم بالوحوش المفترسة» وكان يرى أنَّ أنياب تلك الضواري ألطف من لسان الظالم وأنه مُحقٌّ الرأي والنظر. فذاك اللسان كان يروم أن يرميَ بهِ في نيران جهنَّم وأمّا أنياب الوحوش فتملِّكه السماء. ولما ختم حياته في رومة وبالأحرى لمَّا أخذ المُلك السماوي فيها، عاد إلى هذه المدينة معتصباً بإكليل المكافأة لجهاداتِه. وقد كان هذا من مقاصد العناية الإلهية أن تعيد إلينا هذا الشهيد المجيد بعد أن وزَّعته على عدّة مدُن. فرومة تقبَّلت دمه المسفوك في سبيل الإيمان وأنتم هنا تكرّمون رفاته الثمين. لقد تنعَّمتم بأُسقفيّته هنا فيما سلف والرومانيون تنعَّموا باستشهاده عندهم. لقد شهدوه يكافح وينتصر ويحرز الإكليل وأنتم تحرزونه الآن مدى الأبد. وإنَّ الله الذي جرَّدكم منه وقتاً وجيزاً أعاده إليكم مظلَّلاً بستار المجد. وكما أنّ المقترض مبلغاً من المال يردّه إلى صاحبه مع فائدته، كذلك فعل الله. فهو بعد ان اقترض منكم لزمنٍ يسير كنزاً نفيساً وأظهره لرومة، ردَّه إليكم ببهاء أشدَّ ازدهاراً لقد أرسلتم أسقفاً وتقبَّلتم شهيداً. بعثتموه وأنتم تحفُّونه بالأماني وتقبَّلتموه معتصباً بعدَّة أكاليل ولم تتقبَّلوه وحدكم بل اشترَكَت معكم كل المدن الواقعة على ممرِّه. فبأيّ العواطف تظنّونهم قد نظروا إلى عودة البقايا القدسيَّة من جسده البشريّ المقدس؟ أيُّ فرحٍ فرحُهم؟ أيُّ ابتهاجٍ ابتهاجهم؟ وبأيّ هتاف التهليل حيّوا هذا البطل المنتصر المزيَّن بأكاليل انتصاره؟ فكما أنَّ مصارعاً كريماً ظفرَ بمقاوميه وخرج من الميدان مجيداً يتقبَّلُه المشاهدون من فورهم ويحملونه إلى بيته على أكتافهم دون أن تطأ قدماه الأرض، حتى ليتبارَون سباقاً في مديحه، هكذا جميع المدن من رومة إلى انطاكية أقلّت على أكتاف

سكانها حبرَنا المطوَّب وإعادته إلينا متألقاً على جبهته إكليل الظفر وقد غمره الجميع بالمدائح وأدُّوا الشكر إلى القاضي الأسمى في وقائع الحروب وهم يُخزون الشيطان لأنَّ مكرَه قد أحاق به وأخذ هو نفسه في الفخّ الذي كان قد نصبه تحت أقدام الشهيد. وحينئذٍ فالأسقف الشهيد قد أشرك بالسعادة تلك المدن التي مرَّ بها وبذل لها تعليم الخلاص. ومن ذلك الوقت إلى الساعة الحاضرة قد أغنى مدينة انطاكية فهو أشبه بكنزٍ عظيمٍ جمٍّ المنافع يُستمدُّ منه كل يوم ولا يزال مُمِدًّا بالغنى الأوفر مَن يتملَّكونه. هكذا الطوباوي اغناطيوس لا يَردُّ مَن يقصدونه إلاّ بعد أن يغمرهم بالبركات ويملأهم من الثقة وعلوّ النفس والشجاعة. فلا نكتفينَّ بالإلتجاء إليه في هذا اليوم وحسْب بل لنقصدْ كل يوم لنجتني بواسطته ثماراً روحية. فأيّ إنسان نعم أي إنسان يقترب منه بإيمان لا بُدَّ من أن ينال أعظم الفوائد. لأنَّ مدافن القديسين لا أجسادهم فقط هي مملوءةٌ من النعمة الروحية. فاذا اتفق لأليشاع أنَّ متوفًّى ماسَّ ثوبه فقطع رُبُط الموت وبعث حيًّا فبأولى حجة الآن إذ النعمة أغزرُ مَدداً ومواهب الروح القدس أبلغُ أثراً فمَن يلمس مدافن القديسين فلا بُدَّ من أن يفوز بأشدّ قوة. فالرب قد حفظ لنا بقاياهم الثمينة غاية أن ينفخ فينا روح الغيرة التي طالما اضطرمَت في جوارحهم. ذلك ليقدّم لنا بهم مرفأً وملجأً وتعزيةً في كل البلايا التي تؤلمنا. كذلك أنتم يا مَن هم أهداف الشدائد والأمراض والإضطهادات والآلام أو الذين هم غرقى في لجج الخطايا إقتربوا بإيمان من هذا الرفات فتُلقى عنكم جميع الأعباء التي تثقِّلكم وتصدروا عنه وأنتم في غمرةٍ من الرضى والراحة، فالنفس والضمير يعودان خفيفين نشيطين بإلقاء النظر مجرَّداً على ما بقي لنا من حبرٍ قدّيس. وبالأحرى ليس المغمومون هم المضطرّين إلى الاقتراب من هذا الضريح، بل لا يحتقرنَّ عظمةَ الفوائد المرجوّة من النظر إلى مثل شهيدنا المجيد، مَن يكون وادع النفس مطمئنًّا، ومَن هو في رفعة المجد أو في كنف القوة، أو مَن هو بالغ الثقة بالله. فهذه النظرة وحدها تحقّق له بقاءَ ما يمكن من الخيرات لأنها تذكّره بالفضائل الجلّى وترشده بهذا التذكار إلى أن يعتدل وأن لا يفتخر باستحقاقه الشخصيّ ولا بما يناله من ضروب النجاح ولا بأعماله الصالحة. والحال أنها ليست فائدةً نزرة فائدةُ أولئك الذين هم في حالةٍ سعيدة أن لا يدعوا نفوسهم منتفخةً إعجاباً بكل ما هم فيه من سرَّاء الدنيا. فالفائدة كل الفائدة هي في أن يعرفوا كيف يثبّتون حالاتهم بالاعتدال السديد الرشيد. إذن هنا كنزٌ نافع للجميع. هنا ملجأ هيِّنٌ ولطيف يستطيع البؤساء أن يجدوا فيه خلاصاً

من بؤسهم ، والسعداء تثبيتاً لسعادتهم ، والمرضى عودةَ الصحة إليهم والممتَّعون بالصحة مناعةً تصدُّ عنهم المرض. وفيما أنَّ هذه الأفكار مخالجةٌ لنا ، فلنفضِّل هذا الضريح على كل مجالب السرور وكلّ ملذَّات العالم حتى نستطيع ونحن فرحون ونائلون منه الغنى ، أن نصعد إلى مقرّ السعداء حيث بلغ القديسون. قلتُ حتى نستطيع أن نصعد إلى مقرّ السعداء ، ذلك بشفاعة هؤلاء القديسين وبنعمة وصلاح ربّنا يسوع المسيح الذي يُعلن له المجد مع الآب والروح القدس ، الآن ودائماً ومدى الدهور آمين.

ترجمة
الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

١٣
عِظَة
إشادة بأولى الشهيدات القديسة تقلا

إنّنا حين نقيم في كل سنة تذكار القديسين ، تُمثّل أمامنا نعمة الروح القدس صورَهم الكريمة ، وتثبّت لنا عظائم أعمالهم ، بارزةً في حُلَلِ فتوَّة أبدية بعد أن كان الزمان قد دفنها في مطاوي النسيان. فكلُّ ٱمرىءٍ إذ يُقبِل فيحضر الاحتفال بذكراهم ، يجد في هذه الذكرى جمال أعمالهم وهي كأنها مرسومة على لوح فيملأ بصره من مشاهدتها في صورة الذكرى التي تتعلَّق بها تلك الأعمال. أما أنا فأجدُني اليوم أُنعِم بصري بهذه الفتاة الطوباوية كأنني واقف قرب صورة تذكارها ، مُبرزةً الإكليل الذي ظفرت به ، من جهةٍ لانتصارها على لذائذ الدنيا ، ومن جهة ثانية لانتصارها على الأخطار التي هدَّدتها ، ومقدِّمةً لسيِّد الخليقة كلها بتوليَّتها من جهة واستشهادها من جهة ثانية. لقد كانت إذن تملك إكليل البتولية ، والبتولية إذا دقّقنا النظر فيها هي استشهادٌ عنيف قاسٍ يُكابَد قبل الاستشهاد. ذلك لأنَّ اللَّذائذ هُنَّ للجسد بمثابة الجلاّدين القساة المرهوبين أو هنَّ بالأحرى أهوَل من الجلاَّدين. فهُنَّ يُثقِّلننا بقيود لم تصنع حديدها يدُ الإنسان فتجرح النفس بنظر العيون وتستخدم الآذان لتوصل إلى قلبٍ رصين الثبات مِشعَل الفجور ،

وتمزّق عقلنا تحت جلدات السياط القاسية، وتعذّبنا بتهجماتٍ تتوالى علينا باتصال لا ينقطع. فحينما نحتّم على عيوننا أن تظلّ مُطبقةً تلقاء الجمال الجسدي، فاللّذائذ تقطع ذلك الحاجز. فيسقط أمام الأغاني التي طرَقت نغماتُها الآذان لحدٍّ أنها إذا توجَّهت إلى آذان أُصِمَّتْ عن سماع أغاني الفجور إحتالت بإغواء الأفكار والصوَر الداعية إلى السقوط في مدابٍّ المنكرات. فإذا انتصرنا إبّان اليقظة على كل حملاتها العنيفة حاربتنا بأخيلةِ الغوايات أثناء رقادنا. وعلى هذا النمط تشهر علينا حروباً دائمة لا تضع الشمس حدًّا لبداءتها ولا الليل حدًّا لنهايتها. فإذا علقَت بالشبيبة تجارب اللذّات، وذلك هو احتدام الأتون آخذاً بالهشيم والعُصافة. فالشبيبة تلتهب بسهولة ضمن نار الشهوات ولكن إن كانت تلك اللذائذ أشبه بالزيت في سرعة الالتهاب، فمُجاهِدات العفاف تدفعها بأشدّ قوة.

إنّ كل ما ألمعنا إليه من الشؤون جعل بتولية القديسة التي نحتفل اليوم بتذكارها استشهاداً طويل الأمد فكافحت اللذائذ الجسدية كما يكافح الشهيد الوحوش الضارية. وكانت تثبت في حرب الأفكار الرَّذِلَة كما يثبت الشهيد أمام ما ينهال عليه من التعاذيب. وتتحمّل هجمات تلك الأفكار وصوَر الخلاعات كما يتحمّل الشهيد ما يقرّعه به جلاَّدوه من التبريح. ولكنّها انتصرت على تلك المجاهدات الباطنية المتنوعة التي توقدها الطبيعة كما أن الشهيد تتغلّب النيران المقدسة فيه على نيران الطبيعة عنده.

نعم إن تلك الفتاة قهرت طبيعتَها، تلك الطبيعة التي تقهر سائر الناس وتدهورهم إلى حضيض الشرور، قد حافظت تقلا على طهارة البتولية. فإنَّ والدَيها اللّذَين لم يعلما روابط البتولية المرتبطة بها فتاتُهما ولا عرفا الهدية التي قدَّمها لها بيده سيّدها المسيح من أعالي السماء كأنها عروسٌ له، كانا يُلحّان عليها بأن تقبل الزواج. ولكنها كانت تطنُّ أبداً في أُذنيها كلمات القديس بولس القائل: «المرأة الغير المتزوجة والعذراء تهتم فيما للربّ لتكون مقدّسة في الجسد وفي الروح.» (١ كور ٧: ٣٤) فرغبتها الأولى كانت في أن تحوز إكليل البتولية، بذلك لا غير كانت مُغراةً ومشغولة الخواطر بتلك النزعات الخصيبة بالبركة فهي كثيرة الاهتمام بالأمور التي تفضّلها الحريّة على كل شاغل يشغلها عن أن تكون مقدَّسة في الجسد وفي الروح. فلم تكن لها علاقة قطٌّ بالدنيا ولا رابطٌ يحوجها أن ترتبط بضروريات الزواج كأن تحتمل زوجاً مستهتراً في الفجور وأن تكون جماداً تلقاء وساوس الزوج التي لا أساس لها وأن لا تظهر أمام الناس حين الاقتضاء والإفادة وأن تكون يقِظَةً متنبّهة لإعداد

الطعام وأن تثير الغيرة والحسد بما تتجلّى به من التزيُّن وجمال الحلل وأن تُحتقَر قبل أن تكون أُمًّا اعتبارَ أنها لا تملك حقوق الزوجة. وإذ تصير أُمًّا يصير أولادها غرَض انقسام بينها وبين زوجها. أوَلَدت بنتاً؟ فبما أنها لم تلد غلاماً، يعبس الرجل في وجهها كراهيةً واستياءً. أولَدَت غلاماً؟ إنه كذلك لغُلام، ولكنّ والده يراه غير جميل. أكِلا الولدَين ذو جمال باهر، فجمالها لا يُستنتج منه غير الزيادة في مرائر الهموم. أصارا إلى سنّ الفطام فقد وليَت هذه السنّ هموم تربيتهما. فاذا كانا متمتّعَين بصحةٍ طيّبة خيفَ عليهما من المرض وإذا مرِضا خيفَ من موتهما وإن ماتا خاف والدهما أن يُحتقرا منذ ذلك الحين كأنهما لم يلدا ولداً قطّ. وإذا لم يموتا فالاهتمامات التي تُبذل لحياتهما هي ذات عناء ثقيل أيضاً. فلا بدّ من التفكير لتدبير النفقات لِما يلزمهما من التهذيب والتعليم وإعداد اللوازم والنفقات لزواجهما والملابس اللائقة والخَدَم الذين يُخصَّصون لكل منهمَا. ثم يجب أن يُهتمَّ بالميراث الذي يناله البكر وبالوسائل المسكِّنة لحسد الأصغر سنًّا. «أما المرأة الغير المتزوجة فلا تهتمّ إلاّ فيمَا للرب لتكون مقدّسة في الجسد وفي الروح.» انني لا أطعن في طبيعة الزواج فهو سنَّةٌ لديمومة السلالة البشرية. ولكني أظهر بالجليّ الواضح هموم هذه الحالة وأفضّل على العناية بالشؤون الجسدية، العناية بالشؤون السماوية مؤثراً على الشيء الحسن ما هو أحسن منه. فالبتول تعلو حتى فوق ذلك الحكم المقضيّ به على المرأة. فقولُه: «إلى بعلِك تنقاد أشواقُك وهو يسود عليكِ.» (تكوين ٣:١٦) لا يتناول العذارى لأنهنَّ لم يقبلن الخضوع لزوج. وقول الكتاب أيضاً: «بالألم تلدين البنين.» لا يُطبَّق على التي تحافظ على البتولية. فمن الأكيد أنَّ التي لا تلد هي بمعزل عن القضاء المعاقِب بألم الولادة.

إنَّكِ أيتها البتول سبقتِ فحصل لكِ ذوقٌ مقدَّم للخيرات المستقبَلة. سبقتِ فشاركتِ في قداسة القيامة الأخيرة كما قال الرب. «إنهم في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوَّجون» (متى ٢٢: ٣٠) فالسقوط من مقام البتولية هو فظيع، بمقدار ما انّ ذلك المقام هو عالٍ مُنيف وعلى هذا القياس يُقال إن البتول التي تستسلم إلى الدَّنس هي أشدُّ إجراماً من المرأة العاهر. ففرقٌ بين دنس بتول ودنس امرأةٍ بغيّ. وفرقٌ بين سلوك قبيح تسلكه امرأة اعتيادية وسلوكٍ مثله تسير عليه إحدى الملكات. وفرقٌ بين اختلاس إناء مبتذَل الاستعمال العالمي واختلاس إناءٍ من المقدّسات. إنه مقدّس كالبتول ورداء أرجوانيّ لا يحقّ إلاّ لسيّد الخليقة وحده أن يلبسه. انّه عروس تظلّ أبداً مرتبطة الوحدة بالبتولية. فيا لسعادة تلك الوحدة التي ليس لها سرير عرس إلاّ البتوليّة. ولأجل هذه الوحدة السرّية غامرت

شهيدتنا السعيدة في اقتحام الأخطار الجمَّة التي اعترضَتْها.

لقد كانت سبقت فرأت جمال عروسها ولم تملَّ من النظر إلى ذلك البهاء. فحينما كانت أمُّها تلحُّ عليها أن تقبل الزواج كانت هي توجّه إلى عروسها السماوي هذه الكلمات: «إليك رفعتُ عينيَّ يا ساكن السماوات.» (مزمور ١٢٢: ١). فأحد الطامعين من طلاّبها اجتهد ذات يوم في أن يخلبها بالحديث وبيان ما يذوقان من لطائف الحياة الزوجية في مستقبل الأيام ولكنها إذ هي متعلّقة باطناً بالمسيح كانت تقول: «كَلِفَتْ نفسي باتباعِك ويمينك عضدتني.» (مزمور ٦٢) والْتفَّ من حولها أقاربها يداهنونها لتكون عند إرادتهم ولكنها كانت تستحضر بولس إزاءها وهو يقول لها: «إني خطبتك لعروس واحد لأُقدِّم للمسيح بكراً عفيفة.» (٢ كور ١١: ٢) فكان خدَّامها يتوسَّلون إليها في شأن الزواج وهم يذرفون الدموع ولكنها تتمتم بأنشودة الحب إكراماً لعروسها الإلهي: «مَن يفصلنا عن محبة المسيح؟» (رومة ٨: ٣٥) وحاول الحكّام أن يكسروا شجاعتها بالعقوبات ولكنها ازدرت في باطنها بهم وبعقوباتهم وكانت تهتف قائلة: «إنّ خوف الرؤساء ليس على العمل الصالح بل على الشرير.» (رومة ١٣: ٣).

واْعتُزِمَ على أن تُنصَبَ في الساحات العمومية تماثيل لبتوليَّة هذه الشهيدة. فتصوَّروا كم تعرَّضت حينئذٍ للتجربة المكروهة التي اضطرّت إلى التسليم لها. ولمّا تخلَّصت من القضاء أخذت تفتّش عن الطريق التي سار عليها القديس بولس لتقتفي أثره. وإذ وافق مبتغاها مبتغى عامَّة الشعب أقدمت بجرأة على الذهاب في الطريق التي توصلها إلى حيث كان الرسول. وترصَّد الشيطان الابنة الفتاة. فإذ هي في الطريق هيَّج عليها الشابّ الطالب لها ليتجاسر على مسّ شرفها في ذلك المعتزل، كلصٍّ حقيقيٍّ قاطع طريق. وكانت تلك العذراء الكريمة قد أوشكت أن تصل إلى نهاية طريقها حين أقبل ذلك الطامع فيها، وقد تلهَّبت فيه الشهوة البهيميَّة حتى دفعته إلى اتّباعها. وهناك في تلك العزلة هتف: لقد انتصرت. تعاظمت المصاعب على الفتاة من كل ناحية. فالعدوّ شديد الشكيمة والضحية التي أمامه ذات وهنٍ وضعف. فأين لها في ذلك المعتزل القفر ملجأٌ تأمن فيه غدره؟ غير أنَّ البتول في تلك الساعة إلتفتت إلى السماء نحو ذلك الذي يعضد في كل مكان مَن يدعوه ويلتجئ إليه وهتفت والدموع تنسكب من مقلتيها: «أيها الرب إلهي بك اعتصمتُ فخلِّصني.» (مزمور ٧: ٢).

ترجمة الأب نقولا أبو هنا المخلصي
(المخطوطات المخلصيّة)

الفصل العاشر

الأعيـــاد السيّديّة

١
عِظَة
عن القيامة
(العظة الفصحية المشهورة)

مَن كان تقيًّا محبًّا لله، فليتمتَّع بهذا الموسم البهيّ السنيّ. مَن كان حكيماً، فليدخل إلى فرح ربّه مسروراً. مَن تحمَّل مشقَّة الصوم، فلينَل الآن الدينار. مَن عَمِلَ من الساعة الأولى، فليأخذ اليوم أُجرته الواجبة. مَن قَدِمَ بعد الثالثة، فليعيِّد شاكراً. مَن وافى بعد السادسة، فلا يتردّد، فإنه لا يَطاله عقاب. مَن تخلَّف إلى التاسعة، فليتقدَّم غير مرتاب. مَن لم يَصِل إلاّ في الحادية عشرة، فلا يخشَ من إبطائه. فإنَّ السيّد سخيٌّ يقبل الأخير كالأوَّل، يُريحُ عامل الحادية عشرة كعامل الأولى، يرحم الأخير ويُكرِم الأوَّل، يُعطي لذاك ويُنعم على هذا، يقبل الأعمال ويرتاح إلى النيَّة، يقدِّرُ العمل ويمتدح العزم. أُدخلوا إذن كلُّكم فرح ربنا. أيُّها الأوَّلون والآخرون، تمتَّعوا بالجزاء. أيّها الأغنياء والفقراء، اجذلوا معاً. أيّها الممسكون والمتوانون، كرّموا هذا النهار. أيّها الذين صاموا والذين لم يصوموا، إفرحوا اليوم. المائدة حافلة، فتنعَّموا كلكم. العجل سمين، فلا يخرج أحد جائعاً. تمتّعوا كلكم بوفرة الصلاح. لا يشكوَنَّ أحدٌ فقراً، فقد ظهر الملكوت المشترَك. لا يبكينَّ أحد زلاَّته، لأنَّ الغفران قد أشرقَ من القبر. لا يخشَ الموتَ أحد، لأنَّ موت المخلص قد حرَّرنا. أخمدَ أنفاسَ الموت حين قبضَ الموت عليه. سبى الجحيمَ الذي انحدر إلى الجحيم. غاظها لما ذاقت جسدَه. ذلك ما أدركه أشعيا سابقاً فأعلن قائلاً: اغتاظت الجحيم لما لقيتَك أسفل. اغتاظت لأنها أُبطِلَت. اغتاظت إذ قد هُزِئ بها. اغتاظت لأنها أُميتَت. اغتاظت لأنها أُبيدت. اغتاظت لأنها قُيِّدَت. تناولت جسَداً فصادفت إلهاً. تناولت أرضاً فلقيَت سماءً. تناولت ما نظرَت، فسقطت لِمَا هو فيه غير منظور. أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا جحيم؟ قام المسيح والملائكة جذِلَت. قام المسيح والحياة انتظمت. قام المسيح ولم يبقَ في القبر ميت. لأن المسيح، بقيامته من بين الأموات، صار باكورة الراقدين. فله المجد والعزّة إلى دهر الداهرين.

٢
عظة
القيامة

١ – القيامة نصرٌ مُبين

القيامة ! يا لها من انتصار باهر ! إنها لنا مصدر كل خير : تفضحُ حِيَل الشيطان ، وتجعلنا نهزأُ بالموت ونحتقر الحياة الحاضرة توّاقين إلى الحياة العتيدة. وبها نشعر – أقلّه إذا شئنا – إننا في حالة تساوي شرَفاً رُتبةَ الملائكة ، ولو كنّا لا نزال متوشّحين بالجسد. اليوم نحتفل بنصرٍ مُبين، اليوم يستولي ربُّنا على غنيمة انتصاره على الموت ، ويدوسُ طغيان إبليس ويشقُّ لنا بقيامته سبيل الخلاص. فلنفرح جميعاً ونتهلّل مبتهجين. وإن يكن الظافر هو الرب عينه ، فنحن نشاطره غبطته ، لأنه حقّق كل هذه الأعمال لأجل خلاصنا ، واستعمل في تغلُّبه على الشيطان نفس الوسائل التي استعملَها هذا لمحاربتنا.

(ليوم الفصح الرقم ٢)

٢ – ليكن فرحنا روحياً

أستحلفُكم ألاَّ تشوِّهوا هذا العيد ، بل ليتناسَبْ شعورنا مع ما تُفيض علينا نعمة المسيح من فضل. لا نستسلمنَّ للإكثار من الأكل والشرب ، بل لنهتمَّ بأن ندرك حسنات إله يُبدي نحوَنا حبًّا عميماً ، مقدِّرين سخاء ربِّ الجميع الذي يكرّم على السواء الفقراء والأغنياء ، والعبيد والأحرار ، فيبذل عطاياه للجميع بدون استثناء. وخيرُ وسيلة لمعرفتها ، هي أن نعيش حياةً ترضيه ، باليقظة والانتباه. في الاحتفالات التي نقيم ، لا حاجة إلى الجاه ووفرة النفقات ، بل إلى إرادة مستقيمة وقلب نقيّ. لا فائدة مادية لنا من هذه ، فكل شيء هو روحي : سماع كلمة الله والصلوات العادية ، وبركات الكهنة ، والاشتراك في الأسرار المقدسة ، والسلام والاتفاق. وأخيراً كل المواهب الروحية التي تتمُّ عن سخاء الله. فلنحتفل إذن بفرح بقيامة المسيح. أجل لقد قام ومعه أقام العالم. لقد قام بعد أن سحَقَ قيود الموت ، وأقامنا بعد أن كسَر قيود ذنوبنا. خطئَ آدم فمات ، ولم يخطأ يسوع المسيح ومات : أمرٌ غريب ، عجيب ! لماذا مات المسيح وهو لم يخطأ؟ ليستطيع مَن خَطئَ فمات ، أن ينجو من قيود الموت ، بمن مات دون أن يخطأ. وكثيراً ما نرى هذا لدى

المديونين: يُودَع السجن إنسانٌ مديونٌ لا يستطيع أن يدفع، فيأتي آخر ليس مديوناً، ولكن باستطاعته الدفع، فيدفَعُ عنه ويُنقذه. وهذا ما حدث تماماً بالنسبة إلى آدم ويسوع المسيح. كان آدم مديوناً بالموت وأسيراً للشيطان، فجاء المسيح إلى العالم، لا مديوناً ولا معتقلاً وكابد الموت عن المعتقل ليُنقذه من قيود الموت.

(العِظَة الثانية)

٣ - القيامة انتصار على الموت

اليوم يجب أن نصرخ مع الطوباوي داود: «مَن يُحدِّث بأمجاد الرب ويُسمعُ تسبحته كلَّها؟» (مزمور ١٠٥:٢). ها قد بلغْنا عيداً شهياً وخلاصياً: إنه يوم قيامة ربِّنا يسوع المسيح، الذي انتهتْ فيه الحرب وعُقد الصلح وخُتمتْ مصالحتُنا؛ يومٌ فيه هُدمَ الموت وغُلبَ الشيطان. في هذا اليومِ ينضمُّ البشر إلى الملائكة، ويرتِّلُ الجسديون الأناشيدَ مع القوَّات الروحية. اليوم أُزيلتْ مملكة الشيطان وسُحقتْ قيود الموت وأُبيد فوزُ الجحيم. اليوم نستطيع أن نردِّدَ كلام النبي: «أينَ شوكتك، أيها الموت، وأينَ غلبتك؟» (أولى قور ١٥/٥٥).

اليوم سحَقَ ربُّنا يسوع المسيح الأبواب النحاسية ولاشى أهوال الموت. وما قولي أهوالُ الموت؟ لقد غيَّر حتى اسمه. فلا يُدعى الموت بعدُ موتاً، بل راحةً ورقاداً. كان مجرّد اسم الموت مخيفاً قبل مولد المسيح ونعمة الصليب. فقد سمعَ الإنسان الأول صدور هذا الحكم كقضاءٍ بعذابٍ أليم: «يوم تأْكل من ثمرة هذه الشجرة موتاً تموت» (تكوين ٢:١٧)، ويدعوه أيوب الصدِّيق: «راحةً للناس» (أيوب ٣:١٣)، ويقول النبي داود: «موتُ المنافقين مشؤوم» (مزمور ٣٣:٢٢). ولم يكن يدعى الانفصال عن الجسد موتاً وحسب بل جحيماً. اسمع ما يقول يعقوب أبو الأسباط: «أنزلتم شيبتي بحسرة إلى الجحيم» (تكوين ٤٢:٣٨). ويقول نبيٌّ آخر: «فَغَرتِ الجحيمُ فاها» (أشعيا ٥:١٤). وقال آخر: أنقذَتْ رحمتك نفسي من الجحيم السفلي (مزمور ٨٥:١٣). وفي العهد القديم نصوص كثيرة يُدعى فيها الخروج من هذه الحياة موتاً وجحيماً. ولكن منذ أن قدَّم ربنا يسوع المسيح ذاته ذبيحةً عنا، ومنذ أن قام هو من الموت، ألغى الرب الجزيل الرحمة كل هذه الأسماء، وأدخل بين البشر نوعاً من الحياة جديداً، لم يكونوا يعرفونه. فلا يسمى بعد الخروج من هذا العالم موتاً، بل راحةً ورقاداً.

(العِظَة الثانية يوم القيامة)

٤ – العيد للفقير والغني

لا يكونَنَّ الفقرُ داعيةً للتحقير، لأنَّ العيد هو روحي؛ ولا الثروة مدعاةً للكبرياء، إذ لا فائدة فيه من الغنى. في الأعياد العالمية التي يحتفلون بها بأُبَّهة، يكون الفقير حزيناً وذليلاً، والغنيُّ مسروراً ومرتاحاً. أما هنا فلا تمييز بين الطبقات؛ وتُقدَّم المائدة الواحدة للغني وللفقير، للعبدِ وللحرِّ على السواء، أأَنت غني؟ لا أفضليَّة لك على الفقير. أأَنت فقير؟ فلست أدنى من الغني. ولا يُخفِّف فقرُك من الأفراح التي توفِّرها وليمةٌ روحيَّة تسود فيها النعمة السماوية التي لا تُميِّز بين الأشخاص. ماذا أقول؟ المائدة عينها تُقدَّم للغني وللفقير! تُقدَّمُ للأمير الذي يعصُبُ التاج جبينَه، ويُجلببُه الأرجوان ويأمر في الأرض، كما تُقدَّم إلى المحتاج الذي يمدُّ يده للاستعطاء، فمِن طبع الهبات السماوية، أنها لا توزَّع بحسب شرف المقام بل بحسب عواطف القلب. يشترك الفقير والأمير بالأسرار الإلهية. بنفس الثقة والفائدة. وما قولي، بنفس الفائدة؟ إنَّ الفقير يأتيها غالباً بأوفر ثقة. لأنَّ مشاغل الأمير الكثيرة والانهماكات والمشاكل المختلفة تُعرِّضه لأخطاء جمَّة؛ بينما لا يهتمُّ الفقير إلاّ بشؤون معيشته، متحرراً من هذه القيود عائشاً حياةً هادئة، فيتقدّم من المائدة المقدسة مُشبَعاً بحرارة العبادة. وفي الأعياد العالميَّة، مدعاةٌ أخرى لمذلَّة الفقير، ليس فقط بغنى المائدة وملذَّاتها، بل بالكُسوة الفاخرة التي توحي للغني ارتياحاً يؤلم الفقير فيتذمَّر من حظِّه. أما في أعيادنا فلا يشعرون بهذه الكآبة، لأنَّ المسيحيين كلَّهم يرتدُون ثوباً واحداً روحيًّا ومقدساً، كما يقول القديس بولس: «أنتم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُمُ المسيح» (غلاطية ٣:٢٧).

(العِظَة الأولى عن القيامة)

٥ – المسيح حقًّا قام

«سأُرسلُ صيَّادين عديدين». ما هذا النوع الجديد من الصيد؟ مَن أخذ أمس يُصادُ اليوم. الأرض ملأى بمجد المسيح؛ الإيمان يتغلغل فيها. فلا يخطرنَّ على بالك ما لا يتناسب مع عظمة المتأنس وتدبير الله في شأنه. يشيع اليهود أنّ قيامته المزعومة لم تكن سوى مسألة دراهم، وزعموا أنّ تلاميذه سرقوا جثّته. لم يصدر اليهود حكمهم إلاّ على جسده، بينما يَبذُل التلاميذ كل المستطاع للتبشير بألوهيته. يسعى اليهود اليوم لنشر الضلال، وتقاومه الكنيسة بتعاليمها عن الحياة الأبدية.

لنعد إلى مثَلٍ قديم؛ أخوة يوسف نصبوا له فخًّا. فكان أبوه وعائلته يبكون عليه، وهو حيّ مالك على مصر. كانوا يبكون عليه في بيت يعقوب، كأنه ميت، بينما كان في مصر حيًّا يملك على البلاد. هكذا في أيامنا، اليهود والهراطقة المتطرفون يعدّون المسيح ميتاً؛ يجحدون ألوهيته ويزعزعون الإيمان بتعنّتهم؛ أما عندنا فهو حيّ مالك يتقبّل سجودنا كما يليق. لأن كلام الله قدير، فهو باقٍ، وتعليم الرسل لا يغلب.

(اما الحديثي العماد، على الآية: في البدء كان الكلمة، ٢)

ترجمة

الأب الياس كويتر المخلصي

(عن المخطوطات المخلصيّة القديمة)

٣
عِظَة
العنصرة

١ – عيد «العنصرة» هو عيد كل يوم

إنه الاحتفال بذكرى حلول الروح القدس في الكنيسة. لأنه كما أنّ ابن الله هو كائن مع الناس الأتقياء المؤمنين، فالروح القدس كذلك تماماً. وما البرهان على ذلك؟ حسبما يقول الرب: «مَن يحبني يحفظ وصاياي... وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزِّياً آخر روح الحق ليمكث معكم إلى الأبد» (راجع يو ١٤: ١٥ و١٦)؛ وبحسب قول الرب أيضاً: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠)، يمكننا كل يوم أن نكون في عيد الظهور الإلهي، وأن نكون كل يوم أيضاً في عيد البنتيقسطي (حلول الروح القدس)، حيث أن المسيح أعلن أن الروح القدس كائن على الدوام معنا.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن برهان أن الحياة كلها (وليس أياماً محددة) ينبغي أن تكون

للمسيحي عيداً واحداً ، فهاكم قول القديس بولس : «لنعيِّد الفصح ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق» ، (١ كور ٥ :٨) ، في حين أن وقت كتابة هذه الرسالة لم يكن موافقاً لأي عيد : لا عيد الفصح ولا عيد الإبيفانيا أو البنتيقسطي ؛ ولكن الرسول يريد أن يقول أن ليست المناسبات الزمنية ، بل **طهارة القلب** هي التي تصنع العيد. وما مضمون العيد إلاّ البهجة والفرح ؛ ومن يقدر أن يعطي هذا الفرح الروحي إلاّ القلب النقي الغني بالأعمال الصالحة. حيث أن الإنسان ذا القلب النقي المثمر في الأعمال الممدوحة هو الذي يمكنه أن يكون في حالة احتفال بالعيد. حقاً هو كان يعلِّم به الرسول عندما قال : «إذن فلنعيِّد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشرّ والخبث بل بفطير الإخلاص والحق.» (١ كور ٥ :٨).

٢ – الروح القدس هو معنا الآن

ولكن قد يقول أحدكم : أين هو الروح الإلهي منا الآن؟ أجل ، كان الروح القدس في الكنيسة عندما كانت تُجترح المعجزات ويُقام الأموات ، والبُرص يُشفَون ؛ ولكن في وقتنا الحاضر ، ما البرهان على حضور الروح القدس بين المؤمنين؟

أنعموا بالاً ! فإنه ما زال بعد في وسطنا. ولكن من أين لنا أن نعرف ذلك؟

سرّ المعموديّة :

إن لم يكن (الروح القدس) في وسطنا فطالبو المعمودية الذين تجددوا واستناروا (أي تعمَّدوا) في هذه الليلة الجليلة المقدسة ، هل كان يمكنهم أن يتطهروا من خطاياهم بدون الروح القدس؟ كلا ، فهذا التطهير لا يمكن أن يكون إلاّ من عمل الروح القدس ؛ وهنا أستشهد ببولس الرسول : «لأنّنا كنّا نحن أيضاً قبلاً أغبياء غير طائعين ضالِّين مستعبدين لشهوات وللذاتٍ مختلفة ، عائشين في الخبث والحسد ممقوتين مبغضين بعضنا بعضاً. ولكن حين ظهر لطف الله مخلِّصنا وإحسانه ؛ لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته ، خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس» (تيطس ٣ :٣ – ٦) وأيضاً : «لا تضلُّوا لا زناة ولا عبَدَة أوثان ولا فاسقون ولا المفسدون ولا مضاجعو ذكور. ولا سارقون ولا طمّاعون ولا سكِّيرون ولا شتّامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله» (١ كور ٦ :٩ و١٠). أترون هذه السلسلة المتراصَّة من أنواع الفساد المختلفة؟ ولكن اسمعوا تتمَّة القول : «وهكذا كان أُناس منكم. لكن اغتسلتم بل تقدّستم بل

تبرّرتم» وبأية كيفية؟ بالروح القدس، فبالروح قد تطهرنا من كل هذه الأدناس: «بل تقدَّستم بل تبرَّرتم بإسم الرب يسوع **وبروح إلهنا**.» (١ كور ٦: ١١).

أترون كيف أن إزالة كل هذه الأرجاس هي من عمل الروح القدس؟ أين هم أولئك الذين يستهينون بجلال الروح القدس الإلهي؟ إذا كان الروح القدس لا يبرّر من الخطايا فعبثاً يكون قبوله في العماد. أما إذا كان يبرر من الخطايا فيكون تطاول الهراطقة عليه بدون حق.

نعمة التبنّي:

وإذا كان الروح القدس غير موجود فإننا لا يمكن أن ننطق بإسم الرب يسوع، كما يقول القديس بولس (١ كور ١٢: ٣). وإن لم يكن هناك الروح القدس فلا يمكن للمؤمنين أن يَدْعوا الله قائلين: «أبانا الذي في السموات». فكما أنه بدون الروح القدس لا يمكن أن ننطق بإسم يسوع، كذلك بالمثل لا يمكننا أن ندعو الله أبانا. وما البيِّنة على ذلك؟ هذا ما يؤكّده لكم القديس بولس في قوله: «ثم بما أنكم أبناءٌ أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب.» (غل ٤: ٦). فحيث أنكم تدعون الله الآب فاعلموا أن نعمة الدعاء هذه إنما تأتيكم من الروح القدس الذي يعمل في روحنا.

التعليم الروحي:

بدون الروح القدس لا يكون في الكنيسة بعد لا كلام معرفة ولا كلام حكمة لأن القديس بولس يقول: «الواحد ينال من الروح القدس كلام حكمة والآخر كلام معرفة.» (١ كور ١٢: ٨).

سرّ الكهنوت:

بدون الروح القدس لن يكون بعد في الكنيسة لا رعاة ولا معلمون، لأنه ليس شيء من هذا يكون إلا بالروح القدس. فكما يقول القديس بولس: «الروح القدس قد أقام في الكنيسة رعاة وأساقفة» (أع ٢٠: ٢٨)؛ فبدون الروح القدس لن يقوم أساقفة في الكنيسة.

إذا لم يكن الروح القدس في شخص أبينا ومعلمنا جميعاً البطريرك فهل كان يمكنكم أن تجاوبوه بصوت عالٍ: «ومع روحك أيضاً» عندما كان منذ قليل من فوق كرسيه يحييكم بالسلام؟

سرّ الافخارستيا :

إنكم تردّون عليه بهذه الحَمِيَّة ليس فقط عندما يصعد إلى المنبر، وعندما يتحدّث إليكم، وعندما يدعو لكم؛ بل أيضاً حينما يظهر أمام المذبح ليقرِّب الذبيحة الجليلة المهيبة. وما أقوله هذا يعرفه جيداً المطَّلعون على أسرارنا : فإنّ يده لا تمسّ القرابين إلاّ بعد أن يطلب لكم النعمة من قِبَل الرب، وبعد أن تجاوبوه : «ومع روحك أيضاً». وبهذه المجاوبة ينبغي أن تعلموا أن الحبر (رئيس الكهنة) الذي ترونه أمامكم الآن لا يُجري شيئاً من نفسه، وأن القرابين التي تُقرَّب هي بعيدة كل البُعد من أن تكون عملاً أو تدخُّلاً بشرياً، بل كل شيء حادث بفعل نعمة الروح القدس الحاضرة والفاعلة، ذلك الروح الذي يهيمن على كل شيء ويكمل الذبيحة الجليلة السرية المرفوعة على المذبح. وإن كان خادم السر إنساناً بشرياً إلاّ أنّ الله هو دائماً يجري السرّ بواسطته... فلا تضعوا إذن طبيعة الكاهن نُصب أعينكم، بل النعمة غير المنظورة. أنا هو فليس إلاّ وسيلة انتقالها كلا ليس هنا شيء بشري في كل ما يجري في هذا الهيكل الجليل.

ثبات الكنيسة :

بدون الروح القدس تنهار الكنيسة ولا يقوم لها قائمة. ولكن إذا كانت الكنيسة راسخة قوية فما من شكٍّ ان الروح القدس هو الذي يسندها ويقودها.

ترجمة
الأب ايزيدور أبو حنا المخلصي

٤
عِظَة
عماد المسيح

كثيرون بين الذين يستمعون إليّ لا يعرفون من الأعياد إلاّ اسمها فقط. فهم يجهلون تاريخها وأصلها ومناسبتها. فهذا العيد قد اشتهر بأنه عيد الظهور. ولكن يا ترى ما هو هذا الظهور، هل هو عيد واحد أم اثنان. ولماذا رتَّبت الكنيسة هذا العيد، وما هي

المناسبة التي دعت إليه؟ هذه أمور يجهلها الكثيرون. وما نأسف له بالأكثر هو إنهم يقيمون هذا العيد وهم جاهلون غايته وسببه.

فلا بدّ من تبيان أن هناك ظهوران. فالظهور الأول هو الذي نعيِّد له والذي تمَّ؛ أما الظهور الثاني فهو الذي سيتمّ في مجد الآب في آخر الأزمان. وهذا ما شرحه بولس الرسول لتلميذه تيطس: «ان نعمة الله المخلصة قد تجلّت لجميع الناس وهي تؤدبنا لننكر النفاق والشهوات العالمية فنحيا في الدهر الحاضر على مقتضى التعقّل والعدل والتقوى.» (تي ٢/١١) «منتظرين الرجاء السعيد وتجلّي مجد إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح». (تيطس ٢/١١) وأما عن الثاني فيقول النبي يوئيل: «واجعل عجائب في السماء وعلى الأرض دماً وناراً وأعمدة دخان، فتنقلب الشمس ظلاماً، والقمر دماً قبل أن يأتي يوم الرب العظيم الهائل.» (يوئيل ٢/٣٠).

ولماذا، يسأل البعض دُعي عيد عماد المخلص عيد الظهور وليس عيد الميلاد. السبب بسيط وهو أنه في هذا العيد تعمّد المسيح وقدّس المياه.

أما لماذا نعيّد عيد الظهور. أجيب لأن المسيح قد ظهر للجميع في عماده وليس في ميلاده. فحتى ذلك اليوم الذي تعمّد فيه المسيح، قليلون كانوا يعرفونه، وكثيرون كانوا يجهلون وجوده ومَن هو. وهذا ما عبَّر عنه يوحنا المعمدان: «يوجد بينكم شخص لا تعرفونه.» (يو ١/٢٦) ولا نتعجب من جهل الكثيرين للمسيح. فيوحنا السابق نفسه كان يجهل حقيقة المسيح. «أنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمّد بالماء هو قال لي ان الذي ترى الروح ينزل ويستقرّ عليه هو الذي يعمّد بالروح القدس.» (يو ١/٣٣).

لكن لماذا نال يسوع المعمودية، وما هي المعمودية التي نالها؟

... علينا أن نميِّز بين ثلاثة أنواع من العمادات. فقد درجَ اليهود على تطهير الأجساد من الأوساخ مما يعتبر في نظر الشريعة نجاسة. وهذا يؤثر في الجسد فقط وليس في النفس، ولا يطهّر الضمير من الزنى والسرقة ومن أيّة خطيئة أخرى. بل ان الإنسان إذا لمست يده جثة ميت أو ذاق لحماً يحرّمه الناموس أو تنجّس حسب الجسد أو تعامل مع الأبرص. فمثل هذا يحسب نجساً حسب الناموس «وعليه أن يرتحض بالماء ويكون نجساً إلى المغيب.» (الأحبار ١٥/٦) وكان قصد الله من ممارسة هذه الطقوس أن يرتفع بروح اليهود إلى الفضائل العظمى ويجعلهم أكثر سهراً وحرصاً على نفوسهم.

أما معمودية القديس يوحنا فكانت بالتأكيد أسمى من معمودية اليهود ولكنها كانت

خالية من فاعلية معموديتنا نحن المسيحيين. انها تتوسط الاثنتين كمعبر يوصل بين شاطئين متقابلين. فيوحنا كان يشدّد على ترك الرذائل والتوجّه إلى الفضائل والحثّ على ممارسة الفضائل. وهذه ركائز التوبة الحقيقية التي كرز بها النبي يوحنا. وقد قال نفسه عنها: «أنا أُعمّدكم بالماء، أما هو فسيُعمّدكم بالروح القدس والنار.» (مت ٣/١١) وكذلك القديس بولس شهد أن معمودية يوحنا هي معمودية التوبة.

من الأكيد أن المسيح لم ينل العماد اليهودي ولا عماد يوحنا لأنه لم يكن بحاجة إلى مغفرة الخطايا «الذي لم يصنع خطيئة ولم يوجد في فمه مكر.» (١ بطر ٢/٢٢) ويسوع تحدّث عن نفسه فقال: «مَن منكم يثبت عليَّ خطيئة.» (يو ٨/٤٦) فإذا كان المسيح أتى إلى يوحنا لا لطلب غفران الخطايا ولا لنيل الروح القدس. فلماذا إذن؟

هذا العماد شرحه سفر الأعمال بهذا القول: «ان يوحنا عمّد بمعمودية التوبة مخاطباً الشعب بأن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بيسوع المسيح.» (أعمال ١٩/٤) إذن كان من الضروري لشهرة المسيح التبشير به من بيت إلى بيت، والدعوة لقضيته في كل مكان ومنطقة، والتعليم في المجامع بأن يسوع هو ابن الله مخلّص العالم. إنما كم يستلزم هذا من جهد وتعب للسابق المجيد. فكان من السهل عليه أن يستفيد من زحف الجموع من كل المدن والقرى، وهي تتألف من كل الطبقات إلى ضفاف الأردن ليقول كلمته: «هذا حمل الله.» «والذي يأتي بعدي كان قبلي وهو أقوى مني» وليقول أيضاً كلمته في الابن المتجسد. وجاء التثبيت من العلاء بصوت الآب وشهادة الروح القدس الذي ظهر بهيئة حمامة.. كل هذا أبعد الشك وأزال الالتباس وأبعد إصبع الاتهام عن يوحنا المعمدان لأنه قريب للمسيح.

ان الله نفسه أراد أن يعلن هو نفسه ابنه للبشر. وهذا ما عبَّر عنه يوحنا المعمدان بقوله: «الذي أرسلني لأُعمّد قال لي..» «والذي ترى الروح نازلاً عليه هو...»

أمّا السبب الثاني لعماد المخلص فقد أشار إليه المسيح نفسه وذلك عندما قال يوحنا السابق له: «أنا المحتاج أن أعتمد وأنت تأتي إليّ...» «دع الآن فيجب أن نكمّل كل برّ» (مر١٣/١٤). انظروا بساطة المعمدان وتواضع المسيح.

ويا ترى ما هو البرّ. هو تتميم كل وصايا الله. بهذا المعنى قال لوقا البشير عن زكريا وأليصابات: «كانا كلاهما بارَّين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم.» (لو ١/٦) وبما ان كل إنسان يلتزم بتكميل كل برّ، لهذا جاء المسيح وأكمله. فالمسيح أطاع

للنبي يوحنا وأطاع لشريعة الختان ولتقدمة الذبائح، وحفظ شريعة السبت والأعياد اليهودية... وهذه كلها برّ وصلاح.

من الأكيد أن الله أراد أن يخضع الجميع لتوجيهات يوحنا، فهو نبيّ مُرسَل من الله. ونرى أن الله كان يريد أن جميع الناس يقبلون على عماد يوحنا. ولهذا قال: «عندما سمع جميع الشعب والعشارون برّروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا؛ وأما الفريسيّون ومعلمو الناموس فرفضوا مشيئة الله فيهم إذ لم يعتمدوا منه» (لو ٧/٢٩) ويسوع خضع لهذا البرّ.

ترجمة الأب الياس كويتر ب. م.

عن Homéliaire Patristique. Cerf, Paris

٥
عِظَة
العماد أيضاً

١ – العماد يدعونا إلى السماء

ولنتوقَّف الآن متأملين بالأعجوبة الكبرى التي جرت حالاً بعد عماد المخلِّص، والتي كانت مُقدِّمة لما سيحدُثُ فيما بعد. لأنَّ ما انفتح إذْ ذاك ليس الفردوس بل السماء فقط، «وعندما اعتمدَ يسوع انفتحت السماوات». لماذا انفتحت السماء عندما اعتمد يسوع المسيح؟ لكي يُفهمكم أنَّ الأمر عينَه يحدُثُ بنوعٍ غير منظور، عند عمادكم، حيث يدعوكم الله إلى وطنكم السماوي ويُحرِّضُكم على ألاَّ تتمسَّكوا كثيراً بالأرض. وإنْ تكن هذه الأعجوبة لا تحدُثُ معكم بنوعٍ منظورٍ، فلا تدعوا مع ذلك مجالاً للشكِّ فيها.

لقد تعوَّدَ الله في تأسيس أسراره، أن يُظهِرَ بعض أدلَّةٍ وخوارق خارجيَّة، للنفوس الغشيمة التي لا تستطيع أن تفهم شيئاً من الروحانيات ولا تتأثر إلاَّ بما يُلامس الحواس. حتى إذا عُرِضَتْ علينا هذه الأخبار، بدون أن ترافِقَها هذه العجائب نقتبلها حالاً بطواعيَّة الإيمان الراسخ. وهكذا عندما حلَّ الروح القدس على الرسل، سُمِعَتْ ضجَّة عاصفة عنيفة، وظهرت ألسنةٌ من نار. ولم تحدث هذه الأعجوبة لأجل الرسل، بل

لليهود الحاضرين هنالك. فإذا كنا لا نرى الآن الأدلّةَ عينَها، ومع ذلك ننالُ ذات النِعَم التي كانت تمثِّلُها هذه الأدلّة.

(الموعظة ١٢ على إنجيل متى)

٢ – لماذا اعتمد يسوع؟

«حينئذٍ أتى يسوع من الجليل إلى الأردن، إلى يوحنا، ليعتمد منه، فكان يوحنا يمانعه قائلاً: أنا المحتاج إلى أن أعتمِدَ منك وأنت تأتي إليّ» (متى ٣: ١٣ و١٤).

لقد جاء الرب، يا إخوتي، يعتمد مع العبيد والقاضي مع المجرمين. غير أنَّ اتِّضاع الله هذا، لا يجوز أن يَشغَلَ بالكم، لأنه تعالى، في تنازله العظيم يُظهِرُ مجده العظيم. أتعجبونَ من أنَّ الذي شاء أن يمكُثَ أشهراً في أحشاءِ عذراءَ، وأن يخرج منها لابساً طبيعتنا، والذي شاء فيما بعد أن يتحمَّل اللَّطم وعذاب الصليب وغيره مما تحمَّل حُباً لنا، أن يَشأَ أيضاً تقبُّل العماد، والإتِّضاع أمام عبده مختلطاً مع جمهور الخطأة؟ أمّا ما يجب أن يذهلنا، فهو أن يكون الله قد تنازل وصار إنساناً، لأنه بعدَ هذا التنازل الأول لم يعُدِ الباقي سوى نتيجةٍ طبيعيَّة.

وهكذا لكي يبيّن لنا يوحنا مقدار اتضاع ابن الله، سبق وقال انه لا يستحق أن يحلَّ سير حذائه. وانه الديّان العادل الذي يحاسب كلاً بحسب أعماله، وأن يفيض نِعَم الروح القدس على كل الناس، حتى إذا رأيتموه آتياً إلى العماد لا ترون مهانة في هذا الاتضاع. وعلى هذا، عندما شاهده يوحنا أمامه، أخذ يمانعه قائلاً: «أنا المحتاج إلى أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ». وبما ان عماد يسوع كان عماد التوبة، وكان يقضي على المعتمدين أن يعترفوا بخطاياهم، فلكي يستدرك يوحنا ويبين لليهود أن المسيح لم يأتِ إلى عماده على هذه النيّة، دعاه أمام الشعب، «حمل الله» والمخلص الذي يمحو خطايا العالم. لأنّ مَن كان له السلطان أن يمحو كل خطايا الجنس البشري، يقتضي بأول حجة أن يكون هو نفسه بريئاً من الخطأ.

(الموعظة ١٢ على إنجيل متى)

٣ – العماد بالماء

لماذا الماء. إنّ في هذا سراً عميقاً، له عدّة نقاط، سأوضحها لكم، فأحدّثكم هنا

عن الكمية. فما هي؟ يدور الاحتفال على رموز إلهيّة: الدفن، الموت، الحياة. ويتمّ بفعل واحد. ففي غطس الرأس في الماء يمثّل القبر، حيث يغطّس فيدفن إنساننا العتيق؛ وفي خروجه منه يطفو ويخرج إنسان جديد. وبهذه السهولة عينها يدفن الله الإنسان القديم ويلبسنا الإنسان الجديد.

التغطيس مثلّث، ليشير إلى أن كل ما ذكر يتمّ بقدرة الآب والابن والروح القدس. ليس هذا على سبيل المجاز. فلنسمع إلى بولس يقول: «لقد دفنا معه في موته بالعماد، وأيضاً صلب معه إنساننا القديم، وأيضاً استلقينا عليه بشبه موته. كما يدعى العماد صليباً. هكذا يدعى الصليب عماداً: «ستعمّدون بالماء الذي اعتمدت به.» وأيضاً: «على أن أعتمد عماداً لا تعرفونه.» كيما يسهل علينا الغطس في الماء والخروج منه. هكذا هو أيضاً مات وقام، كما شاء، بل بأعظم سهولة، مع انه ظل في حكم الموت ثلاثة أيام. وهذا من أسرار التدبير الإلهي.

بما اننا قد حسبنا جديرين بتلك الأسرار العظيمة، فلنعش حياة أهلاً لها، حياة الكمال.

(الميمر ٢٥ على إنجيل يوحنا، رقم ٢)

ترجمة

الأب ايزيدور أبو حنا المخلصي

٦

عِظَة

الآن أطلق عبدك

... روى الإنجيل أن امرأة لمست هدب ثوب المسيح فشُفيت في الحال (متى ٩/٢٠). فإذا نالت هذه المرأة المريضة مبتغاها بهذا اللمس للثوب فقط، فكم هو الخير الروحي العظيم الذي ناله سمعان لأنه حمل المسيح بين ذراعيه وضمّه إلى صدره، وهو لا يجهل أنه يحمل محرّر اسرائيل ومعتقه من الربُط الجسدية.

وأُشير هنا إلى أن الإنسان طالما لا يحمل المسيح وطالما لا يضمّه إلى صدره فهو باقٍ في السجن وعاجز عن فك الربط التي تقيّده. وهذا لا يسري على سمعان فقط بل على

الجنس البشري كله. فإذا رغب أحد الخروج من هذا العالم والذهاب إلى بيت الآب محرّراً من كل قيدٍ، وإذ أراد إنسان الانعتاق من كل عبودية، فعليه أن يحمل المسيح بين ذراعيه ويضمّه إلى صدره، وقبل كل شيء أن يحمل المسيح في قلبه، وحينئذٍ فقط يفرح ويذهبَ إلى حيث يرغب قلبه.

لكن لا بدّ من التأمل في الاستعدادات التي هيّأت سمعان الشيخ ليستحق حمل المسيح بين ذراعيه. فأولاً نال تأكيداً من الروحِ القدس بأنه لا يرى الموت قبل أن يُعاين مسيح الرب. ثم نراه يدخل الهيكل ليس صدفةً، بل ان الروح القدس هو الذي قاده إلى الهيكل. وكل الذين يقودهم الروح القدس هم أبناء الله... (رومية٨/١٤).

وأنت أيضاً إذا أردت أن تحمل المسيح وتضمّه إلى صدرك ثم تخرج من السجن اجتهد أن يكون الروح مرشدك وقائداً لك للدخول إلى هيكل الرب الهيكل المصنوع بحجارة حيّة (١ بطرس ٢/٥) أي الكنيسة...

في ذلك الهيكل، وقد قادك الروح إليه ستشاهد دون شكّ المسيح الطفل، فتحمله على ذراعيك وتقول: «الآن أطلق عبدك بسلام كما وعدت.» تأمل أن السلام مرتبط بهذا التحرر...

ترجمة الأب الياس كويتر ب. م.

عن **Homéliaire Patristique.** **Cerf, Paris**

٧
عِظَة
في صعود السيد إلى السماء

[ألقى الذهبي الفم هذه الخطبة نهار عيد الصعود الإلهي في كنيسة مكرّسة على اسم الشهداء وكان وُضِعَ فيها رُفاتهم المقدس. وقد خرج بشعبه من مدينة انطاكية ليحتفل بالعيد في كنيسة الشهداء إجلالاً لهم. أمّا سنة الإلقاء فمجهولة.]

* * *

لما أقمنا ذكر الصليب أكملنا العيد خارج المدينة، والآن إذ نعيّد لصعود المصلوب في

هذا اليوم البهي الساطع نكمِّل العيد خارج المدينة أيضاً. على أننا نفعل ذلك لا احتقاراً للمدينة بل اهتماماً منا بتكريم الشهداء، حتى لا يتشكَّى منا هؤلاء القديسون ويقولوا: «ألا نستحق أن نشهد احتفال يوم واحد يُقام لسيّدنا في منازلنا، ألسنا أهلاً نحن الأولى أهرقنا دمنا لأجل الله وتشرَّفنا بأن بُترت هاماتنا بسببه لأن ننظر يوم عيده محتفَلاً به في مساكننا؟» - لذلك تركنا المدينة وأسرعنا عند أقدام هؤلاء القديسين في هذا النهار لنستمنحهم العفو عما فاتنا في الزمان الماضي... إذاً جئنا بكم إلى هنا لكي يصبح المحفل أكثر بهاءً والمشهد أعظم سناءً إذ يتألف لا من البشر فحسب بل من الشهداء أيضاً، وليس من الشهداء فقط بل يضاف إليهم الملائكة لأن الملائكة أيضاً يحضرون ههنا. فاليوم إذاً أصبح المحفل محفل ملائكة وشهداء. أتريد أن ترى الملائكة والشهداء؟ إفتحْ عيني الإيمان تبصرْ هذا المشهد. فإذا كان الملائكة يملأون الجوّ فبأولى حجّة هم يملأون الكنيسة، وإذا كانوا يملأون الكنيسة ففي هذا اليوم الحاضر بالأخص الذي فيه صعد سيّدهم...

فما هذا الموسم الحاضر أيها الأحباء؟ انه لموسم جليل عظيم يفوق عقل البشر وهو لائق بكرم الله الذي صنعه. فاليوم كملت مصالحة جنس البشر مع الله، اليوم انتهت العداوة المزمنة والحرب الطويلة أخذت حداً، اليوم استتبَّ سلام عجيب لم نكن نحلُم به قبلاً. فمَن كان يرجو أن يتصالح الله مع الإنسان؟ لا لأنّ السيد قاسي الفؤاد بل لأن الخادم متوانٍ، لا لأن الرب ظلوم عاتٍ بل لأن العبد مُنكر للجميل. أتريد أن تعرف كم أغضبنا سيدنا العطوف الحليم الصالح الذي دبّر كل شيء لأجل خلاصنا؟ لقد فكّر يوماً في إبادة الجنس البشري عن آخره وقد بلغ منه الغضب علينا حتى عزم أن يهلكنا مع نسائنا وأولادنا وبهائمنا وجميع أرضنا. وان شئت فأنا مورد على مسامعك صورة القضاء المبرم: «أمحو الإنسان الذي خلقت على وجه الأرض الإنسان مع البهائم والماشية لأني ندمت على خلقي للإنسان» (بحسب النص الذي أورده الذهبي الفم). (تك ٦: ٧). مع ذلك نحن الذين غير أهل لهذه الأرض ها قد رُفعنا اليوم إلى السماوات، ونحن الذين لا نستحق أن نملك على الأرض قد صعدنا إلى الملكوت العلوي وجزنا السماوات واستولينا على العرش الملكي، وطبيعتنا التي كان الكروبون يحرسون الفردوس بإزائها تجلس اليوم فوق الكروبين... ان السيّد قدَّم اليوم للآب باكورة طبيعتنا وإذ أُعجب الآب بهذه التقدمة نظراً لكرامة المقدِّم وطهارة المقدَّم تناولها بين يديه ووضعها بجانبه وقال: «إجلسي عن يميني» فلأيّة طبيعة قال الله «إجلسي عن يميني؟» - لتلك التي سمعت قِدَماً «أنتِ تراب وإلى التراب تعودين». ألا يكفيها

أن تجوز السماوات؟ ألا يكفيها أن تقف بين الملائكة، أما كان ذلك شرفاً لا يوصف؟ لكنها تخطَّت الملائكة وتجاوزت رؤساء الملائكة، عبرت بين الكروبين وصعدت فوق السرافين، تعدَّت الرئاسات ولم تقف حتى استوت على العرش السيدي. ألا ترى المسافة بين السماء والأرض؟ أو بالحري فلنبدأ من أسفل: ألا ترى ما أعظم المسافة من الجحيم إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء، ومن السماء إلى السماء العليا، ومن السماء العليا إلى الملائكة فإلى رؤساء الملائكة فإلى القوّات العلوية فإلى عرش الملك نفسه؟ لقد جاز السيّد بطبيعتنا كل تلك المسافة ورفعها إلى ذلك العلو. فانظر الآن إلى أين سقطت ثم إلى أين صعدت، لعمري انه لا يمكن أن ينزل الإنسان أسفل ممَّا نزل ولا أن يرفع إلى مقام أسمى من المقام الذي رُفع إليه. وهذا ما أبانه القديس بولس إذ قال: «ذاك الذي نزل هو الذي صعد أيضاً» (أفسس ٤: ١٠) فإلى أين نزل؟ إلى أقصى أسافل الأرض لذلك صعد فوق جميع السماوات.

تأمل من الذي صعد وأية طبيعة صعدت وما حالة هذه الطبيعة قبل صعودها. إني أقف ملياً وبكل ارتياح متأملاً في حقارة جنسنا لكي أتملَّى من فهم محبة السيد للبشر: لقد كنا تراباً ورماداً ولا ذنب علينا في ذلك لأن هذا الانحطاط ملازم للطبيعة لكنَّنا أصبحنا أقل عقلاً من العَجماوات: «قيس الإنسان بالبهائم التي لا عقل لها وشُبِّه بها.» (مزمور ٤٨: ٢١). بيد أن هذا التشبُّه بالبهائم يجعل الإنسان أحطّ منها. فمَن كان غير عاقل بالطبيعة وثبت على ذلك فجرمه ليس عليه بل على الطبيعة. أما مَن شُرِّف بالعقل ثم سقط إلى تلك الدركة من الحماقة فجرمه على إرادته. إذاً حينما تسمع أن الإنسان يُشبَّه بالعَجماوات فلا تظن أن الكتاب يريد أن يساوي أولئك البشر بها بل أن يظهرهم أحطّ منها، فاننا صرنا أدنأ منها وأقل شعوراً لا لكوننا ونحن بشر قد وضعنا نفوسنا في مرتبة البهائم بل لأننا أنزلناها إلى غباوة أعظم وذلك ما أوضحه أشعيا بقوله: «عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه لكن اسرائيل لم يعرف» (أشعيا ١: ٣). لكن لا نخجلَنَّ بسبب ما قلنا لأنه «حيث كثرت الخطيئة هناك طفحت النعمة» (رومية ٥: ٢٠). رأيت كيف كنا أحطّ البهائم، أتريد الآن أن ترانا أقصر عقلاً من العصافير نفسها؟: «ان اليمَامة والسنونوة وعصافير الحقل عرفت أوقات رجوعها أما شعبي فلم يعرفوا أحكامي» (إرميا ٨: ٧). إذاً ها نحن قد حُسبنا أقصر عقلاً من الحيوانات وأقلّ فهماً من الطيور، من اليمَامة والسنونوة. أَوَ تريد شاهداً آخر على مذلَّتنا؟ ان الكتاب يرسلنا إلى مدرسة النمل بعد أن فقدنا ذكاءنا الفطري ويقول:

«اذهب إلى النملة وانظر طرُقَها» (أمثال ٦:٦). لقد أصبحنا تلامذة للنمل نحن الذين خلقنا على صورة الله، لكن ليس الخالق سبب هذا الانقلاب بل نحن الذين لم نستمرّ على صورته. وما بالي أتكلم عن النمل وقد صرنا أقلّ إحساساً من الحجارة؟ أتريد شهادة على ذلك أيضاً؟: «إسمعي أيتها الجبال ويا أُسس الأرض فإنّ للرب خصومة مع شعبه.» (ميخا ٦:٢). أيها السيد انك تحاكم البشر وتستدعي أُسس الأرض؟ يجيب: نعم لأن البشر هم أقلّ إحساساً من قواعد الأرض. أتودّ أن تبحث عن هوان أشدّ من هذا الهوان بعد أن اعتُبرنا أقل إدراكاً وأقلّ فهماً وأكثر غباوة من السنونوة واليمَامة وأنقص فطنة من النمل وأقلّ إحساساً من الحجارة؟ فإننا حاكينا أيضاً الأفاعي لأن «غضب بني البشر، يقول الكتاب، كشبَه الحية» (مزمور ٥٧:٥). «وسُمّ الأفاعي تحت شفاهه» (مزمور ١٣٩:٤). وما بالي أقف عند نقص العقل الجدير بالعَجاوات وقد دُعينا أبناء الشيطان نفسه: «أنتم من أبٍ هو إبليس» (يوحنا ٨:٤٤). ومع ذلك فنحن الجهّال الأغبياء الحمقى، نحن الذين فُقنا الحجارة من الجمود، نحن المتسفِّلين أكثر من كل كائن، نحن الأدنياء الأذلاّء، وماذا أقول أيضاً و بماذا أنطق بل أي كلمات تعبّر عن فكري؟ نحن أُولي الطبيعة الخسيسة، نحن الأقلّ فهماً ما بين جميع الخلائق، ها قد أصبحنا اليوم أرفع من كل مخلوق.

اليوم قَبِل الملائكة ما تشوَّقوا إليه، اليوم أبصروا رؤساء الملائكة ما رغبوا أن يروه منذ القِدَم، أي أن يروا طبيعتنا مشرقة وهي جالسة في العرش الملكي وساطعة بالمجد والبهاء الخالد. أجل ان الملائكة ورؤساء الملائكة تمنَّوا أن يعاينوا ذلك. ولو ان هذه الكرامة قد فاقت كرامتهم فقد سُرُّوا لِمَا نلناه من الخيرات كما أنهم تألموا عندما حلَّ بنا العقاب...

ان موسى بعد أن مال شعبه إلى عبادة العجل قال لله: «إن غفرتَ خطيئتهم وإلاّ فامحني من كتابك الذي كتبته» (خروج ٣٢:٣٢). وحزقيال حينما رأى الملاك يقتل الشعب صرخ منتحباً وقال: «آهِ أيها الرب السيّد انك تمحو بقية اسرائيل» (حزقيال ٩:٨) وكذلك ارميا ابتهل قائلاً: «أدِّبنا يا رب لكن بإنصاف لا بغضبك لئلا تبيدنا» (ارميا ١٠:٢٤). فإذا كان موسى وحزقيال وارميا قد تألموا من تلك الشرور أفتظنون أن الملائكة لم يتألموا لما حدث لنا؟ – وقائلٍ ما الشاهد على هذا المقال؟ – أُجيب: لكي تعلم أنهم يعتبرون ما يحدث لنا كأنه حادث لهم، أنظر كم أبدوا من الفرح يوم عرفوا أننا قد تصالحنا مع الله. فلو لم يكونوا قد حزنوا من قبل لما فرحوا بعد ذلك. أما كونهم قد فرحوا فواضح من كلمات المسيح: «هكذا يكون فرح عند ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب» (لوقا ١٥:١٠) فإذا كان

الملائكة يفرحون متى رأوا خاطئاً واحداً يتوب فكيف لا يطيرون اليوم فرحاً إذ يرون طبيعتنا كلها، وهي ممثلة في باكورتها، داخلة إلى السماء؟...

يتابع الإنجيلي قائلاً: «وبينما هم شاخصون نحو السماء وهو منطلق إذا برجلين وقفا عندهم بلباس أبيض وقالا لهم: أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء إن يسوع الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما عاينتموه منطلقاً إلى السماء.» (أعمال ١: ١٠ و١١).

أرجو أن تعيروني هنا كل انتباهكم. لماذا قال الملاكان ذلك، أَليس للتلاميذ عيون، ألم يشهدوا الحادث، ألم يقل الإنجيلي: «انه صعد عنهم وهم شاخصون إليه» فلأيّ سبب حضر الملاكان يخبرانهم بأنه صعد إلى السماء؟ ذلك لسببين: الأول لأنهم كانوا متألّمين لانفصال المسيح عنهم. إسمع ما قال لهم سابقاً: «ليس أحد منكم يسألني إلى أين تنطلق ولكن لأني كلمتكم بهذا ملأت الكآبة قلوبكم» (يوحنا ١٦: ٥ و٦). إن كنا لا نطيق الانفصال عن أصدقائنا وأقاربنا فكيف يتجلَّد الرسل على فراق المخلص والمعلم والكافل الودود الوديع الصالح وهم يرونه منفصلاً عنهم؟ كيف لا يتوجّعون؟ كيف لا تتفطَّر قلوبهم حزناً؟ لذلك وقف بهم الملاكان ليعزياهم عن صعوده ببشرى مجيئه الثاني: «إن يسوع سيأتي هكذا كما عاينتموه» فلا تجزعوا ولا تسترسلوا إلى الحزن المفرط... ذلك هو السبب الأول لحضور الملاكين. أمّا السبب الآخر فلا يَقِلُّ عنه أهمية وهو متضمن في كلمتَيْ «إلى السماء» اللتين أُضيفتا إلى ما قبلهما: «إن هذا الذي ارتفع عنكم». فما السرّ في ذلك يا ترى؟ هو أنه لمَّا أخذ في ارتقائه وجهة السماء وبلغ منها شأواً بعيداً لم تعد الأبصار قادرة على رؤية جسده الصاعد دوماً نحو الأعالي. فكما أن العصفور الطائر في العلاء يختفي عن نظرنا على قدر ما يرتفع في الجوّ هكذا جسد المخلص كان يختفي بمقدار ما كان يطير في الأعالي إلى أن عجزت النواظر الضعيفة عن أن تتتبَّعه بسبب بُعْد المسافة. لذلك حضر الملاكان وأخبرا التلاميذ بأن صعوده كان في الحقيقة «إلى السماء» لئلاَّ يظنوا أنه صعد «كأنما إلى السماء» على مثال إيليا (دون أن يبلغ إليها) ولذلك قالا: «إن هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء» لغاية في نفسهما وليس عَرَضاً كما رأيتم.

إن إيليا صعد كأنه إلى السماء لأنه عبد، أما يسوع فصعد إلى السماء لأنه السيّد، ذاك في مركبة نارية وهذا في سحابة. لمّا حان أوان استدعاء العبد أُرسلت المركبة، وإذ حضر وقت استدعاء الابن أرسل العرش الملكي وليس العرش الملكي فقط بل العرش الأبوي نفسه لأن أشعيا قال عن الآب: «هوذا الرب يجلس على سحابة خفيفة» (أشعيا

١٩ : ١). إذاً بما أن الآب جالس على سحابة قد أرسل السحابة إلى الابن. حين أُصعد إيليا أهبط وشاحه على أليشاع، ولما صعد يسوع أهبط على تلاميذه مواهب قادرة أن تصنع لا نبيًّا واحداً بل ألوفاً من أمثال اليشاع وأعظم وأمجد منه.

فلننتصب إذاً أيها الأحباء ولنوجِّه أنظارنا إلى ذلك المجيء الثاني. يقول بولس الرسول: «ان الرب نفسه عند الهتاف عند صوت رئيس الملائكة سينزل من السماء ونحن الأحياء الباقين نُخْتَطف في السحب لنلاقي المسيح في الجوّ» (١ تسا ٤ : ١٥ و١٦ بحسب النص اليوناني). لكن لا جميعنا لأن الجميع لا يختطفون بل البعض يبقون والآخرون يختطفون. فالخطأة يتركون ههنا منتظرين عقابهم أمّا الصدّيقون فيختطفون على السحب. فكما انه متى قَدِم الملك يخرج لاستقباله إلى خارج المدينة أصحاب المراتب والسلطان والذين يتمتعون عنده بحظوة كبيرة، أمّا الجناة والمجرمون فيبقون في سجونهم منتظرين قضاء الملك، هكذا عندما يوافي الرب فالذين نالوا حظوةً لديه يلاقونه في وسط الجوّ، أمّا المجرمون والمثقّلون بخطايا كثيرة فينتظرون دينونتهم.

«ونحن أيضاً نُختَطف...» انني لا أحسب نفسي في عداد هؤلاء الذين سيُختَطفون لأني لم أبلغ من الغرارة والجهالة إلى حدّ أن أتناسى خطاياي. ولولا خوفي من أن أُعكّر لذّة هذا العيد لبكيت بمرارة عند ذكري لذلك الصوت الذي أعاد إليَّ ذكر خطاياي. لكن بما اني لا أريد أن يمازج الحزن سرور هذا العيد أختم هنا خطابي وحسبي ان جدّدت في خاطركم ذكر ذلك اليوم الأخير لكي لا يفرح الغني بغناه ولا يحزن الفقير على فقره بل ليفحص كلٌّ في نفسه فيرى أنّ غناه أو فقره في ضميره. فالغني لا يستوجب الغبطة ولا الشفقة بل مغبوط ومثلّث الغبطة ذاك الذي يؤهَّل لأن يختطف في الغمام ولو كان أفقر الجميع، وتاعس ومثلث التعاسة ذاك الذي لا يؤهل لذلك ولو كان أغنى الجميع. ولقد قلت ذلك لكي نبكي نحن الخطأة على نفوسنا، ولكي يثق كل العائشين بالفضائل، ولا يثقوا فقط بل فليطمئنوا بالاً. ولا يكتفِ الخطأة بالبكاء بل فليغيّروا سيرتهم إذ يُتاح للخاطىء أن يبتعد عن التجربة ويعود إلى الفضيلة فيستطيع أن يعادل الذين عاشوا منذ البدء في الصلاح. أما الذين يعرفون أنهم سائرون في الفضيلة فليداوموا على التقوى ويزيدوا دائماً هذا الكنز الثمين ولينموا فيهم الرجاء الذي لهم. وأما نحن الخائفين والذين نشعر في ضمائرنا بخطايانا الجمّة فلنغيّر مسلكنا حتى إذا ما وصلنا إلى ثقة أولئك نستقبل

جميعاً معاً بالاكرام الواجب ملك الملائكة ونتنعَّم بفرح الطوباويين في المسيح يسوع ربنا الذي له المجد والعزّة مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

ترجمة

الأب الياس سمعان المخلصي

الفصل الحادي عشر

عِظات ميلاديّة

ترجمة
الاب الكسيوس شتوي
المخلصي

١
عِظَة
كتاب ميلاد يسوع المسيح

لا شكّ أنهُ لا يزال ماثلاً في أذهانكم ذلك الحض الذي ختمنا به حديثنا السابق الذي به ناشدناكم أن تستمعوا إلى أحاديثنا بصمت عميق وهدوء تام. والآن نحن مشرفون على اجتياز الأروقة المقدسة فلهذا السبب ذكَّرتكم بذلك الحضّ. إذا كان اليهود عند اقترابهم من الجبل المضطرم بالنار بل من النار نفسها ومن الدخان والدجن والغمام، أو بالحري إذا كان لا يجوز لهم أن يقتربوا منهُ بل أن يشهدوا ويسمعوا فقط، قد أُمروا بأن يمتنعوا عن نسائهم ثلاثة أيام وأن يغسلوا ثيابهم، وإذا كانوا قد استُفِزّوا فَرَقاً ورهبةً هم وموسى نفسه، فنحن إذ قد أشرفنا على سماع كلام مثل هذا وعلى دخول السماء نفسها، فبدلاً من أن نقف بعيدين عن الجبل المدخّن يجب علينا بالأولى أن نعطي الدليل على حكمة سامية لا بغسل ثياب جسمنا بل بتطهير ثوب نفسنا وبأن نتحاشى كل اتصال غير طاهر بالأشياء الأرضية لأنكم ستشاهدون لا الدخان المتلبّد ولا الغمام العاصف بل المِلك نفسه جالساً على عرش ذلك الملك الذي لا حدَّ لوصفهِ يُحيط به ملائكته ورؤساء ملائكته ورهط القديسين المنضمين إلى الأجواق السماوية التي لا يستطاع عدّها. تلكم لعمري هي مدينة الله تضم إليها كنيسة الأبكار وأرواح الصدّيقين وجمهور الملائكة والدم المسفوك الذي ترتبط به الأشياء كلها بعضها ببعض وبهِ تتقبّل السماء ما في الأرض، والأرض تتقبَّل ما في السماء، بل مدينة الله هي السلام المنتظر منذ القِدَم المعطى للملائكة والقديسين. في تلك المدينة تنتصب العلامة المجيدة الباهرة علامة الصليب والأسلاب التي اغتنمها المسيح والانتصارات المحرزة على طبيعتنا وشارات مليكنا. وكل

ذلك قد فُصِّل بوضوح تام في الأناجيل. فاذا تتبّعت بكل هدوء وإصغاء نستطيع أن نطوف بك في كل مكان ونريك أين يرقد الموت مستمرًّا، وأين الخطيئة تظلّ معلّقة، وأين تتجمّع غنائم الحرب الوفيرة المجيدة، وآثار النصر المقدسة. سترى السلطان الجائر مقيّداً، والعدد الكثير من الأسرى يسير وراءه، والقمّة التي كان ينقضُّ منها للغزو ذلك الروح المفسد، سترى مخابئ اللصوص ومغاوره مهدَّمة مدمَّرة، لأن الملك سلَّط عليها قوَّته. فلا تكلّ من الاستماع إلينا أيها الحبيب، لأنه إذا ما قصَّ عليك أحد معارك عاديَّة وانتصارات وغنائم تستمع إليه مغتبطاً وتنسى لذلك المأكل والمشرب، فاذا كانت تلك القصص توليك الغبطة فكم بالحري قصّتنا. فتأمّل كم هو جليل أن تسمع كيف تخلّى الله عن سمائه وعرشه الملكي لينزل إلى الأرض وإلى الجحيم نفسها ويقف في معسكر القتال وكيف تهيّأ الشيطان لأن يحارب ضدّ الإله، هذا الإله المختفي في الطبيعة البشريّة لا الإله العاري عن الهيولى. والأغرب أن الموت يتجلّى لك مدمَّراً بالموت، واللعنة مضمحلّة باللعنة، وسلطة الشيطان محطّمة بما كانت تعتزّ به. لننهض إذاً ولا نلبث في سباتنا، ها هي الأبواب تنفتح أمامكم، لندخل بنظام دقيق وخوف مقدّس مجتازين الأروقة الإلهية. فما هي هذه الأروقة؟ «كتاب ميلاد يسوع المسيح ٱبن داود ٱبن ابراهيم». (متى ف ١:عد ١). ماذا تقول! كنت تريد أن تكلّمنا عن ابن الله الوحيد فاذا بك تعيد إلى أذهاننا داود وتحدّثنا عن إنسان كان له آلاف من الجدود وتجعل ذاك أباهُ وجدّه. ألا فاصبر، ولا تطلب أن يُقال لك كل شيء دفعة واحدة. لنتقدّم ببطءٍ قليلاً قليلاً. انك لا تزال في الأروقة ولم تكد تطأ العتبة فلماذا تندفع إلى داخل الهيكل ولم ترَ بعدُ كل ما في خارجهِ. أنا لا أُحدّثك عن الميلاد السابق (١) ولا باشرت وصف الميلاد الذي يليه لأنه سرّ يعجز عن وصفه عقل البشر وقد سبقني إلى ذلك اشعيا إذ أخبر عن آلامه، وعن العناية العظيمة المرفرفة فوق البسيطة، ودهش لتنازل إلهٍ قد صار إلى ما لم يكن فصرخ بصوت عظيم جهير: «أمّا جيله فمَن يصفهُ» (اشعيا ٥٣:٨). لا أُكلّمك الآن عن هذا الميلاد الإلهي، بل عن الميلاد البشري الصائر على الأرض، الذي يؤيّدهُ آلاف من الشهود. عن هذا الميلاد نحدّثك ما نستطيع بمؤازرة الروح، لأن هذا الميلاد أيضاً يتعذّر علينا تبيانه بوضوح كامل إذ تعترضنا في سبيل ذلك عقبات كأداء. لا يخيَّل إليك أنك تستمع إلى

(١) الميلاد السابق يقصد به الولادة من الآب، الولادة الازلية.

أمور قليلة الخطورة باستماعك إلى هذا الميلاد. فأيقظ ذهنك وارهب من البداية حينما تسمع أنّ إلهاً أتى إلى الأرض. وقد كان هذا الحادث من الغرابة والعجَب بحيث وقف الملائكة أجواقاً وجعلوا ينشدون تسابيح الحمد في المسكونة كلها عندما نظروا إلى هذا السرّ، ودهش الأنبياء لمّا أدركوا بالروح أن إلهاً يظهر على الأرض ويتردّد بين الناس. والأغرب أن نسمع بأنَّ إلهاً كلَّ دونهُ الوصف والتعبير وقصرت عن إدراكه طامحات العقول، إلهاً مساوياً لأبيه، حلَّ في أحشاء عذراء، ورضي أن يُولَد من امرأة، وأن يكون داود وابرٰهيم جدَّين له. وما لي أقول داود وابرٰهيم وفي الأمر ما هو أشدّ هولاً إذ توجد بين أجداده نساء زانيات قد جئنا على ذكرهنَّ في الحديث التمهيدي السابق. ألا فاْسمُ بعقلك لدى سماعك هذا الكلام ولا تقبل في نفسك ما هو دنيء بل بالأحرى، لهذا السبب، تعجب كيف احتمل ابن الله الأزلي، الابن الذي هو من جوهر الله، احتمل أن يُدعى ابن داود ليجعلك ابن الله، احتمل أن يكون أبوه عبداً ليجعل السيّد أباً لك أنت العبد. انك ترى منذ بدء المقدّمة ما هي الأناجيل (أي البشريات). ان كنت ترتاب فيمَا يخصّك فكن على يقين جازم ممَّا يتمّ في الابن المتجسّد. وانه لأصعب جدًّا أن يسلم عقلنا البشري بإلهٍ يصير إنساناً من أن يسلِّم بإنسان يصير ابن الإله. فإذا ما سمعت بأن ابن الله هو أيضاً ابن داود وإبرٰهيم فلا يخامرك ريب في انك أنت أيضاً تستطيع، وأنت ابن آدم، أن تكون ابن الله.

لا لعمري لم يذلّ نفسهُ عبثاً على هذا النحو لولا الغاية التي يتوخّاها، ألا وهي أن يرفعنا. قد وُلد بحسب الجسد ليجعلك تولد بحسب الروح. وُلد من امرأة حتى لا تكون بعدُ ابن امرأة، فلهذا السبب كانت الولادة فيه مزدوجة: ولادة تجعلُه شبيهاً بنا وأخرى تفوق ولادتنا. فالولادة من امرأة تتفق وطبيعتنا الضعيفة، أما الولادة بالروح التي ليست من لحم ولا من دم ولا من مشيئة رجل، فهي لممَّا يفوق طبيعتنا ولممَّا يبشّرنا بالولادة المقبلة التي سينعم بها الروح علينا. وعلى هذا المنوال تمَّت سائر الأسرار. فعماد المسيح مثلاً فيه عنصر من العهد القديم وعنصر آخر من العهد الجديد. فالعماد الذي تمَّ على يد النبي يوحنا يشير إلى العهد القديم، ونزول الروح القدس إنما يشير إلى العهد الجديد. ومثله في ذلك مثل رجلٍ جعل نفسهُ بين اثنين يمسك بيد كل منهما ثم يضمهما إليه. هكذا فعل المسيح إذ جمع بين العهدين القديم والجديد وبين الطبيعتين الإلهيّة والبشريّة وبين ما لهُ وبين ما لنا.

انك ترى أيّ شعاع ألقى عليك المشهد الأول لتلك المدينة ، قد بدأ ملكها يتجلّى لك في طبيعتك نفسها كقائد بين جنوده ، لأن الملك لا يظهر عادة هنالك بشاراته المألوفة ، إنما ينزع أرجوانه وتاجهُ ويرتدي ثياب الجندي حتى اذا لم يتميَّز عن سائر الجنود لا تنصب عليه قوة العدو . فإذا كان ملكنا لم يشأ أن يكون معروفاً فلكي لا يتجنَّب العدوُّ منازلته ولا يُلقي الذعر بين أخصّائه ، وهو إنما جاء ليخلّص لا ليهلك . وهذا ما دعا إلى تسميته «يسوع» منذ البداية . «يسوع» كلمة عبرانيّة معناها مخلّص أخذاً من قول الملاك : «لأنه سيخلّص شعبه» . (متى ١ : ٢٢).

أنظر كيف هزَّ الإنجيلي قلوب مستمعيه مع أنه لم يَفُهْ بسوى كلمات مألوفة ، ولكنها كلمات أفضى بها إلينا جميعاً ولم نكن لنتوقّع ما فيها من الأفكار . لقد كان اليهود يعرفون كِلا الإسمين حق المعرفة فانباؤهم بأمور غريبة لم يكن يحدث فيهم أقلَّ ريبة لما ان الرموز كانت تسبق الحقائق . فيسوع أو يشوع الذي خلف موسى أدخل الشعب إلى أرض الميعاد كما يخبرنا التاريخ . هذا هو الرمز . فانظر أيضاً إلى الحقيقة : ذاك يقود إلى أرض الميعاد ، أما هذا فإلى السماء إلى امتلاك الخيرات الثابتة ؛ ذاك يخلف موسى ، وهذا يخلف الناموس ؛ ذاك قائد ، وهذا ملك . ولكي لا يختلط عليك الإسمان لتشابههما أضاف متى «يسوع المسيح ابن داود» فالأول لم يكن من قبيلة داود بل من قبيلة أخرى .

ولماذا يدعو إنجيله «ميلاد يسوع المسيح» في حين أنه لا يتكلم عن الميلاد وحده بل عن تدبير سرّ التجسّد بأجمعه؟ ذلك لأن الميلاد هو جوهر كل التدبير ومبدأ خيراتنا كلها وأساسها . فكما أن موسى دعا مؤلَّفَه «كتاب السماوات والأرض» مع أنه لم يتكلم عن السماوات والأرض فقط بل عمّا بينهما أيضاً . هكذا الإنجيلي عَنْوَنَ إنجيله بما يبدأ به السرّ الإلهي . وإن منتهى الدهشة وما يعدو كل حسبان وانتظار هو أن يصير الإله إنساناً لأنه إذا ثبت هذا فكل شيء يأخذ مجراه الطبيعي المعقول .

لماذا لم يذكر إبرٰهيم قبل أن يذكر داود؟ ليس الأمر كما يزعم بعضهم من أنه أراد أن يصعد من الأدنى إلى الأعلى على مثل ما فعل لوقا ، على أنه عمل عكس ذلك – فلماذا ذكر داود؟ لأن اسم هذا كان شائعاً على ألسنة الجميع ، ثم لأجل شهرته وبسبب الزمن الذي كان يعيش فيه فهو أقرب إليهم من إبرٰهيم ولذلك كان اليهود يقولون «انه من نسل داود ومن قرية بيت لحم حيث كان داود يأتي المسيح» (يوحنا ٧ : ٤٢). ولم يعد أحد يدعوه ابن إبرٰهيم بل كان يسمَّى ابن داود لأن هذا كان ذكره ماثلاً في أذهان الجميع نظراً للزمن كما

قلت قبيل هذا ، وبالأخص لأنه كان ملكاً . ان الملوك أنفسهم الذين جاؤوا بعده والذين اكتسبوا احترام الشعب كانوا يحيون ذكرهُ ، والله نفسه كان يفعل ذلك ، فحزقيال وأنبياء آخرون يخبرون بأن داود سيعود ويبعث . نعم ليس الكلام عن داود عينه إنما هو عن الذين يقتدون بفضيلته . فقد قال الله لحزقيال : «احمي هذه المدينة وأخلصها لأجلي ولأجل داود عبدي» (سفر الملوك الرابع ١٩ : ٣٤). وكان يقول لسليمان : أنه لا يشق الملك ما دام داود حيًّا . وقد كان مجد داود عظيماً عند الله والناس . فلأجل هذا السبب يبدأ متّى كتابه بذكره ، ثم ينتقل إلى ذكر الأب الأول لنسل اليهود باعتبار أنّ ذكر مَن سلفهُ لا يأتي بفائدة عندما يوجّه كلامه إلى هذا الشعب . فها هما الشخصان الأكثر شهرة بين أجداد المسيح وقد كان أحدهما نبيًّا وملكاً وثانيهما جَدًّا ونبيًّا . ولعلّه يُقال لي كيف يتضح أن المسيح وُلد من داود وهو لم يولد من رجل بل من امرأة فقط ؟ وإذا كانت العذراء لم يُحصَ نسبها فكيف نُثبت انه كان من نسل داود؟ ان هنالك سؤالين : لماذا لا يُحصى نسب الوالدة؟ وبالحري لماذا يُحصى نسب يوسف وهو لا صلة له بالولادة؟ يلوح لي أن أحد السؤالين فضلة زائدة وثانيهما تدعو إليه الحاجة .

فعن أي شيء يجب أن نتحدّث أولاً؟ كيف العذراء هي من نسل داود؟ أنظر الله نفسه يرسل الملاك جبرائيل : «إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود وقبيلتهِ» (لوقا ١ – ٢٧). فأي شيء تراه أكثر وضوحاً من هذا؟ انّ العذراء من بيت داود وقبيلته . فيستدلّ من ذلك أنّ يوسف هو أيضاً من ذلك البيت وتلك القبيلة لأنّ الشريعة لم تكن تجيز لأحد أن يتّخذ لهُ زوجاً من قبيلة أُخرى لكن من قبيلته نفسها . والحال أن يعقوب رئيس الآباء تنبّأ بأن ماسيّا سيولد من قبيلة يهوذا إذ قال : «لا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبه حتى يأتي شيلو وتطيعه الشعوب» (تكوين ٤٩ : ١٠). فهذه النبؤة تدلّ على أنه كان من قبيلة يهوذا ولكنها لا تدلّ على أنه من بيت داود . ألم يكن في قبيلة يهوذا سوى بيت داود؟ بلى . قد كان فيها بيوت أخرى كثيرة ، فلذلك قد يكون من قبيلة يهوذا ولا يكون من بيت داود . فلئلاً تذهب هذا المذهب وتنخدع به أعلن الإنجيلي قائلاً بأن المسيح من بيت داود وقبيلته . وإذا كنت تريد دليلاً آخر على ذلك فلا يتعذّر عليك تقديمه : ان الشريعة لم تجز للرجل أن يتزوج من قبيلة غير قبيلته فحسبُ بل لم تجز لهُ أيضاً أن يتزوج من بيت آخر أي من غير ذويه . فوالحالة هذه نستطيع إطلاق هذه الكلمات على البتول ويوسف كليهمَا على السواء . لأنه إذا كان يوسف من بيت داود وقبيلته فلم يتخذ له

امرأة إلاَّ من البيت والقبيلة اللذين كان منهما. ولعلك تقول وما يهمُّ أن نقول ان يوسف تعدَّى هذه الشريعة؟ ان المؤرّخ استدرك هذا الاعتراض فشهد بأن يوسف كان رجلاً بارًّا. وهذه الشهادة التي تؤيّد فضيلته لا تسمح لك بأن تفكّر بأنه تعدّى الشريعة. ان هذا الرجل هو من الشهامة والنزاهة بحيث انه لم يشأ حتى عند اضطراره إلى اتّقاء التهمة أن يسلّم العذراء للعقاب، أيتعدّى الشريعة تحت تأثير الغضب؟ فالذي سما بحكمته إلى ما فوق الشريعة (لأن تخلية امرأتهِ وتخليتها سرًّا كانت حكمة لم ترسمها شريعة من قبل) فكيف يسوغ أن نفتكر بأنه يأتي ما يخالف الشريعة وليس ثمة من سبب يلجئُهُ إليه.

قد وضح مما قلناه أن العذراء كانت من نسل داود. فمن اللازم أن نبيّن لأيّة علّة أحصى الإنجيلي نسب يوسف ولم يحصِ نسبها. لماذا؟ لأنّ الشريعة عند اليهود كانت تمنع إحصاء نسب المرأة. فاحتراماً لهذه التقاليد ونفياً لكل شبهة مناقضة لها منذ مقدّمة إنجيله، وبياناً لنسب الابنة، ولو انه أغفل ذكر أجدادها، أحصى نسب يوسف. فلو أحصى نسب العذراء لاتُّهم بالتجدّد، ولو أمسك عن نسب يوسف لخفيت علينا معرفة أجداد العذراء. فلكي نعلم مَن كانت مريم، وإلى أيّ بيت تنتسب، ومراعاة للشرائع الثابتة، أحصى نسب خطيبها وبيّن أنهُ من بيت داود، حتى اذا ما ثبت ذلك ثبت أيضاً أنّ العذراء هي من نسل داود أيضاً، لأنه لا يمكن أن يتخذ هذا الرجل الصديق زوجاً له من غير قبيلة كما قلت سابقاً. ولسبب آخر أكثر غموضاً قد أُغفِل إحصاء أجداد مريم، غير أننا أضربنا الآن عنه لأنه لا متّسع لنا لتفصيله لكثرة ما حمَّلنا أسماعكم من الكلام.

الدرس الخلقي

لنقف عند هذا الحد من البحث. لنحرص على ما بينّاه لكم. عَلِمنا لماذا جاء الإنجيلي على ذكر داود أولاً، ولماذا دعا إنجيله «كتاب ميلاد» ولم يقل «كتاب يسوع المسيح». وعَلِمنا كيف كان جدول الأنساب شائعاً وغير شائع بين مريم وخطيبها، وكيف ثبت أن مريم من نسل داود ولأيّة علّة أحصي نسب يوسف وأغفل ذكر أجداد مريم. فإن حفظتم ذلك تزيدونا نشاطاً في ما سيَلي من الأحاديث، وإن نسيتموه ونبذتموه تُثبطوا عزمنا وتصدّونا عن مواصلة ما بدأنا به إذ ليس من فلاَّح يرضى أن يحرث أرضاً يفسد فيها البذار. فلهذا السبب أُناشدكم أن تردّدوا في ذهنكم الدروس التي ألقيتها عليكم. لأنّ العناية بمثل هذه الدروس تنشئ في نفوسكم خيراً عظيماً خلاصياً. فاذا ما اهتممنا بهذه الأفكار نستطيع

أن نرضي الله ونبعد من أفواهنا الشتائم والألفاظ البذيئة التافهة، فتصبح أحاديثنا مشبعة بروح التقوى الذي نتّخذه سلاحاً ضدّ الشياطين، ونحرز النعمة الإلهيّة غزيرة، وتصير عَينُ نفسنا أحدّ نظراً لأن الله وضع فينا باصرتين وفماً وأُذُناً لكي تخدمهُ جميع الأعضاء، ونتحدّث بآياته، ونعمل بإرادته، وننشد تسابيحه باستمرار، ونرفع إليهِ الشكر، ونطهّر بذلك ضمائرنا. فكما أن الجسم إذا ما تمتّع بالهواء النقيّ يكون سليماً كذلك النفس فإنها ترقى إلى أعلى درجات الحكمة بالدروس الإلهية.

ألا تعلمون أنّ العين لا تكفّ عن إسبال الدموع ما دام الدخان يشملها، وانها تتحسّن وتقوى إذا ما كانت في الهواء الطلق بين جداول المياه والحدائق؟ تلك لعمري حالة عَين النفس فإنها إذا ما اعتادت الاستراحة في تلك المروج الفسيحة الغنية، مروج الكتب الالهية، تزداد نقاءً ونفوذاً. ولكنها إذا ما غاصت في دخان المهام العالمية فلا تكفّ عن البكاء وذرف العبَرات لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي. وعلى الحقيقة أنّ ما يشغل الإنسان في هذه الدنيا إنما هو دخان. لذلك قال أحدهم: «واضمحلَّت أيامي كالدخان». على أن هذا الرجل كان يتكلّم عن قصر الحياة وعدم ثبات الأشياء البشرية أمّا أنا فلا أُشير إلى ذلك المعنى وحده بل أتكلم أيضاً عمَّا يجرُّ ذلك وراءَه من الاضطراب لأنه لا شيء يؤثر في عيون النفس ويحدث فيها الاضطراب مثل الاهتمام بالمصالح البشرية وهياج الشهوات الأرضية. ان الخشب هو غذاء الدخان فكما ان النار اذا ما أُلقيت على مادة رطبة تثير فيها دخاناً كثيفاً. كذلك الشهوة، هذه النار الآكلة، إذا ما شبَّت في نفس رطبة ومنحلَّة فانها تبعث دخاناً كثيفاً. فلذلك نحن في عوز إلى ندى الروح ونسيم ذلك الندى لكي يُخمد النار ويبدّد الدخان ويجعل العقل يحلّق كالطير، ولعمري لا يستطيع هذا الطير التحليق في الجوّ ما دام رازحاً تحت أثقال الشرور. حبّذا لو قدرنا أن نقطع هذه الطريق بسرعة الطيور. على ان هذا الأمر لا حيلة لنا به إن لم نتخذ أجنحة الروح. فاذا لم تكن نفسنا مجرّدة تؤازرها النعمة الالهية لا يمكن أن نرتفع إلى ما فوق. وكيف يكون لنا ذلك ونحن خالون من تلك المعونة المزدوجة ولاسيما وانا على نقيض ذلك رازحون تحت الأثقال الشيطانية. لو قام أحد فجعل كلامنا في معايير عادلة هل يجد فيه بعد الجهد من الألفاظ الروحية ما قيمتهُ مئة دينار؟ وما لي أقول مئة دينار وقد لا تجد فيه ما قيمته عشرة فلوس! أليس من المضحك المخجل اننا، إذا كان عندنا عبد، فنستخدمه أكثر الأحيان لما يلزم، أمّا فمنا الخاص وبقيّة أعضاء جسمنا فنستخدمها بلا احترام ولا

اهتمام لأمور غير مفيدة ولمجد باطل. ويا ليت اننا نقتصر على استخدامها للمجد الباطل والأمور غير المفيدة إلاّ أننا نستخدمها لأشياء وبيلة وسيّئة العاقبة. فلو كان في ما نتلفّظ به نفع لنا لكانت ألفاظنا مقبولة عند الله. غير ان كل ما نتلفّظ به هو من وحي الشيطان. فتارة نمزح وطوراً نفوه بكلام يندى له الجبين خجلاً، مرة نلعن ونشتم، وأخرى نقسم ونكذب ونحلف، حيناً نستسلم للغضب، وحيناً للمجون وثرثرة العجائز. وليس فينا شيء من الاعتدال. قولوا لي مَن منكم إذا طُلب إليه يستطيع أن يقرأ مزموراً أو فصلاً من الكتب الإلهية؟ لا أحد. ولا يقف الشرّ عند هذا الحد بل انكم مع توانيكم في الأمور الروحية فكلكم نشاط للأشياء الشيطانية. والواقع انه لو شاء أحد أن يسألكم عن أغانٍ أوصى بها إبليس أو عن أشعار غرامية لوجد كثيرين بينكم يعرفونها حق المعرفة ويجدون لذّة في ترديدها. فما هو جوابكم على هذه النقائص؟ – لعلّك تقول لي انك لست من الرهبان وان عندك امرأة وأولاداً ولك بيت يجب أن تعنى بأمره – هذا هو الدمار بعينه إذ تدعون أن مطالعة الكتب واجبة على الرهبان وحدهم، وهي في الواقع ألزم لكم. ان المعذبين بين الأخطار والمصابين كل يوم بالجراح، هؤلاء إنما تجب لهم الأدوية. إن إهمال المطالعة لأقلُّ شراً من الاعتقاد بأنها فضلة زائدة، وما تلك الحجج إلاّ دروس الشيطان.

ألا تسمعون بولس يقول: «إنّ ما كُتب فقد كُتب لفائدتنا».

انك لا ترضى أن تمسّ الإنجيل بيد وسخة إذا ما ألجئت إلى ذلك، ومع ذلك تدّعي أن ما فيه لا ضرورة له ولا نفع ولهذا السبب أصبح كل ما فينا منقلباً رأساً على عقب. أتريد أن تعلم ما هو النفع الذي تجنيه من مطالعة الكتب المقدسة. إفحص ذاتك فحصاً دقيقاً كيف تصبح إذا ما استمعت إلى تلاوة المزامير وكيف تكون حالك إذا ما استمعت إلى الأغاني الشيطانية. وما هو شعورك في الكنيسة وشعورك في المسرح. حينئذٍ تدرك الفرق العظيم بين نفسك وأنت في الكنيسة وبينها وأنت في المسرح، على انها واحدة في الحالتين. فلذلك كان القديس بولس يقول: «العِشَر الرديئة تفسد الأخلاق السليمة» (١ كورنثس ١٥ – ٣٣). فلأجل هذا السبب نحن في افتقار مستمرّ لأناشيد تأتينا من الروح القدس، فهذا هو الذي يجعلنا في منزلة أعلى من العجماوات، لكننا كثيراً ما نجعلها أحطّ منها لأسباب أخرى. في استماع الأناشيد الروحية والكلام الإلهي تجد النفس غذاءَها وزينتها وأَمْنَها، كما أن الإعراض عن الاستماع إليها هو الجوع والانحلال. وقد قيل: «أرسل الجوع على الأرض لا الجوع إلى الخبز ولا العطش إلى الماء بل إلى استماع كلمة الرب» (عاموس

٨ - ١١). فأي شيء أدعى إلى الرثاء من أن تجلب أنت نفسك على رأسك ما يهددك به الله على سبيل العقاب وذلك بإخضاع نفسك إلى جوع كافر وتجعلها في أقصى حالات الضعف. فهي بالكلام تهلك وبالكلام تخلُص، الكلام يسوقها إلى الغضب وهو يعيدها إلى الهدوء. كلمة شائنة تضرم فيها الشهوة وكلمة طاهرة تثير فيها محبة الطهر. فاذا كان للكلام المألوف البسيط هذه القوة فقل لي لماذا تزدري بالكلام المُنزَل؟ وإذا كانت المشورة البشرية تحدث ذلك التأثير فبالأحرى إذا كانت المشورة تؤيّدها قوّة الروح القدس. لأن كلمة من الكتب الإلهية تفعل في النفس المتصلّبة أكثر مما تفعل النار، وتعدّها لكل عمل حميد. هكذا فعل بولس بأهل كورنثس فإنه بعد أن وجد روح الكبرياء مستولياً عليهم وبّخهم وصيَّرهم أكثر الناس حلماً لأنّ ما كان يدعو إلى الخجل والخزي كانوا يتباهون به. فلمّا حضرتهم رسالة الرسول تبدَّلت أحوالهم. فاسمعوا ما كتب عنهم هذا المعلم نفسه: «انظروا غمّكم هذا الذي غممتموه بحسب رضى الله. كم أنشأ فيكم من الاجتهاد، بل من الغيظ، بل من الخوف، بل من الشوق، بل من الغيرة، بل من الاستقامة» (٢ كورنثس ٧ - ١١).

لنقوِّم على هذا النحو عبيدنا ونساءَنا وأبناءَنا وأصدقاءَنا ولنجعل أعداءَنا أصدقاء لنا. وهكذا الرجال العظام محبّو الله أصبحوا خيراً مما كانوا عليه. فداود بعد سقطته تأثّر بالكلام وتاب تلك التوبة المدهشة. كذلك بالكلام صار الرسل إلى ما صاروا إليه فربحوا المسكونة. ورُبَّ قائل ما الفائدة إذا كان المرء يسمع الكلام ولا يعمل به؟ - ليس قليلاً أن يتعلم المرء كيف يسمع، لأنه في بدء الأمر يحكم على نفسه، ثم يندب ذاته، وبعد ذلك يعمل بما سمع. فالذي يعرف انه خطئ متى يكفّ عن ارتكاب الخطيئة؟ عندما يقرّع نفسه. فلا تزدرِ بالاستماع إلى الكتب المقدسة ولا تستسلم إلى فكر الشيطان الذي يصدّنا عن رؤية الكنز لئلاّ نصير أغنياء. ولهذا السبب يقول لنا: لا أهميّة للاستماع للشرائع الإلهية لأنه يخشى اننا إذا ما سمعنا نشرع في العمل. فإذا عرفنا حيلَهُ الخبيثة لنكن منهُ على حذر مستمرّ حتى إذا ما تقلّدنا تلك الأسلحة نكون في مأمن من شرّه ونضربه الضربة القاضية. وإذ نحمل هكذا شارات النصر نحوز الخيرات المقبلة بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزّة إلى أبد الآباد آمين.

٢
عِظَة
في نسب المسيح

١ – ها هوذا حديثي الثالث ولم ننتهِ بعد من حلّ ما جاء في المقدّمة. لم أُخطئ فيما كنت أقول أن تلك الأفكار بعيدة الغور، لكن تشجّعوا فإننا سنأتي على الباقي منها. فما هي المسألة التي يدور البحث حولها؟ لأيّ سبب أُحصي نسب يوسف ولا صلة لهُ بالميلاد؟ قد أتينا على حلٍّ واحد، وإليكم الآن حلاًّ آخر أغمض سرًّا وأشقّ وصفاً، فما هو؟ – إن الله لم يشأ أن يعرف اليهود حين ولد المسيح أنه وُلد من عذراء. لا تضطربوا من غرابة ما أقول لأنّ هذا القول ليس مني بل نقلته عن آبائنا أولئك الرجال الأماثل الجديرين بكل احترام. فاذا كان هو نفسه في البدء يلقي ستاراً من الظل على حقيقة طبيعته، داعياً ذاتهُ ابن البشر، وإذا لم يكن يكشف لنا في كل فرصة بوضوح انه مساوٍ للآب، أفيدهشكم أنه أراد أن يلقي ستاراً على تلك الحقيقة بتدبير خطير وغريب؟ ورُبَّ قائل يقول: وما هو هذا التدبير الخطير الغريب؟ هو حماية العذراء وجعلها بمنجى من كل ريبة مخزية، لأنهُ لو عرف اليهود منذ البدء ذلك السرّ لكانوا أساءُوا تفسيره ليتّخذوا من ذلك سبباً للحكم على البتول ورجمها كزانية. فإذا كانوا أبدوا سخطاً شديداً في ظروف كثيرة أوردها لنا كتاب العهد القديم، وإذا كانوا قالوا عن المسيح انهُ شيطان لأنهُ أخرج الشياطين، وادّعوا أنهُ عدو الله لأنهُ شفى في يوم السبت، وإن تكن شريعة السبت قد انتقضت غير مرة، فلو اطّلعوا على هذا السرّ ماذا كانت تقولاتهم عنه؟ لا ريب في أنّ تاريخ الجنس البشري كان وقف كله إلى جانبهم لما انّ هذا الحدث لم يسبق لهُ مثيل. وإذا كانوا بعد اجتراحه الآيات الكثيرة لا يزالون يدعونهُ ابن يوسف فكيف يصدّقون قبل اجتراح الآيات انه وُلد من عذراء؟ فلهذا السبب أُحصي نسب يوسف، وللسبب عينه خُطِب يوسف لمريم. على أنّ يوسف نفسه مع أنه كان رجلاً صدّيقاً وعجيباً احتاج إلى أدلّة كثيرة ليطمئنّ إلى الأمر الواقع: فاقتضى أن يتراءى لهُ ملاك في الحلم، وأن يلجأ إلى شهادة الأنبياء. فكيف يقبل اليهود ذلك المعتقد وهم على ما هُم عليه من فساد الأخلاق وانحطاطها، هذا فضلاً عن استعدادهم لمقاومة المسيح. بل أي اضطراب لكان أثار فيهم هذا الحدث الغريب والجديد الذي لم تألفهُ الأسماع ولا سبق لهُ مثيل في تاريخ أُمَّتهم؟ فمَن كان على يقين من أنّ المسيح هو ابن الله لا يبقى لديه ما يدعو إلى الريبة في هذا

الأمر ، أمَّا من يعتبره مُضلاً وعدوًّا لله أفلا يجد فيه بالأحرى سبباً للظن وافتراض الشرّ؟ فلأجل هذا السبب لا يتكلم عنهُ الرسل في البدء بل كانوا يؤثرون أن يتحدّثوا أكثر الأحيان عن القيامة ، لأنها حدثت في الأزمنة الغابرة قيامات تماثلها ولو أنها كانت تختلف عن طبيعة قيامة المسيح. فقلَّما قالوا انهُ وُلد من عذراء. وأمه نفسها لم تكن لتجرؤ على التصريح بذلك. فاسمع ما تقوله لابنها : «ها إنَّ أباك وأنا كنا نطلبك متوجّعين» (لوقا ٢ :٤٨). وزِد على ذلك أنهُ لو اشتُبه بتلك الولادة لما اعتُبر أنه ابن داود ، وإذ ذاك تتولّد شرور شتى أخرى. ان الملائكة أَنفسهم يتحاشون الكلام بهذا الشأن فلم يعلنوا هذه الحقيقة إلاّ لمريم ويوسف وحدهما. وعند تبشيرهم الرعاة بمولد المسيح لا يذكرون شيئاً مما يتعلّق بذلك الأمر. ثم لماذا قال الإنجيلي ، بعد أن ذكر إبرٰهيم ، انه ولد اسحق ، واسحق ولد يعقوب ، ولم يذكر أخا يعقوب مع انه ذكر اخوة يهوذا عندما انتهى إلى هذا الأخير؟

٢ — ذهب كثيرون إلى أنه فعل ذلك لسوء خلق عيسو وآخرين سواه ممن أُهملتْ أسماؤهم. أمّا أنا فلا أرى رأيهم. فلو صحَّ ما زعموه كيف يذكر النساء اللواتي سيُعلن الإنجيلي أسماءهن فيما يلي؟ على أنّ مجد المسيح يظهر الضدّ. فهو لا يظهر هنا بعظمة آبائه بل بحقارتهم ، فإن أعظم مجد للمرء الرفيع المقام مقدرته على الإمعان في الوضاعة! فلِمَ هذا السكوت إذاً؟ — لأنّ أولئك الرجال الذين نحن في صددهم لم يختلطوا مع عنصر الاسرائيليين وهم السراكينيون والاسماعيليون والعرب وكل مَن تحدّر من نسلهم. لهذا السبب أغفل الإنجيلي ذكرهم ولم يُعنَ إلاَّ بآباء يوسف والعنصر اليهودي ، ولذلك يقول : «يعقوب ولد يهوذا واخوتهُ» إذ يكون المقصود هنا أمة اليهود. فيهوذا ولد ، والحالة هذه ، فارص وزارح من تامر... ماذا تفعل أيها الرجل؟ لماذا تعيد إلى ذاكرتنا إثماً ارتُكب في الزمن الغابر؟ لعلَّ أحداً يقول : وما هو؟ لو كان البحث يتعلق بإنسان بسيط لصحَّ السكوت عنه ؛ لكنه يتعلق بإله صار إنساناً فليس فقط لا يصحّ السكوت عنه بل يجب الجهر به لتظهر عناية الله وقدرته ، لأنه جاء لا ليتهرَّب من آثامنا بل ليحملها وينقذنا منها. فكما اننا نعجب لا لأنهُ مات بل بالأحرى لأنه مات مصلوباً ، وإن يكن في ذلك عار ، إلاَّ أنه بمقدار ما تحمل من العار يُظهر محبتهُ للبشر ، هكذا يمكننا أن نقول عن نسبهِ. فيجب أن ندهشَ لا لأنه اتخذ جسداً وصار إنساناً فحسب بل بالأحرى لأنه أهّلَ أولئك ليكونوا من أنسبائه ، غير خجل من حقارتنا. وقد أعلن في بدء نسبته انه لا يخجل من حقارتنا ، مبيِّناً لنا بذلك أن العار الذي يلحق بنا لا يكون بشرور آبائنا ، وان المجد الذي

يجب أن نطمح إليه وحده هو التدرّب على الفضيلة.

لأن الرجل الشريف ولو كان من أبٍ أجنبي وأُمٍّ خالعة أو ملوّثة من أي وجه آخر لا يمكن أن تمسّ كرامته. فإذا كان الزاني نفسه عندما يحسن سلوكه لا يمكن أن يخجل من حياته السالفة فبالأولى الرجل الصدّيق لا يمكن أن ينال من كرامته خلاعة أُمّه وفساد أجداده. فاذا ما فعل المسيح ذلك فإنما يبغي من ورائه لا تهذيبنا فقط بل أيضاً تحطيم كبرياء اليهود لأنهم لمّا كانوا لم يزالوا يردّدون اسم ابرٰهيم غير مهتمين بإحراز الفضيلة الحقّة واثقين بأنَّ براءَة آبائهم تكفي لتبريرهم، بيَّنَ لهم منذ المقدمة نفسها أن الفخر ليس بالآباء بل بالأعمال الذاتيّة. وهذا ما يزيدنا دليلاً على أن البشر جميعاً حتى آباءَهم أنفسهم هم عرضة للخطيئة، بشاهد أنّ الجَدّ الذي اتخذ اليهود اسمهم منهُ يبدو انه ارتكب إثماً فظيعاً لأن تامر قامت تشكوهُ بأنه ارتكب معها الفحشاء. وها هوذا داود يُرزق ابنه سليمان من امرأة زانية. فاذا كان الرجال العِظام لم يحترموا الناموس فبالأحرى الرجال الأدنياء. فلمّا خطئ الجميع ولم يحترموا الناموس كان مجيء المسيح أمراً لا بدَّ منهُ.

إنكم تدركون الآن لماذا يذكر الإنجيلي الآباء الاثني عشر، ولأَي سبب أيضاً يخفض الكبرياء التي كان اليهود يكوّنون فكرتها من شرف أجدادهم.

إن أكثر أولئك الآباء وُلدوا من إماء أو جوارٍ. غير ان الاختلاف المناسب بين الأمهات لا يتصل بالأبناء فكلهم كانوا آباء ورؤساء قبائل. وما ذلك إلاّ صورة لامتيازات الكنيسة، وعلامة للنبل الوحيد الذي يمكن أن نتّصف بهِ بحيث انك، عبداً كنت أو حرًّا، فلا تزيد بذلك أو تنقص، فما لك إلاّ أن تجدّ في أمر واحد وهو شعور نفسك واستعدادها.

٣ – بعد كل ما تقدّم يبقى لنا أن نعطي سبباً آخر لإدخال الإنجيلي هذه القصة في جدول النسبة فان اسم زارح لم يُضف إلى اسم فارص لغير علّة ولم يكن من الفائدة في شيء أن يذكر اسم زارح أيضاً بعد أن ذُكر فارص الذي كان أُدرج بين أجداد المسيح. فلأيّ سبب ذُكر إذاً؟ لما أشرفت تامر على الولادة وحان أوان الطلق إذا بزارح يخرج يده أولاً. فعند هذا المشهد أخذت القابلة قرمزاً فعقدته على يده لتُثبت أنهُ خرج أولاً. وللحال ردَّ الولد يده فخرج فارص أولاً ثم عقبه زارح. فقالت القابلة: «لماذا انقطع لأجلك السياج» (تكوين ٢٨: ٢٧ – ٣٠). لا شكّ أنكم ترون في ذلك أسراراً وأحاجي. إن ذلك لم يُدرَج في الكتاب دون ما سبب ولا كان من اللائق أن يخبرنا التاريخ عما قالت القابلة،

ولا أن أحد الولدين أخرج يده أولاً ، وانه لم يخرج غير الثاني . فما هي هذه الأحجية؟ أولاً من اسم الولد نفهم المقصود. فارص معناه قطْع وشق. ثم للحادث معنى خاص إذ ليس من النظام الطبيعي في شيء ان ولداً يردّ يده بعد أن أخرجها وبعد أن عُقد عليها فلا العقل ولا الطبيعة يمكنهما أن يثبتا ذلك ، أن يولد ولد في حين أخرج آخر يده . هذا لعمري ليس من المستحيلات ، أما ان الواحد يردُّ يده ليفسح الطريق للآخر ، فذلك ما ليس هو بحسب ناموس المخلوقات. إذاً النعمة الإلهية هي التي دبّرت ذلك التدبير فشاءت أن تعطينا فيه صورة للأمور المستقبلة.

فماذا يقول الحكماء الذين يدقّقون في تفسير تلك الأسرار؟ إنّ ذَينك الولدَين هما رمز الشعبين ، فلكي تعلم أن الثاني من هذين الولدين ظهر قبل الأول ، أظهر أحد الولدين يده ، ولم يبرز بكامله ، ثم ردّها. وبعد أن خرج أخوه عقبهُ هو كاملاً. وهذا الأمر قد تحقق في الشعبين كليهما . لأن الحياة المسيحية كانت ظهرت في عهد إبرٰهيم ، ثم اختفت فجأة. وجاء الشعب اليهودي برسومهِ الناموسية ، ولم يأتِ الشعب الجديد إلاّ فيما بعد. ولهذا قالت القابلة «لماذا انقطع لأجلك السياج» إذ الحرية القديمة قيّدها الناموس لأن الكتاب اعتاد أن يدعو الناموس سياجاً على نحو ما يقول النبي داود : «لماذا هدمت سياجها فقطفها كل عابري الطريق» (مزمور ٧٩ – ١٣). ويقول اشعيا : «وحوّطه بسياج» (اشعيا ٥ – ٢). وبولس يقول : «السياج الحاجز» (افسس ٢ – ١٤).

٤ – وهذه الآية نفسها «لماذا انقطع لأجلك السياج» يطلقها بعضهم على الشعب الجديد لأنهُ قوّض الناموس القديم. أفترى أن الإنجيلي لم يدرج اسم يهوذا لأمر بسيط ويسير؟ ولأجل السبب نفسهِ ذكر راعوت وراحاب ، مع أن الأولى أجنبية ، والثانية بغي : لتعلم أنّ المسيح إنما جاء ليضع حدًّا لشرورنا لأنهُ جاء كطبيب لا كقاضٍ . فكما ان أولئك الرجال تزوّجوا من نساء زانيات هكذا الإله اتحد بطبيعة سقطت في البغاء. لأن هذا الإثم قد ارتكبه المجمع حسب شهادة الأنبياء. غير أن المجمع كفر بالنعمة نحو عروسهِ. أما الكنيسة فبعد أن أنقذت دفعة واحدة من شرور الآباء ظلّت متعلّقة به . أنظر إلى ما حدث لراعوت وقارن بينها وبين الكنيسة المسيحية. كانت راعوت أجنبية وقد نزل بها فقر مدقع ومع هذا لما رآها بوعز لم يمتهن فقرها كما لم يمتهن ضعة أصلها. هكذا قبل المسيح الكنيسة واتخذها شريكة له مع انها كانت أجنبية ومعدمة كل خير. لكن راعوت هذه لو لم تترك أباها وتغادر بيتها وشعبها ووطنها لما انتهت إلى شرف هذا النسب. هكذا

الكنيسة لما تركت عادات آبائها أصبحت حبيبة عروسها. وهذا هو ما يعبّر عنهُ النبي بقوله: «انسي شعبك وبيت أبيكِ فيصبو الملك إلى حسنك» (مزمور ٤٤:١٢). هذا ما صنعتْهُ راعوت ولأجلهِ غدَت أُمًّا للملوك على نحو ما ستكون الكنيسة. فمن سلالتها داود.

فالإنجيلي إذاً وضع جدول النسب وأدرج فيه أمثال تلك النساء ليذلّ اليهود ويشفيهم من داء الكبرياء. فإن الأخيرة منهن ولو كانت أجنبية لم يستحيِ داود الملك العظيم أن تكون له جدّة، لأن شرف المرء ونبله أو خسّته ودناءته لا تتأتى إليه من فضائل أو شرور آبائه، بل ان ما يجعل للمرء شرفاً أسمى بالأحرى هو أن لا يكون من أصل شريف لكنه حصل الشرف بذاته.

الدرس الخلقي

فلا يفاخرنَّ إذاً أحد بأصلهِ بل فليقصِينَّ كل فخار عند تأملهِ بأجداد المسيح وليفتخر كلٌ بفضائلهِ الذاتيّة وبالأحرى لا يجب أن يكون في هذا فخرنا لأنّ الفرّيسي جرى على هذا النحو فأمسى دون العشار منزلة. أفتريد أن تظهر عظمة عملك؟ لا تفاخر بهِ وإذ ذاك يكون لك ما تريد. اعتبر انك لم تعمل شيئاً فيكون عملك كاملاً. إن كنّا خطَأَة وكنا على يقين من ذلك نصبح مبررين كما بُرِّر ذلك العشّار فكم بالحري إذا كنا مبرَّرين ونعتبر ذواتنا خطأة؟ فاذا كان الاتضاع يبرّر الخطأة وإن لم يكن هو عين الاتضاع بل هو إقرار بما يكون المرء عليه، إذا كان هذا الإقرار البسيط له تلك المقدرة على الخطأة فأي شيء لا يفعل على البَرَرَة الاتضاع الحقيقي؟

فلا تُضع إذاً ثمار أتعابك ولا تدع أعراقك تذهب سدى ولا تجعل أشواطك التي قطعتها عقيمة وعناءك الماضي بغير جدوى لأن السيّد يعرف أعمالك الحسنة أكثر منك فلا يضيع أجرك ولو لم تُعطِ سوى كأس ماءٍ بارد. انه يقبل برضىً تام كل شيء ويذكر كل شيء ويجزل لك الثواب ولو لم تُلقِ غير فلس أو لم تسكب سوى دمعة واحدة. فلماذا تهتم بأعمالك ولا تزال تبسطها أمام أعيننا أفلا تعلم انك إن مدحت نفسك لا يمدحك الله في حين انك لو عرفت مسكنتك لما كفَّ هو عن إعلانك أمام العالم أجمع لأنه لا يريد أن يقلّل من قدر أتعابك. ولماذا أقول يقلّل في حال انه يلجأ إلى كل وسيلة لتكلّل عن كل صغيرة مجتهداً بأن يرى لك سبباً ليقيك نار جهنم.

٥ - فلذلك ولو لم تعمل إلاَّ في الساعة الحادية عشرة من النهار يعطيك الأجر كاملاً. وقد قال على لسان أحد الأنبياء: «وإن لم يكن لكم أقل أمل بخلاصكم فإني أخلّصكم لأجلي حتى لا يدنّس اسمي» (حزقيال ٣٦:٢٢ - ٢٣). انك ولو اقتصرت على تصعيد الزفرات، أو سكبت دمعة، فانه يتخذ من كل هذا سببا لخلاصك. فلا نترفّع إذاً بل لنقل في ذواتنا: «إننا عبيد بطّالون» فتصبح أعمالنا صالحة. لأنك إذا مدحت نفسك، وكان ما تعمله يستحق المديح، تصبح عبداً بطّالاً. أما إذا حسبت ذاتك بطّالاً، ولو كنت لا تستحقّ المديح، تصبح عبداً صالحاً. فلذلك يجب على المرء أن ينسى أعمالهُ الصالحة. ولعلّكم تقولون كيف يمكن أن نجهل ما هو ماثل في ذهننا؟ ماذا تقول؟ إنك لم تزل تغيظ السيد وتلهو وتضحك بملء فيك، ولا تفكر بأنك خاطئ، تاركاً كل شيء طيّ النسيان، لكنك لا تستطيع أن تنسى أعمالك الحسنة مع ان الخوف عليها في هذه الحالة أشدّ. أما نحن فعلى عكس ذلك، لوْ سقطنا كل يوم في الشرّ فلا نفكر به. أمَّا إذا اتفق أن تصدّقنا على فقير بشيء زهيد نطبِّل له ونزمِّر، وهذا ما ينال من كرامة عقلنا ويهدم الخير الذي نكون أصبناهُ. والحقيقة أن آمن وسيلة لحفظ كنز الأعمال الحسنة هو نسيانها. فكما اننا إذا بسطنا ثيابنا الفاخرة في السوق العام نعرّضها للمكايد والأخطار بخلاف ما لو أخفيناها في بيتنا فاننا نحفظها في مأمن من اللصوص. كذلك حال أعمالنا الحسنة: فإن لم نكفّ عن ترديدها في خاطرنا نثير غضب السيد، ونسلّح عدوّنا، ونستدعي السارق. أما إذا لم يدرِ بها أحد، اللهمَّ إلاّ ذاك الذي يجب أن يعلم بها وحده، فلا سبيل إلى الخوف عليها. فلا تردّدها إذاً على هذا النحو لئلاَّ يسرقها أحد، ولئلاَّ تُصاب بما أُصيب به الفريسي الذي كان يردّدها على لسانهِ حتى سلبه إياها الشيطان، ولو انه كان يذكرها بالشكر ويعيد كل شيء لفضل الله. لكن ذلك لم يكفهِ لأن الشكر لا يكون بإهانة القريب وتمجيد الذات ومقاومة الخطأة بالغطرسة. إذا حمدت الله فحسبك هو وحده فلا تتعدَّ إلى البشر، ولا تَدِن القريب، لأن ذلك ليس من الحمد في شيء. أتريد أن تتعلّم كيف تنطق بكلمات الشكر؟ اسمع ما نطق به الثلاثة الفتية: «قد خطِئنا وأثمنا. انك عادل في جميع ما صنعت بنا. فجميع ما جلبت علينا إنما صنعتهُ بحكم حق» (دانيال ٣:٢٧ - ٣١). فالإقرار بالخطايا الذاتيّة إنما هو شكر لله. لأنّ المرء يعترف على هذا النحو أنّ عليه ديوناً كثيرة وانهُ لا يأبى قبول العقاب العادل. فهذا لعمري هو الرجل الشكور.

فلنحذر إذاً من التحدّث بأعمالنا لأنه يجعلنا مكروهين لدى الناس وحقيرين في عيني

الله. فعلى قدر ما نأتي من الأعمال العظيمة يجب أن نقلّل من الكلام عنها، فنجني بذلك ثمار مجد عظيمة في أعين الناس وفي عيني الله، والله لا يمنحنا المجد فقط بل أيضاً جزاءً جميلاً. أتريد أن تنال هذا الجزاء فلا تطلبنَّهُ ولا تعلّق خلاصك إلاَّ على النعمة فيجعل الله نفسه مَديناً لك لا لأجل أعمالك وحدها بل أيضاً لأجل عرفانك، لأننا إذا أحسنّا العمل نجعلهُ مَديناً لأعمالنا الحسنة فقط، لكن إذا اعتبرنا أنّ أعمالنا ليست شيئاً فبهذا الاعتبار نجعلهُ مَديناً نحونا أكثر مما نجعلهُ مَديناً بسبب الأعمال الحسنة. وفضلاً عن هذا، فإن هذه الأعمال لا تستطيع بدون ذلك الاعتبار أن تكون حقاً عظيمة. إذا كان لنا عبيد أفلا نخصّهم بالرعاية حينما يخلصون الخدمة ويحسبون أنفسهم أنهم لم يأتوا أمراً ذا شأن؟

٦ – فإذا أردت أنت أيضاً أن تعمل أعمالاً عظيمة فلا تحسبها كذلك فتصبح إذ ذاك عظيمة. كان قائد المئة يقول: «لست مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيتي» (متى ٨:٨). لأجل ذلك أصبح مستحقًّا أن يدخل إلى بيته وفُضِّل على جميع اليهود. وبولس أيضاً يقول: «لست أهلاً لأن أُسمّى رسولاً» (كورنثس الأولى ١٥:٩). فلذلك أصبح أول الجميع. وكان يوحنا يقول: «لست مستحقًّا أن أحلَّ سيور حذائه» (مرقس ١:٧، ومتى ٣:١١). فلذلك أصبح صديق العروس. وتلك اليد التي كان يحسب انها غير مستحقّة أن تلمس حذاءه رفعها على رأس المسيح وبأمره. أخيراً قال بطرس: «ابتعد عني لأني رجل خاطئ» (لوقا ٥:٨). لذلك أصبح أُسًّا للكنيسة. فلا شيء يجعلك صديقاً لله كتلك العاطفة التي تحفزك إلى إحصاء نفسك بين آخر الخطأة. وهذا لعمري بدء كل حكمة، لأن الرجل المتواضع والمنسحق لا ينخدع بالمجد الباطل ولا يغضب ولا يغار من القريب ولا يؤخَذ بأيّ هوًى. إنّ يداً منسحقة ومنكسرة يتعذّر علينا رفعها إلى علٍ مهما بذلنا من الجهود. فإذا سحقنا نفسنا على هذا النحو فمهما نفخت فيها أفكار الكبرياء فلا يمكن أن تعود البتّة إلى شموخها. فإذا كان من يبكي بلايا زمنيّة يقصي أمراضاً نفسيّة، فبالأحرى مَن يبكي خطاياه يتمتع بثمار الحكمة. ومن الذي يستطيع أن يسحق قلبهُ؟ استمع إلى داود الذي امتاز بتوبته وانظر إلى انسحاق قلبه: انه بعد أن أتى أعمالاً مجيدة وكان مشرفاً على فقد وطنه وبيته وحياته، في نفس هذه المحنة تطاول عليه أحد الجنود الرعاع ولعنه ورجمه بالحجارة. لكن داود لم يعفُ عنه فقط ولم يجبه، بل منع أحد قوّاده أن يعبر إليه ويقطع رأسه، «وأجاب الملك داود وقال: ... دعوه يلعن لأن الرب قال له إلعن داود...» (٢ ملوك ١٦:١٠). وإذ استأذن الكهنة أن ينقلوا التابوت في أثره لم يرضَ. وإليك ما قال لهم:

«ردّوا تابوت الله إلى المدينة وليبقَ في مكانه هناك فإن أنا نلت حظوة في عينيّ الرب فإنه يردّني ويرينيه مع مسكنه، وإن قال لي إني لم أرضَ منك فهاءنذا فليصنع بي ما يحسن في عينيه» (٢ ملوك ١٥ : ٢٥ و٢٦). وفي معاملته لشاول أي حكمة لم تبدُ فيه لا مرّة ولا مرّتين بل مرّات كثيرة. فبتصرّفه على هذا النحو فاق الناموس القديم واقترب من وصايا الرسل. لأجل ذلك كان يخضع في كل شيء لإرادة الله دون أن يؤثّم الحوادث، باذلاً جهده في أمر واحد وهو الطاعة الدائمة لله واتّباع شرائعه. ومع شهرة أعماله المجيدة فقد رأى رجلاً مختلساً وقاتلاً للآباء والإخوة يستولي على الملك بحمق وقحة ولم يقاومه. وكان يقول: إذا كان في ذلك مرضاة لله فَلأُبعدنَّ وأكُنْ تائهاً شارداً وليقدّم الاكرام لذلك الرجل وأنا أحتمل كل ذلك بالصبر والرضى، بل أقدّم الشكر لله عن المحن الكثيرة التي تحلّ بي. فما أبعده من أولئك القوم القلقين والقليلي الحياء الذين لم يأتوا بأصغر عمل من أعماله المجيدة. فإذا ما شاهدوا أحداً في سعة وكانوا يشكون من الحرمان يهلكون نفوسهم بقذف الشتائم والسباب. أما داود فبخلاف ذلك كان يبدي اعتدالاً تامًّا ولذلك كان الله يقول عنه: وجدت داود بن يسّى رجلاً بحسب قلبي.

لتكن نفسنا كتلك النفس ولنحتمل بصبر كل ما يؤلمنا فنجني في هذه الدنيا، كمقدّمة للملك السماوي، ثمار التواضع اللذيذة. وقد قال المسيح: «تعلّموا مني أني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (متى ١١ : ٢٩). إن كنا نريد أن نجد الراحة في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى فلنغرس في قلوبنا جميعاً باجتهاد كثير فضيلة التواضع التي هي أُمّ كل الخيرات فنجتاز بحر هذه الحياة بغير عاصفة ونصل إلى ذلك الميناء الهادي بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي لهُ المجد والعزّة إلى أبد الآباد. آمين.

٣
عِظَة
في جدول الأجيال

١ – يقسم الإنجيلي كل الأجيال إلى ثلاث حقب لكي يبيّن لنا أن التغييرات التي جرت في الحكم اليهودي لم تحسِّن أخلاق هذا الشعب، وانهم بانتقالهم من الحكم الاريستوقراطي إلى الحكم الملكي فإلى حكم الأفراد ظلّوا على شرورهم نفسها، وانهم لم

يعودوا يتحدّثون عن الفضيلة في عهد القضاة والملوك. لكن لأي سبب أهمل ثلاثةً من الملوك في الحقبة الأولى. وفي الحقبة الثالثة بعد أن ذكر اثني عشر جيلاً لماذا قال انها أربعة عشر جيلاً؟ اني أدع حلّ المسألة الأولى لعنايتكم لأنهُ ليس من الضروري أن أُجيب على كل شيء لئلاً تملّوا. فاقتصر على حل المسألة الثانية: الرأي عندي أنّ زمن الجلاء يحسب جيلاً وان المسيح نفسه يحسب جيلاً آخر ولو انه كان مماثلاً لنا في كل شيء. ولقد أصاب الإنجيلي في ذكر الجلاء لأنهُ بيَّنَ لنا أنّ إبعاد اليهود إلى بابل لم يصلح أحوالهم بحيث أصبح مجيء المسيح المخلّص أمراً لا بدَّ منه. لعلّكم تقولون لي لماذا لم يفعل مرقص ذلك ولم يحصِ نسب يسوع بل اختصر قصّته في جميع الأمور؟ – يلوح لي أن متى كان أول مَن شرع في العمل فلذلك دقّق في وضع جدول النسبة وحدّد فيه النقاط الجوهرية، وأمّا مرقص فقد جاء بعده واختصر الطريق إذ رجع في عمله إلى ما قيل واشتهر. فلماذا إذن وضع لوقا أيضاً جدول النسبة وأسهب فيه؟ – لما كان متى قد سبقه إلى هذا العمل أراد أن يزيدنا معرفة بالتعليم المنتشر. على أن كلاًّ منهمَا نسج على منوال معلمه. إذ ان لوقا اقتدى ببولس الذي يزيد كلامه فيضاناً على الأنهر العظيمة. وأمّا مرقص فاقتدى ببطرس الذي اتخذ أسلوباً موجزاً.

لماذا لم يبدأ متى كتابه كما يبدأ الأنبياء كتبهم هكذا: «الرؤى التي رآها» أو «كان كلام الرب إليَّ»؟ – ذلك لأنه كتب لقوم ذوي نيّة سليمة يرغبون كل الرغبة في الاصغاء إليه إذ الآيات التي جرت كانت باهرة والذين تقبّلوا تعليمه كانوا على غاية من الصدق والغيرة. أما في عهد الأنبياء فلم يكن من آياتٍ عظيمة تعزّز تعليمهم. وكانت زمرة الأنبياء الكذبَة قد تكاثرت، والشعب اليهودي كان يختار الاستماع إليها، فلذلك وجب على الأنبياء أن ينهجوا ذلك النهج في مقدمات كتبهم لأنه إذا كانت جرت قديماً آيات فإنما جرت لأجل البربر وتكثير عدد الدخلاء منهم وإظهار قوة الله، فلا يظنُّ أعداء الشعب أنهم إذا ما فازوا ينسبون عوامل فوزهم إلى قدرة آلهتهم، كما جرى في أرض مصر حين ارتحل عنها الشعب ككتلة عظيمة متراصَّة، وكما جرى في بابل أيضاً فيما يتعلّق بأمر الأتون والأحلام. وقد كثرت الآيات في البرية بعد أن اطمأن الشعب إلى نفسه كما حدث للشعب المسيحي: عند خروجنا من الضلال جرت آيات كثيرة، وبعدئذٍ وقفت لما نبتت بذور الديانة الحقّة في كل مكان. نعم إن الآيات قد استؤنف حدوثها بعد خروج الشعب من البرية غير أنها كانت نادرة ومتقطعة، كوقوف الشمس في سيرها، وكذلك رجوعها

إلى الوراء. وقد شوهد الأمر نفسه أيضاً في الدين المسيحي إذ في أيامنا عينها على عهد يوليانوس الذي فاق الجميع كفراً جرت آيات كثيرة وأشدّ غرابة. وكذلك لمّا عمد اليهود إلى إعادة بناء الهيكل في أورشليم اندلعت أَلسنة النار من الأُسس وشتّتت جميع العمال. كذلك لمّا دنّس يوليانوس نفسه الأواني المقدسة بجمقه المعهود انتقم الله من خازنه الذي كان يحمل اسمه، فهلك الأول والدود ينهشه، وشاهد الثاني أمعاءه تندلع من جوفه. ومن أعظم العجائب التي جرت في عهد هذا الملك، الينابيع نضبت عندما كان يقرّب الذبائح للأصنام وفتكَ الجوع في المدن فتكاً ذريعاً.

٢ – هكذا يفعل الله متى شاء أن يعلن ذاته فاذا ما استفحل الشرّ وإذا ما رأى أخصّاءه مضطهدين وأخصامه ثملين بخمرة طغيانهم يظهر قدرته الذاتيّة على نحو ما صنع باليهود في بلاد فارس حيث أحاطهم بعنايته.

فيتّضح من هذا أن الإنجيلي لم يفعل صدفة ولغير علّة إذ قسّم أجداد المسيح إلى ثلاث حِقَب. فافحص الآن أين يبتدئ كل منها وأين ينتهي. من ابرٰهيم إلى داود، ومن داود إلى جلاء بابل إلى المسيح. قد وضع إبرٰهيم وداود في رأس الحقبتين الأوليين على أنه ذكرهما أيضاً في جدول النسب كلاًّ في رتبته لأن الوعود قطعت معهما كما قلت سابقاً. ولماذا لم يذكر الهبوط إلى مصر كما ذكر الجلاء إلى بابل؟ لأن اليهود لم يعودوا يخافون الحادث الأول بينما كانوا لا يزالون يرتعدون من الحادث الثاني إذ كان أولهما قديماً والثاني حديثاً. ذاك لم يكن لمعاقبتهم، أما هذا فكان لأجل آثامهم. إذا أراد أحد أن يخوض في شرح الأسماء يجد فيها نظريات كثيرة واسعة لها صلة بالعهد الجديد كأسماء إبرٰهيم ويعقوب وسليمان وزروبابل، إذ لم تعطَ لهم هذه الأسماء دون ما سبب. لكن لكي لا أرهقكم بأحاديث طويلة لا شأن لها فلندع ذلك جانباً لنقبل إلى ما هو أهمّ وأجدى.

بعد أن ذكر المؤرخ الأجداد كلهم وانتهى إلى يوسف لم يقف عنده بل أضاف قائلاً: «يوسف خطيب مريم» مبيِّناً أنه لأجلها وضع جدول النسب. ثم لئلاّ تظن عند سماعك «رجل مريم» أن المسيح وُلد بحسب الناموس الطبيعي أنظر كيف صحَّح ذلك الغلط فكأنه يقول: سمعتَ أنّ هناك رجلاً وأنّ هنالك أُمًّا وأنّ هنالك إسماً أُعطي للصبي فاسمع أيضاً نوع المولد «أمّا مولد المسيح فكان هكذا». ألا قل لي عن أيّ مولد تحدّثني؟ أفما كنت تصف لي الأجداد؟ – بل أريد مع ذلك أن أصف لك أيضاً نوع مولده. أترى كيف يستنهض سامعيه؟ انه سيقول لهم أمراً جديداً خطيراً ويخبرهم بأنه سيتحدث إليهم

عن نوع ذلك الأمر. أنظر إلى الارتباط الجميل بين أجزاء كلامه. لم يطرق موضوع المولد مباشرة لكنه يخبرنا عن عدد الحلقات التي تربط إبرٰهيم بداود، وداود بجلاء بابل، عائداً على هذا النحو بمستمعيه المنصتين إلى تلك الأزمنة الغابرة، ليبيّن لنا أنّ المسيح هو ذاك الذي أخبرت عنهُ الأنبياء. فمتى أُحصيت الأجيال وعلمت من الزمن أنه هو الماسيَّا الحقيقي يسهل عليك قبول الحادث الغريب المختصّ بمولده. فلما كان الإنجيلي مزمعاً أن يقول أمراً خطيراً كما قلت، وهو أنّ المسيح سيولد من عذراء، فقبل أن يحصي الزمن يلقي ظلاًّ على كلامه جاعلاً يوسف رجل مريم. وعلاوة على ذلك فانه يقسم جدول انساب الآباء ثم يحصي أعمارهم لينبِّه مستمعيه إلى أن المسيح هو ذاك الذي قال عنه يعقوب انه سيجيء عندما تكون مملكة يهوذا خالية من الرؤساء. وهو الذي أخبر عنهُ النبي دانيال أنه سيظهر بعد عدّة من أسابيع السنين. فمن أراد أن يحصي عدد أسابيع هذه السنين التي أوحى بها الملاك إلى النبي دانيال، والتي مرّت منذ بناء المدينة إلى ميلاد المسيح، يرى أنها مطابقة تمام المطابقة لعدد الأسابيع.

فكيف وُلد إذاً؟ «لما خطبت مريم أمه». لم يصفها الإنجيلي بعذراء بل وصفها فقط بأُمّ ليكون كلامه مقبولاً حتى إذا أعدَّ مستمعيه إلى استماع أمر مألوف، وحوّل فكرهم إليه، فاجأهم بالأمر الغريب قائلاً: «وُجدَت من قبل أن يجتمعا حبلى من الروح القدس». لم يقل قبل أن تؤخذ إلى بيت زوجها فانها كانت تقيم فيه، إذ العادة المألوفة عند القدماء كانت أن يقيم الخطيبان في مسكن واحد: ان حموي لوط كانا يقيمان معه. ولا نزال إلى اليوم نرى شيئاً من ذلك. فمريم إذاً كانت تقيم في بيت يوسف.

٣ - لكن لأي سبب لم يتمّ الحبَل العجيب قبل الزمان؟

ليبقى الأمر خفيًّا ولتظلّ العذراء بمنجى من كل ريبة سيّئة لأن الذي كان يجب أن تأخذه الغيرة أكثر من سواه ليس فقط لم يخلِّها ويعرّض كرامتها للإهانة، بل أيضاً حفظها عنده مع علمه بما هي عليه. فمن الجليّ أنه لم يكن سلك معها هذا المسلك لو لم يتحقق أنها كانت حبلى بفعل الروح القدس وإلاَّ لما خدمها في كل شيء وحفظها عنده. أمعن النظر في هذه العبارة: «وُجدَت حبلى». اعتاد الناس أن يعبِّروا هكذا عندما يتمّ أمر خارج عن المألوف، ويتعدّى كل أمل، ويناقض الافكار المقبولة عند الجميع. فلا تذهب إلى ما أَبعد، ولا تبحث أكثر مما قيل لك، ولا تسأل كيف صنع الروح القدس هذه الأعجوبة في مستودع عذراء. إذا كان تكوين الإنسان وفقاً للنظام الطبيعي يعسر علينا

فهمه، ويمتنع شرحه، فهل نستطيع أن نقول كيف تمَّ فعل الروح القدس؟ فلئلاً تتهكَّم بالإنجيلي وتستمر على إرهاقه بالأسئلة. فهو يتخلّص بإعلان اسم صاحب الأعجوبة. فكأنهُ يقول: لا أعلم شيئاً إلاَّ ان كل ما تمَّ كان بفعل الروح القدس. فليخجل إذاً الذين يحاولون كشف سرّ المولد. فاذا كان لا يستطيع أحد أن يشرح المولد الإلهي الذي يشهد له ألوف من الناس، وأَخبرت عنه عصور بعيدة، ووقع تحت الحواس، فإلى أيٍّ درجة من الجنون لا يندفع أولئك الذين يجهدون نفوسهم بطرق متنوّعة لإدراك المولد الذي يتعذّر على العقل البشري وصفهُ؟ فلا جبرائيل ولا متّى كان في طاقتهما أن يقولا لنا أكثر مما قالا انه من الروح القدس. أما كيف كان من الروح القدس؟ وبأي طريقة تمَّ؟ فهذا ما لم يقلهُ أحد ولا بوسع أحد أن يشرحه.

فلا تظننَّ أنك فهمت كل شيء عند سماعك من الروح القدس حتى ولو عرفنا ذلك فاننا نجهل أموراً كثيرة. مثلاً: «كيف غير المحصور يُحصَر في مستودع أُمّ. وكيف الحاوي الكل تحمله امرأة. وكيف عذراء تلد وتظلّ عذراء؟» بل قل لي كيف صنع الروح القدس هذا الهيكل؟ وكيف جسد الكلمة لم يخرج رجلاً كاملاً من مستودع أمه بل خرج طفلاً، ثم كبر وتكوَّن تدريجاً؟ أمَّا أنهُ خرج من جسد العذراء فواضح من قول متى: «فإن المولود منها» وبولس يقول: «مولوداً من امرأة» (غلاطية ٤ - ٤). من امرأة يقول الرسول ليكمَّ أفواه الذين يقولون ان المسيح مرَّ في العذراء مرور مياه في الأنبوب. لأنه إذا صحَّ ذلك فما الحاجة إلى مستودع امرأة. إذا صحَّ ذلك فليس من شركة بيننا وبينه. بل كان جسده جسداً آخر ومن أصل آخر. وإلاَّ فكيف يكون من يسَّى؟ وكيف يكون عصاً؟ وكيف يكون ابن البشر؟ وكيف يكون زهرة؟ وكيف تكون مريم أمه؟ وكيف يكون من نسل داود؟ وكيف أخذ صورة عبد؟ وكيف يمكن أن يُقال: «والكلمة صار جسداً»؟ (يوحنا ٩ - ١٤). وكيف يقول بولس للرومانيين: «ومنهم المسيح بحسب الجسد الذي هو على كل شيء إله»؟ (رومية ٩ - ٥). فخروجه منّا إذاً، ومن مستودع بتولي، وكونه من عامة البشر، تؤيّده تلك الأدلّة وأدلّة أخرى كثيرة سواها. أمّا كيف؟ - فنجهل. فلا تبحث بلا جدوى وحسبك ما كُشِف لك. فلا تحاول معرفة الأمر المكتوم.

«وإذ كان يوسف رجلها صدِّيقاً ولم يرد أن يشهرها همَّ بتخليتها سرًّا». بعد أن أكَّد أنّ الحمل كان بفعل الروح القدس وبغير مضاجعة فهو يثبت كلامهُ من وجه آخر. فلئلاَّ يُقال له: وما الدليل على ذلك؟ مَن شاهَدَ ومَن سمعَ بحادث مماثل؟ فلئلاً ترتاب في أنّ التلميذ

يبتدع ذلك مراعاة لمعلمه فهو يستشهد بيوسف وبخبرته الشخصية. فكأنهُ يقول: إذا كانت نفسك لا تطمئن إلى كلامي ويخالجك ريب في شهادتي فثِق بشهادة يوسف الذي كان رجلَها فضلاً عن أنه كان صدِّيقاً. صدِّيق معناه البارّ الحائز كل فضيلة. بل الصدق هو انتفاءُ كل شهوة بل هو الفضيلة الكاملة. وبهذا المعنى خصَّها الكتاب إذ قال قديماً: «وكان رجلاً صديقاً ومستقيماً» (ايوب ١ – ١). وأيضاً: «وكانا كلاهما صديقين» (لوقا ١ – ٦). إذاً إذ كان صديقاً، أي كله اعتدال وحكمة، «همَّ بتخليتها سرًّا» فلذلك يخبر المؤرّخ متّى بما كان قبل حوادث المولد حتى لا تكون غير مؤمن بما كان بعد إذاعتها. والواقع لو كانت الريبة لها أساس لما استحقّت المرأة أن تُشهر فقط، بل ان تعاقب أيضاً وفقاً للناموس. لكن يوسف لم يكتفِ بأن صفح عما هو خطير بل صفح أيضاً عما هو أقلّ خطورة أي انه راعى أسباب حيائها لأنه ليس فقط أبى أن يعاقبها بل أيضاً لم يرد أن يشهرها. أفترى حكمة هذا الرجل وانتصاره على الأهواء الطاغية؟ انك تدرك ما هي الغيرة، لذلك كان يقول أحد الخبيرين بها: «ان غضب الرجل غضب غيرة فلا يشفِق في يوم الانتقام» (أمثال ٦ – ٣٤). ويقول آخر: «والغيرة قاسية كالجحيم» (الأناشيد ٨ – ٦). ونحن إنما نعرف كثيرين يؤثرون أن يفقدوا حياتهم على أن يعانوا ريبة الغيرة. أما هنا فلم يكن الأمر في شيء من الريبة إذ الدلائل الظاهرة كانت تنطق من تلقاء ذاتها. وبالرغم من كل شكّ كان يوسف من النزاهة عن الأهواء بحيث لم يشأ أن يسبّب للبتول أقلّ عناء. فبما ان الناموس لا يسمح لهُ من ناحية بأن يدعها في بيتهِ، ومن ناحية ثانية تخليتها وجرُّها إلى القضاء يضطرُّه إلى تسليمها للموت، فهو لم يفعل لا هذا ولا ذاك إذ بدأ يسمو فوق الناموس لأنه عند اقتراب النعمة كان لا بدّ من علامات كثيرة تبشّر بالحياة الجديدة السامية. فكما أن الشمس تنير أكبر جزء من الأرض قبل أن تبرز للعيان كذلك المسيح كان ينشر نوره على العالم قبل أن يخرج من مستودع أمّه. لذلك كان الأنبياء يهتزّون طرباً قبل مولده وكانت النساء يتحدَّثنَ عن الأمور المقبلة. وكان يوحنا يرتكض في بطن أمه. فيوسف إذاً أبدى حكمة سامية لأنهُ لم يَشْكُ امرأته ولا أنحى عليها باللائمة لكنه عمد فقط إلى تخليتها. وبينما كان على هذه الحال من الحيرة وافاهُ ملاك وحلَّ كل معضلاته. ولعلّكم تتساءلون هنا لماذا لم يتكلم الملاك قبل أن تطرأ هذه الأفكار على ذلك الرجل ولِمَ لم يحضر إلاّ بعد أن كانت أخذت مجراها؟ لأنّ الإنجيلي يقول: «وفيمَا هو مفكر بذلك إذا بملاك الرب تراءى ليوسف». مع انه قبل الحمل كان جاءَ إلى امرأته رسول من قِبَل الله فبشَّرها. وهنا

تبدو صعوبة أخرى. إذا كان الملاك لم يقل شيئاً للرجل فلماذا كتمت عنهُ العذراء ما كانت سمعته من قبل. ولماذا لم تُزِل عنهُ القلق الذي لا بدّ أنها أحسَّت باستيلائه عليه؟ لكن أولاً لماذا لم يتكلم الملاك مع يوسف قبل أن يستولي القلق عليه؟ لأنهُ من الضروري أن نحلّ أولاً السؤال الأول. لماذا إذاً هذا السكوت؟ لكي لا يمتنع عن التصديق ولا يحلَّ به ما حلَّ بزكريا. فمتى وقع الشيء تحت الحواس حينئذٍ يسهل تصديقه. لكن متى كان غير بادٍ فيتعذَّر قبوله. ولهذا السبب لم يتكلم في بادئ الأمر. وهذا أيضاً هو سبب صمت العذراء، لأنها لم تكن تظن أن خطيبها يلتزم بأن يصدّق حادثاً غريباً لم يتحقق بعد بل قد تخاف أن تثير غضبه وتبدو كأنها تريد أن تخفي إثماً ارتكبتهُ. وهي التي كانت مهيّأة لقبول نعمة عظيمة كانت مع ذلك لم تزل تشعر بشيء بشري إذ كانت تقول «كيف يكون لي هذا وأنا لم أعرف رجلاً»؟ بل كيف لا يرتاب يوسف لاسيما وانّ ما سمعه جاء على لسان امرأة قد تجعل نفسها بذلك مشتبهاً فيها.

٥ — فلهذه الأسباب لم تقل العذراء له شيئاً. ولما حان الوقت جاءَ الملاك. ولعلّك تقول لي لماذا لم يسلك هذا المسلك مع العذراء، بل بشّرها قبل الحمل؟ — لئلاَّ تقلق وتضطرب، إذ كان يخشى عند جهلها للحمل أن تسوّل لها نفسها إتيان عمل منكر فتميت نفسها إمَّا شنقاً أو ضرباً بالسيف تخلُّصاً من العار. انها في الحقيقة لعذراء مدهشة وقد وصف فضيلتها لوقا بقولِه انها لمَّا سلّم عليها الملاك لم يهزّها الفرح ولا تسرَّعت في تصديق ما قيل لها بل اضطربت وسألت «ما عسى أن يكون هذا السلام». فالمرأة التي تكون على هذه الحالة من الترصّن لا يمكن إلاّ أن يستولي عليها الغم عندما تفكّر في العار الذي يلحقها. ولا أمل لها بأن تقنع أحداً ببراءَتها التامة. فاجتناباً لمثل هذه الأمور جاءَها الملاك قبل الحَمْل. وقد كان من الواجب أن يكون بلا اضطراب ذلك المستودع الذي سيحلّ فيه بارئ الكون، وأن تكون بعيدة عن القلق تلك النفس التي أُهِّلت لتكون خادمة الأسرار العظيمة. وهذا أيضاً ما حدا بالملاك إلى أن يكلِّم العذراء قبل الحمل. على أنه لم يكلِّم يوسف إلاّ بعد أن كانت حملَت، الشيءُ الذي إذ لم يدركه كثيرون من ذوي الرويّة زعموا أن هنالك اختلافاً بين الإنجيليين باعتبار أنّ لوقا يقول ان الملاك خاطب مريم. ومتّى يقول خاطب يوسف غير عالمين أن الأمرين كليهما قد حدثا. وهذا ما يجب أن يلاحظ أيضاً في جميع التواريخ فيتلاشى حينئذٍ كل ما يبدو أنّ فيهِ تناقضاً. جاءَ الملاك إذاً فيما كان يوسف مضطرباً وقد أرجأ حضوره إلى ذلك الحين للأسباب التي ذكرناها

لتتجلى حكمة يوسف بأكثر لمعان، ثم جاء أخيراً عندما همَّ يوسف إلى تخلية العذراء.

«وفيمَا هو متفكّر بذلك إذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم». أترى اعتدال هذا الرجل فانهُ ليس فقط لم ينزل بها العقاب بل أيضاً لم يُفضِ بالأمر إلى أحد حتى ولا إلى التي كانت موضوع ريبته. فكان يتروّى في داخله باذلاً جهده في أن يخفي عن العذراء نفسها أسباب ارتباكه. ولم يقل الإنجيلي ان يوسف أراد أن يطردها إنما قال «همَّ بتخليتها». وهذا التعبير الأخير أرقّ وألطف وهو يبيّن ما كان عليه هذا الرجل من الجودة والفطنة. «وفيما هو متفكّر بذلك إذ بملاك الرب تراءى له في الحلم». ولماذا لم يظهر لهُ في اليقظة كما ظهر لزكريا وللرعاة وللعذراء نفسها؟ ذلك لأن إيمان يوسف كان قويًّا جدًّا ولم يكن ليحتاج إلى هذا المشهد. أمَّا العذراء فبما أنها كانت معدَّة لسماع بشرى عظيمة الشأن تفوق بعظمتها على البشرى التي تقبّلها زكريا كانت تحتاج إلى مشهد غريب كهذا. أما الرعاة فلثقل فهمهم احتاجوا إلى هذا المشهد الرائع. وأمّا يوسف، وإن تكن نفسه معذّبة بأشدّ الريب التي كان يلوح له ان كل شيء يؤيدها، فكان من السهل أن تعود إليه الآمال الطيبة إذا ظهر من يرشده إلى معرفة ذلك السرّ. والواقع أنه اكتفى بوحي بسيط. ولذلك فاذا كان المرسل السماوي قد أتاه بعد أن كانت الظنون مستولية على أفكاره فلكي يثبت في هذه الظروف نفسها حقيقة رسالته. وبما أنّ يوسف لم يَبُحْ لأحد بأمره، بل كان يخفي كل شيءٍ في قلبه، فإذ سمع الملاك يتحدّث إليه عن ذلك السرّ عَدَّ ذلك علامة لا ريب فيها تنبئهُ من قبل الله الذي هو وحده عالِم بهواجس القلوب. فانظر كم تجري أمور: حكمة الرجل تتجلّى بوضوح، وكلمة الملاك تجيء في أوانها لتثبته في إيمانه، وهذه الكلمة نفسها تبدو غير مرتاب بها مبيّنة له أنه لم يعانِ سوى ما كان يجب أن تمتحن بهِ فضيلة إنسان.

٦ — لكن أيضاً كيف أقنعه الملاك؟ اسمع واندهل لحكمة كلماته. دنا إليه وقال له: «يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك». لم يلبث أن ذكر اسم داود الذي سيولد منه المسيح. ولم يدعهُ في اضطرابه مذكراً إيّاهُ عن طريق آبائه بالوعد المقطوع للذرية كلها. فلماذا مع ذلك يدعوه: «يا ابن داود لا تخف». على أن الله لم يصنع هكذا في ظروف أخرى إذ استعمل التهديد الشديد ضد ذاك الذي أراد أن ينتهك حرمة امرأة إبرٰهيم، وان كان الجهل هنالك سائداً على كل شيء. لأن المعتدي لم يكن يعلم مَن كانت سارة. ان الله كان في ذلك العصر يعمد إلى الإرهاب، أما هنا فيستعمل الحلم، لأنّ ما كان يتمّ من الأعمال كان من الخطورة بحيث لا يوجد له مثيل. وان بين الرجلين بَوناً بعيداً. فلذلك لم

يكن هنالك محل للإرهاب فعند قوله «لا تخف» يبيّن أن الصديق يخشى أن يغيظ الله إذا ما حفظ عنده امرأة زانية ، ولولا ذلك لما فكَّر بتخليتها . فكل شيء إذاً يدلّ على أن الملاك إنما جاء من السماء. لأنهُ يكشف ويظهر أفكار يوسف وما يعانيه من قلق البال . ولم يقتصر على وصفها بالعذراء بل أضاف «امرأتك» على أن هذه الصفة الأخيرة لم تكن لتعطى لها لو كانت أثيمة . امرأة معناها هنا الزوج كما اعتاد الكتاب أن يدعو الخطيب صهراً قبل الزواج . ما معنى هذه الكلمة «يأخذ»؟ معناها يحتفظ بها في بيته لأن يوسف كان خلاَّها بفكره . فكان الملاك يقول له : ارجع عن عزمك واحتفظ بالمرأة التي يعطيك إياها الله لا ذووها ، وهو يعطيكها لا كزوج بل كوديعة مقدسة . وهذا العطاء إنما يكون بصوتي . وكما ان المسيح جعلها فيما بعد تحت رعاية التلميذ الحبيب هكذا توجد الآن تحت رعاية يوسف. ثم يشير الملاك إلى سبب الحَمْل إشارة خفية . فانه لم يذكر التهمة الشنيعة بل أزالها بذكر السبب بتعبير أشرف وأليق مبيّناً للرجل الصدّيق أن ما كان يرهبه ولأجله كان يريد تخليتها إنما هو السبَب عينه الذي لأجله يجب أن يأخذها ويحتفظ بها في بيته . وعلى هذا النحو يزيل أسباب كربه – فكأنهُ يقول ليس فقط انها بريئة من كل علاقة أثيمة بل أيضاً انها تحمل في داخلها ثمرة إلهية . فلا تنزع منك الخوف فحسبُ بل افرح فرحاً عظيماً «لأن المولود منها إنما هو من الروح القدس» . لعمر الحق انه لكلام مدهش يفوق كل عقل بشري ويسمو عن كل ناموس طبيعي . فكيف يصدّق هذه الأمور مَن لا خبرة له بها . انه يصدّقها بسبب ما يُفضَى إليه به . فلذلك جعل الملاك يقول ما كان يجول في خاطر يوسف من هواجس وأشجان ومخاوف وما أراد أن يُقدِم عليه ، حتى يحمله على الإيمان بالسرّ . ولم يقتصر على كشف ما سبق بل يحمله على تصديق ما سيكون فيما بعد . «وستلد ابناً وتسمّيه يسوع» . فبما انه من الروح القدس فلا تظننَّ أنك لست ملتزماً بأن تعنى بهذا العمل الإلهي . وإذا كنت لا صلة لك بأمر المولد فبإزاء عذراءَ بريئة من كل دنس يجب عليك أن تقوم بواجب الأب . إني أسمح لك بأن تعطي إسماً للصبي على أن تحفظ كرامة الوالدة . نعم إنك أنتَ تسمِّيه ، وإن لم يكن هو ابنك ، إنما يجب عليك أن تقوم نحوه بما يجب على الأب نحو ابنه . فلذلك آمرك أن تحسب نفسك هكذا ، وذلك عندما تسمّيه . وبعد ذلك فلكي لا يستطيع أحد أن يرتاب في أنّ يوسف هو والد الصبي لاحظ كيف يدقّق الملاك في التعبير إذ يقول «ستلد ابناً» ولم يقل «ستلد لك» فجعل كلامه على الاطلاق لأن هذا الصبي لا يولد لفرد واحد بل لكل العالم .

٧ – فلهذا السبب أتى الملاك بهذا الاسم من السماء مبيِّناً بجلاءٍ ما في هذا الصبي من عجب، إذ ان الله نفسه وضع الاسم وان ملاكاً يحمله إلى يوسف من قبله. ان هذا الاسم ليس وليد الصدفة لا معنى له، وإنما هو كنز خيرات لا ينقص. فلذلك يفسّره الملاك نفسه. ولأجل تثبيتنا في الإيمان يعلّق عليه آمالنا. وفي الحقيقة أن ما يعدنا بالسعادة هو ما يجذبنا إليه بقوة وهو ما نحب كثيراً أن نصدّقه. وبعد أن أكّدَ له سلطة كلامه بالأمور الماضية، والأمور المقبلة، والأمور الحاضرة، مع ما له هو أيضاً من الكرامة، يوسِّط النبي الذي جاء في الوقت المناسب ليؤيّد كل هذه الأمور. وقبل أن يُدلي بشهادته يبشّر بالخيرات المقبلة التي سيحوزها العالم بهذا المولود. وما هي هذه الخيرات؟ هي النجاة من الخطايا، وتدميرها، فلذلك يقول: «لأنه سيخلّص شعبه من خطاياهم». يبدو أنّ في ذلك ما يدعو إلى الدهشة. انه يبشّر بأن الشعب سينجو، لا من حروب مادية، ولا من تسلّط البرابرة، لكن من خطاياهم. وهذا عمل خطير لم يسبق له نظير في العصور الخالية. ولعلّه يُقال لماذا حصر قوله بشعبه ولم يضف إليه بسائر الأمم. – لكي لا يفاجئ مستمعيه بأمر لم يألفوه. على أن المستمع المدقّق لا يفوته أن لفظة شعبه تشمل الأمم أيضاً.

الدرس الخلقي

فاذ قد أنعم علينا بهذه الموهبة العظيمة فلنعمل بكل ما في وسعنا كي لا نفرّط في هذا الإحسان الوافر لأنه إذا كانت الخطايا المقترفة قبل أن نقلَّد هذا الشرف تستحق العقاب فبالأحرى الخطايا المرتكبة قبل ذلك الإحسان الذي يعجز المؤمنون عن وصفه. لا أُكلِّمكم بهذه اللهجة لغير علّة بل لأني أرى كثيرين يسيرون بعد المعمودية بأقلّ غيرة من الموعوظين الذين لم يُقبَلوا بعد في الاشتراك بأسرارنا ولا معرفة لهم خاصة بترتيباتنا، فلذلك لا يمكن أن يُعرَف لأول نظرة في الشارع أو في الكنيسة، مَن هو المؤمن ومَن هو الغير المؤمن إلاّ إذا وقف أحد في بدء الأسرار الرهيبة ونظر إلى الذين يخرجون من الكنيسة والذين يستمرّون فيها فكان يجب أن يُعرَفوا لا من المكان بل من السيرة.

من المعلوم أن المقامات العالمية تُعرَف بالشارات الخارجية التي يتقلّدها ذووها. أمّا مقامنا فيجب أن يُعرَف من استعداد نفسنا لأن المؤمن يجب أن يظهر على هذا النحو لا بعقيدتِه وحدها بل أيضاً بنوعِ سيرته. إذ ينبغي أن يكون نور العالم وملح الأرض. فإن كنت أنت لا تطهِّر ذاتك وتقف نتن قروحك الخاصة فمن أيّ وجه نتبيّنك؟ أمن كونك

مغطّساً بالماء المقدس؟ لكن هذا يكون لك سبيلاً إلى العقاب لأن عظمة الكرامة التي يحوزها المرء هي مقياس العقاب الذي سيناله إن لم تكن سيرته متناسبة مع تلك الكرامة. فمن العدل أن يلمع المؤمن لا بما تقلّد فحسب بل بسيرته الصالحة أيضاً، وأن يكون معروفاً في كل مكان من سيره ونظره وهيئته وصوته. اني أقول هذا لا لأدفعكم إلى الظهور بل لنهذّب نفوسنا لإفادة الذين يروننا. لكن الواقع هو انني من أي وجه اعتبرتك وجدتك في كل الظروف على خلاف ما يجب أن تكون. فإذا شئت أن أتبيَّنك من المكان الذي تختلف إليه فاني أراك تقضي أيامك في ميادين السبق والمسارح، دائباً على الأعمال الأثيمة، والأحاديث السيّئة تلهو بها في المنتديات العامة وبين أُناس فاسدين. أم من الوجه؟ فاني أراك تضحك على الدوام بملء شدقيك وقد برَّحك الحب لرفيقة منحلّة ينبعث النتن من فمها. أم من زِيِّكِ؟ لكن لا أراه أفضل من زِيّ ممثّل هزلي. أم من عشرائك؟ اني لا أرى حواليك سوى المنتفعين والمتملقين. أمن كلامك؟ فلا أسمع من فمك شيئاً مقدساً ومفيداً أو ما له صلة بواجبات حياتك. وأخيراً أمن مائدتك؟ فلا أجد عليها إلا ما يستحق اللوم.

فمن أيّ ناحية يمكن أن أتبيّنك أيها المؤمن إذا كان كل ما قلته يحاول إقناعي بالنقيض؟ وما لي أدعوك مؤمناً ولا أستطيع أن أتأكّد انك بشر. فاذا كنت ترفس كالبغل وتثور كالثور وتصهل كالجواد وتلتهم الطعام كالأسد وتنقاد إلى شهواتك كالحمار وتحقد كالجمل وتخطف كالذئب وتهيج كالحيّة وتلسع كالعقرب وتراوغ كالثعلب وتحفظ في قلبك سمّ الشرّ كالثعبان والأرقم. إذا ما رأيتك على مثال الشيطان عدوّنا العنيد في حرب مستمرة مع أخيك، فكيف يمكن أن أحصيك مع البشر ولا أرى فيك شيئاً من خصائص الطبيعة البشريّة؟ اني أبحث عن الفرق بين الموعوظ والمؤمن. وأنا لا أكاد أجدهُ بين الإنسان والحيوان. فماذا أدعوك إذاً؟ أوَحشاً؟ لكن الوحوش ليس فيها عادةً سوى واحدة من تلك النقائص، أما أنت فقد جمعتها كلها فيك بحيث أصبحت أبعد عن النطق من الوحوش نفسها. ماذا؟ أأدعوك شيطاناً؟ لكن الشيطان لا يستعبد لطغيان النهم ولا يتلهّى بمحبة المال. فاذا كانت نقائصك تزيد على نقائص الوحوش والشياطين ألا قل لي كيف أدعوك بشراً؟ وإذا كنا لا نستطيع أن ندعوك بشراً فكيف يمكن أن ندعوك مسيحيًّا. - والأهول اننا ونحن على هذه الحالة الوبيلة لا نفتكر بما في نفسنا من قبح ولا نعلم بما فيها من غضاضة. على انك إذا كنت جالساً عند الحلاّق لتقصّ شعرك فلا تلبث

أن تأخذ مرآة لتراقب بدقّة تناسق الشعر وتشرع في إلقاء الأسئلة على الحاضرين وعلى الحلاّق نفسه عما إذا كانت عملية التزيين ناجحة. وان من الشيوخ مَن لا يخجل غالباً من الظهور بمظهر الشبان محبي الزهو. ولسنا نشكّ في أنفسنا ليست فقط قبيحة المنظر بل أخذت شكل الحيوان وغدت مماثلة لسكيلا أو خمارا، هذين الحيوانين اللذين حفظ لنا أوصافها تاريخ الأساطير. وهذا فضلاً عن ان لنا هنا مرآة روحية تختلف بفائدتها عن تلك، فهي لا ترينا فقط قبحنا بل تحوّله إلى جمال إذا شئنا. وهذه المرآة هي أمثلة الرجال الصالحين، وسيرة حياتهم السعيدة الطاهرة، وتلاوة الكتب المقدسة والشرائع التي أعطاناها الله. فاذا ما قبلت أن تلقي نظرة واحدة على تلك الصور الحيّة، صوَر القداسة، لا تلبث أن تبصر قبح نفسك. واذا ما رأيته لا تحتاج إلى شيء آخر لتتخلص من هذا الخزي. هذه هي فائدة المرآة. وهذا ما يسهّل لنا ذلك التغيير السعيد. فلا تظلّ إذاً في شكل العجماوات لأنّ العبد اذا كان لا يحق له أن يدخل بيت رب العائلة فكيف تجرؤ على ولوج الأعتاب إن كان لك شكل الوحش؟ وما لي أقول الوحش ومثل هذا الرجل هو شرّ من كل وحش لأن الحيوانات وحشيّة من ذات طبعها لكن الإنسان اكتشف سرّ ترويضها، وأنت الذي تعرف أن تحوّل طبعها الوحشي إلى طبع أليف وتستظهر على غرائزها، ما عذرك عن نفسك إذا كنت تحوّل طبيعتك الإلهيّة إلى طبيعة وحشيّة؟ انك بذلك تقلب النظام الموضوع من الله بل تمسّ جوهر الكائنات ذاته إذ تجعل من الأسد حيواناً مملوءًا من الحلم وتدع قلبك يستسلم لوحشية الأسد مع ان هنالك مانعَين: انتفاء العقل من هذا الحيوان ووحشيته التامة. بيد أنك بالعقل الذي وهبك إيّاه الله تغيّر الطبيعة نفسها على ذلك النحو. فأنت يا من يستظهر على طبيعة الوحوش كيف تتلف الخير الوجود في الإرادة والطبيعة؟ إذا أمرتك أن تروّض طبع رجل آخر فلا أظنني أكون فرضت عليك أمراً غير مستطاع، ولو كان لك أن تقول لي انك لا تملك زمام عقل غيرك، وان إدراك النجاح ليس عليك. لكن الكلام هنا عن الوحش المقيم في داخلك والذي أمره منوط بك.

٩ — فكيف تبرّر نفسك في عدم مقدرتك على ضبط طبيعتك وأيّ حجّة مقبولة تستطيع أن تدلي بها لتأييد مدعاك؟ قلت انك تجعل من الأسد إنساناً وانك بعد إذ كنت إنساناً أصبحت أسداً. انك ترفع المادة فوق طبيعتها وتسقط تحت طبيعتك محاولاً إشراك الوحوش بشيء من شعاع شرف أصلك. وإذ تهوي من العرش الذي كنت جالساً عليه

فتتبارى معها بعدم العقل. فاعتبر ناشدتك الله ان الغضب وحش كاسر وأَبدِ من الغيرة والمهارة لترويض نفسك ما يبديه آخرون لترويض الأسد، واجعل الهدوء والسلام في قلبك، لأن الوحش الداخلي له أيضاً أسنان ومخالب هائلة، فإن لم تضبطه يمزّق كل ما في داخلك. لا لعمري فلا الأسد ولا الثعبان يستطيعان أن يمزّقا أحشاءنا كما يفعل الغضب بمخالبه الحديدية لأنه لا يضرّ بالجسد وحده بل يهدم سلامة النفس فينهش ويفترس قواها فيجعلها غير صالحة لأي خير. إذا كان من فتك الدود بامعائه يصبح لا قبل له على التنفّس حينما يتلف كل ما في داخله، فكيف يمكننا أن ننتج عملاً كريماً وعظيماً ومثل هذه الأفعى في قلبنا؟ عَنَيتُ بها الغضب، وهو يحدث في نفسنا تلفاً هائلاً. وكيف نستطيع أن نتخلّص من هذه الضربة الهدّامة؟ يجب أن نتناول شراباً يمكنه أن يميت فينا الدود والأفاعي. لعلّكم تقولون لي: ما يكون هذا الشراب الذي يملك هذه القوة؟ هو دم المسيح الثمين، إذا ما أُخِذ بثقة (لأن كل داء يمكن شفاؤه بهذا الدواء). ثم الاستماع بإمعان إلى الكتب المقدسة تتبعه وتسبقه أعمال الرحمة بسخاء. وبهذا كله يمكن التغلّب على الأهواء التي تقتل النفس فحينئذٍ نحيا، أما الآن فلسنا في شيء خيراً من الموتى. وما دامت تلك الأهواء ثائرة فينا فلا يمكننا أن نحيا بل نهلك لامحالة. فإن لم نقضِ عليها في هذه الحياة تقضِ علينا في الحياة الأخرى. بل قبل موتنا تنتقم منا بلا هوادة. لأن كلاًّ من تلك الأمراض هو طاغية قاسٍ وغول لا يشبع ينهشنا كل يوم ولا يجعل حدًّا لشراهته. أنيابهما أنياب أسود بل أفظع منها لأن الأسد متى شبع يبتعد عن فريسته، أما تلك الأهواء الهدّامة، فلا تشبع ولا تهدأ إلا بعد أن تجعل الإنسان الذي تستولي عليه شبيهاً بالشيطان. (ان قوة طغيانها لعظيمة حتى ان العبادة التي أبداها بولس نحو المسيح بحيث احتقر لأجله جهنم والملكوت، تلك القوة تطلب من أسراها تلك العبادة نفسها)، لأنه في الحقيقة إذا ما شُغِفَ امرؤ بحب الأجساد والمال والمجد يهزأ بجهنم ويزدري بالملكوت ليعمل بمشيئةِ تلك الأهواء. فلا ترتابنَّ إذاً ببولس حين أعلن أنه أحبّ المسيح هكذا لأنه اذا كان بين الناس مَن يتعبّد لتلك الأهواء الموضوعة فينا فلماذا يبدو قوله لنا غير صادق؟ إنَّ محبة المسيح ضعيفة فينا لأنّ قوانا كلها أُتلفت بحب الأشياء الأرضيّة فنسلب القريب ونكثر من المقتنيات ونُستعبد للمجد الباطل الذي قد يكون سبباً لخزينا. فمهما يكن من علوّ منزلتك فلا تكون دون المحتقرين فحسب، بل ستكون أحقر جميع الناس لأن أولئك الذين يتسابقون إلى تعظيمك ونشر صيتك هم أنفسهم يهزأون بك،

إذ، لهذا السبب نفسه، تتوقّع منهم الشهرة التي تعطش إليها فكيف لا ترى سعيك فيما بعد ينتهي بالخداع؟ إن الذين يتملّقونك هم أنفسهم يذمّونك.

١٠ – إنّ مَن يمدح الزاني والفاجر ويتملّقه، هو نفسهُ يذمّه أكثر مما يمدحه. فالشيء نفسه يحدث نظراً إلى المجد الباطل. إننا نذمّ المتكبّر أكثر مما نمدحه ولو تظاهرنا كلنا بمدحه. فلماذا تسعى إلى غاية لا يأتيك منها سوى نقيضها؟ إذا شئت أن تنال الكرامة فامتهنها فتبلغ منتهى الكرامة. أوَ تشتهي ما اشتهى نبوكدنصّر؟ انهُ هو أيضاً نصب تمثالاً من خشب مبتغياً لنفسه زيادة الشهرة في شكل غير حسّاس. ان الحيَّ يريد أن يستمدّ بهاءَهُ من شعاع طبيعة مائتة، فيا له من جنون مطبق! قد بدا له انه يكرم نفسه لكنه أهانها فاذا كان يثق بما لا روح فيه أكثر من وثوقه بذاته وبنفس حيّة. ثم انه طلب أن يقدّم له الاكرام بتلك الخشبة، فكيف لا يستحقّ أن يُزدَرى، وقد اهتمَّ أن يزيّن نفسه لا بالفضيلة الحقة بل بمجموعة من الأخشاب. ومَثَلُه مَثَل مَن يريد أن يتباهى لا بصفته إنساناً بل بلمعان أرض غرفته وسَعَة بيته وجمال سلَّمه. ان الذين يحذون حذوه هم كثيرون في هذه الأيام. قد كان ذاك يثير إعجاب الناس بتمثاله، وعلى هذا النحو يثير كثيرون سواه إعجاب الناس بملابسهم وأبنيتهم، ببغالهم وعجلاتهم وأعمدة بيوتهم، فإذا فقَدَ هؤلاء صفتهم كَبَشر راحوا يبحثون في نواحٍ أخرى عن مجد ملؤهُ الهزء والسخرية. لكن الرجال الكرام رجال الله العِظام الذين نعيِّد لهم اليوم[1] لم يطلبوا المجد إلّا في الأشياء التي تستطيع هي أن تعطيهم إياه. فاذ كانوا أسرى وعبيداً وهم غرباء ولا يزالون فتياناً مجرّدين من كل ما فيه هناء البيت ظهروا أفضل جدًّا ممن لم ينقصهم شيء من ذلك.

كان لنبوكدنصّر ذلك التمثال العظيم وعمّال وقوّاد وجيش عرم وكنوز ثمينة، كل تلك المظاهر لم تغنِهِ عن اتباع شهواتهِ وإظهار عظمته. أمّا هؤلاء الفتيان فاستغنوا عن كل ذلك بما كانوا يملكون من حكمة، وقد فاق سطوع ضيائهم على صاحب التاج والبرفير وعلى كل ما في المملكة من مظاهر خلاَّبة كما يفوق سطوع الشمس لمعان حجر كريم. لأنَّ هؤلاء الأسرى المستعبدين قد جيءَ بهم إلى مسرحِ المسكونة موثقين بحديد العبودية فما ان ظهروا حتى تطاير الشرر من عيني الملك غضباً. وكان يجتمع حولهم الولاة والحكام والأقطاب وكل آلة الشيطان. وكان صوت الأنابيب والقرون وسائر أنواع المعازف

(١) لا تزال الكنيسة الشرقية تعيِّد للثلاثة الفتية يوم الأحد السابق لعيد الميلاد.

يقصف في آذانهم من كل ناحية حتى بلغ عنان السماء. وكان الأتون يُحمى قدّامهم والنار ترتفع إلى علو شاهق حتى حسَّت الغمام. فأخذ الخوف والهلع جميع الحضور. أمّا هم فلم يُخِفهم شيء. بل كانوا يهزأون بتلك الآلة الشيطانية هزءَهم بألعاب صبيانيّة، مبدين من الشجاعة والحكمة ما أدهش الجميع. وكانوا يصرخون بصوت أشدّ من أصوات تلك الأبواق: «فليكن معلوماً عندك أيّها الملك» (دانيال ٣:١٨). انهم لم يريدوا أن يهينوا الملك بكلمة بل اقتصروا على إظهار تقواهم ولذلك لم يطيلوا حديثهم معه فاكتفوا من الكلام بما قلَّ ودلّ: «إنّ في السماء إلهاً قادراً على إنقاذنا» (دانيال ٣:١٧). فلِمَ هذا الحشد العظيم؟ لِمَ هذا الأتون؟ لِمَ هذه السيوف الماضية؟ لِمَ حاملو الأسنَّة؟ إنّ ربنا الذي نعبدهُ يسود الجميع بعظمته وقدرته. ثم انهم إذ كانوا يعلمون ان الله كان له أن يريد كل هذه الأمور ويأذن بأن يُحرَقوا فلئلاَّ يظهر للناس أنهم مخطئون في قولهم، أعقَبُوا: «وهبه لا ينقذنا فليكن معلوماً عندك أنَّا لن نعبد آلهتك» (دانيال ٣:٨١).

١١ – لأنهم لو قالوا ان الله لا ينقذهم لأجل خطاياهم لما صدّقوهم ولو انه قد ينقذهم. فلذلك سكتوا عن هذا الأمر. غير انهم أخذوا يتكلمون عنهُ على اثر دخولهم الأتون ولم يكفّوا عن ترديد ذكر آثامهم. أما قدّام الملك فلم ينطقوا بما يماثل ذلك لكنهم اقتصروا على أن يعلنوا في حضرته أن الحريق لا يخيفهم ولا يحملهم على جحد دينهم. وقد فعلوا ما فعلوا لا طمعاً بجزاء ومكافأة بل عن محبة محضة، ولو أنهم كانوا في الأسر والعبودية ولا يتمتعون بشيء من الخير. ألم يفقدوا وطنهم وحريتهم وما يجعل الحياة هنيئة؟ لا تكلموني عن الكرامة التي كانوا يحوزونها في البلاط الملكي لأنهم إذ كانوا أبراراً وصدّيقين كانوا يختارون ألوفاً من المرّات ثروتهم الضئيلة في بيتهم الأبوي والتمتع بخيرات الهيكل. وكان كل منهم يقول مع النبي: «إن يوماً في ديارك خير من ألف فاخترت الوقوف في عتبة بيت إلهي على سكناي في أخبية المنافقين» (مزامير ٨٣:١١). فكانوا يختارون ألف مرة أن يعيشوا في بيوتهم على أن يملكوا في بابل. وهذا ما أعلنوه حين كانوا في بابل إذ أعلنوا أنهم لا طاقة لهم على الإقامة بالمدينة. ومهما يكن من كرامة نالوها هم أنفسهم فكان يؤلمهم جدًّا أن يروا المحن الحالَّة بغيرهم إذ من خاصية القديسين أن لا يختاروا شيئاً على خلاص إخوانهم لا مجداً ولا كرامة. وتأمّل كيف يتوسّلون لأجل كل الشعب وهم في الأتون. أما نحن فلا نذكر اخواننا ولو كنا في طمأنينة. ولما كانوا يعبّرون عن الأحلام لم يقصدوا خيرهم الخاص بل خير سواهم. وقد أثبتوا فيما بعد كم كانوا يحتقرون الموت، وفي كل فرصة كانوا يستميتون في سبيل إرضاء الله. وإذ كانوا واثقين من أنَّ ذلك غير كافٍ كانوا

يلجأون إلى استحقاقات آبائهم. أما فيما يخصّهم فكانوا يعلنون أنهم لا يستطيعون أن يقرّبوا شيئاً غير قلب منكسر.

فلننسج نحن على منوالهم. انّ التمثال الذهبي لا يزال قائماً وأعني به سلطان المال. فلا تصغ إلى ضجيج الدفوف وأصوات الناي والكنّارة وسائر مظاهر الغنى. أيُقضَى علينا بأن يُزَجَّ بنا في أتون الفقر؟ فلا نتردّد بل لنختر ذلك على السجود قدّام الصنم. وحينئذٍ فالندى السماوي يرطّب الأتون بنسيمه العليل. ولا يهلع قلبنا من الفقر ولو دعوته أتوناً لأن أولئك القديسين ظهروا في النار أكثر بهاء. أمّا الآخرون فبعبادتهم للتمثال أهلكوا نفوسهم. إنّ هذين الأمرين قد تمّا قديماً في آن واحد. أمّا في أيامنا فأحدهما يتمّ في هذه الحياة والثاني في الحياة الأخرى وقد يبتدئ الأمر الأخير هنا ليدوم هناك. لأنّ الذين اختاروا الفقر على عبادة المال يشرقون في هذه الدنيا وفي الآخرة. أمّا الذين جمعوا المال بغير عدل في هذا الدهر فسينالهم عذاب أليم في الدهر الآتي. ان لعازر خرج من أتون الفقر ولم يكن أقلّ بهاءً من الفتية الثلاثة أمّا الغني فلأنه اقتدى بعبّاد التمثال قضِيَ عليه بالهلاك في جهنم. إنّ ما قيل قديماً إنما هو صورة لما يجري اليوم. فكما ان الفتيان الذين أُلقُوا في الأتون لم ينلهم عذاب وان لهيب النار التهم أولئك الذين كانوا في الخارج. كذلك القديسون الذين يجتازون نهر النار في هذه الحياة لا يمسُّهم أذىً بل يظهرون في الحياة الأخرى بمجد أكثر بهاءً. أما عباد التمثال فستشبُّ عليهم النار بأشدّ من وثوب الوحش على فريسته وتلتهمهم إلى الأبد. فمَن لا يؤمن بجهنم فليؤمن بما يشاهد من أمثلة مؤثرة، وليأخذ من الحوادث الحاضرة درساً للحوادث المقبلة، ولا يخشَ من أتون الفقر بل من أتون الخطيئة. لأن هذا نار وعذاب أمّا ذاك فندى ونسيم. ذاك الأتون يحيط به الشياطين أمّا هذا فتحيط به الملائكة لتمنع النار من الحريق.

١٢ — فليسمع هذا الدرس الأغنياء الذين يُضرمون أتون الفقر. انهم لا يضرّون البتة أولئك الفقراء، إذ الندى السماوي ينزل عليهم لكنهم يلقون بنفسهم في النار التي أذكوها بأيديهم. إنّ ملاكاً نزل قديماً إلى أولئك الفتية، أمّا اليوم فلننزل نحن إلى الموجودين في أتون الفقر، ولنغذّهم بأعمال الرحمة، ولنخمد بها اللهيب حتى نكون شركاء إكليلهم، وحتى يطفئ المسيح نار جهنم بصوته القائل: «رأيتموني جائعاً فأطعمتموني» (متى ٢٥: ٣٥). لأنّ هذا الصوت إنما يكون حينئذٍ الندى الحقيقي الذي تهبّ ريحه وسط اللهيب. فلننحدر إذاً إلى أتون الفاقة ولنشاهد هنالك أولئك الفلاسفة

الوضيعين يدوسون الجمر بأرجلهم. لنشاهد العجب العِجاب وهو أن إنساناً ينشد في الأتون. إنساناً يسدي الشكر وسط النار. إنساناً مكبَّلاً بسلاسل الفقر المدقع مقدّماً للمسيح المديح الكثير. نعم إن الذين يتحمّلون الفقر بالشكر إنما يماثلون أولئك الفتية. لأنّ الفقر أشدّ هولاً من النار إذا تجاوز الحدود، بل من طبعه أن يحرق أكثر منها. غير أنّ اللهيب لم يحرق أولئك الفتية. وبما أنهم كانوا يؤدّون الشكر لله لم تلبث قيودهم أن انحلّت. وهذا ما يجري الآن أيضاً. فأدِّ الشكر إذا كنت في عسر فتنحلّ قيودك ويخمد اللهيب وإن لم يخمد ترَ عجباً عجاباً إذ يتحوّل اللهيب إلى ينبوع مرطب وهذا ما كان قديماً إذ انتعش الفتية في وسط اللهيب بنسيم ندى لطيف وهذا الندى لم يطفئ النار لكنه حفظ الملقين فيها من الاحتراق. هذا ما تعلّمه الفلسفة الحقيقية فمن يحوزها ويحتمل الفقر يكون أقلّ خوفاً من الأغنياء.

فلا نجلس إذاً خارج الأتون بغير شفقة على الفقراء لئلاَّ يصيبنا ما أصاب أعداء العبرانيين. فإذا ما انحدرت إلى الفتيان وجلست معهم فلا تستطيع النار أن تضرّك. أما إذا استمررت جالساً فوق تنظر إليهم بأزورار وهم في لهيب الفقر فسيحرقك اللهيب. فانحدر إذاً إلى النار حتى لا تحترق فيها. لا تجلس خارج النار حتى لا يلتهمك اللهيب. لأنه إذا وجدك مع الفقراء يبتعد عنك، وإذا كنت بعيداً عنهم لا يلبث أن يثب إليك ويلتهمك. فلا تفترق إذاً عنهم البتّة بل حين يأمر الشيطان أن يُلقى في أتون الفقر الذين لا يؤدّون العبادة للذهب كن إلى جانب الذين زجَّ بهم فيه، لا إلى جانب الذين زَجُّوا، لتكون من المخلَّصين لا من الهالكين. والحقيقة انه لخير عظيم أن تحرّر من محبة الغنى فتعاشر الفقراء. لأنّ من يدوس الشهوة بقدمِهِ هو أغنى البشر. إنّ أولئك العبرانيين باحتقارهم أوامر الملك غدوا أكثر بهاءً من الملك نفسه. وأنت أيضاً إن أعرضت عن أشياء هذا العالم تفوق كرامة على العالم كله كما فعل أولئك القديسون «الذين لم يكن العالم يستحقّهم» (عبرانيين ١١:٣٨). أفتريد أن تستحق الخيرات السماوية ازدرِ بالخيرات الأرضية فتكون مكرَّماً بهذه الدنيا وتتمتع بالخيرات المقبلة بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزَّة إلى أبد الآباد. آمين.

٤
عِظَة
في تسمية المسيح وبتولية أمّه

١ – أسمع كثيرين يقولون: ما دمنا ههنا متمتعين بالاستماع ترانا خاشعين، ومتى خرجنا نصبح غير ما كنا، وتخمد فينا النار المقدسة. فما السبيل إلى تلافي هذه الحال؟ لنستقصِ عن العلّة. فما سبب هذا التغيير السريع إذاً؟ سبب ذلك إنما هو ارتيادنا نوادي غير ملائمة ومعاشرة المنافقين. فحينما نخرج من الاجتماعات الروحية كان يجب ألاَّ نلقي بأنفسنا في مهامّ لا تتلاءَم مع تلك الاجتماعات بل كان يجب أن نعود فوراً إلى البيت ونأخذ الكتاب وندعو المرأة والأولاد لنُشركهم في الدروس الثمينة التي أُلقيت في الكنيسة، وحينئذٍ فقط ننصرف إلى أعمالنا الزمنيّة. إذا كنت لا تستحسن الحمَّام في محلّ العمل لئلاَّ تُصاب سلامتك بضرر فكم يجب عليك بالأحرى ألاَّ تفعل ذلك عند تركك الاجتماعات الروحية. ونحن الآن نفعل نقيض ذلك. ولهذا السبب نفقد كل ما أصابنا من الخير. لأنّ الفائدة من المواعظ لم تتوطّد بعد في نفوسنا بحيث إذا ما دهمها التشويش الخارجي يفسدها ويبدّدها. فاجتناباً لذلك متى خرجت من الكنيسة اعتبر أنه لا شيء أولى من أن تعود إلى موضوع أحاديثنا. ولَمِن أقصى الحماقة أن تخصص خمسة أو ستة أيام لشؤونك المادية ولا تخصّص يوماً واحداً حتى ولا جزءًا يسيراً من النهار لشؤونك الروحية. ألا ترون أولادكم يخصّصون النهار بكامله لترديد الدرس الذي يتلقّونه من المعلم؟ فلنقتدِ بهم. قد لا يبقى لنا شيء من التعليم المقدس إن كنا نأتي إلى هذا المكان كل يوم للاستقاء ثم نصبُّ ما نستقيهِ كأنما في إناء مثقوب، وإن كنا لا نبدي من الغيرة لصيانتهِ في قلبنا ما نبديه لصيانة الذهب والفضّة في الصندوق. إذا تلقّى أحد بعض الدنانير يجعلها في كيس ويبصمها بخاتمه. ونحن تلقّينا تعاليم أثمن من الذهب والحجارة الكريمة أو بالحريّ كنوز الروح القدس نفسها، ليس فقط لا نجعلها في خزانة نفسنا بل أيضاً ندعها تتسرّب من قلبنا ولا نهتمّ بها. فمَن يرحمنا إذا كنا ننصب الشرك لذواتنا ونلقي بأنفسنا في أقصى الفاقة؟ أنريد أن نجتنب هذا الشرّ؟ لنفرض على ذواتنا وعلى نسائنا وأولادنا شريعة لا تتغير وهي أن نخصّص في كل أسبوع ذلك النهار نفسهُ بكامله سواء للاستماع أو لجمع ما نكون سمعناه. وبهذه الوسيلة نتقن الدروس التي سنتلقّاها فيما بعد. ومتى ربطتم ما قيل لكم قبلاً بما ستسمعونه بعد تخفُّ عنا المشقّة وتتوفّر لكم الفائدة. ومما

يساعدكم مساعدة غير يسيرة على إدراك ما نقول هو أن تحكموا معرفة سياق المعاني التي نحيكها لكم. و بما انه ليس بوسعنا أن نأتي على كل شيء في يوم واحد فاعتنوا بأن تضمّوا مختلف المواضع التي ستتوالى على ذاكرتكم أياماً كثيرة كما تضمّون حلقات سلسلة وتنظّموها هكذا في نفسكم بحيث يتجلى أمامكم جسم الكتب المقدسة برمّته. فبعد أن ذكرنا ذواتنا بما قلنا من عهد قريب لنقبل اليوم على شرح الآيات التي صدَّرنا بها هذا الحديث.

٢ – فما هي هذه النصوص؟ «وكان هذا كله ليتمّ ما قيل من قِبَل الرب بالنبي القائل»: صرخ الإنجيلي بكل ما عنده من قوة بصوت جدير بالأعجوبة قائلاً: «وكان هذا كلّه»، لما رأى بحر محبة الله للبشر وعمقه. وإن لم يكن يُتوقَّع أبداً قد حُقِّق، ونواميس الطبيعة وقفت، والتصالح تمَّ، والأعلى ينزل إلى الأدنى، والسياج يُهدَم، والحواجز تُرفَع، وآيات شتى أخرى تجترح. لما رأى هذا كله قد تمَّ جمَل الأعجوبة بعبارة واحدة: «وكان هذا كلّه ليتمّ ما قيل من قِبَل الرب». فكأنهُ يقول: لا تظن أن هذه الأعجوبة قد قررت الآن. كلا! إنما حُدِّدت ورُسمت قديماً. وهذا ما اجتهد بولس في تبيانه في كل مكان. وها هوم الملاك يعود بيوسف إلى اشعيا حتى إذا كان نسي الكلمات التي سمعها عند استيقاظهِ من النوم يستطيع أن يستعيد ذكرها بالأنبياء الذين اعتاد الاغتذاء بهم. فالرسول السماوي لم يقل شيئاً من ذلك لمريم إذ لم يكن لها بعد خبرة بالكتب المقدسة لحداثة سنّها، لكنهُ تحدّث إلى الرجل الذي كان صدّيقاً ومطّلعاً على الأنبياء منذ سنين كثيرة. وكان قال من قبل «مريم امرأتك». لكنه لما وسَّط النبي أخذ يقنعه بأمر البتولية معلناً أن مريم لا تزال عذراء، الأمر الذي لم يكن يوسف ليصدّقه لولا شهادة اشعيا. وفي الواقع إنّ هذا الأمر لم يعد يدهشه لأنه أَلِفَ سماع ما كان قاله النبي من عهد بعيد. فلهذا السبب أبرز الملاك هنا النبي اشعيا ليكون كلامهُ مقبولاً. ولم يقف هنالك بل انه يعزز كلامه بقول الله نفسه فيقول إنّ هذا القول لا يأتي من إنسان بل من إله الكل لذلك لم يقل: «لكي يتمّ ما قال النبي» بل «ما قيل من قِبَل الرب». ان الفم إنما كان فم أشعيا أما الأمر الموحى به فهو يرجع الى اصل بعيد. وقائلٍ ما هو هذا الامر الموحى به؟ «ها هي العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعى اسمه عمانوئيل» (اشعيا ٧: ١٤). ولعلكم تقولون: لماذا لم يعرف باسم عمانوئيل لكن باسم يسوع المسيح؟ لأن الملاك لم يقل: وتدعوه بل قال و«يدعى» أي ان الشعوب تدعوه وستثبت له الحوادث المقبلة هذا الاسم وهو يضع اسماً مطابقاً لما سيجري. ومن عادة الكتاب أن يحلّ

الحقيقة محل الأسماء: «يدعى عمانوئيل» أي ان الله سيشاهد مع الناس. نعم ان الله كان لا يزال مع البشر لكنه لم يكن قط بهذا الشكل الظاهر.

وإذ كان اليهود لا يزالون متعنتين رَدَّ عليهم: في أي وقت دُعي صبي: «أسرع إلى السلب بادِر إلى النهب»! انهم لا يستطيعون أن يجيبوا بشيء على ذلك. لكن لماذا قال النبي: «أُدعُ اسمه أسرِع إلى السلب» (اشعيا ٨:٣)؟ لأنه عند انتهاء الحرب توزَّع الأسلاب. إذاً الحادث نفسه الذي سيقع حين ولادته يعطيه الله إسماً له. وقد قيل أيضاً «والمدينة ستدعى مدينة العدل، صهيون أُمّ المدن الأمينة» (اشعيا ١:٢٦). على اننا لم نرَ قط ان المدينة دُعيت مدينة العدل بل ظلَّت تدعى أورشليم. لكن بما انها تحولت لمعنى الخير فالنبي لكي يبين هذا التغيير يقول انها ستدعى بهذا الاسم الجديد.

إذا حدث حادث خطير يُظهر مُحدِثه بأوضح من اسمه الحقيقي أو يطغي بالوضوح على اسم مَن حدث لأجله هذا الحادث، فحينئذٍ يدعون اسم المحدِث أو المحدَث لأجله باسم الحقيقة الراهنة. فإذ قد أبكمت أفواه الخصوم بهذا الموضوع، فإن أثاروا صعوبة أخرى فيما تُنُبِّئَ به عن بتولية مريم محتجّين بشرّاح آخرين قائلين انهم لم يصفوها بعذراء بل بفتاة، نجيب على ذلك أولاً أنّ نص الترجمة السبعينيّة هو أولى بالتصديق من سائر الترجمات الأخرى، لأنّ هذه الترجمات لم تظهر إلاّ بعد مجيء المسيح. والذين شرحوها ظلّوا يهوداً. فكان أنهم أمسوا مشتبهاً بهم بحق، لأنهم ألقوا ستاراً من الظلّ على النبوءَات، من بُغض وعدوان، وأَدخلوا عليها هذا التغيير تعمّداً. أما السبعون شيخاً فبما أنهم كتبوا قبل مجيء المسيح بما ينيف على المئة سنة، علاوة على أنّ عددهم كان عظيماً، بحيث تنتفي عنهم كل شبهة من هذا القبيل، فالزمان وعدد المشتغلين واتفاقهم التام كل ذلك يدلّ على انهم جديرون بكل ثقة.

٣ — وهَبْ أنهم تمسّكوا بشهادة أولئك المحدثين فالنصر يكون أيضاً بجانبنا لأنّ الكتاب لا يستعمل كلمة فتاة إلاّ ليدلّ على انها عذراء. وهذا التعبير لا يطلقه على النساء وحدهن بل على الرجال أيضاً لأنه يقول: «الأحداث والعذارى، الشيوخ مع الشباب» (مزامير ١٤٨:١٢). وحينما يتكلم عن ابنة يريد الناس أن يطعنوا بعرضها يقول: «إذا صرخت الفتاة» (تثنية الاشتراع ٢٢:٢٧) أي العذراء. ويؤيّد هذا القول ما ورد فيما سبق من النص. ولا يقول النبي فقط: «هوذا العذراء تحبل» لكنه بدأ الآية بقوله: «يؤتيكم السيد نفسه آية». ثم لم يلبث أن أعقب: «هوذا العذراء تحبل» (اشعيا ٨:١٤). فلو كان المقصود بذلك امرأة

اعتيادية وولادة مألوفة فأين الأعجوبة؟ لأن الأعجوبة يجب أن تخرج عن نظام الطبيعة المألوف، وأن تكون حادثاً غريباً غير متوقّع، وإلاَّ فكيف تكون أعجوبة؟

«فأخذها ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر» يقول الإنجيلي هنا «حتَّى». لا تظن أنهُ عرفها بعد ذلك بل لتعلم أن البتول لبثت سليمة بكل المعنى – فلماذا يقول إذاً «حتى ولدت»؟ هذا تعبير كثيراً ما يستعمله الكتاب المقدّس وهو لا يُراد به زمن محدود. فقد جاء عند ذكر سفينة نوح: «ان الغراب لم يرجع حتى جفَّت الأرض» (تكوين ٨: ٧). وإن يكن لم يرجع فيما بعد. وحينما يتكلم داود عن الله نفسه يقول هكذا: «منذ الأزل حتى الأبد أنت هو» (مزامير ٩٨: ٢). والمراد بذلك إله لا حدَّ له. وإليك الآن ما يتنبَّأ به هذا النبي: «ينبت في أيامه الصدّيق وكثرة السلام حتى يضمحلّ القمر» (مزامير٧١: ٧). لأنه لا يشاء حقًّا أن يجعل حدًّا لهذا الكوكب الجميل. هكذا قال الكتاب هنا «حتَّى» ليؤكّد ما سبق الولادة، أما بعد ذلك فيدعه لتفكيرك الصادق. لأنّ ما وجب على الإنجيلي أن يعلِّمك إيّاه قالهُ لك، وهو أن مريم لبثت عذراء حتى الولادة. أمّا ما يعقب هذا التأكيد والنتائج اللازمة الواضحة فيدعه لحكم ضميرك. على أنه من الجليّ أنّ ذاك الصديق لم يجترئ قط على الاقتراب ممن غدت أُمًّا بمعجزة باهرة وكانت ولادتها لا سابق لها بين الولادات البشرية. فلو كان عرفها على عادة الرجال مع النساء فكيف يجعلها المسيح تحت رعاية تلميذه الحبيب ويوعز إليه أن يأخذها لخاصته؟ أفليس هذا دليلاً على أنها لم يكن لها معين آخر؟ قد تسألونني كيف إذاً يعقوب ومَن عنده يُدعَون اخوة المسيح؟ كانوا يدعون اخوة المسيح كما كان يوسف يدعى رجل مريم لأنّ ستائر شتى كانت تحوط تلك الولادة الغريبة حتى تظلَّ مخفيّة. ولذلك كان يوحنا يدعوهم اخوتهُ قائلاً: «لأن اخوتهُ لم يكونوا يؤمنون به» (يوحنا ٧: ٥) لكن هؤلاء الذين لم يؤمنوا من البدء أصبحوا فيما بعد أعظم أبطال الحق وأنبلهم. ولمّا صعد بولس إلى أورشليم ليتثبَّت في التعليم لم يلبث أن دخل على يعقوب. لأنَّ هذا الرسول العجيب هو أول من استحق أن يكون أسقفاً لهذه المدينة ويقال انهُ كان على جانب عظيم من شظف العيش بحيث أنّ كافة أعضائه أصبحت مائتة. وان انعكافه على الصلاة ومناجاته المتواصلة ووجهه لاصق بالأرض جعل جلدة جبهته قاسية كجلدة رُكب الجمَل. وهذا الرسول نفسه لما تكلم مع بولس الذي عاد أيضاً فيما بعد إلى أورشليم كان يقول له بفرح: «أنت ترى أيها الأخ كم ربوة من اليهود انضمّوا إلينا» (أعمال ٢١: ٢٠). لقد كانت عظيمة فطنته وغيرته أو بالحري قدرة المسيح. والغريب ان الذين كانوا ينددون به

وهو حي اطنبوا في مدحه بعد موته بحيث أنهم ماتوا من أجله من فرط الغيرة عليه. وهو أمر يبيّن بوضوح تام قوة القيامة. فإذا ما لوحظت على أثر ذلك أمور جليّة فلأجل أن تكون هذه البيّنة لا تقبل الردّ. إن الذين كنا نعجب بهم إذ كانوا أحياء إنما ننساهم بعد أن يكونوا غادروا هذه الحياة. فكيف الذين كانوا يهزؤون بيسوع حين كان حيًّا قد اعتبروه إلهاً بعد موته لو كان إنساناً كسائر البشر، وكيف كانوا ارتضوا أن يُذبحوا لأجله لو لم تستبن لهم حقيقة القيامة بجلاء؟

الدرس الخلقي

٤ - نقول لكم هذا لا لتسمعوا فحسب بل أيضاً وخصوصاً لنحفزكم إلى الاقتداء بتلك الشجاعة وذلك الثبات النبيل، إلى العمل بالبرّ. حتى إذا كان أحدكم متوانياً من قبل لا ييأس من نفسه ولا يعلّق آماله بشيء آخر بسوى رحمة الله وجهوده الذاتية. إذا كان هؤلاء الرجال لم ينتفعوا بشيء بانتسابهم إلى قبيلة المسيح وبيتهِ ووطنه إلى أن لمعوا بالفضيلة فأيّ فائدة نستطيع أن نجنيها إذا أبرزنا براءة أنسبائنا واخوتنا ولم نكن على جانب عظيم من الفضل والفضيلة؟ وهذا ما عبّر عنه النبي قائلاً: «لا يفتدي الأخ أخاه أصلاً أفيفتدينا رجل آخر» (مزامير ٤٨: ٧). لا لعمري ولو كان الرجل موسى وصموئيل وارميا. فاسمع ما قال الله لارميا: «وأنت فلا تصلِّ عن هذا الشعب فاني لا أسمع لهم» (ارميا ٨: ١٤). ولماذا تستغرب إذا لم أسمع لك؟ فكأنه يقول: لو حضر أمامي موسى نفسه وصموئيل لا أقبل توسّلهم لأجل هذا الشعب ولو صلّى حزقيال أيضاً عنه فإليك ما سيسمعه: «وإن كان فيها نوح وأيوب ودانيال انهم لا ينقذون لها بنين ولا بنات» (حزقيال ١٤: ١٦). وهب أن ابرٰهيم أبا الآباء توسّل لأجل المصابين بأمراض عضالة ولا يشاؤون أن يتوبوا فالله يحوّل وجهه عن عبده ويبتعد لئلاً يقبل توسّله لأجلهم. ولو فعل صموئيل الشيء نفسه فيقول له: «لا تَنُح يا شاول» ولو صلّى أحد عن شقيقتهِ إذا كانت صلاته في غير محلها سيقال له ما قيل لموسى: «لو أنّ أباها بصَقَ بوجهها...» (العدد ١٢: ١٤).

فلا تتوكّل إذاً على أحد. ان لصلاة القديسين قوة عظيمة، على أن نصنع توبة ونصير خيراً مما كنا. أنظر أيضاً إلى موسى كيف أنقذَ من الغضب الإلهي أخاه وستمائة ألف رجل، وأخته لم يقدر أن ينقذها. مع ان الإثم لم يكن متساوياً بين الفريقين. فإن هذه أهانت أخاها فقط، أمّا أولئك فأهانوا الله بكفرهم. غير اني ادع هذه المسألة لنشاطكم

وأحاول أن أحلّ مسألة أصعب منها. ما الفائدة من البحث عن «أخت» إذا لم يستطع رئيس شعب عظيم أن ينال ما يطلبهُ لنفسه؟ لأنه بعد أن عانى مشقات كثيرة وانصاباً شديدة وترأس الشعب مدّة أربعين سنة لم يُعطَ له أن يدخل الأرض التي كثيراً ما وُعِد بامتلاكها. وما هو السبب؟ لم يكن لهذه النعمة أقل فائدة. بل قد تحدث أضراراً شتى لأنها ستكون سبب نزاع لكثيرين من اليهود الذين بمحض تخلّصهم من عبودية المصريين اعرضوا عن الإله وتحوّلوا إلى موسى واعتبروا انه هو كل شيء. فكيف بهم لو أدخلهم أرض الميعاد؟ لأجل هذه السبب لا يُعرَف مكان دفنه. كذلك صموئيل لم يقدر أن ينقذ شاول من الغضب السماوي مع انه أنقذ الاسرائيليين غير مرة. وارميا لم يُفلح في إنقاذ اليهود بينما نراه في إحدى نبوءاته يدافع عن شخص آخر. ودانيال أنقذ البرابرة من القتل ولكنه لم يستطع أن ينقذ اليهود من الأسر: وفي الأناجيل أيضاً نرى كلا الأمرين يقعان لا لأشخاص مختلفين بل للشخص الواحد بعينه. نرى الشخص نفسه ينقذ ذاته في البدء ثم يهلك فيما بعد: فالذي كان عليه عشرة آلاف وزنة تخلص من الخطر بتوسّله وفيما بعد امتنع عليه الخلاص. وبالعكس فقد أهلك آخر ذاته في البدء وفيمَا بعد وجد وسائل لإغاثتِهِ: ومَن هو هذا الآخر؟ هو الابن الذي بدّد ميراث أبيه. فإن عشنا بالتواني لا يقدر الآخرون على تخليصنا وإن عشنا في الإمساك نخلّص ذاتنا بذاتنا وبالحريّ بذاتنا أكثر مما بسوانا. لأن الله يختار أن يمنحنا نعمته على أن يمنحها للآخرين لأجلنا بحيث إذا تمتّعنا بثقته نصلح ذواتنا ونسعى هكذا لتهدئة غضبه. وعلى هذا النحو رئف بالكنعانية، وعلى هذا النحو أيضاً خلّص الزانية واللص بدون حماية أحد ولا وساطة أحد.

٥ — أقول هذا لا لنهمل شفاعة القديسين لكن لكي لا نتوانى ولا نكِلَ أمورنا إلى الآخرين وجدِّهم ونحن نظلّ مستلقين ومضطجعين. حينما قال المسيح: «اجعلوا لكم أصدقاء»، لم يقف عند هذا القول بل أعقب: «من مال الظلم» (لوقا ١٦: ٩)، ذلك ليكون العمل الصالح عملك أيضاً، لأن التعبير الأخير لا يعني شيئاً آخر سوى التصدّق. والغريب أنه لا يطالبنا بشيء إلاّ أن نبتعد عن الظلم. ويبدو أنّ ما يقوله هو هذا: اقتنيت بوسائل شريرة، فأنفق بسخاء ونبل، جمعت بظلم فرِّق بعدل. ولكن هل من فضيلة في عطاء خيرات كهذه؟ ان الله مع ذلك يتنازل إلى هذا الحدّ بدافع محبته للبشر. فإن فعلنا هكذا يعدنا بخيرات كثيرة. إلّا اننا بلغنا حدًّا من قلّة الاحساس بحيث لا نريد أن نعطي ما حصلناه ظلماً. وإن ضحَّينا بجزء يسير منه بعد أن نكون أمعنَّا في السلب نخال اننا أتممنا

الواجب كله. ألم تسمعوا ما قال بولس: «مَن يزرع بالشحّ فبالشحّ يحصد» (٢ كورنثس ٩: ٦)، ولماذا هذا الشحّ؟ هل ما نعمله هو تبديد أو خسارة؟ لا لعمري بل هو تجارة رابحة لأنه حيث يكون الزرع هناك الحصاد، حيث يكون الزرع هناك الوفر. إذا كنت تريد أن تحرث أرضاً خصبة وجيّدة قادرة أن تقبل زرعاً كثيراً فتلقي فيها ما لديك من البذر وتقترض من الغير لاعتقادك بأن الشحّ في هذه الأحوال خسارة. أما السماء التي لا تتأثر بتقلّبات الأهوية والتي تعوّض عليك ما يزيد كثيراً عمَّا ألقيتهُ فيها فتؤجّل حرثها وتتردّد فيه، ولا تعلم أن الشحّ خسارة وعدم الشحّ ربح.

وزِّع إذاً كي لا تخسر. لا تحرص إذا كنت ترغب في الحرص. أنفق لكي تحتفظ. بدِّد لكي تربح. لا تثق بنفسك ولا بمهارتك لأنك لا تعرف كيف تزيد ثروتك. أَقرض الجزء الأكبر منها لمن يردُّه مع الربا. اجعل ثروتك في مكان أمين حيث لا سبيل إلى الطمع فيها، ولا إلى الشكوى، ولا إلى الدسائس، ولا إلى الخوف. أقرض مَن لا يعوزه شيء أو يعوزه شيء لأجلك، مَن يغذّي كافة الخلائق، مَن يحسّ بالجوع لينقذك منه، مَن جعل نفسه فقيراً ليغنيك. اقرض لتجني لا ثمار الموت بل ثمار الحياة. ان هذه القروض تقودك إلى الملكوت. أما القروض الأخرى فتلقيك في جهنم. هذه رأسها محبَّة المال. أما تلك فمحبة الحكمة. الواحدة صادرة عن قسوة القلب. والثانية عن روح الشفقة والحنان. فكيف نبرّر مسلكنا إذا كان بوسعنا أن نزيد ثروتنا بطريقة أمينة وفي وقت ملائم وبحريّة كاملة وبلا لوم ولا خطر ولا خوف ونهمل هذه الفوائد كلها لنسعى وراء الأمور الخسيسة والشائنة والباطلة والخدّاعة، وإلى كل ما يدفع بنا إلى الأتون الهائل؟ لا لعمري ليس من شيء أكثر خزياً وقسوة كالربا الذي نحن في صدده لأنّ المرابي يستغلّ مصائب القريب ويبني نجاحه عليه حينما تنقلب عليه الأيام، ويطلب أجرة رحمته. وكأنه يخشى أن يظهر عديم الشفقة وبحجة العطف يحفر بقربه حفرة عميقة. وبحجّة إسداء المعونة له يُنزِل به الفقر. وإذا ما مدَّ يده يدفعه إلى العمق، وإذا ما تظاهر بأخذه إلى الميناء يدفع به ليغرق ويتحطّم كأنما على صخور شاطئ البحر، أو صخور البحر الغير البادية.

ألا ماذا تأمر؟ أفتريد أن أجعل المال الذي جمعته والذي قد ينفعني في خدمة رجل آخر وأن لا أُطالب بأقلّ أجر؟ — مهلاً. اني لا أقول هذا إنما أريد أن تأخذ أجراً عظيماً جدًّا بدل هذا الشيء اليسير الحقير. أريد أن يُعوّض عليك بالسماء لا بالذهب الذي تطمع فيه. فلماذا تدفع بنفسك إلى الفقر وأنت تضرب في طول الأرض وعرضها مختاراً

الأشياء الخسيسة على الأشياء النفيسة؟ ذلك لعمري ليس عمل من يعرف كيف يصير غنيًّا. ان الله يعدك بخيرات السماء بمقابلة يسير من المال توزّعه على الفقراء وأنت تجيبه: لا تعطِني السماء بل اعطني بدل السماء الذهب الذاهب. إن هذا مسلك من يريد أن يظل في الفقر. فمن يرغب إذاً في الغنى الحقيقي يختار الأشياء الثابتة على الأشياء الزائلة، والخيرات الراهنة على الخيرات القلقة، والفيض على الشح، والغير الفاسد على الفاسد. وقد يكون أن الخيرات الثانوية تتبع أيضاً الخيرات الحقيقية. فمن يطلب الأرض قبل السماء يخسر الأرض نفسها. ومن يختار السماء على الأرض يتوفر له الاستمتاع بكليهما. فلكي يتمَّ لنا هذا لنزدرِ بكل ما في الدنيا، ولنجدَّ في طلب الخيرات المقبلة. وهكذا نفلح في إحراز هذه وتلك بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزّة إلى أبد الآباد آمين.

٥
عِظَة
في ميلاد المسيح (المجوس)

١ - يجب أن نكون اليوم على غاية من التيقّظ، وأن نكثر من الصلوات لنستطيع أن نشرح هذا النص، وندرك مَن كان هؤلاء المجوس، ومن أين جاءوا، وكيف جاءوا، وما الذي حملهم على هذه الرحلة، وأي شيء كان هذا النجم الذي كانوا يتحدّثون عنه؟ لكني قبل كل شيء إذا شئتم أبسط لكم ما زعمهُ أعداء الحقيقة بهذا الشأن. لأن الشيطان خاصة نفخ فيهم بهذا المقدار بحيث يحاولون أن يتخذوا مما يزعمون سلاحاً ضد الحقيقة. فماذا يزعمون؟ - هوذا لما وُلد المسيح ظهر نجم مما يدل على صدق صناعة التنجيم.

لو كان عند مجيئه إلى الأرض أخضع ذاتهُ لناموس هذه الصناعة فلماذا أبطل مبدأ القدر، وأبكم الشياطين، ولاشى الضلال، وقضى على السحر الذي من هذا النوع؟ كيف عرف المجوس من ظهور هذا النجم أن المسيح كان ملك اليهود في حين لم يكن لمملكته ملك كما اعترف هو نفسه لبيلاطس: «إنّ مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا ١٨: ٣٦). وحين لم يظهر قط بهذا المظهر إذ لم يكن حوله حرس يحملون الأسنَّة ويلبسون

الدروع ، ولا خيول ولا بغال ولا شيء يماثل هذا فضلاً عن انه كان يعيش عيشة فقرية حقيرة ولا يرافقه سوى عشرة من الرجال الصعاليك؟ وإذا كان المجوس عرفوا أنه إله فلأيّ غرض جاءوا؟ إذ ليس من خصائص علم الفلك أن يعرف بواسطة النجوم مَن هم المولودون بل له فقط أن ينبئ عن مصيرهم منذ ساعة ميلادهم كما يزعم أهل هذا العلم. فهؤلاء المجوس لم يشهدوا الأُم عند وضعها ، ولا عرفوا الوقت الذي وَلَدَت فيه ، ولا استطاعوا أن يتخذوا لهم نقطة يبتدئون منها ليحدّدوا مصير الصبي وفقاً لحركات النجوم. بل خلافاً لذلك حينما شاهدوا هذا الكوكب الذي كان قد ظهر من عهد بعيد في بلادهم جاءوا ليشاهدوا الصبي المولود. على أن هذه المسألة قد تكون أصعب جدًّا من التي سبق الكلام عنها.

فما هو الكلام الذي دفعهم إلى المجيء من مكان قصيّ ليسجدوا للملك؟ وأي خير كانوا يرجون منهُ؟ وهَب أن هذا الملك كان مزمعاً أن يملك فلم يكن ذلك مما يكفي لإظهار غرضهم. فلو كان وُلِدَ في قصر وكان أبوه الملك حاضراً هناك لأَمكن القول انهم جاءوا استرضاءً لأبيه متملّقين إيّاه بتقديم الإكرام العاجل. لكنهم إذ لم يتوقّعوا أن يصير ملكاً عليهم ، واذ انه من أمّة غريبة ، وبلاده بعيدة جدًّا عن بلادهم ، وانه لم يبلغ بعد حدّ الرجال ، فلأي سبب يقومون بهذه الرحلة الشاقّة ويقدّمون الهدايا معتزمين أن يقوموا بهذا كله مع تعرّضهم للأخطار؟ وفي الواقع اضطرب هيرودس وهاج الشعب كله لما سمعوا ذلك من المجوس. لكن ألم يعلم هؤلاء بذلك من قبل؟ بلى. لأنهُ مهما يكن من جهلهم لا يجهلون هذا وهو أنهم يعرّضون ذواتهم لألف ميتة بمجيئهم إلى مدينة لها ملكها وبإعلانهم اموراً كتلك مبيّنين أنه يوجد ملك آخر غير الملك المقيم فيها حينذاك. ولماذا سجدوا لصبي كان لا يزال في اللفائف؟ فلو كان رجلاً بلغ أشدّه لأَمكن القول انهم طمعاً بنيل معونته ألقوا بنفوسهم في خطر مبين. وانه لمن الحماقة القصوى أن فارسيًّا بربريًّا لا شركة له في شيء مع أمّة اليهود يحاول أن ينأى عن مسقط رأسه ويغادر وطنهُ وأهله وبيته ليجعل نفسه تحت سلطة ملك آخر. فإن كان في ذلك الأمر جهل ففي الأمر الذي يلي حمق.

٢ — وما هو هذا الأمر؟ سرعة عودتهم بعد أن قاموا برحلة طويلة وسجدوا وألقوا الاضطراب بين الشعب كله. وأي رمز رأوا من جميع رموز الملك؟ رأوا كوخاً ، مذوداً ، صبيًّا في اللفائف ، أُمًّا فقيرة. ولمَن قدّموا هداياهم ولأيّ غاية؟ هل كانت عندهم شريعة أو كان من عادتهم أن يكرموا الملوك المولودين في أي مكان؟ وهل كان دأبهم

الطواف في الأرض كلها ليسجدوا لمن علموا أنهم سيصيرون ملوكاً قبل أن يرقوا العرش الملكي ولو كانوا من منبت خسيس وضيع؟ لا لعمري، لا يجترىء أحد على هذا القول. فلماذا إذاً جاءوا يسجدون؟ فإن كانوا فعلوا ذلك لأجل ما كان ظاهراً أمامهم، فماذا كانوا يتوقّعون أن ينالوا من صبيٍّ وأُمٍّ فقيرين؟ وإن كانوا فعلوا ذلك تمهيداً لمستقبل الأيام فكيف كانوا يعلمون أن هذا الطفل الملفوف بالقمط سيتذكر ما كان من قبل؟ ولو عمدت أُمُّه إلى تذكيره لكانوا استحقوا العقاب بدل الثواب لأنهم جعلوه عرضة لخطر داهم. وبسبب ذلك اضطرب هيرودس وكان يبحث عن الصبي ويسعى محاولاً قتله. فان من يذيع عن مولود من عامة الناس انه سيكون ملكاً إنما يعرّضه للقتل ويثير ضدّه حروباً كثيرة. ترون كم يبدو من الصعوبات لو شئنا أن نمحص هذه الأمور وفقاً للمجرى البشري والعوائد الشائعة وليس هذا فحسبُ بل نستطيع أن نبيّن صعوبات أكثر من تلك ومسائل أدقّ من التي تكلّمنا عنها. فلكي لا نشوّش عقلنا بضم صعوبات إلى صعوبات لنبادر إلى حلّ المسائل بادئين بالكوكب نفسه. فاذا ما علمنا ما هو هذا الكوكب، وهل كان أدنى من سائر الكواكب، أو كان أحدها، أو يختلف عنها، وإذا كان كوكباً حقيقيًّا أو له فقط ظاهر الكوكب، فالباقي كله نفهمه بسهولة. فكيف نستوضح ذلك في الكتب المقدسة نفسها؟ — ان هذا الكوكب لم يكن من جملة الكواكب أو بالحري لم يكن كوكباً كما يلوح لي إنما هو قوة غير منظورة اتخذت شكلاً منظوراً. فذلك يتضح أولاً من سيره لأنه ليس من كوكب يسير بذلك الاتجاه. فاذا بحثنا عن الشمس والقمر وسائر الكواكب نراها كلها تسير من المشرق إلى المغرب بينما كوكبنا كان يتجه من الشمال إلى الجنوب. هكذا تقع فلسطين من بلاد فارس. ثانياً يتضح ذلك من الوقت الذي كان يظهر فيه فهو لم يضئ في الليل فقط بل كان يضيئ أيضاً في رائعة النهار إذ كانت الشمس مشرقة، الشيء الذي لم يكن في وسع أي كوكب حتى القمر نفسه، لأنه وان فاق جميع الكواكب سطوعاً لا يلبث أن يختبئ ويختفي عند ظهور الشعاع الشمسي. أما كوكبنا فبفرط لمعانه الخاص قد طغى على الأشعة الشمسية ظاهراً بأكثر بهاء منها وباعثاً بنور عظيم جدًّا. ثالثاً يتضح ذلك من ظهوره واختفائه على التعاقب لأنه كان يظهر لهم في الطريق قائداً إياهم حتى فلسطين، ولما بلغوا أورشليم غاب عنهم حيناً، ثم حينما كانوا على وشك مغادرة المدينة بعد أن تركوا هيرودس وأخبروه بالأسباب التي أتوا من أجلها، أظهر لهم نفسه من جديد مما يدلّ على قوة عاقلة لا على حركة نجم، لأنه لم يكن له سير محدّد.

فكان يسير حينما كانوا يسيرون ، ويقف حينما كانوا يقفون مراعياً في كل شيء مقتضيات السفر ، كعمود الغمام الذي كان يشير إلى اليهود متى كان يجب على معسكرهم أن يسير ويقف. رابعاً يعلم ذلك من نوع ظهوره : لم يجعل مكانه في الفلك وإلاّ لما كان استطاع أن يهدي المجوس في الطريق ، لكنه كان يفعل ذلك عن كثب. لأنكم تعلمون أنه ليس لكوكب عادي أن يهدي إلى مكان قصي فيه كوخ حقير يؤوي جسم صبي صغير إذ لا يسمح العلو غير المحدود أن يعيّن مكاناً بعينه ضيقاً ويبيّنه للذين يريدون أن يروه. ويعرف هذا من القمر الذي يفوق جميع الكواكب ، والذي يبدو لجميع سكان الأرض أنه قريب. فقل لي كيف يمكن للكوكب أن يدلّ على موضع ضيّق سواءً أكان كوخاً أم مغارة ان لم يترك ذلك العلو وينزل إلى أسفل ليقف فوق رأس الصبي؟ وهو الأمر الذي عبّر عنه الإنجيلي بقوله : «فإذا النجم الذي كانوا رأوه يتقدّمهم حتى جاء ووقف فوق الموضع الذي كان فيه الصبي». أنظر ما أكثر الأدلّة التي تبين أن هذا الكوكب لم يكن أحد الكواكب الكثيرة وانه لم يظهر وفقاً لنظام الولادة كما يدّعي علماء التنجيم.

٣ – فلأي سبب ظهر إذن؟ ليكشف قلّة إحساس اليهود ويعدمهم هم الكنودين كل وسيلة لتبرير ذواتهم. لأن المسيح إذ جاء ليكفّ نمط الحياة القديم ويدعو المسكونة إلى عبادته والسجود له في كل الأرض والبحار لم يلبث أن فتح الباب من البدء للأمم مريداً أن يهذّب اليهود بواسطة الأجانب. ولما كان هذا الشعب يداوم على سماع الأنبياء ولا يعي أقوالهم ، أقبل بالبربر من بلادهم القاصية ليبحثوا عن الملك المولود عند اليهود ويعلموا هؤلاء ما لم يصبروا على أخذه من أنبيائهم. حتى إذا أبدوا استعداداً حسناً تكون حجتهم مستندة إلى سبب قوي ، وإذا ظلّوا على تعنّتهم يفقدون كل حجة لتبريرهم ، ولا يبقى لهم ما يقولون إذا لم يقبلوا المسيح الذي بشّر به أنبياء كثيرون وهم قد رأوا المجوس يقبلونه ويسجدون له بمجرّد رؤية ذلك الكوكب. ان ما صنعه الرب نحو نينوى حينما أرسل إليهم يونان ، وما سيصنعه هو مع السامرية والكنعانية يصنعه الآن بواسطة المجوس. فلذلك قال : «أهل نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويحكمون عليه... ملكة التيمن ستقوم في الدين مع هذا الجيل وتحكم عليه» (متى ١٢ : ٤١ و٤٢). لأنهم آمنوا استناداً إلى شهادات أقلّ قيمة من الشهادة التي يرفضها أهل هذا الجيل.

قد يقال لماذا جذب الله المجوس بحادث مثل هذا؟ لكن ماذا كان يجب عليه؟ فلو أرسل أنبياء لما احتمل المجوس تعليمهم ، ولو بعث بصوت من علٍ لصمُّوا آذانهم ، ولو

أرسل ملاكاً لتحوَّلوا عنه. لأجل ذلك إذ ترك الله كل تلك الوسائل دعاهم بطرق يألفونها متنازلاً كل التنازل. فأظهر لهم كوكباً عظيماً من طبعه التنقّل لكي يدهشهم بعظمته وجمال منظره ونوع مسيره. وقد نسج بولس على هذا المنوال لمّا تحدّث إلى اليونانيين عن أحد هياكلهم مستشهداً بشعرائهم (أعمال ١٧: ١٦). كذلك لما قام في اليهود خطيباً جعل الختان والذبائح بدء تعليمه للذين يعيشون تحت الناموس. وبما ان لكلٍّ عوائده المستحبّة فقد رتّب الله والرجال الذين أرسلهم أن يراعوا هذا الشعور في خلاص العالم. فلا تعتبر إذاً دعوة الله للمجوس بواسطة الكوكب أمراً غير لائق به وإلاّ فتفضي بك الحال إلى الطعن بالترتيبات اليهودية كلها: الذبائح، والتطهير، وأعياد أوائل شهورهم، والتابوت، والهيكل نفسه. لأن هذه الأمور أخذت أصلها من ظلمات اليونان الدامسة. فان الله، لأجل هداية الضالّين، يرتضي مع بعض التعديل، بما كان الوثنيون يرضون به الشياطين، حتى اذا أبعدهم شيئاً فشيئاً عن عاداتهم، قادهم إلى الفلسفة السامية. فانه عزَّ وجل إنما ارتضى أن يدعو المجوس بواسطة الكوكب لكي يرقى بهم إلى ما هو أسمى. فبعد أن قادهم وأخذ بيدهم ووقف بهم عند المذود لم يعد يكلّمهم بواسطة كوكب بل بواسطة ملاك. وهكذا أصبحوا خيراً مما كانوا عليه. وهذا ما صنعه الله أيضاً مع أهل اشقالون وغزّة لأنّ تلك المدن الخمس بما انها أُصيبت بضربة بالغة ولم تجد سبيلاً للخلاص من الشرور الحالّة بها دعا أهلُها العرّافين وعقدوا المجمع وبحثوا عن حلٍّ لتلك الضربة الإلهية. فقال العرّافون: يجب أن تشدّوا إلى العجلة التي تحمل التابوت بقرتين مرضعين لم يعلُها نير، وتدعوهما تسيران دون أن تقودهما يد، وهكذا يعلم ما إذا كانت هذه الضربة هي من الله أم حلَّ هذا المرض اتفاقاً. فكانوا يقولون: إذا قطعت البقرتان نيرهما لعدم خبرتهما، أو لم ترجعا إلى خلف حينما تسمعان خوار العجلين، فالبلاء يكون عارضاً، أما إذا سارتا باتجاه مستقيم ولم تضلاَّ الطريق، ولو انهما تجهلانه، يتضح حينئذٍ أن يد الله إنما هي التي مسَّت هذه المدن. فلما قال العرّافون ذلك صدّقهم سكان تلك المدن وفعلوا ما أُوعِز به إليهم. والله اتّبع رأي العرّافين بتنازله هنا أيضاً ولم يعتبر أنه لا يليق به ان ينفذ قرار العرّافين، وأن يجعلهم صادقين ولو ظاهراً في ما أشاروا به، لأن العمل كان عظيماً جداً نظراً إلى شهادة الأعداء أنفسهم بقدرة الله، وإصدار الحكم لجهته من قبل معلميهم أنفسهم. وترى في التدبير الإلهي حوادث أخرى كثيرة مثل هذه: هكذا نرى في عرّافة شاول ما يماثل هذا النوع نفسه من التدبير، الشيء الذي أصبح في

استطاعتكم أن تستنتجوه مما قلناه. اننا أتينا على ذكر تلك الحوادث بمناسبة الكلام عن الكوكب. أما أنتم فيمكنكم أن تزيدوا عليها. وقد قيل: «أعطِ الحكيم حجة فيكون أوفر حكمة» (أمثال ٩:٩).

٤ — يجب أن نعود الآن إلى صدر الآيات التي قرأناها. ما هو هذا الصدر؟ «لما وُلد المسيح في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا بمجوس أتوا من الشرق إلى أورشليم». ان المجوس يتبعون كوكباً يقودهم. أما اليهود فلا يصدّقون حتى كلام الأنبياء. لماذا يعيّن لنا الإنجيلي الزمان والمكان قائلاً: «في بيت لحم» و«في أيام هيرودس الملك»؟ لكن قبل كل شيء لماذا يضيف اللقب إلى الاسم؟ يضيف هذا اللقب لأنه كان يوجد هيرودس آخر وهو الذي قتل يوحنا وكان رئيس ربع، أما هذا فكان ملكاً. يعيّن الإنجيلي الزمان والمكان ليذكّرنا بالنبوءات القديمة التي تنبّأ بأحدها ميخا إذ قال: «وأنتِ يا بيت لحم أرض يهوذا لستِ بالصغيرة في روساء يهوذا» (ميخا ٥:٢). وتنبّأ بالثانية يعقوب الذي حدَّد لنا الوقت وجعل لنا علامة جليّة لمجيئه فقال: «لا يزول صولجان من يهوذا ولا يخرج رئيس من صلبه حتى يأتي الموعود به وهو نفسه رجاء الأمم» (تكوين ٤٩:١٠). ومن اللازم أيضاً أن نبحث عن ذلك من وجهة اندفاعهم إلى مثل هذا الاهتمام، وعمّن حفزهم إليه. لا يبدو لي ان هذا العمل هو عمل الكوكب وحده، إنما الله أيضاً حرّك أنفسهم وهذا ما صنعه مع قورش إذ هيَّأه ليترك اليهود دون أن تُنزَع منه سلطته الذاتية. وكذلك لما دعا بولسَ بصوت من العلى جعل نعمته وطاعة بولس تظهران في آن واحد. وقائلٍ لماذا لم يكشف الله الأمر نفسه لسائر المجوس؟ لأن الجميع لم يكونوا على استعداد ليصدّقوا، ولأن أولئك كانوا أطيب عنصراً من سواهم. قد هلكت أُمم كثيرة لكن النبي يونان لم يُرسَل إلّا إلى أهل نينوى. وكان على الصليب لصّان، لكنَّ واحداً منهما فقط خلص. انظر إلى فضيلة هؤلاء المجوس لا نظراً إلى أنهم قدموا من بلاد نائية فقط، بل خصوصاً لأنهم جهروا بما جاءُوا لأجله، فلئلا يبدو أنهم أُناس محتالون يصفون الكوكب الذي أرشدهم، وطول الطريق التي قطعوها، ويجهرون عند قدومهم بدخلة أمرهم قائلين: «قد جئنا لنسجد له». ولم يخافوا لا سخط الشعب ولا طغيان الملك. ففي اعتقادي أن هؤلاء الرجال أصبحوا في بيوتهم فيما بعد معلّمين لمواطنيهم. لأنهم إذا كانوا في هذا الموقف لم يخشوا الجهر بذلك أفما كانوا بالأحرى يجاهرون به في بلادهم ولا سيما بعد أن تلقّوا الوحي من الملاك وشهادة النبي.

«فلما سمعهم هيرودس اضطرب هو وكل أورشليم معه». لقد كان لهيرودس أن يضطرب لأنه

كان ملكاً ويخشى على مصيره ومصير أبنائه. أمّا أورشليم فلماذا كانت تضطرب؟ مع ان الأنبياء كانوا منذ القِدَم يصفون المولود بالمخلص والمحسن والمحرر. فعلامَ اضطراب الشعب إذاً؟ للسبب نفسه الذي من أجله كانوا يتحوّلون عن الله المحسن إذ كانوا يتذكرون لحوم مصر بعد أن استمتعوا بحرية تامة. لاحظ ناشدتك الله دقّة التعبير في الأنبياء لأنّ أحدهم أنبأ من قبلُ بهذا نفسه إذ قال: «سيرغبون إذا أحسُّوا بلذع النار، لأنه قد وُلد لنا صبي وأُعطي لنا ابن» (أشعيا ٩: ٥ و٦). ولكنهم مع اضطرابهم لم يحاولوا أن يروا ما حدث، ولا تبعوا المجوس، ولا بحثوا معهم، إذ كان فيهم من حب الخصام والكسل ما يفوق على ما عند جميع الناس. لأنه إذ كان من الواجب أن يفتخروا بأن هذا الملك وُلد منهم وجذب إليه بلاد الفرس التي يريدون أن يخضعوا جميع سكانها، وإذ بدأت تظهر طلائع النجاح في أعمالهم وأحوالهم، مع ذلك كله، لم تتحسّن أخلاقهم، بينما كانوا لم يزالوا يذكرون خلاصهم من الأسر البابلي. وهب أنهم كانوا يجهلون التعاليم الغامضة السامية، ولم يكن لديهم سوى الأمور الحاضرة ليركّزوا حكمهم، فكان يجب عليهم أن يدركوا هذا وهو انه إذا كان هؤلاء الأجانب يهابون ملكنا وهو لا يزال في المهد، فكم بالأحرى سيهابونه ويطيعونه متى كبر، وكم سيكون عظيماً تفوُّق أحوالنا عليهم. إن كل ما ذكر لم يكن ليؤثر فيهم لعدم مبالاتهم، فضلاً عن الحسد، هاتين الرذيلتين اللتين يجب أن نستأصلهما كلتيهما من ذهننا بكل عناية، وأن يكون من يريد الانتصار عليهما أشدّ استعاراً من النار. فلذلك قال المسيح: «إنما جئت لأُلقي على الأرض ناراً ولا أريد إلاَّ اضطرامها» (لوقا ١٢: ٤٩). وللسبب نفسه ظهر الروح القدس بشكل ناري.

الدرس الخلقي

٥ — بيد اننا أصبحنا أبرد من الرماد وأشدَّ مواتاً من الموتى. هذا مع اننا نرى بولس يحلِّق فوق السماء وسماء السماء منتصراً ومتغلّباً على كل شيء بقوة أشدّ من النار المتأججة: على ما فوق وما أسفل، على الحاضر والمستقبل، على الكائن والممكن أن يكون. فان ادعيت أن هذا القول هو فوق طاقتك فهذا لعمري إقرار صريح بعدم مبالاتك. فأي شيء كان لبولس أكثر مما لك حتى تدّعي أنك لا تستطيع الاقتداء به. لكن قطعاً لكل جدال لنحوّل أنظارنا إلى المؤمنين الأوّلين الذين زهدوا بالمال والمقتنيات، وعناية الأهل، وكافة شواغل الحياة، وجعلوا ذواتهم بجملتهم بين يدي الله، دائبين ليلاً

ونهاراً على تعلُّم الكلام المقدس. هذه هي النار الروحية التي لا تدع فينا أيّ ميل نحو الأمور الأرضية وتحوّلنا بجملتنا إلى محبة أخرى. فلذلك إذا ما شغف أحد بمثل هذه الأشياء يستطيع أن يزهد بها بسهولة عظيمة، ولو أُلجئَ إلى التضحية بموجوداته، وإلى الازدراء بالطرب والمجد، وإلى تضحية حياته نفسها. فمتى نفذت هذه النار المضطرمة إلى داخل النفس تنزع منها كل توانٍ، وتجعل من صهرته أخفّ من ريشة، وتحلّق به بحيث لا يعود ينظر إلى الأشياء المرئيّة إلَّا بازدراء.

فالمرء الذي يكون على هذا الاستعداد يعيش في خشوع مستمرّ وتجري من مآقيه ينابيع دموع لا تنضب وبذلك يجني ثمار هناء دائم. إذ لا شيء يجعلنا نلتصق بالله ونتّحد به مثل دموع كهذه. وهذا المرء ولو كان مقيماً في المدن إنما يعيش كأنهُ في الصحارى أو الجبال أو المغاور، إذ لا يرى شيئاً من الأشياء الحاضرة، ولا يغيض دمعهُ، سواء أأذراه لأجله أو لأجل خطايا غيره. ولذلك طوّب المسيح هؤلاء قبل سائر الناس إذ قال: «طوبى للباكين الآن» (متى ٥:٥). ولماذا قال بولس: «افرحوا بالرب كل حين» (فيلبي ٤:٤)؟ — ليصف الفرح الذي ينشأ عن هذه الدموع. لأنه كما ان الفرح بحسب العالم ينشئ الحزن والألم، هكذا الدمع بحسب الله ينبت فرحاً دائماً لا ينقضي. كذلك الزانية غدت أفضل من العذارى إذ أضطرمت بتلك النار. لأنها لمّا دبَّت فيها حرارة التوبة بدأت تهيم بحب المسيح، فحلَّت ضفائرها، وأخذت تقبّل قدميه المقدستين، وتغسلها بدموعها، وتسكب عليهما الطيب، وتنشّفهما بشعر رأسها. هذا ما كان يبدو عليها في الخارج. أما الشعور الذي كانت تفيض به نفسها ولم يشهده غير الله فكان أشد أُواراً. لأجل ذلك فكل من يسمع بقصة هذه المرأة يشترك بهنائها ويطرب لفضائلها ويحلُّها من كل آثامها. فاذا كنا نحن الأشرار نبرز هذا الحكم فأية هبات لم تنلها من الإله المحبّ للبشر؟ بل كم من الخيرات جنت من التوبة حتى قبل الهِبات التي مَنَّ بها الله عليها؟ فكما انه إذا تساقط المطر مدراراً ينقى الهواء، كذلك اذا ما انهمرت الدموع يكون الهدوء والاطمئنان، وتتبدّد ظلمات الخطيئة. وكما اننا نطهَّر بالماء والروح القدس، كذلك نطهر أيضاً بالدموع والاعتراف إذا لم نعمل هذا للظهور وحبّ الكرامة. أمَّا المرأة التي تدمع عيناها لأمر مثل هذا إنما تستحق أن يقضى عليها أكثر من التي تجعل همّها في أن تظهر مجمَّلة بخطوط وهميّة وزين مستعارة. اني أريد دموعاً يكون مصدرها التندّم لا الظهور، دموعاً تسيل في الخفاء في مخادعنا ولا من يراها، تسيل متتابعة ببطء من عمق النفس عن تأسُّف وتوجُّع

لإرضاء الله وحده. تلك كانت دموع حنة: «وكانت شفتاها تختلجان ولا يُسمَع صوتها» (ملوك أول ١ :١٣). بيد أنّ دموعها وحدها كانت تعطي صوتاً أشدّ من صوت البوق، لذلك فتح الله رحمها وحوَّل الصخرة الصلدة إلى أرض خصبة.

٦ – فإذا ما دمعت أنت على هذا النحو تكون مقتدياً بالمسيح لأنه هو نفسه دمعَ على لعازر، وعلى مدينة أورشليم، وقلِقَ لحظّ يهوذا. والإنجيل يبيِّن لنا أنه كثيراً ما كان يفعل ذلك ولم يبيِّن أنه ضحك قط، حتى ولا ابتسم. ولا أحد من الإنجيليين على الأقل أخبرنا شيئاً مماثلاً. فلا نستغرب إذا قال لنا بولس وآخرون غيره أنه بكى وانه كان يفعل ذلك ليلاً ونهاراً مدة سنين. أما انه ضحك فهذا ما لم يخبر به هو عن نفسه ولا أخبر به القديسون عنه، أو عمَّن تشبَّه به. وأما الكتاب فلم يقل ذلك إلاّ عن سارة حينما ٱستُهزئ بها، وعن ابن نوح لما استبدل الحرية بالعبودية. اني أقول ذلك لا لأَمنع الضحك منعاً باتًّا بل لأمنع القهقهة فيه. قل لي، أصلحكَ الله، كيف تستطيع أن تفرط وتقبح في الضحك وأنت لا تزال مطالباً بحساب دقيق ومزمعاً أن تقف أمام منبر مخيف لتجيب عن كل ما أتيت في هذه الدنيا دون استثناء؟ نعم. اننا سنؤدّي حساباً على خطايانا سواء أكانت اختيارية أو غير اختيارية: «ومَن أنكرني قدّام الناس أنكرته أنا قدّام أبي الذي في السماوات» (متى ١٠ :٣٥) والحال أن هذا الإنكار لا يكون دائماً عملاً اختياريًّا فهو مع ذلك لا ينجو من القصاص بل سنؤدي حساباً عنه وعن كل ما لا نعلم: «اني لست أشعر بشيء في ضميري لكنني لست مبرراً» (كورنثس ٤ :٤). وسنعطي أيضاً حساباً عمَّا فعلناه عن معرفة أو عن جهل. يقول القديس بولس: «اني أشهد لهم أنّ فيهم غيرة الله إلا أنها ليست عن معرفة» (رومية ١٠ :٢). أي أن ذلك لا يكفيهم لتبرير ذواتهم. وفي رسالته إلى كورنثس يقول أيضاً: «لكنني أخشى أنه كما خدعت الحيّة حوّاء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح» (٢كورنثس ١١ :٣). إذن فان كان لا بدّ لك من أن تؤدّي حساباً دقيقاً مثل هذا أفتظلّ هكذا ضحّاكاً مازحاً طروباً؟

وقد تقول ما فائدتي إذا حبست نفسي عن ذلك واسترسلت في العويل؟ ان الفائدة لجليلة جدًّا بل أجلّ من أن توصف. إذا وقفت أمام القضاء العالمي فمهما ذرفت من الدموع لا تستطيع بعد صدور الحكم أن تنجو من العقوبة. أما هنا فحسبك أن تحزن لتلغي الحكم وتنعم بالعفو، فلهذا السبب كثيراً ما يتكلم المسيح عن الحزن، ويطوّب الحزانى، ويندب حظ الضاحكين. إن مسرح العالم ليس للضحك، ولا اجتمعنا فيه

للمزاح لكن بالحريّ للحزن، وبهذا سنرث الملك السماوي. إذا حضرت قدّام الملك فلا تجرؤ على الابتسام، وإذا كان سيّد الملائكة يقيم عندك أفلا تقف قدّامه مرتجفاً ومبدياً الاحتشام اللائق بحضرته؟ لكنك تضحك حينما يكون في الغالب غاضباً عليك، ولا تفطن إلى أنك تغيظه بهذا أكثر مما تغيظه بخطاياك؟ نعم إن الله يكره الخطأة أقلّ مما يكره قلّة الاحتشام بعد ارتكاب الخطيئة. من الناس مَن هم في حالة من البلادة بحيث يجرؤون بعد سماعهم ذلك الكلام أن يقولوا عسى اني لا أحزن أبداً لكن ليعطِني الله أن أقضي أيامي في الضحك واللهو. فأي شيء أتفه من هذه الأفكار؟ لأن الذي يجعل فينا حب اللهو ليس هو الله بل هو الشيطان. اسمع ما قال الكتاب عن حظ اللاهين: «جلس الشعب يأكلون ويشربون ثم قاموا يلعبون» (خروج ٣٢:٦). على هذا النحو كان سكان صدوم، وهكذا كان الجيل الذي دهمه الطوفان فقد قيل عنهم: «انهم كانوا ينعمون في الاستكبار وطمأنينة الفراغ والشبع من الخبز» (حزقيال ١٦:٤٩). أما الذين كانوا في عهد نوح وإن كانوا شهدوا صنع التابوت زمناً طويلاً فلم ينفكّوا عن اللهو غير ناظرين إلى الأمور المستقبلة، فلذلك جاءهم الطوفان العظيم فابتلعهم كلهم وأغرق المسكونة.

٧ - فلا تطلب إذاً من الله ما لا تناله إلّا من الشيطان، إذ لله أن يعطيك قلباً منسحقاً، متضعاً، يقظاً، حكيماً، متندّماً، خاشعاً. هذه هي العطايا الإلهية التي نحن بأشدّ الاحتياج إليها، لأننا في صراع صعب ونضال قاسٍ ضد القوات الغير المنظورة، وفي حرب ضد أرواح الشرّ، وضد الرئاسات والسلطات. حبّذا لو نستطيع أن نصمد في هذه المعركة الهائلة بفضل غيرتنا وجلَدنا وتيقّظنا، فاذا ما لهونا وعشنا في التواني نقع بين أيدي العدو. فليس إذاً شأننا أن نستمرّ في الضحك واللهو والطرب بل هذا شأن الذين يسلُّون الناس على المسرح، وشأن النساء المتهتكات، والرجال الذين يتبارون معهن، والطفيليين والمتملّقين. كلاّ. ليس ذلك شأن الذين يصبون إلى السماء، ولا الذين كُتِبَت أسماؤهم في المدينة العليا، والمتسلّحين بالأسلحة الروحية، إنما ذاك هو شأن اتباع الشيطان الرجيم لأنه هو هو الذي يجعل مهنته أن يغوي جنود المسيح ويثنيهم عن عزمهم. ولأجل هذا الغرض بنى المسارح في المدن وجعل فيها أولئك الممثلين الهزليين، وبالتعاون معهم يبتلي المدينة كلها بمثل هذا البلاء. وقد حذّرنا بولس من تلك الأشياء أعني الأحاديث البذيئة التافهة وكل ما يثير فينا حب المزاح الوبيل، حاضًّا إيّانا على استئصالها باعتبار أنها مصدر الشرور. فاذا ما نطق أولئك الممثلون في أدوارهم الهزلية بكفر أو بكلام بذيء

فكثيرون من الجهّال يصفّقون لهم ويطربون، وبدلاً من أن يقذفوهم بالحجارة، كما يقضي الواجب، يصفّقون لهم تصفيقاً من شأنه أن يركموا نار جهنم على رؤوس الحاضرين أنفسهم. لأنّ الذين يبدون استحسانهم لمثل تلك الألفاظ هم الذين يسبّبون النطق بها، فلذلك ينالون عنها عقاباً أليماً استحقّوه بعدل. ولولا روّاد المسارح لما كان الممثلون. لأنهم متى رأوكم تتركون أعمالكم ومهنكم وتضحُّون بما ترغبونه منها، وعلى الجملة متى رأوكم تتركون كل شيء لترتادوا تلك المسارح، فإنهم يضاعفون جهودهم ونشاطهم في عملهم المفسد. انني أقول لكم هذا لا لأُبرِّر أولئك، بل لتعلموا أن رأس الشرّ وأصله إنما هو أنتم، وانكم أنتم تغذُّونه بحضوركم، حيث تقضون شطراً كبيراً من أيامكم، وتفضحون شرف الزواج، وتنجّسون سرّ الديانة العظيم. لأنّ ذلك الممثّل حينما يقوم بدوره لا يأثم كما تأثمون، إذ تدفعونه إليه، أو بالحري لا تدفعون فحسب، إنما تشجّعونه إذ تستحسنون عمله وتقهقهون له وتصفّقون لما يبديه ويأتي به مغذّين هكذا معامل الشيطان بكل ما لديكم من الوسائل. قل لي أصلحكَ الله، بأي عين تنظر إلى امرأتك عند رجوعك من ذلك المكان بعد إذ رأيت كرامتها تمتهن، بل كيف لا يندى جبينك من الخجل حينما تتذكّرها وأنت تشاهد جنسها يتمرّغ في الحمأة؟

٨ — لا تقلْ ناشدتك الله، إن ذلك ليس سوى تمثيل خيالي. لأنّ تمثيلاً كهذا كم أفسد أُناساً وكم هدم بيوتاً! وان ما يزيد في حزني هو أنكم لا ترون في ذلك شرًّا. وان استحسانكم وتصفيقكم وقهقهتكم تكون سبيلاً لارتكاب الإثم. ماذا تقول؟ هل ذلك غير تمثيل باطل؟ لهذا السبب نفسه يستحق هؤلاء الرجال ألف ميتة. ولا أقول لكم كم من الناس تجعلهم فجّاراً هذه المآسي التمثيلية الخياليّة وكم توحي للذين يحضرونها من القِحة وقلّة الحياء، وفي الحقيقة لا شيء أوقح من عين تستطيع احتمال هذه المناظر القبيحة. إنك لا تطيق أن تنظر إلى امرأة عارية في سوق، ولاسيما في بيت، وتعتبر هذا عاراً، مع ذلك تذهب إلى المسرح لترى بأُمِّ العين النساء والرجال تُهان كرامتهم على السواء وتلوّث نظرك بصوَر دنيئة. لا تقل بحياتك ان هذه الممثلة العارية هي على كل حال زانية، بل قل ان للزانية والحرَّة طبيعة واحدة بعينها، وجسماً واحداً بعينه، ولو لم يكن هنالك أمر مستنكر. فلماذا تنفر من تلك الأشياء وتبدي نفورك منها خصوصاً حينما تشاهدها في الشارع؟ أتكون مستنكرة إذا ما رآها كلٌّ منّا واحداً واحداً، ولا تكون كذلك إذا ما شاهدناها مجتمعين؟ انه لافتراض مضحك، وكلام مخجل، يدلّ على مَسٍّ

في العقل. فخير لنا أن نطلي عيوننا بطين وحمأة من أن نجيل بصرنا في تلك الفظائع. ان الحمأة لا تؤذي عينك كما يؤذيها منظر هذا العري الفتّاك.

اسمع ماذا فعل منذ البدء، ترهب من أمر شائن مثل هذا فما سبب العري إذاً؟ عصيان الشيطان وتآمره منذ أول لحظة، ومنذ بدء الأشياء. ذلك كان دأبه لكن ذينك (آدم وحواء) خجلا من عريهما أما أنتم فتجعلونه زينتكم محقّقين قول الرسول: «انهم يجدون مجدهم في خزيهم» (فيلبي ٣: ١٩). فكيف تنظر إليك امرأتك بعد عودتك من ذلك المشهد الشائن، وكيف تستقبلك، وكيف تخاطبك بعد نيلك من كرامة جنسها، وبعد أن أصبحت أسير النظر وعبداً لامرأة بغي؟ فاذا ما سمعت لي متوجّعاً أشكر لك الشكر الكثير: «مَن الذي يسرّني غير من غممته أنا» (٢ كورنثس ٢: ٢). فلا تكفّوا عن العويل على خطايا مثل هذه، ولا عن الشعور بمنخاسها الداخلي، لأنّ غمّكم سيكون مبدأ تبدّلكم. لأجل هذا كلّمتكم بلهجة شديدة حتى اذا ما عملتم في الخفاء، أنقذتكم من هذا النتن الوبيل، وأعدت إلى نفسكم السلامة التامة. عسى اننا نتمتع جميعاً بكل شيء، ونظفر بالجزاء المُعدّ لأَعمالنا الصالحة، بنعمة وعطف سيّدنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزّة إلى أبد الآباد آمين.

٦
عِظَة
في سجود المجوس

١ - أرأيت ان الحوادث كلها آلت إلى تقريع اليهود لأنهم ما داموا لم يروا المسيح ولم يأسرهم الحسد كانوا يخلصون الشهادة للحقيقة فلما أبصروا مجده الناشئ عن عجائبه تولاّهم الحسد فأبوا أن يشهدوا للحقيقة. أمّا الحقيقة فكانت تعلو على الجميع وكان يشهد لها خصومها شهادة أعظم. فتأمل هنا أيضاً كيف تدبّرت أمور عجيبة غريبة. لأنّ البرابرة واليهود يتبادلون المعارف بعضهم مع بعض ويلقون الدرس بعضهم على بعض. فاليهود كانوا يسمعون من المجوس أنّ نجماً نادى بماسيّا في بلاد فارس، والمجوس كانوا يقتبسون من اليهود المعرفة بأن هذا الذي بشّر به النجم إنما هو رجاء الأمم الذي تنبّأت عنه الأنبياء قديماً قبل عصور كثيرة. فالأسئلة والأجوبة جعلت الفريقين يتلقيان معارف

أدقّ وأوضح. وها هم أعداء الحقيقة يضطرون إلى قراءة الآيات التي تشهد للحقيقة، ويفسّرون النبوءة وإن لم يكن كلها، لأنهم قالوا: من بيت لحم سيخرج مدبر اسرائيل دون أن يتمّوا قراءة الآية وذلك مداراة للملك. وما هي تتمّة الآية؟ «ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل» (ميخا ٥: ٢).

وسائلٍ: بما انه سيولد في بيت لحم فلماذا أقام في الناصرة بعد مولده ملقياً ظلاً على النبوءة؟ - في الحقيقة لم يلقِ عليها ظلاً بل بالحري أبان الغامض منها. لأن إقامة أمّه في مكان، ووضعها في مكان آخر، لمَّا يبيّن الأمر الذي هو من تدبير الله. لذلك لم يترك بيت لحم فور مولده لكنه أقام فيها أربعين يوماً معطياً الزمن الكافي للذين يريدون أن يدقّقوا في البحث عن جميع الأمور، لأنّ أموراً كثيرة كانت تستدعي هذا البحث لو أرادوا أن يعيروها قلباً واعياً. فلما قدم المجوس قامت المدينة كلها وقعدت هي والملك نفسه. ثم عُقِدَ المجمع العظيم وذُكر النبي. وحدثت أمور أخرى قصَّها القديس لوقا بدقة. من ذلك ما كان من أمر حنّة وسمعان وزخريا والملائكة والرعاة. وهذا كله من شأنه أن يهيّئَ أسباب البحث عن الحدث العظيم. فاذا كان المجوس الذين جاءوا من المشرق لم يجهلوا المكان، فبالأولى المقيمون في المدينة كان باستطاعتهم أن يعرفوه. فمنذ البدء إذاً أعلن المسيح نفسه بعجائب شتى. لكن إذ لم يشأ اليهود أن يروه، اختبأ بعض الزمن ثم ظهر فيمَا بعد بأكثر إشراقاً من قبل. حينئذٍ لم يبشِّر به المجوس، ولا الكوكب، وإنما الأب أعلنه من السماء في مجاري الأردن، ونزل الروح القدس جاذباً معه ذلك الصوت واستقرّ على رأسه وقت عماده. وكان يوحنا يصرخ بكل جرأة في كل صقع مالئاً بتعاليمه اليهودية والبلاد الآهلة والمقفرة. نعم ان شهادة العجائب والأرض والبحر والخليقة كلها كانت ترسل صوتاً جهوراً لتأييده. على أنه في وقت المولد نفسه حدثت آيات كثيرة تدلّ على مجيئه. فلئلاً يقول اليهود: اننا لا نعرف الزمان ولا المكان اللذين وُلد فيهما، فقد جرت مع المجوس الأمور التي ذكرناها، وجرى غيرها مما لا يدع سبيلاً لليهود لأن ينتحلوا أعذاراً لتركهم البحث عن الحدث الخطير.

٢ - فانظر إحكام هذه النبوءة: فهي لا تقول انّ ماسيّا سيقيم في بيت لحم بل: «سيخرج». فيكون معناه أنّ الولادة فقط ستكون في بيت لحم. وقد بلغت الوقاحة ببعضهم إلى أن يزعموا أن هذه النبوءة تختصّ بزروبابل فهل لمدعاهم ذرة من الصواب؟ أمن الممكن أن يُقال عن زروبابل هذا: «ان مخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل»؟ أو أن يطبَّق

عليه صدر الآية: «ان منك سيخرج»؟ انه لم يولد في اليهودية بل في بابل، واسم زروبابل نفسه يدلّ على أصله. ومن يعرف لغة السوريين لا يجهل ما نقول. وعلاوة على ما أسلفنا فإنّ الأيام التي جاءت فيمَا بعد أقامت الدليل على الحقيقة نفسها. فماذا يقول النبي؟ «لستِ الصغيرة في رؤساء يهوذا». وتأييداً لشهرتها يضيف قائلاً: «لأنه منك سيخرج». وفي الواقع ان ذلك المكان لم يجعله أحد شهيراً ومجيداً إلَّا المسيح وحده. فمنذ مولده لم يفتأ الناس يقبلون إليه ليشاهدوا مكان المهد والمذود. وهذا ما يعبّر عنه النبي بقوله: «لستِ الصغيرة في رؤساء يهوذا» (ميخا ٥:٢). أي تلك القبيلة التي تتبوّأ المكان الأول بين سائر القبائل التي تدخل في نظامها أورشليم نفسها. ومع ذلك كله لم يتنبّه اليهود ولو ان ذلك يعود إلى صالحهم الخاص. لأن الأنبياء لم يصفوا مجد المسيح في الأصل وصفهم للخيرات التي سيسبغها على اليهود.

فعند اقتراب وضع البتول قال الملاك: «وتسمّيه يسوع». ثم أضاف: «لأنه سيخلّص شعبه من خطاياهم». ولم يقل المجوس أين ابن الله؟ وإنما قالوا: «أين المولود ملك اليهود»؟ كذلك لم يقل النبي: «سيخرج منك ابن الله». بل قال «المدبر الذي يرعى شعبي اسرائيل». لأنه كان من اللازم أن يكون الكلام في المقدمة على غاية من الوضاعة لئلاَّ يتشكّك اليهود، ولئلاَّ يدور الكلام على خلاصهم فقط ليتمكّن الإنجيلي من اجتلابهم إلى المسيح. ان جميع الشهادات الأول التي أُوردت والتي جاءت فوراً بعد مولده لم تفعل شيئاً خطيراً ولا سامياً، لا كالتي جاءت بعد إظهار العجائب لأن هذه تنطق بأجلى بيانٍ بسموّ منزلته. فاسمع ماذا يقول النبي عن التسابيح التي سينشدها الأطفال بعد أن يكون صنعَ آيات كثيرة: «من أفواه الأطفال والرُضَّع أصلحت تسبيحاً» (مزمور ٨:٣). وأيضاً: «إني أرى سمواتك عمل أصابعك» (مزمور ٨:٤). الشيء الذي يدلّ على أنه مبدع الكون. وهذه الشهادة التالية التي تحقّقت بعد صعوده تبين مساواته لأبيه: «قال الرب لربي اجلس عن يميني» (رومية ٩:٦ و٨). وأما أشعيا فيقول «القائم ليملكِ الشعوب وإياه تترجى الأمم». ولماذا يقول النبي: «إن بيت لحم لن تكون الصغيرة بين رؤساء يهوذا»؟ لأن هذه البلدة ليس انها لم تكن شهيرة في فلسطين فقط بل في العالم كله. لكن الكلام يوجَّه الآن إلى اليهود لذلك أردف قائلاً: «ليرعى شعبي اسرائيل». لأنه يجب أن يرعى العالم كله. لكن كما كنت أقول لا يريد أن يشكك اليهود. ولهذا السبب يعرض عن الكلام فيما يخصّ سائر الأمم.

قد يُقال: لماذا لم يرعَ الشعب اليهودي؟ بلى قد رعاه لأن النبي عندما يتكلم هنا عن

اسرائيل إنما يعني الذين سيؤمنون به من اليهود. وهذا ما فسَّره بولس بقوله: «ليس جميع الذين من اسرائيل هم اسرائيليون بل أبناء الإيمان والموعد هم يحسبون نسلاً» (رومية ٩: ٦ و٨). وان لم يرعهم جميعهم فالذنب ذنبهم والملام عليهم إذ كان ينبغي أن يسجدوا مع المجوس ويمجّدوا الله، إذ قد حان وقت الصفح عن خطاياهم. (على انه لم يبلغ سمعهم شيء من محكمة أو حساب بل عن راعٍ حكيم وديع). لكنهم فعلوا النقيض واضطربوا وهاجوا ثم أخذوا ينصبون الحبائل. «حينئذٍ دعا هيرودس المجوس سرًّا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر»، عازماً على قتل المولود. الأمر الذي دلَّ لا على حمقه فقط، بل على فقدان رشده، بل على جنون مطبق. لأن ما قيل وما حدث كان من شأنه أن يحوّله عن عزم مثل هذا، إذ الحادث لم يكن بشريًّا. ان كوكباً يدعو المجوس من علُ، ورجالاً برابرة يقومون برحلة طويلة ليسجدوا للطفل الذي لا يزال في المهد واللفائف، وان الأنبياء تنبّأوا عن ذلك قديماً، وأموراً أخرى لا سبيل إلى إحصائها كل ذلك كان حقًّا بعيداً عن أن يكون لإنسان. لكن الطاغية لم يثنهِ عن عزمه شيء.

٣ — ها هو اللؤم يصطدم بنفسه ويقدم على أمور لا يستطيع تحقيقها. تأمّل هذا الجنون: إن كان يؤمن بالنبوءة ويحسبها غير متغيّرة فمن الجليّ أنه يقدم على أمور لا يمكن تحقيقها. وإن لم يؤمن بها ولا يعتقد أنها تتم فليس من باعث إلى الخوف والجزع ونصب الأشراك في الخفاء. ففي الحالين كان لا فائدة من الاحتيال. ولمن أقصى الجنون أن يظن أن المجوس يفضّلونه على الطفل المولود الذي أتوا لأجله من بلاد نائية. فاذا كانوا اضطرموا شوقاً إلى هذا الطفل قبل أن يكونوا رأوه فكيف يدخل في خلد هيرودس أنه يستطيع إقناعهم بتسليمهم إياه بعد أن يكونوا شاهدوه وتحقّقوا أمره من النبوءة. ومع هذا كله بالرغم من جميع الأسباب التي من شأنها أن تثنيه عن عزمه لبث مصرًّا عليه: «فدعا المجوس سرًّا واستخبر منهم». لأنه كان في حسبانه أن اليهود يهتمّون بأمر الطفل. ولم يسبق إلى ظنّه أنهم بلغوا حدًّا من الحمق بحيث أرادوا أن يخونوا حاميهم ومخلصهم الذي جاء لتحرير أُمتهم. لهذا السبب «دعا المجوس سرًّا» واستعلم منهم، لا عن زمن مولد الطفل، بل عن زمن ظهور النجم، باحثاً معهم عن فريسته بكل اهتمام. لأن النجم، في تقديري، ظهر قبل الصبي بزمن طويل، وإذ كان ينبغي أن يقضي المجوس وقتاً طويلاً في رحلتهم، فلكي يصلوا بسرعة إلى مكان المولود (لأنه كان يجب أن يُعبَد وهو في اللفائف بحيث يتجلى ما في هذا الأمر من غرابة وعجب)، أُظهر النجم قبل الولادة بزمن طويل.

فلو ظهر لهم النجم في المشرق عند ولادة المسيح في فلسطين لما استطاعوا أن يروه في المهد إذ الشقة التي يلزم أن يقطعوها هي بعيدة جداً. فاذا كان الطاغية قتل «الأطفال من ابن سنتين فما دون» فليس ذلك ما يدعونا إلى العجب، لأن الغضب والخوف يطلبان تحديد الوقت لبلوغ اغراضهما بحيث لا يفلت أحد من أيديهما. لذلك «دعا المجوس وقال لهم اذهبوا وابحثوا عن الصبي متحققين وإذا وجدتموه فأخبروني حتى أذهب أنا أيضاً وأسجد له». فيا للحماقة! إن كنت تستوحي كلامك من الحقيقة الراهنة فلماذا تسأل سرًّا؟ وإذا كنت تريد أن تنصب الأشراك فكَيف لا يقوم في ذهنك أن المجوس بوسعهم أن يروا احتيالك في سؤالك سرًّا؟ لكن النفس، كما قلت سابقاً، متى استسلمت للؤم فقدت كل إدراك. لم يقل هيرودس: اذهبوا واَستعلموا عن «الملك»، بل عن «الصبي»، لأنه لا يحتمل أن يدعوه باسمه الملكي. غير أن المجوس، الذين لم تدعهم تقواهم العميقة يسيئون الظن بأمور مثل هذه، الذين لم يقع في خلدهم قط ان هذا الملك تمادى في اللؤم حتى أزمع أن يقدم على بثّ المكايد ضد التدبير الإلهي العجيب، استأذنوا من هيرودس بالانصراف، وقد خيّل إليهم أن شعورهم الصادق هو مقياس لشعور سواهم. «وإذا النجم الذي كانوا رأوهُ في المشرق يتقدّمهم». قد كان غاب عن أنظارهم حتى اذا فقدوا دليلهم يلجئهم الأمر إلى مطارحة اليهود، وبهذا ينجلي الحادث. بعد أن طرحوا أسئلتهم على اليهود وأخذوا دروساً عنهم عاد النجم فظهر لهم. فتأمل مجرى الحوادث الخطيرة. بعد النجم تلقّاهم الشعب والملك نفسه ولقّنوهم قول النبي الذي ينبئ عن الحادث. وبعد النبي أخذهم الملاك وأخبرهم بكل شيء. فساروا إذاً من أورشليم إلى بيت لحم ودليلهم النجم الذي رافقهم من جديد. وهذا ممّا يدلّك، كما قلت، على أن هذا النجم لم يكن أحد النجوم الكثيرة لأن حركته مخالفة لحركتها فهو لم يَسِر قدّامهم فحسب بل كان يقودهم أيضاً جاذباً إياهم كأنه يأخذ بيدهم في رائعة النهار.

٤ — وقائل: وما الحاجة إذن إليه وقد أصبح المكان معروفاً؟ القصد أن يريهم الصبي بالذات، لأنه لم يكن لديهم شيء آخر يستدلّون به عليه. وإذ لم يكن البيت ذا شهرة واسعة ولم تكن الأُم لامعة ذائعة الصيت، فاقتضى أن يبلغ النجم بهم إلى المكان. فلذلك لم يلبث ان ظهر لهم عند خروجهم من أورشليم، ولم يقف إلى أن استقرّ عند المذود حيث التقى عجبان: مجوس يسجدون، ونجم يقودهم. (وكلاهما من شأنه أن يلين فؤاد الجلمود). فلو قال المجوس انهم كانوا ينقادون إلى صوت أحد الأنبياء، أو إلى

صوت ملاك جاء خصيصاً ليرشدهم ، لما اطمأنت إليهما أنفسهم. أما الآن وقد ظهر النجم يشعّ فوق رؤوسهم فتُسَدّ أفواه المتوقحين. وإذ بلغ النجم إلى الموضع الذي كان فيه الصبي ، وبدا كأنه معلّق فوقه ، وقف مرة ثانية ، الشيء الذي يدلّ على انه كانت له قوة أعظم من أيّ نجم طبيعي. إذ ان النجم الطبيعي لا يمكن أن يظهر مرة ويغيب أخرى. كما انه لا يمكن أن يقف ويظلّ ساطعاً. بذلك كان المجوس يزدادون إيماناً وغبطة وتقديراً للنعمة لأنهم وجدوا ضالّتهم المنشودة وأصبحوا رسل الحقيقة. ولم تكن رحلتهم عقيمة ، وهكذا أحبّوا المسيح حبًّا خالصاً. فالنجم إذاً يقترب ويستقرّ على رأسه بعينه دالاًّ على أصله الإلهي. وباستقراره يحفز إلى السجود له لا رجالاً برابرة بل اعلام حكمائهم وجهابذتهم. انك ترى ان النجم إنما يظهر لهم بعدلٍ لأنهم بعد النبوءة التي فسّرها لهم الكهنة ينقادون أيضاً للنجم. فليتأدّب مركيون ، وَلْيَستُرْ بولس السمو ساطي وجهه خجلاً ، لأنهما لم يريدا أن يريا ما رآهُ المجوس آباء الكنيسة الأولون. نعم لا أستحيي أن أدعوهم هكذا. فليخجل مركيون عند نظره إلى إله معبود بالجسد ولينقبض بولس حياءً إذا ما رأى الطفل تُقدَّم له العبادة ليس كإنسان. أمّا ان الطفل يُعبد في جسده المائت ، فهذا ما تعلنه القمط والمذود. وأمّا انه ليس بإنسان بسيط ، فهذا ما تبيّنه الهدايا المقدّمة له في مهده ، والتي لا تليق إلّا بإله. فليستتر اليهود خجلاً ، هم وهذان الرجلان ، عند نظرهم إلى من سيعبده البرابرة والمجوس ، ويأبون هم أن يسيروا في اثرهم. فالشيء الذي حدث إنْ هو إلّا رمز لما سيتمُّ في المستقبل لأنه أُعلن منذ البدء أن الأمم قد يسبقون هذا الشعب. تقولون لماذا قال الرب فيما بعد لا من قبل: «اذهبوا وتلمذوا كل الأُمم» (متى ٢٨: ١٩). لأن ما كان يجري حينذاك كان رمزاً للمستقبل كما قلت وهو نبوءة لا ريب فيها.

لقد كان من البديهي أن يسبق اليهودُ سائر الأمم ، لكن بما انهم نبذوا الاحسان المختص بهم باختيارهم جاءت الأمور معكوسة. لأنه لم يكن من الحق أن يأتي المجوس أولاً قبل اليهود ، ولا أن يتقدّم رجال يقيمون في بلاد سحيقة ، لم تكن التعاليم الإلهية بلغت أسماعهم بعدُ ، على الذين يقيمون في المدينة نفسها وقد تأدبوا بكثير من الدروس النبوية. على كل حال ، بما ان هؤلاء جحدوا الإحسان الذي كان مختصًّا بهم سبق الفرسُ أهلَ أورشليم. وهذا ما كان يقوله بولس: «كان يجب أن تكلَّموا أنتم أولاً بكلمة الله ولكن إذ نبذتموها وحكمتم انكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا نتوجّه إلى الأمم» (أعمال ١٣: ٤٦). فإذا

كانوا لم يؤمنوا إلى ذلك الحين، فكان يجب على الأقلّ أن يسرعوا لدى سماعهم كلام المجوس. لكنهم لم يشاءوا. فلذلك إذ كانوا مثقّلين بالنوم أسرع المجوس في سيرهم ليصلوا قبلهم.

الدرس الخلقي

٥ – أما نحن فلنَقْفُ أثر المجوس، ولنقلع عن العوائد المسلّطة على هذا العالم، ولنقطع شوطاً بعيداً لنشاهد المسيح. فلو لم يبتعد أولئك عن وطنهم لما عاينوه. فلنزهد بالأمور الدنيوية. حينما كان المجوس في بلاد فارس كانوا يشاهدون كوكباً. ولكنهم لمّا ابتعدوا عن تلك البلاد شهدوا شمس العدل. أو بالحري لم يشهدوا الكوكب لو لم يعتزموا الرحيل. لنحذُ نحن حذوهم. وإن اضطرب الجميع فلنهرع نحن إلى مقام الصبي. وان اعترضنا في سبيلنا ملوك أو شعوب أو طُغاة فلا نحلّ عرى عزمنا، وبذلك ندفع عنا جميع الشدائد التي تهدّدنا. قبل أن يهتدي المجوس إلى الطفل كانت المخاوف والأخطار وأسباب القلق تحفّ بهم من كل جانب وبعد أن سجدوا له شملهم الهدوء والأمن ولم يعد هنالك نجم يتلقّاهم بل ملاك، لأنَّ سجودهم وتقدمتهم للهدايا أشركهم على نوع ما بالكهنوت.

أترك الشعب اليهودي أنت أيضاً، وغادر المدينة المضطربة، ودع الطاغية السفّاح، واطرح عنك مطربات العالم، وبادر إلى بيت لحم بيت الخبز الروحي. أأنت راعٍ؟ تعال إلى المغارة فترى الصبي في المذود. أأنت ملك؟ إن لم تأتِ، فبرفيرك لا يجديك نفعاً. أأنت مجوسي؟ فلا شيء يعوقك إذا ما جئت لمحض تقديم الاكرام والعبادة، لا لتدوس ابن الله. افعل ذلك برهبة وفرح لأن هذين الأمرين لا يتنافيان. ألا فاحذر أن تقفو آثار هيرودس قائلاً: «حتى أذهب أنا أيضاً وأسجد له» بنيّة أن تعمد إلى قتله. هكذا يصنع الذين يشتركون بالأسرار المقدسة وهم على خلاف الاستحقاق: «لأن من يجرؤ على ذلك يكون مجرماً إلى جسد الرب ودمه» كما يقول القديس بولس (١ كورنثس ١١ :٢٧). فمن كانوا على هذه الشاكلة يجعلون في قلوبهم طاغوتاً يغار من مملكة المسيح وأعني بهذا الطاغوت الشهوة التي هي أكثر إثماً مما كان عليه هيرودس. وهذا الطاغوت الداخلي الذي يذوب عطشاً إلى التسلّط، يرسل أعوانه ليتظاهروا بعبادة المسيح ولكنهم بعبادتهم يعمدون إلى الإيقاع به. لنتخوّف من التظاهر بالصلوات والعبادة إذا كنا نظهر ما يخالف عملنا.

فلنلقِ كل ما في أيدينا حينما نزمع على السجود. وان كان لدينا مال فلنوزّعه بسخاء ولا نطمره. إذا كان أولئك البرابرة قدّموا الهدايا لاكرام الصبي، فماذا يحلّ بمن لا يعطي المعوز؟ لقد قطعوا طريقاً طويلاً لكي يشاهدوا المولود، فأي عذر يمكنك أن تنتحله أنت ولا تسير خطوة واحدة لتعود المريض والسجين؟ نحن نرحم المرضى والمأسورين والأعداء، وأنت لا ترحم سيّدك والمحسن إليك. قدَّمَ المجوس ذهباً، وأنت لا تكاد تعطي خبزاً. هم أبصروا النجم فلمع في غرّتهم نور البشر، وأنت ترى المسيح غريباً وعرياناً ولا تدركك عليه الشفقة. ومن منكم بعد أن أضفى عليه المسيح نعمه قام لأجله برحلة شاقة كالتي قام بها هؤلاء البرابرة؟ عفواً، بل هؤلاء الرجال الذين يفوقون الفلاسفة بحكمتهم. وما لي أقول رحلة شاقة، وبين النساء كثيرات هنَّ من الرخاوة بحيث لا يجرؤنَ على السير على أقدامهن في بلدة صغيرة لينظرن المسيح في مذوده الروحي إذا لم يمتطين البغال. وأما الرجال الذين يقوون على السير فيؤثر بعضهم ركام الأشياء الزمنية، والبعض الآخر المتفرَّجات العامة، على المجيء إلى هذه الكنيسة. أضف إلى ذلك ان البرابرة قطعوا تلك الطريق الشاقة قبل أن يبصروا المولود، وأنت لا تغار منهم بعد أن رأيته، بل تدعه وتعدو لتشاهد ممثلاً صامتاً – لا يسعني إلاّ أن أعود إلى الموضوع الذي كلَّمتكم عنه في حديثي السابق – بعد أن رأيت المسيح المضطجع في المذود تتركه لتسرح نظرك في النساء اللواتي يلعبن على المسرح. فأي عقاب لا تستحقه أعمالك هذه؟

٦ – قل لي، أصلحك الله، إذا وعدك أحد بأن يُدخلك القصر ويريك الملك وهو جالس على عرشه أتختار المسرح على هذا المشهد؟ على أنه ليس هناك ما يعود عليك بالأرباح، أمَّا هنا فيتفجّر من هذه المائدة ينبوع من نار روحي وأنت تتركه مع ذلك وتهرع إلى المسرح لتشاهد نساءً عاريات، مذلاّت لجنسهنّ، غير حافل بالمسيح الجالس عند ذلك الينبوع. ان المخلص لا يزال عند البئر يتحدث لا إلى السامرية بل إلى المدينة كلها، وقد لا يتحدّث الآن إلاّ إلى السامرية وحدها. لا يقيم الآن أحد بقربه. فبعضهم يقتصر على الحضور بالجسم فقط، وكثيرون لا يحضرون حتى ولا بالجسم. أما هو فلا يبرح مكانه ويظلّ مقيماً فيه ويسألنا أن نبرّد غليل عطشه، لا بماء بل بتقديسنا، لأنه يعطي الأقداس للقديسين. فمن هذا الينبوع لا يعطينا ماءً بل دماً هو في الحقيقة رمز الموت، ولكنه أصبح سبباً للحياة. وأنت تترك ينبوع الدم هذه الكأس الرهيبة، وتذهب إلى ينبوع الشيطان لتشاهد امرأة بغيًّا تعوم، ونفساً تغرق. لأن ذلك الماء هو بحر الخلاعة، حيث لا

تغرق الأجساد بل النفوس. ان البغيّ تعوم عارية الجسم، وأنت إذ تراها تهوي إلى قاع الشهوة، لأن أحبولة الشيطان إنما هي على هذا النحو، فهو يصطاد بها لا الذين ينزلون إلى البحر نفسه فحسب، بل الذين يلبثون جالسين على الشاطىء حيث يجرّهم إلى داخل البحر ويفتك بهم بأشد ما فُتِك به فرعون الغارق مع خيله ومركباته. فلو كان بوسعي أن أرى النفوس لأريتكم العدد الكثير منها يتقاذفها الغمر كما كان يتقاذف أجسام المصريين قديماً. ومما يزيد الأمر روعاً ان ما يدعونه لذّة ولهواً إنما هو دمار تام، وما يدعونه شاطئاً مرحاً إنما هو هاوية الهلاك. على أن اجتياز بحر إيجيه وتبرينه لآمن من التلهّي بمشاهد مثل هذه، لأن الشيطان يشغل النفوس في البدء بانتظار تلك الملاذ الوبيلة ومتى مثَّل أمامها ما كانت تنتظره لا يلبث أن يقيِّدها ويجعلها أسيرة له. فإن كنت لا تتصل بالمرأة الخالعة فلا تظننَّ أنك تبرأ من الخطيئة إذ قد ارتكبت الإثم في قلبك تماماً، وإذا أحرقتك نار الشهوة فلأنك أضرمتها، وإن كان ما تشاهده ليس له وقع في نفسك فلأَنت مستحق أشدّ اللوم، لأنك تكون سبب شك للقريب بجرِّك إيّاه إلى تلك المشاهد، فضلاً عن أنك تدنّس نظرك ثم نفسك.

فلكي لا نقتصر على ذمّ ما في هذا الشرّ من قبح، هيَّا لنبحث عن وسيلة لإصلاحه. ما هي هذه الوسيلة؟ اني ادع تأديبكم لنسائكم، مع انه كان عليكم أن تؤدبوهن وفقاً لشريعة بولس، لكن بما ان الخطيئة قلبت النظام رأساً على عقب فجعلت الرأس ينقاد للجسد لنختر على الأقل هذه الطريق. فإن كنت تخجل أن يكون مؤدّبك امرأة فاهرب من الخطيئة فلا تلبث أن تستعيد العرش الذي كان الله أعطاك إياه. فما دمت تعيش في الفساد يرسلك الكتاب لا إلى المرأة فقط، بل إلى العجماوات أيضاً، ولا يصدّه الحياء عن إرسال الرجل المشرف بالعقل إلى النملة ليكون تلميذاً لها. وذلك لا يكون ذنب الكتاب بل ذنب الذين يخونون شرفهم نفسه. غير اني أكل أمرك الآن إلى امرأتك. فإن ازدريت بها أرسلناك إلى مدرسة العجماوات وبيَّنَّا لك كم الطيور والأسماك وذوات الأربع والزحافات هي أشرف منك وأحكم. وإن انقبضت حياءً من هذا التشبيه وعَلَتْ وجهك حمرةُ الخجل عُدْ إلى شرفك الأول. وإذ تتمثّل بحر جهنم ونهر النار اهرب من حوض المسرح لأن هذا الحوض هو الذي يغذّي ذلك البحر ويقذف بك إلى جهنم النار.

٧ — «لأن من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى» (متى ٥: ٢٨). فكيف لا يؤخذ ألف مرة

بهذه الأحبولة من يتجاسر على التحديق بامرأة عارية؟ ان الطوفان لم يهلك من الجنس البشري على عهد نوح على قدر ما تهلك هؤلاء النساء بأعمالهنّ المخجلة أولئك الذين يتفرّسون فيهن. ان الطوفان الكبير باهلاكه الجسد عاون على تطهير النفس، أما هذا الطوفان فيفعل النقيض: يعفُّ عن الجسد ويهلك النفوس. حينما يدور الحديث على أمر الأوّلية ترون أنكم تستحقون التقدّم على العالم أجمع بحجّة أن مدينتكم هي أول مدينة لُقِّب فيها المسيحيون بهذا الاسم. وحينما يكون الجدال على أمر الحشمة فلا يصدّكم الحياء عن أن تتقدّم عليكم أحقر المدن. ورُبَّ قائلٍ أنك على صواب فماذا تأمر أن نصنع أفيجب أن نعتزل في الجبال ونصير رهباناً؟ اني لأجل هذا أكتئِب أي للاعتقاد السائد عندكم أن الحشمة والعفاف يفرضان على الرهبان وحدهم. على أن المسيح جعل من ذلك شريعة تعمّ كافة البشر. فحينما يقول: «من نظر إلى امرأة ليشتهيها» (متى ٥: ٢٨)، لا يوجّه هذا القول إلى الراهب وحده بل أيضاً إلى الرجل المتزوّج لأن الجبل الذي كان يتكلّم عليه كان حافلاً بهذه الفئة من الرجال.

تمثّل أمامك ذلك المسرح الإلهي فتمقت مسرح الشيطان ولا تنبذ كلامي كمبالغ فيه. لا أُزهِّد بالزواج ولا أنهى عن الاستمتاع به ولكني أريد أن يكون مقروناً بالعفاف لا موصوماً بالعار والشنار وألوف المعايب. لا أوجب عليك الاعتزال في الجبال والبراري، إنما أطلب فقط أن تمارس الاعتدال والحكمة وأنت مقيم في وسط المدينة. نحن والرهبان مقيّدون بالشرائع ذاتها، وكل شيء مشترك بيننا وبينهم ما عدا الزواج. بل ان بولس يطلب في هذا الصدد أن تساووهم في كل شيء إذ يقول: «ان وجه هذا العالم سيعبر فبقي أن يكون الذين لهم نساء كأنهم لا نساء لهم» (١ كورنثس ٧: ٢٩). يعني لا آمركم أن تحتلوا في قمم الجبال، ولو كان لي في هذا كل الرغبة، لأن المدن أخذت تقفو آثار صدوم، لكني لا أوجب عليكم ذلك. الزم بيتك مع أبنائك وامرأتك، لكن لا تشتم امرأتك، ولا تفسد أخلاق أبنائك، ولا تدخل مساوئ المسارح إلى بيتك. ألا اسمع بولس: «ان الرجل لا يتسلّط على جسده بل امرأته» (١ كورنثس ٧: ٤) والعكس. فان تردّدت امرأتك إلى الكنيسة ترهقها بلواذع الكلام، أما أنت فتقضي أيامك في المسارح وتحسب نفسك غير مستحق اللوم. أمَّا فيما يخص عفاف امرأتك فانك من الحرص بحيث لا تأذن لها بالخروج الذي لا بدّ لها منه، وأمّا أنت فتظن «أن كل شيء مباح لك». ان هذا المسلك لا يجيزه لك بولس لأنه يعطي المرأة نفس السلطة التي لك إذ يقول: «ليقضِ الرجل امرأته حقها»

(١ كورنثس ٧ : ٣). فأيّ حقّ تؤدّيه لها حينما تسلّم للأجنبية جسداً يخصّها هو جسدك، وحينما تدخل إلى بيتك الشغب والحرب، وحينما تأتي في المحل العام أعمالاً لو رويتها في البيت تنقبض امرأتك حياءً منها، وتستر ابنتك وجهها خجلاً، وأنت نفسك تستحي منها أمامها؟ لأنك إذا لم ترد أن تصم نفسك بالعار فما لك إلاّ السكوت عن أمور يحق لك أن تضرب خدّامك بالعصيّ لو أتوا مثلها. قل لي، أصلحك الله، أي عذر تستطيع أن تنتحله لتصف باهتمام كثير ما تأبى أنت نفسك أن تصفه وما لا يجوز وصفه تؤثره على كل شيء..

اني أقف عند هذا الحد من الكلام لئلاَّ يملّ سمعكم فإن بقيتم في غيّكم سأُمعن في القطع جاعلاً كلامي أصعب من الحديد. ولن أكفّ حتى أقلب مسرح الشيطان، وأُطهِّر اجتماع كنيستنا، وهكذا ننبذ عنا مخازينا القائمة، ونستحق الحياة المستقبلة بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزّة إلى أبد الآباد. آمين.

٧
عظة
في هرب المسيح إلى مصر

١ – فكيف يقول لنا لوقا ان الصبي كان مضطجعاً في المذود؟ لأنّ أمّه على أثر ولادته أضجعته فيه. فانه لما كان جمهور كبير من اليهود يتواردون للاكتتاب لم يكن في الوسع وجود بيت. وهي لم تكد تبلغ بيت لحم حتى وضعت ابنها. وقد ألمع لوقا إلى ذلك قائلاً: «وأضجعته في مذود لأنه لم يكن لها موضع في المنزل» (لوقا ٢ : ٧). ثم أخذته وجعلته على ركبتيها. لتعلم أن في هذا أيضاً التدبير الإلهي كلّه وان ذلك لم يحدث صدفة وبدون غاية بل كل شيء تمَّ بعناية الهيّة ووفقاً للنظام الذي أخبر عنه الأنبياء. وإلاَّ فما الذي حفز المجوس إلى السجود قدّام الصبي. فلا العذراء كانت شائعة الذكر ولا كان البيت شهيراً، ولا كان شيء آخر من شأنه أن يدهش الناظرين ويجذبهم إليه. وهؤلاء لم يسجدوا فحسب بل أيضاً فتحوا كنوزهم وقدّموا هدايا، لا لإنسان بل لإله، لأن اللبان والمرّ كانا رمزَي الألوهة. فما الذي حفزهم إذاً؟ هو ما أعدَّهم لمغادرة بلادهم والقيام برحلة شاقة، هو ذاك النجم وذلك النور الذي أمدّ الله به عقولهم والذي كان يقودهم قليلاً فقليلاً إلى

المعرفة التامة ، وإلاّ لما أبدوا اكراماً بهذا المقدار عظيماً في حين أن كل الأمور كانت تبدو لهم وضيعة. فانه لم يكن هنالك شيء محسوس له شأن سوى مذود وكوخ وأمّ فقيرة تعتمد عليه فلسفة المجوس الحقّة وتقنعهم أنهم يتقدّمون إلى الصبي لا كأنه إنسان بسيط بل كإله ومحسن. لذلك لم يشككوا في شيء من الأشياء الظاهرة هنالك بل بالحري كانوا يسجدون ويقدّمون تقادم خالية من غلاظة تقادم اليهود. فلم يذبحوا خرفاناً وثيراناً ، بل الفلسفة المسيحية هي التي كانت تقرّب تلك التقادم لأنهم قرّبوا اعترافاً وطاعة ومحبة. ثم «أوحي إليهم في الحلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس فرجعوا في طريق أخرى إلى بلادهم». تأمّل قوّة إيمانهم كيف لم يشككوا بل كيف كان في خلقهم لين ودماثة. لم يقلقوا ولم يقل بعضهم لبعض : إذا كان هذا الصبي ذا شأن عظيم وله بعض السلطة فلماذا يلجأ إلى الهرب والرحيل سرًّا؟ ولماذا يخرجنا الملاك من المدينة كشاردين وتائهين مع أننا قدمنا علانية ووقفنا بجرأة أمام شعب عظيم وملك أحمق؟ لا لم يقولوا شيئاً ولا خطر لهم ما يماثل ذلك. لأن علامة الثقة الخاصة هي العمل بالأوامر دون بحث عن تبعاتها.

«ولمّا انصرفوا إذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً قم فخذ الصبي وأمّه واهرب إلى مصر». تعترضنا هنا صعوبة تتّصل بالمجوس والصبي. ان المجوس لم يقلقوا بل تقبّلوا كل شيء بإيمان. فيجدر بنا هنا أن نتساءل : بما أن المجوس كانوا حاضرين فلماذا لم ينقذوا الصبي بل عادوا هم إلى بلادهم ، ورحل هذا مع أمه إلى مصر؟ لكن ماذا؟ أكان يلزم أن يقع بين يدي هيرودس ولا يجهز عليه وهو أسيره؟ إذن لما تمثّل في النفس انه اتخذ جسداً حقيقيًّا ، ولما ثبتت حقيقة التجسّد. لأنه إذا اجترأ قوم أن يذهبوا إلى أن تجسّد المخلص لم يكن سوى خرافة بعد تلك الحوادث ، ومع أفعال شتى تدبّرت بنوع بشري ، فأين يبلغ بهم الكفر لو فعل كل شيء بصفته إلهاً وبحسب قدرته. ان الله عجّلَ أن يخرج المجوس أولاً ليعودوا إلى بلادهم ليذيعوا ما شاهدوا ويتلافى هو غضب الطاغية ، فيعلم هذا انه يقدم على أعمال لا قبل له على إتمامها ، وتخمد نيران غضبه فينثني عن عزمه الباطل. فان الله قادر ليس فقط أن ينتصر على أعدائه بالقوة ، بل أيضاً أن يخدعهم بسهولة. على هذا النحو خدع المصريين لخير اليهود حينما كان بوسعه أن ينقل ثروتهم إلى اليهود جهراً. لكنه شاء أن يتم هذا الأمر بالخفاء ، الشيء الذي لم يجعله أقلّ مهابة عند أعدائه من سائر عجائبه.

٢ — إن أهل أشقالون وغيرهم ، لما وضعوا أيديهم على التابوت فضربهم الله ،

كانوا يحضُّون سكان نواحيهم على أن لا يحاربوا أخصامهم ولا يقاوموهم جاعلين هذه الأعجوبة إلى جانب سائر الأعاجيب فقالوا : «لماذا تقسّون قلوبكم كما قسّى المصريون وفرعون قلوبهم؟ أليس انه بعد إن شفى منهم غليله خلّوا سبيلهم فانطلقوا» (١ ملوك ٦ :٦). فكانوا يقولون هذا لتبيان قدرة الله وعظمته ، معتقدين أن هذه الأعجوبة لا تقلّ عن سائر الأعاجيب التي صنعت جهراً. الأمر الذي وقع هنا أيضاً والذي كان من شأنه أن يروع الطاغية. فتأمل ما كان أشدّ امتعاض هيرودس وأية حزازة أحسّ بها في قلبه حينما رأى نفسه قد خدع وهزئ به. لكن ما الفائدة إن لم يصلح نفسه. ليس الذنب ذنب من دبّر هذه الأمور ، إنما الذنب كله على ذلك الذي لم يذعن إلى هذا الدافع الخلاصي وأبى حمقُه إلّا أن ينبذ المعونة التي كان من شأنها أن تغريه وتنشله من قاع فساده فاندفع في طريق الشرّ لينال عقاباً عن حمقه شديداً أليماً.

وقائلٍ لماذا أُرسل الصبي إلى مصر؟ لم يلبث الإنجيلي أن قال لنا السبب «لتتم الكلمة القائلة : من مصر دعوت ابني» (هوشع ١١ :١). وقد كان إرسال الصبي إلى مصر ، والمجوس إلى بلاد فارس ، مقدّمة تبشّر المسكونة بأمان طيبة. لأن بابل ومصر كانتا تصطليان بنار الكفر أكثر من كل بقعة في الأرض ، فأعلن المسيح منذ البدء أنه سيصلحها كليهما ، ويحسن أخلاقهما ، وبهما يحقق الخير المنتظر للعالم كله. لأجل هذا السبب أرسل المجوس ، وهبط هو مع أمه إلى مصر. ومما قلناه يمكننا أن نحصل أدباً آخر من شأنه أن يرقى بنا إلى فلسفة غير ضئيلة. وما هو هذا الأدب؟ هو توقّع المحن والمكايد منذ البداية. دقّق النظر فيما جرى للمسيح إذ كان في اللفائف. لأنه حينما وُلد ثار ثائر طاغية ، وحدث هرب وانتقال إلى خارج الحدود ، وأُمه نُفيت إلى بلاد البرابرة دون ما ذنب. دقّق النظر في هذا حتى إذا ما سمعت ذلك ، وكنت مكلّفاً خدمة روحية ، ثم اعترضتك عقبات كاداء ، وتحملت أخطاراً شتى ، لا تقلق ولا تقل ما هذا. كان يلزم أن أكلَّل ويُشاد بذكري وأن أكون لامعاً وطائر الشهرة ، لأني أقوم بعمل إلهي. تمثّل بالمسيح وأمه ، واحتمل بصدر رحب ، واعلم أن خدمة الأعمال الروحية نصيبها المحن التي تلازمها في كل مكان. ثم لاحظ أن ذلك لم يحدث لأُم الصبي وحدها بل حدث كذلك لأولئك البرابرة. فأما هؤلاء فقد انطلقوا خلسة منسحبين بنظام ، وأما مريم التي ما غادرت قط منزلها ، فقد اضطرت أن تعاني سفراً طويلاً شاقًّا لسبب واحد هو أنها وضعت صبيًّا عجيباً. تأملْ كذلك هذا الأمر المدهش أن فلسطين تتآمر عليه بينما مصر تتلقّاه وتجعله بمنجى من

الأخطار. لا تُلاحَظ الصوَر والرموز في أبناء يعقوب فقط وإنما تُلاحَظ أيضاً في السيد الرب. إن ما حدث نظراً إليه وأُخبر به عنه يمثّل أشياء كثيرة قد تمَّت فيما بعد. مثال ذلك الأتان والجحش. وكذلك الملاك لا يخاطب مريم وإنما يخاطب يوسف. وما يقول؟ «قم فخذ الصبي وأمه» (متى ١ : ٢٠) فلا يضيف هنا: «امرأتك» وإنما قال: «أمه». فبمَا أن الولادة تمّت، وانتفى الريب، وأشرق في الرجل نور اليقين، يتكلم الملاك بصراحة. فلا الصبي ولا أمه يخصّان يوسف «خذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر». ثم يدلي بسبب الهرب قائلاً: «لأن هيرودس مزمع أن يطلب نفس الصبي».

٣ – لم يشكِّك يوسف سَمَاعُ هذا الكلام، ولم يقل انّ هذا الأمر من الأحاجي. قد قلت لي «سيخلّص شعبه» (متى ١ :٢٢). وها هو الآن لا يستطيع أن يخلّص نفسه، وها نحن مضطرّون إلى الهرب والرحيل إلى بلاد نائية. وكل هذا إنما جاء على خلاف الوعد... لكنه لم يقل من هذا شيئاً. لأن هذا الرجل كان ذا إيمان لا يضعف، فلم يحاول معرفة موعد الرجوع، وان عبر الملاك تعبيراً مبهماً إذ قال: «وكن هناك إلى أن أقول لك». ولم يبطئ يوسف لأجل هذا السبب، بل أطاع وخضع لساعته، محتملاً بفرح كل المحن. لأنّ الله المحبّ البشر رطَّب أتعابه الشاقة بحلاوة التعزية. وهذا ما يصنعه مع جميع القديسين. فلا يشاء أن يظلّوا في خطر مستمر، ولا في راحة دائمة، لكنه يزرع حياة الصديقين تارة بالحزن، وطوراً بالفرح. وهذا ما يجب أن تلاحظه في يوسف: شاهدَ العذراء حاملاً فقلق وحار في أمره لما داخله فيها من الريب، لكن ما لبث أن وقف به الملاك فبدّد شكوكه وأزال عنه ما حلَّ به من الخوف. ولما رأى المولود هزَّه السرور ثم تبدّل سروره بالقلق حينما اضطربت المدينة وامتلأ الملك غضباً، وسعى في قتل الصبي. ثم تبدّل القلق بالسرور عند ظهور النجم وسجود المجوس. ثم بعد السرور عاد الخوف والخطر «لأن هيرودس يطلب نفس الصبي». بحسب تعبير الملاك. ومن جديد أمر الملاك يوسف أن يهرب ويسير في طريق المنفى، كأنه لم يكن هناك سوى أمر بشري، وكأنّ المسيح لم يكن بعدُ يجب أن يصنع الأعاجيب. على انه لو صنعها في أول عمره لما صدّق أحد أنه إنسان.

لأجل ذلك لا يُصنع هيكل دفعة واحدة بل يبدأ الحبل أولاً ثم الحمل تسعة أشهر فالمخاض فالولادة. فالقوّة تبلغ كمالها مدى السنين وبادراك الحدّ اللازم من العمر للرجال ليكون سرّ التجسّد بنجوة من الطعن. قد تقولون لماذا كانت تلك الأعاجيب من البدء؟ كانت لأجل مريم ويوسف وسمعان المزمع أن يغادر الأرض. لأجل الرعاة، لأجل

المجوس، لأجل اليهود. فلو أراد هؤلاء أن يعيروا ما كان يتمُّ أُذناً صاغية لجنوا منه خيراً لمستقبل الأيام. وإذا لم يقل الأنبياء شيئاً عن المجوس فلا تقلق. لأنهم لم يقولوا كل شيء ولم يسكتوا عن كل شيء. فلو لم يقولوا شيئاً لأَدهشت الناسَ رؤيةُ الحوادث الفجائية وأقلقتهم. ولو عرف الناس كل شيء من قبلُ لظلّوا غائصين في سبات عميق، ولكانت مهمة الإنجيليين لا فائدة منها.

وان اعترض اليهود على هذه النبؤة: «من مصر دعوت ابني» زاعمين أنها قيلت عنهم، نجبْهم بأن الأنبياء كان من عادتهم أن يقولوا أشياء عن أشخاص، ولكنها تتمُّ في سواهم. خذ مثلاً ما قيل عن شمعون ولاوي: «أُقسِّمها في يعقوب وأُفرِّقها في اسرائيل» (تكوين ٤٩: ٧). على ان هذه النبؤة تمّت في ذريتها لا فيها بالذات. وكذلك ما تنبّأ به نوح عن كنعان فتمَّ في أهل جبع نسل كنعان. وما تنبّأ به يعقوب نفسه إذ تلك البركات القائلة: «كن سيّد أخيك وليسجد لك أبناء أبيك» (تكوين ٢٧: ٢٩)، لم تتم إلاّ في ذريته. وكيف يمكن أن يكون هو المقصود بها وقد كان يَوجَل ويتورَّع من أخيه وكثيراً ما كان يسجد قدامه؟ فها هوذا ما يمكن أن يطبَّق على النبؤة التي نحن بصددها. لأنه من أحق أن يدعى ابن الله؟ أَذاك الذي سجد للعجل الذهبي وأُدخل إلى بعل فاغور وضحَّى بأبنائه للشياطين، أم الذي هو ابن بطبعه، ولم يكرم الذي ولده؟ فلو لم يأتِ هذا الابن لما بلغت النبؤة هدفها المقصود.

٤ — فانظر كيف يعبِّر الإنجيلي عن فكره، حينما يقول: «لكي يتمّ المقول» مبيِّناً أنّ هذا القول لم يتمّ لو لم يأتِ المسيح. وليس من قبيل الصدفة، أنّ ذلك يشهر العذراء ويزيد بكرامتها. لأن الشيء الذي استطاع شعب برمّته أن يناله من المديح لنفسه كان يمكن أن تناله هي أيضاً. ان اليهود كانوا يذكرون بالفخر خروجهم من مصر ويتباهون به، الأمر الذي يلمع إليه النبي إذ صرخ: «ألستم لي كبني الكوشيين يا بني اسرائيل يقول الرب. ألم أُخرِج اسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور وآرام قير» (عاموس ٩: ٧). ان هذا الفخر إنما كان للبتول أن تحوزه وحدها، لأن هبوط الشعب وأبي الآباء يعقوب إلى مصر وخروجهم منها. لم يكونا سوى رمز لرحيلها المزدوج. فهم انطلقوا إلى مصر تخلُّصاً من الجوع الذي كان يتهدّدهم بالموت، والمسيح هبط إليها هرباً من المكايد. هم بلغوا تلك البلاد فنجوا من الجوع، وهو بهربه إليها قدّسها كلها. فتأمل كيف تبدو الألوهة تحت ظواهر البشرية الوضيعة. ولما قال الملاك اهرب إلى مصر، لم يعدهما بأن يرافقها لا في

الذهاب ، ولا في الأياب ، مبيِّناً أن أعظم رفيق لها هو الصبي الطفل نفسه ، الذي عند ظهوره غيَّرَ كل ما في العالم ، بل جعل من أعدائه خدّاماً ومعاونين لتدبيره الإلهي ، فإن برابرة تركوا خرافاتهم القديمة ، وجاءوا ليسجدوا له ، وأغسطس قيصر ساعد على مولد بيت لحم بإصدار أمره للاكتتاب ، ومصر تلقّت المسيح الهارب وخلَّصته من الحبائل المنصوبة له ، وقطعت معه عهداً وديًّا حتى إذا ما سمعته يعظ بواسطة رسله يكون لها الفخر بأنها أول من تلقته بين سائر البلدان. على ان هذا الامتياز إنما كان لفلسطين وحدها ان تتمتع به ، لكن مصر كانت أشدّ حرارة منها.

الدرس الخلقي

فاذا ما طُفْتَ صحراء مصر تجدها أجمل جنّات العالم ، وانك لترى فيها أجواقاً كثيرة من الملائكة بشكل بشري ، وفرقاً من الشهداء وجماعات من العذارى لا تحصى ، ترى طغيان الشيطان قد كسرت شوكته ، والمسيح يتجلى بكل مجده. مصر هذه أُمُّ الشعراء والفلاسفة وعلماء الفلك التي ابتدعت كل ضروب السحر ونقلته إلى سائر الأمم ، تراها الآن تجعل فخرها في الصيادين وتعبث بكل التقاليد الشيطانية التي كان يتورّع منها آباؤها ، وتحف في كل مكان بعَشَّار وخيَّام جاعلة الصليب في طليعة كل شيء. وهذه الأمور الصالحة ليست في المدن فقط بل أيضاً في الصحارى أكثر مما هي في المدن. فانك ترى في كل مكان من تلك البلاد جيش المسيح وقطيعه الملكي وحياة القوات السماوية ، وتلك الأمور يجدها المرء متغلّبة ليس في الرجال وحدهم بل في الطبع الأنثوي نفسه. وفي الحقيقة ان تلك النساء لا يبدين من الفلسفة أقل مما يبدي الرجال. نعم إنهنَّ لا يلبسنَ الدرع ولا يمتطينَ ظهور الخيل كما يرسم الشهيرون من مشترعي اليونان وفلاسفتهم لكنهنَّ يتلقَّين حرباً أخرى أشدّ هولاً لأن الحرب التي يصلين نارها ضد الشيطان وقوات الظلمة إنما هي مشتركة بينهنَّ وبين الرجال. على ان ضعف طبيعتهن لا يحول أبداً دون اشتراكهن في نضال رمزي مثل هذا. لأن المعوَّل فيه على عزم النفس لا على قوة الأجسام. فلذلك كثيراً ما تُبلي النساء بلاء أشدّ من بلاء الرجال وتعرض أبهج الغنائم. ان السماء بأجواقها المتنوعة ليست أجمل من صحراء مصر ، وهي على هذا الشكل ، إذ ترينا مناسك الرهبان في كل مكان.

٥ — فمن يعرف مصر القديمة محاربة الله الحمقاء ، عابدة القطط ، التي كانت

تنحني أمام البصل رهبةً واحتراماً، يدرك حق الادراك قدرة المسيح. بل ليس من اللازم أن يكون المرء متضلعاً من تاريخ العاديات، إذ آثار ذلك الشعب الغبي لا تزال تدلّ على خرقه القديم. لكن أولئك الذين بلغوا أقصى حدود الحمق والخرق ها هم يرتدّون عن غيّهم، ويزدرون بعادات أجدادهم، ويندبون شقاء الأجيال السالفة، ويعتبرون تعاليم فلاسفتهم أقوالاً لا معنى لها. والحوادث نفسها علّمتهم أنّ معتقداتهم القديمة لم تكن سوى ابتداع عقيم تمثل في أدمغتهم بفعل تجار السكر، وان الفلسفة الحقّة الحرية وحدها بالسماوات إنما هي التعاليم التي بشّرهم بها أولئك الصيادون الفقراء، ومن هذه المعرفة التامة لتلك التعاليم الصادقة نشأ كمال عيشتهم العجيبة، فزهدوا بالدنيا وصلبوا ذواتهم للعالم بل ذهبوا إلى ما أبعد فشغلوا جزءًا كبيراً من أوقاتهم في أعمال يدوية شاقّة لإعانة الفقراء. فإذا كانوا يصومون ويسهرون فلم ينبذوا العمل، إذ كانوا يحيون الليالي في ترتيل التسابيح الإلهية. وكانوا يقضون النهار في الصلاة بينما كانت أيديهم تعمل للبرّ مقتدين بغيرة القديس بولس. فكانوا يقولون في ذواتهم: إذا كان هذا الرجل الذي أُسندت إليه العناية بالمسكونة لم يأنف أن يمارس مهنة ويعمل لتعزية الفقراء واسعافهم، بحيث يحيي الليالي ولا وسن ولا نوم، أفلا يجدر بنا، نحن الذين نعيش في الوحدة بمعزل عن ضوضاء المدن وضجيجها، أن نشغل أوقات الفراغ في العكوف على الأعمال الروحية؟

لنخجل كلنا أيها الفقراء والأغنياء، إذ ننظر إلى أولئك النسّاك الذين لم يملكوا شيئاً سوى أيديهم وجسدهم، وهذا الجسد إنما كان وسيلة يتوسّلون بها لإنشاء مورد لإعانة السائلين، بينما في بيوتنا طائفة من الأشياء نحن بغنًى عنها، ونأبى إعطاءها للبائسين. ألا قولوا لي أي عذر نستطيع أن ننتحله بل أيّ صفح نرجوه؟ ثم تأمل كيف كان هؤلاء الزاهدون قبلاً مبتَلَين بداء حب المال وشرَه الطعام وغير ذلك من الرذائل. هنالك كانت القدور الكبيرة المليئة باللحوم. هنالك كان يسود سلطان الشهوات الحسيّة. على أنهم لما شاءوا تبدّلوا فاضطرموا بتلك النار التي أتى بها المسيح إلى الأرض، وما لبثوا أن طاروا إلى السماء. الذين كانوا أشد ميلاً إلى الشرّ من سواهم وتسلّطت عليهم ثورة الغضب والشهوة، أولئك هم أنفسهم أصبحوا يتبارون الآن مع القوات المجرّدة عن الجسد باعتدالهم واتباع سائر مبادىء الفلسفة. فكل مَن زار تلك الناحية يدرك ما أقول... ومَن لم يهبط إلى تلك المناسك فليتذكر ذاك الذي لا يزال حيًّا في أجسام الجميع إلى اليوم الذي أنشأته البلاد المصرية بعد أن زارها الرسل. هو انطونيوس الكبير السعيد... وليعتبر

انه عاش في بلاد كان فيها فرعون نفسه ، لكنه مع ذلك لم تَهِن عزيمته في شيء ، بل أُهِّل أيضاً للرؤيا الإلهية وسار في حياته كما تقتضي شرائع المسيح وسَيَعْرِف هذا من يتصفّح بتدقيق الكتاب الذي يحتوي على تاريخ حياته حيث يجد أيضاً نبوّات شتى ، إذ كان هذا القديس قد تنبّأ عن الوباء الأريوسي وعن الضرر الذي سيجرُّه وراءه. وكان الله يريه مستقبل الأمور ويرسمها له قدام عينيه. وهذا برهان على الحقيقة قاطع ، يضاف إلى البراهين الأخرى ، يبين أنه لا يمكن أن يكون عند الأريوسيين الخارجين رجلٌ مثلُ هذا. فلكي لا تسمعوا ذلك منا طالعوا ما ورد في هذا الكتاب تعلموا منهُ تفاصيل حياة ذلك القديس وتتأدّبوا من ثم بفلسفة وافرة سامية. انني أدعوكم إلى هذا لا لنقبل على هذا الكتاب فحسب ، بل أيضاً لنغار مما ورد فيه على الاقتداء به دون ما نظر إلى اختلاف البلاد أو التربية أو فساد أخلاق بلادنا. لأننا إذا شئنا أن نمعن النظر في الدروس التي يلقيها علينا فلا شيء من ذلك يستطيع أن يحول دوننا. ان ابراهيم كان أبوه كافراً لكنه لم يأبه لهذه الصعوبة. وكان حزقيا ابناً لآحاز فلم يصدّه هذا عن أن يكون صديقاً لله. ويوسف الذي كان يعيش في مصر نفسها قد كُلِّل بأكاليل الطهر. والفتية الثلاثة بلغوا أعلى قمم الكمال في مدينة بابل المعروفة بكثرة الشرور في قصر الملك نفسه ، وعلى مائدته الفاخرة. وموسى في مصر ، وبولس في العالم أجمع ، ذلّلا كل العقبات لمواصلة السير في طريق الفضيلة.

فإذ نتمثّل في ذهننا كل هذه الأمثال فلنقصِ عنا كل تلك الحجج والأعذار ولا ننثنِ أمام أعراق الفضيلة ومتاعبها لأننا إذا ما فعلنا ذلك نحرز أكبر نصيب من فضل الله ونستوثق من أيده في النضال ونحوز الأكاليل الأبدية. فعسى أن يكون لنا ذلك بنعمة سيدنا يسوع المسيح ومحبته للبشر الذي له المجد والعزّة إلى الأبد. آمين.

٨
عظة
في قتل الأطفال ورجوع المسيح من مصر

١ – لم يكن جديراً بهيرودس أن يغضب بل أن يرتعش ويعتدل ويدرك أنه يقدم

على أمور لا قِبَل له على إتمامها. غير انه لم يحبس عنان نفسه لأن النفس متى كانت غبيّة ولا يرجى بُرؤُها لا ينفعها الدواء الذي يعطيه الله نفسه. فانظر إلى هذا الملك كيف يصرّ على أعماله الأولى واصلاً جناية بجناية ومندفعاً إلى الهاوية في كل مكان. وإذ أصبح كأن شيطان الغضب والحسد قد لعب في رأسه فلا يحسب لشيء حساباً بل يثور ضد الطبيعة نفسها. وهذا الغضب الذي بات يزفر في صدره على المجوس الذين خدعوه يصبُّ جامه على الصبيان الأبرياء مجدداً في فلسطين تلك المأساة التي جرت وقائعها في مصر لأنه «أرسل فقتل كل صبيان بيت لحم وجميع تخومها من ابن سنتين فما دون على حسب الزمان الذي تحققه من المجوس». أعيروني هنا أُذناً صاغية. ان كثيرين يفرطون في الكلام عن هؤلاء الصبيان زاعمين أن في هذه الحوادث ظلماً. فطائفة منهم يحاربون رأفةً بهم، وطائفة أخرى تأخذهم نوبة السخط والحمق. فلكي ننقذ الطائفة الثانية من جنونها، والأولى من حيرتها اصبروا قليلاً على ما نقوله لكم في هذا الصدد. فإذا ما اتهموا العناية الإلهية بأنها لم تبالِ بأمر قتل الصبيان فبوسعهم أن يتهموها أيضاً بقتل الجنود الذين كانوا يحرسون بطرس. لأنه كما ان الصبي لما هرب يومئذٍ إلى مصر لاقى آخرون حتفهم مكانه. كذلك حينما أخرج الملاك بطرس من السجن ونزع عنه السلاسل بحث سميُّ ذلك الطاغية وشبيهه في خلقه عن السجين، وإذ لم يجده قتل مكانه الجنود الذين كانوا يحرسونه. تقولون ما هذا الجواب؟ انه لا يحل المسألة بل هو إضافة تزيدها تعقيداً. اني أعلم هذا أيضاً ولأجل ذلك أبرز الأمور المتشابهة كلها في آنٍ واحد وأجعل لها كلها حلاًّ واحداً.

وما هو حلُّها؟ وأي قول مقبول نستطيع أن نقول؟ نقول ان المسيح لم يكن السبب في قتل أولئك الصبيان، بل قسوة الملك. كما لم يكن بطرس سبب قتل أولئك الجنود بل عَتَهُ هيرودس. لأن هذا الطاغية لو رأَى في الجدار ثغرة أو شاهد الأبواب مفتوحة لأَمكنه أن يتهم الجنود الذين كانوا يحرسون الرسول. أما وقد كان كل شيء على حالته إذ كانت الأبواب لا تزال مغلقة والسلاسل مشدودة إلى أيدي الحرّاس لأن السجين كان مقيّداً، فقد كان بوسعه أن يستنتج من ذلك، لو عدَلَ في حكمه على الحوادث، انه لم يكن هنالك أمر بشري ولا تواطؤ بين السجين والحراس، بل قوة إلهيّة عجيبة. وحينئذٍ كان يجب عليه أن يسجد لصانع تلك الآيات بدل أن يشهر حرباً ضد الحراس الأبرياء. وقد صنع الله كل ما صنع لا لينقذ الحراس فقط بل ليهدي بهم الملك إلى الحقيقة. فإذا كان هذا الملك جحوداً فليس ذلك ذنب طبيب النفوس الحكيم الذي لم يدع وسيلة

ليصلح بها ما فسد من خلق هذا المريض. فيجب أن نقول الشيء نفسه عن أمر الصبيان – فلماذا تحنق يا هيرودس إذا كان المجوس سخروا بك؟ ألم تعلم أن المولد كان إلهيًّا؟ ألم تدعُ أنت نفسك رؤساء الكهنة؟ ألم تجمع علماء الناموس؟ ألم يوضحوا أمام ديوانك النبوءة التي أخبرت من قبل عن هذه الحوادث؟ ألم ترَ الأمور القديمة تنطبق على الأمور الحديثة؟ ألم تسمع أن نجماً يثبت النبوءة؟ ألم تحترم غيرة البرابرة؟ ألم تدهش لجرأتهم وثبات عزمهم؟ ألم يرهبك أن النبوءة قد صدقت؟ ألم تدرك النهاية من البداية؟ فلماذا لم تستخلص بذاتك من كافة هذه الأمور ان ما جرى لك مع المجوس لم يكن خدعة منهم وإنما كان فعل قدرة إلهيّة قد دبّرت كل ما يجب أن يكون؟ وهب أن المجوس خدعوك فلماذا قتلت الصبيان ولا جناح عليهم؟

٢ – انكم تقولون نعم لقد أصبت وأفحمت هيرودس وأوضحت أنه قاتل لا يبرأ من اللوم، ولكنك لم تحل الاعتراض بعدُ على الفعل ذاته من حيث هو ظلم. فإذا كان هذا الرجل ظالماً فلماذا سمح الله بالظلم؟ بماذا أُجيب على ذلك؟ أُجيب بما لم أفتأ أقول في الكنيسة وفي كل مكان وهو ما أريد أن تحرصوا عليه كل الحرص. لأنه يوجد قاعدة عامة تطبق على كل صعوبة تعرض لنا مثل هذه. وما هي القاعدة وما هو الحل؟ ان كثيرين يظلمون ولا أحد يطيق الظلم. فلكي لا يقلقكم هذا اللغز أُبادر إلى حلّه. إنَّ ما نعانيه ظلماً من أي كان من الناس يحسبه الله إمّا للتكفير عن خطايانا أو لزيادة أجرنا فتوضيحاً لهذه القضية أُقدّم لكم مثلاً: لنفرض أن عبداً مَدين بمال كثير لسيّده وان هذا العبد اعتدى عليه أُناسٌ أشرار فسُلِبَ قسماً كبيراً من مقتنياته، فلو ان سيّده القادر على صدّ السالب الطمّاع لم يستوفِ ماله ذاك، وحَسِبَ الأشياء المسلوبة ممَّا يلتزم به العبد نحوه فهل يكون هذا العبد مظلوماً؟ كلا. وما قولك لو عوّض عليه بأكثر مما فقد؟ أفلم يربح ربحاً عظيماً؟ إن ذلك لأمر بيِّن. فلنعتقد أن الأمر نفسه يكون لنا مما نعانيه نحن أيضاً. اننا لأجل ما ينالنا من الأذى إمَّا نكفر عن خطايانا وإمّا نحرز أكلّة برّاقة إذا لم نكن مثقلين بالخطايا. هذا اسمعوه من بولس حيث يوجّه كلامه نحو الزاني قائلاً: «سلّموا مثل هذا إلى الشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح» (١ كورنثس ٥:٥). وربما تقولون وأي علاقة هنا بهذا النص؟ كان الكلام يدور حول الأضرار التي تلحق بنا من سوانا لا على ما يصلحنا به مؤدّبونا. نعم ليس هذا مدار البحث بل كان البحث عمَّا إذا كان تحمّل الأذى لا يضرّ بمن يتحمّله. لكن لكي أسوق كلامي إلى ما هو أقرب إلى موضوع البحث، تذكر داود

الذي حينما أبصر يومئذٍ شمعي يسير في أثره ويعيره بمصائبه ويقذفه بشتى الشتائم. رَدَّ جماح قوّاده الذين كانوا يريدون القضاء عليه. وقال لهم: «دعوه يلعن لعلَّ الرب ينظر إلى مذلّتي ويجزيني خيراً عن لعن هذا لي اليوم» (٢ ملوك ١٦: ١١ و١٢). وكان يقول منشداً في أحد مزاميره: «أنظر إلى أعدائي لأنهم قد كثروا وأبغضوني ظلماً واغفر جميع خطاياي» (مزمور ٢٤: ١٨ و١٩). وان لعازر يتمتّع براحة أبدية لأنه تحمَّل عذاباً كثيراً في هذه الحياة. فالذين يبدو أنهم مهانون لا يكونون كذلك إذا ما احتملوا النائبات بثبات جنان لأنهم يجنون منها نفعاً كبيراً سواء أجاءت الضربة من الله أم من الشيطان. — ولعلكم تقولون أية خطيئة ارتكبها الصبيان ليكفّروا عنها؟ ان هذا الجواب ينطبق على الذين هم في عمر ارتكبوا فيه خطايا كثيرة فهذا أمر معروف. أما الذين لا يزالون في صبائهم فعن أي خطايا كثيرة يكفرون بهذه النوائب؟ أما سمعتموني أقول ان الأجر يزداد لمن يتحمّلونها إن لم يكونوا مثقلين بالخطايا؟

فأيّ ضررٍ إذاً لحق بهؤلاء الصبيان الذين قُتلوا لأجل هذه القضية ودخلوا سريعاً إلى الميناء الهادىء؟ قد تقولون أيضاً انهم كانوا يستطيعون أن يحوزوا أجوراً كثيرة لو أمدَّ الله بعمرهم. لكن ليس بالشيء القليل ما استحق لهم موتهم من الأجور لأجل قضية مثل هذه. وإلاَّ لما سمح الله أن تنتزعهم المنون لو قُيِّض لهم فيمَا بعد أن يكونوا رجالاً عظاماً. إذا كان يحتمل بطول أناته أولئك الذين تنقضي حياتهم في الإثم فانه بالأحرى لا يسمح بأن يهلك أولئك الصبيان قبل الأوان لو كانوا أُعِدّوا لأعمال خطيرة.

٣ — هذه هي بعض الأسباب التي لدينا لا كلها إنما يوجد غيرها بعيدة المنال يعلم بها ذاك الذي يدبر هذه الأمور. فاجتناباً للخوض في أمور هي على غاية من الغموض والدقّة لنتمسّك نحن بما سأبسط لكم فيما يلي ولنتعلّم بمصائب غيرنا أن نتحمّل بالصبر (لأن المأساة التي اجتاحت يومئذٍ بيت لحم ليست أمراً ضئيلاً إذ الصبيان انتزعوا من ثُديّ أمهاتهم وأُخذوا إلى تلك المجزرة الجائرة). فاذا كانت نفسك في منتهى الضعف، وتقصر عن بلوغ هذه الفلسفة السامية، لتكن نهاية هذه الجنايات على الأقلّ عبرة لك، وخفّف عن نفسك بعض الشيء، لأن الانتقام لم يلبث أن حلَّ بهيرودس، وأنزلَ به أشدّ العقوبة جزاء ما قدمت يداه إذ مني بموت شنيع يدعو إلى الرثاء ترافقه ألوف من الويلات، الشيء الذي بوسعك أن تتحققه إذا طالعت كتاب يوسيفوس المؤرخ، هذا الكتاب الذي لا آتي على تفاصيله هنا لئلاَّ نطيل عليكم هذا الخطاب أو نقطع اتصال سلكه.

«حينئذٍ تمَّ المقول بارميا النبي القائل: صوت سمع بالرامة. بكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على بنيها وقد أبت أن تتعزّى لأنهم ليسوا بالوجود» (ارميا ٣١: ١٥). فالإنجيلي إذاً ملأ قلوب مستمعيه فَرَقاً إذ وصف لهم تلك المجزرة الهائلة الظالمة الوحشية الأثيمة. فهو يعود يعزّيهم قائلاً انّ تلك الحوادث لم تتمّ ضد قدرة الله وبغير علمه بل سبق فعرفها وأخبر عنها بواسطة نبيّه. فلا تضطرب ولا تهن عزيمتك بل بالحري حوِّل بصرك إلى عنايته التي يتعذّر وصفها، والتي تبدو خصوصاً سواء في ما يفعل أو في ما يسمح به. وهذا ما عبَّر عنه هو نفسه في محل آخر إذ كان يتحدّث إلى تلاميذه لما سبق فاعلن لهم أنهم سيسلمون إلى المحافل ويُقادون إلى الموت وان العالم سيبغضهم ويصليهم حرباً لا هدنة فيها. فكان يقوي عزائمهم ويعزّي نفوسهم قائلاً: «أليس عصفوران يباعان بفلس، ومع ذلك فواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم الذي في السماوات» (متى ١٠: ٢٩). فكان يقول لهم ذلك مبيِّناً أنه لا يتم شيء هو جاهله، لكنه يعلم كل شيء ويفعل كل شيء. فهو يقول لا تضطربوا ولا تقلقوا لأن الذي يعلم ما تعانونه ويستطيع منعه، لا يمنعه لأنه يدرك استعدادكم ويعتني بكم، الأمر الذي يجب أن نفكر به إبَّان المِحَن.

وقائلٍ أي شركة لراحيل مع بيت لحم؟ وربما يسأل أحد أيضاً ما محلّ هذا القول: «راحيل تبكي على بنيها» وأي شركة للرامة مع راحيل؟ كانت راحيل أُمّ بنيامين ولما ماتت دُفنت في مرماح سبق الخيل بجوار هذه البلدة. فلما كان قبرها قريباً وداخلاً في نصيب ابنها بنيامين (لأن الرامة كانت في قبيلة بنيامين) كان الإنجيلي على صواب إذ يدعو الصبيان المقتولين بني راحيل نظراً إلى رئيس القبيلة وإلى مكان قبر أمه. ثم بعد إذ يبيّن ان ذلك الجرح كان بليغاً لا يبرأ يقول: «وقد أبت أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين». ان ذلك يعلمنا أيضاً ما كنت أقول لكم قبيل هذا وهو أن لا نضطرب حينما يحلّ بنا ما يخالف وعد الله. فذاك الذي جاء لخلاص شعبه بل لخلاص العالم ماذا كانت أوائله: أمه تلجأ إلى الهرب، وطنه يقع في شدائد لا يمكن التغلب عليها، واجتُرئ فيه على قتل أشد مرارةً من كل قتل، بكاء وعويل كثير ونحيب في كل مكان. لكن لا تقلق لأن الله يروق له دائماً أن تتم تدابيره بما يناقضها إذ يعطينا بذلك دليلاً قاطعاً على قدرته. على هذا النحو هذَّب تلاميذه وأعدَّهم ليحسنوا العمل في كل شيء مدبراً الضد بالضد لتكون الأعجوبة أعظم وأبين. حتى اذا ما جُلدوا هم أيضاً وطُردوا وتحمّلوا ضروب الشدائد ينتصرون على جلاّديهم وطارديهم.

٤ — «فلما مات هيرودس إذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً: قم فخذ الصبي وأمهُ

واذهب إلى الأرض اسرائيل». لم يعد يقول اهرب بل اذهب. أترى الراحة تعود بعد الشدّة؟ ثم الخطر بعد الراحة؟ لأن المسيح بعد عودتِه من المنفى إلى بلاده وجد أن قاتل الصبيان قُتل، إلا أنه بعد عودته هذه وجد بقايا الأخطار السالفة إذ كان ابن الطاغية لا يزال حيًّا ومالكاً. وكيف كان يملك اركيلاوس على اليهودية بينما كان بيلاطس البنطي والياً عليها؟ إن وفاة هيرودس كانت قريبة العهد ولم تكن المملكة قد تجزأت بعد. لكن لمَّا قضى ذلك الملك أجلَه لم يلبث ابنه أن ملك مكان هيرودس أبيه لأن أركيلاوس كان له أخ اسمه هيرودس وكان يملك على الجليل. لهذا السبب أعقب الإنجيلي «مكان هيرودس أبيه». فاذا كان المسيح يخاف أن يقيم في اليهودية بسبب أركيلاوس فكان ينبغي أن يخاف أيضاً أن يقيم في الجليل بسبب هيرودس. فلكي يخفي خبره كان عليه أن يغيّر مُقامه لأن الطغيان كان على أشدّه ضد بيت لحم وتخومها. فبعد وقوع المذبحة خُيِّل إلى أركيلاَّوس ابن السفاح أن كل شيء قد انتهى وان الصبي المطلوب قُتل بين الكثيرين. ولما رأى من ناحية أخرى، أنّ أباه قد أنهى حياته على ذلك النحو، أصبح يتورّع من التمادي في مخالفة الشريعة والنضال ضدّها. فجاء يوسف إلى الناصرة إمَّا هرباً من الخطر وإمَّا حبًّا لوطنه. فلكي يزداد اطمئناناً يتقبّل من الملاك إشارة بهذا الخصوص. بيد أن لوقا لا يقول ذهب بإشارة إلى هناك بل انه بعد تتميم كافة مراسيم التطهير رجع إلى الناصرة. فماذا يعني هذا القول؟ ان لوقا يقول هذا مخبراً عن الزمن الذي سبق الانحدار إلى مصر لأن يوسف لم يذهب بهما إلى هناك قبل التطهير. إذ لا يتمّ شيء مخالف للناموس بل بقي ليتمم مراسيم التطهير ويذهب إلى الناصرة وآنذاك ينزل إلى مصر. ثم بعد مغادرتهم هذه البلاد يأمرهم الملاك بالرجوع إلى الناصرة. وفي المرة الأولى لم يشر إليه الملاك بالمجيء إليها بل فعلوا ذلك من تلقاء ذاتهم رغبة في الإقامة في وطنهم وبما انهما لم يصعدا إلى بيت لحم لسبب آخر إلاّ للاكتتاب فضلاً عن أنه لم يكن لها هنالك منزل يقيمون فيه، فبعد أن أتمَّا ما صعدا لأجله عادا إلى الناصرة.

فلأجل تلك الأسباب اذاً يهدئ الملاك روعهم ويعيدهم من مصر إلى منزلهم ولم يفعل ذلك عبثاً بل لكي يتمّ المقول بالأنبياء «انه يدعى ناصريًّا». وأي نبي قال هذا؟ لا تسأل ولا تبحث بلا جدوى. ان كثيراً من الكتب النبوية قد فُقد كما يمكن أن يلاحظ في سفر الأيام. لأن اليهود بسبب إهمالهم وسقوطهم أكثر الأحيان في هاوية الكفر فقدوا بعضها وأحرقوا هم أنفسهم أو قطَّعوا البعض الآخر. وارميا يخبرنا عن أحد تلك

الأشياء، ويخبرنا عن بقيّة الكتاب الرابع من سفر الملوك إذ يقول: ان تثنية الاشتراع المفقود والمخفي في أحد الأماكن لم يعثر عليه إلاّ بعد مشقّة كبيرة وزمن طويل. فإن كانوا يهملون كتبهم هكذا وليس من بربري بينهم فبالأحرى كثيراً لما غزاهم البرابرة.

ثم بما أن الأنبياء سبقوا فتكلموا عن ذلك كان الرسل يدعونهُ في أكثر الأحيان ناصريًّا. قد يقول احدكم ان ذلك يبهم النبوءة المختصة ببيت لحم. لا لعمري ان الغاية من ذلك تنبيه الناس وحفزهم إلى البحث عما يقال عن المسيح. هكذا يقبل نثنائيل مستخبراً عنه: «هل يخرج من الناصرة شيء صالح» (يوحنا ١٠ : ٤٦)؟ وفي الواقع أن تلك الناحية كانت حقيرة أو بالحري ليس تلك الناحية وحدها بل أيضاً نواحي الجليل كلها. لذلك كان يقول الفريسيون: «اسأل وانظر، انه لم يقم نبي من الجليل» (يوحنا ٧ : ٥٢). ومع ذلك هو لم يأنف أن ينتسب إلى وطنه. مبيِّناً من ثم انه لا يحتاج إلى معونة البشر وانه يختار تلاميذه أنفسهم من الجليل مفنّداً حجج الذين يميلون إلى الكنيسة ومبيِّناً في الوقت نفسه أن الأشياء الخارجية ليست ضرورية لنا. لهذا السبب لم يتخذ له منزلاً فهو نفسه يقول: «ان ابن البشر ليس له موضع يسند إليه رأسه» (لوقا ٩ : ٥٨). ولهذا السبب نفسِهِ هرب لما ائتمر عليه هيرودس، ولما ولد واضجع في مذود، ولمَّا لزم مقرّه اتخذ له أمًّا فقيرة، معلِّماً إيّاناً بذلك كله أن لا نزدري بشيء وانه داس الكبرياء البشرية منذ الأوائل ودعانا إلى التمسّك بأهداب الفضيلة وحدها.

٥ — فيبدو أنه يقول لنا: ما بالك تفاخر في وطنك حينما أدعوك لتكون غريباً على وجه الأرض، حينما يكون بوسعك أن تكون بحيث لا يكون العالم كله جديراً بك. لأن الأشياء الأرضية هي من الهوان بحيث لم تستحق كلمة من فلاسفة اليونان وليس لها في نظرهم سوى المقام الأخير. أما بولس فلا يأباها لأنه يقول: «وأمّا من جهة الانتخاب فهم أحياء من أجل الآباء» (رومة ١١ : ٢٨). ولكن قل لي متى ولمن يوجّه الرسول كلامه وبالأحرى من يخص به؟ انه يوجّه كلامه إلى الذين من الأمم المعجبين بإيمانهم الذين كانوا يحتقرون اليهود ويقاطعونهم فكان يريد أن يطمئن من كبر أولئك ويجذب إليه هؤلاء مثيراً في الجميع شعوراً واحداً. وحينما يتكلم عن أولئك الرجال الكرام رجال العهد القديم، اسمع كيف يصفهم: «والذين يقولون مثل ذلك يوضحون أنهم يطلبون وطنهم ولو أنهم ذكروا الوطن الذي خرجوا منه لكان لهم سبيل للعودة إليه لكنهم يشتاقون الآن وطناً أفضل» (عبرانيين ١١ : ١٤ و ١٦). وقد قال قبل هذا: «بالإيمان مات أولئك كلهم غير حاصلين على المواعد بل إنما

نظروها وحيَّوها من بعيد» (عبرانيين ١٤ : ١٣). ويوحنا كان يقول للذين يقبلون إليه : «ولا تجعلوا تقولون أن أبانا إبرهيم» (لوقا ٣ : ٨). وبولس يقول أيضاً في هذا الصدد : «لأنه ليس جميع الذين من اسرائيل هم اسرائيليون ولا أبناء الجسد هم أبناء الله» (رومة ٩ : ٦).

الدرس الخلقي

لعمري قل لي ماذا استفاد أولاد صموئيل من شرف أبيهم وهم لم يرثوا من فضيلته، وماذا ربح أولاد موسى وهم لم يقتدوا باستقامته؟ لأنهم لم يرثوا سلطته ولا بوجه من الوجوه. فبينما كانوا يدعون باسم أبيهم كانت قيادة الشعب تنتقل إلى آخر أضحى ابناً له بالفضيلة. وما ضرَّ تيموثاوس انه وُلد من أبٍ يوناني؟ وماذا ربح ابن نوح من فضيلة أبيه وقد أمسى عبداً بعد أن كان حرًّا. أرأيت أن شرف الأب لا يشفع بالبنين؟ لأن فساد الإرادة يطغى على نواميس الطبيعة، فلم ينزع منه شرف أبيه فقط بل حريته أيضاً. ألم يكن عيسو ابن اسحق وله الأفضلية الأبوية؟ فقد كان أبوه يسعى ويرغب أن يأخذ نصيبه من بركاته وكان هو نفسه يعمل كل ما هو مرسوم بهذا الخصوص، لكن مع ذلك إذ كان شكس الأخلاق لم يستفد من ذلك شيئاً. ولما كان هو البكر بحكم الطبع وكان أبوه يعمل كل شيء ليساعده على بلوغ مرامه فبما أن الله لم يكن معه فشل في جميع الأمور. ولماذا أتكلم عن أبناء البشر؟ فقد كان اليهود أبناء الله ولم يستفيدوا شيئاً من هذا الشرف. فلو صار أحدٌ ابن الله يعاقب عقاباً شديداً إن لم يظهر فضيلة تعادل هذا الشرف. فلماذا تقدم لي عظمة أصلك ومجد أجدادك؟

ان هذا الدرس لا يوجد في العهد القديم فقط بل في العهد الجديد أيضاً. إليك ما نقرأ فيه : «أما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً لأن يكونوا أبناء الله» (يوحنا ١ : ١٢). ومع ذلك فقد أكّد بولس أن كثيرين من هؤلاء لا ينتفعون في شيء عند الله فهو يقول : «انكم إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» (غلاطية ٥ : ٢). فاذا كان المسيح لا ينفع الذين لا يُعنَون بنفوسهم شيئاً فكيف يحميهم إنسان؟ فلا نتباهَ إذاً بحَسبنا ولا بغنانا بل بالحري لنزدرِ الذين هم من هذا الطراز. ولا تَخُرْ قوانا بازاء الفقر بل لنَجدّ وراء ذلك الغنى الذي هو في الأعمال الصالحة. ولنهرب من الغنى الذي يلقينا في الشرّ والذي كان بهِ ذلك الغنيّ معوزاً، ومن ثم لم يستطع أن يحصل على قطرة من الماء بالرغم من توسّله الكثير. فمن منّا هو في حالة من الفاقة بحيث يتعذّر عليه أن يتمتع على الأقل بالماء؟ لا أحد. ان الذين يذوبون جوعاً

يستطيعون أن يحصلوا على قطرة ماء، لا على قطرة فحسب، بل أيضاً على تعزيات أخرى أكثر منها. أمَّا ذلك الغني فلم يكن كذلك بل بلغ حدًّا من الفقر والعذاب بحيث لم يستطع أن يتعزّى في عوزه ولا بوسيلةٍ ما. فلماذا نفغر فاهنا للقِنى إذا كان لا يدخلنا السماء. قل لي، أصلحك الله، لو قال أحد ملوك الأرض أن الغني لا يستطيع أن يلمع في بلاطه أو أن يتمتّع ببعض الكرامات أفلا تطرحون كلكم ما لديكم من الثروة مزدرين بها؟ انك تمتهن هذه الثروة إذاً لأنها تغلق دونك أبواب الكرامات والقصور الأرضية على ان ملك السماوات يصرخ كل يوم ويقول انه يمتنع علينا ولوج أروقة ذلك القصر إن كنا مثقَّلين بالثروة ومع ذلك فلا نزيل هذا المانع لندخل إلى البلاط السماوي.

٦ – فأيّ صفح نستحقّه إذا كنا نحرص كل الحرص على الأشياء التي تسدّ في وجهنا ذلك المدخل وذلك لا بتخبئتها في صناديق بل في بطن الأرض أيضاً. على انه في وسعنا أن نكل حراستها إلى السماء. فكأنك تفعل ذلك فعل فلاح يأخذ البذار ليزرعه في حقل مخصب فيترك الحقل ويلقي البذار كله في بحيرة، فلا هو يستفيد والبذار يفسد ويتلف. فأيّ بيّنة يستطيع أن يُدلي لنا بها هؤلاء حينما نتّهمهم بذلك؟ يجيبون أنه ليس بالتعزية القليلة أن نعلم أن تلك الأشياء مخبّأة في مكان أمين. فالجهل إذاً بأنها مخبّأة إنما هو تعزية. إن كنت لا تخشى الجوع فلا بدّ أنك تخشى مضرّات أخرى أشدّ على هذا المخبإ كالموت والحروب والتآمر. فلو حدث جوع يهجم الشعب على منزلك بالسلاح مدفوعاً بعامل الاحتياج إلى الأكل، فضلاً عن أنك بعملك هذا تدخل المجاعة إلى المدينة وتجعل في بيتك مصيبة أشدّ هولاً من المجاعة.

لا أعرف أُناساً داهمهم الموت بسبب الجوع لأنه من الممكن ابتداع وسائل متنوعة لتخفيف وطأة هذا البلاء. على انني أستطيع أن أذكر لكم أسماء كثيرين هلكوا بسبب أموالهم وثرواتهم وأشياء أخرى مثل هذه، بعضهم في الخفاء وبعضهم علانية. فالطرق والمحاكم وساحات مدننا والبحر نفسه زاخرة بالدماء. وهذا الطغيان لا يجتاح الأرض وحدها بل يدوّخ المحيط أيضاً. ففريق من الناس يُبحرون طمعاً في الذهب، وفريق آخر يُقتَلون بسببه، وهو ذاتهُ يدفع أولئك إلى التجارة وهؤلاء إلى الموت. فأيّ شيء أقلّ أمناً من المال الذي يدفع الإنسان إلى الأسفار ويعرّضهُ للأخطار والقتل.

لكن الكتاب يقول: «من يرحم الراقي إذا لدغته الحية؟» (الجامعة ١٠: ١٢). فيتحتم على الذين يعلمون بهذا الطاغية العاتي أن يهربوا من استعباده ويزهدوا بهذا الحب الوبيل.

وقد تسألونني وكيف نستطيع إلى ذلك سبيلاً؟ بأن تجعل في قلبك حبًّا آخر، حب السماوات. من يرغب في الملك يمتهن البخل والذي جعل نفسه عبداً للمسيح لا يكون عبداً للمال بل سيِّدهُ. لأن المال من شأنه أن يجري وراء مَن يهرب منهُ ويهرب ممَّن يجري وراءَهُ. انه لا يهاب مَن يجري وراءه بقدر ما يهاب من يزدري به ولا يهزأ بأحد بقدر ما يهزأ بمن يرغبون فيه. ولا يهزأ بهم فحسب بل يكبّلهم بألوف من القيود.

لنقطع هذه القيود ولو جئنا ربما متأخرين. فلماذا تجعل نفسك العاقلة مستعبدة لمادة غير عاقلة هي أم شرور كثيرة؟ انه لأمر يدعو إلى السخرية!.. نحن نحارب المادة بالكلام أما هي فتحاربنا بالأفعال. تجرّنا وراءها أيَّانَ ذهبت وتجعلنا حولها كقطيع ابتاعته وتوسعه ضرباً. فأي شيء ادعى إلى الخجل والهوان! فإن لم نتغلّب على المادة غير العاقلة فكيف نتغلّب على القوات غير المتجسّمة؟ إن لم نزدرِ بالمادة الحقيرة والحجارة المنبوذة فكيف نخضع الرئاسات والسلطات، وكيف نتعفّف؟ إذا كان المال يبهرنا فكيف نستطيع أن لا نبالي بوجه جميل. ولعمري ان بعض الناس هم من الشغف بهذا الطاغية بحيث تأخذهم هزّة من منظر الذهب فيقولون مازحين: إن بريق قطعة ذهبية ينفع العيون. أيها الإنسان لا تمزح هكذا فلا شيء يضرّ العيون، عيون الجسد وعيون النفس مثل الشهوة التي تثيرها تلك الأشياء. إن ذلك الحب الشديد هو الذي أطفأ مصابيح تلك العذارى وأخرجهنَّ من بيت العروس. هذا المنظر الذي ينفع العيون بحسب زعمك هو الذي لم يدع يهوذا يستمع إلى صوت سيّده، وهو الذي حمله على شنق نفسه وتقطيع أحشائه، ثم ألقاه فوق ذلك في جهنم. فأي شيء أفظع إثماً! وأي شيء أشدّ هولاً! إني لا أتكلم عن جوهر الخيرات المادية بل عن حبها حبًّا في غير محله يذهب بالعقل. لأن هذا الحب يستنزف دماء الناس ويوحي بالقتل، وهو أشد وحشية من الحيوان، ويمزق كل منخدع به. ومما هو شرٌّ من ذلك أنه لا يدع المرء يحسّ بتقلّص أعصابه. فبينما أن المبتلين بهذا الشر يلتزمون بأن يمدّوا أيديهم إلى المارّة ويدعوهم إلى نجدتهم فتراهم يفرحون بقروحهم. فأيُّ شيء أدعى إلى الرثاء!.

فإذا أدركتم كل هذه الحقائق فلنهرب من هذا الداء العضال. لنداوِ ما أصبنا به، ولنبتعد عن هذا الوباء حتى نقضي في هذه الدنيا حياة آمنة هادئة، ونحرز الكنوز المقبلة التي نرجو أن ننالها بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي له المحبة والعزّة إلى أبد الآباد. آمين.

الفصل الثاني عشر

مُناسَبات مُختَلِفَة

١

خطبة
على سقطة اتروب

انه لجدير بنا أن نصيح أبداً، ولا سيما هذه الساعة: «باطل الأباطيل، كل شيء باطل». فأين تُرى شارات القنصليَّة وعزّها الباذخ؟ أين تلكم المصابيح المتألقة؟ إلامَ آلَ ذلك التصفيق، وأجواق المغنِّين والمادحين، وتلك المآدب الحافلة؟ أين الأكاليل والرياش الفاخر؟ أين جلَبة المدينة، والتحيَّات في ميادين السباق، وتملّقات المتفرّجين؟ كلها قد ذهبت. عصفت ريح شديدة فنثرت أوراق الشجر وأبرزتها لنا مَسلوبة عريانة، مُزعزَعة من جذورها؛ لأن الريح قد اشتدّ اصطدامها فزلزلت العروق وكادت تقتلع الدوحة من أصولها*. أين الأصدقاء المداجون؟ أين مجالس الشراب، والمآدب الفاخرة؟ أين حشد الواغلين[١]، وصرف المُدام المنسكبة مدى النهار؟ أين أفانين الطُهاة المتلوّنة، وخدم العَظَمة، مَن ترمي كلٌّ أقوالهم وأعمالهم إلى تصيُّد النِّعَم؟ كلُّها كانت ليلاً وحُلماً، توارت عند طلوع النهار؛ زهور ربيعيَّة ذوَت بعدما انقضت أُويقات الربيع؛ ظلٌّ امَّحى؛ دخان تبدَّد؛ حَبَبٌ ذاب؛ خيوط عنكبوت وهت[٢]!

فلا مندوحة إذاً عن الإشادة والهُتاف بكلمة الروح دون انقطاع: «باطل الأباطيل، كلٌّ شيء باطل». فلَتلك آية ينبغي أن ترسم على الجدران، والثياب، في الشوارع والبيوت، على المسالك والأبواب، وفي ملتقى الطرقات؛ وان تنقش قبلاً، في ضمير كلّ واحد منّا وان نُدمن الهذيذ بها. وبما أن الخداع والرئاء والمدالسة شَدَّ ما تتزيّا لأكثر الناس بزيّ الحقيقة، ألا فليردّدْ كلّ واحد لقريبه هذه الكلمة كلّ يوم، وقتَ العشاء والغداء وفي أثناء الأحاديث، وليستمعها كلٌّ من قريبه أن «باطل الأباطيل، كلٌّ شيء باطل».

ألم أكن أصيحُ بك إلحاحاً ، أن الغنى زائل؟ فلَم تتحمَّل كلامنا. أَلم أقل لك انه خادم غامط الإحسان؟ فلم تصدّق. فها إن تجارب الدهر أرتكَ انه عبدٌ آبق جاحد للجميل ، بل انه لقَتول ؛ فهو الذي هيَّأَ لك هذه الرجفة والجزَع. ألم أقل لك يوم كنت تأخذ عليَّ صراحة قولي ، اني ، مع توبيخي لك ، أحبك أكثر من أولئك الدجَّالين ، واني أهتم لشأنك أكثر من الذين كنت تصبُّ عليهم إحساناتك؟ أوَلم أبسط ازآء ناظريك هذه الكلمات «ان جراحات الأصدقاء خير من قُبَل الأعداء؟» فلو تحمَّلت جراحاتي لما خلَّفت لك قبلاتهم هذا الموت الزؤام ، لأنَّ جراحاتي تتضمَّن الصحة ، أما قبلاتهم فتنشئ علَّةً ليس منها شفاء(٣).

أين ندماؤك الآن؟ أين مَن كانوا يَفْرون الجموع أمامك في الشوارع(٤) ، وهم يَنُثُّون مدائحك على سمع تلك الجماهير الملتفة؟ فلقد جفوك ، وأنكروا صداقتك ، وهم يَنشُدون طمأنينتهم في بلابلك. على أن تصرّفنا معك لم يكن هكذا ؛ لأننا في تجبُّرك لم نزورَّ عنك ، وفي سقوطك الآن نَحميك ونشملك بعنايتنا. ان الكنيسة التي اضطهدتها تفتح أحضانها لتتقبَّلك ، أما المسارح التي لم تدَّخر عنها عنايتك ، وبذلك قد أثرت مراراً حنقك علينا ، فقد خانتك وأردتْكَ. إلاّ أنَّا لم نفتأ نقول لك : ما هذا الذي تعمل؟ فيثور ثائرك على الكنيسة ، وتهوي بنفسك في المهاوي ، عابثاً بكل شيء. ان السباقات بعد أن بذَّرت ثروتك قد حدَّدت لك شَباة السيف ، أما الكنيسة التي تحمَّلت سخطك الغاشم ، فانها تتوسَّل بكل وسيلة ، لتستنقذك من الأشراك.

ولا أقول هذا لأشتم(٥) الصريع ، بل قصد أن أُوطِّد الواقفين ، ولا لأنكأ كُلوم هذا المرتجف ، بل لأصون مَن لم تمسَّهم كوارث الدهر ، في الصحة والأمان ، ولا لأغرّق هذا المتخبِّط بين الأمواج ، إنما لأُرشد الذين تجري بهم ريح مؤاتية ، لئلاَّ يدهمهم الغرق. وكيف ذلك؟ – بتأملنا في تقلّبات الأحوال البشرية. فلو خشي هذا تحوُّلها لما انقلب شرَّ مُنقلب.

فإذا كان هو لم يرعوِ لنُصح الأقارب ، ولا الأباعد ، فاستفيدوا أنتم على الأقل ، من كارثته ، يا أيها المنتفخون بأموالكم. انه لا أوهى من الأمور البشرية. لذلك مهما أطلقنا على حقارتها من اسم ، فلا نزال دون الحقيقة ، سَواء أدعوناها دخاناً ، أم عشباً ، أم حُلماً ، أم زهوراً ربيعيَّة ، أم نحو ذلك ؛ انها لحقيرة وأخسُّ من لا شيء(٦).

وانها مع حقارتها لتكنفها المهاوي ، كما يستبين من خلال هذه الكارثة. فمن كان أرفع

منه عزًّا؟ ألم يسمُ الورى طراً بغناه؟ ألم يرقَ أعلى ذُرى المجد؟ ألم يخشه الجميع حتى ارتعدت فرائصهم هلعاً؟ فهوذا قد غدا أشدَّ شقاء من الأسرى، وأولى بالرحمة من العبيد، وأوفر فاقة من المتضوّرين جوعاً. كلَّ يوم يرى السيوف تحدَّد له، ويتمثَّل حفيرة الردى، والجلاَّدين، والسبيل إلى النطع، فلا يظفر من غابر سعادته بطائل، ان كان قد عرف السعادة قط؛ ولا يلمح من أشعتها شعاعاً، لكنه، في رائعة النهار، محبوس كأنما في ظلمة داجنة، وقد كُفَّ بصره. ومهما غالينا في القول، فهيهات منّا تصوير ما يعتلج في صدره من الألم، في حين يتوقَّع كل ساعة ضرب هامته (٧).

ولكن ما الحاجة إلى وصف حاله بالكلام وقد مثَّلها هو لنا، كأنما في صورة ناصعة الألوان؟ فلمَّا قَدِمَ بالأمس رُسُل القصر الملكي، وفي عزمهم أن ينتزعوه عَنوة، ولجأ معتصماً بذرى الهيكل المقدس، كان شاحب اللون، لا يختلف في شيء عن صورة الموت. وكانت أسنانه تصطكُّ وكلُّ جسمه يرتعش ويتقصَّف، وصوته يتهدَّج، ولسانه يتلجلج، فكأنما سَحنته تنبىء بتحوُّل نفسه إلى تراب. ولا أُورد هذا تشفِّياً به، أو تعريضاً برزيئته، وإنما أقصد أن أُليِّن قلوبكم، وأن أَعطِفكم إلى الرحمة، لأُريكم أن في هذه العقوبة كفاية (٨).

وبما أن بيننا كثيرين قد ذهبت بهم القسوة إلى حد أن أقبلوا علينا باللوم لإجارتنا له في المقدس، فلكي أستعطف هؤلاء بتبيان الحوادث، قد اطنبتُ في وصف آلامه. فقل لي ما الذي يغضبك، أيها الحبيب؟ تجيب: إنه استجار بالكنيسة وهو الذي ما فتئ يحاربها. بل يجب أن تمجّد الله لهذا الأمر بعينه، لأنه سمح أن يقع في مُلمَّة اضطرته أن يُدرك بها ما قدرة الكنيسة ورحمتها (٩): أما قدرة الكنيسة، فلأنَّ ما حلَّ به من حادثات الدهر كان لتعمُّده محاربتها؛ وأمَّا رحمتها، فلأنها بعد مقاساتها جَوره العنيف تستره الآن بمجنِّها، وتبسط فوقه أجنحة حنانها، وتنزله من كنفها في معقل حصين، من غير أن تذكر شيئاً من قديم جرائمه؛ بل تبسط له أحضانها بعطف لا مزيد عليه.

تلك غنيمة من أجَلّ الغنائم، ذلك هو فوز مُبين، يفحم اليونانيين ويخزي اليهود، ويردُّ مُحيَّا الكنيسة أكثر تلألؤاً واشراقاً، لأنها ترحِّب بعدوّها الفتَّاك صافحة عن مظالمه؛ ولمَّا غادره الجميع في وحشة الجفاء، بادرت هي وحدها كالأُم الحنون، فآوته إلى ظل رحمتها، مستهدفة لغضب الملك، وسخط الشعب، وحقده القتَّال. أجل إن تلك لزينة تزيّن المذبح. تقول: أيُّ زينة ترى! رجلٌ عاهر، مطماع، سلاَّب، يمسُّ قداسة المذبح؟

— أَقصر يا هذا ، فان امرأة أثيمة ، ساقطة ، مهذارة قد لمست قدمَي المسيح ، من غير أن يُحسب ذلك إثماً على يسوع ، بل كان له مدعاة عجب ، وثناء جَم . فلم تؤذِ الفاسدة طهارة الطاهر ، ولكنَّ الطاهر والقدُّوس هو الذي طهَّر الفاسدة حين مسَّته . إليك عن الحقد أيها الإنسان ، فإنما نحن خدَّام المصلوب القائل : «اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يعلمون[١٠] (لو ٢٣ : ٣٤) .

بيد أن تقول[١١] : انه هو الذي ألغى هذه العِصمة بما بثَّ من الرسائل ، وسنَّ من الشرائع . فها إنَّ عوادي الدهر قد بصَّرته مساءَة عمله ، فكان أول ناقضٍ لما قد أبرم بالأمس ، وصار مشهداً لأهل الأرض ؛ وكأني به في صمته يطلق صوته محذِّراً[١٢] : ألا لا تفعلوا فعلي ، فلا يدرككم شقائي . فلقد غدا من تجارب الدهر استاذاً ؛ وإنه لينشر على المذبح نوراً عظيماً ، فيبدو لنا الآن شديد المهابة ، وقد ضبط الأسد مغلولاً ! فمهما تكن العظمة الملكية باهرة الجلالة ، فليس ذلك عندما يستوي المليك على عرشه ، لابساً البرفير ومتعصِّباً بالتاج فقط ؛ بل عندما يتساقط البرابرة على أقدامه الملكية ، وأيديهم مصفَّدة إلى الوراء ، وهاماتهم مطأطأة إلى الحضيض . ولست أغرُّكم بسحر البيان ، فأنتم شهود بغيرتكم وازدحام جموعكم . فأيُّمَا مشهد يتجلَّى لنا اليوم ، وما هذا الحفل الحاشد ! فلا أرى اليوم في هذا المكان جمعاً أقلّ مما أشهد في حفلات الفصح المقدسة . فكأن هذا بصمته هذا قد أهاب[١٣] بجموعكم ، مطلقاً صوْته بأرفع من صوت البوق ، من بين نوائب دهره ؛ فخرجت العذارى من خدورها ، والنساء من مقاصيرها ، وأخلى الرجال الشوارع ، وأوفضتم جميعاً إلى هنا لتشهدوا الطبيعة البشرية مفحمةً ، ولتلمسوا زوال أمور الحياة عارياً مكشوفاً ، وهذه الصفحة العاهرة[١٤] ، الوضاءة منذ لمحة — وتلك عُقبى السعادة الناجمة عن الطمع — تبدو أشدَّ قباحة من عجوز شمطاء ، مغضَّنة الجبين ، وقد مَسحت يد الدهر كأنما باسفنجة خِضابها وتزاويقها .

فلقد جَلَّ خَطب الدهر حتى كوَّن من رَجُل السعادة والشهرة أشقى مخلوق بين الورى . فان كان من غنيٍّ فليدخل ، فان له عِبرة عظيمة ، فمتى رأى من كان يهزُّ الأرض قاطبة قد حُطَّ من شُرُفات عزّه ، وتقبَّض من الذعر ، فغدا أجبنَ من أرنب ، وأخوفَ من ضفدع[١٥] ، مشدوداً إلى هذا الركن بلا وُثُق ، مقيَّداً بالهول بلا قيود ، فرقاً ، مرتعشاً ، فإنه يخفِّض من غُلوائه ويَنفُض عنه الترف ، وينظر إلى الحياة البشرية نظرة الحكيم العاقل ، فيدرك من خلال رزايا الدهر ما تقوله الكتب المقدسة ان : «كل بشر عشب وكل

مجده كزهر العشب، العشب قد يبس وزهره قد سقط – وانهم يُقطعون سريعاً كالخضر، ويذبلون كطريء العشب – وإن أيامه كالدخان» (اش ٤٠: ٧ – مز ٣٦: ٢ – مز ١٠١: ٤) وأمثال هذه. والفقير فليُقبل بدوره، فانه إذا نظر إلى هذا المشهد يكفُّ عن ازدراء نفسه، ولا يعود يتأوَّه في فقره، بل يدرك فضل الفاقة، لأنها حمى طيِّب، ومرفأ هادئ، وحصن منيع، ولو خُيِّر بعد هذا المشهد، لاختار البقاء في فقره على أن يحشد خيرات الدنيا، لمحةَ طَرف ثم يستهدفَ لهدْر دمه. أوَرأيتم ما ينجمُ من كبير الفائدة للأغنياء والفقراء، للخاملين والعظماء، للعبيد والأحرار، من استجارة هذا[16] بمعبدنا؟ أشهدتم كيف ينال كل واحد دواءه ويمضي من هنا متعافياً، بمجرَّد نظرة إلى هذا المشهد؟ أوَتراني أثرت عطفكم وأزلت سخطكم؟ هل استللت القسوة من نفوسكم؟ وهل عطفتكم إلى الرحمة؟ تحدثني نفسي بذلك، واستشف بوارق الأمل من خلال وجوهكم ودموعكم المنهمرة[17]. فأمَّا وقد تحوَّلت الصخرة إلى أرض عميقة، وتربة خصيبة، فهيَّا بنا نثمر ثمر الحنوّ، مُطلعين سنابل مليئة بالرحمة، ولنبادر إلى القيصر، بل فلندعُ إلى الله الرحيم أن يهدِّئ غضب الملك، ويرقِّق فؤاده ليهبنا مغفرة تامة.

أجل فلقد تقلَّبت الأحوال منذ ما استجار المسكين بهذا المقدس، تقلباً عظيماً؛ فإن الملك لمَّا عرف أنه بلغ هذا الملجأ الحصين، وقد وفد إليه الجيش ثائراً متحمِّساً ينادي بقتله، قد أطال الخطاب إليهم ليسرِّي من غضبهم، راجياً أن لا يذكروا السيئات فقط، بل ما قد يكون أتاه من الحسنات، وأن يُجزى بها. ولقد اعترف بما له من الفضل، متناسياً ما فرط منه، ترفقاً بالضعف البشري. ولما كانوا يلجُّون في الائتار لإهانة الملك، ويصيحون ويطفِرون حنقاً متعمِّدين موته، وهم يهزُّون رماحهم العوالي، فالقيصر قد سكب الدموع الغزيرة من عينيه الشفيقتين[18] مذكِّراً بحرمة الهيكل المقدّس الذي استجار به؛ وهكذا أخمد ثائرة غضبهم.

لنصنعن نحن ما يخصنا عمله. فمن يستوجب منكم الغفران، إذا كان المليك نفسه وهو المهان، لم يذّكر الإهانة، في حين أنكم وأنتم لم ينل أحدكم شيء من هذا[19]، تجاهرون بالغضب؟ كيف تقتربون، متى انفضَّ هذا الحشد، من الأسرار الإلهية، وتقولون تلك الصلاة التي أُمرنا بتلاوتها «اغفر لنا، كما نغفر نحن لمن أساء إلينا» (مت ٦: ١٢) وأنتم تتقاضون عقاب من أجرم إليكم؟ هل تجاوز في جوركم وإرهاقكم كل حد؟ لا أدري، وإنما أعلم انه ليس الآن وقت العدالة، بل الرحمة؛ ولا العقاب، بل المحبة،

ولا الفحص ، بل المغفرة ، ولا الاستنطاق ، ولا الخصومة ، بل الحنان واسباغ النِعَم . فلا يحتدم أحد ، ولا يأخذ الأسى من فؤاده ، بل فلنطلبنَّ إلى الله الرحيم أن يمدَّ حياته ، وأن ينقذه من الهلاك المداهم ، ليخلع عنه ثوب معاصيه . ولنبادر بأجمعنا إلى الملك الرحيم متوسلين إليه من أجل الكنيسة والمذبح ، ليُبقي على رَجُل واحد احتراماً للمائدة المقدسة (٢٠).

فلئن فعلنا ذلك ، ليطيبنَّ الملك نفساً ، بل ان الله ليسبق الملك بالثناء علينا ، واجزال ثوابنا ، جزاء عطفنا على خليقته . وإذا كان الله تعالى يرفض و يمقت المتجبِّر الخالي من الشفقة ، فهو يودُّ ويقبل الرجل الرحيم الرقيق القلب . وان كان مثل هذا صدِّيقاً ضفر له اكليلاً أكثر ثناء ، وإن كان خاطئاً تجاوز عن معاصيه ، مكافأة له عن رحمته أخاه ، لأنه يقول : «اني أريد رحمة لا ذبيحة» (هو ٦ : ٦) وفي كل الكتب المقدسة تراه يتطلب الأمر نفسه ، ويجعله واسطة لمغفرة الخطايا . فاذا تصرَّفنا كذلك نجعل الله رؤوفاً بنا ، وننال الصفح عن مآثمنا ، ونمجد الكنيسة ، ونستحق ثناء مليكنا العطوف ، كما قد أسلفت . وان الشعب ليصفق كله طرباً ، وتدهش قاصيات الكون عجباً من رفق المدينة ولطفها . ولسوف ينشر فضل مساعينا كلُّ من يترامى إليه نبأ هذه الحوادث ، من أقطار الأرض كلها . فلنبحث ، ولنبتهل ولنصلِّ ، على أمل التمتُّع بهذه الخيرات ، ولننقذ من الخطر أسيراً طريداً ، مستنجداً ، فنجدَ وراء ذلك الخيرات المستقبلة ، بنعمة ومحبة سيدنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزّة الآن وإلى دهر الدهور آمين.

ترجمة الأب إيزودور أبو حنا المخلصي
الرسالة المخلصيّة
١٩٣٩ - ٦ ، ٧

الحواشي

(*) من المألوف عند الخطباء والشعراء تشبيه الرجل أو البطل الصريع بالشجر الشامخ الفروع، المتين الجذور كالأرز والملّول والزيتون إذا حطّمته الزعازع. من ذلك وصف هوميروس للفتى الطروادي الجميل أُوفُروب. قال:

غدائرٌ كشَعْر حَوْرَا العين ضُفِرن بالعَين، وباللُّجين
كأنَّهُ فرخٌ من الزيتون. غضٌّ، على مجتَمَع العيونِ
يُنعِشُه النسيم، والزهورُ بيضاءُ في فروعه تمورُ
لكنما الإعصارُ فوراً هبَّتِ فاستأصلته من زوايا العزلةِ

يُقال أنه كان لفيثاغورس شغف خاص بهذه الأبيات يتغنّى بها على نغم القيثار حتى تمادى به هذا الشغف فادّعى انه أوفرب بالذات تقمّصت إليه نفسه بعد موته. (إلياذة البستاني: النشيد السابع عشر صفحة ٨٦١).

(١) «يُقال وغلَ الرجل على القوم، وأتاهم واغلاً، إذا دخل عليهم في شرابهم من غير أن يدعوه أو ينفق مثل ما أنفقوا، وهو مثل الوارش في الطعام» (نجعة الرائد: في الشراب والسُّكر).

(٢) لا أجمل من هذا المطلع، ولا أطلق باذرة، ولا أبرع تصويراً، ولا أكثر مناسبة منه لظروف الحال. فلهو صوت الدهر يدوي في مسامع تلك الجموع المزدحمة المتدافعة كأمواج البحر جلاَّبة صخَّابة؛ فيمخض كبرياءها الشامخة وأحقادها المستشرية، ويُخفت أصواتها الصاهلة حنقاً واثّاراً، ويوقفها خاشعة واجمة، إزاء تقلّبات الأيام، لتشهد أمجاد العالم وكراماته تتحطّم كفروع سرحة عظيمة صدمتها الأعاصير فهوَت مُذالة، وتقطّعت كأحابيل الشفق، وتناثرت بالية كأوراق الخريف.

ليس في مطالع دموستين ما يشبه هذه الديباجة؛ فخطيب أثينا لا يحب الشِّعر ولا يستعين به في موقف من مواقفه. فكل فصاحته هجومٌ مستبسل، وكل أدواتها أسلحة قتّالة. أما شيشرون فعنده من هذه المطالع الحماسية الرشيقة، وهو أميَل إلى الشعر وتمثيل العاطفة إلى الحس بما يجعل بينه وبين خطيب النصرانية صلة عظيمة وشبَهاً كثيراً في العبقرية. وأجمل ما عنده مطلع الكاتيلنية الأولى وقد هبَّ في وجه خصمه كالزوبعة: «حتَّا مَ أنت مغترٌّ بصبرنا يا كاتيلنا؟ وإلى متى يستخفُّ بنا جنونك؟ أَمَا من حدٍّ لعاصف وقاحتك الجامحة؟ فلا حماة القصر ليلاً، ولا عَسَسُ المدينة، ولا دَهْشة الشعب، ولا ازدحام الوطنيين الكرام، ولا مناعة الحصن الذي يضم مجلس الشيوخ، ولا نظرات هذا المحفل الغضبانة، أكلٌّ هذا لم يوهن عزيمتك؟ أوَ لا تدري أن مقاصدك قد انفضحت؟ أوَ لا ترى أن اطّلاع جميع الحاضرين قد كبَّل مكيدتك تكبيلاً؟ أوَ تظنّ فاتنا أيُّ مؤامرة ائتمرت في هذه الليلة وسابقتها، وأين كنت، ومن استدعيت، وأي المقاصد قد اعتزمت؟ ويحَ الزمان! ويا ويح الأخلاق! ان المشيخة تعلم بالمكيدة، والقنصل ينظر، وهذا الخائن يحيا بعد! يحيا؟ بل انه ليدخل المشيخة ويشترك في مجلس الأمة؛ وهو يلحظ ويختار بنظره للذبح كلَّ واحد منا. ونحن مع هذا نعدُّ أنفسنا رجالاً أشداء نوفّي للجمهورية حقها، إن أفلتنا من سخطه وطعنات خناجره. فلقد كان من الواجب أن يأمر القنصلُ من زمن طويل بأن تُساق إلى النطع يا كاتلينا، وأن يصبَّ عليك الويل الذي ما فتئت تكيده لنا. ان الرجل الشهير بوبليوس سبيون، الكاهن الأعظم، قد أردى بحكمه الفردي طباريوس الغَرَقي لأنه مدَّ يده إلى سنن الجمهورية؛ أما كاتلينا الذي اعتزم اجتياح كرة الأرض قتلاً واحراقاً، أفنردُّ نحن القناصل النفس على مكروهه؟ اني لأعدّي عن تلك المُثُل القديمة العالية، يوم قتل سرقيليوس أهالا بيده سبوريوس ميليوس

لأنه أزمع أن يحدث بعض أحداث في الجمهورية. أجل فلقد كان، وقد انقضى، عصر الفضيلة في الجمهورية، يوم كان رجال العزيمة يَقمعون الوطني الخبيث، ويمثّلون به أكثر من تمثيلهم بعدوّهم الشديد. إن لدينا فيك حكماً شرعيًّا هائلاً يا كاتلينا، فلا رأي الجمهورية بناقص، ولا سلطة التنفيذ لهذا الحكم، ولكنا نحن القناصل، وأقوله جهراً، نحن متخلّفون عن القيام بالواجب.»

(٣) ما كان أوجع وقعات هذا العتاب المتكررة! انها لأشدُّ من جراحات السنان على نفس أتروب المهدودة القوى حزناً وألماً. إلا أنها دَفَقات مياه باردة على تلك الصدور الجائشة بالغضب والضغينة. وما كان خطيب النصرانية ليذكر عتوَّ خصمه وصدوده عن النصيحة فيبعث إليه بهذه الطعنات، ويُصمي نفسه المنازعة، ولكنَّه في عراك عنيف مع تلك الجماهير المتجمهرة العجَّاجة، فهو يغالب هديرها المتعالي وأهواءها المتلاطمة، لعله يغلبها فيجد منفرجاً لصوته بين أصواتها المتكسِّرة الأصداء، في حنايا المقدس، كزئير عَرَجَلة من الليوث الثائرة المستفرسة. فكأنه ينطق بأهواء تلك الجموع، ليهدّئها ويخرسها وينال ثقتها، فيتسنَّى له آنئذٍ أن يستلَّ سخيمتها باللطف والترجّي، وبذلك يمهِّد سبيلاً لدفاعه. ان النفس الهائجة تنبو عن كل قول، فلا تسمع ولا تعي؛ فاذا هدأ غليانها تولَّدت فيها العواطف، ودخلتها معاني الرحمة. وتلك دربة وحكمة عالية في حراجة هذا الموقف.

(٤) كان القناصل إذا خرج أحدهم إلى الأمكنة العمومية أو عاد منها، تتقدّمه حاشية تخبر بقدومه، وهي تهتف به وتنشر مساعيه على هام الورى. وكثيراً ما كان يرافقه العازفون على المزمار والقيثار، ويلتفُّ حواليه من أسراب المتملِّقين ما يجعل موكبه أشبه بعرس جليل. والقوَّاس الذي يتقدّم في عصرنا بعض الأشخاص العموميين هو بقيَّة من أبهات العصور القديمة.

(٥) على ما في هذا التصريح من خلوص النيّة وبراءة العهد، قد اتُّهم بعض المؤرّخين والشرَّاح الذهبي الفم أنه جار على خصمه في كارثته. ولا أدري كيف يكون الجور والقسوة في أسقف يصدُّ الجنود عن الفتك بخصمه، ويقدّم نفسه بدلاً منه، ويدافع عنه أمام القيصر، ويأويه في كنيسته، ويكرم مثواه، ويعتني به، ويحميه من بوادر سخط الشعب ويذكِّر أعداءه ومطارديه بشرائع المحبة والرحمة والصفح، ويستخلصه من براثن أحقادهم المتفزّرة لتزيقه. فلولا ما في صدر الحبر القديس من فضيلة بطلية سامية، وقلب مترعٍ مشبع من تعاليم يسوع المسيح، تعاليم المحبة والرحمة، لاخترط سيف الانتقام وقطَّع ذلك العتلَّ الفاجر، على أدراج المذبح، كما قطَّع صموئيل أجاج المُترَف، ملك عماليق، أمام الرب في الجلجال.

أما من يأخذ على الخطيب تأنيبه لأتروب، فقد فال رأيه، لأن الذهبي الفم خطيبٌ شعبيٌّ واقف أمام شعوب القسطنطينية عامتها وخاصتها، أغنيائها وفقرائها؛ فلا يمكنه، ولا تسمح له وظيفته، إن عفى عن الأثيم، أن يعفو عن تقبيح مآثمه.

(٦) هذا ما يعنيه بصويت في تأبينه هنريت ملكة انكلترا عندما يقول: «ان الكتاب المقدس ليغالي في زوال الأمور البشرية.»

(٧) قد يقول قائل أن الذهبي الفم شجاع ينتخي على صريع أعزل. ونقول بل انه لباسلٌ مقدام في كل مواقفه، لم تزعجه عظمة العظماء، ولا أخافه جبروت ذوي السلطان. وان كان يؤنّب اليوم أتروب وأنفه في التراب، فقد أنَّبه يوم كان يناطح بكبريائه السحاب.

ويروي لنا المؤرخون من أمثال جرأته مع القائد غيناس المشهور بكبره وعناده أمراً عجباً. بعد أن حطَّ هذا القائد أتروب ببطولته وجسارته، نزعت نفسه إلى المراتب فنال أعرافها حتى طمحت نفسه إلى احتلال بعض

الكنائس الكاثوليكية، لتجتمع فيها طوائفه الغوطية الهرطقية. فطلب القيصر إلى الأسقف أن يأذن له بكنيسة فلم يأذن، وقال: «أيها الملك إن كنت تخاف هذا البربري فاجمعني به في ديوانك، ولا تقل شيئاً، فإني أرجو أن أكبح مطامحه الجائرة». فرضيَ القيصر ودعاهما في الغد. فذهب القديس يصحبه بعض الأساقفة، وأتى غيناس يجرُّ وراءه حاشية كبيرة. ولما استقرَّ بهم النادي، قال القائد: انه لا يمكنه الاجتماع في الصلاة مع مَن يخالفونه في المذهب، وانه لمن العار أن لا يستحق كنيسة جزاء خدَمه، ودفاعه الطويل عن المملكة. فتناول الذهبي الفم شرائع ثيودوسيوس التي تقضي بحرمان الهراطقة من المعابد الكاثوليكية وقال لغيناس: «حقاً انك خدمت أبا الأمبراطور ولكن احكم أنت نفسك ألم تعدل المِنن التي حزتها ما قدَّمت من الخدَم؟ اذكر ما كنت بالأمس، وما أنت عليه اليوم. وُلِدتَ بربرياً، وخرجت من وطنك طريداً شريداً يُعوزك كلُّ شيء؛ فوجدت بين ذراعي ثيودوسيوس ملجأً، بل ما هو أعظم من ذلك، وجدت الثروات الطائلة والمفاخر العالية. فآليت يومئذٍ أن تخدمه هو وأبناءه وأن تحفظ شرائع المملكة. وها انك اليوم قائد تلبس شارات القنصلية. فقابل هذه الحُلَل التي أنت رافل بها اليوم بما كنت لابسه يوم قطعت نهر الدانوب. وهذه واحدة من الشرائع التي أقسمت بحفظها، فلا تنسَ أفضال الآباء التي ما زال يواليها الأبناء عليك. ألعلَّ القياصرة وحدهم يلتزمون بمعرفة الجميل، وأنت لا ضير عليك إن كنت غامط الإحسان؟ ثم التفت إلى القيصر وقال: «أيها الملك عليك أن تقيم شرائع أبيك، واعلم أن خسارتك الامبراطورية لأخفُّ من خسارتك لقب امبراطور كاثوليكي، وليس في إمكانك أن تحافظ على هذا اللقب الشريف، إذا كنت تترك بيت الله لعبادة باطلة تهينه!»».

فثار القائد عند خيبة أمله وفَوز الأسقف عليه، وعزم أن يحرق القصر الملكي والمدينة بأجمعها. وقد سعى الملك أن يبعث إليه قصَّاداً يسترضونه فلم يجرؤ أحد على التقرّب من ذلك النمر الشرس. فتقدَّم الذهبي الفم، وقصد ذلك القائد العاتي. وما إن سمع غيناس بقدومه حتى أقبل إليه، ووضع يد القديس على عينيه، وحمل أولاده إلى الأسقف لكي يقبِّلوا يده وينالوا بركته. فهذا الذي كان القيصر والعظماء يرتجفون من سخطه، يتصاغر أمام جرأة الذهبي الفم. تلك عظمة الديانة ومهابة القداسة!

(٨) ما أبرع الذهبي الفم في صوغ محاماته وربط أجزائها. قد وصف ترّهات العالم وسرعة زوالها وصفاً شعريًّا ناصعاً حَسِب معه العظماء أنفسهم حالمين في عظمتهم ومجدهم. ومثَّل للأنظار، كأنما على شريط متحرّك، أتروب ذلك الغني المترَف وقد دارت به الدوائر فهوى من سامي مجده إلى ذِلَّة شقاء ليس بعده شقاء. فهال السامعين والناظرين، وشغل نفوسهم باعتبار عِبَر الدهر على أهوائها وطوائلها الكامنة؛ ولما لحظ تأثرهم زاد أمناً وجرأة في مقصده، فصارحهم بطلب العفو عن أتروب، وجعل ما كان قد صوَّره من حالة بؤسه، وما حمَّله من ثقيل اللوم شبه انتصاف من جرائمه إلى أن قال: «ان في هذه العقوبة كفاية». وسيجتهد أن يليِّن مَن لم تأخذهم الرحمة بكلمات رقيقة واعتبارات سامية.

(٩) في الخطبة التي ألقاها الذهبي الفم يومين بعد خروج أتروب من الكنيسة يتطرّق إلى الكلام على مقدرة الكنيسة فيقول: «لا تصدَّ يا هذا عن الكنيسة، فلا أقدَر من سلطانها. ان الكنيسة هي رجاؤك، وهي حصنك المنيع، إنها أسمى من السماء، وأرحب من البَسيطَة، لا تشيخ لأنها في نشاط وشباب دائم. ولهذا فعندما يصف الكتاب قدرتها ومناعتها يدعوها جبلاً، وخلودها، يدعوها عذراء؛ وجمالها وبهاءها، مليكة؛ وصلتها بالله، فتاة؛ وخصبها، عقيماً تلد سبعة، ونحو ذلك من الأسماء التي لا يتناولها عدد؛ كل ذلك ليبين شرفها ومناعتها».

(١٠) ما أجمل هذه اللهجة! وما أسمى هذه النبرة المسيحية! فلو انتقينا كل بدائع دموستين، ولطائف شيشرون، والاهيات أفلاطون، وحِكَم أرسطو، لما وجدنا أجمل منها أو ما يعادلها عظمة وسناء. انها لتفوق بدائع الوثنيين بمقدار ما تفوق حقائقُ الديانة المسيحية خرافات الأُولمب. وان الخطيب المسيحي لترفعُهُ فصاحته إلى معالي علَم النصرانية الوُضَّاء فيبدو من ذلك السمو بهيًّا متألقاً بأنوار المسيح المصلوب. فما أصدق قول الشاعر:

الباطلُ الدهرَ يُلقى لا ضياءَ له والحقُّ أبلج فيه النور يأتلقُ!

(١١) هذا ثالث اعتراض يمثِّله الخطيب وهو أشدّ اعتراضاته، فالتدريج واضح؛ على أن أتروب نفسه سيجيب عليه بلسان حاله وسوء مآله. قد جرَّب الدهر فصار نذيراً حكيماً!

(١٢) يقول بصويت في تأبينه أمير كونده «ها إن صوته من خلال صمته ينعشنا ويحذِّرنا معاً».

(١٣) لا ريب أن هذه التحفة الذهبية كانت منتجعاً خصيباً لعبقرية بصويت في تأبينه هنريت ملكة الانكليز. يشهد بذلك ما عند الخطيبين من مشاكلة الوصف وتوارد في الأفكار. فممّا قاله بصويت «ان مجرَّد ذكرى ملكة عظيمة قد أهاب بالمسيحيين إلى مأتم حزين. – كلا إن أباطيل الأرض لم تكشف مُعرَّاة، ولم تُفحَم قطُّ إلى هذه الغاية» إلى ما هنالك من الفِكَر التي يصعب تعريبها مقطَّعة. ومن يقرأ هاتين الطُرفتين يرى في النصرانية نسرين من أعصر وآفاق مختلفة، يحلّقان في سماء من الفصاحة قلّمَا تبلغها العبقريات البشرية. ولكن ليذكر مُطالع هاتين التحفتين ان بصويت طار أربعين يوماً حتى بلغ هذا السموّ، أما الذهبي الفم فبصفقة جناح!...

(١٤) تلك عبارة جافية مؤلمة حملت بعض الشرَّاح على أن يقولوا ان مصيبة أتروب، ولو مستَحقَّة، كانت جديرة بأن توقِعه موقع احترام أكثر. ولكن نسي هؤلاء النقدة أن الخطيب إنما يمثِّل به لفائدة شعوب قد شكَّكتها مآثمه، وأحرقتها مظالمه، ولتخليصه من تشطير السيوف وحفرة الردى. ولا سبيل إلى نجاته إلا بتحطيم كبريائه على أقدام تلك الجموع الثائرة. وما أنصع هذه الصورة الشعرية التي يختم بها الخطيب استدارته. كأنما التفت إلى أتروب وهو منكَّس الهامة متهضم الوجه «وقد جثم الهمُّ على خدّه الذابل» كما وصف مِلتن إبليس، فمثَّله بوجه قديم بالٍ قد محا الدهر نضرته وجماله، وخلَّف له مصائبه وأحزانه. وفي خطابه الثامن على رسالة كورنتس الثانية يتطرَّق إلى وصف الجمال فيقول: «أشدُّ قَسَمَات الجمال سحراً سحرُ العيون». فالذهبي الفم خطيب شاعر، تتلاحق أمواج فصاحته سلسلة صافية، تنعكس على صفحاتها صُوَر الخلائق بأجمعها، فالذي يسمعها يصغي إلى صوت الطبيعة، والذي يقرأها فإنما يطالع جمالات الكون الخالدة. ولو آنس شيشرون يوماً مثل هذه الفصاحة لما قال قوله: «إني سمعت كثيرين يحسنون الخطابة، بيدَ أني لم أسمع قط أُناساً فصحاء!»

(١٥) قد ذهب التنوُّق بأهل هذا الزمن إلى حد تحاشوا معه ترجمة هذه العبارة، حاسبينها أثراً من فساد الذوق. وما هي إلا تشبيه طبيعي يصوِّر أتروب أصدق صورة وهو جاثم خلف الهيكل، أشبه بظبي باغته الصيَّاد، فخَرِق تحت جُدَّاد محتمياً بأذياله، فهو ينتفض لكل حركة، ويهلع لكل صوت. ولا منقصة في خطيب رآه من قِمة منبره، وهو سائح في ميدان الفصاحة كالجواد الثائر، يتنقَّز كالأرنب، ويتفزّز كالضفدع، فاستعار لتمثيل حاله ما قد أَلِف رؤيته وهو فتى، في غابات ذفنة وعلى شواطئ العاصي. ونشكر الله أن القدماء لم يُرهبهم ما يريبنا فينفلتوا من بين ذراعي الطبيعة، لكنهم لبثوا كالربيب حول مرضعه يستوحون الطبيعة نفسها،

فخلّفوا لنا تلك المنظومات والطُرَف الخالدة التي نقرأها فندهش ونغتبط بوجودنا فيها ما تتوسَّمه عيوننا، وتحسُّ له نفوسنا. وليس هوميروس أمير الشعراء، وأرسطو شيخ الفلاسفة إلا لأنهما درسا الطبيعة عن كَثَب فأحكما وصف جمالاتها ونُظُمها. ومن أبى إلا لوم هوميروس المنابر فليلمْ أولاً هوميروس الشعر الذي رام أن يصف ثبات بطله أياس بين جموع الأعداء، فشبَّهه بجأب أو حمار دخل الزرع فثبت في مرعاه من غير أن تهوله عصيُّ الصِبية وزعقاتهم، ولا انثنى إلا وقد قضى وطره. قال:

يمشي الهُوينا مثلَ جأبٍ دخلا زرعاً من الحنطة يبغي أكُلا
فتنهض الصبية بالعصيّ تُسحق فوق متنه القويّ
لكنَّه ما كان كي يكترثا بلَغَب الصِبية مهمَا عبثَ
يلبث في تلك المراعي يرتعُ وينثني مذ يكتفي ويشبعُ

(الياذة البستاني: النشيد الحادي عشر، صفحة ٦٥٢)

(١٦) قد احتذر الخطيب وسيحتذر أن يلفظ اسم أتروب الممقوت، حتى ولا مرة واحدة. ولو سمَّاه مرة لفقَدَ كثيراً من تأثيره وغمر هَرْج الجموع صوته بجلبته وهتافاته.

(١٧) لا أدري أيما أشدّ هولاً، أتلك الأمواج الميّادة التي كان دموستين يمرّن عقيرته على جلبتها واصطخابها، أم هذه الأحشاد المتدافعة هائجة كالموج الطاغي لتطحن عدوّها وتغرّقه في لجج أحقادها، بينما الذهبي الفم واقف فوق منبره، كأنما على يفاع عال، يلوِّح بفصاحته لذلك الغريق المتخبّط. فما أشبهه في موقفه بالسيد المسيح وقد أمر الرياح فسكنت، والأمواجَ المصطخبةَ فكفَّ هديرها! فلقد وقف دموستين هذه الوقفة المجيدة يوم تجمَّعت رجالات اليونان في أعياد باخوس لتشهد صِراعه الخطابي مع خصمه إسخين؛ فكان خطيب أثينا يرتفع في سماء فصاحته السامية وينقضُّ على قِرنه انقضاض الباشق على فريسته، إلى أن خلَّفه على عيون الملأ، مجدَّلاً مصروعاً. ولكن دموستين لم ينتصر إلا على فرد، وقد استعدَّ لانتصاره ستَّ سنوات. لا أُحب المفاضلة بين الرجال فقد لا تتوفر غالباً صفات التفاضل، وكلُّ طير يغرّد على غصن، وكلُّ نسر يسبح في فضاء؛ ولكن حيثما تلتقي عبقرية الذهبي الفم بآيات دموستين، وقد التقت في هذه الطرفة الخالدة وسابقتها، فلا تقل في شيء عن رحابتها وسموّها. أما المتانة والجزالة في إنشاء دموستين، فتلك صفات أكسبه إياها كثرة المناظرين، وسهره الليالي الطوال في التنقيح والتنميق؛ فقد كان دموستين يخشى النقد شديداً حتى سمى القائد فوسيون «فأساً تُقطِّع خُطبه». وربما اشتد خوفُه فتولَّته الدهشة والحَصَر، كما أصابه أمامَ فيلبس على ما يرويه اسخين في السفارة الاثينية. على أن الذهبي الفم له فضل التقدّم في أمر، على سائر الخطباء، ذلك أن تحفه مرتجلة ارتجالاً، فهي من فيض الخاطر، وأصدق صورة لتمثيل عبقريته الخطابية الفذّة. فما أحقّه وأغناه من قول أبي الطيب المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي مَن به صممُ
أَنام ملءَ جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرَّاها ويختصمُ!

(١٨) لم يرث أركاديوس من مفاخر أبيه ثيودوسيوس العديدة السامية إلا هذه الرقّة والحنوّ. وهذا ما عوَّدته إياه والدته التقيّة فلاشيلة، تلك المليكة القديسة «زينة المملكة، ومرآة المحبة الزوجية، ومقدس العفاف والتصوُّن» على ما يصفها القديس غريغوريوس النيسي في تأبينه لها. فلم تكن تأبى أن تزور المستشفيات، وتساعد الفقراء والمرضى، وتطعمهم وتغسل لهم ثيابهم بيديها على أنهم إخوة يسوع المسيح. ويروي الخطيب ثيميس في خطبة

له على حِلم ثيودوسيوس أن القيصر أُخبر يوماً بدسيسة تنوي اغتياله، فحكم بالموت على أربابها. وفيما كان المجرمون سائرين إلى النطع إذا بصائح يصيح: «قد عفا القيصر!» وكان المنادي يحمل براءة العفو يذيّلها توقيع الملك نفسه وامضاء القيصر الصغير أركاديوس؛ ذلك أن أُمّه التقيّة أمسكت ببنانه الطفلة ورسمت اسمه بحروف تكاد لا تُقرأ، لتعوّده العفو والرحمة. فما أصدق قول المرحوم شوقي في مخاطبته المرأة:

لول التُّقى، لقلت: لم يخْلُق سواك الولدا
إن شئت كان العَيِر، أو إن شئت، كان الأسدا
وان تُرِدْ غيًّا غوى، أو تبغ رُشداً، رشدا
والبيتَ أنت الصوت فيه، وهو للصوت صَدى
كالببَّغا، في قفصٍ، قيل له، فقلَّدا
وكالقضيب اللَّدن قد طاوع في الشكل اليدا
يأخذُ ما عوَّدته، والمرءُ ما تعوَّدا

(١٩) قد استفاد الخطيب من تأثر الشعب وسكون جلبته، حتى ليتجرأ أن يتجاهل مظالم أتروب له. ولكنه سيلمّح بعد قليل.

(٢٠) لم أقرأ أجمل نسجاً، وأخفّ حركة، وأبلغ تأثيراً، وأنبل غاية من هذه المأساة الخطابية. ولا أظنُّ أن خطيباً انبرى يصارع الأهواء البشرية بأسلحة بيانه، فنال أجمل من هذا الفوز المُبين. فما أحكم ما قاله شيشرون في مقدمة كتابه الأول على الخطيب: «يجب أن تتسع الفصاحة لأمور جمَّة، وإلا فهي هَذَر باطل مضحك؛ وأن يجمعَ الكلام إلى حُسن الاختيار جودةَ السبك، وأن يكون الخطيب بصيراً بكل ما ركب في طبائع البشر من الأهواء المتشعِّبة، لأن كل قوّة الفصاحة في تسكين ما ثار أو إثارة ما سكن في نفوس السامعين.»

ومن يمعن النظر في جري الخطيب يحسّ بثوران شديد تدافع فِكَره وتزاحم كلمه، فكأنه، وايم الحق، جوادٌ طيّار ويسمع بين تلك الأمواج البيانية، المتطوية حيناً، والوثّابة أحياناً، دويًّا بعيداً عاصفاً، هيهات أن يمثل المترجم كل أصدائه. ان الذي يترجم الشعر متى ركب جَناح خياله، واستقام له الوزن والقافية، وجد كل شيء تقريباً، أما الذي يترجم خطيباً، فيبقى عليه أن يمثّل تموُّجات روحه، وأن يعبِّر عن الصيحة، والصفقة، والنظرة الفراسة؛ ولا أحسبه مهمَا نقَّحَ وغنّى ترجمته مضطلعاً بتصوير ما لا يراه، ولا يحسّه إلا بين تضاعيف السطور من حركات الخطيب ونبراته.

وأحسب أن ميزة هذه التحفة الفريدة أنها آية السمو، وغايةَ البساطة، فهي السهل الممتنع، ولا يشوبها أيما نقص، سواء في التفكير والتعبير، أوكمال التنسيق في أحوال ارتجالها. وأما كون موضوعها فكرة عادية، فليس السَبَق بين أهل البيان لمن يستكشف آفاقاً جديدة في عوالم الفكر البشري فكل شيء قيل على ما جاء في أمثال الأدباء «هل غادر الشعراء من متردّم؟» بل الفضلُ لمن يمثّل فكرة عادية في قالب عِصامي رائع يُعجز كل محاول كما يقول اسوكراتس في مطلع تأبينه لمدينة أثينا.

وان الذهبي الفم لهوَ أولى الخطباء جميعاً بما وصف به النقّادة الفرنسي لاهرب خطيبَه المأثور مَسِّيون. فانه الخطيب «الفذ لا مثيل له بين السابقين، ولا اللاحقين، بما عنده من رنَّة، وتنويع، وحسن ترسُّل، إلى إيقاع مطرب، واختيار في اللفظ يلمس الفؤاد، ويروق الخيال، ومزيج من الصفات المختلفة، من قوَّة

ونعومة ، ونبالة وعذوبة ، وشدّة وليونة . إن عنده من الوسائط ما لا يحصر ، كل واحدة تسند الأخرى ، وقوة مدهشة في تناول الموضوع ، وفن في ولوج أخفى طيّات القلب البشري حتى ليدهشه ويُفحمه ، ويكشف جوانبه الضعيفة ، فيحيي بذلك وصفه ، فيذعره مرة ويعزّيه حيناً ، ويصعق الضمائر ويسكنها ، ويلطِّف ما قد يكون شديد اللهجة في الإنجيل بما في ممارسة الفضائل من مشوّقات ومحبّبات ، وله استعمال لآيات الكتاب المقدّس في غاية المطابقة ، وتأثير جذّاب ، وفوق كل هذا سهولةٌ توهمنا ان الآثار الأدبيّة تزيد قيمة ونفاسة ، لأنه يتخيّل إلينا أنها لم تكلِّف جهداً كثيراً . »

ترجمة
الأب ايزيدور أبو حنا
المخلصي

٢
خطبة
للذهبي الفم بعد عودة الأسقف فلابيانوس

تمهيد

في سنة ٣٨٧ ضرب الملك ثيودوسيوس جزية جديدة على أقاليم الشرق كلها ليمِدَّ بأموالها نفقات أعياده الملكية، وليستعين بها على تعبئة جيوشه للزحف على خصمه مكسيموس. فثار شعب انطاكية وانتشروا يعيثون في الأندية العمومية وهاجموا قصر الوالي، وبلغت القِحَة بالرَّعاع أن كسَّروا تماثيل الملك وامرأته فلاشيلة المتوفاة، وما كانوا ليقفوا عند هذا الشطط لولا أنّ سَريَّة من الرماة كسرت شأفة الثوار.

وما ان هدأت الثورة حتى انتشر الذعر في أحياء المدينة وأدرك العصاةُ شرّ فَعلتهم وما يتهدَّدهم بعدها من العقاب الأليم، فكانوا حيارى يتوقَّعون كلَّ ساعة إنهاب أموالهم وإحراق بيوتهم وقلب مدينتهم من أُسسها. فتعطلت الأشغال وأقوت البيوت واقفرت الشوارع بعد أن كانت مكتظَّة بالجماهير، وكثيرون هاموا على وجوههم في البراري والجبال فلقيهم الموت الذي كانوا فارِّين من وجهه.

وبين هذا اليأس الشامل، والشدائد المرّة، والأهوال المدهمَّة، كانت الكنيسة ملجأ النفوس الوحيد. فذهب الأسقف فلابيانوس إلى القسطنطينية ليشفع بالمدينة، وبقي الذهبي الفم وحده يهدِّئ الحواس المضطربة ويوآسي القلوب المكلومة والنفوس المغمومة بعذوبة مواعظه البليغة. وقد وصل إلينا منها إحدى وعشرون كلها في مُنتهى الفصاحة كما شهد بصويت. بيد أن الخطبة الأخيرة هي آية هذه الآيات الجميلة وقد ألقاها الذهبي الفم نهار عيد الفصح في حضرة القديس فلابيانوس.

والذي يقرأ هذه التحفة الخالدة يشهد فكرها وأساليبها تتتابع بسطوراً كصفوف الأشجار في مرج فسيح، حتى تؤلف هذه الخميلة الأنيقة العذبة، الشادية الأطيار. فالحركة التي يجعلها دموستين الشرط الأول والثاني والثالث للفصاحة، هي تارة نِسامٌ رَودٌ تلعب في جنباتها، وطوراً ريحٌ عاصفة تهتزّ لها كلُّ ورقة وغصن من هذه الروضة الذهبية، فالتخييل لطيف، والصور شائقة، والوصف رائع الجمال، والعواطف زخّارة، والأدلّة ثاقبة سديدة. وكلُّها متساوقة الأغراض آخذ بعضُها برقاب بعض. تنبعث من عبقريَّة خصيبة، وخاطر متحمِّس، وبصيرة وقَّادة.

ولا ينسَ قراؤنا الكرام أن هذه الطُرفة التي أخذتُ لتعريبها وتنقيحها نحواً من ستين ساعة اقتطعتها من أيام التلمذة، من بين دروسي المختلفة، هي بنت ساعتها ارتجلها

خطيب النصرانية ارتجالاً كبقيَّة خطبه. واذا كان ارتجال الذهبي الفم كهذا القول الساحر فما عساه أن يكون لو احتفل له واشتغل في تنقيحه وتهذيبه أياماً وأسابيع وشهوراً وسنوات متعدّدة كغيره من مشاهير الخطباء؟ فلقد صدق من قال: أمير الخَطابة من تملي عليه المنابر! ومن كالذهبي الفم أملت عليه المنابر؟ هل دموستين الذي كان يقطِّع خطابه ويغنِّيه كما يحلل الشاعر أبياته إلى أجزائها، والمغنّي أصواته إلى أنغامها، ويلقيه ويمثّله تحت سراديب الأرض قبل أن يتمثَّل به إلى رجال أثينا، حتى لقد كان خصمه يعيّره أنَّ خطبه تنشر رائحة الزيت لكثرة سهره في تأليفها؟ أم إِسوكراتِس الذي بقي عشر سنوات يغربل ويفلّي تأبينه لمدينة أثينا؟ أم شيشرون الذي قد كيَّف وبدَّل ما استملاه رجال الشورى من كاتيلينيَّاته المرتَجلة بحيث لم يبقَ أثر من آثار الارتجال، والذي كان يتقيَّل خطباء وفلاسفة اليونان حتى كأنَّ آثاره أصداء وتراجيع؟ أم بصويت الذي كان يغلي في انتخال المعاني والمباني فيضرب على الفكرة والجملة مرات ويطرّس على الكلمة الواحدة ثلاثاً وأربع كما نرى في مخطوطاته الباقية؟ أم بوردلو الذي كان يلقي خطبه وهو ثابت النظر منخفضُه كأنما يقرأ في صفحات ذاكرته؟ أم مَسِيُّون الذي كان يقول: «أحسن خطاب ألقيته هو الذي استظهرته أحسن ما يكون»؟

إنَّ كل هؤلاء هم خطباء أفذاذٌ لا يقلُّ عنهم الذهبي الفم في شيء. بيد أنّا لا نرى في مخلَّفات قرائحهم أثراً واحداً مرتَجَلاً قد دافع بمنكبيه صدور العصور والأيام، وثبت عند النقد غرَّة بين الغُرر وتحفة بين تحف الفن الخالدة مثل تحف الذهبي الفم. فلست مُغالياً ان قلت ان الذهبي الفم فوق منابر الارتجال هو سيد الخطباء ومليك أعراف الفصاحة، هو هوميروس المنابر الذي انفرد عن مواقف الأشباه. — فلا عدمت العربيَّة رُقًى من سحره الفتَّان!

تلك الكلمة التي اعتدت أن أُفاتح بها محبّتكم[1] إبَّان الشدائد، بها نفسِها أَفتتحُ اليوم خطابي إليكم فأقول معكم: تبارك الله الذي أهَّلنا اليوم للاحتفال بهذا العيد المقدّس ببهجة وسرور عظيم، معيداً الرأس إلى الجسد، والراعي إلى الرعيَّة، والمعلم إلى التلاميذ، والقائد إلى الجنود، ورئيس الكهنة إلى الكهنة. مبارك الله الذي صنع معنا فوق ما نسأله أو نتصوَّره!

فلقد خُيِّل إلينا أن يكفينا الآن التخلُّص من الشرور النازلة بنا، والتي لأجلها كنا نقيم كل ابتهالاتنا. ولكن الله المحبَّ البشر الذي تُجاوِز سَعَةُ سخائه مطالبنا، قد ردَّ إلينا أبانا بأسرع مما كنا ننتظر. ولعمري! من كان يحتسب أنه ينطلق في أيَّام قلائل، فيقابل

الملك ويدرأ الأخطار ويخفُّ إلينا على عجل سابقاً الفصح المقدس فيحتفل به معنا[٢].
ألا فانظروا كيف جرى الأمر على خلاف المُنتظَر فلقينا أبانا، واغتبطنا اغتباطاً أعظم بحصولنا عليه حينَ انقطع كلُّ رجاء.

فلنشكرنَّ الله الرحيم على كل هذه المِنَن، ولنقضينَّ العَجَب من قدرته وحكمته وعنايته بالمدينة. أجل ان الشيطان عزم أن يهدمها بما اجترأ عليه المجترئون ذوو الأحلام الطائشة، غير أنَّ الله قد شرَّف بهذه البلوى المدينةَ والأسقفَ والملكَ، وأظهرَهم جميعاً أوضح فضلاً: أما المدينة فشرُفت لأنها حين ألمَّ بها الخطر أعرضت عن ذوي الاقتدار المتسربلين الغنى والحائزين لدى المِلك على نفوذ عظيم، وفزعت إلى الكنيسة وإلى كاهن الله، وبإيمان عظيم ناطت نفسها بالرجاء العلوي. فما أكثر الذين غِبَّ سفر أبي الجميع جعلوا يُقلقون ساكني السجون بقولهم: ان الملك لن يتخلى عن غضبه، بل سوف يزداد حنقاً وهو عازم على قلب المدينة بأسرها. وكانوا يهمِسون في آذانهم أموراً أخرى أكثر من هذه. على أن السجناء لم يروَّعوا من هذا الخبر بل إذ كنا نبيِّن لهم قائلين: أنها أكاذيب وأوهاق من صُنع إبليس، يريد بها أن يفقدكم رشدكم فكانوا يجيبوننا: «لسنا بحاجة إلى أقوال التعزية لأننا نعرف إلى أين فزعنا منذ الابتداء وعلى أيّ رجاء علَّقنا آمالنا، إنَّا نُطنا خلاصنا بالمِرساة المقدسة، فلم نضعه في بشر، وإنما في الله القادر على كل شيء، ولهذا فنرجو أن تكون العاقبة خيراً على كل حال، إذ لا يمكن، أجل لا يمكن أبداً أن يخيب يوماً مثل هذا الرجاء». ليت شعري! أَوَلا يقوم هذا للمدينة مقامَ أكاليل كثيرة وثناء جمّ؟ ولَكَم يستنزل عليها من رأفة الله حتى في باقي شؤونها. لأنه ليس من شأن النفس التي تلبث متنبِّهة عند طروق المحن، تنظر إلى الله ساخرة بكل المساعدة البشرية، أَنْ يذهب انتظارها لمعونة الله أدراج الرياح.

أمَّا إنَّ المدينة قد شَرُفت، ولكن شرف الحبر لا يقلُّ عن شرفها وهو الذي جاد بنفسه عن الجميع على ما تصدَّى له من الموانع الكثيرة كفصل الشتاء وكبر سنِّه واقتراب عيد الفصح[٣]، وهجر اخته وهي على آخر أنفاسها - وما كان ذلك بأهون الأمور عليه - قد تعالى عن كل الموانع، ولم يحدِّث نفسه قائلاً: «ماذا! أختي الوحيدة الباقية لي، التي حملت معي نير المسيح وعايشتني ردحاً طويلاً، تجود الآن بأنفاسها، أفأتركها وأذهب قبل أن أراها تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ ولقد كانت تناشدني كلَّ يوم أن أغمض عينيها وأطبق فمها وأسجِّيها وأقوم بواجبات الدفن. ولكنها الآن، وكأني بها مهجورة ولا سند لها، لا تفوز من أخيها بشيء من ذلك،

ولكم تمنّتْ أن تناله منه بالأخص ، بل تلفظ روحها من دون أن تعاين أعزَّ الناس إليها؟ أولا يكون ذلك أشدَّ وطأة عليها من ميتات جمّة؟ وهبني كنت بعيداً عنها أما كان من الواجب أن أُبادر وأعمل ما في الطاقة وأقاسي كل مشقّة لأُتمِّم رغبتها؟ والآن وأنا بجانبها أفأتركها وأذهب؟ فكيف تطيق العيش بعد هذا؟».

غير أن الحبر لم يتفوَّه بشيء من هذا الكلام ، بل لم يمرَّ في خاطره لأنه آثر خوف الله على كلّ قرابة عالماً حقَّ العلم أنه مثلما أن العواصف تُظهر القُبطان والأخطار القائد ، فهكذا الكاهنُ إنما تُظهره الشدَّة. ولقد قال : «ان الجميع شاخصون إلينا ، اليهود واليونانيين ، فلا نخيِّب رجاءهم فينا ولا نجزع لهذه الكارثة العظيمة ؛ بل فلنفوِّض إلى الله أمرنا كلَّه ولنسلِّمه نفسَنا بعينها.» فتأمل يا هذا أريحيَّة الحبر وعطف الله. إنه احتقر الأشياء كلها فتنعَّم بها كلها ، لكي يأخذ جزاء غيرته ويجد في ذلك التنعم الغير المنتظر سروراً أعظم. قد آثر أن يحتفل في الغربة ، نائياً عن الأهل لأجل خلاص المدينة ، فأعاده الله إلينا قبل الفصح ليشاركنا في العيد فينال جزاء عزمه ، ويغتبط بفرح أعظم. انه لم يلتفت إلى فصل السنة ، فكان صحوٌ طول مدة سفرته ، ولم يُبالِ بسنّه فقطع تلك الطريق الشاسعة كغلام في شرخ شبابه ، ولم يفكِّر بأجل شقيقته ولا خارت همَّته ، فلمَّا عاد وجدها حيَّة ، وهكذا وجد كلَّ ما كان تخلَّى عنه.

أجل ان الحبر قد عَظُم شأنه عند الله والناس ، وأما الملك فقد زيَّنه عمله بأبهى من زينة التيجان. أوّلاً لأنه تبيَّن للجميع أنه جاد على الكهنة بنعمة ما كان ليجود بها على غيرهم ، ثم لأنَّه جاد بالنعمة فوراً واطفأ شِرَّة غضبه. ولكن لكي تتجلَّى أمامكم أريحيَّة الملك وحكمة الحبر ، وتعلموا فوق هذا حنوَّ الله ، دعوني أسردُ عليكم نُبَذاً من تلك الخطبة التي ألقيت هنالك.

ما أقوله لكم قد أخذته عن بعض الحاضرين ، لأنَّ أبانا لم يتحدّث إلينا بقليل ولا كثير ، وإنما اقتداءً بعزَّة بولس يستر أبداً مفاخره. والذين يسألونه في كل مكان عما قال للملك ، وكيف أقنعه واطفأ غضبه يجيبهم بهذه الكلمات : لسنا في شيء من الأمر ، ولكن إذ حنَّن الله قلبه أهمد ثائرة الغضب وأزال حنقه قبل أن نفاتحه بالكلام ، فكان يتحدَّث عن كلّ الأمور الواقعة من دون ما سخط حتى كأن غيره هو المهان ، بيد أن ما ستره الحبر بتواضعه قد كشفه الله جهاراً. فما ترى تلكم المفاخر المستورة؟ سآخذ بالحديث من مبادئه فأقول :

انه لمّا فُصِل عن المدينة وترك الجميع في يأس عظيم، كان يقاسي من الأهوال أشدَّ مما قاسينا ونحن نتقلَّب في غِمارها. فأوّلاً حينما التقى في منتصف الطريق بالذين نفَّذهم الملك للتقصِّي عن الحوادث، وعلم منهم الغرض الذي أُرسلوا لأجله، وتمثَّل الأخطار المفاجئة المدينة من القلاقل والاضطرابات والهرب والزمع والغصَّة والأهوال، قد فاضت شؤونه وتفطَّرت أحشاؤه، إذ من طبع الوالدين أن يتزايد غمّهم عندما لا يتسنَّى لهم أن يحضروا قرب أولادهم المبتَلين بالأحزان. فعلى هذا النحو قد تألَّم هذا الأب الحنون، فلم يبكِ فقط لتلك الأهوال الملمَّة بنا بل لتغيُّبه عنا ونحن نكابد غُصَصَها. إلَّا أنَّ ذلك قد آل لخلاصنا لأنه لما علم هذه الأمور من أولئك السُعاة ذرف الدموع الغزيرة وفزع إلى الله بصلاة حارة، فكان يقضي الليالي ساهراً متضرِّعاً إليه أن يُسعف المدينة في شدَّتها ويرقِّق قلب الملك عليها.

ولما انتهى إلى تلك المدينة العظيمة ودخل القصر الملكيّ، وقف بعيداً عن الملك صامتاً، باكياً، مطرقاً إلى الأرض، ساتراً وجهه كأنه هو الذي اجترم كل تلك الجرائم. وإنما فعل هذا مريداً بهيئته ونظره ودموعه، أن يستميله أوّلاً إلى الرحمة وبعدئذٍ يشرع بالمحاماة عنا، إذ لم يبقَ للصفح عن المجرمين إلا ذريعةٌ واحدة هي الصمت والسكوت عن الأمور الحادثة، قصدَ أن يُزيل من صدره ما نزل فيه من الهوى ليُحلّ آخر محله، ان يستلّ الغيظ من جنانه ويبعث فيه الرحمة، وهكذا يمهّد سبيلاً لكلمات محاماته كما قد تمّ. ومثلِ موسى الذي لما تذمَّر الشعب صعد إلى الجبل وانتصب صامتاً إلى أن ناداه الله قائلاً: «دعني فافني هذا الشعب» (خر ٣٢: ١٠) كذلك فعل.

فلما شاهده الملك دامعاً ومطرقاً، بادر إليه وأعرب له بكلماته كم آلمته دموع الحبر. لم تكن أقواله أقوال رجل ساخط أو حانق، بل أقوال متوجّع، ولا مغضبٍ بل أسيف قد استحوذ عليه غمٌّ شديد. ولكي أُبيِّن لكم صدق مقالي، اسمعوا كلماته نفسها. لم يقل: ما هذا الأمر يا ترى؟ أأنت تطلب العفو عن أُناس ذوي شقاق، متمرّدين، أهل لكل عقاب! ولكنَّه عدَّى عن هذه الأقوال وأخذ في حديث مملوء حلماً ورزانة يعدّد احساناته التي أحسن بها إلى مدينتنا كل زمان تملّكه، وعلى كل واحدة كان يقول: أَكان من الواجب أن أحتمل الإهانات جزآء تلك الحسنات؟ فلأجل أي ذنب ينتقمون مني هذا الانتقام؟ ترى أيَّة كبيرة أو صغيرة يشكونني بها؟ أو لم تكفهم شتيمتي حتى مضوا في شتيمة الاموات؟ ألم يكف سخطهم على الأحياء؟ فلو لم يعبثوا بكرامة الأموات لما

حُسب ما أَتَوا فعلة نكراء. فهب اننا ظلمناهم كما يزعمون، فلقد كان من الواجب عليهم أن يراعوا حُرمة الموتى الذين لم يظلموهم في شيء، فما لهم من وِتر عندهم. ألم أكن فضَّلت هذه المدينة دوماً على كل المدن؟ أوَلم أعتبرها أحبَّ إليّ من مدينة مولدي؟ أوَلم تكن أشواقي المتصلة أن أشخص إليها؟ ألم تكن تلك يميني التي جزمتها أمام الجميع؟

فتنهّد الحبر عندئذٍ وانهلّت مدامعه سخينة، ولم يطق الصمت بعد لأنه رأى احتجاج الملك قد ردّ شكايتنا أعظم جرماً، بيد أنه زفر زفرة عميقة مُرَّة وقال:

نحن نعلم أيها الملك، ولا نُنكر محبتك التي أظهرتها لوطننا وهذا ما يثير عويلنا، لأن الشياطين حسدوا المدينة المحبوبة، فغدونا بلا عرفان جميل لمحسننا، وأغضبنا محبنا العظيم. ألا إنك إن دمَّرت، وان أحرقت، وان قتَّلت، وان فعلت بنا مهما فعلت، لما أنزلت بنا ما نستحق من العقوبة، فنحن قد سبقنا فرمينا بنفوسنا في مهالك أشدَّ من الميتات الجمّة. وأي شيء أمرُّ من أن نسخط ظلماً ذلك المحسن الذي أحبَّنا بهذا المقدار، وأن تُعلم فعلتنا، ويشهر كنودنا المفرط في المسكونة كلِّها؟

فلو ان البرابرة أغاروا على مدينتنا ودكُّوا أسوارها وأحرقوا منازلها وأخذونا أسرى ومضوا لخفَّ علينا المصاب. ولماذا يا ترى؟ لأنّ لنا في حياتك، وبسط عنايتك علينا، رجاءً بالتخلّص من ملمَّات الدهر، واستعادة عزّنا الغابر، والظفر بحرية أكثر سناءً. أمّا الآن وقد حُرمنا عنايتك واطفأنا حُبَّك المتوقّد الذي كان لنا سوراً منيعاً، فإلى من نفزع؟ وكيف نطيق أن نتطلّع إلى ما حوالينا وقد أغضبنا سيداً هذا تنازله وأباً هذه وداعته وحنانه؟ انهم يُقِرُّون بركوبهم ما لا يحتمل، ولقد تعذّبوا عذاباً أشد من كل عذاب، فهم لا يتجاسرون أن يتصفّحوا وجه إنسان، ولا يستطيعون النظر إلى الشمس بعيون طليقة، لأن الخجل يخفض جفونهم ايَّان كانوا، ويضطرّهم إلى التخفّي. وبما ان الثقة قد انتُزعت من نفوسهم فقد صاروا إلى حالة أشقى من حالة الأسرى، يتحمَّلون العار والخزي الأليم، وكلَّما اعتبروا جسامة شرورهم وإلى ما بلغوا من جمح عتوّهم، ضاقت أنفاسهم بسبب انهم استثاروا من جميع أهل الأرض خصوماً أشدَّ هولاً ممن أقدموا على إهانته.

ولكن ان شئت أيها الملك، فان لهذا الجرح شفاءً ولهذه الشرور دواء. وكثيراً ما حدث لبعضهم ان إهانات عظيمة لا تُحتمل، قد آلت إلى عهد مودّة عظيمة. وهذا ما طرأ على طبيعتنا البشرية، فعندما خلق الله الإنسان وأدخله إلى الفردوس وأهَّله لشرف

جزيل ، لم يطق الشيطان هذه السعادة بل نَفِسَهَا عليه وأفقده الميزة التي خُصَّ بها . ولكن الله لم يتخلَّ عنه ، بل عوضاً عن الفردوس قد فتح لنا السماء معلناً رحمته ومعاقباً في الوقت نفسه الشيطان شديد العقاب . ألا فاصنعنَّ كذلك . ان الشياطين قد حرَّكوا الآن كل ساكن رجاء أن يفصلوا عن محبتك أعزّ المدن إليك . فإذ قد علمت ذلك فأنزل بنا القصاص الذي تشاؤه ، إنما لا تُقصنا عن مودَّتك الأولى . وإذا كان لا بُدَّ من الجهر بغريب الأقوال ، فاظهر لنا عناية أوفر الآن ، وسجِّل مدينتنا من جديد في مقدِّمة المدن المحبوبة إليك ، هذا إن شئت أن تدحر الأبالسة الذين كادوا هذه المكايد . وأمَّا إن أبَيت إلا التدمير والتخريب والإتلاف ، فإنما أنت فاعل ما قد تدبَّروه أوَّلاً . لكنَّك ان سرَّيت غضبك وأعلنت أنك تحبُّ المدينة حبَّك لها أولاً ، فانك تطعنهم الطعنة القاضية وتعاقبهم العقاب الذي لا عقاب وراءه ، مُشهداً أنهم لم يغتنموا شيئاً من مكيدتهم وأن الأمر قد وقع على عكس ما شاءت مآربهم . فمن العدل إذن أن تسعى إلى هذه المساعي وترحم المدينة التي لسبب محبتك لها قد حسدها الأبالسة . أجل إنك لو لم تحبَّها غاية المحبة لما حسدها الأبالسة غاية الحسد ، بحيث يصدق القول ولو ظهر بمظهر الغرابة : ان المدينة بسبب حبِّك لاقت ما لاقته .

ما أكثر ما تفوق التدميرَ والحريق شدَّةُ تلك الكلمات التي تفوَّهت بها في محاماتك . لقد قلت انك شُتمت واحتملت ما لم يحتمله يوماً أحد من الملوك الغابرين . ولكن إن شئت أيها الملك الرحيم الرشيد ، الراسخ في تقوى الله ، فهذه الشتيمة نفسها تعصِّبك بإكليل أبهى من زينة التيجان . إنَّ هذا التاج لهو برهان فضلك ، ولكنَّ منه عائدةً لكرامة من وهبك إيَّاه[٤] . وأمَّا الاكليل الذي يضفره لك عطفك على الرعية ومحبتك لها ، فهو مفخرة لك وحدك وعنوان تقواك لا غير . وما عَجَبُ الناس لك من هذه الحجارة الكريمة المزيِّنة تاجك بأكثر من ثنائهم عليك لتساميك عن الغضب . أأسقطوا تماثيلك ؟ ولكن في طاقتك أن ترفع أجمل منها . اضرب عن إساءات المسيئين وجاوز عن عقابهم فيرفعوا لك ليس تمثالاً من النحاس منصوباً في الساحة ، أو نُصُباً من الذهب أو المرمر المجزَّع ، بل تمثالاً مغشًّى بأبهى حُلّة من العطف والرأفة ، ينصبونه لك كلُّ واحد في داخل نفسه ، فتضحي تماثيلك عِدادَ قاطني المسكونة والذين سوف يقطنونها . وليس نحن فقط بل أعقابنا وأعقابُ أعقابنا طرًّا سيسمعون بهذه الأمور ، ومثلما لو انهم تنعَّموا هم أنفسهم بهذا العفو سوف يقضون العجب منك ويحبّونك . ولكي أبرهن أني لا أنطق عن

تملُّق وأنَّ الأمر يتمُّ وَفْق ذلك ، أورد لك كلمة عن القدماء لتعلم ان ليس بالجيوش والعدد والثروات والخَدَم الكثير تقوم عظمة الملوك مثلما تقوم بحكمة النفس وحلمها.

فلقد جاء عن قسطنطين السعيد الذكر أنه لما رُجم تمثاله ذات يوم ، أغراه قوم بالزحف على الباغين والتنكيل بهم قائلين: ان وجهَه قد هُشِّم كله برشق الحجارة ، أمّا هو فجسَّ وجهه بيده وابتسم بلطف قائلاً : «لست أرى من ضربة في جبيني ، فرأسي سالم ، ووجهي معافى ! »(٥) أمَّا أولئك فصبغ الحياء وجوههم ونالهم من الخجل ما جعلهم يُقلعون عن المشورة الجائرة. وإلى الآن لا يزال الجميع يتغنَّون بهذه الكلمة دون أن يذهب الزمان برونقها أو يمحو ذكر تلك الحكمة.

ليت شعري ! كم تفضل هذه الآية المأثورة كلَّ ما غنمه قسطنطين في ساحات الوغى ! فلقد دمَّر مدناً جمَّة وعظيمة ، وانتصر على برابرة كثيرين ، ولكنا لا نذكر شيئاً من ذلك ، في حين أن هذه الكلمة لا تزال أُغنيَّة زماننا ، ولسوف ترنُّ في مسامع بنينا وبني بنينا جميعاً. وليس العجب في سماعهم لها وإنما العجب أن الرّاوين لها يشفعونها بالمديح ، والسامعين لها يتقبّلونها بالثناء. فلا يسمعها سامع ويملك نفسه صامتاً بل يهتف لشدّة سروره فيثني على راويها ويستنزل عليه وعلى ذلك الفقيد الكبير ألوفاً من الخيرات. فاذا كان قسطنطين بهذه الكلمة أحرز ذلك المجد العظيم عند الناس ، فما عساه أحرز من الأكاليل عند الله المحب البشر؟

وما الحاجة إلى ذكر قسطنطين وإيراد أمثلة أخرى ونحن لا نزال في ذكر مفاخرك الشخصية؟ ألا اذكر العام الفائت ، يوم أرسلت بكتابك إلى المسكونة كلها في مثل هذا العيد ، آمراً فيه باطلاق السجناء والصفح عن جرائمهم. ولمَّا لم يكفِ ذلك لإظهار عطفك قلت في ذلك الكتاب : «مَن لي بأن أنادي الموتى فانهضَهم وأعيدَهم إلى حياتهم السالفة ! » ألا فاذكر الآن تلك الكلمات ، فهذا أوان فيه تنادي الموتى فتنهضهم وتعيدهم إلى حياتهم السالفة ، لأن سكان انطاكية قد قضَوا قبل أن يقضى حكمُهم ، وأصبحت المدينة بما انتابها جالسة في أبواب الموت. ألا فارفعها من هنالك بلا مال ولا كُلفة ولا زمان ولا عناء ، حسبُك أن تنطق فتنهضَ تلك المدينة المعفَّرة على وجهها. أعطها منذ الآن أن تشتق اسمها من حلمك ، فانها لن تذكر فضل مُنشئها مثلَ ذكرها فضل الحكم الذي تبرزه فيها ، وذلك بكل حق. فان الذي منحها الوجود مضى لسبيله(٦) ، وأما أنت فإنك بعد نموّها وازدهارها وهبوطها من عزّها الباذخ ، قد رفعتها. وما تخليصك المدينة لو

احتلها الأعداء واجتاحتها البرابرة بأعجب من تخليصك لها الآن ، لأن ذلك الفعل كثيراً ما أتاه كثيرٌ من الملوك ، وأما هذا فأنت الواحد الفرد تأتيه على خلاف منتظر الجميع . فليس من العجب ولا الغريب أن تسير في طليعة جيوش مروَّضة ، فلذلك ما نهضت بأعبائه الملوك. واما أن تتحمَّل هذه الإهانات ثم تكسرَ شِرَّة غضبك ، فهذا ما يفوق كل قُوى الطبيعة البشرية (٧) .

اعلم أنه من الواجب أن تحسب حساباً لا لتلك المدينة فقط ، بل لمجدك وللمسيحية جمعاء. فالآن اليهود ، واليونان ، والمسكونة كلها ، والبرابرة – لأنهم سمعوا بهذه الأمور – هم شاخصون إليك منتظرين ليروا أيَّ حكم تصدر على تلك الحوادث. فان ظهر حكمك بمظهر العطف والحلم ، أثنى الجميع عليه ومجّدوا الله قائلين فيما بينهم : لله ما أقدر الديانة المسيحية ! فلقد ضبطتْ وكبحت رجلاً لا نِدَّ له في الأرض ، له السلطان أن يهلك ويتلف كلَّ شيء ، وعلَّمته أن يتفلسف فلسفة لم يأتِ بها أحد من الناس. فعظيم حقاً إله المسيحيين ، الذي يصوغ من الناس ملائكة يرفعهم فوق مستضعفات الطبيعة !

فلا توجسنَّ خيفة ، ولا تبالينَّ بقول القائلين : ان المدن الأخرى ستركب هواها وتزداد قحة ، إذا لم تعاقب المدينة المتمرّدة. أجل فلو كنت عاجزاً عن الاغارة فغلبوك على أمرك قهراً ، وكانت القوة متكافئة من الطرفين ، لحقَّ لهم أن يخالجهم هذا الوهم. أما وقد ذُعروا وتعجّلتهم المنيَّة من الذعر ، وسقطوا على قدميك بشخصي ، وعادوا لا ينتظرون كل نهار إلا أن يُهبَط بهم إلى الهاوية ، يقيمون الصلوات المشتركة ، ناظرين إلى السماء ومستغيثين بالله ليأتي وينجدهم في الشفاعة ، وكأنّي بهم قد شارفوا الأنفاس الأخيرة فأوصى كلٌّ وصيَّته في أرزاقه ، فبعد كلّ هذا ، كيف لا يكون ذلك الخوف في غير محلِّه؟ فلو أُمِر بنحرهم لما تعذّبوا قدر ما يتعذّبون الآن ، فان لهم أياماً كثيرة يعيشون جملة بوجَل وارتجاف ، إن أتى المساء لا يتوقَّعون رؤية الصباح ، أو طلع الصباح لا يثقون بالوصول إلى المساء. وكثيرون قد افترستهم الوحوش إذ كانوا هائمين في البراري ومتنقّلين في الأماكن المهجورة ، ليس من الرجال فقط ، بل من الصِّبْية الصغار وحرائر النساء الشريفات ، مختبئين أياماً وليالي كثيرة في المغاور والشعاب وكهوف القفر. ولقد ألمَّ بالمدينة صِنفٌ جديد من الأسر ، فالمنازل والأسوار قائمة ، وهم يتألمون أشدَّ من سكان المدن المشتعلة ، ليس من بربري يهاجم ولا عدو يظهر ، وهم أسوأ حالة من المسبيِّين ، حتى لينفرِّ حفيفُ ورقة جمهورَهم كلَّ يوم. ان الجميع عرفوا بهذه الملمّات ، بحيث لو رأوا المدينة مدمَّرة لما

كان لهم عبرة كالآن وهم يسمعون بنكباتها. ولا تظنّنَّ بقيَّة المدن تشتدُّ أيديها. فلو قلبت كل تلك المدن لما رددتها إلى التعقّل كالآن، وقد أدَّبْتهم أشد التأديب بانتظار عقوبات لا يعلمون ما تكون.

فلا تطيلنَّ في بلاياهم بعد، ولكن دعهم يتنفسون، فعقاب الاظنّاء والامتثالُ منهم سهلٌ جداً ومتيسّر لكل أحد، أما الاغضاء عن ذوي الاساءة، والصفح عن الذين أتوا جرماً لا صفح عنه، فيكاد يكون خَلَّة واحدٍ أو اثنين لا غير، ولا سيمَا إذا كان المهان ملكاً. لا أسهل من أن تُخضع المدينة بالخوف والإرهاب، واما أن تُقبِل بالجميع على محبتك، وتقنعهم بأن يثبتوا على موالاة مُلكك، وأن يقيموا لأجل سلطانك الصلوات العامة والخاصة معاً، فذلك أمر عزيز المنال. لو بذلت الأموال الكثيرة وجيَّشت الجيوش العرمرمة وفعلت مهما فعلت، لما تمَّ لك أن تجذُب إليك حُبَّ هذا العدد الكبير من البشر[٨]. وأمّا الآن فالأمر سهل ومتيسّر لك، فإن صنائعك والسامعين بإحسانك إليهم سيؤاتونك ويلتفّون كلُّهم حَولك. فلكم كنت تبذل من الأموال، وكم كنت تبذل من العناء لتكسب في فترة من الزمان حبَّ المسكونة جمعاء، وتحمل جميع البشر، رجال الحاضر والمستقبل، أن يستنزلوا على رأسك البركات التي يستنزلونها لأولادهم أنفسهم؟

وإذا كان هذا جزاؤك عند البشر فاعتبر ما سوف تناله من الأجر عند الله، لا لمفاخر الساعة فقط، بل لما سوف يأتيه أولئك من الفِعال الصالحة. وان اتفق يوماً أن يحدث ما هو حادث، لا سمح الله، وعزم بعض المهانين أن يثأروا من المجرمين، فحلمك وحكمتك يغنيانهم عن كلّ أمثولة وإرشاد، ولسوف يدركهم الحياء والخجل، إن هم ظهروا أحطَّ من مثال الحكمة الذي أمامهم. فتضحي استاذاً لجميع الذين يأتون بعد هذه الحوادث، وتحرز دونهم قصب السبق ولو انهم أدركوا شأو الحكمة[٩]. إذ ليس سواء أن تشرع بالحلم أوّلاً وأن ترى مفاخر الغير فتتلو تلوها[١١]. ولهذا فمهما أظهر الأُلى يأتون بعدك من حكمة ووداعة فانك تنال جزاءك معهم، ومن أعطى الأصول فقد أعطى الثمر. وما لأحدٍ بعدك ان يشاركك الآن في جزاء حلمك، وإنما مفخرتك لك وحدك. أمّا أنت فإن قام بعد هذه من يشبهونك في حلمك، فلك أن تنال معهم قسطاً يساوي فضل الأساتذة على التلاميذ. وهب ان لم يقتدِ بك أحد فتقاريظك ومدائحك لا تزال تؤدَّى إليك على توالي الأجيال.

هلاَّ تفكِّر في خطورة هذا الأمر، ألا وهو أن يسمع الجميع انه فيما كانت المدينة

العظيمة هكذا تحت طائلة القِصاص والعقاب، وقد دبَّ الذعر والوجل إلى قلوب الجميع، القوّادِ والزعماء والقضاة، فليس من يتجرّأ على رفع صوته محاماة عن أولئك الأشقياء، تقدّم خادم الله المتسلم الكهنوت بوضع اليد، ومن أول مقابلة و بمجرّد رؤيته، قد حوَّل فكر الملك، فوهب ذلك الشيخ ما لم يهب لمن دونه من أولياء الأمر، وذلك احتراماً منه لشريعة الله. ان المدينة قد أكرمتك أيها الملك اكراماً جزيلاً إذ أوفدتني مستشفعة بي إليك. فهي تعتقد فيك أحسن الاعتقاد وأجمله، وهو انك تفضّل كهنة الله ولو كانوا محتقرين، على كلّ رعاياك. ولستُ الآن موفداً من قبل أولئك فقط، بل إنما أرسلت لأجلهم من قبل سيد الملائكة المطلق، لكي أخاطب نفسك الحليمة الوديعة بقوله عزَّ وجل: «انكم إن غفرتم للناس زلاّتهم يغفر لكم أبوكم السماوي زلاّتكم» (مت ٦ : ١٤). فتذكَّر ذلك اليوم الذي نؤدّي فيه جميعنا حساباً عن أعمالنا، وفكِّر لعلَّمَا خطئت، ففي وسعك أن تغسل كل هفواتك بالحكم الذي تُصدِرُه، وذلك من دون ما نَصَب ولا إعياء.

إن غيري من الشفعاء يحملون الذهب والفضة وهدايا أخرى أشبه بها. أما أنا فأتقدّم إلى عرشك الملكي بوصايا الله المقدسة، فأبسطها لديك عوض الهدايا جميعها، وأناشدك أن تقتدي بسيّدك الذي كلَّ يوم نهينه فلا يحبس خيراته عن أحد[١١]. فلا تخيِّب آمالنا ولا تذلَّ مواعيدنا. وليكن معلوماً عندك أيها الملك، أنه إن حسن لديك أن تعفو عنا، وتُعيد إلى المدينة مودّتك الأولى، وتزيلَ سخطك هذا العادل، فسأرجع بثقة عظيمة. وإما إن أقصيت المدينة من ذهنك، فلست بعائدٍ ولا مبصرٍ أرضَها، بل سأنكرها بتاتاً، وأسجِّل نفسي في بلدة أخرى، فلا كان لي وطناً ذاك الذي لم تشأ أن تعفو عنه وتصالحه، أنت يا أعطف الناس وأودعهم جميعاً.

فلمَّا فاه بهذه الأقوال وغيرها كثيراً[١٢] أثَّر في الملك شديداً، حتى جرى له ما قد جرى يوماً ليوسف. فكما أن ذاك عند نظره إلى إخوته ودَّ أن يبكي، لكنَّه كتم حزنه لئلاَّ تكشف حيلته، كذلك الملك بكى في نفسه، من غير أن يظهر شيء لدى جميع الحاضرين. على انه لم يستطع كتمان حزنه إلى النهاية، بل عجز مغلوباً. وبعد هذا الخطاب لم يبقَ من حاجة إلى أقوال أخرى، ولكنه فاه بعبارة واحدة شرَّفته أكثر جداً من التاج. وما تلك يا ترى؟ قال: «أمن العجب، وهل في الأمر شيء عظيم أن نصرف غضبنا عن أُناسٍ أهانونا ونحن بشرٌ مثلهم، في حين أنّ سيِّد البرايا جاء على الأرض وصار عبداً لأجلنا، ولما

صلبه الذين تعهدهم باحساناته، طلب إلى أبيه من أجل صالبيه قائلاً: اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يعملون (لوقا ٢٣: ٣٤). إذن فما العجب إن نحن غفرنا لشركائنا في العبودية؟»

أمَّا كونُ هذه الكلمات ليست رياءً، فيشهد بذلك كلُّ ما جرى من الحوادث، وما هذه الحادثة التي أرويها لكم بأقلّها شأناً. إن الحبر إذ كان يرغب في أن يحتفل بالعيد هنالك مشتركاً مع الملك، فهو قد ألزمه جبراً أن يبادر ويسرع ليظهر بين مواطنيه قائلاً: «إني أعلم أنّ نفوسهم مضطربة الآن، فآثار تلك الكارثة لا تزال عميقة فيها، فاذهب وعزِّهم. انهم متى رأوا القُبطان لا تعاودهم ذكرى الزوبعة السالفة، بل يمحون كلَّ ذكر لتلك الحوادث المحزنة.» ولمَّا كان الحبر يستحسن أن يرسل إلينا ابنه ويحثّه على ذلك، فلكي يوضح بجلاء أنه أزال من نفسه كل غضب، أجابه قائلاً: «صلُّوا لكي ترفع تلك الموانع وتخمد هذه الحروب، وأنا بنفسي آتي إليكم بلا ريب.» فهل وُجد نفسٌ أحلم من تلك النفس! ألا فليخزَ الوثنيون! ولكن لا، بل فليتّعظوا بهَجر ضلالهم والإذعان لقوة الديانة المسيحية، مرتشدين في حكمتنا من مَثَل الملك والأسقف[١٣].

وان الملك المحبوب إلى الله لم يقف عند هذا الحدّ، فما برح الحبر المدينةَ ونزل في البحر حتى أنفذ رسلاً من هنالك، مهتمًّا أن لا يفوت الزمان فينقصُ سرورُ المدينة إذا احتُفل الحبر بالعيد في الغربة. ألا أيُّ أب عطوف كان يشمل شاتميه بمثل هذه العناية؟ وهل أُنوِّه بمديح آخر لحبرنا الأبرّ؟ انه بعدما قضى هذه الأوطار، لم يسرع هو بحمل تلك الرسائل الجالية الغمّ عنا، كما كان فعل غيره من محبي المجد، ولكنه إذ كان يسير ببطء، قد استصوب أنَّ أحد الخبراء بركوب الجياد يسبق حاملاً البشائر إلى المدينة مخافة أنَّه بتأخُّره يطيل فشلهم، لأنّ مَرامَه الوحيد كان لا أن يرجع هو بنفسه حاملاً هذه البشائر الفائضة بالفرح الغزير، بل أن يفرج عن وطننا سريعاً.

فما فعلتموه حين بلغتكم البشائر، بتزيينكم الشوارع بالأكاليل، وأنارتكم المصابيح، وعقدكم الأغصان أمام المنازل، معيدين كأنَّ المدينة وُلِدت حديثاً، فهذا افعلوه على الدوام وبطريقة أخرى، مكلّلين لا بالزهور بل بالفضيلة، ومضيئين نفوسكم بالنور الفائض من الأعمال الصالحة، ومسرورين سروراً روحيًّا. ولنبقَ شاكرين لله بلا انقطاع على كل هذه الأمور، لا لأنه قشَّع مصائبنا فحسب، بل فلنشكره لأنه أذِنَ بحدوثها. فان مدينتنا قد شرفت في كلتا الحالتين. ألا «اخبروا بنيكم بهذه جميعها وليُخبرْ بنوكم بنيهم وبنوهم الجيل الآخر» (يؤ ١: ٣) حسب المقال النبوي، لكي يعرف الجميع إلى منتهى

الدهر محبة الله لمدينتنا ، فيغبطوننا نحن المستمتعين بهذه المودّة ، ويعجبوا من مولانا الذي أنهض المدينة بعد سقوطها على هذا المنوال ، ويستفيدوا هم أيضاً بدافع تلك الحوادث حَذَراً. أجل ان رواية هذه الحوادث يمكن أن تعود بالفائدة الكبرى لا علينا فقط ، إن تذكّرناها بلا انقطاع ، بل على الذين يأتون بعدنا أيضاً. وما دمنا في اعتبارها كلها ، فلنشكرنَّ الله المحب البشر أبداً لا في انفراج المِحَن فحسب ، بل عندما يأذن بحلول الشدّة أيضاً ، عالمين من الكتب الإلهيَّة ومما جرى لنا أن الله يدبّر دائماً كلّ شيء على حسب ما يوافقنا ، بموجب محبته اللائقة به ، التي نرجو أن نتنعَّم بها على الدوام ، وأن ننال ملكوت السماوات بيسوع المسيح ربنا ، الذي له المجد والعزّة إلى دهر الدهور آمين.

الأب ايزيدور أبو حنا
المخلصي
الرسالة المخلصيّة – ١٩٣٨

الحواشي

(١) أعني أفاتحكم. وهذا الأسلوب التفخيمي في تعيين الأشخاص بصفات تجريديَّة قد نبت في قصور القياصرة الشرقيين، وانبث في حضارة الأمم كلها. فكأنَّ الخيال الشرقي يستصغر كل قريب معيَّن ويستعظم كلَّ بعيد مستترّ.

(٢) نعلم من العظة الثالثة التي أُلقيت في الأحد السابع قبل الفصح، أعني ثمانية أو عشرة أيام بعد حدوث الثورة أن فلابيانوس قد سافر إلى القسطنطينية. وفي العظة العشرين الملقاة عشرة أيام قبل الفصح، أن الأسقف لم يكن وصل بعد ولكن البشائر لاحت بخلاص المدينة. فيكون وصول الأسقف على ما يؤخذ من قول الذهبي الفم هنا، في الأسبوع العظيم، أي نحو أربعين يوماً بعد ذهابه.

(٣) ما زال عيد الفصح مطلع أُبَّهة واحتفال في الشرق والغرب، حتى ليسمّيه الدمشقي في أناشيده الفصحية «عيد الأعياد وحفلة الحفلات» ولكن أموراً كثيرة كانت تجعله أوفر أُبَّهة في العصور الأولى للنصرانية. منها تعميد الموعوظين وحلُّ التائبين المشتهرين. كل هذه كانت تستلزم حضور الأسقف في كنيسته.

(٤) وُلد ثيودوسيوس الكبير (٣٤٦ - ٣٩٥) في مدينة كوسة من اسبانية. وكان رجل بأس ودُربة في الفنون العسكرية فأشركه العاهل غراسيان في الملك سنة ٣٧٩ فحارب شراذم البربر وكسرهم وضرب عليهم الجزية. وما فتئ يُغير على الخوارج ويشتدُّ سلطانه حتى ظفر بكل أعداء المملكة وأردى مكسيموس قاتل غراسيان صاحب نعمته، فاستقلت له أزمَّة الملك شرقاً وغرباً. وكان ملكاً تقيًّا حكيماً فاضلاً. ولقد أجمل وصفه القديس امبروسيوس في رسالة أنفذها إليه بعد مجزرة تسالونيكية، قال: «انك غيور على الإيمان، خائف الله، ولكنك ذو مزاج حادّ تندفع إلى الرحمة إن أُردت إليها، وتتجاوز كل حدّ إن أُثير غضبك».

(٥) ذلك جواب سديد يدُلُّ على شمَم النفس وكرم المحتد، وأنّه لجديرٌ بأبي الملوك المسيحيين. فكأن ابن هيلانة نسر عظيم سابحٌ بين أمواج الفضاء النورانية، فلا يهمُّه وَقَع ظلُّه فوق الدمن أو على الخمائل الزاهرة. وحياة قسطنطين مشحونة بمثل هذه العواطف البطلية. وأجمل من هذا جوابُه لأحد الأساقفة المتودّدين وكان قال له: «انه لسعيد أن يكون قيصر الدنيا، وان يملك مع ابن الله في الأبديَّة» فقاطعه: «بل صلِّ يا أبتِ إلى الله ليقبلني بين خدَّامه في هذه الحياة وفي الأخرى!».

(٦) أنشأ مدينة انطاكية سلوقس نيكانور قائد الاسكندر، ذكراً لانتصار حازه في موقعة إِبْسُوس من أعمال فريجية، ودعاها باسم والده انطيوخوس وقد بلغت من العزّ وتقدّم العمران ما جعلها عروس الشرق ومطمح أبصار الأمم. أمَّا اليوم فهي جالسة كالأرملة الثاكل تبكي ولائدها وتندب غابر عزّها!

(٧) هذا معنى قول الكتاب المقدس «الطويل الأناة خيرٌ من الجبّار، والذي يسود على روحه أفضل ممن يأخذ المدن» (ام ١٦ : ٣٢) ذلك أن الذي يتصرَّف بحلم ينبىء عن مقدرة وسلطان في العقل، ورحابة في الصدر، وانتظام في الأخلاق. أما الغَضوب فانه مهدَّم الأركان، فَشِل العزائم، مشتّت الأهواء.

وما أحسن ما قال الشاعر العربي:

لا يحملُ الحقد مَن تعلو به الرُّتَبُ ولا ينال العلى من طبعه الغضبُ

ومن هذه البلاغة ما جاء بين حكم الشاعر اللاتيني هوراس:

«إنما الغضبُ جنونٌ قصير: Ira furor brevis est»

(٨) ان هذه الفكرة لشديدة التأثير على القلوب. وكأن الملوك والفاتحين لا يفتتحون البلاد والمدائن إلا ليجعلوها وسائط لافتتاح النفوس البشرية. يحكى عن الاسكندر بينما هو زاحف على بلاد فارس، انه كان يقطع أحد الأنهر، فغرق في الوحل إلى وسطه، فنظر عندئذٍ إلى جهة أثينا وصاح متأوِّهاً: «ألا فلينظر الاثينيون كم يقاسي الاسكندر من المصاعب ليستحقّ محبتهم!»

(٩) قد نظم المرحوم شوقي بك هذا المعنى فقال:

والمجد في الدنيا لأوّلِ مُبتنٍ ولمن يشيد بعده فيطيلُ

(١٠) أخذ بعض النقّاد بحق على الخطيب أنّه نسي فكرته السابقة، إذ أهاب بالملك ثيودوسيوس أن يتمثّل بحكم قسطنطين وعفوه. وربما اندفع الذهبي الفم بقوّة بداهته وسرعة خاطره، وتدفّقت سيول فصاحتهِ تدفّق النهر المتحدّر في استدارة περίοδος واسعة الأطراف، بارزة التصوير، خصيبة المعاني، بتراكيب منسجمة وبيان ناصع ومنطق خلاّب، وتبسّط واسترسل في اللفّ والدّوَران فأبقى الفعل إلى مقطع العبارة، فإذا انتهى نسي نفسه وترك العبارة بلا فعل يربط أحداثها وظروفها بفاعلها كما يقول العلاّمة فوتيوس.

ولكن لا ينسَ القرّاء أن كلّ ما نملكه من آثار الذهبي الفم، ما عدا كهنوته ورسائله وبعض مقالات نسكيّة، هو من مبتدهات خاطره. وقد نخلوا الإنسان من الأعذار في نسيانه ما سوّل للنابغة المرحوم فوزي المعلوف أن يشتق اشتقاقه اللطيف في ملحمته «على بساط الريح»:

ما دعوه الإنسانَ من أُنسه لكن دعوه الإنسان من نِسيانه

(١١) ما أشد السلطان الذي توليه الآداب المسيحية لخطبائها! فلقد دخل الأسقف القصر الملكي خجلاً، وجلاً مترجياً، دامع المقلتين. فاذا به يبرز أمام الملك وبين يديه وصايا السيد المسيح فيطمئنُّ ويتشدّد، وإذا به يذكّر ويحرّض، وأقواله مملوءة عظمة ومهابة. وهذا فضل الآباء القديسين على خطباء الوثنية، ان فصاحتهم عظيمة بعظمة الله الذي يخاطبون الشعوب عن كمالاته واحساناته، وسامية بسموِّ الوحي الصادق الذي يستشهدون بآياته. وان لفَرقاً عظيماً تحسُّه القلوب البشرية بينا أن تقرأ خطيب الوثنية يدافع بالملاحاة والمهاترة، عن اكليل ذهبي استحقه، وأن تقرأ خطيب النصرانية ينضح عن مدينة خاطئة بهذه العظمة والأدب السنيّ.

ولئن صحّ ما قاله النقّادة الفرنسي لاهرب من ان دموستين هو خطيب العقل البشري، فالذهبي الفم هو خطيب القلب البشري ويقول في هذا البيانيُّ اللاتيني كونتليان: «ان القلبَ لهو منشئُ الخطباء» *، وشرح الكاتب الفرنسي هذه الفكرة فقال: «ان الأفكار العظيمة تصدر من القلب» ** ذلك «ان القلبَ بابُ العقل» كما يقول العرب. وان الذهبي الفم لهو، في تحفته هذه، خطيب القلب والعقل معاً. ولدينا فيها شواهد كافية لاثبات هذه القضية. فخطيب النصرانية هنا شاعر رقيق، وصّاف من أكابر الشعراء، وفيلسوف دقيق، غوّاص على معاني النفس البشريَّة، صادق الفراسة بما في ضمائرها من نَزَعات متعرِّجة وأهواء متموِّجة. ومحامٍ ثاقب الذهن بصيرٌ بمواضع الحقّ واستنباط الأدلّة. وما أخطأ الرأي مَن قال: لو لم يخلّف الذهبيّ الفم في عالم الخطابة إلاّ هذه الطرفة، لكفته أن يكون خطيباً من أعاظم الخطباء! ولكنّ عنده، لو تعلم، غيرها طُرف كثيرة.

(١٢) نستدلّ من هذه العبارة على أن الخطيب اختصر خطاب الأسقف، وأنه لم يُلقِه بالحرف الواحد. وقائلٍ يقول: كيف استطاع القديس فلابيانوس أن ينطق بهذه اللهجة السامية، ولم يحفظ لنا التاريخ عنه شيئاً من

* «Pectus est quod disertos facit»

** «Les grandes pensées viennent du cœur»

قوّة البيان؟ فندع الجواب في ذلك للخطيب الفرنسي، الأب لاكوردير، الذي يقول في رسائله على الكرسي الرسولي: «ان الفصاحة وليدة الهوى. أُخلُق في النفس هوى، فتفيض الفصاحة منها أمواجاً زخّارة. ان الفصاحة لصدًى ترجعه نفس ثائرة مستهواة. ولهذا في اهتزازات الشعوب العامة وتنازعها حِيال أغراض عظيمة، يقوم الخطباء حشداً كبيراً. ومن افتُتِنَ يوماً جنانه بأمر من الأمور، فلا ريب انه ملك عنان الفصاحة ولو مرة واحدة.»

ومن يدري أي الأفكار والأهواء كانت تجول وتعصف في صدر فلابيانوس وهو يقطع شُقّة الطريق إلى العاصمة، ونفسه قلقة متموجة يتنازعها ذكر الشقيقة، وخلاص الرعية، وانقاذ الوطن، وعار الخيبة إن عاد بالحرمان؟ وان للبساطة نزوات ومفاجآت هي من السحر الحلال. فقد كان يوماً كاهن يعظ على ذبيحة ابراهيم لابنه اسحق، فأجابته امرأة من بين الجمع: «ما كان الله ليأمر أمًّا بهذه الذبيحة!» فمن ينكر ان هذا الجواب هو من عيون الفصاحة؟ هذا ولا ننكر أن خطاب الأسقف قد احتوته فصاحة كاهنه السنيَّة.

(١٣) الجملة الأولى تُفصح عن شعور بشري، وما يُستدرك بعدها إنما هو شاعرة مسيحية بحتة. وهذا الاستدراك جميل مُستلزم في خطيب يعظ بمن قال: «اني لا أشآء موت الخاطئ بل أن يرجع ويحيا» وهذا برهان على تؤدة الخطيب ولين عبقريته حتى في تحمُّسه واستبحاره، على ما يصفه أحد المؤرخين «شديد الغيرة حتى الخشونة، حادّ الطبع، مائلاً إلى الشدّة أكثر منه إلى الاعتدال، صريح القول لا يرمي في مواعظه إلا إلى فائدة سامعيه، فمن يستقبله على غير تعارف سابق كان يتأبّى شدّته».

ولعل الذهبي الفم قبل استدراكه لمح، بين الجموع المتألبة حول منبره، بعضاً من الوثنيين الذين كانوا يتقاطرون لاستماع فصاحته، كما كان استاذه الوثني لبانيوس يقصد أندية القضاء ليشهد دفاع تلميذه المسيحي، ولم يكن محذوراً عليهم دخول الكنائس في بعض الأحايين، كما نعلم من خطابه السادس عشر إلى أهل انطاكية.

فهرس

ظهر للأرشمندريت الياس كويتر المخلصي:

١	–	**جذوة تنطفي** – حياة الأب اسكندر نمر المخلصي	المطبعة المخلصية – ١٩٦٤
٢	–	**وجه حبيب يتوارى** – حياة الأخ جوزف ابو رجيلي	المطبعة المخلصية – ١٩٧١
٣	–	**حياة جورج رفله دبانة**	المطبعة البولسيّة – ١٩٧٢
٤	–	**سيرة الاب بشارة ابو مراد المخلصي**	المطبعة البولسيّة – ١٩٧٩
٥	–	**السنكسار الرهباني المخلصي**	المطبعة البولسيّة – ١٩٨٢
٦	–	**هؤلاء هم آباؤنا المخلصيّون**	المطبعة البولسيّة – ١٩٨٤
٧	–	**مراقي العمل الرهباني**	المطبعة البولسيّة – ١٩٨٥
٨	–	**إنجيلك نور لحياتي** (ثلاثة اجزاء)	المطبعة البولسيّة – ١٩٨٦
٩	–	**الآباء المخلصيون، رسل في الوطن والمهجر**	المطبعة البولسيّة – ١٩٨٧
١٠	–	**كنيسة الشهداء** – سلسلة «إيمان وحياة»	دمشق ١٩٨٣
١١	–	**القديس أثناسيوس الكبير** – سلسلة «إيمان وحياة»	دمشق ١٩٨٥
١٢	–	**حياة ومواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم** سلسلة «الفكر المسيحي بين الأمس واليوم»	المكتبة البولسيّة – ١٩٨٨
١٣	–	**حياة ومواعظ القديس باسيليوس الكبير** سلسلة «الفكر المسيحي بين الأمس واليوم»	المكتبة البولسيّة – ١٩٨٩
١٤	–	**ملكيّات، متعبّدات ثم مرسلات** (تاريخ الراهبات المخلصيّات)	تحت الطبع
١٥	–	**اسقف ملكي مرَّ في الشرق كالبرق**	المطبعة البولسيّة – ١٩٨٨

تطلب هذه الكتب من المكتبة البولسية

جونيه – ٩١١٥٦١

بيروت – ٤٤٤٩٧٣



سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

تضمّ هذه السلسلة مجموعة من المؤلفات القديمة والحديثة، التي تبحث في مختلف أبعاد الإيمان المسيحي، وتفسّر مختلف مواضيع العقيدة المسيحية تفسيرًا يتلاءم ومقتضيات العصر ويجيب على الأسئلة التي طرحها الفكر الانساني على مدى العصور. وتجمع هذه السلسلة كتبًا مؤلفة مباشرة باللغة العربية، وكتبًا مترجمة من مؤلفات كبار المفكرين واللاهوتيين القدماء والمعاصرين.

في السلسلة:

١ – الأب أغناطيوس ديك: **الله حياتنا.**

٢ – الأب سليم بسترس: **اللاهوت المسيحيّ والإنسان المعاصر.**
الجزء ١: (الله الخالق – الشرّ والخطيئة الأصليّة – يسوع المسيح).

٣ – **الجزء ٢**: (الروح القدس – النعمة – الكنيسة).

٤ – **الجزء ٣**: (الأسرار – الحياة الأبديّة).

٥ – القدّيس يوحنا الدمشقي: **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ.** عرَّبه عن النص اليونانيّ الأرشمندريت أدريانوس شكور، ق.ب.

٦ – الإكسرخوس جوزف نصرالله: **«منصور بنُ سرجون» المعروف بالقدّيس يوحنا الدمشقيّ: عصره، حياته، مؤلفاته.** عرَّبه بتصرّف عن النص الفرنسيّ الأرشمندريت أنطون هبّي.

٧ – ج.–م.–ر. تيّار: **أسقف رومة.** نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام البولسيّ.

٨ – بولس أفدوكيموف: **الروح القدس في التراث الأرثوذكسيّ.** عرَّبه عن النص الفرنسيّ المطران الياس نجمه، رئيس أساقفة طرابلس.

٩ – **سفر المحبة.** نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام البولسيّ.
الجزء ١: الفاتيكان – الفنار (١٩٥٨ – ١٩٧٠).

١٠ – **الجزء ٢**: الفاتيكان – الفنار (١٩٧١ –).

١١ – **خطيب الكنيسة الأعظم، القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم**: حياته وبعضٌ من مواعظه، ترجمها آباء مخلصيّون. عُني بكتابته وجمعه وتنظيمه الأب الياس كويتر المخلصي.


منشورات المكتبة البولسية

